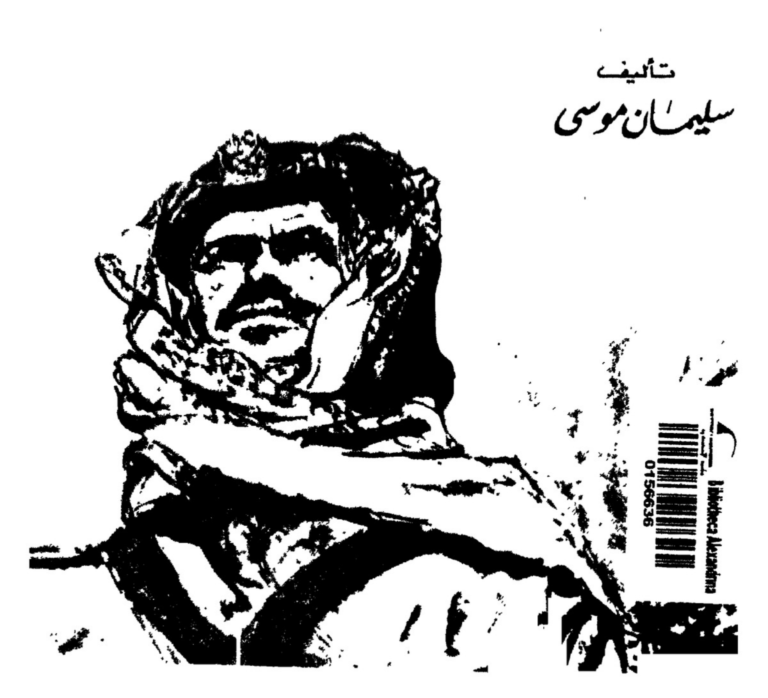
أيام لا تنسى

الأردن في حرب ١٩٤٨

تأليف

سليمان موسى





أيام لا تُنسى

الأردن في حرب ١٩٤٨

أيام لا تُنسى

الأردن في حرب ١٩٤٨

تأليف

سليمان موسى

عمان ـــ الأردن

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٧/١٠/١٥٢٧)

رقـــــم التصيـــــف : ٥ر٩٥٦

المؤلف ومن هو في حكمه : سليمان موسى .

عنـــوان الكتـــاب : ايام لا تُنسى :الأردن في حرب ١٩٤٨ ط٢

الموضـــوع الـــرئيسي : ١- التاريخ

٢- الأردن - التاريخ

بيـــانـــات النشـــر :

*- تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى : تشرين الأول ١٩٨٢

الطبعة الثانية : تشرين الأول ١٩٩٧ (منقحة ومزيد عليها)

مطابع القوات المسلحة الأردنية



الملك عبد الله

المحتويات

صفحة

الملاحـــق

مقدمـــــة

تميزت حرب ١٩٤٨ بأهمية خاصة بين الحروب التي دارت بين العرب والاسرائليين. ذلك ان التكافؤ بين قوات الطرفين وظروف الشعبين، كان يومذاك أفضل وأقرب مما كان في الحروب التي نشبت بعد ذلك. ثم ان الفرص التي كانت متاحة للعرب في تلك الحرب، للتوصل إلى حل ملائم نسبيا ــ اما على المستوى العسكري او على الصعيد السياسي ـ كانت أفضل من الفرص التي أتيحت لهم في الحروب الأخرى. وفضلا عن ذلك تميزت تلك الحرب بطول المدة الزمنية التي توافرت قبلها للاستعداد والحشد ووضع الخطط والترتيبات، بينما تميزت حروب ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ بأنها كانت مفاجئة وسريعة وقصيرة.

نشرت عن تلك الحرب من الجانب العربي كتابات ومؤلفات، ولكنها اقل بكثير مما نشر في الجانب الآخر. وفيما يتعلق بمجهود كل دولة من الدول العربية في تلك الحرب، نرى نقصا واضحا في إيراد التفاصيل التي تساعد على تكوين صورة شاملة للجهد العربي كله. وفي حدود علمي فإن المعلومات التي نشرت عن المجهود العراقي في تلك الحرب، أفضل وأوسع من المعلومات التي نشرت عن مجهود الدول العربية الأخرى. فقد كان العراق الدولة العربية الوحيدة التي ألفت لجنة نيابية للتحقيق في أسباب إخفاق العرب في تلك الحرب. ولكن تبقى هناك أسئلة لم يجب عليها أحد اجابة شافية حتى الان : فلماذا أخفق الجيش العراقي أمام جيشر وكوكب الهوى؟ هل كان ذلك لنقص في عَدده وعُدده، أم لأن قيادته أخفقت في وضع خطة محكمة للمعركة؟ ثم لماذا ارتد السوريون عن دجانيا وسمخ؟ وهل صحيح ما يقوله دايان (في كتابه عن سيرة حياته) من ان القوات السوريه تراجعت أمام قوة صغيرة وبمجرد أن أطلق اليهود عليها عددا من قنابل المدفعية؟ لقد كان إخفاق العراقيين والسوريين في الأيام العشرة الأولى مؤشراً ذا دلالة مهمة جديرة بأن تستخلص منها العبر والدروس.

وفيما أعلم لم تجب الكتب والتقارير والبيانات على السؤال التالي اجابة شافية: لماذا لم تحشد الدول العربية قوات كافية منذ اليوم الأول للحرب؟ لماذا بدأ العراق بـ ١٥٠٠ جندي (أو ٣٠٠٠ أو ٦٠٠٠) وانتهى في آذار ١٩٤٩ بـ ١٩ ألف جندي؟ هل كانت حكومة العراق تستطيع حشد ١٩ ألف جندي في ١٥ أيار؟ أقول هذا لان ضباطاً عراقيين (من بينهم عبد الكريم قاسم) كانوا يصرحون لبعض الضباط الأردنيين منذ عام ١٩٤٨، بأن حكومة العراق لم ترسل كل القوات المتوافرة لديها منذ اليوم الأول للحرب. لقد امتلأت نفوس هؤلاء بالحقد والضغينة منذ تلك الايام ــ لإقتناعهم بأن حكومة بلادهم قصرت (والتقصير أخف التهم) في العمل على احراز النصر وقهر العدو.

وتبادر إلى ذهني أن الفريق صالح صائب الجبوري رئيس أركان الجيش العراقي في أيام الحرب، يستطيع أن يجيب على هذا السؤال. ولكن إجابته لم تكن شافية، ربما لانني لم أطرح السؤال بصيغة اكثر وضوحا. كانت خلاصة إجابته:

١ – دخل الجيش العراقي الحرب بأكبر قوة عسكرية من بين الجيوش العربية مجتمعة (أي ٦٣٠٠ ضابط وجندي. على حد قوله في كتابه).

٢ – بعد وصول القوة الأولى إلى فلسطين شرعنا بإمدادها بما تيسر جمعه من القوات الموجودة في الموصل والبصرة وجلولاء والمسيب والديوانية وسائر أنحاء العراق حتى بلغت أوجها، بالاضافة إلى فوجين من الشرطة، بحيث لم تبق في العراق أية قوة محاربة...

هذا القول ــ كما يبدو لي ــ صحيح وغير صحيح: صحيح من ناحية العدد الذي حشده العراق في أراضي الأردن ، ولكنه غير صحيح من ناحية القوة الفعلية التي اشتبكت مع العدو في فترة ١٥– ٣٠ أيار. وما هي فائدة وجود ٦٠٠٠ جندي اذا لم تستطع القيادة أن تهاجم موقع جيشر وقرية كوكب الهوى بأكثر من ألف جندي؟ إننا نجد الفرق الكبير بين حجم القوات العراقية التي اشتبكت هنا فعلاً مع العدو، وحجم القوات الأردنية التي كانت تشتبك مع العدو في القدس واللطرون والمنطقة الواقعة بينهما.

لم يكن جواب الجبوري شافياً من حيث أنه لم يقل أنه كانت لدى العراق، او لم تكن، قوات أخرى مستعدة للقتال غير تلك التي أرسلها في اليوم الأول من الحرب.

في اعتقادي أنه لم يكن لدى العراق، وغيره من الدول العربية، يوم ١٥ أيار، قوات عسكرية جاهزة للدخول في القتال، غير تلك التي أرسلتها إلى فلسطين. بمعنى أوضح: أن الدول العربية أرسلت ما كان متوافراً لديها، ولم تكن لديها قوات أخرى مستعدة للقتال واحتجزتها عن سابق عمد وتصميم. كان هناك تقصير وسوء تقدير على المستويين المدني و العسكري، ولم تكن هناك خيانة.

من الأمور الملفتة للنظر، والتي تؤلف بحد ذاتها سبباً من أسباب اخفاقنا، اننا لا نجد بين أيدينا كتابات تعبر عن وجهة نظر أولئك السادة الذين تحملوا المسؤولية السياسية والعسكرية في تلك الحرب. فأين ما بقي لنا من وجهة نظر فاروق والنقراشي وعبد الاله والقوتلي ومردم ورياض الصلح وتوفيق ابو الهدى ومحمد الصدر والباجچي وعبدالرحمن عزام ـ من السياسيين؟ وأين ما بقي لنا من وجهة نظر محمد حيدر والمواوي وعبد الله عطفه ونور الدين محمود وعبد القادر الجندي من العسكريين؟ كان الملك عبد الله ـ فيما أعرف ـ هو الوحيد بين رؤساء الدول العربية، الذي كتب عن تلك الحرب وبين وجهة نظره في أسبابها وكيفية سيرها ونتائجها. اما توفيق أبو الهدى، فقد أُتلفت أوراقه بعد وفاته. وفي ذلك خسارة كبيرة.

ومع أن ما نشر عن مجهود الأردن ووجهة نظره، في تلك الحرب، أفضل مما نشر عن مجهود مصر وسوريا ولبنان، الا انه في مجموعه لا يعطي التفاصيل الكافية ولا يضع النقاط على الحروف في قضايا عديده. فكتابات الملك عبد الله موجزة، وجلوب أوضح أموراً وأغفل أخرى. ثم ان جلوب بريطاني، وكثيرون من العرب لايثقون به كل الثقة. أما محمود الروسان فقد كتب عن جهد كتيبة واحدة (الكتيبة الرابعة) بينما كتب عبد الله التل عن الكتيبة السادسة وعن الجيش من وجهة نظر سياسية كان يحملها وهو في مصر.

ومع مضي السنين، تبادر لي أن هناك حاجة ملحّة لكتاب عن دور الأردن في حرب ١٩٤٨، يتناول الجانب التاريخي السياسي من جهة ، ويعطي تفاصيل الحركات العسكرية التي قام بها الجيش العربي من جهة ثانية. والحقيقة انني بتّ مقتنعاً أن هذا الكتاب يدخل في نطاق الضرورة والواجب، بل بتّ مقتنعاً أن كتابته أشبه ما تكون بالإجابة على تحد قائم، بعد أن لمست ما لمست من مفاهيم خاطئة تسربت إلى أذهان كثيرين بفعل الظروف التي أحاطت بإخفاق العرب في فلسطين. وكان الأمر يهون لو أن تلك المفاهيم الخاطئة اقتصرت على الجهلة البسطاء، ولكنها ـ مع الأسف ـ وجدت سبيلها إلى أذهان أشخاص يعتبرهم الناس علماء (بحكم الشهادات التي يحملونها) لايكتبون إلا عن علم ومعرفة وبعد بحث وتمحيص. ومع أن الأمثلة التي يمكن ان أدلل بها على جهل بعض من يدعون العلم كثيرة، الا انني سأكتفي بذكر مثل واحد يعطي فكرة واضحة على أن الشهادة والمنصب التدريسي ليستا ضمانتين كافيتين للمصداقية والثقة. فليس كل من حمل شهادة عالماً أو مثقفاً. ثم إن الخطر يكمن في اولئك الذين يتخصص أحدهم في دراسة موضوع معين، وقد يحيط به ويصبح عالما فيه، ولكن الغرور يركبه فيتصور انه يستطيع أن يكون عالماً في موضوعات أخرى لم تدخل أصلاً في اختصاصه. وهنا يكمن الخطر الذي أشرت اليه، وحبذا لو ان أمثال هؤلاء تذكروا قول أبي نواس:

فقل لمن يدعي في العلم معرفة . عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

والمثل الذي أود الاشارة اليه هو ما ورد في رسالة نشرتها جريدة التايمس اللندنية (٢٧حزيران ١٩٧٨) تحت اسم " البروفسور" موسى مزاوي، يقول فيها: ان القوات البريطانية عندما انسحبت من فلسطين في أيار ١٩٤٨، تركت وراءها في مواقع استراتيجية جيش الملك عبد الله، ذلك الجيش الذي منع الجيوش العربية الأخرى من دخول فلسطين، وسلم بصورة منتظمة مساحات كبيرة من الأرض إلى الدولة اليهودية، دون أن يطلق في أحيان عديدة طلقة واحدة... .

وقد رددت على هذا الافك والبهتان النابع من الجهل المطبق، في جريدة

التايمس نفسها (٢١ تموز ١٩٧٨). ولكنني شعرت أكثر من أي وقت مضى بضرورة الانكباب على تأليف كتاب يضع الحقائق أمام القراء، الحقائق التي كانت عناصرها الأساسية موجودة بطبيعة الحال في مصادر كثيرة (لو أن البروفسور الضليع وأمثاله كلفوا انفسهم بالاطلاع عليها). ولا أريد أن أكرر ما جاء في الرد الذي نشرته جريدة التايمس، ولكنني لفت نظره إلى أن أبسط مبادئ مسؤوليات اللقب الذي يحمله تقضي عليه أن يطلع على الحقائق من مضانها حتى لا يهرف بما لا يعرف شأن الدهماء، وأن يخجل من دماء رجال الجيش الأردني التي بللوا بها تراب فلسطين، وأن لا يحاول التعويض عن اخفاقه في خوض معركة الجهاد، عن طريق القاء الاتهامات الباطلة خبط عشواء. ثم مضيت إلى القول «كثيرون من العرب وجدوا وما زالوا يجدون من السهل عليهم القاء اللوم في النكسات التي أصابتنا على عواتق الآخرين من أبناء بلادهم. ان المسؤولية تقع على عاتق العرب جميعاً، بدرجات. كلنا نشترك في تحمل المسؤولية بمن فيهم انا والمزاوي. فعندما نلوم بريطانيا وأمريكا والزعماء العرب ـ فعلينا أن لا ننسى أنفسنا والملايين الأخرى من الرجال والنساء الذين اختاروا ان يظلوا متفرجين ولم يساهموا في القتال ألفعلي».

إن تحديد المسؤولية في إخفاق العرب، هو ـ كما يبدو لي ـ أهم ما يشغل بال الانسان العربي الذي يستعيد في ذهنه سلسلة الأحداث منذ بدء الغزوة الصهيونية الحديثة لفلسطين. ويبدو لي انه يمكن توزيع عناصر المسؤولية على النحو التالي:

اولا: هناك مسؤولية بريطانيا التي ظلت ثلاثين عاما ترعى هجرة اليهود وتمهد لهم على أرض فلَسطين، بجميع الوسائل المادية والمعنوية، حتى اذا انتهى الانتداب كانوا قد أسسوا جهاز حكومة له جميع المقومات من مؤسسات وجيش وتنظيم وسلاح وادارة ومال. وفي نفس الوقت ظلت تضرب عرب فلسطين بالحديد والنار وتعمل على سحق مشاعرهم الوطنية وعلى تفتيت جهودهم وحرمانهم من أية فرصة لتنظيم أنفسهم. ثم أخيراً تخلت عن مسؤولياتها وتركت فلسطين في غمار الفوضى. حقا لقد كان دور بريطانيا في مأساة فلسطين أسوأ الأدوار، وهو أشد صفحات تاريخها الاستعماري سواداً. (١)

ثانيا: هناك مسؤولية أمريكا التي أخذت تناصر اليهود سياسياً منذ البداية، والتي كان لضغوطها الأثر الأكبر في إقرار مشروع التقسيم. وقد تحملت أمريكا مسؤولية أدبية كبيرة في أنها استمرت في تقديم الدعم لليهود بعد أن خرقوا الهدنة الثانية عامدين متعمدين واستولوا على أراض جديدة، ثم فرضوا شروطهم، وخالفوا وجهة نظر الحكومة الامريكية التي كانت يومذاك تقول أنه لا يحق لاسرائيل أن تستولي على الأراضي التي خصصها لها قرار التقسيم (استناداً على ذلك القرار) وفي الوقت نفسه على الأراضي المخصصة للعرب (بحجة الفتح العسكري).

ثالثا: هناك مسؤولية عرب فلسطين الذين لم يتحدوا لمقاومة الغزوة الصهيونية ولم تظهر من زعمائهم وأفرادهم التضحيات التي تقدمها الشعوب القوية البنية في أيام الخطر، ولم تبرز منهم تلك الشراسة القومية التي كان يمكن أن تردع بريطانيا عن غيّها وعن المضي في سياستها الشريرة. إن بقاء الانتداب ثلاثين عاماً دون أن يلقى مندوب سام مصرعه ــ لأمر مخجل. وهذا القول ينسحب على المواطنين جميعاً، سواء في ذلك أصحاب الوجاهة والثقافة أو عامة الناس. التفاوت في المسؤولية وارد، لأن مسؤولية المتعلم أعظم من مسؤولية الأمّي، ومسؤولية الملاّك أعظم من مسؤولية العامل الفقير.

ولكن يبقى أن الوطن للجميع ومسؤوليته على الجميع، والكرامة التي يُفترض أن يستمدها المواطن منه تشمل الجميع. من هنا لا يستطيع أحد من أبناء الوطن ان يقول أنه غير مسؤول. والذي يقرأ مذكرات هربرت صموئيل (أول مندوب سام بريطاني في فلسطين) يشعر بالألم يمزق أحشاءه ويطعن كبرياءه. فهو يقول انه عندما وصل إلى فلسطين عام ١٩٢٠ إتخذت إحتياطات مشددة لحمايته، خشية من اعتداء كان من المتوقع ان يقع عليه من قبل العرب. ولكنه مع مضي الشهور لم يلاحظ ما يبرر الخشية، فأخذت الإحتياطات الأمنية تخف، حتى أخذ يتجول في البلاد (من دان إلى بئر السبع) على ظهر جواد، لا يرافقه في جولاته سوى شرطي يركب حصانا يسير وراءه على مبعده. وقضى سنوات خمساً لم يرفع أحد خلالها

اصبعاً فـي وجهه ... فقارن هذا بالرؤوس الكبيرة التي أطاح بها اليهود عندما اعتقدوا أن بريطانيا تريد أن تقلب المجن لهم ــ من طراز اللورد موين وكبار المسؤولين الذين قتلوا في حادثة نسف فندق الملك داؤد.

وقد حدث في مؤتمر تاريخ بلاد الشام الذي عقدته الجامعة الأردنية سنة ١٩٨٠، أن بعض الفهماء احتجوا على قولي ان الوعي الوطني لم يكن قوياً بما فيه الكفاية في فلسطين. وقد احتج أحدهم بقصائد الشعراء وخطابات الخطباء وافتتاحيات الصحف. كان جوابي: ولكن يا سادتي، ما جدوى القصائد الرنانة والخطابات الملتهبة اذا لم يرافقها عمل. ألا نعتبر بما ينطوي عليه قول الشاعر القديم «أوسعتهم سبّاً وأودوا بالأبل»، من سخرية؟ وما نفع خطاب الخطيب - مهما هدّد بالويل والثبور وعظائم الأمور - اذا اكتفت الجماهير بالإستماع إلى حضرته بالتصفيق الحاد، ثم عاد كل واحد إلى بيته؟ ومن أبلغ ما سمعت بهذا الشأن ما حدثني به الاستاذ عثمان بدران من أن أحد وجهاء يافا صافحه مهنئاً لأن معظم أهل يافا تمكنوا من مغادرتها قبل ١٥ أيار ١٩٤٨، فنجوا من خطر المعارك التي ستقع بعد دخول الجيوش العربية، وسلمت أعراضهم! ...

رابعا: وهناك مسؤولية العرب عموماً ـ أفراداً وحكومات ـ في أنهم لم يظهروا مزيداً من الفعالية في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، ولم يقدموا المساندة الكافية لعرب فلسطين قبل ذلك.

في واقع الأمر لم يكن عرب الأقطار العربية أكثر وعياً من عرب فلسطين، ولم تكن البنية القومية عند عرب سوريا الطبيعية كلهم من القوة بحيث تستطيع كسر يد الاستعمار البريطاني والاستيطان اليهودي. لقد توصل الأستاذ عزت دروزة إلى هذا الرأي بعد مرافقة طويلة ووثيقة للحركة العربية الحديثة. ويبدو واضحا أن العرب لم يدركوا فيما مضى، وحتى الآن، حقيقة الخطر الصهيوني (الذي أصبح الآن: الخطر الاسرائيلي) وأعني هنا إدراك المرء لخطر يتهدد شخصه إلى حد يدفعه إلى العمل لمقاومته بيده وسلاحه وليس بلسانه أو قلبه. فانا لا أعتبر الوعي حقيقيا الا اذا رافقه عمل حقيقي وممارسة جادة.

والذي ينظر في تاريخ العرب الحديث يجد العجب العجاب. فأصحاب السلطة يعتبرون شعوبهم قاصرة، فيسيّرونها على هواهم، وفي الوقت نفسه يكيدون لبعضهم البعض. تماماً مثلما حدث في الاندلس في عهد أمراء الطوائف. وقد اتخذ كثيرون من أصحاب السلطة الذين أفرزتهم حرب فلسطين ـــ ابتداء من حسني الزعيم ـــ خطة العمل على تشويه سمعة أصحاب السلطة الذين سبقوهم والذين يعاصرونهم. ذلك أن الحكام الذين جاءت بهم الانقلابات العسكرية، يعرفون أنهم بلا جذور شرعية، ومن هنا اجتهادهم في تشويه سمعة غيرهم، حتى يبقى الجميع سواسية في نظر المواطن العادي.

ومن هنا شهد جيلنا المعاصر حملة تزوير فظيعة، ووجدت هذه الحملة أشخاصاً يقومون بها (من أمثال صناجة العرب أحمد سعيد)، فاتخذوا من الصحف والإذاعات والكتب سلاحا للإثارة وغسل الأدمغة وتحطيم القيم والمثل التي نشأ عليها الناس. وقد ألحقت هذه المدارس الشريرة أذى بالغاً بنفسية أبناء الجيل الجديد، اذ زعزعت ثقتهم بما كان من جهاد أمتهم منذ مطلع النهضة الحديثة. وقد يكون الضرر الذي لحق بالبنية الذهنية للإنسان العربي، من جراء الدعايات والاتهامات، أبلغ من الضرر المادي الذي ألحقه بنا الأعداء. وماذا ينتج عن فقدان الثقة بأمس هذه الامة سوى الكفر بحاضرها ومستقبلها؟ خاصة بعد أن جاءت الهزائم على أيدي هؤلاء الذين عملوا على تحطيم سمعة غيرهم؟ لقد نشأ أبناء جيلي على ان جهاد هذه الامة في العصر الحديث سلسلة متصلة الحلقات منذ بدء الوعي القومي في أقطار المشرق، وقيام الجمعيات الوطنية ثم قيام الثورة العربية الكبرى، ومنذ ظهور أحمد عرابي وسعد زغلول والخطابي والجزائري والسنوسي في أقطار المغرب العربي. حتى في الكتب المدرسية لوحق قادة النضال العربي، بفعل الاجتهادات اللاأخلاقية، شأن العاجز الذي اذا كبا اتهم سواه بانه تسبب في كبوته.

يقول ألفريق الجبوري، وهو أحد المسؤولين في حرب ١٩٤٨:

" باعتقادي أن وزر الخسارة ومسؤولياتها تقع على عاتق جميع الحكومات العربية، كل بنسبة تغافلها وتماهلها وعدم اهتمامها، بإعداد العدة اللازمة لدرء الخطر المحدق بأمتها.

وهذا قول صحيح، وهو يصدق بالدرجة الأولى على الدول التي كانت تتمتع بالإستقلال، أو بقدر كبير من الاستقلال، ثم أقدمت على خوض الحرب بقوات قليلة وأسلحة ناقصة، وبارتجال وعلى أسلوب (الفزعة) العشائرية. ولا شك في أن تقصير تلك الحكومات هو الذي دفع ضباط الجيوش إلى القيام بالإنقلابات في سوريا ومصر والعراق، وهو الذي كان وراء ترحيب الجماهير بتلك الإنقلابات، من منطلق الأمل بإصلاح الأحوال. ولكن الطامة الكبرى التي أذهلت المواطن العربي برزت عندما كشفت الهزائم اللاحقة (خصوصاً هزيمة ١٩٦٧) النقاب عن تقصير أنظمة الانقلابيين، تقصيراً لا يقل عن تقصير العهود السابقة.

خامسا: المجتمع الدولي متمثلا في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة، يتحمل مسؤولية أدبية كبيرة، في أنه لم يتخذ أي إجراء لتنفيذ قراراته، ولم يعمل على إيقاف اليهود، أو ردعهم، خاصة بعد أن تجاوزوا حدود التقسيم، وبعد أن اغتالوا برنادوت وبعد أن ظهر عدوانهم سافراً أمام العالم كله.

ولكن كيف نعزي أنفسنا ونلتمس العذر لتقصيرنا عن طريق الاكتفاء بوضع المسؤولية على بريطانيا وأمريكا ودول اوروبا الأخرى، وعلى زعمائنا. فالمسؤولية في الأصل مسؤولية العرب، باعتبارهم شعب أعتدي عليه، ومن واجبه ان يدافع عن نفسه حتى يلحق الهزيمة بالمعتدين.

الهزيمة هزيمة الإنسان العربي. ليست هزيمة الجيوش والقيادات، ولا هزيمة الملوك والرؤساء، بقدر ما هي هزيمة كل انسان عربي، وهزيمة الإنسان ترتفع نسبيا. فمسؤولية أقطار بلاد الشام والعراق أكبر من مسؤولية عرب اليمن وتونس والسودان، ومسؤولية القياديين من متعلمين وزعماء ومتنفذين وشيوخ ومخاتير، أكبر من مسؤولية الناس العاديين. إنها هزيمة الإنسان الذي نشأ على عقلية قيس ويمن،

وعلى مفهوم أن الشرف مرتبط بالعرض أكثر مما هو مرتبط بالأرض. الإنسان هو الأول والأخير، هو حجر الزاوية. وقد كان صاحب كتاب (رأس المال) يقرر حقيقة أساسية عندما قال أن الإنسان أثمن رأس مال في العالم.

* * *

وصورت الدعايات الصهيونية والمشايعة لها بأن القتال بين العرب واليهود كان أشبه ما يكون بالقتال بين داؤد الصغير وجوليات الجبار. ولكن الحقيقة كانت أبعد ما تكون عن تلك الصورة. إن ٧٠٠ ألف يهودي لم يغلبوا ثلاثين مليون عربي. كانت الحرب في فلسطين بين قوات عسكرية من جانبين: الجانب اليهودي استطاع أن يدفع يوم ١٥ أيار إلى ميدان القتال ستين ألف جندي بينما دفع الجانب العربي بملايينه الثلاثين، أقل من نصف هذا العدد.

ولم يكن ذلك هو الفارق الوحيد، بل كانت هناك فوارق أخرى ذات أهمية بالغة، وهي فوارق كانت خليقة أن ترجح كفة اليهود حتى لو أن العرب دفعوا إلى ميدان القتال عدداً يساوي ما دفع العدو من جنود وضباط.

لننظر إلى الفوارق التالية:

اولا: كانت لدى اليهود قيادة مركزية واحدة، وكانت لدى العرب خمس قيادات ، كل منها تعمل على حدة، دون تنسيق مع الأخرى.

ثانيا: كانت القوات اليهودية تعمل في منطقة صغيرة، وعلى شبكة ممتازة من طرق المواصلات، بحيث كان في مقدور أية وحدة عسكرية أن تخوض معركة ضد جيش عربي في الصباح، وأن تتحرك بسهولة نسبية وضمن مسافة تتراوح بين ١٠ كيلو مترات و٦٠ كيلو متراً، لكي تخوض معركة ضد جيش عربي آخر في مساء ذلك اليوم بالذات (وقد حدث هذا فعلاً). أما الجيوش العربية فكانت تستمد أسلحتها ومؤنها وتعزيزاتها من قواعد بعيدة، فالمسافة بين بغداد وفلسطين تبلغ ١٥٠٠ كيلو متر عبر صحراء قاحلة، والمسافة بين القاهرة وفلسطين تزيد على ٥٠٠ كيلو متر أكثرها صحراء. حتى الجيش الأردني كان خط مواصلاته يزيد على ١٠٠ كيلو متر

مرورا بوادي الاردن الوعر العميق وجبال القدس ورام الله العالية، عبر طريق ترابية ضيقة.

ثالثا: لم تكن إرادة القتال عند أفراد الجيش الإسرائيلي أضعف منها عند أفراد الجيوش العربية. اما بالنسبة للمدنيين فلا شك أن إرادة القتال عند المدنيين اليهود كانت أقوى بكثير منها عند المدنيين العرب.

رابعا: لم يكن المستوى العسكري عند أفراد القوات اليهودية يقل عن المستوى العسكري عند القوات العربية. بل اننا نلاحظ أن المصادر الموثوقة تجمع على أن الجيش الأردني وحده كان يتفوق في بداية الحرب على القوات النظامية اليهودية. وأسباب ذلك واضحة: فالقوات المصرية لم تخض حرباً منذ معركة التل الكبير سنة ١٨٨١، ولم تكن نالت تدريباً على مستوى جيد. والقوات العراقية كانت مرت بتجربة مرة عام ١٩٤١، فلم تجد بعدها الدعم اللازم أو الأسلحة الضرورية، ولم تتطور إلى المستوى المطلوب. وكان الشرخ الذي تمخضت عنه تلك الحرب ما يزال باقياً، بين العراق وبريطانيا من جهة وبين حكومة العراق والشعب العراقي من جهة ثانية. أما القوات السورية واللبنانية فقد كانت أصلاً وفصلاً قوات أمن من مخلفات الانتداب الفرنسي. ولم تعمل حكومتا الدولتين في خلال خمس سنوات من الاستقلال على تعزيز تلك القوات وعلى تخصيص ميزانيات كافية لزيادة فعاليتها وتزويدها بأسلحة حديثة مع توفير كميات كافية من العتاد لها.

خامسا: علينا أن نذكر أن رؤساء الدول العربية وزعماءها لم تكن لهم خبرة بالحروب. بل علينا أن نذكر أن عرب المشرق لم يخوضوا حروباً نظامية منذ مئات السنين (باستثناء الحرب التي خاضتها قوات الثورة العربية ومعركة ميسلون). كانت الأقطار العربية ميداناً تتصارع فيه جيوش الأمم الأخرى، دون أن يشارك العرب في المعارك التي كانت تدور على أراضيهم. لذلك لم تنشأ عند أفراد الشعب العربي تقاليد التربية العسكرية التي يلاحظها المرء في الشعب التركي، مثلا. وهكذا كان الشعب العربي يقف وقفة المتفرج في الحروب التي خاضتها الجيوش العربية

في أيامنا (١٩٤٨و١٩٥٦و١٩٦٧). إن الحروب تصهر معادن الشعوب ـ على الرغم من ويلاتها ـ ولكن الشعب العربي لم يكن قد مر بتجارب كافية تصهر معدنه وتزيد من قوة بنيته وصلابة عوده. وحتى الآن لم يدخل في أذهان المدنيين ان عليهم أن يشاركوا في المجهود الحربي، على نحو ما. يريدون من القوات المسلحة أن تفعل كل شيء، بحيث لا يتعدى دورهم حد الاستماع إلى الأنباء وتحليلها، واستنباط الاجتهادات الصائبة أحياناً والخائبة في أكثر الأحيان.

سادسا: مضى الزعماء العرب في خلال ١٩٤٧ يعقدون الاجتماعات ويدلون بالتصريحات ولايتجاوزون ذلك إلى النظر العميق في واقع بلادهم، ولا إلى العمل من أجل الحرب أو من أجل السلام. كان زعماء سوريا ولبنان أكثر زعماء الوطن العربي حماسة للحرب. ولكن عندما جاءت الحرب كانت سوريا ولبنان أقل دول العرب فعالية في ميدان القتال. حتى لقد اقترح اللواء عبدالله عطفة رئيس أركان الجيش السوري على حكومته أن لا تزج بالجيش في قتال نظامي وأن يدخل أفراده إلى فلسطين بصفة متطوعين. وقال قائد القوة السورية التي دخلت إلى فلسطين أن السياسيين السوريين قرروا دخول الحرب دون يأخذوا رأي قادة الجيش. وقد رأينا أن الدول العربية لم تقرر الاشتراك في القتال بجيوشها النظامية إلا قبل رحيل الانكليز بشهر واحد. وعندما بدأت الحرب فعلاً، بدا كأن زعماء العرب فوجئوا بها، اذ لم يلبثوا أن اكتشفوا أن قواتهم قليلة، وأن قياداتها غير كفوءة وأن تسليحها ناقص وعتادها قليل، وأن تدريبها على القتال دون المستوى المطلوب، وأن معلوماتها عن العدو تكاد تكون صفراً (قيل أن جيشين عربيين لم تكن لديهما خرائط عسكرية لفلسطين، إلى ما قبل ١٥ أيار بأيام معدودات) ـ هذا على عكس ما تمليه ضرورات المبدأ القائل «اعرف عدوك». ولم يكن زعماء الدول العربية يجهلون قوة عدوهم فحسب، بل كانوا يجهلون حجم القوات العسكرية المتوافرة لدى بعضهم البعض، حتى قيل أن عبدالرحمن عزام ذهل عندما شاهد قطعات الجيش العربي القليلة في وادي الأردن يوم ١٤ أيار، لأنه كان يعتقد أنها أكثر مما رأى. وقيل أن شكري

القوتلي أصرّ على دخول الحرب اعتقاداً منه أن الجيش الأردني قادر على تأمين النصر في فلسطين. وأنه لا يجوز لسوريا ـ والحالة هذه ـ أن تترك شرف انقاذ فلسطين للملك عبد الله وحده. ومن الدلائل المفجعة على ضيق الأفق عند بعض الزعماء العرب، ما قاله النقراشي لبرنادوت، بعد أن عرض مشروعه: أن توحيد الجزء الباقي للعرب من فلسطين مع الأردن سوف يخل بالتوازن بين العرب!! انها لمأساة فعلاً أن يتحدث رئيس الحكومة المصرية بهذا المنطق، في وقت كان بقاء فلسطين قطرا عربيا في كفة القدر. أضف إلى ما تقدم أن جميع العسكريين العرب تقبلوا بالرضى قرارات السياسيين المدنيين، مع علمهمبخطلها، فلم نسمع أن واحداً منهم تمسك بوجهة نظره وقدم استقالته في سبيلها.

سابعا: كانت معظم الدول العربية تعاني من متاعب داخلية، ومن الخلافات بين بعضها البعض. دخلت الدول العربية الحرب وأكثر زعمائها لا يثقون ببعضهم البعض. خذ مثلاً ما كان يخامر نفوس رجال الحكم في سوريا من شك في نيات الملك عبد الله، بسبب مطالبته بتحقيق وحدة سوريا الطبيعية. وكان العراق يعاني من انقسامات داخلية خطيرة، نشأت عن التوقيع في ١٥ شباط ١٩٤٨ على معاهدة بورتسماوث مع بريطانيا، الأمر الذي أدى إلى قيام اضطرابات واسعة وإلى سقوط وزارة صالح جبر والغاء المعاهدة.

لقد نجحت المعارضة في العراق في إسقاط المعاهدة، ولكن النتيجة بالنسبة لدولة العراق كانت توقف بريطانيا عن تزويد العراق بالسلاح الذي تم الإتفاق عليه عند توقيع المعاهدة.

وكان فاروق ملك مصر لا ينظر بارتياح إلى سياسات الملك عبدالله، وقد عقد حلفا مع السعودية وسوريا، فكان ذلك بداية سياسات المحاور بين الدول العربية.

ثامنا: أخفقت الدول العربية سياسياً مثلما أخفقت عسكرياً. فقد خاضت الحرب دون أن تتحالف مع احدى الدول الكبرى لتأمين ما تحتاج اليه من سلاح وعتاد. وعرفت الدول العربية أن أمريكا أسيرة للنفوذ اليهودي، ومع ذلك لم تبادر إلى

التفاهم مع روسيا. العراق رفض معاهدة بورتسماوث، تحت ضغط المعارضة، فخسر بذلك الدعم البريطاني وهو الدعم الدولي الوحيد الذي كان متوافراً لديه. مصر ايضا خسرت الدعم البريطاني لانها لم تكن قد توصلت إلى تفاهم مع بريطانيا حول السودان والوجود البريطاني في منطقة القناة. وفي الوقت نفسه كان العداء مستحكماً بين العرب وفرنسا بسبب تونس والجزائر. كان من المفروض أن تكون هناك أولويات وبدائل وسياسة تقديم الأهم على المهم.

تاسعا: كانت الدول العربية تعاني من ضعف الموارد (بإستثناء مصر). وكان الأردن أكثرها فقراً، وكانت مصر والعراق والأردن تعتمد على بريطانيا في مجال التسليح، وهي الدول الثلاث التي تملك القوات ذات الفعالية وعليها المعول. وأوقف العراق ضخ النفط إلى حيفا فلحق به ضرر اقتصادي كبير. وكان كثيرون من الزعماء العرب يعلقون الأمل على الجيش الأردني في مناجزة العدو، وعندما أوضح الملك عبدالله لهم أنه بحاجة إلى المال لتجنيد مزيد من الرجال، وعده اولئك الزعماء بتقديم العون المالي المطلوب، ولكن في واقع الأمر لم يتلق الأردن سوى ربع مليون جنيه من أصل ثلاثة ملايين. ثم جاء الاقتراح بتبديل قيادة الجيش والاستغناء عن خدمات ألفريق جلوب والضباط الانكليز. لم يوافق الملك على ذلك الاقتراح قائلاً: ان الفارس لا يبدل سرج فرسه في وقت احتدام المعركة. وكان على حق في قوله، وهو الرجل الواقعي الذي يعرف جيداً أن بريطانيا لن تتقبل فكرة الاستغناء عن جلوب وغيره من الضباط الانكليز، ولن تستمر في الانفاق على الجيش وتزويده بالسلاح والعتاد. ثم انه لم يكن هناك ضابط عربي في الجيش مؤهل عسكرياً لتولي القيادة، ولم يكن هناك ضباط عرب من خريجي كليات الأركان لادارة العمليات العسكرية.

* * *

هنا لا بد من كلمة عن الضباط الانكليز في الجيش العربي: لقد كان أكثرهم ضباطاً محترفين، أعارهم الجيش البريطاني للعمل لفترة محدودة في الجيش العربي.

من هنا يمكن القول أن أداء الواجب العسكري كان الهدف الرئيسي لهم. وقد بذلوا جهوداً صادقة في تدريب الكتائب المسلحة على أحدث فنون القتال، وفي رفع مستوى استعدادها الحربي وفي بث روح الضبط والربط بين الجنود والضباط، حتى أن أحد كبار الضباط العرب قال لي «كنا نتعب من كثافة التدريب وهم لايتعبون». ويقضي الانصاف أن يعترف المرء لهم بذلك. ولم يكن الجيش الأردني في حرب ١٩٤٨ أفضل من سواه إلا بفضل التدريب الشاق وروح الطاعة والنظام التي بثها في أفراده أولئك الضباط. كما أن الدورات التدريبية التي كان الضباط العرب يقضونها في المعسكرات البريطانية، تركت آثاراً في رفع الكفاءة القتالية عندهم. أما السياسة فلم تكن قيادة الجيش تسمح لأحد أن يشغل نفسه بها. كتب لي الكولونيل سليد يقول «لم تكن القيادة تسمح لنا بتكوين آراء سياسية، أو على الاقل: لم تسمح لنا بالتعبير عنها». وقد أخرج الفريق جلوب من الجيش بعض الضباط وضباط الصف لانهم اعتنقوا وجهات نظر سياسية أو حزبية. كان الجيش أداة في يد الدولة، لها الأمر وعليه الطاعة، كما هو الحال في الدول الغربية. وفي حرب ١٩٤٨ تولى كثيرون من الضباط البريطانيين قيادة وحداتهم في ميدان القتال، وأصيب ثلاثة منهم بجراح في خط النار (سليد وبوكانن وبرومج). وقد أشاد جميع من تحدثت اليهم باثنين من اولئك الضباط بالذات: برومج ولوكت، لما كانا يبديان من اقدام واستهانة بالخطر.

أما خطط الجيش العسكرية فقد كان يرسمها الفريق جلوب ومعه لاش قائد الفرقة. وفي كتابه (جندي من العرب) أعلن جلوب انه هو الذي رسم للجيش أن يقف عند حدود التقسيم، وهو الذي يتحمل مسؤولية تأخير الجيش ثلاثة أيام عن الاشتراك في معارك القدس، وهو الذي اتخذ القرار بعدم امكان الدفاع عن اللد والرملة. وهو يقول أن توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن (الذي كان في الوقت نفسه وزيراً للدفاع) كان يعرف بهذا ويوافق عليه. ويختلف العسكريون العرب الذين تحدثت اليهم في تقييم الخطة العامة التي اتبعها جلوب، فبعضهم يرى ان الجيش كان قادرا

على تحقيق المزيد من الانجازات وعلى السيطرة على القدس، لو ان جلوب كان أكثر جرأة واقداماً. والبعض الآخر يرى أن جلوب عرف حدّه فوقف عنده، ولم يزج بالجيش في مغامرات حربية كان من المحتمل أن تؤدي إلى الحاق الهزيمة به، وأن جلوب ـ على أية حال – كان أكثر اقداماً في الاشتباك مع العدو، من قادة الجيوش العربية الأخرى. على أن هذا كله يجب أن لا يعني أن جميع الضباط البريطانيين في الجيش العربي كانوا مثاليين، وأنهم فوق مستوى النقد.

كانت بريطانيا تنفق على الجيش وتقدم له السلاح، ضمن موازنة معتمدة. ومصلحة بريطانيا تكمن في تحالفها مع الأردن. ولكن السياسة البريطانية خذلت العرب عموما والأردن بصورة خاصة في حرب ١٩٤٨. وظهر التفوق الاسرائيلي على العرب، فحقد الناس على بريطانيا، وانصرف الحقد والشك نحو الضباط البريطانيين في قيادة الجيش، لأن الناس لم يستطيعوا أن يفصلوا بين بريطانيا وبين هؤلاء الضباط الذين هم أبناؤها. ومن هذا نستطيع أن نفهم أسباب اعتقاد البعض أن الجيش العربي كان يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل لولا أن قيادته البريطانية كبحت جماحه وقيدت حركاته.

على انني أرجو أن لا يفهم القارئ مما تقدم أنني أفضّل لو أن العرب لم يدخلوا تلك الحرب. لقد كان دخول تلك الحرب ضرورة يحتمها الشرف القومي. ولكنني في حديثي أستعرض الوقائع التي جرت والأسباب التي حالت بين العرب وتحقيق هدفهم.

والآن أعود للحديث عن هدف هذا الكتاب:

إن الدور الذي قام به الأردن ـ ملكاً وحكومةً وجيشاً ــ في حرب ١٩٤٨، لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية في المؤلفات التي وضعت عن هذه الحقبة من تاريخ العرب الحديث.

وقد زاد من عدم الوضوح تخرّصات المتخرصين ومزاعم الجهلاء وافك أصحاب الغايات. ولكن الأمر لم يكن هيناً بسبب قلة المصادر، خاصة عن الجهد

العسكري الذي بذله الجيش. وفي أثناء البحث تبين لي أن كتائب الجيش الأساسية ـ الأولى والثانية والثالثة ـ لم يكتب عنها إلا القليل، على الرغم من تضحياتها. ولكي أعطي الصورة الشاملة، انصرفت إلى جمع المعلومات الأولية من الضباط وضباط الصف والجنود الذين أسهموا في تلك الحرب. هذه الطريقة أتعبتني كثيرا. فهناك التضارب في الروايات، وهناك الزيادة هنا والنسيان هناك. بذلت كل جهدي في الوصول إلى نص موثوق. بعض النبذ أعدت كتابتها أكثر من مرة، وأحياناً أكثر من مرتين. حرصت على إعطاء كل ذي حق حقه، خصوصا أولئك الذين ذهبوا إلى لقاء ربهم ولم يكنِ بوسعهم أن يتحدثوا عن أنفسهم.

مع مضي الزمن ازددت اقتناعاً بأهمية العمل الذي أقوم به: هؤلاء الرجال الذين واجهوا الموت في سبيل الوطن: ماذا قدم الوطن لهم بالمقابل؟ وتكشفت لي جراح وأوجاع نفسية. كثيرون كانوا يشعرون أن الوطن أهملهم ونسيهم. كثيرون ترددوا في التحدث إلي لاعتقادهم أن الوطن لم يعد يسأل عنهم ويهتم بهم. والآن أراني أقول: ما أجدر هؤلاء الأبطال بمزيد من الاهتمام والعناية. هؤلاء الذين حافظوا على شرف الوطن في أيام الخطر، حينما كنت أنا وأمثالي بعيدين عن الخطر. وتعاظم في نفسي الشعور بسمؤوليتي الشخصية. على الأقل أستطيع أن أنوب عن الوطن في كتابة قصة هذه الحرب. لا يكفي القول أن عيد أديلم استشهد في معركة النوتردام، وأن عبد الله فلاح استشهد في معركة قوله. علي أن أروي القصة كما وقعت فعلاً. علي أن أتصور كيف حدث ما حدث، وأن أرسم تصوراتي سطورا على الصفحات.

فهل قمت بالواجب؟ وهل أديت الأمانه؟ وهل وفيت بعض الدين الذي لهؤلاء الرجال في عنقي وأعناق غيري من أبناء الأردن وفلسطين على وجه الخصوص؟.

لقد أتاح لي نشر هذه الحلقات على صفحات جريدة (الرأي)، مجال التعرف على رد الفعل عند أولئك الذين يعنيهم الأمر مباشرة. هنا أعطي مثالاً واحداً : اتصلت بي ذات يوم سيدة (كان زوجها قد غادر البلاد إلى بلاد بعيدة) وقالت عبر

الهاتف: لقد سالت دموعي من فرط التأثر عندما قرأت ما كتبت عن زوجي. كان يظن أن جهده ذهب في طيات النسيان، والآن اكتشفنا أن الدنيا ما تزال بخير. قلت لها: كفى يا سيدتي. أن في كلماتك جزاء كافياً لي عن الليالي الطويلة التي سهرت والمشقات التي تكبدت.. عندئذ أيقنت أكثر من أي وقت مضى: أن مداواة القلوب المكلومة نعمة من السماء.

سيجد القارئ ملامح شخصية هنا وهناك. ولكن الكتاب ليس تاريخاً لأشخاص. الهدف العام هو بيان الفعالية التي قدمها الجيش بمجموعه. إن ذكر الاشخاص جاء عرضاً، لمجرد إعطاء المثل والنموذج. ولا بد أن تكون نماذج بطولية عديدة قد فاتتني، وقد أكون زدت هنا وأنقصت هناك. ولكن ليعلم القارئ انني سجلت ما وصل اليه علمي وما اقتنع به وجداني، هذا مع شدة الحرص على أن لا أغمط أحداً حقه.

وهنا أحب أن أذكر بالشكر والامتنان أولئك الذين أعطوني الكثير من وقتهم عن طيبة خاطر، وأتاحوا لي بذلك تكوين الصورة العامة لما حدث في حرب ١٩٤٨. كما أترحم على أولئك الذين مضوا منهم إلى لقاء ربهم قبل أن يصدر هذا الكتاب.

وأجد من واجبي التنويه بفضل الاستاذ محمود الكايد، رئيس تحرير جريدة (الرأي)، الذي ما أن عرف بخبر هذا الكتاب حتى حثني على نشره على صفحاتها، فأتاح لي بذلك الوصول إلى آلاف القراء، وأتاح لي مجال الحصول على ملاحظات وتصويبات مهمة ازداد الكتاب بها قيمة ومصداقية. فله شكري واعترافي بجميله.

كما أود ان أشكر السادة الذين أعطوا الكثير من وقتهم لقراءة مادة الكتاب قبل نشرها والذين تلطفوا واقترحوا تصويبات مفيدة ومهمة. وهؤلاء السادة من العسكريين المتقاعدين، وقد رغبوا عدم ذكر أسمائهم، فلم أملك إلا احترام رغبتهم.

* * *

وأنتم يا إخواني جنود الجيش العربي وضباطه.

لقد عشت معكم سنوات غالية من عمري وأنا أتتبع الهضاب الوعرة التي قطعتم دروبها، والمعارك الدامية التي خضتم غمارها. سرت معكم بقلبي وعقلي أيام

الحرب خطوة خطوة، عشتها معكم. كنت شاهداً على الدماء التي نزفت وبللت تراب الأرض، على الجراح التي أصابتكم هنا وهناك، على الالآم المبرحة. على العرق والدموع. على التأوهات الحزينة والأشواق الضائعة. كان هدفي أن أعطيكم بعض حقكم، لأن الذي أعطيتم ـ مهجكم العزيزة وأعماركم ـ أكبر وأعظم من أن يوفى حقه كاملاً. كنتم المثل الأعلى للمحبة التي تعطي بسخاء وعن طيبة خاطر، تعطي كل شيء دون أن تأخذ شيئا.

وكيف أستطيع أنا أو يستطيع غيري أن يرد لكم جميلكم؟ أنتم الذين وقفتم في وجه الموت. أنتم الذين ألقيتم بأنفسكم في لجة النار. ماذا يستطيع الوطن أن يصنع لكم؟ أنتم الذين سهرتم وشقيتم بينما كان غيركم يغط في النوم؟ على هذه الصفحات أحمل لكم اعتراف الوطن بجميلكم، لكي يبقى ذلك الاعتراف ما بقيت الكلمة ـ شاهداً لكم علينا نحن الذين لم يكن لنا الشرف الذي نلتم: أن نحمل السلاح ونحارب الغزاة. فلتكن الليالي الطويلة التي سهرتها في رسم هذه الكلمات، باقة حب بين أيديكم. وليكن هذا الكتاب شاهد حق مع أبنائكم وأحفادكم، لكي يقول كل واحد منهم بفخر: كان أبي جندياً من جنود الجيش العربي.

عمان ٢٨ آب ١٩٨٢ سليمان موسى

الفصل الأول

بداية البدايات

... حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني، الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال: مثل التوحش والتأنس، والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول، ومراتبها...

مقدمة ابن خلدون

كان انتهاء الساعة الثانية عشرة من مساء يوم الجمعة ١٤ أيار ١٩٤٨، حداً فاصلاً في تاريخ فلسطين الحديث. لقد انتهى عندئذ الآنتداب البريطاني الحافل بالمآسي، وبدأ عهد جديد يحيط به الغموض وتكتنفه التوقعات. وعلى حافة نهر الأردن الشرقية، وقف جنود الجيش العربي يتحفزون للدخول الى فلسطين، وقلوبهم تمتلىء شوقاً وحماسة للإسهام في معركة تحرير إخوانهم ودحر الغزاة.

واستعرض عبد الله بن الحسين كتائب جيشه، ثم أطلق من مسدسه رصاصة واحدة، ايذانا ببدء الحرب ضد الأعداء، وقال: هيا الى الأمام وليكن الله معكم.

لقد وقعت الواقعة، ولم يجد العرب مفراً من مقابلة الشر بالشر، والاحتكام إلى السلاح.

ولكن كيف وصل الأردن، وكيف وصل العرب جميعاً، إلى ذلك القرار الخطير؟ كيف بدأ ذلك كله؟

لنعد الى القصة من أولها.

خلاصة تاريخية

بدأت الحرب العالمية الأولى في صيف ١٩١٤، فوقفت دول الحلفاء (روسيا وفرنسا وبريطانيا وأمريكا واليابان وإيطاليا) في جانب، ووقفت دول الوسط (ألمانيا والنمسا ورومانيا والدولة العثمانية) في الجانب المقابل. ووجهت بريطانيا دعوة إلى عرب المشرق للاشتراك في الحرب من أجل الفوز بحريتهم، فلبى العرب الدعوة بزعامة الشريف حسين أمير الحجاز، بعد أن عقدوا مواثيق مع بريطانيا تعهدت هذه الدولة لهم بموجبها أن تعاضدهم لتحقيق أملهم الطبيعي بتأسيس دولة عربية مستقلة تشمل جميع الأقطار العربية

في آسيا (باستثناء عدن). ورفع العرب راية الثورة في حزيران ١٩١٦، وهم لا يعلمون ان حليفتهم كانت قد عقدت قبل ذلك بشهر واحد فقط، اتفاقية سرية مع فرنسا لاقتسام المناطق العربية في آسيا بينهما، وهي الاتفاقية التي أصبحت تعرف باسم اتفاقية سايكس ـ بيكو.

وقف العرب في صفوف الحلفاء، وقدموا في حرب التحرير تلك عشرة آلاف شهيد، وظلوا يخوضون معارك القتال أكثر من سنتين. وكم كانت دهشتهم عندما بلغت أسماعهم أنباء التصريح الذي أصدرته حليفتهم بريطانيا في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، والذي عرف فيما بعد باسم (وعد بلفور) ويتضمن تعهد بريطانيا بالعمل على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وعلى الرغم من ذلك استمر العرب في خوض حربهم التحريرية، لعلمهم أن مصيرهم مرتبط بما يظهرون من اتحاد وقوة وفعاليه. وبقي ذلك التصريح نوعا من الاعلان السياسي والدعائي، ولم يتخذ شكله الفعلي القاطع الا بعد ان وافقت عصبة الأمم على منح بريطانيا الأنتداب على فلسطين، وأقرت صك الآنتداب الذي نص على ان تلتزم بريطانيا بانشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين (٢٤ تموز ١٩٢٢).

وظلت الحكومة البريطانية ثلاثين عاماً تحكم فلسطين: من ١٩١٧ حتى أيار ١٩٤٨. وفي أثناء تلك السنين أرست بريطانيا قواعد الوطن القومي لليهود في فلسطين، فارتفع عدد هؤلاء فيها من ٦٠ ألفاً إلى ٦٠٠ ألف ونيف. أصبحوا دولة ضمن الدولة : دولة لها مجلس وزرائها ولها قواتها المسلحة ولها جهازها الاداري الكامل. وفي خلال تلك السنين سحقت بريطانيا ثورات العرب المتلاحقة بقوة الحديد والنار، وسجلت صفحة سوداء، هي أكثر صفحاتها بشاعة في التاريخ.

بعد انتهاء الحرب بانتصار الحلفاء طلب العرب من حليفتهم بريطانيا أن تفي بعهودها لهم. ولكن بريطانيا أخذت تماطل على أساس ان مؤتمر السلام الذي ستعقده الدول المنتصرة هو الذي سيتولى تسوية جميع المشاكل التي تمخضت عنها الحرب.

وفي الوقت نفسه كانت القوات البريطانية تحتل العراق وفلسطين وسوريا وشرقي الأردن، بينما كانت القوات الفرنسية تحتل لبنان. وكان العرب قد أنشأوا لهم دولة بعد دخولهم الى دمشق، على اعتبار أن جيشهم واحد من جيوش الحلفاء. وكانت تلك الدولة تضم سوريا الداخلية وشرقي الأردن، وتولى رئاستها الأمير فيصل بن الحسين.

ثم دُعي الملك حسين للاشتراك في مؤتمر السلام، فأوفد نجله فيصل ومعه عدد من

رجال العرب إلى لندن وباريس، حيث عرض قضية العرب على المؤتمر في شباط ١٩١٩ وطالب بالاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم.

لم يلبث العرب حتى تبينوا ان الدول الكبرى هي صاحبة القول الفصل، وانها تتخذ القرارات التي تناسب مصالحها الاستعمارية، وان العهود والوعود لم تكن سوى اسلوب من أساليب الدعاية البراقة وبقصد الاستهلاك المؤقت لكسب الأنصار. وهكذا اتفقت فرنسا وبريطانيا في ايلول ١٩١٩ على تنفيذ اتفاقية سايكس ـ بيكو، وتبلور الاتفاق في انسحاب قوات بريطانيا العسكرية من سوريا الداخلية وشرقي الأردن. وبقي العرب في سوريا الداخلية وحدهم في مواجهة الفرنسيين في لبنان. وكان رد الفعل عندهم ان المؤتمر السوري الممثل لأقطار سوريا الطبيعية (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين) أعلن استقلال تلك الأقطار ووحدتها (٨ اذار ١٩٢٠). وجرت مباحثات للتوصل الى تسوية مع فرنسا، ولكن تلك المباحثات أخفقت أمام تعنت فرنسا واصرارها على فرض انتدابها على سوريا. ولم تلبث القوات الفرنسية ان زحفت في تموز ١٩٢٠، واستطاعت في معركة ميسلون ان تلحق الهزيمة بالجيش العربي ـ السوري الصغير، ثم تقدمت واستولت على دمشق وعلى سوريا الداخلية كلها.

كانت معركة ميسلون (وقبلها معركة تربه) ذروة الجهد العسكري من جانب قيادة القومية العربية ـ المتمثلة في الهاشميين يومذاك ـ لتحقيق هدف الوحدة والاستقلال. ولم يكن أمام العرب بعد اخفاقهم في ميدان القتال ضد العدو الاوروبي ـ الذي تمثل في فرنسا يومذاك ـ الا ان يلجأوا الى العمل السياسي لانقاذ ما يمكن انقاذه، ريثما يشتد ساعد العرب مرة أخرى وينهضوا من كبوتهم.

وكان من نتائج العمل السياسي انشاء دولتين عربيتين في العراق وشرقي الأردن، تتمتعان بالاستقلال الداخلي تحت الانتداب البريطاني. وبقيت سوريا ومعها لبنان ترزحان تحت الانتداب الفرنسي، بينما بقيت فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

ولو اقتصر الأمر في فلسطين على تسلم الانكليز مقاليد الحكم والسلطة، لظل الأمل قائما بأن الانتداب سينتهي يوماً ما، وبأن السيادة ستعود إلى أهل البلاد (كما حدث في سوريا ولبنان والأردن). ولكن المصيبة في فلسطين لم تكن تتمثل في الأنتداب بحد ذاته، بل بانشاء الوطن القومي لليهود، الذي وضعته الدولة المنتدبة نصب عينيها وجعلت تحقيقه

هدفاً لها وغاية لا تحيد عنها. كان ذلك هو الشر المستطير والخطر الحقيقي البعيد المدى.

ولم يكن زعماء الحركة القومية غافلين عن الخطر الذي تمثله سياسة الوطن القومي لليهود. ومن هنا نراهم يبذلون كل ما كان في وسعهم أن يبذلوا لاقناع الحكومة البريطانية بتعديل سياستها في فلسطين تعديلا يضمن حقوق العرب أصحاب البلاد.

إن المحادثات التي جرت في القدس بين الأمير عبدالله بن الحسين والمستر ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني، في الأيام الأخيرة من شهر آذار ١٩٢١، تعطي الدليل على وعي أولئك الزعماء وتحملهم مسؤولياتهم القومية. ففي تلك المحادثات طلب الأمير عبدالله أن تكون فلسطين وشرقي الأردن دولة واحدة برئاسة أميرعربي (أي ان يكون طابع الدولة وهويتها عربيين)، وأن توضع ترتيبات للوفاء بوعد بريطانيا لليهود في نطاق تلك الدولة. وعندما أجاب تشرشل بأن بريطانيا قد التزمت بتنفيذ سياسة معينة في فلسطين، ردّ عليه الأمير قائلاً: هل تقصد بريطانيا أن تؤسس مملكة يهودية إلى الغرب من نهر الأردن، وهل تعتقد ان أهل فلسطين العرب كالأشجار يمكن أن يقتلعوا من جذورهم لكي تزرع في مكانهم أشجار أخرى ؟ وكرر الأمير اقتراحه بدمج فلسطين وشرقي الأردن في دولة واحدة أربع مرات. وقال بصراحة «لا نستطيع أن نرضى بفناء أهل فلسطين من أجل يهود العالم ...». ولكن تشرشل أصر على ان الحكومة البريطانية لا تستطيع تعديل سياستها المقرره فيما يتعلق بفلسطين ، وقال أن تخوف العرب لا مبرر له، وأن بريطانيا ستحافظ على حقوق العرب «بكل دقة وتشديد». أما المندوب السامي هربرت صموئيل فقد أكد للأمير انه لا صحة للقول بأن السياسة البريطانية تريد إنشاء حكومة يهودية في فلسطين، وأن العرب سيعاملون بكل عدالة وانصاف ولن يلحق بهم أذى ، وانه واثق تماماً من أن الناس سيجدون بعد ثلاثين أو أربعين سنة أن هذه السياسة ذاتها ما تزال نافذة المفعول!!.

لم يكن في مقدور الأمير أن يفعل شيئا، سوى أن يتقبل هذه التأكيدات الصريحة. ولكنه عاش الثلاثين سنة التي ذكرها صموئيل (وعاش أيضاً صموئيل وتشرشل) لكي يشهدوا جميعاً ما فعلته السياسة البريطانية بعرب فلسطين، وكيف أنهم لم يعاملوا بأي قدر من العدالة والآنصاف، وكيف ألحقت بهم أشد صنوف الأذى (٢).

أما الحسين بن علي، زعيم النهضة القومية، فقد آثر أن يضحي بالعرش والملك وأن

يقضي سني الشيخوخة في المنفى، على ان يعترف بشرعية الوطن القومي اليهودي. اقدم على تضحية لم يقدم عليها أي زعيم عربي آخر. لقد ظل الانكليز يفاوضونه طوال أربع سنوات حتى يحصلوا منه على اعتراف بسياسة الوطن القومي: قدموا له الاغراءات بالمال والتحالف من جهة، وهددوه وتوعدوه من جهه أخرى. ولكن لا الاغراءات ولا التهديدات استطاعت ان تؤثر في صلابة الزعيم وايمانه بحقه وثباته على مبدأه الشريف. من المرجح انه كان يتوقع من قومه صلابة أكثر وشراسة أشد في مواجهة المحتلين الأشرار وفي مقاومة الغزوة اليهودية. من المرجح انه كان يتوقع من أبناء جلدته تضحية حقيقية تلحق الأذى بالانكليز والصهيونيين على السواء، وتقنع بريطانيا بتبديل سياستها الشريره. ولكن عزيمته لم تلن، على الرغم من التخاذل والتثبيط، على الرغم من كثرة الكلام وقلة العمل. واجه مسؤولياته التي تحملها عندما أعلن الثورة وتحالف مع بريطانيا. وثق قومه به ولم يجد بداً من التضحية بالملك حتى يثبت للأجيال المعاصرة وللتاريخ انه كان أهلاً للثقة، وان اخفاقه في الوفاء بما نهض لتحقيقه لم ينتج عن تخاذله بل عن خيانة حلفائه (٣).

ووقف أبناء شرقي الأردن – مثلما وقف أمير البلاد – إلى جانب عرب فلسطين في نضالهم ضد الآنتداب البريطاني والغزوة اليهودية. ونتيجة لاضراب فلسطين الكبير عام ١٩٣٦ أوفدت الحكومة البريطانية لجنة ملكية للتحقيق في أسباب الاضراب. وفي العام التالي نشرت اللجنة تقريرها الذي دعت فيه إلى تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وعندما أوفدت الحكومة البريطانية عام ١٩٣٨ لجنة فنية للنظر في امكانات تنفيذ مشروع التقسيم، قدم الأمير عبد الله الى تلك اللجنة مذكرة فند فيها التقسيم وبّين أخطاره، ثم عاد لتقديم اقتراحه الذي عرضه على المستر تشرشل عام ١٩٢١، ذلك الاقتراح القائل بحل المشكلة على أساس انشاءَ دولة موحدة تضم فلسطين وشرقي الأردن «تحت يد ملوكية عربية» وبأن يُعطى اليهود «إدارة مختارة» في المناطق التي يؤلفون فيها أغلبية عددية، وبأن يمثلوا في مجلس نواب الدولة العربية بنسبة عددهم. ولكن الحكومة البريطانية لم تلبث ان أهملت مشروع التقسيم بسبب ما لمست من معارضة العرب له، ثم اصدرت كتابها الأبيض عام ١٩٣٩ وقد تضمن انشاء دولة مستقلة في فلسطين بعد عشر سنوات، وهو الكتاب الذي وافقت عليه الدول العربية ولكن عارضته الزعامة الفلسطينية تحت تأثير الحاج محمد أمين الحسيني، مفتي فلسطين.

ونشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، ورأى الأمير عبد الله ببعد نظره وواقعيته أن يقف موقفاً إيجابيا، فأعلن انه يضع جميع إمكانات بلاده إلى جانب الحلفاء. وكان من أثر ذلك الموقف ان القوات العسكرية الأردنية تحولت من قوة أمن داخلي (درك وشرطة) إلى قوة عسكرية مدربة على فنون القتال الحديثة. وفي الوقت نفسه عمل الأمير بنشاط لإعادة بناء الوحدة السورية التي مزقتها اتفاقية سايكس - بيكو، وهو يرجو من ذلك حشد القوى العربية والاستعداد لكبح جماح الصهيونية. ولكن دعوة الأمير إلى الوحدة التي أطلق عليها يومذاك اسم (مشروع سوريا الكبرى)، لقيت معارضة من قبل بريطانيا وفرنسا ـــ اللتين لم تؤيدا قط قيام وحدة عربية متينة ـ ومن قبل الزعماء المتنفذين في سوريا الذين اغترّوا ببريق المناصب وفضلوا السير على سياسة التجزئة وتكريسها.

كان للحرب العالمية الثانية تأثيرها العظيم في قضية فلسطين، فقد ظهرت فيها القوة الحربية الهائلة للولايات المتحدة الأمريكية، تلك القوة التي كان لها الفضل الأكبر في الحاق الهزيمة بالمانيا وحلفائها. وبسبب النفوذ اليهودي الكبير في أمريكا، أهملت بريطانيا سياسة الكتاب الأبيض (لعام ١٩٣٩) وأخذت تنصاع لرغبات تلك الدولة في انحيازها لليهود والصهيونية.

لم يكتف اليهود بتسخير السياسة الأمريكية لدعم مقاصدهم، بل قاموا بثورة عارمة ضد الانكليز في فلسطين فنسفوا مؤسسات الحكومة ودمروا العديد من المنشآت، بل علقوا الجنود الآنجليز على فروع الأشجار - من أجل اقناع الحكومة البريطانية بقوتهم وبأنها لا تستطيع أن تفرض في فلسطين أي حل لا يرضون به ويوافقون عليه.

كان من نتائج التطورات التي حدثت مع نهاية الحرب: (١) الضغط الأمريكي، (٢) ضعف بريطانيا النسبي وتحولها إلى قوة من الدرجة الثانية، (٣) الثورة اليهودية (٤) عدم موافقة العرب واليهود على الحلول التي عرضتها بريطانيا ـ ان الحكومة البريطانية اتخذت قراراً بنفض يدها من مشكلة فلسطين واحالتها (نيسان ١٩٤٧) إلى هيئة الامم المتحدة ، على اعتبار أن تلك الهيئة هي التي خلفت عصبة الأمم (التي منحت بريطانيا الآنتداب على فلسطين). كان ذلك القرار طبيعياً ومنطقياً من وجهة النظر البريطانية، ولكنه كان حلقة في سلسلة الضربات التي أخذت بريطانيا على نفسها أن تصيب العرب بها. وأوفدت هيئة الامم لجنة تحقيق دولية إلى فلسطين في صيف ١٩٤٧، وأبلغت الحكومة الأردنية تلك اللجنة أنها

ترفض التقسيم وإنشاء وطن قومي لليهود، وتدعو إلى إقامة دولة فلسطينية يشترك العرب واليهود في أجهزتها بنسبة عدد كل منهم.

وفي أيلول ١٩٤٧ نشرت اللجنة الدولية تقريرها الذي اقترحت فيه تقسيم فلسطين بين العرب واليهود وإنشاء إدارة دولية في القدس. وكانت تلك هي الفرصة التي تنتظرها الحكومة البريطانية لكي تتخلص من الورطة التي أوقعت نفسها فيها وأوقعت العرب معها ـ فأعلنت انها توافق بدون تحفظ على انهاء الآنتداب.

وصوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة على مشروع التقسيم يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧، فأيدته ٣٣ دولة ورفضته ١٣ دولة وامتنعت ١٠ دول عن التصويت. وكان من المفارقات التاريخية أن تتفق أكبر دولة في المعسكر الغربي (أمريكا) وأكبر دولة في المعسكر الشرقي (روسيا) على تأييد التقسيم ودفع الدول التي تسير في فلك كل منهما إلى التصويت بتأييده.

وعلى الأثر أعلنت بريطانيا عزمها على الآنسحاب نهائيا من فلسطين يوم ١٥ أيار ١٩٤٨.

ووقف العرب واليهود على مفترق الطرق: العرب يعتقدون أن الوقت الملائم قد حان لمنع الغزاة اليهود من إقامة كيان لهم في فلسطين، واليهود يعتقدون أن الوقت الملائم قد حان لإقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين.

كان التعارض بين وجهتي النظر حاداً إلى درجة لم يكن بالإمكان معها التوصل إلى حل وسط عن طريق التفاهم. ذلك أن كل طرف كان يؤمن إيماناً لا يتزعزع بأنه على حق، وبأنه يكافح في سبيل قضية عادلة.

كان العرب يرون أنهم أصحاب البلاد الشرعيون، وأنهم توارثوا هذه البلاد أباً عن جد منذ آلاف السنين: ليس منذ الفتح الأسلامي فحسب بل منذ أيام الكنعانيين أجدادهم القدماء.

أما اليهود فقد كانت عقولهم وقلوبهم ممتلئة من أقوال التوراة، بأن (يهوه) وعدهم بهذه الأرض، وبأنهم على حق في العمل بكل الوسائل من أجل استعادة الأرض التي ملك فيها داود وسليمان ومن جاء قبلهما ومن جاء بعدهما من الشيوخ والقادة والقضاة والملوك.

كانت بريطانيا قد حاولت اقناع الطرفين بقبول حل وسط، عندما عرضت عام ١٩٤٦ مشروع (موريسون)، وعندما عرضت في العالم التالي مشروع (بيفن). ولكنها

حينما أخفقت في ذلك وقفت موقفا يصدق عليه قول القائل «رمتني بدائها وانسلت».

وكان عبد الله بن الحسين ألصق الزعماء العرب بفلسطين، وأعرفهم بامكانات الطرفين، وأكثرهم إهتماماً بإيقاف سريان الداء عند حد معين. ومن اعتقاد نابع بمسؤوليته القومية والدينية، ومن شعور تام بواجبه الوطني، سعى منذ عام ١٩٢١ وحتى أيار ١٩٤٨ إلى التوصل إلى حل سلمي عن طريق التفاهم والالتقاء في منتصف الطريق. ولكن مساعيه ومحاولاته ضاعت في خضم الشعارات المتطرفة التي كان يرفعها الطرفان. كان عبد الله بن الحسين يعرف ويعلن أن قومه العرب على حق تام لا يأتيه الباطل، ولكنه كان يرى ويلمس قوة الصهيونية العالمية، وفعالية اليهود في الاستيطان في أرض فلسطين، وتزايد قوتهم سنة بعد سنة، ويرى في الوقت نفسه ضعف بنية العرب. ومن هنا حاول إيقاف الداء عند حد معين، ومنعه من الاستشراء في جسم فلسطين كلها. ولكن الوضع النفسي السائد يومذاك عند العرب وعند اليهود كذلك، لم يكن يسمح بالاصغاء لأية دعوة من دعوات التفاهم والواقعية(٤).

وعندما نشرت لجنة التحقيق الدولية تقريرها القائل بأن أفضل حل لمشكلة فلسطين هو تقسيمها بين العرب واليهود ـ تنادى زعماء الدول العربية، الأعضاء في الجامعة، إلى عقد اجتماع لبحث المشكلة. وعقد مجلس الجامعة أول اجتماع له في بلدة عاليه (لبنان) يوم ٧ تشرين الأول ١٩٤٧. واتخذ رؤساء الحكومات السبع (مصر وسوريا ولبنان والعراق والأردن والسعودية واليمن) قراراً بمساندة عرب فلسطين لكي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم وبلادهم. ثم قام أولئك الرؤساء بزيارة الملك عبد الله في عمان لبحث الوضع معه. وكان الملك صريحاً كل الصراحة عندما قال لزائريه «ان جنح القوم ـ أعني اليهود ـ إلى السلم فسنجنح لها، وأن دعينا للدفاع عن فلسطين فسنفعل». أي أن الملك كان ما يزال يأمل في التوصل إلى حل سياسي، وكان يرى أن الحرب ستكون آخر خطة تلجأ إليها الدول العربية. وقد انبثق عن اجتماعات مجلس الجامعة تأليف لجنة عسكرية للاشراف على مد الفلسطينيين بالأسلحة وعلى دعم نضالهم بقوات من المتطوعين العرب تقاتل إلى جانبهم. واختير اللواء اسماعيل صفوت رئيساً للجنة، وانضم إليه اللواء طه الهاشمي مفتشاً عاماً للمتطوعين (وكلاهما عراقي). واتخذت هذه اللجنة دمشق مقراً لها.

بدأت الاشتباكات بين العرب واليهود بعد صدور قرار التقسيم، فعقد مجلس الجامعة

اجتماعاً في القاهرة (٨ كانون الأول ١٩٤٧). وفي هذا الاجتماع قرر رؤساء الحكومات العربية عدم الموافقة على قرار التقسيم واتخاذ التدابير الكفيلة باحباطه. ومن أجل تنفيذ هذا القرار تعهدوا بتزويد اللجنة العسكرية بما لا يقل عن ثلاثة آلاف متطوع وبعشرة آلاف بندقية، واعتماد مليون جنيه للانفاق على عمليات القتال.

ودعت اللجنة العسكرية الشبان القادرين على حمل السلاح الى التطوع والآنضمام الى جيش الانقاذ. واختير فوزي القاوقجي قائداً لقوات المتطوعين في الميدان، أي أن يكون مرؤوساً للواء اسماعيل صفوت رئيس اللجنة العسكرية. وفي شهر كانون الثاني ١٩٤٨ تم تأليف جيش الآنقاذ من ثمانية أفواج (كتائب).

وهكذا دفع العرب إلى ميادين القتال في فلسطين بقوتين، تكاد كل منهما تكون منفصلة عن الأخرى ـ مع انهما كانتا نظرياً تتبعان قيادة عليا واحدة. وهاتان القوتان هما:

١ – **جيش الآنقاذ** الذي تألف من متطوعين عرب بعضهم من الجنود المسرحين، وبعضهم ممن لم ينالوا إلا اليسير من التدريب على استعمال السلاح.

٢ – **الجهاد المقدس** بقيادة عبدالقادر الحسيني، ويضم نحو الفي مناضل. ومع أن هذه القوة كانت تتبع نظرياً قيادة اللواء اسماعيل صفوت، إلا إنها في واقع الأمر كانت تخضع لتوجيهات الحاج محمد امين الحسيني.

اجتاز فوج اليرموك الأول من جيش الآنقاذ حدود فلسطين في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٨، وتمركز في لواء نابلس (٥). وبعد ذلك دخل فوج اليرموك الثاني إلى قطاع صفد.

لم يكن للعرب في داخل فلسطين أية مؤسسات تنظيمية مثلما كان لليهود، حتى أعضاء الهيئة العربية العليا– الذين يفترض المرء أنهم كانوا يمثلون قيادة الفلسطينيين العرب – كانوا في خارج فلسطين باستثناء اثنين منهم هما أحمد حلمي عبدالباقي والدكتور حسين فخري الخالدي. لقد حال الآنتداب البريطاني دون قيام مؤسسة عربية تماثل الوكالة اليهودية. لأن حكومة الآنتداب كانت تطلب أن تعترف (الوكالة العربية) بشرعية صك الانتداب قبل السماح لها بممارسة أعمالها. ولكن يجب الاعتراف أيضاً ان الخلافات الداخلية حالت دون قيام تنظيم سري يتولى قيادة الفلسطينيين في ميدان النضال، وينسق بين حركاتهم، ويجمع صفوفهم. كانت كل مدينة من مدن فلسطين تتولى أمر الدفاع عن نفسها، وكذلك الحال بالنسبة لكل قرية. ومن هنا كان المسلحون في هذه المدينة أو تلك القرية

يحصرون اهتمامهم ضمن حدود المدينة أو القرية. ولذلك كانت القوات اليهودية المتحركة تشن هجماتها على المدن أو القرى التي تختارها، فلا يقف في وجهها سوى القوة العربية المحدودة التي تتعرض للهجوم. وكان المقصود من قوات جيش الآنقاذ ومن قوات الجهاد المقدس أن تقوم بالدور الذي كانت تقوم به قوة اليهود النظامية (الهاجانا). ولكن الفرق في الفعالية كان عظيماً، لأسباب كثيرة أهمها أن (الهاجانا) كانت جيشاً نظامياً بكل ما في الكلمة من معنى، بينما كانت قوات الآنقاذ والجهاد المقدس تعتمد على حماسة أفراد يستطيع أي واحد منهم أن ينسحب من ميدان القتال في أية ساعة يشاء، وكان أكثرهم يساهم في القتال على اسلوب (الفزعة). وبينما كانت قوات اليهود قد حصلت على تدريب عسكري جيد سواء في داخل فلسطين أو في أثناء انتساب أفرادها للقوات البريطانية أبان الحرب العالمية، وبينما كانت تلك القوات تخضع لقيادة نظامية واحدة ثابتة – كان المتطوعون العرب يعملون تحت قيادات مختلفة، وكانت معرفتهم باستعمال السلاح محدودة جداً.

الصراع بين العرب والصهيونيين

كانت موافقة هيئة الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين ايذاناً ببدء صراع طويل الأمد بين العرب واليهود. لقد انتظر الطرفان بمزيج من القلق والترقب والخوف نتائج التصويت. وعند اعلان النتيجة كان سخط العرب عظيماً بقدر فرح اليهود. كان العرب قد حذروا وأنذروا من العواقب الوخيمة التي ستترتب على إقرار مشروع التقسيم، ولكن ضغط امريكا بالذات استطاع أن يؤمن الأكثرية الضئيلة من الأصوات اللازمة لاقرار المشروع.

وساد جو من التوتر والقلق في فلسطين يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧. وكان الناس في قرارة نفوسهم يعتقدون انه لا بدّ من القتال، ولا بدّ من إراقة دماء كثيرة، قبل أن يتم التوصل إلى وضع ثابت. والذي زاد من شعور القلق والتوتر أن الدولة المنتدبة (بريطانيا) أبلغت هيئة الأمم المتحدة أنها لن تشترك في تنفيذ أية خطة في فلسطين اذا لم يوافق عليها العرب واليهود. وكان العالم كله يدرك أن العرب لا يمكن ان يقبلوا خطة يوافق عليها اليهود، وأن اليهود لا يمكن أن يقبلوا خطة يقبل بها العرب.

ومع أن الجمعية العامة كانت تعرف مدى تمسك كل من الطرفين بوجهة نظره، فأنها لم تتخذ أي إجراء لتنفيذ قرار التقسيم. وبذلك تركت طرفي النزاع – العرب واليهود – وجهاً لوجه، لكي يشتبكا في صراع دموي، وتركت فلسطين – الأرض المقدسة – لكي

تصبح مسرحاً للمآسي والمجازر وحمامات الدم، للدمار والعذاب والأحزان، سنين عديدة لا يعلم متى يمكن أن تنتهي إلا الله.

وعلى الرغم من سخط العرب وابتهاج اليهود، فان الجميع كانوا يعلمون انه لا بدّ من الاحتكام إلى السلاح.

ولكن الوضع عند الطرفين كان يحتوي على مفارقات عديدة:

كان عدد العرب في فلسطين يزيد على مليون ونصف مليون نسمة، بينما كان عدد اليهود يقارب ٦٠٠ ألف شخص. ولكن هذه الأكثرية العربية لم تكن تعني شيئاً بالنسبة لموازين القوى بين الطرفين. فبينما كان اليهود يخضعون جميعهم لحكومة منهم (الوكالة اليهودية) في تنظيم دقيق ينسق جهودهم ومواردهم وسلوكهم العام ويجعل منهم كتلة واحدة متراصة – كان العرب شيعاً وأحزاباً لا يخضعون لهيئة واحدة، ولا ترتبط جهودهم ومواردهم بنظام واحد. وبينما كان اليهود يملكون جيشاً نظامياً مدرباً ذا خبرة بفنون القتال الحديثة، كان قليلون من عرب فلسطين يعرفون كيف يستعملون البندقية، وهي أبسط أنواع الأسلحة الحديثة. وبينما كان اليهود قد جندوا ونسقوا مجاهيد وموارد اليهودية العالمية – للعمل معهم – كان عرب الأقطار المجاورة يؤيدون عرب فلسطين ويدعمونهم بكثير من العواطف والوعود وتصريحات الزعماء والمتزعمين ومقالات الصحف والمظاهرات، وبالقليل من المساعدة المجدية.

علينا أن لا ننسى الفارق الكبير في المستوى العلمي بين الطرفين. فقد كانت هناك نسبة عالية بين اليهود ممن هاجروا من أقطار اوروبا – وخاصة من المانيا وبولندا وروسيا – بينما كانت نسبة عالية من العرب ما تزال في حالة تخلف وجهل وفقر، تنظم سلوكها ضمن اطار العصبيات العائلية. إن الأكثرية الساحقة من اليهود الذين خاضوا معارك القتال في فلسطين عامي ١٩٤٧ – ١٩٤٨، لم يكونوا من طراز اليهود الشرقيين البسطاء الذين عرفهم العرب في الأقطار المجاورة وفي فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى.

لقد أعدّ اليهود انفسهم بكفاءة عالية وتنظيم دقيق لأيام الصراع الفاصلة التي ظلوا يعملون من أجلها طوال الثلاثين عاماً المنصرمة. وكانت قوتهم الدفاعية تتمثل في وجودهم ضمن منطقة صغيرة المساحة تربط بين مدنها وقراها شبكة ممتازة من طرق المواصلات، وكانت تتمثل في أن مستعمراتهم أنشئت أصلاً في مواقع استراتيجية وبحسب خطة

عسكرية، لكي تستطيع المقاومة والصمود للحصار. وقد أقاموا معظم تلك المستعمرات على روابي مرتفعة، وانشأوا أبنيتها من الاسمنت المسلح، وأعدوها لتكون قلاعاً حصينة ابتداء من أبراج المراقبة وانتهاء بالسراديب الأرضية والخنادق والأسلاك الشائكة. كما ان سكان كل مستعمرة كانوا يؤلفون وحدة عسكرية مدربة على الدفاع واستعمال السلاح. ولم تكن مهمة المستعمرة أن تدافع عن نفسها فقط بل أن تتجاوز ذلك إلى قطع خطوط مواصلات العرب وشن الهجمات على قراهم المجاورة. وكانت قوات اليهود العسكرية تتألف من قسمين:

الأول: قوات محلية للدفاع عن المستعمرات، بحيث تدافع عن كل مستعمرة مجموعة من سكانها – رجالاً ونساء – ويبلغ عدد هؤلاء نحو ٤٠ الفاً.

الثاني: قوة متحركة ضاربة (الهاجانا) على مستوى رفيع من التدريب، ومهمتها القتال خارج المدن والمستعمرات، لابقاء خطوط المواصلات مفتوحة، وللاشتباك مع أية قوات كبيرة قد يحشدها العرب للهجوم على إحدى مدنهم أو مستعمراتهم.

أما العرب فقد بدأوا من الصفر تقريباً. لقد عمل الآنتداب البريطاني على حرمانهم من اقتناء السلاح والتدرب عليه، ولم تكن لديهم سلطة مركزية (مثل الوكالة اليهودية) تعمل على تدريب مجموعات كبيرة منهم في خارج فلسطين. ولذلك لم يكن هناك كثيرون من العرب – عندما دق ناقوس الخطر – يستطيعون النزول إلى ميدان القتال والانتظام في وحدات متماسكة تخضع لأنظمة عسكرية.

في وجه هذه الخلفية تنادى الفلسطينيون للجهاد ولخوض معارك القتال. وجاء عبدالقادر الحسيني يقود جموعهم. وكان عبدالقادر أكثر رجل مؤهل لتلك المسؤولية العظيمة. وقد بدأ حشد المجاهدين اولاً في بلدة صوريف في منطقة الخليل، وكان يدرك أن أضعف نقطة في خط مواصلات اليهود هي طريق باب الواد التي تصل بين القدس وبين مناطق الكثافة السكانية لليهود في تل أبيب والساحل. كانت تلك الطريق تمر مسافة عشرين ميلاً في منتصف واد ضيق تشرف عليه الجبال العالية والهضاب الوعرة المكسوة بالأشجار. وصمم عبدالقادر أن يحكم سيطرته على تلك الطريق، وأن يمنع الاتصال بين يهود الساحل ويهود القدس المائة ألف، حتى يستسلموا.

وخاضت قوات الجهاد المقدس عدة معارك مع القوات اليهودية، وخاصة في المناطق المحيطة بالقدس، وتركزت جهودها على قطع طريق باب الواد. وكان المجاهدون يهاجمون قوافل العدو التي تحاول العبور في الطريق من الساحل إلى القدس، ويوقعون بها الخسائر ويحولون دون مرور اكثرها. وكانت قوافل اليهود تحاول المرور تحت حماية قوات مسلحة. وقد انضمت إلى قوات الجهاد المقدس وحدات من جيش الآنقاذ ومتطوعون أردنيون بعضهم من الحويطات بقيادة الشيخ هرون الجازي، وبعضهم من بني صخر بقيادة الشيخ محمد الفايز. واشترك هؤلاء في مناجزة القوات اليهودية وفي السيطرة على طريق باب الواد.

كانت قرية القسطل تقع على قمة جبل عال وتسيطر على الطريق بعد خروجها من الوادي الى المرتفعات، ولا تبعد عن القدس سوى ستة كيلو مترات. وبذل اليهود جهداً كبيراً في محاولتهم الآنتشار من السهل الساحلي إلى الجبال المحيطة بباب الواد. ودارت معارك عنيفة بين قوات الطرفين. ولكن اليهود كانوا يتفوقون على المجاهدين العرب بأن قواتهم نظامية تتحرك بأوامر قيادة عامة، وبأنهم كانوا يملكون أسلحة افضل وعتاداً أكثر من العرب، وبأنهم نجحوا في وضع الترتيبات الدقيقة لشراء الأسلحة والعتاد من أوروبا وجلبها إلى فلسطين بواسطة البحر وبالطائرات.

واستطاعت قوة يهودية في ليلة ٢ نيسان أن تستولي على قرية القسطل. وعندما بلغ النبأ أسماع عبدالقادر الحسيني (الذي كان قد ذهب إلى دمشق ليطلب من اللجنة العسكرية سلاحاً وعتاداً) سارع عائداً إلى القدس. وكان المجاهدون قد أخذوا يتوافدون من القرى المجاورة ويشنون الهجمات على قوة العدو التي بدأت تقيم المواقع الدفاعية حول القرية، وتدمر منازلها بالألغام. وقبل وصول الحسيني كان مساعداه كامل عريقات وقاسم الريماوي يقودان الهجمات على قوة العدو. وعلى الرغم مما أبداه المجاهدون العرب من بسالة، فانهم لم يستطيعوا طرد العدو من القرية. وأدرك عبدالقادر الحسيني خطورة بقاء القرية ذات الموقع الاستراتيجي الهام في أيدي الأعداء، فقرر أن يبذل كل جهد ممكن لاستردادها. ولم يلبث أن حشد رجاله وسار في طليعتهم مساء يوم ٧ نيسان. وشدد العرب الهجوم فاستولوا على القرية، ولكن في أثناء ذلك سقط القائد الباسل شهيداً بين منازلها. وذاع النبأ فكان له وقع مذهل في نفوس العرب. وحمله عدد من رفاقه إلى القدس، بينما تفرق أكثر المجاهدين

عائدين إلى القدس للاشتراك في جنازة القائد. ولم يبق في قرية القسطل سوى ٤٠ مناضلاً. وسرعان ما عاد اليهود بقوة نظامية فهاجموها مرة أخرى واستولوا عليها.

يجدر بالذكر ان عبدالقادر الحسيني كان قد أخذ معه الى القسطل معظم من كان في القدس من المناضلين. وبلغ النبأ القائمقام أحمد صدقي الجندي، قائد سرايا الأمن في رام الله، فأرسل مفارز من جنوده إلى القدس لتسير في شوارعها، حتى لا يفكر اليهود بالهجوم عليها وهي خالية من المقاتلين.

في الليلة التي استردت فيها وحدات الهاجانا قرية القسطل، قامت مجموعة من عصابتي الأرغون وشتيرن بالهجوم على قرية دير ياسين، غربي القدس. لم يكن للهجوم أي مبرر عسكري، لأن أهل القرية لم يشتركوا مع المناضلين في جهادهم. وقد عمد أفراد العصابتين إلى تقتيل الرجال والنساء والأطفال والعجائز، فبلغ مجموع القتلى نحو ٢٥٠ شخصاً. وبعد المجزرة قاموا بنسف منازل القرية، ثم عرضوا أولئك الذين استبقوهم أحياء من أهل القرية في شوارع الجانب اليهودي من القدس. وقد أشرف على هذه المذبحة مناحيم بيغن، قائد منظمة الأرغون، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء اسرائيل. (٦)

عندما سمع الملك عبدالله أنباء المجزرة تأثر كثيراً وكتب للوزير المفوض البريطاني في عمان رسالة أعرب فيها عن رغبته في ارسال وحدات من الجيش العربي لحماية القرى العربية في فلسطين، والدفاع عنها في وجه الاعتداءات اليهودية. وقد بعث الملك هذه الرسالة بيد نجله الأمير طلال، ودون ان يحيط رئيس الوزراء علماً بذلك. وفي اليوم التالي اجتمع الوزير المفوض (اليك كركبرايد) بالملك وأبلغه انه يستحيل على الحكومة البريطانية أن تسمح بدخول قوات عربية نظامية قبل انتهاء الآنتداب. وقال كركبرايد للملك ايضاً: ان هناك قرى عربية عديدة معرضة لهجوم اليهود، بحيث ان الجيش العربي كله لا يستطيع أن يؤمن الحماية لتلك القرى. ولم يبق للملك إلا أن يوافق على اقتراح تقدم به كركبرايد ومؤداه ان يتصل الفريق جلوب بالقائد البريطاني في فلسطين ليبحث معه وجوه الافادة من وحدات الجيش العربي التي كانت ما تزال في فلسطين، من أجل تحسين أسباب الأمن في المناطق العربية. وقد تضمن جواب وزارة الخارجية البريطانية (٢٨ نيسان) القول «... ان تاريخ انتهاء انتدابنا يجب أن يبقى ١٥ أيار. وعليه فلا يوجد أي احتمال بأن نوافق على أي ترتيب يستطيع الملك عبدالله من خلاله ان يتدخل في فلسطين قبل ذلك التاريخ...» (٧)

كانت لسقوط القسطل ومذبحة دير ياسين أصداء عميقة وتأثير بالغ في نفوس عرب فلسطين بصورة خاصة. فمن ناحية عسكرية ظهر واضحاً أن اسلوب العرب في القتال – الذي كانت طريقة «الفزعة» هي السمة الغالبة عليه – لم يكن ذا فعالية وجدوى في وجه القوات اليهودية النظامية. وتبين من خلال ذلك النقص الهائل عند العرب في السلاح والذخائر. أما من الناحية المعنوية فقد دب الذعر في قلوب أبناء المدن والقرى القريبة من أماكن أحتشاد اليهود. وساعد العرب أنفسهم على تضخيم الحادثة، فأخذ سكان القرى والأحياء المجاورة لأماكن احتشاد اليهود يخشون أن يحل بهم ما حل بأهل دير ياسين. وهكذا بدأت موجة النزوح على نطاق واسع: الاغنياء والميسورون إلى العواصم العربية القريبة، وعامة الناس إلى أقرب مكان اعتقدوا أن الأمن يتوافر فيه.

كانت مذبحة دير ياسين نتيجة خطة مدروسة لحمل العرب على الفرار. وقد أحرزت خطة الأعداء نجاحاً كبيراً. وأدرك عرب فلسطين أنهم لا يستطيعون وحدهم مقاومة العدو، فأخذوا يعلقون آمالهم على عرب الأقطار المجاورة لانقاذهم وكسر شوكة العدو.

وبعد سقوط القسطل ومقتل عبدالقادر الحسيني، ضعفت سيطرة المجاهدين على طريق باب الواد، فتمكن اليهود من ارسال عدة قوافل الى القدس الجديدة، وهي تحمل كميات كبيرة من السلاح والعتاد والمواد الغذائية وأعداداً من المحاربين.

وأمام موجة الاستنكار التي أثارتها مذبحة دير ياسين، أبرقت الوكالة اليهودية الى الملك عبدالله تعرب عن استنكارها للمذبحة والطريقة الوحشية التي اتبعها الارهابيون. وقد رد رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى ببرقية قال فيها «ان على الوكالة أن تتحمل وزر ما جرى، بوصفها الممثلة للشعب اليهودي». وفيما بعد تبين أن المذبحة تمت بعلم قيادة الهاجانا – القوة العسكرية الرسمية لليهود.

وكان من رد الفعل عند العرب، أن مناضلين فلسطينيين وأردنيين قاموا يوم ١٠ نيسان بنسف أنابيب الماء بين رأس العين والقدس، فانقطع وصول الماء إلى القدس، وتضايق اليهود من جراء انقطاع الماء عن أحيائهم.

وفي ١٢ نيسان تمركزت فصائل من جيش الآنقاذ في مواقع مهمة إلى الشمال والشمال الغربي من القدس، ومن بينها النبي صموئيل وبدّو. وكان ذلك دليلاً على ما أصاب تنظيمات الجهاد المقدس من ضعف بعد مصرع عبدالقادر الحسيني.

ومع مضي الأيام ازداد رجحان كفة العدو في ميدان القتال. وظهرت فعالية الاعداد اليهودي السابق وفعالية قواتهم النظامية، ووجود جميع الوحدات المحاربة عندهم في يد قيادة واحدة تحركها من موقع الى موقع بحسب الضرورة، وتعمل على تعزيز المواقع التي تحتاج الى تعزيز، وتسهر على تزويدها بالسلاح والذخائر ووجبات الطعام، وكل ما يلزم للجندي المحارب في ميدان القتال.

كان من أعظم نقاط الضعف بالنسبة لأهل فلسطين ان كل مدينة – وفي معظم الحالات كل قرية – أخذت تعمل على الدفاع عن نفسها منفردة. وكان من الطبيعي بسبب قلة الرجال المدربين على استعمال السلاح، وبسبب عدم وجود مقادير كافية من السلاح والعتاد – ان عدد المناضلين في كل قرية ومدينة كان أقل بكثير مما تدعو إليه الضرورة. وبسبب قلة عدد المحاربين، اتخذ العرب في معظم الأحيان خطة الدفاع، أو الرد على الاعتداءات. هذا على الرغم من المبدأ العسكري القائل «ان الهجوم هو خير وسيلة للدفاع». ولكن عرب فلسطين لجأوا إلى خطة الدفاع مكرهين. ومن هنا أتيح المجال أمام قيادة العدو، أن تحرك قواتها النظامية – ضمن المساحة الصغيرة التي كانت تقوم فيها مدنه ومستعمراته – للقيام بالهجوم في مواقع تختارها وتحدد الوقت لمهاجمتها.

وهكذا توالت على العرب سلسلة من التراجعات.

ففي ١٨ نيسان سقطت طبريا،

وفي ٢٢ نيسان انهارت مواقع العرب في حيفا،

وفي ٢٨ نيسان انهارت مقاومة العرب في يافا (ولكن نتيجة لتدخل الانكليز لم يحتلها اليهود إلا في ١٤ أيار).

وحاول جيش الآنقاذ ان يقوم بعملية مؤثرة، فهاجم في ٢٥ نيسان مستعمرة مشمار هاعيمك في مرج ابن عامر، ولكن الاخفاق كان مصير ذلك الهجوم – مثله مثل الهجوم السابق على مستعمرة الزرّاعة (تيرات زفي).

وفي أواخر نيسان قام اليهود بمهاجمة المرتفعات الشرقية المشرفة على طريق باب الواد، فاستولوا على قريتي بيت أكسا وبيت سوريك. ثم تقدمت قوة منهم لمهاجمة تلة الرادار العالية التي تماثل القسطل في أهمية موقعها. وكانت هذه التلة تعرف باسم (تلة الرادار) لان الجيش البريطاني أنشأ على قمتها محطة رادار في أثناء الحرب العالمية.

وكانت تتمركز على التلة فئة من سرايا الحاميات (نحو ٣٠ رجلاً) بقيادة الملازم الاول محمد السبايلة، ومهمتها صد اليهود اذا حاولوا التقدم لمهاجمة القرى العربية. وظلت هذه الفئة تقاوم هجمات العدو، حتى كانت ليلة ١٢ أيار، اذ هاجمتها قوة للعدو قدمت من مستعمرة الخمسة، الى الغرب منها، وتمكنت من الاستيلاء على التلة بعد معركة قتل فيها عدد من أفراد الجانبين. ثم هاجم العدو تلة النبي صموئيل – وكانت تدافع عنها قوة من جيش الأنقاذ – فلم تستطع الاستيلاء عليها (٨).

وفي ١١ أيار سقطت مدينة صفد ،

وفي ١٢ أيار سقطت مدينة بيسان ،

ومع هذه المدن التاريخية المهمة سقطت قرى عديدة في أيدي الأعداء.

وزاد من حجم الكارثة أن سكان هذه المدن والقرى كانوا ينزحون عنها ويتركون منازلهم بما فيها لقمة سائغة للعدو. بدأ أبناء الطبقتين الغنية والمتوسطة بالنزوح، واقتدى بهم أبناء الطبقة الفقيرة والقرويون.

وكان من أهم أسباب النزوح خوف الناس أن يحل بهم ما حل بأهل قريتي دير ياسين وناصر الدين وغيرهما، من قتل واغتصاب. وقد عمل اليهود على بث الرعب في نفوس العرب بارتكاب عدد من المجازر المدبرة، كما عملوا على بث الاشاعات التي أخذ الناس يتناقلونها مصدقين، ويزيدون عليها ويهولون في أمرها.

أما في مدينة القدس فقد كان الوضع مختلفاً الى حد كبير عن الوضع في مدن فلسطين الأخرى. ذلك أن المدينة تقع في منطقة معظم سكانها من العرب. فإلى الشمال منها رام الله وإلى الجنوب مدينتا بيت لحم والخليل. ولكن اليهود استطاعوا خلال سنوات الآنتداب أن ينشئوا أحياء خاصة بهم إلى الغرب من المدينة القديمة، حتى أصبح عددهم عام ١٩٤٨ لا يقل عن مائة ألف نسمة. وفي الوقت نفسه أنشأ العرب أيضاً أحياء خاصة بهم خارج السور من أهمها القطمون والبقعة من جهة الغرب والشيخ جرّاح من جهة الشمال وتمر منه الطريق الرئيسية إلى رام الله ونابلس.

أما المدينة القديمة فعربية بسكانها من مسلمين ومسيحيين، باستثناء (الحي اليهودي) ومعظم سكانه من اليهود الشرقيين المتدينين.

وبالاضافة إلى ما تقدم كان اليهود قد أنشأوا مباني ضخمة للجامعة (العبرية)

والمستشفى (هداسا) على جبل المشارف (سكوبس) الذي يشرف على المدينة من ناحية الشرق. وكان حي الشيخ جراح يفصل بين الجامعة والمستشفى من جهة، والأحياء اليهودية في القدس الجديدة من جهة أخرى. كما كان لليهود مستعمرتان في الضواحي الجنوبية من القدس هما رامات راحيل وميكور حاييم.

ويحيط بالمدينة القديمة سور تاريخي جدد بناءه السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر، وله سبعة أبواب هي:

١ – باب العمود Damascus Gate: يفتح إلى جهة الشمال ويؤدي باتجاه حي الشيخ جراح.

٢ – باب الساهرة (أو الزاهرة): Herod's Gate يفتح إلى الجهة الشمالية الشرقية، ويؤدي إلى حي وادي الجوز وجبل الزيتون.

٣ – باب الأسباط (أو ستنا مريم) Stephen's Gate: يفتح إلى جهة الشرق ويؤدي إلى حي رأس العمود والعيزرية وأريحا.

٤ – باب المغاربة Dung Gate: يفتح إلى الجهة الجنوبية الشرقية ويؤدي إلى قرية سلوان.

٥ – باب الخليل Jaffa Gate: يفتح إلى جهة الجنوب ويؤدي إلى بيت لحم والخليل.

٦ – باب النبي داؤد Zi'on Gate: يفتح الى جهة الغرب ويؤدي إلى جبل النبي داؤد (جبل صهيون). وفوق الباب برج متين، وعلى بعد ١٠٠ متر منه تقوم كنيسة نياحة العذراء (دورميثيون) على جبل النبي داؤد. وكان رجال الجيش العربي يسمونها (الدير الالماني)، ولها جرسية عالية.

٧ – الباب الجديد New Gate: يفتح إلى جهة الشمال الغربي، ويؤدي إلى حي المصرارة وحي سعد وسعيد، ويبعد عن النوتوردام نحو ٥٠ متراً (٩).

إن وجود العرب واليهود في مدينة واحدة زاد من أسباب الاحتكاك بينهما. وما أن أُعلن قرار التقسيم حتى بدأ كل جانب يشن الهجمات على الجانب الآخر. وبينما أخذ العرب يحاولون السيطرة على طريق باب الواد وضرب طوق الحصار على يهود القدس، كان هؤلاء يحاولون بدورهم الضغط على الأحياء العربية، وعلى القرى العربية المحيطة بالقدس من ناحيتي الغرب والجنوب. وفي كانون الاول ١٩٤٧ نزح أهل قرية لفتا (غربي القدس) عن قريتهم بفعل الضغط اليهودي. ولم يلبث اليهود ان هاجموا قرية بيت صفافا (بين مستعمرتي رامات راحيل وميكور حاييم) فنزح اهلها عنها في شباط ١٩٤٨ ولم يبق في القرية سوى عدد قليل من المناضلين.

وفي حي القطمون دارت اشد المعارك عنفاً، اذ كانت تدافع عنه مجموعة من المناضلين بقيادة ابراهيم ابوديه. ولم يلبث سكان ذلك الحي حتى أخذوا ينزحون عنه في كانون الثاني ١٩٤٨، وكان ذلك مقدمة لاستيلاء اليهود عليه وعلى حي الطالبية وحي البقعة ايضاً.

وازداد ضغط العدو على المدينة فنزح معظم سكان حي الشيخ جراح عنه، وسرت عدوى النزوح إلى الأحياء العربية الأخرى خارج الأسوار.

وفي شهر آذار دخلت الى القدس سرية من جيش الآنقاذ بقيادة الملازم فاضل رشيد عبدالله (عراقي) للمساهمة في الدفاع عن المدينة.

واستطاع اليهود يوم ٢٤ نيسان ان يستولوا على حي الشيخ جراح، وان يتصلوا بالجامعة العبرية وهداسا. وبذلك انقطع اتصال العرب في القدس برام الله. ولكن القوات البريطانية تدخلت وأرغمت اليهود على الآنسحاب: ليس غيرة على العرب او انحيازاً لهم، بل من أجل ابقاء طريق مواصلاتها مفتوحاً.

وكان مجلس الأمن الدولي قد اتخذ قراراً في ٢٣ نيسان يدعو إلى ايقاف العمليات العسكرية في فلسطين وعقد هدنة بين الأطراف المتنازعة، وتعيين لجنة خاصة لمراقبة تنفيذ شروط الهدنة. وقد تألفت هذه اللجنة فعلاً في ٢٧ نيسان من قناصل فرنسا وامريكا وبلجيكا المقيمين في القدس. وحاولت اللجنة اقناع اليهود بالتوقف عن مهاجمة الأحياء العربية في القدس، ولكن اليهود مضوا في شن الهجمات غير آبهين. لذلك كان من المستغرب أن تبعث تلك اللجنة في ٢٩ نيسان بمذكرة إلى الملك عبدالله تشير فيها إلى الأنباء المنتشرة في البلاد والقائلة بأن الجيش العربي يعتزم القيام بحركات عسكرية في فلسطين، وتطلب الى الملك ان لا يتخذ أي قرار او يقوم بأي عمل يتنافى مع قرار مجلس الأمن.!!

وحينما اشتد ضغط اليهود على حي القطمون، ولم يبق فيه سوى المناضلين، أرسلت قيادة الجيش العربي أمراً إلى الرئيس سليمان مسعود (قائد السرية التاسعة التي كانت تقوم بحراسة معسكر العلمين – القريب من القطمون) بأن يرسل عدداً من أفراد السرية لحراسة دار القنصلية العراقية في الحي. وقد ألقيت المهمة على عاتق فئتين من الجنود بقيادة الملازم عبدالرحمن الفراهيد (نحو ٥٠ رجلاً). كان الحي خالياً إلا من مناضلي أبو ديه.

وجاء هذا يستعين بجنود الجيش، فانتدب الملازم الفراهيد عشرين من جنوده للقتال في صفوف المناضلين، بعد أن خلعوا ملابسهم العسكرية وارتدوا ملابس مدنية. ولكن اليهود ظلوا يشددون الضغط بقوات متفوقة، فاضطر المناضلون والجنود أن يتراجعوا، وفي أثناء ذلك أصيب نائب درزي «من أشجع الرجال» اصابة قاتلة. وأصابت أحد الجنود طلقة في فكه، ولكنه أبى أن يترك رفاقه. وأصبحت القوة مطوقة وانقطع وصول المؤن إليها. وبعد أربعة أيام من الاشتباكات جاء الرئيس عبدالله التل ومعه ثلاث مدرعات لتغطية انسحاب القوة. ولم يلبث الحي حتى سقط في أيدي اليهود يوم ١ أيار. وكان لسقوطه تأثير كبير، اذ انه يقع على رابية مرتفعة تسيطر على المواقع المحيطة بها. وقد تأثر الملك عبدالله لسقوط الحي فاتصل هاتفياً بالمندوب السامي طالباً إليه التدخل، ولكن المندوب اعتذر بأنه لا يستطيع ان يفعل شيئاً.

الجيش العربي في فلسطين

بدأت وحدات الجيش العربي ترابط في فلسطين منذ عام ١٩٤٠، فكانت تقوم بحراسة المعسكرات والمطارات ومحطات سكة الحديد ودوائر الحكومة والمواقع المهمة الأخرى. وفي خلال السنوات التي قضتها هناك، تعرف أفرادها من ضباط وجنود على حقيقة الوضع السياسي في فلسطين، وتعرفوا على البلاد وأهلها، وعلى طرقها ومدنها وقراها، فاكتسبوا من ذلك خبرة أفادوا منها عندما بدأ القتال.

وفي خلال تلك السنوات قدم الجيش العربي خدمات عظيمة لأهل فلسطين. ففضلاً عما كان لوجوده من تأثير معنوي يستمد منه العرب الأمل والعزم، فقد كان اليهود يرهبون جانب أفراده ويتجنبون الاحتكاك بهم.

وبعد صدور قرار التقسيم، وبدء الاشتباكات بين العرب واليهود، تدفقت مجموعات من المناضلين الأردنيين للاشتراك في شرف الجهاد. فكانت هناك مجموعة من قبيلة الحويطات بقيادة الشيخ هرون بن جازي، ومجموعة أخرى من بني صخر وبدو البلقاء بقيادة الشيخ محمد الفايز، ومجموعات من عشيرة العدوان وعشيرة الحديد، وفصائل من أبناء القبائل الأردنية، كل فصيل يقوده أحد الشيوخ. ومن هؤلاء هايل السرور وعتيق العطنة وسويلم الدحيلان ونهار السبوع ومناور الرجا وفلاح المطلق وجدوع بن سالم. ويتراوح عدد رجال كل فصيل من ٣٠ إلى ٥٠ رجلاً. وقد عملت قيادة الجيش على تنظيم

هؤلاء المجاهدين، وخاصة بعد دخول الجيش للقتال في فلسطين لكي يساهموا في قتال العدو ويساعدوا المناضلين الفلسطينيين في مقاومته. وقامت القيادة بتسليمهم أسلحة من مستودعاتها. وكان توزيع هؤلاء المتطوعين بصورة رئيسية على ثلاث مناطق (١) منطقة باب الواد واللطرون (٢) منطقة اللد والرملة (٣) منطقة القدس. ويقدر عدد الأردنيين الذين اشتركوا في القتال بـ ١٢٠٠ مجاهد.

وقد عمل الجيش على تأليف أربع سرايا، نظامية وشبه نظامية، من المتطوعين، للقتال في فلسطين، وهي:

١ – سرية التحقت بفوج اليرموك الثاني، وكانت تتألف من ٢٠٠ متطوع من أفراد الجيش العربي، بعضهم من المسرحين وبعضهم ممن استقالوا من الخدمة الفعلية لكي يلبوا داعي الجهاد. ووصف عبدالرحمن الصعوب، أحد الضباط الأردنيين الذين قاتلوا في صفوف جيش الأنقاذ، دور السرية الأردنية، على النحو التالي:

في أواخر ١٩٤٧ صدر تعميم من قيادة الجيش بأن باب التطوع مفتوح لمن يرغب في الالتحاق بقوات الأنقاذ. استقلت من سلك الأمن العام (كنت برتبة وكيل ضابط) وتطوعت. أرسلتنا قيادة الجيش الى معسكر (قطنة) غير بعيد عن دمشق. كان هناك نحو ٢٥٠ متطوعاً أردنياً بين جنود وضباط. أذكر من الضباط: علوش داغش ابوتايه، ومحسن يعيش (من بدو شبه الجزيرة) وساري الفنيش النصيرات وعبدالحافظ الصعوب واميل جميعان. كنا جميعاً تدربنا عسكرياً في صفوف الجيش. وفي قطنة عين الرئيس النصيرات قائداً للسرية الأردنية والملازم أميل جميعان مساعداً له. في أوائل كانون الثاني تحركنا الى ترشيحا حيث قمنا بمحاصرة قلعة (جدين) التي كان اليهود فيها. أديب الشيشكلي كان قائد الجبهة. ذات يوم أرسل اليهود ٩ سيارات صغيرة تحمل أرزاقاً لجنودهم المحصورين. اعترضنا السيارات ونشب القتال وكانت النتيجة أن ٥٦ شخصاً من الاعداء قتلوا. واحترقت سيارات اليهود وغنمنا الأسلحة والمؤن. كانت خسارتنا ٨ شهداء وعدد من الجرحى. بعد ذلك دخلنا مدينة صفد في أوائل نيسان مع قوة من السوريين للدفاع عنها. هناك كنا نسيطر على جانب من المدينة واليهود يسيطرن على الجانب الآخر. كان هناك الضابط احسان كم الماز (هو كردي وخاله حسني الزعيم). لم أعرف في حياتي أشجع

منه. في احدى الليالي قام كم الماز بنسف عمارة كبيرة كان اليهود يستحكمون فيها. ولكن لم يلبث اليهود أن استولوا على موقعين يحيطان بصفد (عين زيتين وعين الزيتون). بنتيجة الاستمرار في القتال، حل الانهاك بجنودنا. كان الرئيس النصيرات يتولى القيادة في صفد، فذهب وانا معه إلى قيادة الشيشكلي في موقع (الرأس الأحمر) مستنجداً. هذا الموقع يبعد ٣٠ كيلو متراً عن صفد. كان عدد العرب في صفد نحو ٥٠٠ رجل، ولكن اليهود كانوا أكثر عدداً. بعد عودتنا شن اليهود هجوماً شديداً. كانت المبادأة أصبحت في أيديهم. في القتال أصيب ابراهيم حمد الله الفواعير، ولم يلبث ان قضى نحبه. أرسل الشيشكلي نجدة لنا نحو ٢٠٠ شاب كانوا وصلوا للتو من حماة. كان هؤلاء متطوعين أغراراً دون تدريب. بالتدريج رجحت كفة اليهود وطوقوا صفد من ثلاث جهات. أضطررنا للانسحاب نحن والمتطوعون الحمويون. كانت هناك خسائر في صفوفنا (كان الانسحاب يوم ١١ أيار). أميل جميعان كان آخر واحد انسحب. كان شجاعاً وصاحب عقل نير. ترك لليهود رسالة في مركز قيادتنا يطلب منهم معاملة الأسرى والجرحى بحسب اتفاقية جنيف. انسحبنا الى كفر برعم. ثم قمنا بمهاجمة اليهود الذين كانوا استولوا على قرية (المالكيه)، فطردناهم منها. هنا أصيب العريف محمد نمران، من عرب السردية، وأستشهد جندي بدوي. بعد فترة انتقلنا الى بنت جبيل، وبعدها الى دمشق. أعيد تنظيم السرايا وأصبحنا جزءاً من فوج اليرموك الرابع. تولى قيادة الفوج القائد محمد صفا (سوري) وبعده وكيل القائد وصفي التل. ثم انتقلنا الى قرية (المغار) في الجليل ثم الى (عيلبون) وبعدها الى (كفر مندا). كان وصفي يقضي الليل وهو يتفقد وحدات الفوج. ثم سقط الجليل كله، فانسحبنا إلى سوريا في أواخر شهر تشرين الأول ١٩٤٨. عانينا الكثير من الجوع والعطش. (١٠)

ويجدر بالذكر ان ضباطاً ومتطوعين أردنيين اخرين التحقوا بقوات الانقاذ. اذكر من بين هؤلاء وليد النجداوي وعبد الرحمن الخص وضيف الله الروسان.

٢ – سرية من المتطوعين قوامها ١٥٠ مجاهداً بقيادة الرئيس المتقاعد بركات طراد الخريشا. وقد التحقت هذه السرية بفوج اليرموك الثالث (الانقاذ) وتمركزت على جبل الزيتون ثم اشتركت في القتال في مدينة القدس. وكانت تعرف بأسم سرية (منكو) لان السيد ابراهيم منكو تبرع بدفع نفقاتها. وكان ضابط الصف المتقاعد أحمد الظاهر الديك (من قرية دير ابوسعيد) مساعداً لقائد السرية.

٣ – سرية ابوعبيدة: وكانت تضم نحو ١٢٠ متطوعاً من جماعة الاخوان المسلمين في الأردن، وتولى قيادتها الحاج عبداللطيف أبوقورة، يساعده ممدوح الصرايرة (ضابط سابق في الجيش العربي). دخلت هذه السرية إلى فلسطين في ١٤ نيسان وتمركزت في بلدة عين كارم (بعد أن استنجد وجوهها ووجوه المالحة بالملك عبدالله) وكان سلاح أفرادها البنادق بالاضافة إلى ثلاث رشاشات ومدفع هاون عيار ٢ بوصة. وكان مع السرية اثنان من ضباط الصف لاستعمال المدفع وتدريب المتطوعين. وخاضت هذه السرية عدة معارك واستشهد عدد من أفرادها نذكر منهم سالم المسلط (بني صخر) وبشير سلطان (الرصيفة). وانضم إلى هذه السرية متطوعان بريطانيان اتخذ أحدهما أسم (جعفر) والثاني أسم (ممدوح)، وقد جرح أولهما في إحدى المعارك.

٤ – سرية أسامة، بقيادة فارس عقيل (أبوعبده) ومساعده عربي جميل، وعدد رجالها نحو ١٠٠، وقد وصلت الى بيت لحم بعيد ١٥ أيار، ووضعت تحت اشراف قائد السرية ١٢. واشتركت هذه السرية في معركة رامات راحيل، واستشهد من أفرادها محمد صالح الشالاتي.

يجدر بالذكر أن الجيش العربي قدم الأسلحة والذخيرة والملابس للسرايا. وكان ينفق على سرية ابوعبيدة من التبرعات التي جمعتها لجنة (انقاذ فلسطين) من أبناء الأردن. وبقيت السرية في فلسطين حتى عقد الهدنة الثانية فعادت إلى الأردن.

وبذل الجيش الأردني جهوداً في مجال مساعدة عرب فلسطين على الدفاع عن مدنهم وقراهم ضد اعتداءات اليهود. وكان الملك عبدالله قد أوعز لقيادة الجيش بأن تعمل على تدريب الشبان القادرين على حمل السلاح، في فلسطين. واستدعت قيادة الجيش عدداً من الضباط وأوعزت لهم بالقيام بمهمة التدريب. وجاء في مذكرة كتبها الفريق جلوب بعد مرور سنة على الحرب، ما يلقي ضوءاً على جهود الجيش في هذا المجال:

« في كانون الثاني ١٩٤٨ زرت يافا واللد والرملة والمسمية ومدن وقرى أخرى في السهل الساحلي، ورجوت الأهلين أن يقوموا باستعدادات للدفاع عن أنفسهم. وعرضت أن أقدم لهم أسلاكاً شائكة ليحيطوا بها قراهم، وأعطيتهم أسلحة بالقدر الذي كان في استطاعتنا تقديمه. ولكن الأهلين لم يتخذوا أي اجراء، بل أجابوا انهم لا يخافون اليهود» (١١).

كان جلوب يريد أن تتبع المدن والقرى العربية أسلوب اليهود أنفسهم في تحصين مستعمراتهم، وفي كون كل مستعمرة تملك أسلحة كافية للدفاع عن نفسها، وكون جميع سكانها مدربين على القتال الدفاعي. ولكن عرب فلسطين لم تكن لديهم قيادة واحدة – مثل اليهود – تقيم في وسطهم وتتولى توجيههم.

والواقع ان سرايا حاميات الجيش العربي التي كانت منتشرة في فلسطين، بذلت كل ما كان في الوسع للاسهام في أعمال التدريب، اذ أخذت ترسل المدربين الى القرى والمدن لتدريب كل من كان راغباً في حمل السلاح. وكان أولئك المدربون يرتدون اللباس المدني. وقد أوعزت القيادة للملازم الاول صالح الشرع (قائد معسكر صرفند) بالذهاب الى اللد ومعه عدد من الضباط وضباط الصف نذكر منهم: حسن محمد حسن (أبو دنيا) وتوفيق القسوس. وقام هؤلاء بتدريب نحو ٦٠٠ شاب من أهل اللد والقرى المحيطة بها. بل ان قادة السرايا كانوا يرسلون فنيين لاصلاح أسلحة المناضلين.

واستدعى الفريق جلوب الملازم قاسم الناصر وكلفه بالذهاب الى الرملة والقرى المحيطة بها للعمل على تدريب الشبان ومساعدة الأهلين على الدفاع. وكان الملازم الناصر قد عمل قبل ذلك ومعه عدد من ضباط الصف، على تدريب المناضلين في قرية السافرية (قرب اللد). ومضى الملازم الناصر الى الرملة، ولكنه لم يجد التشجيع الكافي من رئيس البلدية للقيام بالتدريب فعاد أدراجه.

فيما بعد حدثني محمود علاء الدين، رئيس بلدية الرملة، انه دعي ذات يوم للاجتماع مع الفريق جلوب في معسكر صرفند (وحضر الاجتماع كذلك رئيسا بلديتي غزة واللد)، وان جلوب سألهم عن استعداداتهم للمرحلة المقبلة، فقالوا له انهم سيدافعون عن أنفسهم الى ان ينتهي الانتداب وتدخل الجيوش العربية. وقال انهم طلبوا منه سلاحاً وذخيرة فأجابهم أنه لا يوجد لدى الجيش فائض من السلاح والذخيرة ليقدم لهم. وطلب جلوب ان يكون هناك تنسيق بين الجيش العربي وبينهم فرحبوا بذلك. وقال علاء الدين ان الضابطين عبدالله التل وراضي العبدالله ومعهما ضابط الصف توفيق القسوس، عملوا على تدريب ما لا يقل عن ٥٠٠ مناضل من أهل الرملة على استعمال الأسلحة الخفيفة. وكان التدريب يتم بصورة مكتومة. والواقع ان التحفظ الذي كان يواجه به جلوب من قبل الفلسطينيين طبيعي جداً، لان جلوب انكليزي ولم يكن أحد يستطيع ان يفصل بينه وبين غيره من الانكليز اللذين

وطدوا أقدام اليهود في فلسطين. لقد كان جلوب في نظرهم انكليزياً قبل ان يكون رئيس أركان للجيش الاردني.

وعملت قوة الجيش العربي المتمركزة في معسكر صرفند على تدريب الشبان الفلسطينيين على كيفية استعمال الأسلحة. وكان التدريب يتم في أماكن بعيدة عن الأنظار: في العباسية وصرفند والبرية وغيرها. وهذا التدريب أتاح لكثيرين ان يشتركوا في الدفاع عن مناطقهم عندما بدأت الاشتباكات مع العدو. وزيادة في الاحتياط كانت شهادات التعيين تؤخذ من رجال الجيش الذين يقومون بالتدريب، بقصد اخفاء انتسابهم للجيش. وبلغ من حماسة بعض الجنود ان عدداً منهم تركوا الجيش وانضموا الى المناضلين، وفيما بعد وافق الفريق جلوب على اعادتهم الى وحداتهم دون محاكمة (من بين هؤلاء دغيليب الحويطي الذي أستشهد فيما بعد في القدس). وقدم ضباط الحامية عتاداً وألغاماً وصفائح حديد للشيخ حسن سلامة. ويقول القاوقجي في مذكراته ان عدداً من جنود الجيش العربي فروا بأسلحتهم والتحقوا بجيش الانقاذ لكي يقاتلوا في صفوفه. وهذا يدل على حماسة اولئك الجنود، الذين كانوا يخشون في بادىء الأمر ان لا يشترك الجيش العربي في الحرب.

واستقال الملازم الأول محمد الحمد الحنيطي من الجيش للالتحاق بصفوف المناضلين، فعينته اللجنة القومية في حيفا قائداً للمناضلين في المدينة. وقد عمل الحنيطي على تنظيم الدفاع ومناجزة العدو. وفي منتصف آذار ذهب الى حدود لبنان لمرافقة قافلة سيارات تحمل أسلحة وذخائر. وعند وصول القافلة الى قرب مستعمرة (موتسكن) بين عكا وحيفا، اصطدمت بكمين يهودي (١٧ آذار)، ودارت بين الفريقين معركة أستشهد فيها الحنيطي ورفاقه.

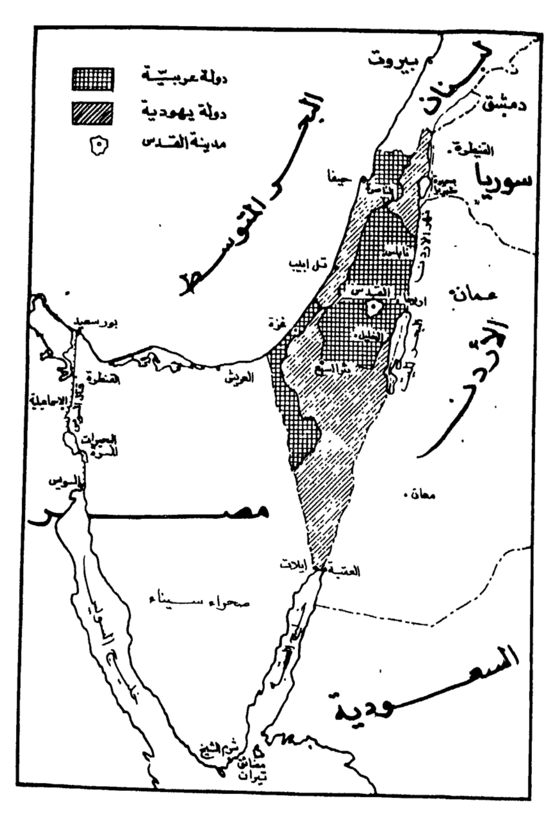
وبذل أفراد سرايا الجيش العربي في حيفا جهداً كبيراً في تدريب الشبان الراغبين في حمل السلاح وتزويدهم بالاسلحة: في حيفا وعكا والطيرة وبلد الشيخ. وكان ذلك يتم بصورة سرية حتى لا تصل انباؤه الى الانكليز واليهود. وأشار محمد نمر الخطيب الى المساعدات التي قدمتها تلك السرايا لاهل حيفا العرب، بقوله:

«... وعلى الرغم من أنها كانت تابعة للجيش الانجليزي، ولكنها مع ذلك افادتنا نحن العرب في حيفا افادة قوية. واني اشهد لله شهادة خالصة بأنهم كانوا نعم النصير والمعين في الملمات. ولقد كانوا يوقعون باليهود أفدح المصائب وينزلون بهم أشد

البلاء في المناطق التي كانوا يرابطون فيها. ولقد أظهروا من ضروب الشجاعة والثبات والتضحية ما أسجله لهم بكل فخر واعتزاز.. كل هذا جعل اليهود يستغيثون بالانجليز لسحب هذه السرايا، فلبى الانجليز لهم هذا الطلب... واني لعلى يقين لو ان الأمر ترك اليهم، أو لو أن أمرهم بيدهم لكانوا وحدهم على استعداد للقضاء على يهود حيفا. فلقد كان الواحد يساوي ألفاً... حياهم الله» (١٢).

ونتيجة لمراجعة رئيس بلدية يافا الدكتور يوسف هيكل، للملك عبدالله والفريق كلوب، عمدت قيادة الجيش في شباط ١٩٤٨ الى انتداب الملازم الأول راضي العبدالله مع أربعة من ضباط الصف، للاشتراك مع المناضلين في الدفاع عن المدينة، وزودتهم برشاشتي فيكرز. وقد ابتاعت البلدية سيارتين وتم تركيب الرشاشتين عليهما. وقام الملازم العبدالله وضباط الصف بواجبهم خير قيام من حيث الاشتراك في صد هجمات اليهود وفي تدريب المتطوعين. ولكن لم يلبث اليهود ان استولوا على (يازور) وعلى مواقع أخرى، بحيث أصبحوا يطوقون المدينة من ثلاث جهات. وعلى الرغم من دخول قوة جيش الانقاذ (نحو ٢٠٠ مجاهد) بقيادة الرئيس ميشيل العيسى في شهر نيسان، فان ضغط اليهود استمر في التصاعد، وأخذ الأهلون ينزحون براً وبحراً. وبدا للقيادة أن وضع المدينة أصبح ميئوساً منه، فانسحب الملازم العبدالله ورفاقه الأربعة يوم ٥ أيار. وفي اليوم نفسه غادر رئيس البلدية يافا أيضاً وذهب الى عمان (١٣).

واستنجد أهل بئر السبع بالحكومة الأردنية، وأرسلوا في شهر كانون الثاني وفداً الى عمان قوامه ستة من أعضاء اللجنة القومية، فأرسلت قيادة الجيش اليهم الملازم قاسم الناصر ومعه ثلاثة من ضباط صف السرية الثانية عشرة (كانت قد انتقلت من وادي الصرار الى حلحول في تشرين الثاني ١٩٤٧)، وهم النائب عيادة عيسى مدانات والنائب محمد عبدالله ابوالعاص والعريف علي سلامة العجرمي. وقد عمل هؤلاء على تدريب ستين متطوعاً زودتهم القيادة بالبنادق والعتاد وأخذت تدفع لهم رواتب. كما تم اعداد ترتيبات دفاعية. واستمر وجود هذه العناصر من رجال الجيش في بئر السبع حتى مجيء المتطوعين المصريين، فانسحبوا عائدين الى الخليل. ولم يقتصر التدريب على بئر السبع، بل شمل عدداً من متطوعي الخليل والظاهرية والقرى المحيطة بهما، حيث تألفت من



مشروع تقسيم فلسطين الذي أقرّته هيئة الامم في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧

هؤلاء مجموعة تضم خمسين متطوعاً، تم تزويدهم بالبنادق والعتاد وكان الجيش يدفع رواتب لهم.

وفي أوائل شهر نيسان ١٩٤٨ حضر الفريق جلوب اجتماعاً عقده عدد كبير من شيوخ قبائل منطقة بئر السبع وجبل الخليل، في موقع (حوره) بين الظاهرية وبئر السبع. وكان الاجتماع بدعوة من الشيخ حسن العطاونة – أحد كبار شيوخ قبيلة التياها. وفي ذلك الاجتماع قدمت للفريق جلوب مضبطة بايع فيها موقعوها الملك عبدالله، مع الطلب بأن تتولى الحكومة الأردنية ادارة البلاد بعد رحيل الانكليز. كما قدمت بعد ذلك عدة مضابط مماثلة من قبائل اخرى في منطقة بئر السبع.

وساهمت السرية السادسة بقيادة الملازم ضرغام الفالح في موازرة المناضلين من ابناء غزة والقرى المجاورة لها وفي تزويدهم بالعتاد والسلاح. وكانت تتولى حراسة مداخل المدينة ويشترك جنودها في عمليات المناضلين وهم يرتدون الملابس المدنية. واستمر رجال السرية في مؤازرة اخوانهم حتى انسحبت من غزة في أواخر ايام الانتداب.

وعند صدور قرار التقسيم انتقلت سرية الأمن الثانية (قائدها الرئيس محمد خلف العمري) والسرية ١٣ (قائدها الرئيس فارس العبد) الى جبل الطور، فتمركزتا قبالة هداسا والجامعة العبرية. وكانت وحدات هاتين السريتين تقوم بحراسة دوائر الحكومة في القدس. وفي تلك الأثناء قامت السريتان بتدريب ما يزيد على مائة شاب من أهالي الطور والعيزرية وسلوان وأبوديس والعيسوية، على استعمال السلاح. ومن هؤلاء الشبان تألفت سرية الحسين (مناضلين) بقيادة عثمان بدران (المعلم في المدرسة الرشيدية). ونذكر هنا من ضباط السرية الثانية: فايز ايوب ومصطفى الجبور ومحمود المعايطة وعبدالعزيز عصفور، ومن ضباط السرية ١٣: قاسم أبوشريتح وساري عوض ومهاوش ذيب وعبدالسلام جمعه وناصر النيف. وفي ١٢ أيار انسحبت السريتان من الطور، فانتقلت السرية الثانية الى رام الله (عن طريق اريحا – نابلس)، بينما أخذت السرية ١٣ مواقعها في الخان الاحمر بين القدس وأريحا.

وعمل عدد من ضباط الكتيبة الثانية عام ١٩٤٧ على تدريب المناضلين في منطقة المجدل. كما ان ضباط السرية التاسعة التي كانت تقوم بحراسة معسكر العلمين في القدس، عملوا عدة أشهر في تدريب عدد يتراوح ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ شاب من أعضاء منظمة

(الفتوة) في بلدة عين كارم، نذكر من هؤلاء الملازم نايف الحديد والملازم تركي الهنداوي. وكان التدريب على استعمال البنادق والرشاشات.

وكثيراً ما وقعت صدامات مسلحة بين جنود الجيش والقوات اليهودية. من جملة ذلك ان قافلة يهودية مرت بالقرب من مواقع الكتيبة التي كانت ترابط في معسكر بيت نبالا مساء يوم ١٤ كانون الاول ١٩٤٧. وقد تحرش رجال القافلة بالجنود، فما كان من هؤلاء الا ان اطلقوا نيران أسلحتهم على القافلة وأحرقوا سياراتها، وكانت خسارة اليهود ١٢ قتيلاً وعشرة جرحى.

ويكاد يكون من نافلة القول أن الملك عبدالله هو الذي شجع ابناء القبائل على الذهاب الى فلسطين لتعزيز المقاومة العربية فيها، في خلال الأشهر الستة التي سبقت موعد انتهاء الانتداب البريطاني، وهو الذي كان يحث القيادة الأردنية على تزويدهم بالسلاح. تلك هي الوسيلة الوحيدة التي كان يومذاك يستطيع من خلالها ان يقدم نوعاً من المؤازرة للعرب في فلسطين.

الاجتماعات العربية والقرار الأردني

ظلت الدول العربية تمني نفسها بالآمال في أن تتمكن قوات الانقاذ والجهاد المقدس من خضد شوكة اليهود. ولم تكن في الوقت نفسه ترغب في اظهار العزم على التدخل بقواتها النظامية – ربما لاجتهادات سياسية – حتى ان مصر لم توافق في شهر آذار ١٩٤٨ على عقد مؤتمر لرؤساء الأركان. ولكن سقوط القسطل ومجزرة دير ياسين أحدثا تأثيراً قوياً في النفوس. واستخلص الزعماء العرب من ذلك ان قوات الانقاذ والجهاد المقدس لا تستطيع تحقيق الغاية المنشودة، فتنادى رؤساء حكوماتهم للاجتماع. وابتداء من ١٠ نيسان، عقد أولئك الرؤساء سلسلة من الاجتماعات في القاهرة. وفي الاجتماع الأول قدم اللواء اسماعيل صفوت تقريراً عن الموقف في فلسطين وشدد على ضرورة تدخل الجيوش النظامية. **وعندئذ أعلن توفيق أبوالهدى رئيس وزراء الأردن ان الجيش العربي سيدخل الى فلسطين حال انتهاء الانتداب، فكان ذلك أول اشعار من دولة عربية بعزمها على التدخل عسكرياً في فلسطين.**

كانت المجزرة التي نفذها الارهابيون اليهود في دير ياسين حافزاً أساسياً للدول

العربية كي ترسل قواتها العسكرية الى فلسطين لانقاذ أهلها من مذابح مماثلة. وكان من أثرها – ومما حدث في الوقت نفسه من استيلاء اليهود على القسطل واستشهاد عبدالقادر الحسيني قائد قوات الجهاد المقدس – ان ظهر رجحان كفة اليهود، وهبوط معنويات العرب في فلسطين. ولم يقتصر هبوط المعنويات على قوات المناضلين، لان فوزي القاوقجي أعلن بدوره أن وضعه حرج وانه بحاجة ماسة الى مزيد من القوات وبدون ابطاء.

ولا يفوتني هنا أن أشير الى ان عبدالرحمن عزام، الأمين العام لجامعة الدول العربية، طلب من السفير البريطاني في القاهرة، ان تبقى بريطانيا في فلسطين. ولكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك وكررت عزمها على الانسحاب في الموعد الذي قررته سابقاً (١٥ ايار). وقيل أن عزام فعل ذلك بايعاز من مصر وسوريا.

من الطبيعي أن يكون الملك عبدالله اكثر زعماء العرب اهتماماً بما يحدث في فلسطين. فقد بعث في ١٣ نيسان رسالة الى اللجنة السياسية لدول الجامعة التي كانت تجتمع يومذاك في القاهرة، يعرض أن تتولى قوات الجيش العربي العمل على انقاذ فلسطين. وقد قام فوزي الملقي، وزير خارجية الأردن، بتسليم رسالة الملك الى عبدالرحمن عزام. وكانت النتيجة ان اللجنة السياسية قررت ايفاد اللواء اسماعيل صفوت الى عمان لبحث الموضوع مع الملك. ووصل اسماعيل صفوت يوم ١٥ نيسان الى عمان وهو يحمل الرسالة التالية من عزام الى الملك عبدالله:

أبلغني سعادة فوزي باشا الملقي يوم أمس رسالة جلالتكم. ولمعرفتي الأكيدة باستعدادكم لانقاذ فلسطين بأية وسيلة ممكنة، قمت بعرض الموضوع على اللجنة السياسية للجامعة. وفي اجتماع اليوم قررت اللجنة ان تشكر جلالتكم على شهامتكم وغيرتكم العربية، وتقرر ايضاً تفويض القائد العام اسماعيل صفوت باشا ان يبحث مع جلالتكم الاجراءات التي يجب اتخاذها لتحرير العرب المحاصرين ومنع حدوث مزيد من المذابح كما حدث في قرية دير ياسين ومواقع اخرى. وترى اللجنة بالاجماع ان وجود الجيش العربي في فلسطين سيجعل بالامكان ان يقوم الجيش بهذا الواجب المهم بالسرعة المطلوبة.

ان اللجنة السياسية تناشد جلالتكم ان تسمحوا للجيش العربي الأردني ان يقوم بهذه

المهمة. وأغتنم هذه المناسبة لأقدم لجلالتكم شكر اللجنة على غيرتكم والاستعداد الكريم الذي ابديتموه. (النص مترجم عن الانكليزية).

لم يلبث اسماعيل صفوت ان عاد الى القاهرة وهو يحمل رسالة جوابية من الملك عبدالله الى عزام باشا، تتضمن النقاط التالية:

أ - جميع القوات الموجودة الان في فلسطين، والتعزيزات التي ستصل اليها، يجب أن تخضع للقيادة الأردنية. [المقصود هنا قوات جيش الانقاذ والجهاد المقدس]

ب - لا يستطيع الجيش العربي ان يعمل بحرية قبل يوم ١٥ ايار.

جـ - المجاهدون العرب المدربون في فلسطين لايزيد عددهم على ثلاثة آلاف (جيش الانقاذ). والمناضلون الفلسطينيون غير مدربين وغير منظمين وتنقصهم المعدات.

د - لا يمكن تشتيت وحدات الجيش العربي لحماية القرى العربية، لان عملاً كهذا سيترك العرب دون قوة ضاربة تستطيع أن تتصدى للهجمات التي يتوقع ان يشنها العدو بعد يوم ١٥ ايار.

هـ - الأعمال المتسرعة التي قام بها المناضلون واخفاقهم فيها رفعت من معنويات اليهود.

و - دخول الجيش العربي الى فلسطين سيتم بناء على الاعتقاد بأن تعزيزات الجيش العراقي ستصل الى الأردن.

ز - يجب أن تؤمن الدول الأعضاء في الجامعة غطاء جوياً، لأن الأردن لا يملك قوة طيران.

حـ - يجب ان تشارك دول الجامعة في حمل مسؤولية العمل في فلسطين، وان تعمل متضامنة لِمعالجة ردود الفعل الدولية في المستقبل. (١٤)

وكان لا بد للملك عبدالله من ان يحيط الحكومة البريطانية - حليفة الأردن - علماً بما تتجه نيته اليه، فأرسل الى الوزير البريطاني المفوض في عمان الرسالة التالية يوم ٢٤ نيسان ١٩٤٨:

أرى لزاماً علي أن أشرح لكم شعور العرب في داخل الأردن وخارجه. لقد ثار الرأي العام بعد حدوث ما وقع في دير ياسين وناصر الدين وطبريا وحيفا. وهناك شعور بخيبة الامل وبأنه لاشيء يمكن ان يوقف كل هذا الا تسوية الأمور. وأود ان ألفت

انتباه الحكومة البريطانية الى مكانة القدس والناصرة وبيت لحم في أنظار العرب من مسيحيين ومسلمين. وهذه الحقيقة تجعل من الضروري وضع هذه الأماكن في أيدينا عند انتهاء الانتداب. وألفت انتباهكم ايضاً الى ضرورة امتناع اليهود عن ان يرتكبوا في القدس ويافا ما ارتكبوه في أماكن اخرى. ويجب تقديم النصح للجهات اليهودية بأن شططهم سوف يلحق أعظم الضرر بما يرغبون فيه من الاقامة في فلسطين تحت اسم وطن قومي. **فاذا ما أوقف اليهود عدوانهم ووافقوا على اجراء مفاوضات ترمي الى تأمين حق المواطنة لهم في دولة فلسطينية، وعلى ان لا تكون سيادة العرب في بلادهم موضع خلاف أو منازعة من قبل أية جهة – اذا ما فعلوا هذا فانه سيكون في مصلحتهم وفي مصلحة السلم في هذه البلاد.** ان رسالتي هذه تعبر عما في ذهن كل فلسطيني وأردني. وهي فوق ذلك تعبير صادق عن مشاعر كل أردني ذي شهامة ورجولة.

وانني إذ أصف الوضع، أرجو ان أوفق الى وضع حد لما يعانيه الناس في البلاد المقدسة، من جراء بواعث سياسية هدفها ايقاد نار الفتنة التي لا يمكن حصرها في هذه البقعة المقدسة. (١٥)

كان من نتيجة اتصالات الملك عبدالله ان وصل الامير عبدالاله، الوصي على عرش العراق الى عمان يوم ٢٤ نيسان، على رأس وفد عراقي. وفي اليوم نفسه عقد اجتماع حضره الملك عبدالله والأمير عبدالاله وتوفيق أبوالهدى ورياض الصلح (رئيس وزراء لبنان) واللواء اسماعيل صفوت. وقد بحث هؤلاء الزعماء الوضع المتردي في فلسطين، وتوصلوا في اليوم التالي الى الاقتناع بأن الجيش العربي لا يستطيع وحده أن يواجه القوات اليهودية مواجهة فعالة، وانه لا مناص من أن تتعاون جميع الدول العربية وتدفع قواتها الى فلسطين «لانقاذها». وقد أعرب اولئك الزعماء عن انهم يعلقون أعظم الآمال على الجيش العربي، فأبلغهم الملك استعداد جيشه للقتال، ولكنه طلب ان تمده الدول العربية بالمعونة المالية، للانفاق على العمليات الحربية. ثم كتب الملك رسالة الى عزام، فحملها رياض الصلح الى القاهرة. وجاء في تلك الرسالة ان الأردن لا يستطيع وحده ان يتحمل أعباء القتال في فلسطين، ولذلك يود ان يستوثق من معاضدة دول الجامعة له بالرجال والمال والسلاح – قبل ان يقدم على خوض المعركة. وتضمنت الرسالة طلباً برصد ميزانية مليون

ونصف مليون جنيه لهذه الغاية. وبما ان مصر لم تكن قد اتخذت حتى ذلك الحين قراراً بادخال قواتها النظامية الى فلسطين، فقد سافر الامير عبدالاله يوم ٢٥ نيسان على رأس الوفد العراقي الى القاهرة، للوقوف على وجهة نظر الملك فاروق، وللعمل على اقناعه بارسال قوات مصر النظامية الى فلسطين. واجتمع عبدالاله بفاروق . ونتج عن الاجتماع ان فاروق وافق على اشتراك الجيش المصري في انقاذ فلسطين. وفي مساء ذلك اليوم أرسل عبدالاله برقية الى رئيس وزراء العراق (في بغداد) يطلب اليه تحريك القوة الآلية الى الأردن.

نلاحظ مما تقدم ان العراق ومصر (وكانتا أقوى الدول العربية عسكرياً يومذاك) لم تقررا الاشتراك في القتال الا قبل انسحاب الانكليز من فلسطين بعشرين يوماً فقط، والا بعد ان ابلغ الملك عبدالله حكومتيهما بعزمه على التدخل.

وعلى الأثر قررت دول الجامعة العربية تقديم معونة مالية للجيش العربي مقدارها مليون ونصف مليون جنيه، استجابة لطلب الملك عبدالله. وقيل ان دول الجامعة وعدت ان ترصد مليونا ونصف مليون جنيه أخرى لهذه الغاية. ولم يلبث عزام باشا أن قدم للخزينة الأردنية ٢٥٠ ألف جنيه دفعة على الحساب من أصل هذا المبلغ. ولكن تلك الدفعة كانت الأولى والأخيرة.

وعاد الأمير عبدالاله ومعه أمين الجامعة الى عمان. وفي اليوم التالي (٢٩ نيسان) وصل الى عمان رياض الصلح وجميل مردم (رئيس وزراء سوريا). وقد تم الاتفاق على ايداع القيادة العامة للجيوش العربية، الى الملك عبدالله.

يتضح مما تقدم ان الملك عبدالله كان أول رئيس دولة عربية يتخذ قراراً بادخال قوات بلاده العسكرية الى فلسطين لانقاذ أهلها من شرور الغزوة اليهودية، وان مبادرته تلك كانت الخطوة الاولى في سلسلة الاجراءات التي اتخذتها الدول العربية والتي بلغت ذروتها في دخول قوات الدول العربية الأخرى الى فلسطين.

وجاء في مذكرات الوزير العراقي محمد مهدي كبه: ان الامير عبدالاله عقد اجتماعاً في تلك الفترة تلا فيه «**صورة برقية من عمه الملك عبدالله يستحثه فيها على ارسال القوة الى فلسطين، ويحذره من مغبة تأخرها». ومما جاء في تلك البرقية «انه سيضطر الى ان يدخل فلسطين بجيشه وحده دون الجيوش العربية الاخرى، اذا تأخرت الدول العربية عن ارسال جيوشها»**. وقال كبه ايضاً ان السيد محمد الصدر رئيس الوزراء

العراقي، تلقى مثل تلك البرقية، وأطلع مجلس الوزراء عليها. (١٦)

ويقول المؤرخ العراقي السيد عبدالرزاق الحسني «وقد عمل الامير عبدالاله لحمل الملك فاروق ملك مصر على اشراك الجيش المصري في حرب فلسطين، على حين ان الحكومة المصرية لم تكن راغبة في مثل هذا العمل الخطير...». (١٧)

وكان من نتيجة الحاح الملك عبدالله ان الحكومة العراقية قررت ارسال قواتها العسكرية الى فلسطين. ولم تلبث الدول العربية الأخرى حتى اتخذت قرارات مماثلة. وفي ٣٠ نيسان عقد رؤساء أركان الجيوش العربية (العراق ومصر وسوريا ولبنان والأردن) اجتماعاً ترأسه الملك عبدالله. وقد توصل رؤساء الأركان الى اتخاذ القرارين التاليين:

١ – ان التغلب على القوات اليهودية يتطلب ما لا يقل عن ست فرق عسكرية (٥٠–٦٠ ألف رجل) كاملة التنظيم والسلاح، وستة أسراب من الطائرات.

٢ – ان تكون جميع القوات في الميدان خاضعة لقيادة موحدة.

وكانت اللجنة السياسية للجامعة تعقد آنذاك اجتماعاتها في عمان، فاستكثر أعضاؤها مطالب رؤساء الأركان واعتبروا أن تقديراتهم مبالغ فيها. ولذلك قررت اللجنة ان تباشر القوات العربية المتوافرة (وهي اقل من فرقتين في مجموعها) عملياتها. وكان بعض السياسيين يعتقدون ان مجرد حشد القوات العربية سيؤدي الى تدخل الدول الكبرى والى ارغام اليهود على التخفيف من غلوائهم. وقد أثبتت الأحداث فيما بعد ان السياسيين العرب كانوا في تقديراتهم واجتهاداتهم، على خطأ كبير.

وفي تلك الاجتماعات قدم رئيس اللجنة العسكرية اللواء اسماعيل صفوت تقريراً قال فيه: ان عدد أفراد القوات اليهودية يتراوح ما بين ٤٠ و ٥٠ الفاً، وان مستعمراتهم محصنة تحصيناً كاملاً.

وعاد ممثلو الجيوش العربية للاجتماع في دمشق يوم ١٠ ايار لوضع خطة للحركات المقبلة. وقد اتفقوا على ملخص الخطة التالية:

١ – يتحرك الجيش اللبناني من رأس الناقورة على حدود لبنان – فلسطين، متتبعاً الساحل باتجاه نهاريا وعكا.

٢ – يتحرك الجيش السوري نحو صفد والناصرة.

٣ – يتحرك الجيش العراقي من جسر المجامع على نهر الاردن نحو (جيشر) وكوكب الهوى والمرتفعات المؤدية الى العفولة.

٤ – يتحرك قسم من الجيش الأردني من جسر الشيخ حسين على نهر الأردن نحو بيسان والعفولة موحداً حركاته مع الجيش العراقي، على ان يقوم القسم الأكبر منه (الجيش الأردني) في الوقت ذاته بالحركة من جنين باتجاه العفولة.

٥ – يتحرك الجيش المصري من حدود مصر نحو الشمال باتجاه تل ابيب.

وفي اليوم التالي قررت اللجنة السياسية للجامعة، في اجتماع لها في دمشق، ان يقوم اللواء نور الدين محمود (عراقي) بأعمال القيادة العامة للقوات النظامية في ميدان القتال، أي ان يكون وكيل القائد العام الذي هو الملك عبدالله.

ويقول الفريق صالح صائب الجبوري، رئيس أركان الجيش العراقي عام ١٩٤٨ (وقد نقلنا عنه بنود الخطة العربية) ان تعديلاً أدخل على الخطة العسكرية – بعد يومين من وضعها – يقضي بأن تكون حركة القوات السورية نحو منطقة سمخ، وبأن تكون حركة القوات الأردنية في مواقع أخرى غير التي حددتها الخطة.

ونفهم من كتاب الجبوري ان القيادة الأردنية لم توافق على الخطة التي أقرتها القيادة العامة، وان التعديل حدث بموافقة وكيل القائد العام اللواء نور الدين محمود. وهو يقول انه كان مقتنعا بصواب الخطة الأصلية، وانه أقنع الامير عبدالاله بذلك، وان الأمير بدوره اقنع الملك عبدالله، وان الملك اتصل بالقيادة الأردنية وأبلغها أوامره (تنفيذ خطة دمشق الاولى) ولكن القيادة الأردنية لم تعمل بتلك الأوامر. (١٨)

إنني أسمح لنفسي بالتشكك في ان يكون اللواء عبدالقادر الجندي (ممثل الجيش الأردني في اجتماع دمشق) قد وافق على هذه الخطة، لان موافقته كانت تقتضي الرجوع الى رئيس الأركان الفريق جلوب. وجميع الوقائع والظروف تدل على ان الجيش الأردني كان قد عقد عزمه منذ البداية على التمركز في مناطق نابلس – جنين – طولكرم – رام الله – بيت لحم – الخليل. ولا أدري اذا كانت تجزئة الجيش الأردني الصغير الى قسمين – كما قضت الخطة – تحمل في طياتها «امكانات نجاح الحركات» كما يقول الفريق الجبوري.

ومن الجدير بالملاحظة ان الخطة أهملت تماماً مدينة القدس والمناطق المحيطة بها،

ولم تلق بالا للهجمات اليهودية المتكررة للاستيلاء على المرتفعات الجبلية المشرفة على طريق باب الواد، وهي الهجمات التي اكتسبت طابع الخطورة البالغة بعد سقوط جبل القسطل وجبل الرادار، والتي كان من المرجح ان تتسع لتشمل مدينة رام الله ولتحيط بالقدس من الشمال والشرق – علماً بأن قوات الجهاد المقدس الموجودة في قطاع القدس – رام الله، كانت قد أصبحت، بعد مقتل عبدالقادر الحسيني، أضعف من أن تصمد طويلاً أمام تلك الهجمات. ومن المهم ان نشير في هذا الصدد الى ان الزعيم سعد الدين صبور، ممثل الجيش المصري (وقد اشترك في الاجتماع الذي وضع خطة الحركات) أيد وجهة النظر الأردنية القائلة بأن يحتشد الجيش الأردني في قطاعات القدس ورام الله والخليل ونابلس – وهذا يعني بطبيعة الحال انه لم يوافق على الخطة المشتركة. (١٩)

كان القرار بأن يشترك كل جيش عربي في الحرب انطلاقاً من حدود بلاده – قراراً واقعياً ومنطقياً. ولكن الأمر غير الواقعي وغير المنطقي يعود الى عدم وجود قيادة عامة مشتركة تملك صلاحية تحريك الوحدات العسكرية في هذه الجبهة او تلك، طبقاً لخطة مركزية واحدة. ومن هنا حارب العرب منفردين، لا يعرف جيش شيئاً عن خطط الجيش الآخر. واستغلّ العدو هذا الوضع لمصلحته فأخذ يقوم بحركاته الهجومية او الدفاعية ضد هذه الجبهة او تلك، دون أن يخشى تحرك الجبهات الأخرى.

ونرى بعض المؤلفين العرب يلقون اللوم على الفريق جلوب ويحملونه المسؤولية (وعلى الاخص الفريق الجبوري) ويعطون الانطباع للقارىء ان تطبيق الخطة الأساسية كان خليقاً ان يضمن النصر للعرب، وان عدم قبول جلوب لها أدى الى اخفاق العرب في فلسطين.

وكنت كتبت رسالتين للفريق جلوب أرجو منه بيان وجهة نظره في بعض النقاط. وقد أجابني بأنه لا يذكر شيئاً عن الاجتماع الذي وضعت فيه خطة الحركات العسكرية المشار اليها، ولا يذكر انه عرف شيئاً عن المباحثات التي تقرر فيها دخول الجيش السوري الى فلسطين من سمخ. ثم مضى الى القول:

«لا أذكر شيئاً عن اجتماع ممثلي الجيوش العربية في ١٠ أيار. وعلى اية حال فان وقت وضع الخطط كان قد تأخر كثيراً، لان خططاً كهذه يحتاج وضعها الى وقت طويل. لقد كانت القدس مفتاح جميع العمليات في فلسطين، ليس لانها مدينة مقدسة،

بل لانها كانت ملتقى جميع الطرق التي تؤدي الى تل ابيب والـى اريحا والـى نـابلس والى الخليل. ولو نجح الاسرائيليون في الاسـتيلاء علـى القدس لكـان فـي اسـتطاعتهم الاندفاع الى اريحا واحتلال وادي الاردن. أما القول بأن يتحـرك الجيش العربـي مـن جنين الى العفولة فقول سخيف، اذ كان بمقدور الاسرائيليين أن يتقدموا من القدس الـى اريحا بينما يكون الجيش العربي منهمكاً في عملياته بين جنين والعفولة».(٢٠)

من الواضح ان تلك الخطة وضعت دون تفكير واقعـي، سـواء مـن ناحيـة تقدير قـوة اليهود أو من ناحية تقدير قوة العرب. يدل على ذلك ان لبنان (على حد قول الجبوري) قرر في ١٤ أيار الوقوف موقف الدفاع. ولم يكتف بذلـك بـل طلـب قـوات عربيـة أخـرى تسـاند قواته. وقد وافقت القيادة العامة على اتخاذ لبنان خطة الدفاع.

اما الجيش العراقي نفسه فلم يقاتل في القطاع الذي حددته الخطة سوى اسبوع واحد، ثم انتقل بعد ذلك الى منطقة نابلس.

وهكـذا نـرى انـه لـم يبـق مـن بنـود تلـك الخطـة سـوى البنـد المتعلـق بحركـة الجيـش المصري من حدود مصر باتجاه الشمال.

وأعتقد ان في هذا دليلاً واضحاً على ان الخطة لم تكـن واقعيـة، وانهـا وضعـت علـى عجل وارتجالاً، على طريقة (الفزعة)، ولم تبرز فيهـا الجديـة والكفـاءة والتمحيـص وانعـام النظر – التي يفترض ان تتوافر عند العسكريين في معالجة القضايا العسكرية.

وفي هذا الصدد يقول جلوب في كتابه (جندي مع العرب) :

بالنسبة للجيوش العربية: لم يكن هنـاك تخطيـط مشـترك مـن أي نـوع. لـم تكـن هنـاك خطة مشتركة على الاطلاق. ولم تكن لدينا معلومات عن خطـط الجيـوش الاخـرى أو عن حجم قواتها. وقد قرر العراقيون ان يعبروا نهر الأردن مقابل بيسـان، فـي عمليـة مستقلة.

ومهما يكن من أمر فقد اختير معسكر الجيش العربي في الزرقاء مقراً للقيـادة العامـة، وكان مع اللواء نـور الديـن محمـود ثلاثـة مـن ضبـاط الأركـان هـم العقيـد محمـود الهنـدي (سوريا) الزعيم سعد الدين صبور (مصر) اللواء اسماعيل صفوت (العراق).

قوات الطرفين

بعد هذا لا بد من اعطاء صورة متقابلة عن القوات التي أعدتها الدول العربية للدخول الى فلسطين من جهة، والقوات التي أعدها اليهود لمواجهة العرب، من جهة ثانية:

القوات المصرية

كانت القوات المصرية التي حاربت في فلسطين في حدود عشرة آلاف جندي وضابط (من جملتهم ١٥٠٠ للخدمات). وكانت تتألف من ست كتائب مشاة وكتيبة مدرعات وكتيبة مدفعية ٢٥ رطلاً. ومن جملة هذه القوات نحو الف رجل من المتطوعين الذين تولى قيادتهم البكباشي أحمد عبدالعزيز (القوات الخفيفة).

وكان السابق في الدخول الى فلسطين مجموعة من الاخوان المسلمين، في شباط ١٩٤٨. ثم دخل أحمد عبدالعزيز ومعه مجموعة من الضباط، بعد ان تخلوا عن مناصبهم الرسمية في الجيش. وفي ٦ أيار تحركت قوات المتطوعين من العريش الى رفح الى خان يونس. وفي ١١ أيار هاجمت مستعمرة كفار داروم ولم تستطع الاستيلاء عليها. ثم تحركت من بئر السبع ومنها الى الخليل فبلغتها يوم الجمعة ٢١ أيار. والمتطوعون الذي أطلق عليهم اسم (القوات الخفيفة) كانوا مزيجاً من المصريين والسودانيين والتونسيين.

ونستطيع ان نأخذ فكرة عن وضع القوات المصرية مما قاله اللواء احمد المواوي، قائد القوات التي دخلت فلسطين وخاضت الحرب فيها، من أن الجيش المصري لم يكن مدرباً تدريباً كافياً، وانه لم يقم بمناورة عسكرية واحدة في خلال اعوام ١٩٣١ - ١٩٤٧، وان كل ما كان يقوم به الجيش في تلك السنوات هو الاشتراك في كسوة المحمل والمولد النبوي ومقاومة الفيضانات ومكافحة الجراد والكوليرا وحراسة الوزارات وقمع المظاهرات.

وزيادة على ما تقدم نقول ان ثلاث كتائب مشاة من الجيش المصري فقط دخلت الى فلسطين يوم ١٥ أيار، ثم لحقت بها كتيبة رابعة (الكتائب ١ و ٢ و ٦ و ٩). وهذه الكتائب الأربع هي التي خاضت المرحلة الأولى من القتال، ولم تنضم اليها خامس كتيبة (الكتيبة ٧) الا قبل بدء الهدنة بقليل. ثم وصلت كتيبتان في أثناء المرحلة الثانية من القتال (٣ و ٥).

ويقول جمال عبدالناصر ان النقص في المعلومات عن العدو كان «نقصاً قاتلاً مدمراً»

(٢١). مع ان الحصول على المعلومات كان في متناول اليد وخصوصاً بعد دخول قوات المتطوعين.

فاذا كان هذا حال أقوى الجيوش العربية آنذاك، فما بالك بحال الجيوش العربية الأخرى؟

القوات العراقية

تحركت القوة الآلية من العراق الى الأردن فوصلت الى بلدة المفرق يوم ٢ أيار، وكانت تتألف من الفوج الآلي الأول وكتيبة مدرعات وكتيبة مدفعية ٢٥ رطلاً وسرية هندسة.

وبعد ذلك وصل جحفل اللواء الاول (١٢ – ١٤ أيار)، ووصل سربان من قاذفات القنابل، وعدد من الطائرات المقاتلة من طراز فيوري.

كان مجموع القوات العراقية التي تمركزت في الأراضي الأردنية وعلى حدود فلسطين يوم ١٥ أيار نحو خمسة آلاف رجل. ولكن الفريق الجبوري يقول ان مجموعها كان ٦٣٠٠ ضابط وجندي.

وكانت بريطانيا منذ عام ١٩٤١ تعمل على ابقاء الجيش العراقي ضعيفاً. وجاء رفض العراق لمعاهدة بورتسموث في كانون الثاني ١٩٤٨ يزيدها تصميماً على عدم تزويد ذلك الجيش بالسلاح والعتاد. وقد بدأ العراق حملته في فلسطين بأربع كتائب فقط، وظل يرسل المزيد تدريجياً حتى بلغ الجيش العراقي في فلسطين ٣٠ كتيبة. وجاء في تقرير للفريق نور الدين محمود ان معظم جنود القوة الآلية التي وصلت الى المفرق كانوا «غير مدربين حتى ان القسم الأعظم لم يرموا بأسلحتهم الخاصة بهم». وكان مع تلك القوة مدافع هاون لا يعلم أحد كيفية استخدامها، كما ان جنود المدرعات لم يدربوا على استعمال أسلحتهم. وقال ذلك القائد في خاتمة تقريره «ان وضعية كهذه جعلتني في حالة استغراب من ارسال قوات وزجها في القتال بهذا الوضع الناقص». أضف الى ما تقدم ان العراق كان يعاني من أزمة مالية شديدة (تفاقمت بعد قطع النفط عن حيفا قبل بدء القتال) فحاول الاقتراض من مصر، وعندما أخفق في محاولته عمدت الحكومة الى اقتراض مليوني دينار وربع مليون من البنوك الأجنبية العاملة في العراق. (٢٢)

كانت المعلومات المتوافرة لدى قيادة القوات العراقية عن قوات العدو ومستعمراته واستحكاماته ضئيلة جداً، ولم تكن لديها خرائط كافية. وكانت القوات العراقية التي دخلت الى فلسطين تبعد عن مراكز الجيش الدائمة ١٥٠٠ كيلو متر. ولذلك كانت سيارات النقل تحتاج الى نحو عشرة أيام ذهاباً واياباً من العراق الى فلسطين. وكان هناك نقص في الأسلحة والمعدات والعتاد.

لم تكن الحماسة في العراق لانقاذ فلسطين تقل عن حماسة أي قطر عربي آخر. ولكن الحكومة العراقية لم تدفع بقوات كبيرة الى الحرب منذ البداية، ربما لاعتقادها ان القوات اليهودية ضعيفة ويمكن التغلب عليها بسهولة، او لأنه لم تكن هناك قوات مستعدة للدخول في الحرب الا القوات التي أُرسلت في البداية.

ويقول الفريق جلوب ان العراقيين لم يدفعوا الى ساحة القتال في الأيام الاولى سوى كتيبة مشاة وكتيبة مدرعات. وان قواتهم كانت ضعيفة بالنسبة للواجب الملقى عليها.

القوات السورية

كان الجيش السوري يتألف من ثلاثة ألوية. وقد صدر الأمر للواء الأول وحده باجتياز فلسطين، وكان يتألف من كتيبتي مشاة وكتيبة مدفعية، ومجموع رجاله نحو الفي رجل. أما اللواء الثاني فقد أبقي بمثابة قوة احتياط، بينما بقي اللواء الثالث في دير الزور والجزيرة، بعد أن نقل كثيرون من ضباطه وجنوده لاستكمال النقص في اللوائين الاول والثاني. وكان واضحاً ان مستوى التدريب والاستعداد الحربي عند القوات السورية أقل بكثير من مستوى حماسة الساسة السوريين.

القوات اللبنانية

كان رياض الصلح رئيس وزراء لبنان من أكثر الساسة العرب اندفاعاً لخوض الحرب، ولكن رئيس الأركان اللواء فؤاد شهاب أصر على أن الجيش اللبناني لا يستطيع القتال، واذا كان لا بد من اشتراك لبنان في الحرب فان الجيش يستطيع أن يتخذ موقف الدفاع عن الحدود لا أكثر. وبالنتيجة قررت حكومة لبنان أن يقف الجيش على الحدود، بينما استمر رياض الصلح يحرض ساسة الأقطار العربية الأخرى على الهجوم.

القوات السعودية

أرسلت السعودية كتيبتي مشاة وسرية رشاشات وفصيلي مدرعات، وألحقت هذه القوة بالجيش المصري. وقد أبدى رجال هذه القوة – وتعدادهم ٧٠٠ جندي وضابط – شجاعة واقداما في القتال. هذا بالاضافة الى اشتراك مجموعة من المجاهدين السعوديين في القتال بقيادة فهد المارك.

حجم القوات العربية

كانت القوات العربية التي دخلت الى فلسطين (أو وقفت على حدود فلسطين) يوم ١٥ أيار ١٩٤٨، كما يلي:

٦٫٠٠٠	مصر
٤٫٥٠٠	الأردن
٥٫٠٠٠	العراق
٣٫٠٠٠	سوريا
٢٫٠٠٠	جيش الانقاذ
١٫٠٠٠	لبنان
٠٫٧٠٠	السعودية
٢٢٫٢٠٠	المجموع (٢٣)

وهذه الأرقام لا تشمل المناضلين الفلسطينيين من منتسبي (الجهاد المقدس) والمتطوعين العرب وغير العرب. ولكن معظم المصادر لا تعطي أهمية كبيرة لهؤلاء، لان فاعليتهم كانت محدودة بالنسبة للقوات النظامية التي تؤلف العناصر الحاسمة في القتال. وقل الأمر ذاته بالنسبة للمتطوعين الأردنيين الذين كان عددهم لا يقل عن الف شخص.

واذا ما ألقينا نظرة فاحصة سريعة على أوضاع الجيوش العربية التي دخلت فلسطين يوم ١٥ أيار، فاننا نجد ما يعيننا على فهم الأحداث التي وقعت في النهاية.

قوات العدو

بدأ اليهود انشاء قوة عسكرية نظامية لهم منذ عام ١٩٢٠، بحجة الدفاع عن مستعمراتهم. ومع مضي السنين عملوا على تعزيز هذه القوة. وقد اغتنموا فرصة نشوب

الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ فتطوع آلاف منهم في صفوف القوات البريطانية (ليس بدوافع شخصية افرادية مثلما فعل العرب – بل طبقاً لخطة شاملة وضعتها الوكالة اليهودية). فالوكالة اليهودية كانت تستعد ليوم العمل الحاسم الذي سيأتي بعد انتهاء الحرب، من اجل ارغام بريطانيا على التخلي عن سياسة الكتاب الابيض، ومن أجل تأسيس الدولة اليهودية.

من الطبيعي أن تؤمن الصهيونية بالمبدأ الذي سنّه أحد رؤساء الوزارات الانكليز: «ليس هناك صداقات دائمة ولكن هناك مصالح دائمة». ولذلك، ما كادت الحرب العالمية تنتهي حتى هب اليهود يطلبون الغاء سياسة الكتاب الأبيض وفتح أبواب فلسطين على مصراعيها لادخال مزيد من المهاجرين اليهود. ولم يكتفوا بالعرائض والبرقيات والاحتجاجات والخطابات والتهديدات، بل انهم قرنوا القول بالفعل، وقاموا خلال عامي ١٩٤٥ – ١٩٤٦ بثورة عارمة ضد أولياء نعمتهم الانكليز، برهنوا فيها على مدى فعاليتهم ودقة تنظيمهم. ففي ليلة ١ تشرين الثاني ١٩٤٥ قامت قواتهم بسلسلة هجمات على شبكة سكك الحديد، أدت الى نسف خطوط السكة في ١٥٣ موضعاً، حتى توقفت حركة القطارات تماماً في جميع انحاء فلسطين. واستمرت الثورة، فدمرت قوات اليهود محطات الرادار والطائرات. وفي ١٦ حزيران ١٩٤٦ (بينما كان الزعماء العرب يعقدون اجتماعاتهم في بلودان ويتخذون قراراتهم السرية) قام جنود الهاجانا بهجمات شملت مطار اللد العسكري، بالاضافة الى تخريب ثمانية جسور تربط فلسطين بالأقطار العربية المجاورة. وفي هذا من التحدي والتهديد ما فيه. ثم قاموا بنسف فندق الملك داؤد في القدس وكان مقراً لحكومة فلسطين، وجلدوا الضباط الانكليز علناً في الشوارع، واغتالوا لورد موين الوزير البريطاني، في القاهرة، وشنقوا الجنود الانكليز. وقد عملت الحكومة البريطانية على مكافحة حملة الأرهاب اليهودية ومن أجل قمع الثورة، ولكنها لم ترد – أو لم تستطع – ان تقوم باجراءات فعالة تؤدي الى تحطيم قوة اليهود العسكرية.

وقد جاء في كتاب أبيض أصدرته وزارة المستعمرات البريطانية في تموز ١٩٤٦، عن أعمال اليهود الارهابية، ان قواتهم العسكرية في فلسطين تتألف من ٦٢ ألف مقاتل:

٦٫٠٠٠ البالماخ

١٦٫٠٠٠ جيش ميدان

٤٠٫٠٠٠ قوات مستقرة (محلية) من سكان المدن والمستعمرات.

هذا بالاضافة الى منظمة الأرغون الارهابية ويتراوح عدد منتسبيها ما بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ شخص، ومنظمة شتيرن الارهابية الأخرى ويتراوح عدد أفرادها من القتلة والسفاكين ما بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخص.

وليس من شك في ان ثورة اليهود كانت من جملة العوامل التي دفعت بريطانيا الى التخلي عن سياسة الكتاب الأبيض واحالة مشكلة فلسطين الى هيئة الأمم المتحدة.

كان من المفروض أن تكون الدول العربية على علم تام بما لدى اليهود من قوات عسكرية، وبما لديها هي من قوات. ولكن مبدأ «اعرف عدوك» لم يكن وارداً بالنسبة للحكومات العربية، (الا اذا استثنينا الاردن الذي كان يعرف بعض الشيء عما يملك اليهود من قوة). وكان الملك عبدالله وحده – من بين الزعماء العرب – يدرك ان الخصم الذي يواجهه العرب خصم لا يستهان به.

ولم تكن معرفة ما لدىاليهود من قوة مسألة مستحيلة، لو شاء أحد أن يعرف. والواقع ان اللجنة العسكرية التي ألفتها الدول العربية، لم تلبث ان أبلغت تلك الدول ان لدى اليهود قوة لا يقل عدد أفرادها عن ٥٠ ألفا. وألحّت اللجنة على تلك الدول أن تعّد نفسها اعداداً عسكرياً كافياً للتغلب على قوات العدو.

وكان الفريق جلوب يقدر عدد أفراد القوات اليهودية بـ ٦٥ الفاً. وعندما ذكر هذا الرقم لعزام باشا، قال له هذا: ان ٧٠٠ متطوع سلاحهم البنادق سوف يأتون من ليبيا!.

ويقول اليك كركبرايد (الوزير البريطاني المفوض في عمان) ان عبدالرحمن عزام اجتمع به قبل نشوب القتال في عمان وسأله عن قوة اليهود، فأجابه كركبرايد: ان التقديرات تشير الى ان قواتهم تقارب ٨٠ الفاً. وكان جواب عزام: ان هذا هراء، وانه مهما تكن قوتهم فان العرب سيلحقون بهم الهزيمة.

اتجاهات بريطانيا وأمريكا

كانت السياستان البريطانية والأمريكية تتجهان الى منع نشوب الحرب والى تنفيذ التقسيم بالطرق السلمية. وكان اليهود مصممين على انشاء دولتهم التي أقرها مشروع التقسيم – ان لم يكن سلماً فحرباً. وقد أخذوا يتذرعون لتحقيق هدفهم بالسعي السياسي لدى امريكا وبريطانيا بالدرجة الأولى، وباظهار رغبتهم في السلام أمام دول العالم أجمع.

ولكنهم في الوقت الذي كانوا يدعون فيه للسلام، كانوا يعملون للحرب بكل ما لديهم من مقدرة. ولذلك نراهم يتحولون للهجوم ابتداء من شهر آذار - ليس فقط للسيطرة على المدن والقرى العربية في المنطقة التي خصصها لهم قرار التقسيم، بل للسيطرة على مدن وقرى عربية خارج المنطقة المخصصة لهم، ثم التمسك بكل قوة بمستعمراتهم القائمة في المنطقة المخصصة للعرب. وغايتهم من ذلك واضحة الا وهي تحسين موقفهم العسكري اذا نشبت الحرب، وتعزيز موقفهم السياسي اذا جرت مفاوضات لوضع بنود التسوية السلمية.

وقد وجه اليهود ثقلهم السياسي نحو امريكا منذ الحرب العالمية الثانية، اذ قدرّوا انهم حصلوا من بريطانيا على كل ما كان بمقدور بريطانيا أن تعطيهم، وقدرّوا ان امريكا التي خرجت من الحرب كأقوى دولة في العالم، تستطيع أن تقوم بالدور الذي يلائم خططهم لانشاء دولتهم، أكثر من سواها. ولا حاجة بي لشرح مدى نفوذ اليهود في امريكا وقدرتهم على توجيه سياستها، فهذا أمر معروف ولا خلاف فيه.

وألقت امريكا بثقلها لانجاح مشروع قرار التقسيم في هيئة الأمم المتحدة. وواصلت ضغطها على بريطانيا لكي تنسق تدابيرها في فلسطين مع مصلحة اليهود. ويتضح من الوثائق التي بين أيدينا ان الانكليز تضايقوا من تحيز الأمريكان لليهود، ولكن لم يكن أمامهم في نهاية المطاف الا الاذعان لما تريده امريكا.

اننا نرى مصداقاً على ما تقدم في البرقية التي بعث بها وزير الخارجية الأمريكية مارشال (٢٧ نيسان) الى السفير الأمريكي في لندن، والتي جاء فيها ان حكومته يساورها القلق للأنباء القائلة بأن الملك عبدالله يعد العدة «لغزو» فلسطين بقواته المسلحة، وأن امريكا تعتبر هذا «خرقاً» لميثاق الأمم المتحدة، وترى اتخاذ اجراءات للحيلولة دون وقوعه، **ومن جملة ذلك - اذا لزم الامر - ارسال قوات عسكرية تابعة للأمم المتحدة تعمل على صد «الغزاة»**. وتمضي البرقية الى القول: اذا حدث هذا فان الانطباع سيسود في امريكا، بل في العالم، بأن بريطانيا توافق على دخول قوات الأردن الى فلسطين، بالنظر للعلاقات الوثيقة التي تربط بريطانيا والأردن. وأخيراً نرى مارشال يطلب من السفير ان يبحث هذه النقاط مع بيفن وزير خارجية بريطانيا ومع اتلي رئيس الوزراء « وأن تشير اليهما بأنه من الأهمية بمكان، أن تستعمل الحكومة البريطانية كل ما لديها من نفوذ لتحول بين الملك عبدالله وبين الاقدام على مغامرة كهذه».

في اليوم التالي (٢٨ نيسان) أبرق بيفن الى العاصمة الامريكية يقول: أن اليهود يعدون العدة للقيام بهجوم واسع النطاق على القدس، وان المطلوب من الحكومة الأمريكية ان تستعمل نفوذها معهم لمنع وقوع هجوم كهذا. وجاء في البرقية ان بريطانيا طلبت من سفاراتها في الأقطار العربية ان تحث العرب على التروي. وفي حديث بين لوفت (مساعد وزير خارجية امريكا) وبين السفير البريطاني في واشنطن، شدد الاول على ضرورة قيام بريطانيا بمنع الجيش الأردني من الاشتراك في عمليات عسكرية، خاصة وان ضباطاً بريطانيين يتولون تدريب ذلك الجيش وقيادته.

واجتمع السفير الأمريكي في لندن مع بيفن واتلي فأبلغاه بأنه لا أساس للاشاعات القائلة بأن الملك عبدالله يعد العدة «لغزو» فلسطين، وأن بريطانيا سوف تستعمل كل نفوذ ممكن لثني الملك عبدالله عن تحريك قوات الأردن المسلحة عبر حدود فلسطين، وانها سوف تستعمل كل ما لديها من نفوذ مع العرب كي يوافقوا على عقد الهدنة. وكان من رأي بيفن انه يجب عقد هدنة في فلسطين « وان الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي تستطيع ان تستعمل أساليب اقناع ناجعة مع اليهود». ولم يلبث بيفن ان أبلغ السفير الأمريكي، بأن حكومته أرسلت مذكرات الى عمان ودمشق والقاهرة وبغداد، تحث على عدم الاقدام على أعمال «عدوانية»، وان اجوبة الدول العربية تقول ان اليهود ماضون في اعتداءاتهم، وانه من العسير على العرب ان يقفوا مكتوفي الأيدي اذا لم يكف اليهود عن اعتداءاتهم على المناطق العربية.

وفي تلك الأثناء عقد اجتماع في واشنطن ضم اربعة من كبار موظفي خارجية امريكا وبريطانيا. وفي ذلك الاجتماع قال المستر بيلي، من وزارة خارجية بريطانيا:

ان من رأي المستشارين الحقوقيين البريطانيين انه اذا قام عرب فلسطين بدعوة الأقطار العربية المجاورة لارسال جيوشها الى فلسطين – على الأقل الى المناطق التي يؤلف العرب أكثرية فيها – فلن يكون للأمم المتحدة حق في اتهام الأقطار العربية بخرق ميثاقها (ميثاق الأمم المتحدة).

ويبدو موقف الحكومة الأمريكية من المشكلة باعثاً على الحيرة، فبينما كانت تمضي في الضغط على بريطانيا لثني العرب عن التقدم لانقاذ اخوانهم في فلسطين، نراها لا تحرك ساكناً لاقناع اليهود بايقاف اعتداءاتهم على العرب. ولا بدّ أن يتبادر الى الذهن

سؤال عن الأسباب التي حالت دون تنفيذ قرار التقسيم بالقوة – ما دام انه اكتسب صفة الشرعية الدولية، كما كانت ترى الدول الغربية؟. اننا نجد الجواب على هذا التساؤل فيما قاله وارن اوستن (مندوب امريكا في هيئة الأمم) للأمير فيصل آل سعود عند اجتماعهما يوم ٢ أيار. فقد توجه فيصل إلى أوستن بسؤال عن الموقف النهائي لأميركا تجاه التقسيم. وكان جواب أوستن: ان حكومته أعلنت في ٢٤ شباط **ان الأمم المتحدة لا تستطيع ان تفرض بالقوة توصية سياسية أصدرتها الجمعية العامة** – قرار ٢٩ تشرين الثاني مثلاً – والولايات المتحدة لن تتخذ أي عمل فيما يتعلق بفلسطين الا من خلال الأمم المتحدة.

لنلاحظ في هذا الجواب كلمة «توصية» التي شاء أوستن ان يستعملها بدل كلمة «قرار»، ولنقارن بين هذا القول وبين تهديد مارشال (في ٢٧ نيسان) بارسال قوات عسكرية لمنع العرب من الدخول الى فلسطين.

ترى هل نجد اجابة على تساؤلنا وما يبدد حيرتنا في القول ان الساسة الأمريكيين أصبحوا مقتنعين بأن اليهود أقوى من عرب فلسطين، وبأن منع جيوش الأقطار العربية المجاورة لفلسطين من الدخول اليها سيؤدي الى وقوع فلسطين كلها بأيدي اليهود؟ هناك احتمالات قوية لوجود هذا الاقتناع. خذ مثلاً على ذلك تقرير القنصل الأمريكي في القدس (واسون) الى وزير خارجيته بتاريخ ٣ أيار ١٩٤٨، وهو تقرير جاء فيه: انه لم يبق من جنود الجيش العربي في فلسطين سوى ١٥٠٠ رجل تحت امرة القائد البريطاني العام، وان قسماً من هذه القوة تورط في حادثة معينة دون أوامر فتلقى جلوب نتيجة لذلك تأنيباً من القائد العام (٢٤). وجاء في التقرير ان القائد البريطاني العام أكد ان جميع وحدات الجيش العربي سوف تغادر فلسطين في موعد اقصاه ١٤ ايار، **وان القوات البريطانية سوف تهاجم أية قوات نظامية تدخل الى فلسطين قبل ١٥ أيار**. واضافت المذكرة – بناء على أقوال القائد العام – ان قيادة الهاجانا ذات مستوى جيد، وان معظم القادة نالوا تدريبهم في أثناء الخدمة مع الجيش البريطاني. واختتم القنصل تقريره بقوله: **ان اليهود تحولوا من الدفاع الى الهجوم وإن مقاومة العرب كانت حتى الان غير مجدية، وان القائد العام وآخرين يعتقدون ان اليهود سيكون بمقدورهم اكتساح الجميع أمامهم، الا اذا وصلت الجيوش العربية النظامية لانقاذ الموقف.**

ونجد في مذكرة كتبها دين راسك (مساعد وزير الخارجية) بتاريخ ٤ أيار ما يلقي

ضوءاً على الوضع. فقد قال: ان **الوكالة اليهودية رفضت الدخول في مفاوضات لعقد هدنة في فلسطين، مما يكشف بوضوح « قصد اليهود أن يمضوا قدماً لانشاء دولة يهودية منفصلة بقوة السلاح»**. وصور راسك الوضع على الوجه التالي:

ان الوضع المضطرب في فلسطين سوف يستدعي قيام جيوش عربية من خارج فلسطين باجتياز الحدود، لمساعدة اخوانهم غير المنظمين والذين ضعفت معنوياتهم، وسوف تستهدفهم هجمات اليهود. **وفي حالة حدوث هذه المساعدة العربية فان اليهود سيأتون مهرولين الى مجلس الأمن مدعين بأن دولتهم تتعرض لعدوان مسلح، وسوف يبذلون كل ما في وسعهم للتعتيم على الحقيقة وهي أن عدوانهم المسلح على العرب الفلسطينيين هو الذي أدى الى قيام العرب بهجوم معاكس.**

تماماً على اسلوب: ضربني وبكى، سبقني واشتكى.

وبعد عشرة أيام (١٣ أيار) نرى مارشال يقيّم أوضاع العرب على النحو التالي:

ان الضعف الداخلي الذي تعاني منه الأقطار العربية، يجعل من العسير عليها ان تعمل في فلسطين. البنية الحكومية في العراق تتعرض للخطر نتيجة للاضطرابات السياسية والاقتصادية، ولذلك لا تستطيع الحكومة العراقية في الوقت الراهن أن ترسل الى فلسطين سوى قوات قليلة فوق القوات التي أرسلتها حتى الان. أما مصر فقد عانت مؤخراً من اضرابات واضطرابات، وليس لدى جيشها معدات حربية كافية بسبب رفضها للمساعدة البريطانية، وهي تحتاج الى ما لديها من معدات لكي يستعملها رجال الأمن العام في الداخل. وسوريا ليس لديها أسلحة أو جيش يستحق الذكر، ولم تستطع ان تنشيء جيشاً منظماً منذ أن غادرها الفرنسيون قبل ثلاث سنوات. وليس للبنان جيش حقيقي. أما السعودية فجيشها الصغير يكاد لا يكفي للسيطرة على القبائل. كما ان المنافسة بين السعوديين والسوريين من جهة وبين الدولتين الهاشميتين في العراق والأردن من جهة أخرى، تحول بين العرب وبين الافادة على أفضل وجه حتى من القوات المتوافرة لديهم. ولولا وجود الضباط البريطانيين، لما كان بمقدور الجيش الأردني ان يقوم بأعمالٍ مؤثرة، اذ ان تنظيم الجيش يعتمد على وجود الضباط البريطانيين في مواقع قيادية... (٢٥)

ولكي تتم صورة الوضع كما أخذت تتبلور في أذهان المسؤولين الأمريكيين، فلا بد

من تسجيل نص البرقية التالية التي بعث بها القنصل الأمريكي في القدس يوم ١٣ أيار:

حافظ اليهود حتى الان على التحرك ضمن نطاق حدود التقسيم باستثناء استيلائهم على يافا وعلى بعض المناطق على طريق القدس – تل أبيب... لقد تحطمت تماماً مقاومة العرب لليهود في المدن، اذ سيطر اليهود على حيفا، وأصبحت يافا مدينة مهجورة. ويعتقد انه لن يكون باستطاعة عرب فلسطين مقاومة اليهود طويلاً اذا صمم هؤلاء على احتلال المدينة. **لقد فر معظم ممثلي العرب الى الأقطار المجاورة، ولا يستطاع العثور على عرب من ذوي المكانة الا بعد جهد جهيد.**

وعلى الرغم مما أوردته برقية القنصل، فان اليهود واصلوا ضغطهم وممارسة نفوذهم لدى الرئيس ترومان، لحرمان عرب فلسطين من انجاد اخوانهم في الأردن لهم.

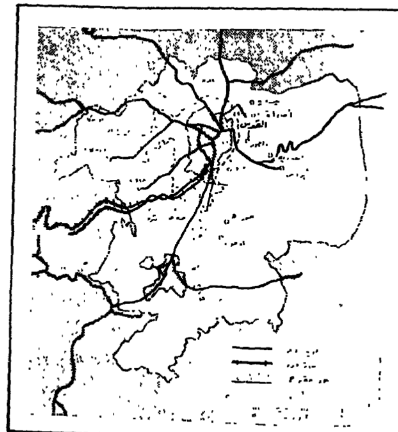
ففي ١٣ أيار أرسلت الوكالة اليهودية الى ممثلها في أمريكا برقية جاء فيها: «اننا نحثكم على القيام بأقوى جهد وفي أسرع وقت، لتأمين ارسال انذار شخصي مباشر وفي الحال وبأقصى صيغة من الرئيس (ترومان) الى الملك عبدالله، كي يتراجع عن قيام الجيش العربي والقوات العراقية التي تخضع الانٰ لقيادته المشتركة – بالغزو الوشيك والهجوم على السكان اليهود. كل ساعة لها قيمتها... في هذه الساعات بالذات يعمل الجيش العربي على مهاجمة وتدمير كفار عصيون والمستعمرات المجاورة لها». (٢٦)

وفي اليوم التالي (١٤ أيار) أبلغ اليهود صديقهم ترومان أنهم أنشأوا جمهورية مستقلة باسم دولة اسرائيل «ضمن الحدود التي وافقت عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة بموجب قرارها في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧».

وبادر ترومان الى الاعتراف بدولة اسرائيل.

ومن هنا قامت نظرية اليهود التي طلعوا بها بعد ذلك، وهي أن الدول العربية «غزت» دولتهم، وأنهم خاضوا حرباً دفاعية، وأن المناطق التي استولوا عليها خارج حدود التقسيم أصبحت حقاً لهم نتيجة لانتصارهم في الحرب التي شنها العرب عليهم.

وأتساءل أخيراً: هل كانت الحكومة الأمريكية تقف ساكنة لو انها كانت مقتنعة بأن اليهود (في فلسطين) يتهددهم خطر أكيد من جراء دخول القوات العربية؟ أعتقد أنها في تلك الحال كانت ستعمل على اقناع الأمم المتحدة بارسال قوات عسكرية الى فلسطين من أجل المحافظة على كيان اليهود ووجودهم. (٢٧)

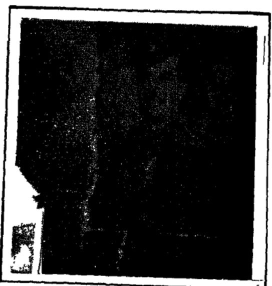


القدس وضواحيها

تضمن قرار تقسيم فلسطين وضع مدينة القدس وضواحيها تحت ادارة الامـم المتحدة ، بحيث تكون أبو ديس اقصاها شرقا ، وبيت لحم اقصاها جنوبا ، وعين كارم اقصاها غربا ، وشعفاط اقصاها شمالا .



الملازم الاول محمد الحمد الحنيطي
قائد المناضلين العرب في حيفا
استشهد في ١٧ آذار ١٩٤٨



الملازم الاول محمد عقله الربابعه
استشهد في النبي يعقوب
١٨ نيسان ١٩٤٨.

آخر أيام الانتداب

كان لبريطانيا ١٠٠ الف جندي في فلسطين عام ١٩٤٧، وقد أخذت تعمل على تخفيض هذه القوة منذ أن قررت إنهاء انتدابها، فهبط عدد الجنود الى ٥٠ الفاً في شباط ١٩٤٨. وعلى الرغم من ان حكومة الانتداب كانت مسؤولة عن الأمن حتى ١٥ ايار، الا ان قواتها العسكرية أخذت تقف موقف المتفرج على المعارك الدائرة بين العرب واليهود، وحصرت اهتمامها في المحافظة على سلامتها داخل مكاتبها ومعسكراتها في مناطق محصنة، وفي المحافظة على خطوط المواصلات الضرورية لها في اثناء عملية الانسحاب. اما المناطق الأخرى فقد تركتها للعرب واليهود، يعمل كل منهما فيها ما يشاء، فلم تكن تتدخل فيها الا في حالات الضرورة القصوى.

وفي اثناء هذا الانسحاب التدريجي كان اليهود والعرب يتسابقون على احتلال القلاع والمخافر والمعسكرات التي يخليها الانكليز. وقد أفاد اليهود من قواتهم النظامية ومن وجودهم تحت قيادة واحدة، اكثر من العرب في استغلال تراخي الانكليز.

وبذل المندوب السامي السير ألن كننجهام جهداً لتجنيب مدينة القدس ويلات القتال، وما ينتج عنه من دمار. فحاول اقناع الطرفين بعقد هدنة بينهما في المدينة وايقاف اطلاق النار. ووافق العرب على الهدنة وعلى وقف اطلاق النار. اما اليهود فلم يوافقوا على الهدنة بحجة انها لا تتيح لهم مجال الحصول على المؤن عن طريق باب الواد. وفي يوم ٧ ايار اجتمع المندوب السامي مع عبدالرحمن عزام (ممثلاً للعرب) في اريحا وتم الاتفاق بينهما على الهدنة ووقف اطلاق النار لمدة ثمانية أيام – أي حتى اليوم الأخير من أيام الانتداب. ووافق اليهود على وقف اطلاق النار فقط. كان من جملة حجج اليهود ان الفلسطينيين (بعد مقتل عبدالقادر الحسيني) لم تكن لهم قيادة واحدة يعترف بها الجميع. كما تذرعوا بأن لا سلطة لهم على منظمتي الأرغون وشتيرن. وبالفعل تضاءل اطلاق النار، وساد نوع من الهدوء لمدة ستة أيام فقط. ذلك ان اليهود حاولوا يوم ١٣ أيار امرار قافلة كبيرة عن طريق باب الواد الى القدس، فعمل العرب على منعها، ونشبت معركة حامية بين القوات العربية والقوات اليهودية التي كانت ترافق القافلة. وامتد القتال الى القدس، فنشبت يوم ١٤ أيار معارك شاملة حاول اليهود فيها الاستيلاء على المدينة المقدسة بأجمعها. وبذل العرب كل ما كان في وسعهم ان يبذلوا للاحتفاظ بما أمكنهم الاحتفاظ به من أحيائها.



معسكر وادي الصرار سنة ١٩٤٧ – رؤساء البلديات في ضيافة السرية ١٢

الجالسون من اليمين الملازم محمود الرفاعي والساده محمد علي الكيالي (رئيس بلدية اللد)، محمود علاء الدين (رئيس بلدية الرملة)، عبد الرحمن الفرا (رئيس بلدية خانيونس)، شفيق مشتهى (رئيس بلدية بئر السبع)، محمد علي الجعبري (رئيس بلدية الخليل)، يوسف هيكل (رئيس بلدية يافا)، رشدي الشوا (رئيس بلدية غزة)، سيد ابو شرخ (رئيس بلدية المجدل)، احد رجال الدين المسيحي (غزة) محمد عواد (رئيس بلدية الفالوجة).

ويبدو وقوفاً (من اليمين) الضباط عيسى تادرس، حكمت مهيار، عبد الله التل، عبد الحليم الساكت، الدكتور فريد طليع، فواز الحامد، رستم يحيى ويبدو في المقدمة الصحفي داؤد العيسى

الفصل الاول

١ - جاء في مذكرة قدمها الفريق كلوب الى الحكومة البريطانية بتاريخ ١ تموز ١٩٥٢ قوله « من وعد بلفور حتى انسحاب بريطانيا في ١٥ أيار ١٩٤٨، كانت جميع المصائب التي لحقت بالفلسطينيين ناشئة بصورة رئيسية عن سياسة بريطانيا. ولولا الجيش البريطاني لكان في مقدور العرب أن يقضوا على الغزوة اليهودية في مراحلها الأولى». وثائق وزارة الخارجية البريطانية، الملف : TOP SECRET F. O. 371/98861

٢ - يمكن مراجعة محاضر اجتماعات الامير عبدالله والمستر تشرشل، في كتابي (تأسيس الامارة الاردنية) الصفحات ١٠٦ - ١٢٢.

٣ - للاطلاع على تفاصيل المفاوضات بين بريطانيا والملك حسين، ثم ذهابه الى المنفى في قبرص، يمكن مراجعة كتابي (صفحات مطوية).

٤ - من أراد الاطلاع على وجهة نظر الملك عبدالله فليرجع الى المذكرات والرسائل التي نشرها في كتابه (الأمالي السياسية) والتي أعيد نشرها في مذكراته وفي أعماله الكاملة.

٥ - يقول فوزي القاوقجي ان الملك عبدالله سمح بدخول فوج اليرموك وغيره من قطعات جيش الانقاذ، على الرغم من ممانعة الانكليز.
فلسطين في مذكرات القاوقجي: الجزء الثاني، اعداد الدكتورة خيرية قاسمية،
مركز الابحاث ودار القدس، بيروت، ١٩٧٥ صفحة ١٤٤

٦ - وصف مناحيم بيغن مذبحة دير ياسين بأنها « انتصار عسكري». وقال ان القصص المفزعة التي نشأت عن المذبحة التي قامت بها منظمة الأرغون، نتج عنها « فرار ٦٣٥ الف عربي، بصورة جنونية خرجت عن نطاق السيطرة» (كتابه: الثورة The Revolt صفحة ١٦٤).

٧ - رسالة كركبرايد الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٥ نيسان ١٩٤٨ وكذلك برقية وزارة الخارجية اليه: دار الوثائق البريطانية، الملف F. O. 371/68852

٨ - أصيب الجندي حسن عيد الشوبكي بجراح خطيرة في المعركة، ولم يتمكن رفاقه من حمله معهم عند تراجعهم. وحينما سيطر اليهود على التلة عمدوا الى حرق جثمانه. وفيما بعد أقام له افراد الكتيبة الاولى ضريحا هناك.

٩ - بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ أغلق العرب بالحجارة باب النبي داوّد والباب الجديد، ولكن السلطات الاسرائيلية أعادت فتحهما بعد حرب ١٩٦٧.

١٠ - حديث مع عبدالرحمن الصعوب يوم ٦ حزيران ١٩٨٢.

١١ - عن مذكرة بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩٤٩ قدمها الفريق جلوب الى الحكومة الأردنية، وتضمنت اقتراحا لتدريب أبناء الشعب في الأردن (والضفة الغربية) عسكريا، حتى تتمكن القرى الامامية من الدفاع عن نفسها. دار الوثائق البريطانية، الملف F. O. 371/75298
وقد رافق الملازم الاول صالح الشرع (قائد معسكر صرفند آنذاك) الفريق جلوب في هذه الجولة. وحدثني الشرع أن رد زعيم المسميه الشيخ عبدالله ابومهنا كان مطابقا لما ذكره جلوب.

١٢ - من أثر النكبة، ١٩٥١، صفحة ١٥٣.

١٣ - كنت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب ذكرت (بناء على ما توافر لي آنذاك من معلومات) أن ٢٠ ضابط صف عاونوا الملازم راضي العبدالله في الدفاع عن يافا، وأن قيادة الجيش زودت هؤلاء بـ ١٣ رشاشة و ٤٠ الف طلقة و ٨ مدافع بيات، وأنها زودت المناضلين بـ ٥٠٠ بندقية. ولكن الدكتور يوسف هيكل، أكد لي في رسالة منه (١٥ آذار ١٩٨٦) أن الحقيقة هي ما ذكر أعلاه. ونفى أن المدينة كانت تعاني من النقص في المواد التموينية، قائلاً إن منازل الأهلين كانت تحتوي على «خزين من مواد الطعام يكفي لمدة سنة». وفي يوم ٥ ايار كان ما يزال في المدينة ما لا يقل عن ٢٠ ألفاً من السكان.

١٤ - كتب كركبرايد الى حكومته (بناء على ما سمع من فوزي الملقي) ان رئيس وزراء سوريا (جميل مردم) والحاج أمين الحسيني، عارضا في باديء الامر العرض الذي تقدم به الملك عبدالله، ولكن تم التغلب على معارضتهما عندما أتهمهما رئيس وزراء مصر بأنهما مستعدان للتضحية بفلسطين، ارضاء لحسدهما الشخصي.

١٥ - هذه الرسالة وما سبقها عن الوثائق البريطانية: الملف F. O. 371/68852

١٦ - محمد مهدي كبه: مذكراتي: في صميم الأحداث ١٩١٨ - ١٩٥٨، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٥ صفحة ٢٦١.

١٧ - تاريخ الوزارات العراقية: الطبعة الخامسة، الجزء السابع،صفحة ٣٠٥.

١٨ - صالح صائب الجبوري: محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية، بيروت، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠، ص ص ١٦٧-١٧٠.

١٩ - عارف العارف: النكبة، الجزء الاول، صفحة ٢٨٩.

٢٠ - رسالتان من الفريق جلوب بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٨٠ و ١٤ كانون الثاني ١٩٨١.

٢١ - يوميات عبدالناصر عن حرب فلسطين، منشورات مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، باريس ١٩٧٨. وللذكرى والعبرة نقول ان شهادات قادة القوات المسلحة المصرية في حرب ١٩٦٧ (نشرتها جريدة الدستور الاردنية في حزيران وتموز ١٩٨٢) دلت على ان معلومات القيادة المصرية العليا عن العدو قبل نشوب تلك الحرب كانت في حكم العدم ومن هذا نستدل أن العرب لم يأخذوا العبرة الازمة من حرب ١٩٤٨

٢٢ - عبدالرزاق الحسني: تاريخ الوزارات العراقية، الطبعة الخامسة، الجزء السابع، صفحة ٣٠٨ والجزء التامن صفحة ١٢.

٢٣ - يعتقد العميد حسن مصطفى ان القوات العربية التي اشتبكت مع العدو فعلا يوم ١٥ أيار كانت أقل بكثير من ١٥ ألف جندي، اذ لم يكن الجيش المصري يزيد على ستة الاف، ولم يكن الجيش العراقي يزيد على ١٥٠٠.

هامش الصفحة ٣١ من كتابه: التعاون العسكري العربي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٥.

٢٤ - ربما كان المقصود عملية الاشتباك مع مستعمرة النبي يعقوب.

٢٥ - في اليوم التالي (١٤ أيار) رد السفير الاميركي في مصر على مذكرة مارشال بقوله: ان النقص في الأعتدة الحربية لدى مصر لم ينشأ عن رفض المصريين المساعدة البريطانية، بل بالعكس نشأ عن رفض بريطانيا والدول الغربية الاخرى تزويد مصر بالمعدات العسكرية التي تبحث مصر عنها بكل تلهف.

٢٦ - الوثائق البريطا نية، الملف F. O. 371/68852

٢٧ - معظم الوثائق التي تضمنتها هذه النبذة مصدرها مجلد ١٩٤٨ من وثائق وزارة الخارجية الأمريكية:

Foreign Relations of the United States, 1948, Vol. V., Part 2, Govt. Printing Office, Wa. 1976.

الفصل الثاني

قبيل المعركة

يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون .

سورة الأنفال ٦٥

عرضت في الفصل السابق موقف الأردن من قضية فلسطين ووعد بلفور، وكيف حاول الملك عبدالله ان يتوصل الى ترتيب يتم من خلاله توحيد شرقي الأردن وفلسطين في دولة عربية يتمتع اليهود فيها بادارة محلية ضمن نطاق المدن والمناطق التي يؤلفون أكثرية فيها. وكان هم الملك عبدالله الأول ان يوقف الخطر المحدق عند حدّ معين، ويحصره بحيث لا يستشري في فلسطين كلها. ولكن محاولة الملك لم تلق قبولاً من الدولة المنتدبة أو من الوكالة اليهودية. كما ان الفكرة لم تلق تأييداً بين عرب فلسطين الذين ظلوا يطالبون بالغاء وعد بلفور، دون ان يؤيدوا تلك المطالبة بقوة نضالية كافية ترغم بريطانيا على تبديل سياستها.

وتوالت الأحداث في أثناء الحرب العالمية الثانية بصورة ظهرت الولايات المتحدة الأميركية فيها سنداً قوياً للصهيونية. ووجدت بريطانيا – التي خرجت من الحرب مدينة لأمريكا ودولة من الدرجة الثانية – نفسها في مأزق لم تستطع التخلص منه الا باحالة القضية الى هيئة الأمم المتحدة، والتنصل من مسؤولياتها، بعد أن أدت سياستها المجرمة الى زرع كيان يهودي على أرض فلسطين.

وكان قرار التقسيم. وكانت المعارك الدامية في فلسطين. وكان ما كان من سقوط المدن والقرى العربية بأيدي اليهود، ومن خروج الآلاف وعشرات الآلاف من ابناء فلسطين من ديارهم يهيمون على وجوههم. وكان ما كان من قرار الدول العربية بأن تدفع قواتها النظامية الى فلسطين لانقاذها والحفاظ على طابعها العربي، بعد أن عجزت قوات جيش الانقاذ والجهاد المقدس عن كبح جماح اليهود وايقاف تقدمهم.

لقاء بيفن وابوالهدى

في أواخر كانون الثاني ١٩٤٨ ذهب الى لندن وفد أردني مؤلف من توفيق أبوالهدى رئيس الوزراء وفوزي الملقي وزير الخارجية، ورافق الفريق جلوب الوفد بصفة مستشار عسكري. وقد جرت مباحثات بين الوفد الأردني والمستر ارنست بيفن وزير خارجية بريطانيا توصل الجانبان نتيجة لها الى اتفاق على تعديل المعاهدة الأردنية – البريطانية (المعقودة عام ١٩٤٦). وبعد ان تم الاتفاق على التعديل، اجتمع ابوالهدى مع بيفن، وكان جلوب يترجم بينهما. وفي ذلك الاجتماع قال ابوالهدى:

ان انتداب بريطانيا على فلسطين بوشك ان ينتهي. وقد أعد اليهود حكومة لهم تستطيع ان تتولى مقاليد الحكم حالما ينتهي الانتداب في ١٥ ايار. ولكن عرب فلسطين لم يقوموا بأي استعداد لحكم أنفسهم. ولا يوجد لديهم في البلاد زعماء يملكون المقدرة على تنظيم ادارة لهم. كما ان اليهود يملكون جيشاً يطلقون عليه اسم (الهاجانا). أما العرب فلا يملكون قوات مسلحة ولا يملكون الأسباب لتأسيس جيش لهم. وبناء على هذا فان الأوضاع اذا تركت على ما هي عليه فان واحدا من الاحتماليين سوف يحدث : فاما ان يتجاهل اليهود خطة تقسيم فلسطين التي اقرتها الأمم المتحدة ويستولوا على فلسطين كلها حتى نهر الأردن، أو أن يعود المفتي ويحاول ان يجعل نفسه حاكما على فلسطين العربية. وان ايا من هذين الاحتمالين لا يناسب بريطانيا او شرقي الأردن... وفي اثناء الأسابيع الأخيرة تلقى الملك والحكومة الأردنية، وما يزالون يتلقون، استدعاءات عديدة وعرائض من وجهاء عرب فلسطين، وفي هذه العرائض جميعها يرجو الفلسطينيون أن يساعدهم الجيش العربي ويتقدم لحمايتهم حالما تنسحب القوات البريطانية. وبناء على هذا فان الحكومة الأردنية تعتزم ارسال الجيش العربي عبر نهر الأردن، عندما ينتهي الانتداب البريطاني، بقصد احتلال ذلك الجزء الذي خصص للعرب من فلسطين، والذي يحاذي حدود شرقي الاردن.

وكان جواب بيفن:

- يبدو أن هذا هو الاجراء المعقول الذي يمكن الاقدام عليه.

ثم أوضح ابوالهدى ان الجيش العربي لا يستطيع احتلال منطقة غزة ومنطقة الجليل الأعلى اللتين خصصهما قرار التقسيم أيضا للعرب.

وقال بيفن:

- يبدو ان هذا هو الاجراء المعقول الذي يمكن عمله. ولكن لا تقوموا بغزو المناطق المخصصة لليهود.

وأجاب أبو الهدى:

- لن تكون لدينا القوات العسكرية الكافية لذلك، حتى لو كنا نرغب فيه.

وأضاف أبوالهدى قائلاً: انه يوضح نيات الحكومة الأردنية لوزير الخارجية البريطانية طبقا لما تنص عليه المعاهدة الأردنية – البريطانية.

وفي ختام الاجتماع، أعرب بيفن عن موافقته على خطة الحكومة الأردنية هذه.

ويقول جلوب (الذي نشر مضمون هذه المحادثة في كتابه **جندي مع العرب**) انه عندما دارت هذه المحادثة لم يكن لدى الحكومة البريطانية ولا لدى الحكومة الأردنية اية فكرة عن ان الجامعة العربية سوف تتدخل، بله أن تقوم الدول العربية بأرسال قواتها الى فلسطين. وكان المتوقع في ذلك الحين ان الجيش العربي سوف يحتل الجزء المخصص للعرب (باستثناء غزة والجليل) ويحافظ على الأمن الداخلي ويؤلف ادارة، ويقوم بأعمال الدوريات على حدود المناطق اليهودية. ولكن هذه الخطط أحبطها عاملان (اولاً) ان السلطات البريطانية فقدت السيطرة على الأمن الداخلي قبل انتهاء الانتداب (ثانيا) أن الجامعة العربية صممت أن تدعو الدول الأعضاء فيها لمهاجمة اليهود حالما ينتهي الانتداب.

لقد أعطت المصادر العربية هذه المقابلة اهتماماً أكبر مما تستحق، ووجهت الاتهامات الى توفيق ابوالهدى، مع ان الذي قاله توفيق ابوالهدى كان طبيعياً بالنسبة لرئيس وزراء دولة ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة تلزم كل منهما ان تطلع الاخرى على خططها التي تتعلق بأمر خطير كهذاً. وبالاضافة الى نصوص المعاهدة علينا ان نذكر ان بريطانيا كانت تقدم ميزانية الجيش وسلاحه وعتاده، ضمن نطاق معاهدة الصداقة (أو التحالف) بين الدولتين.

أي أن الحكومة الأردنية لم تكن مطلقة التصرف بالجيش الأردني. فماذا كان يستطيع رئيس حكومة آخر أن يقول في وضع مماثل؟ ثم ان موقف الحكومة الأردنية هذا لم يمنع الجيش الأردني – عندما نشبت الحرب – أن يبذل كل ما كان في وسعه في قتال القوات اليهودية ومشاغلتها وفي العمل على الحاق الخسائر بها، أي انه أسهم في الحرب بجميع طاقاته. ولا شك في ان ذلك كان عاملا مساعدا وايجابيا فيما لو أستطاعت قوات الدول

العربية الاخرى ان تخترق خطوط العدو، وان تلحق الهزيمة بقواته المسلحة. والواقع أن الدول العربية الاخرى فعلت مثلما فعل جيش الأردن، فقد تمركزت قواتها بصورة عامة اما على حدود فلسطين واما ضمن المناطق المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم. وبكلمة موجزة: ان هذه المحادثة لم تؤد الى الحاق الضرر بالسياسة العربية أو بعمليات العرب العسكرية. وعندما قررت دول الجامعة دخول الحرب، اتخذ الأردن ذلك القرار معها. وللحقيقة نقول ان الأردن كان أول دولة يعلن أن قواته المسلحة ستدخل الى فلسطيين، وان هذ الاعلان شجع الدول العربية الاخرى (وخاصة مصر) على اتخاذ القرار بارسال قواتها النظامية الى فلسطين. ومن المرجح ان الدول العربية الاخرى ما كانت ترسل قواتها الى فلسطين لو أن الأردن قرر عدم ادخال قواته، وفي ذلك ما فيه من الخطر على جميع أراضي فلسطين.

الحل السياسي؟ مساع ومحاولات

ان الذي يعود بذاكرته الى الأيام التي مرت بين صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٧ وبين انتهاء الانتداب البريطاني في ايار ١٩٤٨ - يدرك أن أحداث القتال بين العرب واليهود في فلسطين، والمشاعر الملتهبة في نفوس العرب واليهود في داخل فلسطين وخارجها، والحماسة التي كانت تغذيها الصحف والاذاعات ورجال السياسة، وايمان كل طرف بحقه المطلق وتمسكه بوجهة نظره تمسكا تاماً - جعلت وقوع الحرب أمراً لا مفر منه ولا محيد عنه. لم يكن العرب عموما على استعداد لقبول أي رأي بضرورة التوصل الى تفاهم مع اليهود يؤدي الى قيام دولة يهودية. كانت فكرة وجود دولة يهودية في أرض فلسطين، كريهة ممقوتة بالنسبة للعرب - ليس في فلسطين نفسها فحسب، بل في الأقطار العربية القريبة من فلسطين والبعيدة عنها على السواء. حتى لو ان احد السياسيين أو الزعماء فكر يومذاك في البحث عن حل يجري عن طريق التفاهم لما جرؤ على التصريح بفكرته. ولو حدث ان ذلك السياسي أو الزعيم صرح بتلك الفكرة، لما وجد من ينعم النظر في الأمر ويحاكمه محاكمة واقعية، بل لانهالت عليه الاتهامات بالمروق والخيانة. وهناك شبه أجماع على أن العرض الذي تقدمت به الحكومة البريطانية عام ١٩٣٩، كان أفضل عرض حصل عليه العرب منذ صدور وعد بلفور، ولكن الزعامة الفلسطينية، متمثلة بالمفتي امين الحسيني، أصرت على رفض ذلك العرض وجرّت معها عرب فلسطين وعرب الأقطار

المجاورة الى موقف الرفض. ولو ان تلك الزعامة كانت تعتمد في رفضها على قوة ملموسة ذات وزن حقيقي مقابل قوة اليهود والانكليز - لكان لها العذر كل العذر في موقفها، ولكن تلك الزعامة لم تكن تعتمد على شيء ملموس، ولم تكن تعمل على بناء قوة حقيقية تقابل قوة اليهود. ومن هنا حدثت المفارقة المصبرية.

على ان الانصاف يقتضينا القول انه لم يكن من السهل على الفلسطينيين، وعلى العرب أيضا، أن يقبلوا باختيارهم قيام دولة يهودية في بلادهم. واذا كان هناك من ملامة فانها يجب ان تنصب على ان الفلسطينيين ومعهم العرب، لم يدعموا رفضهم لقيام الدولة اليهودية باعداد العدة ليوم الفصل الذي كان واضحا انه سيأتي وانه لا مفر من مواجهته.

ومن العدل القول ان الحكومات العربية لم تكن تستطيع القبول بالتقسيم في وجه الحماسة المتأججة التي ملأت صدور الناس. ولكن الحكومات العربية كانت تستطيع ان تجند مواردها وتحشد طاقاتها وطاقات شعوبها بصورة أفضل مما حدث بالفعل.

الا ان الملك عبدالله كان استثناء للزعماء العرب من معاصريه. لقد حنكته التجارب والصدمات منذ ان نادى بالثورة من أجل استقلال العرب، ومنذ ان تولى قيادة القوات العربية في ميدان القتال، ومنذ ان شاهد اباه الشريف حسين يمضي الى المنفى في قبرص من أجل عروبة فلسطين. لقد راقب عن كثب مسيرة تأسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين. عاش تلك المسيرة يوماً بعد يوم. لم يتوان عن ايضاح حق العرب في بلادهم، ولم يتلكأ في حث الحكومة البريطانية على الرجوع الى الصواب. ان المذكرات التي بعث بها الى تلك الحكومة تشهد على قوة حججه. ولكن الموضوع كان أكبر من المذكرات والحجج القوية. الموضوع كان يتمثل في قوة دولة باغية تدعم قوة الحركة الصهيونية، وفيما يقابلهما عند العرب من ضعف وفرقة ونزاعات، وأقوال لا تدعمها الأفعال. ولكن اذا كان الأفراد غير المسؤولين يسمحون لأنفسهم بأن يتصرفوا ويتحدثوا بطرق غير مسؤولة - فان الزعيم الحقيقي يشعر بمسؤوليته ويتصرف انطلاقاً من تلك المسؤولية. ولقد كان الملك عبدالله يشعر بمسؤوليته تجاه بني قومه، ومن هنا دعا الى المرونة والحوار (ما دام أن العمل الذي يكسر رأس السياسة البريطانية ويدق عنق المخططات الصهيونية غير موجود).

ومن هذه المنطلقات عرض الملك عبدالله فكرته بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٧ (اي قبل التصويت على التقسيم) بتوحيد فلسطين وشرقي الأردن، على ان يتمتع العرب واليهود

في الدولة الموحدة بحقوق متساوية. لم تكن تلك الفكرة سوى نسخة طبق الأصل من الاقتراح الذي سبق ان عرضه عام ١٩٢١ على المستر ونستون تشرشل. كان الملك يريد ان يشد عضد الفلسطينيين باخوانهم الأردنيين، وان يكسب عرب فلسطين فوق نصف مليون أردني، فيؤلفون معهم ثلاثة أرباع السكان، وكان يقصد ان يوقف الخطر الصهيوني عند حد معين، ويحول دون قيام دولة يهودية. ولكن اقتراح الملك لقي اذانا صماء، وأصر اليهود على متابعة حلمهم القديم ومواصلة العمل من أجل تحقيقه. (١)

وجاء في بعض المصادر ان المسؤولين اليهود سئلوا بعد حدوث قرار التقسيم عما اذا كانوا على استعداد لتسليم الأردن بعض الأراضي التي خصصها قرار التقسيم لهم، حتى يكون لدى الأردن مبرر لحض العرب على القبول بالتقسيم. ولكن كان الجواب ان هذا غير ممكن، وان اليهود يصرون على قبول الحدود التي عينها قرار التقسيم وأن يتم ذلك بصورة سلمية. **اما اذا نشبت الحرب فان اليهود سيحتفظون بأية أجزاء يستطيعون الاستيلاء عليها.**

لم يكن الملك عبدالله من اولئك الذين يبنون حماستهم على العاطفة، لأنه كان يعرف ضعف العرب وقوة الخصوم. وكان يدرك بصورة خاصة مدى ارتباط المشكلة وارتباط الأردن – بسياسة الحكومة البريطانية. من هنا نراه يعمل كل ما في الوسع للتعرف على وجهة نظر بريطانيا وللتنسيق معها، لتفادي السير على دروب مجهولة لا يعلم اين تنتهي. وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٨ نراه يكتب الى السير الن كننجهام المندوب السامي البريطاني على فلسطين، يعرب عن أسفه لان كننجهام لم يزر الأردن قبل أيام كما كان متوقعاً، لرغبته في ان يتبادل الآراء معه « ببعض المهم مما يتعلق بشخصيتي ايضاً نحو العرب في فلسطين وهم يعانون الان أزمة وطنية وغزوة عالمية من أبشع الغزوات، ولكن سوء حظ أهالي فلسطين عاق الحضور يومذاك. وانني لا أزال انظر الى يوم المقابلة قبل تفاقم الأمر وحدوث ما يوجب السير على العمياء....».

وفي رسالة مؤرخة في ١٠ آذار ١٩٤٨ بعث بها الملك عبدالله الى السير ألن كننجهام نرى الملك يشير الى طلب كننجهام مساعدة الملك على وقف اطلاق النار في فلسطين ويقول «ومع ذلك فليس في مصلحة العرب اليوم الا الاستمرار فيما هم فيه. غير اني لا أخفي انني كنت قبلا أرى وجوب التوسل بالتفاهم، ولكني بعد خروج الأمر من اليد، وقد

نفرت العرب نفرة واحدة في كل فناء وبناء للدفاع عن هذا الوطن، فالموقف يقضي على الجانب الآخر ان يقدم ما فيه سلامته من مرامي بيّنها العرب غير مرة...».

وفي ١ أيار اجتمع الكولونيل دزموند جولدي، قائد اللواء الأول في الجيش العربي، مع بعض ضباط الهاجانا في مستعمرة نهرايم (قرب جسر المجامع) وقال لهم انه موفد من قبل جلوب باشا للبحث في احتمالات عدم نشوب الحرب، وسألهم: هل تقصدون احتلال فلسطين كلها؟ وقيل ان شلومو شامير رد عليه قائلاً ان الهاجانا تستطيع احتلال البلاد كلها فيما اذا حدث هجوم من العرب على فلسطين. واذا لم يحاربنا الجيش العربي فنحن لن نحاربكم... وقد فسر اليهود مهمة جولدي بأنها دعوة الى بقائهم في المناطق التي خصصها قرار التقسيم لهم. (كان اليهود قد استولوا حتى ذلك الحين على مناطق عديدة خصصها قرار التقسيم للعرب). اما جولدي فقد تكون لديه انطباع بأن اليهود ميالون للتوصل الى حل سلمي.

وجرت محادثات في ٨ أيار بين شرتوك ووزير المستعمرات البريطاني (جريتش جونز) ثم مع وزير الخارجية الأمريكي (مارشال). وقد دارت تلك المحادثات حول امكانات وقوف الجيش العربي عند حدود التقسيم وان لا يتجاوز اليهود تلك الحدود. ومن الواضح ان الحكومة البريطانية كانت تحاول جاهدة ان يتم التقسيم بصوره سلمية وان لا ينشب القتال في فلسطين. ولكن شرتوك لم يتعهد في تلك المحادثات بالوقف عند حدود التقسيم. ويبدو ان اليهود كانوا يعتقدون انهم اذا توصلوا الى تفاهم مع الأردن، فان الدول العربية الأخرى لن تفعل شيئاً مؤثراً لنقضه وسوف تقبل به مع مضي الزمن.

وكانت المحاولة الأخيرة من قبل المسؤولين اليهود يوم ١٠ أيار – أي قبل انتهاء الانتداب بخمسة أيام فقط. وكان الجواب من قبل الأردن تكراراً للعرض القديم: الا وهو ان يلغي اليهود خططهم الرامية الى اعلان دولة يهودية، وأن يبقوا على وضعهم الراهن يديرون شؤونهم لمدة سنة، ليتم بعد ذلك اتحاد فلسطين مع الأردن، فتكون في فلسطين وزارة تضم اعضاء من اليهود، ويكون هناك مجلس نواب مشترك. وقيل لليهود ان هذه هي الفرصة الأخيرة لتفادي نشوب الحرب، وانه اذا نشبت الحرب فسيتبع ذلك تدمير مؤسسات اليهود ومزارعهم ومصانعهم، بينما سيؤدي التعاون بين الشعبين الى فوائد عديدة

لهما. وكان الجواب من الجانب اليهودي: انه لا يمكن قبول الاقتراح، واذا ما أراد العرب الحرب، فلتكن الحرب.

هكذا أخفقت المحاولة المخلصة الأخيرة من جانب العرب في وجه اصرار اليهود على قيام دولة مستقلة لهم على أرض فلسطين.

ولما لم يكن العرب على استعداد للقبول بالتقسيم وقيام دولة يهودية، فلم يبق أمامهم الا خوص الحرب.

الجيش العربي

كان الجيش العربي منذ انشاء الامارة الأردنية عام ١٩٢١ وحتى عام ١٩٣٩ قوة صغيرة من رجال الدرك والشرطة، مهمتها المحافظة على الأمن العام في داخل شرقي الأردن. وعند نشوب الحرب العالمية الثانية أعلن الامير عبدالله وقوف بلاده الى جانب الحلفاء. وكان موقفاً يدل على حنكة سياسية وبعد نظر، في وقت كان كثيرون من العرب فيه يتمنون انتصار المانيا وانكسار الحلفاء، ظناً منهم ان ذلك سيؤدي الى التخلص من الاستعمار البريطاني والفرنسي، والى التخلص – وهذا الأمر الأهم – من سياسة الوطن القومي لليهود.

وقد برهنت قوة البادية الأردنية على فعاليتها عام ١٩٤١ في الحملة البريطانية ضد انقلاب رشيد عالي في العراق، وفي الحملة الأخرى ضد قوات (فيشي) الفرنسية في سوريا، فقررت بريطانيا مساعدة الأردن على زيادة عدد أفراد الجيش، وانشاء عدد من الكتائب المسلحة وتدريب أفرادها على أساليب القتال الحديثة. وهكذا أنشيء في الأزرق مركز للتدريب وأخذ ضباط بريطانيون محترفون يقومون بتدريب الجنود. وفي عامي ١٩٤١ – ١٩٤٢ تم تأسيس ثلاث كتائب مسلحة، كان جميع جنودها من أبناء القبائل البدوية – أردنية وغير أردنية – وهي الكتائب: الاولى والثانية والثالثة. وأُسندت قيادة كل كتيبة الى ضابط بريطاني. وقد أُطلق على الكتائب الثلاث اسم لواء السيارات المسلحة.

ومما هو جدير بالتنويه ان أفراد هذه الكتائب الثلاث حصلوا على أيدي الضباط البريطانيين على تدريب عسكري شاق ورفيع المستوى، وأُنشئوا على حب النظام والدقة والكفاءة القتالية. وليس من المبالغة القول انهم كانوا أفضل الوحدات العسكرية في الجيوش العربية كلها.

في خلال الحرب تضاعف عدد رجال الجيش العربي ست مرات، فبلغ نحو ثمانية آلاف جندي وضابط. ولذلك كان الجيش يعاني من النقص في عدد الضباط، وعلى الأخص الضباط المؤهلين. وقد قدم الجيش العربي خدمات عظيمة الأهمية لمجهود الحلفاء الحربي، اذ انتشرت سراياه ووحداته في ايران والعراق وسوريا وفلسطين، وكانت تقوم بأعمال الحماية والحراسة للمعسكرات والموانيء والمطارات والمؤسسات الرسمية (بين مدنية وعسكرية). وكان الجيش العربي الوحيد الذي أسهم في الحرب بصورة فعلية. وقد برهن الأردن من خلال رئيس الدولة انه حليف يعتمد عليه ويوثق به في ايام الشدة، كما برهن من حلال قواته المسلحة انه حليف يملك تقديم العون والموازرة. ولقد أفاد الأردن سياسياً واقتصاديا وعسكريا من موقفه الودي مع بريطانيا. ومع ان الحصيلة السياسية لم تصل الى المدى المتوقع (اعادة وحدة الأقطار السورية)، الا ان الحصيلة العسكرية كانت وجود قوة محاربة ذات تدريب جيد وروح عسكرية عالية، ترتفع في مستواها على اية قوة عسكرية في الأقطار العربية الأخرى. وقد ظهرت فعالية تلك القوة وقيمتها في اثناء حرب فلسطين. وكان الملك عبدالله يعرف ان المصلحة بالنسبة لكل دولة تأتي في المقام الأول. ولما كان ينظر الى المستقبل بعيني رجل الدولة المسؤول، فقد حاول ان يرسل الكتائب المسلحة الثلاث الى ميادين القتال الفعلية في شمالي افريقيا (حيث كانت الجيوش البريطانية تخوض المعارك ضد قوات ايطاليا والمانيا). وقد تم حشد تلك الكتائب في معسكر النصيرات قرب غزة، ولكن سقوط جزيرة كريت بيد الالمان، دفع القيادة البريطانية الى ابقاء كتائب الجيش العربي في فلسطين للاشتراك في حماية خط المواصلات الرئيسي في المنطقة. كان ذلك القرار مؤلماً بالنسبة للملك عبدالله لانه كان يريد أن يقنع بريطانيا بتعزيز جيشه أكثر وأكثر وزيادة وحداته المحاربة وتزويدها بالأسلحة الفعالة. كان الملك يتطلع الى أيام ما بعد الحرب، ويخطط لبناء جيش قوي يستطيع ان يوجهه للعمل في سبيل الوحدة السورية وفي سبيل صد الغزوة اليهودية.

والى جانب الكتائب المسلحة الثلاث (والتي لم يكن عدد أفرادها يزيد على ثلاثة آلاف) أنشأ الجيش عدداً من سرايا الأمن، وتتألف من جنود مشاة نالوا تدريباً محدوداً، ولم يكن سلاحهم يزيد على البنادق، مع رشاش برن ومدفع هاون صغير (٢ بوصة) لكل فئة من فئات السرية الثلاث. كانت مهمة تلك السرايا أن تقوم بوظائف الحماية والحراسة

للمؤسسات والمنشاءات العسكرية والحكومية ذات الأهمية بالنسبة للجيش البريطاني. وفي عامي ١٩٤٣ – ١٩٤٤ تم توزيع سرايا الأمن في فلسطين والعراق فتم تنظيم السرايا الموجودة في فلسطين في (الحامية الاولى) وقائدها القائمقام احمد صدقي الجندي، والسرايا الموجودة في العراق في (الحامية الثانية) وقائدها القائمقام بهجت طباره. وعندما انتهت الحرب سنة ١٩٤٥ غادرت الحامية الثانية العراق. وتمركزت معظم سرايا الأمن وعددها ١٩ سرية – في فلسطين. فكانت الحامية الاولى في حيفا ومهام سراياها تشمل الجزء الشمالي من البلاد، وكانت الحامية الثانية في صرفند وتشمل مهام سراياها الجزء الجنوبي. وتولى القائمقام أحمد صدقي الجندي قيادة الحاميتين.

ومع انتهاء الحرب، بدأ تخفيض ملاك الجيش الأردني تدريجياً، فهبط عدد افراده من ثمانية الآف عام ١٩٤٥ الى ٦٥٠٠ عام ١٩٤٨.

وفي أواخر عام ١٩٤٧ انتقلت قيادة الحاميتين الى رام الله، ثم أخذت بريطانيا تخلو تدريجياً عن فلسطين، وأخذت وحدات الجيش العربي تنسحب الى شرقي الأردن بعد أن تعهدت بريطانيا بأن يتم ذلك مع نهاية الأنتداب.

ويقول الفريق جلوب انه كان من المقرر تسريح سرايا الحاميات في ١ نيسان ١٩٤٨ (وهي بدء السنة المالية يومذاك)، لعدم وجود ميزانية تتيح الاحتفاظ بها بعد ذلك، وعلى الرغم من ذلك فقد أبقيت في الخدمة على أمل تدبير وسيلة ما لدفع رواتب افرادها.

وعندما قررت بريطانيا الانسحاب من فلسطين، كان على قيادة الجيش العربي ان تعيد تنظيم وحدات الجيش على أسس جديدة. فقد أصبح محتماً على الجيش من الآن وصاعداً ان يعتمد على نفسه بنفسه في جميع شؤونه الادارية والفنية، وأن يستكمل جميع النواقص، بينما كان في السابق يعتمد على الجيش البريطاني في تأمين خدمات عديده.

وفي أواخر ١٩٤٧ بدأ التنظيم الجديد، في معسكر المفرق، وأصبح الهيكل الهرمي للجيش كما يلي:

قيادة الفرقة – الزعيم نورمان لاش

١ – اللواء الاول : القائمقام دزموند جولدي

وهو يضم:

الكتيبة الأولى : القائد بلاكدن

الكتيبة الثالثة : وكيل القائد نيومان

٢ – اللواء الثالث : القائمقام اشتون

وهـو يضـم:

الكتيبة الثانية : وكيل القائد سليد

الكتيبة الرابعة : القائد حابس المجالي

٣ – اللواء الرابع : القائم مقام أحمد صدقي الجندي

وهـو يضـم:

الكتيبة الخامسة : هذه التسمية كانت تطلق على سرايا المشاة الموجودة في رام الله، ولكن الكتيبة لم تتألف رسمياً الا في ١٤ حزيران ١٩٤٨.

الكتيبة السادسة : وكيل القائد عبدالله التل (تألفت في ١٠ أيار ١٩٤٨).

٤ – كتيبة المدفعية : قائدها القائد ج. هيرست

وهـي تضـم:

البطارية الأولى : قائدها وكيل القائد محمد المعايطة.

البطارية الثانية : قائدها وكيل القائد روبنسون.

لم تكن تتوافر للواء الرابع المقومات العسكرية التي كانت تتوافر للوائين الأول والثالث. وفي بادىء الامر اقتصر تنظيم اللواء على استبدال اسم (الحامية) باسم (اللواء)، اذ بقي قائده مسؤولاً عن سرايا المشاة المنفرقة التي أشرنا اليها سابقاً. ومع مضي الوقت تألفت من تلك السرايا الكتيبتان الخامسة والسادسة. وبقيت سرايا أخرى تقوم بمهام مختلفة هنا وهناك حتى تمت زيادة حجم الجيش بعد أشهر، فأدمجت جميع السرايا في كتائب جديدة.

وقد رأت القيادة القفز عند تسمية اللواء الثاني، فأعطته اسم اللواء الثالث، بقصد التعمية وايهام العدو.

وكانت الكتيبة الرابعة جديدة الى حدّ ما، اذ تم تأليفها في شهر كانون الاول ١٩٤٧.

ومن الجدير بالذكر ان الجيش بقي دون أسلحة ثقيلة مؤثرة حتى شهر شباط ١٩٤٨. ففي ذلك الشهر فقط وصلت اليه مدافع الميدان من عيار ٢٥ رطلاً، وعددها ١٦ مدفعاً. كما وصلت اليه في شباط نفسه مدافع مقاومة الدروع عيار ٦ ارطال، فتم توزيعها على سرايا

الاسناد. وكان على الافراد الذين اختيروا لاستلام هذه المدافع ان يبذلوا جهوداً استثنائية للتدرب عليها قبل الدخول في معارك القتال. ولم تكن قيادة الجيش تنوي استعمال مدافع ٢٥ رطلاً، على أساس ان التدرب عليها يحتاج الى عدة اشهر . ولكن ضغط الملك عبدالله على الفريق جلوب، جعل هذا يتخذ القرار بادخالها كسلاح من أسلحة الجيش في ميدان القتال. اما بطارية مدافع الهاون الثقيلة (٢ر٤ بوصة)، والتي حصل عليها الجيش في أواخر ١٩٤٧، فلم يتم استخدامها الا في المرحلة الثانية من الحرب.

لم يكن لدى الجيش قوة احتياطية، ولذلك لم يكن بمقدوره التعويض عن الخسائر في القتلى أو الجرحى أو الاسرى.

ولم يكن لدى الجيش احتياط من العتاد، لانه كان حتى أيار ١٩٤٨ يعتمد على مخازن الجيش البريطاني في فلسطين.

ويقول الفريق جلوب انه حتى شهر اذار ١٩٤٨ لم يكن قد تأكد ان الحرب ستنشب مع اليهود. ولكن عندما تبين ان الحرب واقعة لا محالة، فانه طلب من القائد العام البريطاني في الشرق الأوسط ان يزود الجيش العربي بحمولة باخرة من أصناف العتاد الملائمة لأسلحته. وقد استجاب القائد للطلب، وتم تحميل الباخرة في السويس. ولكن السلطات المصرية أوقفت الباخرة قبل ان تغادر خليج السويس (في طريقها الى العقبة) واستولت على الحمولة كلها. (كان ذلك في أيار ١٩٤٨). وعندما عرف جلوب بما حدث، طلب حمولة باخرة أخرى ، وتم تحميلها بالعتاد فعلاً، ولكن قبل أن تبحر من ميناء السويس صدرت أوامر الأمم المتحدة بمنع تزويد الطرفين بالسلاح والعتاد، فأعيد العتاد الى مخازنه. وجاء في أحد المصادر ان الحمولة التي استولى عليها المصريون، كانت تضم فيما تضم ١٥ ألف قنبلة لمدافع ٢٥ رطلاً.

وأخذ الجيش العربي يستعد للأيام التي سيترتب عليه فيها ان يعتمد على نفسه في كل شيء. ومن هنا حصل من الجيش البريطاني على كميات من الأعتدة واللوازم والمهمات المختلفة والبنزين – وعلى الأخص عتاد البنادق والرشاشات. وأخذ يعمل على نقلها بسيارات الشحن من معسكرات الجيش البريطاني في فلسطين في قوافل تحت حماية مدرعات وجنود مسلحين. وعينت القيادة الرئيس عبدالله التل مسؤولاً عن تأمين الحراسات لهذه القوافل، ووضعت تحت تصرفه سرية مدرعات، فجعل التل مركزه في معسكر

العلمين في القدس. ولكن عندما اقترب اليوم الأخير من أيام الانتداب، لم يكن لدى الجيش سوى كمية محدودة من عتاد مدافع ٢٥ رطلاً ومدافع الهاون، ولم تكن تلك الكمية تكفي لخوض أكثر من معركة واحدة (كما يقول جلوب).

قبيل المعركة

ظلت معظم وحدات الجيش العربي تتمركز في فلسطين منذ أيام الحرب الى الأيام الأخيرة من فترة الانتداب. وبطبيعة الحال كانت تلك الوحدات تحت امرة القيادة البريطانية. وكانت لديها أوامر صارمة بعدم التدخل في الاشتباكات التي كانت تنشب بين العرب واليهود، الا اذا هوجمت: أي في حالة الدفاع عن النفس.

وفي الأشهر الأخيرة للانتداب أخذت الوحدات البريطانية تغادر فلسطين بالتدريج. وفي نفس الوقت صدر أمر القائد البريطاني بأن تنسحب جميع وحدات الجيش العربي من فلسطين قبل انتهاء الانتداب. وعلى هذا الأساس غادرت معظم وحدات الجيش فلسطين الى شرقي الأردن قبل نهاية شهر نيسان، حيث أخذت تعيد تنظيم نفسها، وتتدرب على استعمال الأسلحة الجديدة، وتستعد للعودة الى فلسطين. وقد ظلت بعض سرايا الأمن تقوم بأعمال الحراسة حتى الايام الاخيرة، بل ان بعضها لم ينسحب من فلسطين الا قبل ساعات فقط من انتهاء الانتداب.

ولكن بعض سرايا الأمن بقيت في فلسطين: اما للمحافظة على الامن واما لانها لم تتمكن من الانسحاب. ومن هذه السرايا السرية الثانية عشرة التي كانت تتمركز في الخليل لحماية طريق المواصلات مع مصر (رفح – غزة – بئر السبع – الخليل).

ووجدت السرية السادسة – بقيادة الرئيس ضرغام الفالح – صعوبة في الانسحاب من غزة، فقد كان طريق مواصلاتها يمر ببئر السبع ثم الخليل. وعندما صدر لها الامر بالانسحاب في ١٢ أيار على هذه الطريق، صادفت حاجزاً أقامه اليهود قبل بئر السبع. وعندما أقبلت على موقع الحاجز بادرها هؤلاء باطلاق النار، فقابلتهم بالمثل وكبدتهم خسائر. ثم اضطرت ان تبدل طريق سيرها خشية أن تصادفها كمائن أخرى، فذهبت بطريق وادي عربة الى العقبة ومن هناك عادت الى القدس عن طريق غور الصافي – الكرك – عمان.

وبينما كان قائد السرية السادسة يستعد للانسحاب، استنجد به أهل المجدل والفالوجة، فأفرز فئة من جنوده (٤٠ رجلاً) وأمرهم بالبقاء في البلدتين للتعاون مع اهلهما في الدفاع عنهما. وفي يوم ١٣ أيار غادر جنود الفئة مدينة غزة بواسطة القوارب الى المجدل، وهناك انقسموا الى مفرزتين: احداهما بقيادة ضابط الصف محمود عبدالقادر بقيت في مركز شرطة المجدل، والاخرى انتقلت الى مركز شرطة عراق سويدان (قرب الفالوجة) بقيادة ضابط الصف نواف عبيدات. وفي ليلة ٢٣ أيار قامت قوة يهودية من احدى المستعمرات المجاورة بمهاجمة مركز عراق سويدان، ولكن جنود المفرزة الأردنية والمناضلين الفلسطينيين تمكنوا من دحر المهاجمين وأرغموهم على الانسحاب، بعد أن تركوا على أرض المعركة سيارتين مسلحتين وقتيلاً وبعض الأسلحة. وقد استهلك الجنود والمناضلون ما كان لديهم من عتاد، فذهب رئيس بلدية الفالوجة الى الخليل مستنجداً فزوده قائد السرية ١٢ بكمية من العتاد اللازم. وبعد أربعة أيام (٢٧ أيار) وصلت الكتيبة المصرية الاولى الى عراق سويدان فانسحب جنود الفئة الأردنية الى الخليل، ثم التحقوا بالسرية السادسة في القدس. ولم تلبث المفرزة الأردنية التي كانت في بيت جبرين حتى عادت الى الخليل، بعد تسليم مركز الشرطة الى القوات المصرية.

وبقيت في رام الله والقرى المحيطة بها وحدات متفرقة صغيرة ربما لا يزيد مجموعها عن سرية أو سريتين، وكانت هذه الوحدات تحت قيادة قائد الحامية الذي لم يلبث ان استبدل لقبه باسم قائد اللواء الرابع.

ويقول الفريق جلوب ان السرية ١٢ تأخرت اضطراراً في الخليل لان اليهود أغلقوا طريق انسحابها بين (بيت لحم والقدس)، فظلت شبه مقطوعة حتى تم انشاء طريق ترابية بين الجبال من بيت ساحور الى طريق القدس – اريحا، وعندئذ عاد اتصالها بجسم الجيش. وكان قطع اليهود للطريق الرئيسية يوم ١٤ أيار، بعد انسحاب الانكليز مباشرة من القدس (وبعد انتهاء معركة كفار عصيون)، لان طريق القدس – الخليل كانت تمر من جانب مستعمرة رامات راحيل. أما الوحدات التي بقيت في رام الله فيذكرها جلوب بقوله «عدد قليل من الرجال». ومن الواضح ان جلوب أبقاها عامداً لعدة أسباب من جملتها انها في مناطق مخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم (ومن المفروض أن لا يكون لليهود اعتراض على وجودها هناك). ولكنه لكي لا يتهم بمخالفة أوامر القيادة البريطانية، أمر

افراد تلك الوحدات في يومي ١٣ – ١٤ أيار بخلع سدرات الجيش عن رؤوسهم وارتداء حطات صفراء وعقل عادية (دون شعار الجيش) لكي يعتقد من يراهم انهم مناضلون.

وليس من شك ان بقاء تلك الوحدات على أرض فلسطين أسهم كثيراً في رفع معنويات المناضلين وأفراد جيش الانقاذ والأهلين.

وفي شهر نيسان استفحل أمر اليهود وتحولوا من موقف الدفاع الى الهجوم، وأخذوا يشنون الهجمات ليس فقط في المناطق التي خصصها قرار التقسيم لهم بل في المناطق المخصصة للعرب. وكان الجيش العربي قد بدأ بنقل العتاد واللوازم الأخرى من المعسكرات البريطانية في منطقة القناة الى شرقي الأردن. وعندما أخذ اليهود يتعرضون لقوافل سيارات الشحن (وهي سيارات للأهلين كان الجيش يستأجرها)، عينت قيادة الجيش قوة لحراسة تلك القوافل مؤلفة من سرية مدرعات (عددها ١٤ مدرعة) وفئة مشاة، لكي تتولى مسؤولية مرافقة القوافل وهي في طريقها من غزة الى بئر السبع الى الخليل ثم الى اريحا، وتقوم بحمايتها ومنع اليهود من الاعتداء عليها.

من الواضح ان الفريق جلوب اعتبر ان قواته المحاربة المؤهلة لخوض معارك القتال كانت تتألف من الكتائب المسلحة الأربع، وهذه كلها كانت قد انسحبت بالفعل الى الشرق من نهر الأردن قبل انتهاء الانتداب. كما اعتبر ان السرايا المتفرقة التي بقيت هنا وهناك، لم تكن وحدات حربية بل وحدات أمن تفرض الضرورات بقاءها في المناطق التي خصصها قرار التقسيم للعرب، اذ ان قوات الأمن الفلسطينية كانت قد أصبحت في خبر كان مع انتهاء حكومة الانتداب، وعدم قيام حكومة تحل محلها في المناطق العربية.

ولكن الجيش العربي أسهم في معركة الجهاد ضد الاعداء، قبل انتهاء الانتداب على الرغم من أوامر القيادة البريطانية. وكان ذلك الاسهام يتم أحياناً في نطاق ضرورات الدفاع عن النفس تجاه اعتداءات اليهود وتحدياتهم، وأحياناً أخرى في نطاق السرية والكتمان. ولا بد لي هنا من ان أعرض لبعض مواقف الجيش هذه.

ففي شهر نيسان خاض الجيش العربي معركة ضد القوات اليهودية في منطقة جسر المجامع، حيث يلتقي نهر الأردن بنهر اليرموك، وحيث تقوم عدة جسور تربط بين فلسطين وشرقي الأردن. وكانت الحكومة الأردنية وافقت قديماً على اقامة منشاءات محطة توليد كهرباء ضخمة أصبحت تعرف باسم المهندس الذي أنشأها (روتمبرغ) – في الأراضي

الأردنية عند ملتقى النهرين. وكانت تقوم الى جوار المحطة مستعمرة صغيرة ومعسكر لقوة حدود شرقي الأردن، بينما أقيمت على الجانب الغربي - في أراضي فلسطين، مستعمرة (جيشر)، والى جانبها مخفر شرطة كبير من طراز (تيجارت).

وعندما اقترب الانتداب من نهايته، عمدت حكومة فلسطين الى تسريح قوة حدود شرقي الأردن، فحركت قيادة الجيش العربي قوة مؤلفة من فئتين احداهما من السرية الثامنة والأخرى من السرية ١٣ وهذه القوة تمركزت في معسكر قوة الحدود. ولكن الأحداث المتتابعة في فلسطين، وتحول القوات اليهودية من موقف الدفاع الى مواقف الهجوم، دفع قيادة الجيش الى تعزيز تلك القوة الصغيرة بالسرية الثانية من الكتيبة الرابعة التي كانت تتمركز في بلدة المفرق. وفي ٢٠ نيسان تسلمت تلك السرية (التي كان يقودها الرئيس عبدالله السالم) موقعها الجديد، ومهمتها ان تحافظ على الجسور وعلى مشروع الكهرباء وتحول دون أي اعتداء قد يقوم به اليهود. وفي يوم ٢٦ نيسان جاء ضابط شرطة بريطاني واجتمع بقائد السرية ومساعده الملازم محمد المحاسنه، وقال: لقد أخلينا مركز الشرطة في جيشر، اذا كنتم تريدون استلامه. وتطلع قائد السرية نحو المخفر بمنظاره فشاهد فيه عدة أشخاص، وتبادر الى ذهنه ان اولئك من اليهود، كما انه لم يكن مطمئناً لكلام الضابط البريطاني. وكانت لديه أوامر بأنه لا يجوز الدخول الى غربي النهر قبل ١٥ أيار. وعلى هذا اتصل هاتفياً بأركان حرب اللواء الثالث في اربد، وطلب منه الحصول على تعليمات بشأن المركز. وكان الجواب: لا يحق لنا اجتياز نهر الأردن الى الغرب، ولذلك لا يمكنكم احتلال المركز.

وهكذا ضاعت فرصة ثمينة.

واستولى اليهود على مركز جيشر، الذي كان في واقع الأمر قلعة متينة البنيان.

كانت مفرزة من السرية الثانية ترابط على الطرف الشرقي من جسر المجامع. في مساء ذلك اليوم تحرك الملازم محمد المحاسنه ومعه فئتان من جنود السرية لتعزيز القوة المرابطة على رأس الجسر. وما عتم الضابط وجنوده ان شاهدوا شابين وفتاة يدخلون مركز جيشر، ولم يلبث اطلاق النار أن بدأ بين الطرفين، واستمر طوال اليوم التالي وقتل جنديان (أحدهما من الكرك). وفي صباح يوم ٢٨ نيسان وصلت عناصر من السرية المساندة في الكتيبة الثانية (فئة مشاة وحضيرة مدافع هاون وحضيرة رشاشات فيكرز

ومدفعان عيار ٦ ارطال وفئة مدرعات). وبادرت هذه الأسلحة الى تدمير برج المستعمرة، ونشبت معركة بين القوة الأردنية والقوة اليهودية المرابطة في المستعمرة – وبينهما نهر الأردن. استمرت المعركة يومين. وفي اليوم الثاني رفعت المستعمرة علماً ابيض، فتوقف اطلاق النار. وأرسل مختار اليهود في مشروع روتمبرغ (ابو يوسف) الى المستعمرة ليطلب الى من فيها الاستسلام وتسليم سلاحهم، ولكنه لم يلبث ان عاد قائلاً انهم يرفضون. ثم صدر الأمر من قيادة الجيش بايقاف اطلاق النار. وقيل ان المندوب السامي توسط مع الملك عبدالله على أساس أن الانتداب ما يزال قائماً وان مسؤولية بريطانيا ما تزال سارية المفعول. وقيل ان المندوب وعد بكف هجوم اليهود على يافا. وتوقف اطلاق النار بالفعل.

خسر الأردن أربعة جنود وثلاثة مدنيين كما جرح ضابط وثلاثة جنود وأربعة مدنيين. اما خسائر العدو فلم تكن معروفة. وأشرف على المعركة قائد الكتيبة الرابعة (حابس المجالي). كما ان الامير طلال ولي العهد زار موقع المعركة وأشرف على سيرها وكان يشجع الجنود على القتال.

وفي أثناء المعركة تواردت النجدات لليهود من مستعمراتهم القريبة من سمخ. وكان مجيئها في حافلات ركاب. وقد أصابت احدى المدرعات واحدة من الحافلات بقذيفة من مدفعها، فانقلبت ووقعت اصابات في ركابها. كانت اصابة الهدف مباشرة، وقد بلغ من حماسة أحد المواطنين انه قدم خاتمه الذهبي الى جندي المدرعة الذي حقق تلك الاصابة.

وبقي الوضع على تلك الحال حتى يوم ١١ أيار، عندما قدم متصرف اربد بهجت طبارة انذاراً أصدره رئيس الوزراء الى المسؤولين عن محطة توليد الكهرباء، وهو ينص على ان يسلم المسلحون في المحطة أسلحتهم الى السلطات الأردنية ويعودوا الى فلسطين، وأن يبقى الأشخاص الذي يقومون بتشغيل المحطة على ان لا يحملوا أية أسلحة، وأن تبقى المحطة تحت الاشراف العسكري للقوات الأردنية. وتضمن الانذار القول انه سيتم احتلال المحطة بالقوة اذا رفض اليهود هذه الشروط. وقد وافق اليهود على الشروط، وسلم المسلحون أسلحتهم.

وبعد ذلك بيومين، عمدت قوة أردنية من سلاح الهندسة، ليلة ١٣ أيار، الى تدمير عدد من الجسور القائمة على نهر الأردن بواسطة المتفجرات. وقد دمر جسر سكة الحديد المؤدي الى سمخ، وجسران آخران الى الجنوب من جسر المجامع أحدهما لسكة الحديد.

أما جسر المجامع الكبير فلم تؤثر فيه الألغام. وقد أشرف على عملية التدمير ضابط بريطاني من ضباط الجيش العربي. ثم قام اليهود بنسف جسر المجامع بعد يومين عند قدوم العراقيين.

وكانت غاية كل جانب من النسف عدم تمكين الجانب الآخر من الهجوم عليه عن طريق تلك الجسور.

وفي اليوم التالي (١٤ أيار) وصلت طلائع القوات العراقية الى منطقة جسر المجامع، وتسلمت مواقع السرية الأردنية. ولكن العراقيين لم يوافقوا على استمرار العمل في محطة الكهرباء، فاعتقلت سلطات الأمن الأردنية اليهود الموجودين في المحطة، وعددهم ٢٠ شخصاً، وأخذتهم أسرى حرب. وحدث في تلك الأثناء نهب آلات المحطة. وقد أجرت الحكومة تحقيقاً في الموضوع لم يسفر عن تحديد المسؤولية.

ومثلما حدث في محطة كهرباء (روتمبرغ) حدث في مصانع البوتاس ومستعمرة (كاليه). وكانت هذه المصانع تقع على الشاطيء الشمالي الغربي للبحر الميت والى جانبها مستعمرة للعاملين فيها وفندق سياحي. وقد انقطعت المواصلات بين كاليه ويهود القدس منذ أول أيار فأصبحت معزولة لا تستطيع الاتصال بمواقع اليهود الأخرى الا عن طريق الجو او بمصانع البوتاس اليهودية في الطرف الجنوبي من البحر الميت، بواسطة القوارب. ولما كانت شركة البوتاس مسجلة في بريطانيا فقد دارت مفاوضات بين مديرها (نوفومسكي) ورئيس الأركان الفريق جلوب أسفرت عن اتفاق على تجريد المستعمرة والمصانع من السلاح وابقائهما تحت حراسة الجيش العربي، ونقل المحاربين اليهود الى تل ابيب بالطائرات. وقد سمح لليهود بمهلة اربعة ايام لتنفيذ هذا الاتفاق.

وكانت السرية الثالثة عشرة مشاة قد انسحبت من القدس الى اريحا. وبعد عقد الاتفاق الذي أوردنا شروطه أعلاه أوفدت قيادة الجيش و. ق. دوانز مدير العمليات في قيادة الفرقة ومعه وكيل القائد علي الحياري والرئيس فارس العبد قائد السرية ١٣، الى المستعمرة للاشراف على عملية استلام الأسلحة. وعندما اقتربوا من المستعمرة شاهدوا عموداً من الدخان يرتفع بين أبنيتها. ولم يلبثوا أن اكتشفوا ان اليهود كانوا غادروا المستعمرة والمصانع اثناء الليل بواسطة القوارب الى المستعمرة الواقعة على الطرف الجنوبي للبحر

الميت. وكان اليهود قبل فرارهم قد جمعوا العمال العرب في بعض بيوت المستعمرة وأقفلوا أبوابها عليهم.

ومضى وكيل القائد الحياري الى اريحا، ومن هناك اتصل هاتفياً باللواء عبدالقادر الجندي (مساعد قائد الجيش) وأبلغه بما حدث، كما أبلغه ان أعراب الغور بدأوا بنهب المستعمرة (الأبقار أولاً)، واقترح عليه وضع حراسة على المستعمرة والمصانع لحمايتها. وبعد نصف ساعة اتصل الجندي بالحياري وأبلغه ان الفريق جلوب يقول: انه لا يوجد لدينا جنود يمكن الاستغناء عنهم للقيام بأعمال الحراسة.

وبدأ النهب والسلب وتفكيك الآلات، مع ان فئة صغيرة من عشرين جندياً (او دركيا) كانت تكفي لحماية المستعمرة والابقاء عليها. (٢)

كفار عصيون

أقام اليهود هذه المستعمرة (وثلاث مستعمرات صغيرة الى جانبها هي ريفاديم، وماسوئوت اسحق وعين تسوريم)، على تلال مرتفعة الى الغرب من طريق بيت لحم – الخليل، وفي منطقة تحيط بها القرى والمدن العربية من جميع الجهات. وقد حصنوها وحفروا حولها الخنادق وأحاطوها بالأسلاك الشائكة وزرعوا الألغام في المداخل والطرق المؤدية اليها. وعلى الرغم من وجود هذه المستعمرة في منطقة تعج بالعرب، وعلى الرغم من انها لم تكن تتصل بمدن أو مستعمرات يهودية قريبة يمكن ان تستمد منها العون عند الحاجة – الا ان سكانها والقوة العسكرية المتمركزة فيها لم يركنوا الى الهدوء، ولم يكتفوا باتخاذ خطة الدفاع، بل تجاوزوا ذلك الى شن الهجمات، فأخذوا يقطعون طريق القدس – الخليل، ويوقعون الخسائر بالأهلين ووسائل مواصلاتهم ويبثون الارهاب في نفوس الناس. ولم يلبثوا أن استولوا على (دير الشعّار) وهو دير انشأه الروس وهجره رهبانه عندما اشتد القتال، ويشرف على الطريق الرئيسية من ناحية الشرق ولا يبعد عنها سوى ٣٠٠ ياردة، فأصبحوا بذلك يسيطرون على الطريق سيطرة كاملة، ويقطعون حركة المرور عليها بنيران بنادقهم ورشاشاتهم. وكان عملهم هذا مثالاً على الروح الهجومية التي اتبعها اليهود منذ بدء الاشتباكات بينهم وبين العرب، عملاً بالقاعدة العسكرية التي تقول «الهجوم أفضل وسيلة للدفاع»، مع العلم بأن العمل الهجومي يرفع من معنويات الذين يقومون به، بينما

تضعف معنويات الجانب الذي يركن الى خطة الدفاع.

كانت هذه المستعمرات تتلقى التعزيزات من القدس عن طريق البر، وأحياناً بالطائرات من الجو. وقد هاجم المناضلون العرب المستعمرة في كانون الثاني ١٩٤٨ ولكنهم اضطروا الى الارتداد عنها في وجه مقاومة أهلها بعد ان قتل وجرح عدد منهم. ثم عادوا في شهر شباط فهاجموا قافلة يهودية كانت متجهة من كفار عصيون الى القدس وأوقعوا بها بعض الخسائر. وفي أواخر شهر آذار وصلت الى المستعمرات قافلة كبيرة تحمل المؤن والمقاتلين والأسلحة من القدس، فهاجمها المناضلون في طريق عودتها، وطوقوها، وقتلوا عدداً من رجالها. ثم توسطت السلطات البريطانية فسمح المناضلون لليهود بالذهاب الى القدس بعد تسليم أسلحتهم وسياراتهم ومصفحاتهم. وهذه هي معركة (الدهيشة) التي تولى قيادتها كامل عريقات مساعد عبدالقادر الحسيني.

وهكذا بقيت هذه المستعمرات شوكة حادة في قلب منطقة عربية واسعة، وقد ازداد خطرها واستفحل أمرها بعد ان اتخذ اليهود خطة الهجوم في شهر نيسان واستولوا على الدير ونسفوا أحد الجسور، وقطعوا خطوط الهاتف، كما ذكرت اعلاه. وكانت غاية اليهود مشاغلة العرب في منطقة الخليل ومنعهم من ارسال النجدات الى المناضلين الذين كانوا يدافعون عن حي القطمون في القدس (بحسب أوامر قيادة العدو).

لم تكن طريق الخليل – القدس ضرورية لأهل البلاد وحدهم، بل كان بقاؤها مفتوحة آمنة ضرورياً بالنسبة للجيش العربي ايضاً. فقد كانت للجيش سرية في غزة ورفح تستعمل هذه الطريق للاتصال بقاعدتها الرئيسية في شرقي الأردن. وكان الجيش ما يزال ينقل الذخائر والمهمات الأخرى من مستودعات الانكليز في منطقة قناة السويس.

كان الجيش العربي خصص منذ البداية سرية من المدرعات لكي ترافق قوافل سيارات الشحن في طريقها من غزة الى نهر الأردن وفي طريق عودتها، لتوفير الحماية لها. وبعد ان استولى اليهود على الدير أخذ العرب يتفادون عبور تلك الطريق الا بالسير مع قوافل الجيش العربي أو تحت حماية مدرعاته.

كان ذلك صورة تعكس ضعف العرب وعجز منطقة واسعة من مناطقهم على القضاء على مستعمرة صغيرة للعدو، وتعكس في الوقت نفسه تراخي الانكليز ولا أباليتهم في وقت كانت مسؤولية الأمن في البلاد ما تزال مسؤوليتهم الكاملة.

وقد حدث يوم ١٢ نيسان ان اليهـود المتمركزين في دير الشعار أطلقوا النار على سيارات مدنية كانت تعبر الطريق، وهرع المناضلون للاشتباك مع العدو، ودفعت الحمية آمر مدرعة (من مدرعات السرية التي يقودها الملازم حمدان صبيح البلوي) للذهاب الى موقع الاشتباك لانجاد المناضلين، فأطلق قناصة العدو، الذين كانوا يكمنون خارج الدير، النار عليها، فقتل آمر المدرعة وجرح مساعده. وعمد السائق للذهاب الى بيت لحم ومعه القتيل والجريح (٣). وكان الملازم حمدان قد ذهب في ذلك اليوم الى غزة ومعه ثلاث مدرعات لحراسة قافلة كان اليهود قد اعترضوها في الطريق. وعند وصول القافلة عصراً الى موازاة دير الشعار، بادرها اليهود باطلاق النار، فردت المدرعات الثلاث على اطلاق النار بالمثل. وألقى جنود العدو عدداً من القنابل اليدوية على القافلة، فانفجرت احداها بالقرب من السيارة الخفيفة التي كان يستقلها الملازم الثاني عيسى الزعمط (القائد الاداري للقافلة)، فأصابته شظاياها بكسور في يده وأصابت سائق سيارته (الجندي الاول ناجي مفضّي من قرية الرفيد) اصابة قاتلة. وفي الوقت نفسه قتل أحد جنود فئة الحرس التي كانت ترافق القافلة منذ البداية (عناد سالم المناعين من الكرك)، وأصيب المرشح مشهور حديثة الجازي أحد ضباط سرية المدرعات الثانية بكدمات في كتفه. وكانت القافلة تضم ٤٣ سيارة نقل تحمل لوازم وصفائح بنزين. ولم تلبث أن اقبلت نجدة للعدو من مستعمرة كفار عصيون، فأرغمتها المدرعات على التراجع. ثم وصلت قوة من القدس بقيادة الرئيس عبدالله التل، وتمكنت القافلة من استئناف سيرها الى شرقي الأردن مع غروب الشمس. وهكذا استشهد في ذلك اليوم ثلاثة من جنود الجيش العربي وجرح ضابطان وجندي. اما العدو، فمن المعتقد ان عدة اصابات وقعت بين أفراده.

بعد هذا الحادث باسبوع وقع اشتباك عنيف آخر بين قوة أردنية وأفراد العدو المتمركزين في مستعمرة النبي يعقوب، الواقعة على طريق القدس – رام الله، على مسافة اربعة كيلومترات شمالي القدس. كانت تلك المستعمرة تقوم على هضبة تسيطر على الطريق، وكان المسلحون فيها يتصيدون العرب العزل في أثناء مرورهم ويوقعون خسائر بهم وبسياراتهم. وقد حدث يوم ١٨ نيسان أن نسف يهود المستعمرة مصفحة للمناضلين بواسطة لغم أرضي وأصابوا عددا منهم بجراح، كما ضربوا حافلة للركاب فأنقلبت واشتعلت فيها النار. وكان الرئيس عبدالله التل (قائد قوة حرس القوافل يومذاك) قد ذهب

الى رام الله في ذلك اليوم، وعاد ومعه سرية المدرعات الثانية ومفرزة مشاة ومدفعا هاون. وعند مرور هذه القوة تحرش بها سكان المستعمرة وتبودلت النار بين الفريقين، فانتشرت المدرعات وأخذت تقصف المستعمرة بأسلحتها فهدمت برج المراقبة فيها وألحقت أضراراً بأبنيتها. واشترك مدفعا الهاون في عملية القصف أيضاً. ولم يلبث قائد اللواء الرابع القائمقام أحمد صدقي الجندي حتى علم بالاشتباك فأرسل فئة من الجنود المشاة بقيادة الملازم الاول محمد العقلة الربابعه لكي تساهم في المعركة. واتخذ الضابط وجنوده مواقعهم على هضبة مقابلة، وفي أثناء تبادل اطلاق النار أصيب محمد العقلة برصاصة فسقط على الأرض ولم يلبث أن فارق الحياة. ونزل الملازم حمدان البلوي من مدرعته في محاولة منه لتركيز احدى مدرعاته في موقع ملائم، ونزل معه سائقه معلى الحربي والنائب احمد الشوريجي (ميكانيكي سرية المدرعات). قال لهما: ارجعا. كان هو يخاطر بنفسه ولم يرد ان يتعرضا للخطر. قال له الشوريجي: هل أنت مدرع؟ مثلنا مثلك. وبعد لحظات أصابت السائق طلقة فسقط، فحمله رفيقه وعاد به. واشتد وطيس المعركة ووقعت اصابات عديدة في أفراد العدو. ثم جاء الفريق جلوب الى القدس وسأل حمدان قائلاً: لماذا ضربتم المستعمرة؟ قال حمدان: تحرشوا بنا فضربناهم. قال جلوب: الأفضل أن ترجعوا الى الأردن. وبالفعل صدر الأمر بعودة سرية المدرعات الثانية الى الأردن، في اليوم التالي، وحلت محلها سرية المدرعات الاولى بقيادة الملازم الاول حمد عبدالله أبو دخينه.

وبدا عدوان قوة العدو المتمركزة في دير الشعار في أبشع صوره يوم ٦ أيار، عندما أطلقت نيران أسلحتها على قافلة تتألف من مدرعتي حراسة وفئة جنود يقودها الملازم رستم يحيى، أرسلت من القدس لترافق الرئيس قسيم محمد (الذي كان يحمل رواتب وحدات الجيش العربي في الخليل وغزة). وكانت ترافق المدرعتين حافلتان تحملان طالبات يتعلمن في مدارس القدس، وسيارات مدنية أخرى كبيرة وصغيرة. وعندما مرت القافلة عند العصر بالقرب من الدير أطلق اليهود عليها النار، فردت احدى المدرعتين على النار بالمثل. وتعطلت سيارة شحن فسدت الطريق. ومضى الفريقان يتبادلان اطلاق النار فقتل اثنان من الجنود كانا على رشاش مدرعة، وقتل ثلاثة مدنيين وجرحت امرأة وفتى. ولم يجد قائد القافلة بداً من ابلاغ الرئيس عبدالله التل، قائد قوة حرس القوافل، بنبأ الاشتباك. وحدث ان الفريق جلوب كان حينذاك في القدس، فعرض عليه التل البرقية التي تلقاها

باللاسلكي من قائد القافلة، فأوعز اليه جلوب أن يبادر الى نجدة القافلة. وعلى الفور تحرك التل ومعه ٦ مدرعات بقيادة الملازم حمد أبو دخينه وفئة مشاة وثلاثة مدافع هاون ٣ بوصة. وكان وصول تلك القوة مع غروب الشمس، فتوقف اطلاق النار من الدير، وتابع الجميع سيرهم الى مدينة الخليل.

في أثناء تلك الليلة اجتمع عبدالله التل وحكمت مهيار (قائد السرية ١٢) وأبودخينه ووضعوا خطة لاحتلال دير الشعار. وفي فجر اليوم التالي أحاطت بالدير قوة من الجيش العربي تتألف من مدرعات وجنود مشاة ومجموعة من المناضلين، فأخذت تقصفه بنيران مدافعها، فلم يلبث المقاتلون اليهود حتى أركنوا الى الفرار عبر خندق كانوا قد حفروه عند احتلالهم للدير.

وجد العرب ١٨ قتيلاً من اليهود في الدير والخندق. ويقول الأخوان كمشي ان اليهود خسروا ٤٢ قتيلاً في ذلك اليوم. أما خسائر العرب فقد كان اكثرها من جراء الألغام التي زرعها اليهود حول الدير.

وعادت القوة الأردنية الى قواعدها في القدس والخليل، وبقي نحو ٨٠ مناضلاً في الدير. ولكن ما كاد الليل يجن حتى عاد اليهود الى الدير فهاجموه واحتلوه، وأخذوا يطلقون النار منه على السيارات، حتى ان الفريق جلوب تجنب سلوك تلك الطريق يوم ١٠ أيار فذهب الى الخليل عن طريق بيت جبرين. وقد توقف جلوب عند مفترق الطريق للكشف على موقع مستعمرة كفار عصيون، فعثر أحد جنود حرسه بسلك فانفجر لغم وجرح الجندي. فدهش القائد وقال: عجيب هل وصلوا الى هنا؟

كانت زيارة جلوب للخليل نتيجة لمساعي وفد من رؤساء منطقة الخليل ذهب الى عمان برئاسة الشيخ محمد علي الجعبري رئيس البلدية قبل حادث دير الشعار بأيام، يناشد الملك عبدالله العمل لتخليصهم من المستعمرة اليهودية. وقد وعدهم الملك خيراً وأوعز الى الفريق جلوب بضرورة التخلص من تلك المستعمرة. وفي تلك الفترة اتخذت قيادة الجيش (كما يبدو) قراراً بالعمل على تنظيف المنطقة المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم، من المستعمرات اليهودية.

وفي معسكر حلحول الذي كانت السرية ١٢ تتخذ منه مركزاً لها، توافد زعماء مدينة الخليل والقرى المحيطة بها للاجتماع بالفريق جلوب، وطلبوا منه ان يقضي على

المستعمرة، فوعدهم بتلبية رغبتهم على شرط ان يشاركوا في المعركة.

وبالفعل أعطى جلوب تعليماته لقائد السرية ١٢ الرئيس حكمت مهيار ان يهاجم المستعمرة بما لديه من قوة نظامية متعاوناً مع المناضلين من منطقة الخليل.

انقضى اليوم التالي في الاستعداد وحشد المناضلين. ووصلت من عمان ثلاث سيارات نقل محملة بقنابل الهاون وعتاد للرشاشات والبنادق، ومعها الرئيس قسيم محمد كما وصلت فئة من السرية الثامنة تتألف من ٤٥ جندياً بقيادة الملازم الاول محمد السحيم، وفئة مدافع هاون عيار ٣ بوصة بقيادة الوكيل علي ابو عتيق (الكتيبة الثالثة). ولم يبزغ فجر يوم ١٣ أيار حتى كانت القوة العربية قد أحاطت بمواقع العدو. وكانت القوة تتألف من نحو ١٠٠ جندي نظامي وما يقارب ٥٠٠ مناضل، بالاضافة الى تسع مدرعات. وكانت القوة بقيادة الرئيس حكمت مهيار ومعه من الضباط الرئيس نزار المفلح والرئيس قسيم محمد والملازمون قاسم الناصر، وحمد عبدالله ابو دخينة وسعود الخشمان والوكيل فناطل ثنيّان. اما المناضلون فقد كان بينهم نحو ١٠٠ شاب كان الجيش العربي قد عمل على تدريبهم في السابق من أهالي بئر السبع والخليل (وأخذ يدفع لهم الرواتب ليكونوا ظهيراً لقواته في تلك المنطقة) وسلحهم بالبنادق، وكان على رأس هؤلاء عدد من ضباط الصف من الجيش العربي.

بدأت القوة النظامية هجومها في الساعة الرابعة صباحاً، فأخذت مدافع الهاون والمدرعات تقصف العدو المرابط في الدير وحواليه بقنابلها. ثم تقدمت فئتان احداهما بقيادة الملازم محمد السحيم والأخرى بقيادة الملازم قاسم الناصر. وواجه الهجوم مقاومة شديدة. وانفجر لغم تحت احدى المدرعات فتعطلت. وعلى الرغم من ذلك اندفع الجنود نحو الدير، فأركن المدافعون عنه الى الفرار عبر الخندق. وعند الضحى كان الدير في أيدي القوة المهاجمة، التي وجدت هناك قتيلاً وقتيلة من أفراد العدو.

لم تلبث القوة المهاجمة حتى اتجهت نحو مستعمرة كفار عصيون. وكان العدو قد زرع الأرض بالألغام، فأستشهد في أثناء التقدم أحد جنود السرية الثامنة، وأصيب الجندي هلال عواد بكسور في ساقيه الاثنتين بفعل أحد الالغام. وبينما كان الملازم محمد السحيم يتقدم نحو مواقع العدو على رأس جنوده، أصابته رصاصة في أسفل صدره. وعلى الرغم من خطورة اصابته فانه رفض أن يحمله جنوده، وتراجع وحده الى الخلف حتى وصل الى

سيارة الاسعاف على طريق القدس – الخليل (٤).

كانت مجموعة المستعمرات محاطة بأسلاك شائكة وحقول ألغام. أما كفار عصيون نفسها فقد كانت مثل جميع مستعمرات اليهود تضم تحصينات وخنادق وأبراجاً، أنشئت في الاصل لمثل هذا اليوم. وكان بالقرب منها مطار صغير، لم تلبث طائرات العدو القادمة من جهة الساحل حتى أنزلت فيه جنوداً بالمظلات وأطباء. وألقت طائرة اخرى برميلاً مليئاً بالمتفجرات الا انه سقط في أرض جرداء.

تقدم الجنود المشاة تحت حماية نيران المدافع والمدرعات، وتمكنوا من فتح ثغرات في حقول الألغام وفي حواجز الأسلاك، على الرغم من المقاومة الشديدة. وقد تمكنوا من الاستيلاء على مركز دفاعي أقامه اليهود في مشارف المستعمرة. وعند الظهر وصلت من الشونة فئتان بقيادة الملازم الأول حسين المفلح الغرايبة (من فئات سرية الأمن الاولى) فاشتركتا حال وصولهما في المعركة. وما أن أقبل المساء حتى كانت القوة قد طوقت كفار عصيون وفصلتها عن المستعمرات الثلاث الأخرى، وسيطرت بأسلحتها على أرض المطار حتى لم يعد في مقدور الطائرات ان تهبط فيه وتنقل التعزيزات والأسلحة اليه. ولم يلبث الظلام ان خيم فتوقف القتال.

في اثناء تلك الليلة أبرق المدافعون عن كفار عصيون الى قيادتهم «انهم يحيطون بنا. عجلوا بارسال المساعدة.. الوضع خطير للغاية. افعلوا كل ما في وسعكم هذهالليلة. لم نعد نستطيع دفن الموتى ومعالجة الجرحى». ولكن قيادة العدو ردت تأمرهم بالاستمرار في القتال مهما تكن النتائج.

وفي الوقت نفسه أبرق الرئيس حكمت مهيار الى قائد الجيش يقول ان تحصينات المستعمرة قوية والمقاومة شديدة، فرد عليه الفريق جلوب بضرورة الاستمرار في الضغط على العدو. وأبرق الشيخ الجعبري الى قائد الجيش يحذر من سوء العاقبة اذا ما انسحب الجنود قبل احتلال المستعمرة. وعندئذ اقتنع جلوب بأن القوة التي تهاجم المستعمرة غير كافية، فاتصل بوكيل القائد عبدالله التل (الذي كان عينه قبل يومين قائداً للكتيبة السادسة) في اريحا، وطلب اليه ارسال قوة أخرى للقضاء على المستعمرة. ولم تلبث فئتان أخريان من السرية الأولى حتى تحركتا بعد منتصف الليل من الشونة الى اريحا ومنها الى كفارعصيون يقودهما الملازم نواف الجبر الحمود ومعه مدرعتان وسيارة ذخيرة. وقد

وصلت الفئتان الى مكان المعركة مع فجر يوم ١٣ ايار، ووصل معهما و. ق. عبدالله التل فتولى ادارة دفة القتال. وكان مجموع الفئات التي جاءت من ملاك السرية الأولى لا يقل عن ١٠٠ ضابط وجندي.

عند وصول هذه التعزيزات، استأنفت القوة هجومها في الصباح الباكر تحت قصف شديد من مدافع الهاون وأسلحة المدرعات. وتقدمت احدى المدرعات الى الامام فانفجر تحتها لغم أدى الى تعطيلها. واستمر اطلاق النار واستمر العدو في المقاومة بعناد واستماتة. وتقدمت مدرعة أخرى يقودها الوكيل فناطل ثنيّان نحو بوابة المستعمرة فضربتها بمدفعها ودخلت منها، ولكن جنود العدو ألقوا عليها عدة زجاجات مولوتوف فاضطرت الى التراجع، وبقيت البوابة مفتوحة. ولم تلبث المدرعة حتى عادت تدعمها مدرعة ثانية فتقدمتا معاً الى البوابة ثم الى داخل المستعمرة وور اءهما الجنود والمناضلون.

كانت المدرعات تهاجم المستعمرة من ناحيتي الشمال والجنوب. اما من الناحية الشرقية فقد كان مشاة السرية الاولى يطلقون النار عبر أرض مكشوفة تنبت فيها مزروعات القمح. وكان الملازم نواف قد أُصيب بجرح من عيار ناري، ولكن الاصابة كانت خفيفة، فرجع الى المؤخرة لتضميد جرحه ثم عاد الى الموقع المتقدم الذي كان جنوده يتمركزن فيه.

تبين عندئذ انه لا بد للجنود ان يدخلوا المستعمرة ويعملوا على تطهيرها. وسأل التل عمن يمكن ان يتطوع لدخول المستعمرة، فتقدم الملازم نواف ومعه ستة جنود للقيام بالمهة. وحمل نواف معه صاروخ (بيات) وتمكن هو وجنوده من الوصول الى الاسلاك الشائكة ففتحوا بواسطة المقصات ثغرة فيها. وكان الى جانبهم حاجز من الحجارة يرابط عنده جنود الملازم حسين المفلح، ولكنهم لا يستطيعون التقدم او التراجع لان الارض مكشوفة، على الرغم من ان بعضهم كانوا قد أصيبوا بجراح «وقد غمرتهم دماء الشرف». وزاد موقف المهاجمين حرجاً أن المناضلين كانوا يطلقون النار من الخلف دون هدف محدد، بينما كانت جموع من الأهلين تقدر بالآلاف تراقب المعركة على التلال المشرفة.

كانت الساعة تشير الى الثانية والنصف من بعد الظهر. واستمر الضابط وجنوده يزحفون نحو خندق الأعداء. وبعد خمسة عشر متراً نهض الجندي الاول خلف عبدالعزيز مطلق العدوان وركض نحو الخندق، ولكن عياراً نارياً أصابه في عنقه فسقط على الفور.

وفي تلك اللحظة سقطت قنبلة هاون في الخندق فقتلت عدداً من أفراد العدو، بينما تراجع الآخرون الى احدى أبنية المستعمرة. وبينما كان الملازم نواف وجنوده يثبتون حرابهم في رؤوس البنادق، ارتفع علم أبيض على مبنى مجاور، وخرج عدد من جنود العدو وفتاتان وهم يرفعون أيديهم مستسلمين. ولكن حدث ان أحد جنود العدو الذين تراجعوا من الخندق (ويظهر انه لم يعرف بما حدث في المبنى المجاور) ألقى قنبلة يدوية على الجنود المتقدمين، فتجدد اطلاق النار وقتل جميع أفراد العدو، الا واحدة من الفتاتين استجارت بنواف فأجارها.

وهكذا انتهت معركة كفار عصيون. وقد قتل جميع المدافعين عنها فلم يقع منهم في الأسر سوى ثلاثة بينهم فتاة. اما الاشخاص غير المحاربين من سكان المستعمرة فكانوا قد لجأوا الى المستعمرات الصغيرة الثلاث المجاورة.

وفي اليوم التالي (الجمعة ١٤ أيار) استسلمت المستعمرات الثلاث باشراف ممثلي جمعية الصليب الأحمر الدولية، فأخذ الجيش جميع المحاربين والمحاربات أسرى، وكان عددهم ٢٨٧ أسيراً واسيرة (٨٦ فتاة محاربة). أما الشيوخ والأطفال والنساء غير المحاربات فقد تم تسليمهم الى الصليب الأحمر الدولي. وغنم العرب جميع ما في المستعمرات من سلاح وعتاد. ونقل الأسرى من الخليل الى بيت لحم، ثم نقلوا الى معسكر الأسرى الذي أقيم في قرية أم الجمال الأثرية، الى الشرق من بلدة المفرق. اما الأسيرات فقد بقين في مركز شرطة الخليل (وهو بناء ضخم) نحو شهرين ولدت اثنتان من النساء خلالهما. ثم نقلن الى معسكر الأسرى.

كانت خسارة العدو في هذه المعركة نحو ٢٠٠ قتيل. اما الجيش فقد استشهد ١٤ من رجاله وجرح عدد آخر. وقد أبدى كثيرون من الجنود والضباط شجاعة فائقة في هذه المعركة، ونخص بالذكر منهم الملازم حمد أبودخينه والملازم نواف الجبر والوكيل فناطل ثنيان. وكان أول الشهداء النائب مثنّى اليماني. ومن شهداء تلك المعركة الجندي محمد علي عبدالرحيم (من هام). والجندي سالم محمد سرور الجهاونة (من كفر يوبا). وقد أصيب الجندي صالح عواد الحواتمه (من السلط) بجراح خطيرة فنقل الى المستشفى وبقي تحت العلاج حتى توفي متأثراً بجراحه بعد ستة أشهر. وأصيب الجندي علي مصلح القضاة بجراح بالغة ثم شفي منها.

لم يخسر الجيش العربي شيئاً من أسلحته في المعركة، وفيما بعد تم اصلاح المدرعات الثلاث التي أصيبت بفعل الألغام. اما المناضلون (وبينهم عدد من الأردنيين) فقد سقط منهم نحو اربعين شهيداً في اثناء الهجوم. ولقي كثيرون من القرويين حتفهم بفعل الألغام في اثناء بحثهم عن الغنائم. ذلك أن القرويين اندفعوا نحو المستعمرات بعد ان غادرها رجال الجيش، فأخذوا يستولون على ما فيها حتى لم يبق فيها حجر على حجر.

أما الوحدات التي اشتركت في المعركة، فلم تلبث ان عادت الى المواقع التي انطلقت منها، ومن بينها سرية المدرعات، التي كان هدفها التالي مستعمرة كاليه. وقد تخلفت في الخليل المدرعتان اللتان كانتا تحت الاصلاح، بامرة النائب عبدالله قاعد. وبعد ان دعمتا الهجوم على رامات راحيل، التحقتا بمجموع السرية في منطقة رام الله.

ومن المفارقات الجديرة بالذكر ان طريق القدس – الخليل التي نشبت المعركة بسببها، لم تلبث أن أغلقت بعد ظهر يوم ١٤ ايار عند انسحاب الانكليز من القدس، اذ ان تلك الطريق التي تبدأ من باب الخليل تمر من مستعمرة رامات راحيل. وقد عمد اليهود الى اغلاقها عند الكيلو متر الخامس بعد القدس. وبقيت الخليل وبيت لحم مقطوعتين وفيهما السرية ١٢ حتى الهدنة الأولى عندما شق الجيش طريقاً ترابية من بيت ساحور الى طريق اريحا.

ويجدر بالذكر ان اليهود استعانوا بصديقهم ترومان، رئيس الولايات المتحدة الامريكية، لكي يوجه انذاراً شخصياً الى الملك عبدالله ويتدخل مع الانكليز – من أجل ايقاف الهجوم على كفار عصيون، ومن أجل تأمين انسحاب الجيش العربي من فلسطين قبل ١٥ أيار. وقد رد كركبرايد (١٥ أيار) على استيضاحات وجهتها حكومته اليه بهذا الشأن، ببرقية قال فيها: ان انسحاب الانكليز من القدس قبل انتهاء الانتداب أدى الى خلخلة خطط الجيش العربي للانسحاب من فلسطين. وجاء في برقية كركبرايد ان قيادة الجيش العربي أعطت الأسباب التالية للاشتباك مع مجموعة مستعمرات كفار عصيون:

هوجمت قوافل الجيش العربي عدة مرات في السابق عند مرورها بقرب تلك المستعمرات، وألحقت بها اصابات وخسائر عديدة. وفي آخر مرة تم تعطيل مدرعتين، فكان لا بد من ضرب المستعمرة لسحب المدرعتين. وأثناء هذه العملية تجمع أبناء القرى المجاورة وهاجموا المستعمرات المحاذية التي كان سكانها

الأصليون ما يزالون فيها – بعكس كفار عصيون التي لم يكن فيها سوى جنود الهاجانا. تفاوض ممثلو الصليب الأحمر في القدس من اجل استسلام المستعمرتين بعد أن أرغمت نجدة يهودية على العودة من حيث جاءت. الجيش العربي حال دون وقوع مذبحة في أهالي المستعمرتين، وهو المصير الذي كان ينتظرهم على أيدي القرويين لولا تدخل الجيش العربي.

وجاء في برقية أخرى بعث بها كركبرايد في اليوم التالي ان الجيش العربي اضطر ان يفتح النار على القرويين من أجل انقاذ أهالي المستعمرات، وان عدداً من الجنود قتلوا في اثناء ذلك (٥).

وحدات الجيش في أيار ١٩٤٨

الكتيبة الأولى

قائد الكتيبة	القائد هـ. سي. بلاكدن
أركان الحرب	الرئيس خالد الصحن
السرية الأولى	الملازم الاول سلامة عتّيق
السرية الثانية	الملازم الثاني محمد محسن الحربي
السرية الثالثة	الملازم الاول عواد حامد
السرية الرابعة	الملازم الثاني عبدالله فلاح
سرية المدرعات الأولى	الملازم الاول حمد عبدالله ابودخينه
السرية المساندة	الملازم الثاني سليمان رتيمه
سرية القيادة	الملازم الأول رشيد مرشود

غادرت هذه الكتيبة فلسطين في ١٢ نيسان، الى موقع (خو) قرب الزرقاء. وهناك قضت شهراً في الاستعداد والتدريب والقيام بمناورات، ثم تحركت يوم ١٤ أيار الى منطقة الشونة الجنوبية في وادي الاردن.

الكتيبة الثانية

قائد الكتيبة	وكيل القائد سليد
اركان حرب	الرئيس عكاش الزبن
السرية الأولى	الملازم الاول عباطه عيد
السرية الثانية	الملازم الأول محمد كساب
السرية الثالثة	الملازم الأول رفيفان خالد الخريشا
سرية المدرعات الثانية	الملازم الأول حمدان الصبيح البلوي
السرية المساندة	الملازم الأول نايف الحديد
سرية القيادة	الملازم الأول قاسم ابوشريتح

في أوائل ١٩٤٨ غادرت هذه الكتيبة فلسطين الى مدينة اربد، وهناك قضت بضعة أشهر في الاستعداد والتدريب انتظارا للاشتراك في الحرب.

الكتيبة الثالثة

قائد الكتيبة	وكيل القائد هـ نيومان
اركان الحرب	الرئيس خالد مجلّي الخريشا
السرية الأولى	الملازم الأول محمد نعمان
السرية الثالثة	الملازم الأول عيد أديلم
السرية الرابعة	الملازم الأول غازي الحربي
السرية المساندة	الملازم الثاني فندي عميش
سرية القيادة	الملازم الثاني محارب سعد

غادرت هذه الكتيبة فلسطين في اوائل ١٩٤٨، الى موقع (خو). وقد قضت الأشهر التالية في الاستعداد والتدريب، ثم تحركت يوم ١٣ ايار الى منطقة الشونة الجنوبية.

الكتيبة الرابعة

قائد الكتيبة	القائد حابس المجالي
اركان حرب	الملازم الاول محمود الروسان

السرية الأولى	الرئيس كامل عبدالقادر
السرية الثانية	الرئيس عبدالله السالم النمري
السرية الثالثة	الرئيس صالح العيد الفاخوري
السرية المساندة	الرئيس عزت حسن
سرية القيادة	الملازم الأول نصر أحمد

تألفت هذه الكتيبة في بلدة المفرق في شهر كانون الاول ١٩٤٧، وكان قائدها اول ضابط عربي يتولى قيادة كتيبة مسلحة. وقد اختير ضباط السرايا وجنودها من سرايا الأمن المتفرقة. ولم تقض الكتيبة في التدرب على أسلحتها سوى خمسة أشهر قبل ان تتحرك الى ميدان القتال. وقد خلق ذلك التدريب المكثف من جنود الحراسات جنوداً حربيين من الطراز الأول، حتى أصبحوا كأنهم مارسوا فنون القتال منذ سنوات. وكانت حركة الكتيبة من المفرق الى منطقة الشونة الجنوبية في يوم ١٤ أيار.

الكتيبة السادسة

قائد الكتيبة	وكيل القائد عبدالله التل
سرية الأمن الأولى	الرئيس محمود الموسى
سرية المشاة السادسة	الرئيس ضرغام الفالح
سرية المشاة الثامنة	الرئيس عبدالرزاق عبدالله
السرية المساندة	الملازم الأول غالب رضيمان
سرية القيادة	

تألفت هذه الكتيبة يوم ١٠ ايار ١٩٤٨ على ان تكون قيادتها في اريحا. ولم يكن هناك مجال لتدريب أفرادها على أساليب القتال، او لدمج وحداتها بحيث تصبح وحدة متكاملة. فكان تأليفها بهدف تنسيق أعمال سراياها المتمركزة في منطقة واحدة. وكان هدف الكتيبة في باديء الامر حماية الخطوط الخلفية للقوات التي ستتمركز في قطاعي رام الله ونابلس، والمحافظة على خط المواصلات مع شرقي الأردن، وعلى منطقة اريحا وخط اتصالها مع القدس وبيت لحم ومنطقة الخليل. ولكن لم تلبث الكتيبة أياما حتى أسندت اليها مسؤوليات عسكرية مهمة، تفوق مستوى اعدادها واستعدادها.

كانت قوة الكتيبة من الناحيتين البشرية والحربية، كما يلي:

السرية الأولى وتتألف من ٤ ضباط و ١٩٠ جندياً وضابط صف

السرية السادسة وتتألف من ٣ ضباط و ١٨٧ جندياً وضابط صف

السرية الثامنة وتتألف من ٤ ضباط و ٢٠٥ جنود وضابط صف

السرية المساندة وتتألف من ٢ ضباط و ١٠٠ جندي وضابط صف

سرية القيادة وتتألف من ٢ ضباط و ٢٩ جندياً وضابط صف

المجموع ١٥ ضابطاً و ٧١١ جندي وضابط صف. ولم يكن كل هؤلاء الجنود من المحاربين، اذا كان بينهم ٨٥ جندياً وضابط صف للخدمات (كتبة وطباخين وسائقين ومراسلين واتصالات الخ).

اما ضباط السرايا – غير من سبق ذكر اسمائهم – فهم:

السرية الأولى: الملازم الأول حسين المفلح الغرايبة، الملازمون نواف الجبر الحمود وحسن محمد ورستم يحيى ومصطفى ابراهيم الشوبكي.

السرية السادسة: الملازم الأول فريد القطب والملازم محمد خير ادريس.

السرية الثامنة: الملازمون هذلول ساير وجدعان مجيد ومحمد السحيم (وأفراد هذه السرية من البدو). وانضم الملازم تركي عبدالله الى هذه السرية بعد مقتل الملازم جدعان مجيد.

السرية المساندة في رأس العمود وتضم الأسلحة التالية:

فئة مدرعات عددها ٤ وتحمل مدافع ٢ رطل

فئة مدافع هاون عددها ٤ عيار ٣ بوصة

فئة مدافع عددها ٤ عيار ٦ رطل

فئة رشاشات فيكرز عددها ثلاثة

ولم يكن لدى الكتيبة من وسائط النقل سوى ٥ سيارات.

وكان يساند السرية المساندة مدفعا هاوتزر عيار ٧ر٣ بوصة بقيادة الملازم الثاني عبدالرحمن العرموطي، وقد جاء بهما الى رأس العمود في ١٨ ايار (وهما المدفعان الوحيدان من هذا العيار اللذان اشتركا في الحرب – وكان هذا النوع من المدافع قد بطل استعماله في الجيش منذ مدة). وقام المدفعان بتقديم الاسناد الناري للكتيبة السادسة، كما قاما

باسناد الكتيبة الثالثة عند دخولها الى القدس. وفي فترة الهدنة الأولى انتقل المدفعان الى جبل الطور.

ومما هو جدير بالذكر ان السرية الخامسة انضمت الى هذه الكتيبة في القدس لمدة يومين فقط، كما انضمت اليها السرية ١٢ في فترة القتال الثانية. وسيأتي بيان هذا في الفصول القادمة.

القوات الأردنية التي بقيت في فلسطين
حتى يوم ١٥ أيار ١٩٤٨

بقيت الى الغرب من نهر الأردن بعض الوحدات والسرايا المتفرقة، وهي قوات أمن بتدريبها وتسليحها، في المناطق المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم. وهذه الوحدات هي:

قيادة اللواء الرابع في رام الله		القائمقام أحمد صدقي الجندي
مساعد قائد اللواء		و. ق. عبدالحليم الساكت
١ – سرية الأمن الثانية	رام الله	الرئيس محمد خلف العمري
٢ – سرية المشاة الثانية	دامية والجفتلك (نهر الاردن)	الرئيس فواز ماهر
٣ – سرية المشاة الرابعة	رام الله	الرئيس محمد العقله (خلفه بعد استشهاده الرئيس راضي العبدالله)
٤ – سرية المشاة الخامسة	نابلس	الرئيس محمد اسحق
٥ – سرية المشاة التاسعة	الطيبة – رام الله	الرئيس سليمان مسعود
٦ – سرية المشاة الثانية عشرة	الخليل	الرئيس حكمت مهيار

لم يكن هذا اللواء يملك الكثير من المقومات التي يفترض ان تتوافر لوحدة عسكرية مقاتلة تحمل اسم (لواء). ولكنه أعطي هذا الاسم لتمكين قائده من تحريك سرايا المشاة وادارتها واستخدامها بحسب الحاجة. وفي اثناء الهدنة الأولى تألفت الكتيبة الخامسة من تلك

السرايا. وبالتدريج اندمجت جميع سرايا المشاة في الكتائب التي تألفت بعد ذلك ببضعة أشهر وهي السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة.

وما قلناه عن سرايا الكتيبة السادسة ينطبق على بقية السرايا من حيث انها وحدات امن ذات أسلحة خفيفة، ولم ينل أفرادها التدريب العسكري الذي يؤهلهم للدخول في معارك قتال ذات طابع هجومي. ولكن الضرورات أرغمت قيادة الجيش على دفع هذه السرايا لخوض معارك هجومية ولتحمل مسؤوليات لم تعدّ في الأصل لمواجهتها.

وكانت فئات من هذه السرايا تتمركز في نقاط ذات أهمية خاصة. فكانت فئة في تلة الرادار، وفئة في مركز شرطة اللطرون وهي بقيادة الملازم عبدالمجيد المعايطه.

كبار ضباط الجيش الأردني

أيار/ ١٩٤٨

الفريق جون باجوت جلوب	رئيس الأركان
اللواء عبدالقادر الجندي	مساعد رئيس الأركان لشوون الأمن
الزعيم برود هارست	مساعد رئيس الأركان للادارة
الزعيم نورمان لاش	قائد الفرقة
القائد داونز	أركان حرب الفرقة (عمليات)
و. القائد جونز	اركان حرب الفرقة (ادارة)
القائمقام هـ. جولدي	قائد اللواء الأول
القائمقام ج. اشتون	قائد اللواء الثالث
القائمقام أحمد صدقي الجندي	قائد اللواء الرابع
القائد هـ. سي. بلاكدن	قائد الكتيبة الأولى
القائد هـ. ف. سليد	قائد الكتيبة الثانية
القائد نيومان	قائد الكتيبة الثالثة
القائد حابس المجالي	قائد الكتيبة الرابعة
و. ق. عبدالحليم الساكت	مساعد قائد اللواء الرابع

و. ق. عبدالله التل	قائد الكتيبة السادسة
القائد ج. هيرست	قائد كتيبة المدفعية
و. ق. محمد المعايطه	قائد البطارية الاولى (مركزها قطاع رام الله)
و. ق. روبنسون	قائد البطارية الثانية (مركزها قطاع نابلس)

ضباط عرب في مواقع
ذات علاقة وثيقة بالعمليات العسكرية

وكيل القائد علي الحياري	ركن في العمليات الحربية – القيادة
الرئيس راضي الهنداوي	ركن في العمليات الحربية – القيادة
الرئيس صادق الشرع	ركن ثان في عمليات الفرقة
الملازم الأول معن أبو نوار	ركن في اللواء الأول (ادارة ولوازم)
الملازم الأول صالح الشرع	ركن في اللواء الأول (استخبارات)
الملازم الاول علي أبو نوار	ركن في اللواء الثالث
الملازم الاول تركي حسين	ركن في اللواء الرابع

القوة البشرية للجيش

تجمع المصادر على ان الجيش العربي كان يضم في ايار ١٩٤٨ (٦٥٠٠) ضابط وجندي وان ٤٥٠٠ من بين هؤلاء كانوا مؤهلين لخوض معارك القتال اما الباقون فجنود أمن وخدمات (لاسلكي وكتبة وسواقين وطباخين ورجال اسعاف ومراسلين الخ). ويعطينا عبدالله التل الاحصاءات التالية للكتائب وسلاح المدفعية والسرايا المتفرقة، التي دخلت الى فلسطين وتمركزت على أرضها:

قيادة الفرقة وكتيبة المدفعية	٧٥٠ ضابط وجندي
قيادة اللواء الاول وكتائبه	٢٢٥٠ ضابط وجندي
قيادة اللواء الثالث وكتائبه	٢٣٠٠ ضابط وجندي
قيادة اللواء الرابع وكتائبه	١٢٠٠ ضابط وجندي
المجموع	٦٥٠٠ ضابط وجندي

كانت قيادة الجيش وادارته والكلمة العليا فيه بأيدي الضباط الانكليز، فهم الذين تولوا ذلك منذ عام ١٩٢١ يوم كان قوة من رجال الدرك والشرطة، وهم الذين تولوا انشاء قوة البادية، وانشاء الكتائب المسلحة الثلاث في أيام الحرب العالمية الثانية. وفي أيار ١٩٤٨ كان عدد اولئك الضباط القادة يتراوح، بين ٤٠ و ٤٥ ضابطاً.

كان الضباط الانكليز في الجيش العربي يتألفون من فئتين:

الفئة الاولى : ضباط سابقون في الجيش البريطاني، تعاقدت معهم الحكومة الأردنية (بعد خروجهم من خدمة الجيش البريطاني) فأصبحوا يعتبرون موظفين عسكريين في خدمة الأردن. ومن هؤلاء الفريق جلوب والزعيم برود هارست والزعيم نورمان لاش.

الفئة الثانية : ضباط عاملون في الجيش البريطاني، أعارهم ذلك الجيش للخدمة في الجيش الأردني، لمدة معينة.

والضباط العرب في الجيش يمكن أن ندرجهم كذلك في ثلاث فئات :

الفئة الاولى : ضباط من الجيش العثماني التحقوا بالجيش العربي عند تأسيسه وتدرجوا في الخدمة والترقيات كضباط أمن. ومن هؤلاء اللواء عبدالقادر الجندي والقائمقام احمد صدقي الجندي والقائمقام بهجت طبارة والقائد راضي عناب (في سنة ١٩٤٨ كان طبارة متصرف لواء وعناب قائد منطقة).

الفئة الثانية : ضباط انتسبوا للجيش اصلاً كجنود وتدرجوا في الخدمة والترقيات، خصوصاً بعد أن أخذ الجيش يتسع ويحتاج الى مزيد من الضباط.

الفئة الثالثة : ضباط أتموا الدراسة الثانوية وانتسبوا للجيش برتبة مرشح، ثم دخلوا في دورات تدريب ودرسوا مبادىء العلوم العسكرية في معسكرات الجيش العربي، ابتداء من عام ١٩٤١، وأخذوا يتدرجون في الخدمة والترقيات. ومن بين هؤلاء حابس المجالي ومحمد المعايطة وعلي الحياري وعبدالله التل وراضي الهنداوي وصادق الشرع وعلي أبو نوار وفواز ماهر وهاشم الدباس ومحمد اسحق واميل جميعان ومحمود الروسان وعبدالله مجلي ومعن أبونوار وعكاش الزبن.

كما أن القيادة كانت توفد أعداداً من الضباط المتدربين محلياً الى معسكرات الجيش



الملك عبد الله والى جانبه ودبع دعمس رئيس بلدية بيت جالا



الفريق كلوب في القدس والى يمينه و.ق. عبد الله التل والى يساره الرئيس ضرغام الفالح

البريطاني في فلسطين او في منطقة القناة. وفي عام ١٩٤٦ اشترك خمسة ضباط في دورات أركان تمهيدية مدتها ستة اشهر. فقد تخرج محمد المعايطه وعبدالله التل من معسكر فايد (منطقة قناة السويس) وعلي الحياري ويعقوب السلطي وصادق الشرع من المعسكر البريطاني في حيفا. وبعد ان انتهت الحرب العالمية أخذ الجيش يرسل كل سنة عدداً من هؤلاء الضباط الى بريطانيا للدراسة في المعاهد العسكرية المختصة وللتدرب على فنون متنوعة من فنون الحرب وعلى استعمال الأسلحة الحديثة. وعلى العموم كان عدد الضباط الذين تخرجوا من دورات في معسكرات الجيش البريطاني محدوداً، وقد عين أكثرهم ضباط أركان في القيادة والكتائب.

نرى مما تقدم انه لم يكن هناك أي ضابط عربي في الجيش من خريجي كليات الأركان. وفي تشرين الثاني ١٩٤٨ (اي بعد الهدنة الثانية) أوفدت القيادة اول ضابطين للدراسة في كلية الأركان البريطانية في كامبرلي. وهما و. ق. علي الحياري والرئيس صادق الشرع. وقد تخرج كلاهما في العام التالي. وتتابع بعد ذلك ايفاد الضباط الأردنيين الى كليات الأركان البريطانية.

وقد كان بمقدور الأردن ان يزيد عدد قواته المسلحة لو توافر له المال. ولكن الأردن لم يكن يملك مالا أو موارد، وكان قطراً صغيراً فقيراً تنفق بريطانيا على جيشه وتوفر ضباطاً بريطانيين ذوي خبرة ومقدرة لقيادة ذلك الجيش وتدريبه، كما تقدم له السلاح والعتاد.

وقد شغل موضوع القيادة البريطانية للجيش أذهان الساسة العرب يومذاك، وشاء بعضهم ان يغطي عدم رغبته في التعاون مع الأردن بحجة وجود القيادة البريطانية وعدم الثقة بها. هذا مع العلم ان السير اليك كركبرايد الوزير البريطاني المفوض في الأردن يومذاك يروي ان عزام باشا عرض على الفريق جلوب أن يتولى قيادة الجيوش العربية في ميدان القتال. وبطبيعة الحال لم يكن عزام باشا يملك سلطة فعلية لتنفيذ هذا العرض، بينما لم يحمل البريطانيون عرضه محمل الجد، ولم يعتقدوا انه مخلص وصادر عن حسن نية. ولكن بعض الزعماء العرب (على الأرجح رياض الصلح وعزام) اقترحوا على الملك عبدالله تبديل القيادة البريطانية لجيشه بقيادة عربية. ويبدو لي ان أقل ما يمكن ان يقال في ذلك الاقتراح انه غير عملي. فكيف يمكن تبديل القيادة البريطانية في الوقت الذي كانت فيه

بريطانيا تنفق علـى الجيش وتـزوده بالسـلاح والعتـاد، ضمـن اطـار معـاهدة صداقـة قائمـة وعلاقات وثيقة تربط بين الأردن وبريطانيا منذ عـام ١٩٢١؟ ثـم ان القيـادة البريطانيـة لـم تقف موقف المعارضة مـن اتجاهـات الأردن السياسـية، ولـم تعـارض اشـتراك الأردن فـي الحرب، بل نرى ان تلك القيادة أبقت وحدات عسكرية في فلسطين في أيام حرجه. حقـاً ان تلك الوحدات بقيت في المناطق المخصصة للعرب، ولكن بقاءها كان في واقع الامر مخالفة واضحة لتأكيدات بريطانيا في مجلس الامن (٦). وقد كان ابقاء تلك الوحـدات قـراراً مهمـاً لان التقسيم لم يكن قيد التنفيذ ولم يكن احد من العرب واليهود قد تقيّد به او الـتزم بـالوقوف عند حـدوده. كـان اليهـود يومـذاك مـاضين فـي هجومهـم وفـي تقدمهم، ليس فـي المنـاطق المخصصة لهم فحسب بل في المناطق المخصصة للعرب، وفي منطقـة القدس التـي تقـرر تدويلها. وهل ننسى ان صفد سقطت بأيدي اليهود في ١٠ ايار، وبيسان في ١٢ ايـار ويافـا في ١٣ ايار ١٩٤٨؟. لقد أوضح الملك عبدالله كل هذا لزعماء العـرب، منـذ الأيـام الاولـى التي بدأت فيها نذر الحرب، وأوضح لهم أن الأردن يستطيع ان يجند مزيداً من الرجال وان يعزز قوة الجيش الحربية ويبتاع سلاحاً وعتاداً. ووعد زعمـاء الجامعـة ان يقدموا لـلأردن ثلاثة ملايين دينار، ولكنهم لم يدفعوا سوى ربع مليـون دينـار. وحتـى هـذا المبلـغ الصغـير (كانت له قيمـة كبـيرة فـي تلـك الايـام) استغله الأردن لتجنيد مئـات مـن الرجـال ولتسـليح المناضلين.

ولا بد من القول ان القوات الأردنيـة كـانت – علـى مسـتوى القيـادة والأفـراد – أكـثر معرفة بالعدو ومستعمراته وبأرض فلسـطين مـن جيـوش الـدول العربيـة الاخـرى. ذلـك ان وحدات الجيش الأردني قضت عدة سنوات في فلسطين فتعرفت على مدنها وقراهـا وأهلهـا وتعرفـت علـى أوضـاع العـدو، وقـد أفـادت مـن هـذه المعرفـة، وكـان لهـا دور كبـير فـي الانجازات التي حققتها.

وبعد ان أصبحت الحرب مؤكدة قامت قيادة الجيش – في نيسان وأيار – بايفاد ضبـاط الألوية والكتائب الى فلسطين من أجل ارتياد المواقع التي سترابط وحداتهم فيها. وقد شملت جولة الاستكشاف هذه بالنسبة لقائد اللواء الثالث (اشـتون) وقـائدي الكتيبتيـن الثانيـة (سـليد) والرابعة (حابس المجالي) خلال أيام ٦–١٠ نيسان: مناطق جنيـن ونـابلس ورام اللـه وبـدو والنبي صموئيل وبيت لحم والخليل وبيت جبرين. وكان ذلك الكشف ذا فـائدة كبـيرة عندمـا

بدأت الحرب. الجيوش العربية الاخرى لم تفعل شيئاً من ذلك، مع انه كان بمقدورها ان توفد بعض ضباطها بصورة خفية الى فلسطين للتعرف على طبيعة الارض فيها، وخاصة في المناطق التي كان كل جيش ينوي ان يباشر عملياته فيها.

أسلحة الجيش العربي عام ١٩٤٨

كما قلت سابقاً، كانت الكتائب الأساسية في الجيش ثلاث كتائب (الأولى والثانية والثالثة)، وقد أنشئت امتداداً لقوة البادية الأردنية التي اشتركت في عمليات القتال في العراق وسوريا عام ١٩٤١. وقد استمر تدريب هذه الكتائب مدة كافية، ثم حصلت على خبرة جيدة في فنون القتال خلال أعوام ١٩٤١ – ١٩٤٧. وكانت كل كتيبة تملك نحو مائة سيارة نقل كبيرة وصغيرة. اما الكتائب الثلاث الأخرى (الرابعة والخامسة والسادسة) فقد تألفت من سرايا الحاميات، التي كانت تقوم بأعمال الحراسة، وكان تدريبها يقتصر على مستوى تدريب قوات الأمن. وبينما حصل جنود وضباط الكتيبة الرابعة على تدريب عسكري خلال الأشهر الخمسة التي سبقت اشتراكهم في حرب فلسطين، فان جنود السرايا الأخرى (التي تألفت من بعضها الكتيبتان الخامسة والسادسة) لم تتح لهم فرصة الحصول على تدريب عسكري. لقد دفعت سرايا الأمن الى ميدان الحرب دون استعداد او تمهيد، لذلك نراها تحتفظ بأسلحتها الخفيفة التي كانت تستعملها سابقاً، ولم يكن هناك مجال لتزويدها بسيارات نقل مثل الكتائب الثلاث الأخرى.

وبصورة عامة يمكن القول ان كل كتيبة كانت تتألف من ثلاث سرايا مشاة وسرية أسلحة مساندة وسرية قيادة.

ولكن الجيش لم يكن يملك سوى عدد قليل من المدرعات، فقد كانت هناك ٣ سرايا مدرعات مع الكتائب الاولى والثانية والثالثة. اما الكتائب الثلاث الأخرى (الرابعة والخامسة والسادسة) فقد ألحقت بكل واحدة منها المدرعات التي أمكن الاستغناء عنها تبعاً لحاجة كل منها.

اما سرية القيادة فتؤلف عصب الكتيبة، اذ تعمل على توفير العتاد والمؤن والبنزين والمخابرات اللاسلكية والخدمات الأخرى التي لا تستطيع السرايا المقاتلة الاستغناء عنها.

ومع ان أفراد هذه السرية لا يرابطون عادة في خط النار الأمامي الا انهم يبقون في منطقة القتال ويبادرون للاشتباك مع العدو كل ما دعت الحاجة لذلك.

وكانت السرية في تلك الفترة تضم نحو ١٢٠ جندياً وضابطاً، من بينهم نحو ٢٠ للخدمات.

كانت أسلحة الجيش بسيطة وتقليدية الى حد كبير، وتتألف كما يلي:

- بنادق عادية.
- رشاشات تومسون (وعدد قليل من رشاشات ستن).
- رشاشات برن (٣٦ في كل كتيبة).
- رشاشات فيكرز (٤ رشاشات في كل كتيبة).

والفيكرز مدفع رشاش يصل مدى قذائفه الى ثلاثة كيلو مترات ويعطي ناراً كثيفة.

ورشاش تومسون يحمله الضباط وضباط الصف، بينما يحمل الجنود بنادق عادية.

وعلى سبيل المثال كانت أسلحة السرية المساندة في الكتائب كما يلي:

- ٦ مدافع عيار ٦ رطل. وهذا مدفع ضد الدبابات تجره سيارة مدرعة (مقصوصة) وزن ٧ طن، وقذائفه مباشرة مداها ٦٠٠ متر.
- ٦ مدافع هاون (مورتر) ٣ بوصة، ومداه ٣ كيلو مترات.
- ٦ رشاشات فيكرز.
- ٤ مدافع أورليكان ضد الطائرات.
- فئة تمهيد، واجباتها زرع الألغام وخلعها وبناء الأسلاك الشائكة واقامة الحواجز.

وكان لدى سرايا المشاة عدد محدود من مدافع الهاون عيار ٢ بوصة. ومن المفترض ان يكون في كل فئة من فئات السرية واحد من هذه المدافع.

أما المدرعات الثقيلة وزن ٧ طن، فتحمل كل واحدة منها مدفعاً من عيار ٢ رطل ورشاشين من طراز براوننج بالاضافة لقاذفة قنابل لهب.

بينما تحمل مدرعة الاستطلاع الخفيفة G. M. C. رشاش برن واحد وجهازي لاسلكي.

وفيما يلي بيان بما كان الجيش العربي يملك من أسلحة في يوم ١٥ ايار ١٩٤٨.

بيان بأسلحة الجيش الأردني يوم ١٥ أيار ١٩٤٨

اسم الوحدة	مدرعات ثقيلة عليها مدفع عيار ٢ رطل ورشاشين	مدرعات استطلاع عليها رشاش	مدفع ميدان ٢٥ رطل	مدفع مضاد للدبابات عيار ٦ رطل	مدفع هاون عيار ٣ بوصة	مدفع هاون عيار ٢ بوصة	رشاش خفيف برن	رشاش متوسط فيكرز	رشاش هوتشكس	رشاش طومسون	بندقية
قيادة الفرقة	٣	٣	–	٢	–	١	٣	–	–	٦	٧٠
اللواء الاول وكتائبه	٣٨	٢٤	–	١٠	١٦	١٠	١٠٢	٨	–	٢١٠	١٧٥٠
اللواء الثالث وكتائبه	١٧	١٨	–	٨	١٦	١٠	١٠٥	٨	–	٢٢٥	١٨٨٩
اللواء الرابع وكتائبه	٨	٥	–	١٢	٨	٨	٩٦	٦	–	١٨٢	٢١٠٠
كتيبة المدفعية	٦	٢	١٦	٦	–	–	٢٢	–	–	٤٥	٤٠٠
المناضلون الأردنيون	–	–	–	–	–	–	٦	–	٣٥	–	١١٥٠
المجموع	٧٢	٥٢	١٦	٣٨	٤٠	٢٩	٣٣٤	٢٢	٣٥	٦٦٨	٧٣٥٩

عن كتاب عبدالله التل (كارثة فلسطين) ص ٨٦ – ٨٧ (مع تعديلات)

وفيما يتعلق بهذا البيان، أرجو ان الفت النظر بصورة خاصة الى البنادق (١١٥٠ بندقية) والرشاشات (٣٥ رشاشة) التي سلمها الجيش للمناضلين الأردنيين، والتي يمكن أن تعطي فكرة عن تشجيع الجيش لأعمال أولئك المناضلين وتمكينه اياهم من القيام بواجبات الجهاد على أفضل وجه.

استعداداً لرحيل الانكليز

كان هناك اهتمام حقيقي في الأردن حول ما سيكون عليه الوضع في فلسطين بعد رحيل الانكليز، وعلى الأخص فيما سيكون عليه وضع المناطق التي خصصها قرار التقسيم للعرب. لقد أعد اليهود أنفسهم اعداداً يكاد يكون كاملاً لمجيء ذلك اليوم: فالوكالة اليهودية كانت في واقع الامر حكومة ظل ليهود فلسطين تملك جميع مقومات الحكومات وأجهزتها، لم يكن ينقصها الا رحيل السلطة الانتدابية حتى تعلن قيامها وتظهر الى العلن وعلى رؤوس الأشهاد. وهذا ما فعله اليهود عصر يوم ١٤ ايار بعد مغادرة المندوب السامي البريطاني للقدس – عاصمة الانتداب. ولكن العرب لم يكونوا مستعدين لذلك اليوم: لا حكومة ظل، ولا أي نوع من أنواع الادارة، او السلطة المركزية. كان من المفروض – نظريا – أن تتولى الهيئة العربية العليا شؤون التنظيم والادارة في الأجزاء الباقية تحت سيطرة العرب من فلسطين، ولكن في الواقع لم يكن قد بقي في فلسطين من أعضاء تلك الهيئة سوى اثنين: أحمد حلمي عبد الباقي وحسين فخري الخالدي. اما رئيس الهيئة المفتي امين الحسيني وأعضاؤها الآخرون فقد كانوا خارج فلسطين. وكان المفتي يحاول ان يسيطر على الأوضاع من خلال أعوانه ومؤيديه (بينما يتنقل هو بين القاهرة ودمشق). ولكن ادارة أية بلاد لا يمكن تنظيمها بهذا الأسلوب، خصوصاً اذا كانت مثل فلسطين في أوضاعها المضطربة عام ١٩٤٨.

ان اهتمام الاردن بأمر فلسطين يعود الى أسباب عديدة، لا تتعلق بالتصاق القطرين جغرافياً وسكانياً واقتصادياً فحسب، بل تتعلق كذلك بمعرفة وضع فلسطين الحقيقي أكثر بكثير من معرفة ساسة وزعماء وشعوب الأقطار العربية الاخرى. ولا ننسى ما كان لوجود وحدات الجيش العربي في فلسطين خلال السنوات السابقة من تأثير ايجابي.

ونستطيع أن نعطي مثالاً على الاهتمام بقضايا التنظيم وتوفير الأمن من خلال الاجراءات التي اتخذها الجيش في منطقة الخليل. فالسرية الثانية عشرة كانت تتمركز (منذ أواخر سنة ١٩٤٧) في مدينة الخليل وفي بلدة حلحول (في بناية الشرطة)، وكانت لها مفارز تتمركز في بئر السبع (جنود بادية بقيادة الملازم سعود الخشمان، وهو من قبيلة شمر)، وفي بلدة الظاهرية (بقيادة الملازم قاسم الناصر)، وفي بلدة بيت جبرين، وفي مركز

شرطة عرطوف (بقيادة الملازم عيسى مفضي تادرس)، بينما كانت تتمركز مفرزة من السرية السادسة في المجدل وعراق سويدان. وهذه المفارز لم يكن تأثيرها مقتصراً على تقوية معنويات الأهلين، وعلى مد المناضلين بالعتاد والسلاح والمساندة الحميمة، وعلى تدريب المناضلين وتنظيمهم في وحدات شبه عسكرية – بل كان وجود تلك المفارز يحمل ايضاً معنى وجود حكومة في البلاد، بعد ان أخذت حكومة الانتداب تتخلى عن مسؤولياتها. ويقول القاوقجي في مذكراته ان وجود السرايا الأردنية القليلة في منطقة رام الله ساعد على ثبات الأهلين وحال دون مزيد من النزوح، حتى انه أرسل في ٧ ايار برقية الى قيادة القوات المحاربة في فلسطين (في دمشق) يقول فيها «**إن انسحاب الجيش العربي الأردني من فلسطين يسبب ذعراً وهجرة نحو الشرق، اذ ان وجوده والأمل في دخول غيره بين ١٠ – ١٥ الجاري هو الطمأنينة الوحيدة للأهلين ...**».

وفي شهر آذار استدعى الفريق جلوب قائد منطقة معان (الرئيس محمد هاشم) وقال له: ان الانكليز سينسحبون من فلسطين في ١٥ ايار، وهناك ثلاثة مخافر في الجنوب – النقب – تابعة لحكومة الانتداب، هي: المرشرش، وعين حصب (جنوبي البحر الميت) وكرنب (جنوبي الخليل). ولا نعلم ماذا سيحدث في هذه المنطقة التي تقيم فيها عشائر بئر السبع. لذلك أريد منك ان تتولى مسؤولية الأمن فيها اعتباراً من ليلة ١٥ أيار.

كانت منطقة النقب الجنوبي خالصة للعرب يومذاك، لا يهود فيها. اما المخافر الثلاثة المذكورة فقد كان يتمركز فيها جنود بادية عرب (هجانة) مثل قوة البادية الأردنية. ولكن أولئك الجنود كانت خدماتهم ستنتهي في ١٥ أيار، ولم تكن هناك سلطة أخرى ينتظر أن تحل محل سلطة الانتداب. لذلك أخذت قيادة الجيش على عاتقها مسؤولية ملء الفراغ الذي سيحدث، حتى لا يحدث اختلال في الأمن. واتصل الرئيس محمد هاشم بقادة تلك المخافر – وكانوا في حيرة من أمرهم – فرتب معهم ان يتسلم المسؤولية، على أن يصبحوا هم من ملاك قوة البادية الأردنية اعتباراً من يوم ١٥ أيار. وبالفعل تم تنفيذ هذا الترتيب في اليوم الذي انتهى فيه الانتداب، إذ أشرف الضابط الأردني ومعه ضابط آخر (الرئيس جبران حوا) على وضع عشرة جنود بادية أردنيين وضابط صف في كل مخفر من تلك المخافر الثلاثة، مع ابقاء المسؤولية في يد ضابط الصف القديم. وفي كل مخفر كان يتم تنزيل العلم السابق ورفع العلم الأردني مع اداء التحية لكليهما. ثم اجتمع الرئيس محمد هاشم برؤساء

العشائر في المرشرش (الأحيوات والسعيديين) وأبلغهم ان الحكومة الأردنية تتولى الان كامل المسؤولية في مناطقهم. ولكن بعد اسبوعين من الزمن عاد جنود مخفر (الكرنب) بعد ان تقدمت القوات المصرية وتولت المسؤولية هناك.

نلاحظ مما تقدم ان الجهة المختصة في الأردن (قيادة الجيش) عملت على ملء الفراغ – في نطاق الامكانات المتاحة – في المناطق الواقعة تحت سيطرة العرب والقريبة من الأراضي الأردنية، بقصد حفظ الامن واستمرار ظل الادارة الحكومية.

اتجاهات الملك عبدالله

اننا نستطيع ان نستدل على اتجاهات ذهن الملك عبدالله فيما يتعلق بسياسة الأردن نحو فلسطين، من جملة تصريحات أدلى بها في الفترة التي سبقت دخول الجيوش العربية الى فلسطين. ففي تصريح نشرته وكالة الأنباء العربية بتاريخ ١٤ نيسان قال ان المهمة الأولى التي يتصدى العرب لتنفيذها هي انقاذ فلسطين وبعد ذلك تكون لأهلها «الكلمة الأخيرة»، علما بأن فلسطين والأردن في كفة واحدة «هي ساحل وشرق الأردن شرق وداخل». ونفهم من هذا ان الملك كان يرى ان تشابك المصالح ووشائج القربى تجعل من الأردن أكثر الأقطار اهتماماً بمصير فلسطين ومستقبلها.

اما التصريح الذي نشرته جريدة الأهرام بتاريخ ١٧ نيسان، فيعطينا وجهة نظر الملك السياسية من زاوية أخرى. فقد أعلن انه يحب السلام وانه جاهد في سبيله، ولكن ذلك لن يحول دون اشتراك الأردن في الحرب **إذا لم يكن بد من ذلك**. وذكر الملك انه تلقى برقية من الوكالة اليهودية تستنكر فيها مذبحة دير ياسين وتقول ان دولتهم الجديدة سترعى القواعد الدولية في القتال. وقال الملك انه يفسر ذلك القول «بمثابة اعلان حرب على شرق الأردن والدول العربية واني لا أعترف بوجود دولة يهودية ...». ثم أعلن رأيه بأنه في الإمكان وقف القتال (اذا رجع اليهود الى الصواب). وأعلن أيضاً انه ليس على استعداد «للتفاهم مع اليهود واعطائهم دولة صغيرة في منطقة تل ابيب ...».

لم يكن التصريحان السابقان سوى نوع من التمهيد لتصريح ثالث نشرته وكالة الأنباء العربية بتاريخ ٢١ نيسان، وأعلن فيه الملك آراءه السياسية تجاه المشكلة بكل صراحة. لقد

بين انه كان لديه بقية أمل في امكان ايجاد السلام والوفاق قبل حوادث دير ياسين وناصر الدين وطبريا. وأعلن انه قال لوفد الجامعة العربية الذي زاره في خريف ١٩٤٧ « ان جنح القوم – أعني اليهود – الى السلم فسنجنح لها، وان دعينا للدفاع عن فلسطين فسنفعل... ولا يزال أمر السلم في يد اليهود: ان هم شاؤا ونزلوا عن غلوائهم ورضوا بما يمكن ان يكون مرضياً للعرب وهو ان لا ينازعهم في سيادة البلاد منازع، على ان تمنح للآخرين حقوق لا مركزية في المناطق التي هم فيها خاصة بهم».

هذا كلام يدل على واقعية وبعد نظر وعلى نضج سياسي. وأهم من هذا ان كلام الملك يتفق تماماً مع ما قيل في الاتصالات السرية وغير السرية، بل ويتفق مع موقف الملك المعلن منذ اجتماعه بونستون تشرشل عام ١٩٢١، وخلاصته: اعطاء اليهود حقوق اللامركزية في المناطق التي أصبحوا فيها أكثرية، على ان يكون ذلك ضمن اطار الدولة العربية الفلسطينية، وعلى أن يشارك اليهود في جهاز الحكم من مجلس وزراء ومجلس نواب ودوائر رسمية بحسب نسبتهم العددية. لم يكن لدى الملك عبدالله ما يخفيه لا عن العرب ولا عن اليهود. لم تكن له آراء يصرح بها في السر وتناقض الآراء التي يصرح بها في العلانية. لم يكن الملك عبدالله يقول بأنه يريد ان يرمي اليهود في البحر (كما قيل على ألسنة بعض السياسيين العرب) ولم يكن يقول بأنه يوافق على التقسيم وعلى قيام دولة يهودية في فلسطين (كما أشيع زورا وبهتانا).

والملك لم يكن يرى ان يفرض رأيه على العرب، اذ أعرب في تصريحه هذا عن اعتقاده بأن العرب لا يرفضون صورة الحل الذي عرضه «اذا تقدم اليهود بقبول ذلك». ولكن اذا أصر اليهود على رأيهم وعلى اعلان دولتهم، فلن يكون هناك مفر من ان يخوض العرب غمار الحرب، ليس حباً بالحرب ولكن دفاعاً عن تراب بلادهم ومن أجل انقاذ فلسطين واهل فلسطين من الغزوة الصهيونية.

ولم تكن تصريحات الملك عبدالله وبياناته بقصد الاستهلاك المحلي، بل كانت نابعة عن اقتناع عقلاني مدروس. ومن هنا نجده يكرر العرض في برقية بعث بها بتاريخ ٤ ايار ١٩٤٨ الى تريجفلي الأمين العام للامم المتحدة. فبعد ان أعلن استنكاره لمجزرة دير ياسين

ووصفها بأنها لا مثيل لها، قال:

اننا نعلن الان استعدادنا لأن نعطي لليهود في فلسطين جنسية عربية تامة في دولة موحدة، فيشاركوننا في كل شيء، وفي الوقت نفسه يتمتعون بادارة مخصوصة في مناطق معينة. وهكذا سوف تنتهي المذابح ويعيش الناس في أمن وسلام الى الأبد.

ان هذه التصريحات والبيانات تدل على اتجاهات الملك عبدالله السياسية ورؤيته الواضحة لكيفية التوصل الى حل سلمي للمشكلة الفلسطينية في نطاق نظرة واقعية الى الواقع العربي والدولي. وهي تدل ايضاً على ان الملك لم يكن – مثل بعض السياسيين الآخرين – يعلن شيئاً وهو يبطن شيئاً آخر سواه. لقد كان يتمتع بمعين من الشجاعة الأخلاقية يدفعه الى مصارحة قومه والعالم بما يعتقد.

أما فيما يتعلق بقول البعض: ان قبول الأردن بوقوف قواته عند حدود التقسيم يعني القبول بالتقسيم، فقول يتجاهل الحقائق والامكانات. ان قبول الأردن هذا كان مظهراً من مظاهر الحنكة السياسية والنظرة الواقعية. والأردن الذي قال رئيس وزرائه انه سيقف عند حدود التقسيم، والذي عمل من أجل السلام بصراحة وشجاعة، عمل ايضاً من أجل الحرب بكل ما كان يملك من طاقات، وخرج بجميع قواته المحاربة، بكل رجل يحمل بندقية دفعة واحدة في ميدان القتال. وكان الوحيد في ذلك بين الدول العربية. ولو استطاع العرب جميعاً ان يدمروا قوات العدو، لما كان هناك فارق بين تدمير تلك القوات خارج حدود التقسيم او داخلها. ففي الحرب ليس المهم احتلال الأرض بل المهم حقاً هو تدمير قوة العدو.

على اننا نستطيع ان نجد تفسيرا منطقيا لنظرة الملك عبدالله نحو هذه المسألة، فقد أوضح لأحد أصدقائه (علي نصوح الطاهر) قبيل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ان خطته تقوم على ان يحافظ الجيش الأردني على الجزء الذي خصصه قرار التقسيم للعرب، وأن يرسل ولديه طلال ونايف لكي يقيم كل واحد منهما في جهة من فلسطين لتقوية معنويات الأهلين. اما في الأجزاء التي خصصها القرار لليهود، فسيترك أمر القتال للمجاهدين والمتطوعين الفلسطينيين والعرب لكي يقاتلوا اليهود فيها، وعددهم في تلك الأجزاء لا يقل عن عدد اليهود، بحيث يتسنى لهم افساد خطط اليهود واحباط مشاريعهم بانشاء دولة خاصة بهم.

ومما لا يحتاج الى شرح كبير في هذا الصدد، ان الملك عبدالله – مثله مثل غيره من

العرب – لم يكن يتصور أن يبلغ اختلال التوازن بين القوة التي أظهرها العرب والقوة التي أظهرها اليهود، الى المدى الذي شهده العرب وشهده العالم ابتداء من ١٥ أيار ١٩٤٨.

الطريق العسكرية

كانت هناك أربعة جسور تربط بين الأردن وفلسطين، عبر نهر الأردن هي: جسر المجامع وجسر الشيخ حسين وكلاهما يواجهان مناطق يسيطر عليها اليهود وتوجد لهم فيها مستعمرات واستحكامات، كما ان المناطق المقابلة للجسرين (من بيسان الى طبريا) تدخل في الجزء الذي خصصه قرار التقسيم لليهود. ولما كانت خطة الجيش العربي – المبنية على أسباب سياسية وعسكرية وعملية – تقضي ان يدخل الى المناطق التي خصصها قرار التقسيم للعرب، فلم يبق عليه الا ان يتخذ من الجسرين الآخرين جسر اللنبي (الذي يعرف الان بجسر الملك حسين) وجسر دامية (الذي يعرف الان باسم جسر الأمير محمد)، ممراً يعبر عليه. ولكن الطريق الرئيسية الوحيدة التي تبدأ من جسر اللنبي باتجاه الغرب تسير مباشرة الى اريحا ومنها الى القدس. وحيث ان القدس كانت منطقة دولية بموجب قرار التقسيم، وحيث ان القتال كان مستمراً في القدس وضواحيها، ولا يمكن للجيش أن يغامر باستعمال طريق لمواصلاته وتعزيزاته تحف بها الأخطار، وقد يقطعها العدو في اية ساعة – لهذه الأسباب لم يكن بالامكان استعمال طريق القدس للوصول الى رام الله من ناحية الشمال او للوصول الى الخليل من جهة الجنوب.

وكما نعلم كان اليهود قد استولوا على حي الشيخ جراح وقطعوا الطريق على العرب من القدس الى رام الله شمالاً، وقد ردهم الانكليز عن تلك الطريق. وما عتم هؤلاء أن غادروا القدس ظهر يوم ١٤ أيار حتى عاد اليهود واستولوا على الحي وقطعوا الطريق على العرب مرة أخرى. اما طريق القدس – بيت لحم – الخليل، فقد قطعها اليهود عند الكيلومتر الخامس الى الجنوب من القدس، حيث تمر من وسط مستعمرة رامات راحيل. وقد حدث ذلك بمجرد رحيل الانكليز عن معسكر العلمين في الجهة الجنوبية من القدس قبل ظهر يوم ١٤ ايار.

لهذه الأسباب قام الجيش العربي بشق طريق ترابية ضيقة (دون اسفلت) من اريحا

باتجاه الغرب عبر سلسلة جبال ووهاد، مروراً بوادي الجفتلك (جنوبي بيسان) ووادي البادان، ثم الى نابلس ومن هناك الى مدينة رام الله. وبطبيعة الحال تم انشاء هذه الطريق خلال شهري نيسان وأيار، فأصبحت هي الطريق العسكرية للجيش في حركاته وفي اتصاله مع الأردن، حيث مركز التموين والتعزيز، وحيث القاعدة الأساسية والمؤخرة الرئيسية. وفي تلك الأيام عرفت الطريق باسم (طريق ابو جورج) وهو ضابط بريطاني كان مدير الأشغال في الجيش (الميجر بريانت) ويعرفه الناس باسم (ابو جورج) وقد أشرف على شق الطريق.

وهكذا أعد الجيش الأردني نفسه للاشتراك في معركة انقاذ فلسطين مع القوات العسكرية للدول العربية الأخرى.

وفي العالم العربي من أقصاه الى أقصاه، أمسك الناس أنفاسهم انتظاراً للأحداث التي سيأتي بها يوم ١٥ أيار ١٩٤٨.



الشيخ عبد اللطيف ابو قوره
قائد سرية ابو عبيدة
الاخوان المسلمون



الشيخ هرون الجازي
(الحويطات) وقد خاض
معارك الجهاد ضد الاعداء
وأبلى البلاء الحسن في معارك
باب الـواد



الرئيس بركات طراد الخريشا

الفصل الثاني

١ - هناك من يعتقد أن الملك عبدالله وافق على قرار التقسيم، وقبل به، ودعا عرب فلسطين الى القبول به. ولكن مؤلف هذا الكتاب لم يقع على وثيقة تؤيد ذلك الاعتقاد.

٢ - في تلك الايام سئل الفريق جلوب عن السبب فأجاب «هل تريدون ان أضع جنودي لحراسة المستعمرة وحمايتها، حتى يأتي اليهود بعد انتهاء الحرب ويطالبون بها؟ لا يوجد عندي جنود للحراسة».

وكنت سألت جلوب عن هذا الموضوع بالذات عندما التقيت به في لندن عام ١٩٦٨، وكان جوابه: لم يكن لدي جنود يمكن الاستغناء عنهم للقيام بهذه المهمة.

ولم اقتنع وما زلت أعتقد أن جلوب كان يستطيع لو أراد، حماية (كاليه) ومصانع الفوسفات ومحطة توليد الكهرباء. ومع ذلك علينا ان لا نستخف بقوله ان بقاء المستعمرة سوف يستدعي مطالبة اليهود بها بعد انتهاء الحرب.

٣ - نقل الجندي الجريح الى أحد مستشفيات القدس الجديدة للمعالجة. وعند انتهاء الانتداب اعتبره اليهود أسيرا. ثم عاد الى خدمة الجيش بعد تبادل الأسرى.

٤ - عندما شعر محمد السحيم بالاصابة، طلب من مساعده النائب سليمان عتيق العطنه ان يلف شماغه حول وسطه، ثم تحامل على نفسه حتى وصل الى سيارة الاسعاف. وفي المستشفى الافرنسي في بيت لحم وجد الاطباء أن الرصاصة مزقت بعض الأمعاء وأصابت احدى الكليتين واثنين من الضلوع. وبقي السحيم في المستشفى بضعة أشهر حتى شفي من جراحه، فعاد يستأنف الخدمة في صفوف الجيش.

٥ - دار الوثائق البريطانية، لندن – الملفان: FO 371/68852 , FO 371/68853

٦ - أعلن مندوب بريطانيا في مجلس الامن يوم ١٧ نيسان ١٩٤٨ ان جميع وحدات الجيش العربي سوف تنسحب من فلسطين مع انتهاء الانتداب.

الفصل الثالث

الى الأمام أيها الرجال

الجيش العربي: الجيش الذي لا يخذل قواده، ولا يوهن أمراءه، ولا يخيّب ظن قومه، ولا يتقاعس أو ينكص عن الذود عن حقوقه وحقوق بلاده، فهو الشجاع المقدام، وهو المطيع المنفّذ... سيف البلاد وسياجها ومدار اعتزازها، وصوتها وسوطها، وكيد أعدائها وقرة عين مليكها

الملك عبدالله

في الطريق الى ميدان القتال

قضت كتائب الجيش العربي يوم الخميس ١٣ أيار في حركة دائبة استعدادا لليوم الذي يليه. لقد صدرت أوامر القيادة بأن على تلك الكتائب ان تغادر مواقعها في صباح اليوم التالي الى السهل المحيط ببلدة الشونة الجنوبية، على بعد بضعة كيلو مترات الى الشرق من مجرى نهر الأردن. وسرت موجة من الانفعال في نفوس الضباط والجنود وهم يسمعون الأنباء التي انتظروها طويلاً: كانت تلك الأنباء بالنسبة لهم بشرى عظيمة. وأية بشرى أعظم من ان يسيروا الى ميدان الشرف لانقاذ اخوانهم في فلسطين؟. لقد عرفوا عن كثب خلال السنوات الماضية، عمق المأساة التي كانت تنفذ على أرض فلسطين. كثيرون منهم عاشوا تلك المأساة. وفي أثناء الشهرين الماضيين امتلأت نفوسهم بالغضب وهم يسمعون انباء الانتصارات التي كان يحرزها العدو. هذه وتلك من المدن والقرى العزيزة تسقط الواحدة بعد الأخرى، تسقط بعد ان تستغيث ولا تجد من يغيث. وها هو قد أزف اليوم الذي ينتقمون فيه لاخوانهم، ويردون كيد العدو الى نحره، وينفسون عن حقدهم المكبوت.

كانت الحماسة تملأ قلوب رجال الجيش العربي الذين كانوا يرون انهم القوة المؤهلة لضرب المعتدين. كانوا يتحرقون شوقاً ليوم القتال، حتى ان بعض الجنود أخذوا يلحون على قادة الكتائب بالسير الى فلسطين قبل ١٥ أيار. وذات يوم جاء الفريق جلوب الى مركز احتشاد الكتيبة الثالثة في (خو)، وألقى محاضرة في الجنود قال فيها: اننا اذا دخلنا الى فلسطين قبل ١٥ ايار فسوف نشتبك في القتال مع الانكليز (وليس مع اليهود) وهذا أمر لا يناسبنا ولا نريده.

ومضى الجنود هنا وهناك في معسكراتهم، يرتبون أمتعتهم القليلة، ويفحصون تجهيزاتهم وعتادهم. يجب أن يكون كل شيء نظيفاً لامعاً. كان كل واحد يستعد مثلما يستعد المرء عندما يذهب الى عرس. لسوف ترتج أرض فلسطين تحت أقدام الغزاة عندما يطبق عليهم جنود العرب من جميع الجهات. ولسوف يكتشف الغزاة غداً ان فلسطين ليست فريسة سهلة ولقمة سائغة. انه الجهاد الذي ليس أشرف أو أنبل منه جهاد. وعندما تبدأ المعركة وتشتعل النار، وتتساقط القذائف كزخات المطر - عندئذ لن يكون هناك توقف. سيستمر الزحف حتى يركع العدو، ويعترف بالهزيمة ويتراجع عن مطامعه بتأسيس دولة يهودية على أرض فلسطين العربية.

هذه الخواطر دارت في نفوس أولئك الجنود والضباط، بينما كانوا يستعدون للحركة يوم غد. خواطر طافحة بالأمل والتصميم، نابعة من معين ثقة راسخة بأن النصر قريب وبأن العدو خاسر باذن الله.

ومضى ذلك اليوم. وعند اشراقة صباح اليوم التالي، يوم الجمعة ١٤ ايار، كان الجميع يقفون على قدم الاستعداد. وهبت نسمات منعشة من نسمات الصباح الباكر. واصطفت سيارات النقل الكبيرة، وأخذت كل فئة تتقدم نحو السيارة التي خصصت لها. وكنت ترى الضباط يتحركون بخطوات سريعة هنا وهناك. كل ضابط يريد أن يتأكد أن كل شيء على ما يرام، وان جنوده على تمام الاستعداد. كان الجيش العربي وما يزال يؤمن بالدقة والكفاءة، ويتحلى بروح الانضباط والنظام.

وسارت وحدات الجيش العربي من اربد، ومن المفرق، ومن أطراف الزرقاء. واصطفت جموع الأهلين على جوانب الطريق يشاهدون ابناءهم وهم في طريقهم الى ساحة الشرف. كان هناك رجال ونساء. كان هناك أولاد وبنات. يا له من منظر رائع منظر هؤلاء الشبان الذين لوحت وجوههم الشمس، وازدانت قاماتهم الممشوقة ببزات جذابة، وهم يرفعون أيديهم رداً على هتافات المودعين. كان مشهداً مؤثراً تكرر في اربد وفي المفرق والزرقاء وعمان وصويلح والسلط، وتكرر في أماكن أخرى سار اليها أبناء القرى المجاورة لكي يودعوا أبناءهم الذاهبين الى الحرب. كانت هناك زغاريد وصرخات ابتهاج وكان هناك تصفيق ودعاء. وكانت الحماسة تدفع بعض المودعين الى اطلاق الرصاص من بنادقهم او مسدساتهم. والجنود أنفسهم كانوا بين حين وحين يرددون أهازيجهم البدوية

فتتردد في الآفاق. كثيرون لفوا شماغاتهم الحمراء على رؤوسهم فبانت من تحتها خصلات الجدائل السمراء. لم يشعر اولئك الجنود يوماً ما بالحب الذي يكنه لهم كل هؤلاء الناس البسطاء مثلما شعروا به في هذا اليوم. كان كل واحد منهم يرى في هؤلاء اباً أو أخاً أو أماً أو حبيبة قلب. وفي داخل كل انسان راقب قوافل السيارات وهي تغيب وراء هذا المنعطف أو ذاك: مع السلامة. وليحفظكم الله.

وكم كان مؤثراً منظر الضباط والجنود الذين اضطرتهم الأوامر العسكرية الى البقاء في المؤخرة، في المعسكرات ومكاتب القيادة – وهم يقفون الى جانب الطريق لتوديع رفاق السلاح الذين أسعفهم الحظ بالذهاب الى ميدان القتال. وأحياناً كنت ترى ضابطاً يقف بسيارته لحظات كي يودع زميلاً عزيزاً جاء يحييه ويتمنى له النصر والسلامة.

وبعد الظهر بقليل كانت كتائب الجيش وأسلحته الأخرى قد عسكرت الى الغرب من بلدة الشونة، في ذلك السهل الفسيح. وحال وصولها الى مواقعها المعينة، أخذت كل وحدة تقوم بحفر الخنادق والاستحكامات، وتركز مدافع مقاومة الطائرات ومدافع مقاومة الدبابات في مواقع مناسبة بالقرب من الطريق الرئيسية. وكانت القوة المحتشدة في ذلك اليوم تتألف من الكتائب الأولى والثانية والثالثة مع سراياها المدرعة، والكتيبة الرابعة مشاة، وسلاح المدفعية، وقيادات الفرقة واللوائين الأول والثالث.

ولم يلبث الملك عبدالله، القائد الأعلى للجيش، ان جاء يستعرض الكتائب، كل وحدة بضباطها وجنودها. وقد اصطف الضباط والجنود يؤدون له التحية. وفي كل كتيبة ألقى كلمة حث فيها الجنود على الجهاد في سبيل الله لانقاذ الوطن، وتمنى لهم النصر، وأوصاهم بالثبات والاستبسال. واستثار فيهم الحمية والنخوة من اجل انقاذ القدس. عند ذكر القدس تأثر الملك كثيراً حتى سالت الدموع من عينيه. كان مما قاله: الذي يموت منكم شهيد والذي يحيا سعيد. وحث الجنود على الجهاد من أجل فلسطين «أرض الاسلام والعرب الصالحين». وقال: أوصيكم بالطاعة يا جنودي البواسل فهي عماد الجيش. وفي الكتيبة الاولى تحدث عن الجهاد والاستشهاد وذكر الجنود والضباط باجدادهم العظام الذين قاموا بالفتوحات الاسلامية، بعبارات هزت مشاعرهم. وقال ان الخطر اليهودي يهدد العرب جميعاً. وشدد من عزائم الجنود وحضهم على التضحية في سبيل الله والوطن.

كان الملك يومذاك بلباسه العسكري، وكان يرافقه عبدالرحمن عزام باشا ورئيس الأركان ومفتي الجيش. وعندما حان وقت صلاة العصر، أقام صلاة الغائب. لقد عرف الملك عبدالله الحرب من ايام شبابه: في الحجاز وعسير وفي الثورة العربية. وعندما أقام صلاة الغائب كان يرى بعين بصيرته أن الحرب ليست نزهة، وأن عدداً من هؤلاء الشبان الممتلئين حيوية ونشاطاً سوف يسقطون شهداء وسوف تبلل دماؤهم تراب الأرض التي سيقاتلون من اجل تحريرها.

وقبل ان يغادر الملك منطقة الحشد، التفت الى من كان حوله من الضباط قائلاً: غداً موعدكم مع الأعداء، فالى الأمام يا ابنائي الاعزاء، وليكن الله معكم. ثم أدار وجهه نحو الغرب وأطلق من مسدسه رصاصة واحدة ايذاناً ببدء الحرب.

وما ان عاد الملك عبدالله الى عمان حتى بعث البرقية التالية الى الأمين العام للامم المتحدة:

اننا مضطرون لدخول فلسطين من أجل حماية العرب العزل من مجازر تشبه مجزرة دير ياسين. اننا ندرك واجبنا القومي نحو فلسطين عموماً والقدس خصوصاً، وكذلك تجاه الناصرة وبيت لحم. كونوا على ثقة بأننا سنبذل أقصى الجهد في مراعاة يهود فلسطين، بينما نحافظ في الوقت نفسه على الحقوق التامة لعرب فلسطين. ان الصهيونية لم تستجب لعروضنا التي قدمناها قبل دخول القوات المسلحة(١).

ولم تكن اللجنة السياسية للجامعة العربية غافلة عن ضرورة اعلان القصد من دخول القوات العربية الى فلسطين. ففي يوم ١٥ ايار اصدرت بياناً أوضحت فيه انه نتيجة لانتهاء الانتداب وعدم وجود سلطة شرعية في البلاد، فقد انعدم الأمن والنظام تماماً حتى أرغم العدوان اليهودي أكثر من ربع مليون عربي على اللجوء الى الأقطار العربية الأخرى. **والدول العربية تجد نفسها مضطرة للتدخل في فلسطين لغاية واحدة وهي احلال الأمن والسلام وتوطيد القانون والنظام.. إن الحكومات العربية تؤكد ان الحل العادل الوحيد لمشكلة فلسطين هو تأسيس دولة فلسطينية موحدة على المبادىء الديمقراطية، بحيث يتمكن جميع سكان فلسطين من التمتع بالمساواة أمام القانون، وسوف تقدم الضمانات الكافية لجميع الاقليات...**

وفي الشونة جمع الفريق جلوب قادة الفرقة واللوائين والكتائب وأركان حربهم، وأبلغهم ان دخول وحدات الجيش الى فلسطين سيبدأ بعد الساعة الثانية عشرة من الليلة القادمة على طريق جسر اللنبي – اريحا – الجفتلك – وادي البادان – نابلس. وسترابط كل كتيبة في مواقع عينت لها. ثم أوصى بمنع الجنود من اطلاق النار في الهواء بدافع الحماسة عند مرورهم بالقرى والمدن العربية.

وشرح جلوب أسباب الدخول عن طريق نابلس الوعرة الطويلة، وليس عن طريق القدس، فقال انها:

١ – موافقة الجامعة العربية على استثناء القدس من العمليات الحربية.

٢ – وجود هدنة بين العرب واليهود في القدس.

٣ – الوضع السياسي للقدس وقرار هيئة الامم بتدويلها.

وكانت خطة القيادة ان تتمركز وحدات الجيش يوم ١٥ ايار في المناطق التالية:

- قيادة الفرقة في منطقة رام الله.
- قيادة اللواء الأول، وكتيبتاه الأولى والثالثة في منطقة نابلس.
- قيادة اللواء الثالث وكتيبتاه الثانية والرابعة في منطقة رام الله.
- قيادة اللواء الرابع في رام الله، الكتيبة السادسة في منطقة الغور لحماية طريق مواصلات الجيش من ناحية بيسان ومن ناحية القدس.

وقضى جنود الجيش وضباطه تلك الليلة في وادي الأردن. لم تكن هناك أية أنوار ولم يكن هناك صخب وضجيج. كانوا يطبقون مبادىء القتال والتعليمات العسكرية. العدو قريب ولا بدّ من الاحتياط واليقظة والتحسب لكل احتمال. ولكن كانت هناك موجة من التذمر على المبيت تلك الليلة بعيداً عن ميدان القتال. وسرت الهمسات بين رفاق السلاح: هل نحن قادمون لتنام في الشونة؟ ألم يكن من الأفضل ان نبيت في خط النار؟ كيف نضيع ليلة كاملة والعدو يواصل الهجوم؟

وقال جندي لآخر: لماذا نحن الليلة هنا؟

وأجاب رفيقه: هكذا تقضي الأوامر.

وقال الأول: وما الفرق بين وجودنا هنا ووجودنا هناك؟

لم يكن اولئك الجنود يدركون أن قيادة الجيش – مثلها مثل قيادات الجيوش العربية

الأخرى – يجب ان تتقيد بأصول التعامل الدولي، وان لا تدخل الى أرض فلسطين الا بعد ان ينتهي الانتداب البريطاني في الوقت الذي أقرته جمعية الأمم المتحدة. وانه لأمر جدير بالتأمل انه لم تكن هناك دولة عربية مستعدة لتجاوز ذلك القرار الدولي ولو ببضع ساعات، بينما كان تصرف بريطانيا في فلسطين وتجاهلها لمسؤولياتها في الحفاظ على أمن العرب وسلامتهم يبرر مثل ذلك التجاوز.

ولكن قيادة القوات البريطانية كانت قد حسبت حساباً لمثل ذلك الاحتمال، احتمال دخول القوات العربية المحاربة الى فلسطين قبل انتهاء الساعة المحددة لانتهاء الانتداب، ذلك ان بعض الضباط شاهدوا وهم في سهل الشونة طائرتين مقاتلتين من الطائرات البريطانية تحلقان فوق وادي الاردن ونهر الأردن. وكان تقدير اولئك الضباط ان الطائرتين تقومان بمهمة استطلاع للتأكد من ان وحدات الجيش العربي لم تعبر نهر الأردن غرباً.

وتسللت خيوط الفجر الى موقع الحشد في سهل الشونة، وبدأت حركة نشيطة اذ هب الجنود من النوم ولم يلبثوا ان صعدوا الى سياراتهم. كانت الأوامر التي تلقوها في الليلة الماضية دقيقة وتفصيلية: الكتائب تعبر من فوق الجسر واحدة بعد أخرى. في الساعة الرابعة أخذت الكتيبة الرابعة تجتاز الجسر في الطليعة. وبعدها بقليل مرت الكتائب الأخرى. صفوف طويلة من السيارات المملوءة بالجنود المدججين بالسلاح. وفي الوقت نفسه أخذت بعض الوحدات تعبر نهر الأردن بواسطة جسر دامية. وتقدمت القوة تجتاز بلدة اريحا وسهول الجفتلك، ثم أخذت تصعد في الطريق الملتوية في وادي الباذان وفي الجبال الغربية. كان هناك احتمال بان تقوم طائرات العدو بالتحليق لغايات الاستكشاف، وربما لأكثر من ذلك. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وبينما كانت سيارات القوة تجتاز جبال نابلس شاهد الجنود أشباح جماعات من جنود جيش الانقاذ والمناضلين الفلسطينيين وهم يقفون على قمم الجبال البعيدة ليشاهدوا قدوم الجيش العربي. لا شك ان كثيرين منهم شعروا بارتياح عميق وبمزيد من الأمل الى هذه القوة التي ذاع صيتها وهي تتقدم للاشتراك في القتال.

مرت طليعة الكتيبة الرابعة بمدينة نابلس في جو يسوده الهدوء والسكون. كان ذلك غريباً في نظر جنود الكتيبة وضباطها. ولكن يظهر ان المدينة فوجئت بمرور الجنود. وسرى النبأ بسرعة بين الأهلين فأسرعوا يحتشدون على جانبي الشارع: شيباً وشباناً، نساء

ورجالاً. كانت هناك فرحة غامرة تعبر عنها نظرات الاعجاب بهذه الصفوة المختارة من أبناء الأردن وهي تسير للالتحام بالعدو. وبادر كثيرون الى بنادقهم يطلقون منها الرصاص تعبيراً عن الترحيب بجنود الأردن. وتعالت الهتافات وارتفعت اصوات الزغاريد الى عنان السماء.

ومضت الكتيبتان الرابعة والثانية في طريقهما الى رام الله. واستقبلت المدينة قافلة الجند بالأناشيد والحداء والهتافات المدوية. آلاف من ابناء المدينة خرجوا للترحيب بالجيش العربي. وارتفعت أصوات العيارات النارية هنا وهناك ابتهاجاً. كان هناك مناضلون ومجاهدون من مختلف الأقطار العربية، جاءوا يرحبون باخوانهم أبناء الأردن، والآمال تداعب نفوسهم بأن النصر على العدو بات وشيكاً، وبأن الفرج قد جاء بعد ذلك الانتظار الطويل.

وامتلأت نفوس الجنود والضباط بشعور الثقة والكبرياء، وهم يرون اخوانهم وأبناء عمومتهم يرحبون بهم ويبتهجون لمقدمهم، والصبايا يلوحن لهم بالمناديل الزاهية. وتمنى كل واحد في أعماق نفسه أن تتحقق آمال هؤلاء الناس، وان يعقد الله لهم لواء النصر، ويتم على أيديهم وأيدي جيوش الدول العربية الأخرى انقاذ فلسطين وأهلها من براثن الغزاة.

واجتازت القافلة مدينة رام الله. وانفصلت الكتيبة الثانية عن جسم اللواء عند ملتقى طريق بدّو – رام الله. لقد اقتربت كل كتيبة من المواقع التي ستتمركز فيها.

ولكن كم كانت دهشة ضباط الكتيبة الرابعة بعد أن اصبحوا الى الغرب من رام الله ببضعة كيلو مترات، عندما شاهدوا وحدات جيش الانقاذ ومعها سياراتها ومصفحاتها وهي تنسحب من المواقع التي كانت ترابط فيها في منطقة اللطرون وباب الواد ويالو. واستغرب الضباط كيف تنسحب هذه الوحدات العسكرية من مواقعها دون ان تنتظر وصول الجيش العربي فتقوم بتسليمها اليه؟ كان الجيش العربي قد تلقى الأوامر من قيادته بان يتعاون الى أقصى حد مع قوات جيش الانقاذ. ولم تكن قيادة الجيش العربي تتصور ان يتخلى جنود الانقاذ عن مواقعهم الحيوية بهذه السرعة وبدون ابلاغ قيادة اللواء الرابع في رام الله عن خطة الانسحاب هذه. وسئل ضباط جيش الانقاذ: وكيف تنسحبون بهذه الصورة؟ وكان الجواب: لقد صدرت الينا الأوامر من قيادتنا بالانسحاب فانسحبنا. وفي الواقع كان الضباط والأفراد من جيش الانقاذ متألمين لانهم تسلموا الأمر بالانسحاب، وكانوا يتمنون لو انهم

ظلوا في أماكنهم ليقاتلوا الى جانب الجيش العربي. كان ذلك التصرف مثالاً صارخاً على جهل قيادة جيش الانقاذ وعلى جهل قادة وحداتها في منطقة اللطرون وباب الواد، الذين نفذوا تلك الأوامر على العمياء.

مواقع الوحدات يوم ١٥ أيار

تمركزت وحدات الجيش العربي عصر يوم السبت ١٥ أيار في المواقع التالية:

قيادة الفرقة: بالقرب من قرية بيتين الى الشمال الشرقي من رام الله. (انتقلت فيما بعد الى بيتونيا).

قيادة اللواء الأول: مستنبت عسكر – شرقي نابلس.

الكتيبة الأولى: قرية دير شرف، على مفترق طريق نابلس – جنين. مع نقاط أمامية ودوريات في طولكرم وقلقيلية وشويكه وباقة الغربية.
التحقت سرية المدرعات الأولى بالكتيبة يوم ١٨ ايار، قادمة من كفار عصيون. والتحقت بهذه الكتيبة مجموعات من المناضلين الأردنيين من قبائل الحويطات وبني صخر والسرحان وبني حسن وبني خالد.

الكتيبة الثالثة: تمركزت في أراضي قرية حوّاره الى الجنوب من نابلس، على أساس انها قوة احتياط للكتائب الأخرى.

قيادة اللواء الثالث: قرية بيتونيا، الى الغرب من رام الله.

الكتيبة الثانية: قرية بدو.

السرية الأولى: القبيبة – قبالة تلة الرادار.

السرية الثانية: مرتفعات النبي صموئيل.

السرية الثالثة: مرتفع بدو – قبالة الرادار.

سرية المدرعات: ضمن جبهة الكتيبة، وترتبط مباشرة بقيادة اللواء.

الكتيبة الرابعة: بين قريتي خربثا ودير نظام.

السرية الأولى: قرب قرية دير نظام.

السرية الثانية: شرقي قرية خربثا.

السرية الثالثة: مثلث بيت سيرا.

كتيبة المدفعية:

في مقر قيادة الفرقة – رام الله.

القائد هيرست.

الرئيس بولك – مساعد قائد الكتيبة.

الملازم الأول مصطفى الخصاونة – ركن عسكري.

المرشح بهجت المحيسن – ركن ادارة.

الوكيل بطرس حمارنة – مترجم.

البطارية الأولى: (٨ مدافع)

الفئة الأولى: قرية بيت حنينا وبعدها قرية الجيب (قطاع القدس – رام الله).

الفئة الثانية: قرية بيت نوبا.

قائد البطارية: وكيل القائد محمد المعايطة.

ضباط البطارية: الملازم الأول شاهر أبوشاحوت، الملازم الأول عامر خماش. الملازم الثاني محمد نجيب البركات. المرشحون: سامح فالح البطاينة، محمود المعايطة، عبدالعزيز عصفور، عبدالرزاق الشريف، مشهور الشرّيدة.

البطارية الثانية: (٨ مدافع) – فئتان.

قطاع نابلس أولاً: ثم انتقلت اللى قرية بيت حنينا.

قائد البطارية: الرئيس روبنسون (ثم الملازم الأول اميل جميعان).

ضباط البطارية: ملازم ثان – ذيب علاوي، منذر عناب، عبدالله البيطار.

مرشح – جول وديع، محمد الخصاونة، شفيق جميعان، احسان الحلواني، محمد خليل عبدالدايم.

كان واضحاً من تركيز وحدات الجيش في هذه المواقع، أن قيادة الجيش الأردني قررت أن تتخذ موقف الدفاع، على أساس أن الجيش صغير ولا يستطيع القيام بعمليات هجومية. أما المناطق الأخرى من فلسطين، فقد ترك أمرها لقوات مصر والعراق وسوريا ولبنان وجيش الانقاذ والقوات الفلسطينية. كانت خطة الدفاع واضحة لجنود الجيش العربي وضباطه. وفي هذا الصدد يقول اللواء صادق الشرع: في أواخر شهر نيسان ١٩٤٨ "أبلغنا

أن اللد والرملة لن تدخلا ضمن مسؤولياتنا لأنهما بعيدتان عن مواقعنا الرئيسية وليست لدينا قوات كافية لتخصيصها لهما". (جريدة – الرأي – عمان، بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٩٧).

الأيام الضائعة

كان ضباط الجيش العربي وجنوده يتحرقون شوقاً للاشتباك مع العدو، وكانوا يعتقدون ان المسافة التي تفصلهم عن مواقع العدو، لا تحتاج الى اكثر من بضع ساعات. ولكن كم كانت دهشتهم عندما شاهدوا قياداتهم تأمرهم باتخاذ مواقع بعيدة عن مواقع العدو.

لم تكن الخطة العامة للجيش العربي واضحة، كما يظهر، للجنود والضباط العرب. ومن هنا كانت دهشتهم عندما رأوا أنفسهم يعسكرون عصر يوم ١٥ ايار بعيداً عن نقاط الاحتكاك مع العدو، وعندما صدرت لهم الأوامر بحفر الخنادق وانشاء المراكز الدفاعية في مواقع بعيدة كل البعد عن الجبهة الأمامية. وتساءل كثيرون: هل جئنا لكي نحفر خنادق دفاعية ام لكي نقوم بعمليات هجومية؟

كانت خطة القيادة العامة – كما يظهر – ان لا تبادر الى الاشتباك مع العدو. ويبدو لي ان سبب ذلك يعود الى احتمالين:

الاحتمال السياسي: الذي ربما نبع من اعتقاد تلك القيادة ان اليهود لن يتجاوزوا حدود خط التقسيم في منطقة عمليات الجيش العربي، وان حلاً سياسياً لن يلبث ان يفرض على جميع الأطراف.

الاحتمال العسكري: الذي ربما نبع من الاعتقاد بأن الجيش العربي الصغير لا يستطيع ان يقوم بعمليات هجومية في الجبهة الواسعة التي أخذها على مسؤوليته في قطاع نابلس وقطاع رام الله، وأن خطة الدفاع هي الخطة العسكرية المثلى بالنسبة لصغر حجمه.

يقول الفريق جلوب ما خلاصته:

لم نكن نتصوّر في بادىء الأمر أن نحارب اليهود. كنا نستعد لاشغال المنطقة الوسطى من فلسطين المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم. ولكن القتال نشب في فلسطين بين العرب واليهود، وأخذ اليهود يتقدمون في الأراضي المخصصة للعرب. لم يكن الجيش العربي يستطيع القتال على جبهة عرضها ١٦٠ ميلاً. في ١٥ ايار لم

نكن نُعرف الخطط العسكرية للمصريين والسوريين واللبنانيين، ولا حجم القوات التي ستدخل الى فلسطين. خصصنا اللواء الأول لمنطقة نابلس بحيث رابطت الكتيبة الأولى في مواقع تغطي المنطقة من الغرب والشمال. وبقيت الكتيبة الثالثة احتياطاً وراء نابلس. وخصصنا اللواء الثالث (الكتيبتين الثانية والرابعة) لمنطقة رام الله. لقد أخذ الجيش على عاتقه مسؤولية الدفاع عن ثلاث مناطق: نابلس ورام الله والخليل. أما جيش الانقاذ فكان مشغولاً بأعمال النهب الى الشمال من نابلس.

سبق القول ان الكتيبة الأولى تمركزت الى الغرب من نابلس، في القرى القريبة من طولكرم وقلقيلية. وكانت التعليمات تقضي بأن لا تتجاوز الوحدات خط سكة الحديد الى الغرب. ولكن العدو لم يخلد الى الهدوء، اذ عمدت قوة معادية يوم ١٦ ايار الى شن الهجوم من مستعمرة كفار سابا على قرية كفر سابا المجاورة لها. ومع ان المستعمرة والقرية كانتا الى الغرب من خط السكة، الا ان القرية العربية كانت ملاصقة للخط، بل ان مدرستها كانت الى الشرق منه. واستطاعت القوة المعادية ان تستولي على القرية ثم أخذت تطارد أهلها الى الشرق من خط السكة، حتى وصلت نيران أسلحتها الى بلدة قلقيلية التي تقع على مسافة كيلو متر ونصف من الخط. في هذا الوضع بادرت السرية الأولى (قائدها الملازم سلامة عتيّق) الى اطلاق نار أسلحتها على القوة المهاجمة، واشتبكت معها في القتال. وفي تلك الأثناء كان السيدان هاشم الجيوسي وعبدالرحيم السبع قد ذهبا الى قائد اللواء الأول وأبلغاه بهجوم اليهود. عندئذ صدر الأمر للملازم الاول غازي الحربي قائد السرية الرابعة (من الكتيبة الثالثة) أن يسرع الى موقع الاشتباك على رأس قوة من سريته لتعزيز القوة التي كانت تشتبك مع العدو. وقد أكد قائد الكتيبة على غازي بأن لا يتجاوز خط السكة غرباً. بل قال له: حتى اذا تراجع اليهود الى غربي السكة، فعليك ان تدعهم وشأنهم ولا تطاردهم. لم يدرك الضباط والجنود عندئذ أبعاد هذه التعليمات، ولكنهم أدركوا فيما بعد ان الخطة العامة تقضي بأن لا يقوم الجيش بالهجوم على اليهود داخل المناطق التي خصصها قرار التقسيم لهم. والواقع ان قيادة الجيش كانت أصدرت تعليمات سرية تقضي بأن يقصر الجيش العربي حركاته على المناطق الواقعة الى الشرق من خط السكة. وأسرع غازي على رأس فئة من سريته ومعه مدفعا هاون وست رشاشات. وعند وصوله الى قلقيلية وجد اليهود يتمركزون في مدرسة كفر سابا، فبادر الى الاشتباك معهم. ولم يلبث هؤلاء ان

تراجعوا وهم يطلقون النار، فاضطرت عناصر من السريتين الى مطاردتهم والى قصف المستعمرة بقنابل الهاون. وفي تلك الأثناء كان قائد الكتيبة الأولى قد وصل الى الموقع، فأصدر أمره بأن تتراجع السريتان الى الخلف. وبالفعل تراجعتا على مضض وقد ساد الشعور بين أفرادهما أنهم حرموا من الاستيلاء على المستعمرة، ومقابلة العدو بما يستحق وتأديبه. وعندما علم قائد اللواء بأن جنوده تجاوزوا خط السكة غرباً، غضب وأصدر أمراً خطياً بحظر تحريك أية قوة تزيد عن فئة مشاة الا بأمره الشخصي.

لم تلبث روح التذمر ان سادت بين الجنود بسبب بقائهم دون حركة. الأهلون الذين رحبوا بهم قبل يومين أخذوا يعيرونهم ويسخرون منهم. في الكتيبة الثالثة أضرب الجنود يوم ١٧ ايار عن الطعام قائلين انهم ما جاءوا ليقعدوا تحت ظلال الزيتون. بعض الجنود تركوا الكتيبة سراً والتحقوا بالمناضلين. وجاء الأمير طلال يزور الكتيبة الثالثة، وعند تقديم القهوة لاحظ الأمير ان الضباط المحيطين به لم يشربوا. سألهم لماذا لا تشربون قهوتكم؟ قالوا: لنا طلب. نريد ان نحارب. ما جئنا لنقعد هنا. لم يقل الأمير شيئاً، ولكنه ذهب مباشرة الى قيادة الفرقة في منطقة رام الله.

ذات يوم جاء الفريق جلوب يزور الكتيبة الأولى. سأله الضباط عن سبب بقائهم في حالة ركود وعدم اشتراكهم في القتال. قال له الملازم محمد محسن الحربي: هل جئنا لنأكل ونشرب فقط؟ رد عليه جلوب سائلاً: هل انت عسكري أم لا؟ أجاب الحربي: نعم. قال جلوب: عليكم ان تنتظروا الأوامر.

الفريق جلوب نفسه يقول انه زار الكتيبة الثالثة فلمس تذمراً بين الجنود لانهم قضوا ستة أيام دون حركة، بينما كانت الاذاعات تتحدث عن نشوب المعارك في جميع أنحاء فلسطين. «كنت زرتهم قبل يومين فبادروني بأسئلة متلهفة: متى نستطيع ان نشارك في القتال. أخذني أركان الحرب جانباً ورجاني ان اسمح للكتيبة بالدخول في القتال».

في الكتيبة الثانية سرت روح التذمر أيضاً لعدم القيام بأية حركة. أخذ الجنود يقولون: اننا لم نأت الى هنا للجلوس والأكل والشرب. وقال أحد الجنود لضابطه: لماذا لا نعمل حركة بدل ان نبقى قاعدين؟

وفي الكتيبة الرابعة كان الشعور بالحيرة والحنق أشد مما كان في الكتائب الأخرى، بسبب وجود الكتيبة في منطقة أكثر سخونة من سواها. كانت هناك المواقع الخالية التي

غادرها جنود جيش الانقاذ، والخشية من ان هذه المواقع في خطر شديد. ففي مساء اليوم الذي وصلت فيه وحدات الكتيبة الى المواقع المعينة لها (١٥ ايار) توافد على قيادة الكتيبة وعلى قيادات السرايا كثيرون من سكان قرى عمواس ويالو وبيت نوبا وسلبيت وغيرها يطلبون النجدة ويقولون ان قراهم معرضة لخطر السقوط لعدم وجود قوة عسكرية تستطيع صد اليهود اذا ما تقدموا لاحتلالها. «ولكن الأوامر الصريحة كانت تقضي باللجوء الى السكينة وعدم القيام بما يعكر صفو الجو...»، على حد قول محمود الروسان. وزاد من شعور الجنود والضباط بالاحباط انهم كانوا يسمعون أصوات الانفجارات غير بعيد عنهم.

كان الخطر ماثلاً وقريباً. ففي الصباح الباكر من يوم ١٦ ايار تقدمت قوة من العدو الى قرية دير أيوب وقامت بنسف عشرة منازل من بيوت القرية دون أن تجد أية مقاومة. كان هناك مناضلون في جبال يالو، فأسرعوا نحو القرية عندما سمعوا أصوات الانفجارات، ولكنهم وجدوا ان قوة العدو كانت غادرت القرية بعد نسف المنازل. كما ان قوة العدو تلك هاجمت قرية اللطرون فتصدى لها حماة القرية من أبنائها، وانسحبت قوة العدو بعد ان أخذت أحد أبناء القرية أسيراً. لقد أضاع العدو بانسحابه فرصة ثمينة لم تتح له بعد ذلك فرصة مثلها.

وفي هذا اليوم (١٦ أيار) استمر وصول أهالي القرى المجاورة الى قيادة الكتيبة الرابعة مستنجدين. كانوا يشعرون بخطورة وضع قراهم، وكانوا يرون أن من العار ان لا يتقدم الجيش الى الخط الأمامي. وكان حابس المجالي قائد الكتيبة منزعجاً جداً للبقاء في مواقعه البعيدة عن الجبهة. طلب من قائد اللواء عدة مرات ان يأذن له بالتقدم الى الأمام، وكان الجواب دائماً: اعمل بحسب الأوامر التي لديك. في يوم ١٦ ايار قامت الكتيبة بتجربة مدافع ٦ أرطال لأول مرة، اذ لم تتح لها الفرصة قبل ذلك لتجربتها، ولم يكن الجنود قد أطلقوا منها أية قنابل قبل اليوم. وكان الضباط على الأخص يرون انه لا يوجد سبب معقول لبقائهم في مواقعهم تلك. بل ان بعضهم يعتقد ان القيادة البريطانية كانت تريد أن تعطي فرصة لليهود كي يحتلوا اللطرون. لم يكن في تلك المواقع المهمة سوى المناضلين بقيادة هرون بن جازي وبعض المناضلين من أهل القرى.

إن أهالي القرى الأمامية الذين راجعوا قيادة الكتيبة الرابعة مساء يوم ١٥ أيار وطالبوها بالتقدم الى الأمام، لم يلبثوا أن أدركوا ان تلك الكتيبة والكتائب الأخرى تخضع

لأوامر عسكرية تأتيها من قيادة الجيش. لذلك ذهب وفد منهم (بيت نوبا وبيت لقيا ويالو وعمواس وغيرها) الى عمان واشتكوا للملك عبدالله بأن جنود الجيش لم يصلوا بعد الى أي موقع من المواقع المهمة. فاستدعى الملك رئيس الأركان وقال له: لماذا لم يعبيء جنودنا الأمكنة التي أخلاها رجال القاوقجي؟. والواقع ان سؤال الملك عبدالله هذا كان واحداً من بين أسئلة عديدة وجهت الى قيادة الجيش خلال أيام ١٦-١٧ أيار. وكان معظم تلك الاسئلة يتعلق بالوضع الخطير في القدس.

ولم يكن جنود المدفعية وضباطها أقل حنقاً لبقائهم في حالة ركود. فالبطارية الثانية بقيت نحو خمسة أيام قرب طولكرم في وضع دفاعي. روبنسون قائد البطارية أرسل الملازم عبدالله البيطار الى قرية بلعا كضابط ملاحظة وأمره أن يبقى هناك قائلاً: اذا تقدم الأعداء نحوكم فاضربوهم. سأله البيطار: أين العدو؟ قال روبنسون: لا أدري. وظيفتك أن تضرب العدو عندما تراه.. ومضت الأيام الخمسة دون أن يظهر العدو. وبلغ الحنق غايته في نفوس الجنود حتى أضربوا عن الطعام. لم يطيقوا البقاء على تلك الحال وهم يسمعون أنباء المعارك من الاذاعة، وأنباء سقوط هذا الموقع وذاك بأيدي العدو. وطلب روبنسون من الضباط تهدئة الجنود، فكان جواب هؤلاء: كيف نبقى تحت الزيتون وزملاؤنا يقاتلون؟ لم يهدأ الجنود الا بعد ان وصل الأمر بأن تتحرك البطارية الى مطار قلندية لكي تساند هجوم الكتيبة الثالثة على مواقع اليهود في القدس الجديدة.

ولم تكن الأحوال بالنسبة لسرايا اللواء الرابع تختلف عن وضع اللوائين الأول والثالث، الا في ان جنود اللواء الرابع وسراياه كانوا يعرفون أن مهمتهم الرئيسية هي الحفاظ على الخطوط الخلفية، وهي مهمة دفاعية محضة.

ولكن الوضع النفسي لرجال الجيش كان يعكس الى حد بعيد ما كان يعتمل في نفوس أصحاب المسؤولية النهائية في عمان، وعلى الأخص الملك عبدالله.

كان واضحاً مع مرور الساعات أن الوضع في فلسطين يشهد تطورات بالغة الخطورة، وعلى الأخص في مدينة القدس. ورويداً رويداً اتضح أن موقف الدفاع الذي اتخذته قيادة الجيش لم يؤد الى اية نتائج ايجابية، بل الأصح القول أن موقف الدفاع شجع اليهود على المضي في شن الهجمات ومحاولة الاستيلاء على القدس كلها. واذا ما نجح

اليهود في الاستيلاء على القدس، فسيكون بمقدورهم تهديد مؤخرة الجيش وارغامه على التراجع، أو تطويقه.

ومن هنا تم اتخاذ قرار بالتحول عن خطة الدفاع الى خطة الهجوم. والأصح أن نقول إن القرار الذي أتخذ يتضمن القيام بهجوم معاكس لفك طوق الحصار عن الأجزاء الباقية من القدس بأيدي العرب.

ولكن ذلك القرار لم يتخذ الا بعد أن ضاعت ثلاثة أيام، أحرز العدو فيها مكاسب مهمة.

وليس من شك أن مسؤولية تلك الأيام الثلاثة تقع على عاتق الفريق جلوب.

ولكن اذا أردنا الدقة وجب أن نضع المسؤولية على عاتق بريطانيا، التي كانت حددت الخطوات التي يجب ان يتقيد الجيش العربي بها - مع التهديد بقطع معونتها عنه (من مال وسلاح)، اذا هو حاول الخروج عليها. (لاحظ برقيات كركبرايد في الصفحات التالية).

كانت القدس مفتاح الوضع كله في فلسطين، بالنسبة للجيش العربي على الأقل، لانها كانت في منتصف المناطق الجبلية التي كان الجيش يتمركز فيها ويعمل على حمايتها. والذي جعل القدس مفتاح الوضع هو اصرار اليهود ليس على توطيد أقدامهم فيها فحسب بل على الاستيلاء عليها كلها، وشق جبهة الجيش العربي من الوسط، تمهيداً لتطويقه والحاق الهزيمة به.

القدس تستغيث

تضمن القرار الذي اتخذته الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود مادة تنص على وضع القدس (من شعفاط شمالاً حتى بيت لحم جنوباً)، تحت ادارة دولية. وعلى الرغم من ذلك القرار فقد شن اليهود على الأحياء العربية في المدينة وعلى القرى العربية على أطرافها، سلسلة هجمات أدت الى اتساع رقعة القسم الذي يسيطرون عليه، على حساب رقعة القسم الذي يسيطر عليه العرب. وقد ترك الانكليز الحبل على الغارب في معظم أحياء المدينة، واكتفوا بالبقاء في معسكراتهم (اللنبي والعلمين) وفي الأبنية التي كانوا يستعملونها دوائر لهم، (البريد وفندق الملك داؤد ومبنى النوتردام والسجن المركزي).

وقد مر بنا قبلا ان المندوب السامي توصل الى عقد اتفاق تعهد فيه الطرفان بوقف

اطلاق النار حتى يوم ١٥ أيار. ولكن اليهود خرقوا ذلك الاتفاق وبادروا الى البدء بعمليات هجومية واسعة النطاق ابتداء من ١٤ ايار، أي في الساعة التي أخذ فيها الانكليز يرحلون عن المدينة.

كان الأردن يود ان تستمر الهدنة في القدس لأسباب عديدة منها:

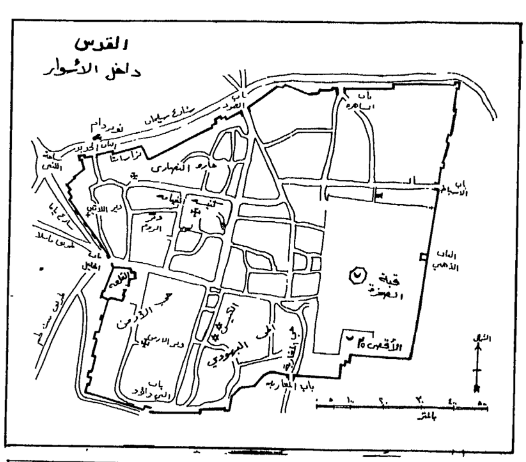
١ – تجنب تدمير الأماكن المقدسة.

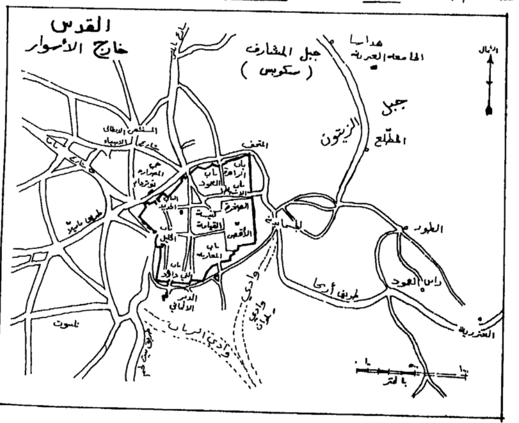
٢ – تجنب الظهور بمظهر الدولة المعتدية نظراً لقرار هيئة الأمم بتدويل المدينة.

٣ – ضرورات عسكرية: فالجيش الأردني الصغير لم يكن يستطيع أن يحمي مناطق نابلس ورام الله والخليل، ويخوض معارك القتال في القدس – في آن واحد.

ولكن الموقف كان يعتمد الى حد كبير على ما سيفعله الطرف الآخر. فاليهود الذين شعروا ان قواتهم العسكرية في القدس تتفوق على القوات العربية، أعدوا أنفسهم ووضعوا ترتيباتهم للقيام بسلسلة هجمات في الساعة التي يرحل فيها الانكليز عن القدس. وكانت خطتهم أن يبدأوا بالاستيلاء على الأماكن التي سيغادرها الانكليز، ثم متابعة الهجوم حتى يتسنى لهم الاستيلاء على المدينة بكاملها، ومن ضمنها المدينة القديمة في داخل الأسوار. كانت لليهود قوة عسكرية كبيرة تتألف من ثلاث كتائب هاجانا وكتيبة بالماخ بالاضافة الى مجموعات من منظمتي شتيرن والأرغون والى الحرس الأهلي. وقد عينت قيادتهم العليا القائد شالتئيل قائداً في القدس.

لم يكن عدد المجاهدين العرب في القدس قليلاً. كان هناك أكثر من الفين منهم: الجهاد المقدس (٧٠٠)، وقطعات جيش الانقاذ (٥٠٠)، سرية المتطوعين الأردنيين (١٥٠)، والمناضلون الفلسطينيون بقيادة طارق الافريقي (٥٢٠)، وسرية الاخوان المسلمون من سوريا (٨٥)، ومجموعة من رجال الشرطة العرب (٣٠٠). ولكن معظم هؤلاء لم يتلقوا تدريبا عسكريا، وكان هناك نقص ملحوظ في السلاح والعتاد، ولم تكن القيادة في يد واحدة. ثم ان المستوى العسكري لهؤلاء كان أقل بكثير من مستوى القوات اليهودية. أضف الى ما تقدم ان معنويات العرب من محاربين وغير محاربين كانت قد ضعفت كثيراً بعد سقوط القطمون ودير ياسين فأخذ كثيرون من أهل القدس ينزحون عنها. وبالمقابل كان شالتئيل ينفذ أوامر بن غوريون القاطعة: ان يرغم اليهود على البقاء حيث هم، وان لا يتخلوا عن موقع واحد يقيمون فيه، وان يدافعوا عن أماكن اقامتهم من بيت الى بيت.


القدس
داخل الأسوار
شارع سليمان
باب العمود
باب الساهرة
نوتردام
الباب الجديد
حارة النصارى
كنيسة القيامة
دير اللاتين
دير الروم
باب الخليل
القلعة
حي الأرمن
دير الأرمن
باب النبي داود
الحي اليهودي
باب المغاربة
قبة الصخرة
الأقصى
الباب الذهبي
باب الأسباط
الشمال
بالمتر


القدس
خارج الأسوار
جبل المشارف
(سكوبس)
هداسا
الجامعة العبرية
الشمال
جبل الزيتون
المطلع
المتحف
المستشفى الايطالي
شارع الأنبياء
نوتردام
باب العمود
باب الساهرة
باب الأسباط
الباب الجديد
كنيسة القيامة
الصخرة
الأقصى
باب الخليل
باب المغاربة
باب النبي داود
الدير الألماني
الجسمانية
الطور
رأس العمود
طريق أريحا
العيزرية
وادي الربابة
بالمتر

وهكذا لم تمر سوى ساعات قليلة على رحيل الانكليز (الذي بدأ صباح يوم الجمعة (١٤ ايار)، حتى كان اليهود قد استولوا على مجمع المباني الضخمة التي كان الانكليز يتمركزون فيها في وسط المدينة، اذ كانوا اتفقوا مع الضباط الانكليز في الليلة السابقة على احتلالها حالما يغادرها هؤلاء.

وعند الظهر كان القتال قد شمل جميع انحاء القدس. وحاولت لجنة الأمم المتحدة أن تقنع الطرفين باحترام الهدنة والتوقف عن القتال. ولكن محاولاتها ذهبت سدى. ولم يكن وقف اطلاق النار واردا بالنسبة لليهود، الذين شنوا هجمات على ثلاثة محاور.

ووصلت مجموعة من رجال الهاجانا الى عمارة النوتردام – تلك العمارة البالغة الضخامة المتينة البنيان، الشبيهة بقلاع القرون الوسطى – وتمركزت فيها، ولكن جماعة من المناضلين لم تلبث ان أخرجتهم من العمارة وحلت محلهم فيها. وفي الشمال تقدم اليهود من حي مشيرم الى حي الشيخ جراح فاستولوا عليه. واتصلت قواتهم من هناك بالقوة المتمركزة في هداسا والجامعة العبرية على جبل المشارف. وانقطعت بذلك طريق القدس – رام الله ولم يبق للعرب الا الطريق المؤدية شرقاً الى اريحا.

وأخذت قوات اليهود تهاجم وادي الجوز الى الشرق الشمالي من القدس القديمة. ولكن المناضلين العرب صمدوا فيه وظلوا يقاتلون أعداءهم حتى تقدم الجيش العربي من الشمال بعد اربعة أيام فأرغم اليهود على الارتداد الى الوراء.

وفي جنوب المدينة تحركت مجموعة من اليهود للاستيلاء على معسكر اللنبي. وكانت مجموعة من المناضلين العراقيين قد استولت قبلهم عليه، الا انها لم تقف في وجه المهاجمين وأسرعت الى الانسحاب. ولم يلبث اليهود حتى استولوا على محطة سكة الحديد والكولونية الالمانية ومعسكر العلمين ودير ابوطور والنبي داؤد والمسكوبية والمستشفى الايطالي. وكان اليهود قد استولوا سابقاً على أحياء القطمون والبقعة والطالبية. اما في حي المصرارة وحي سعد وسعيد فقد وقف المناضلون يردون هجمات العدو بثبات. ودار هنا قتال شديد خلال أيام ١٥–١٧ ايار استبسل فيه الطرفان.

أخذ اليهود في القدس يضغطون على العرب بكل ما لديهم من قوة، وكان تراجع العرب يدفعهم الى مزيد من الاندفاع، فكلما استولوا على موقع تقدموا الى الموقع الذي يليه. لم يكونوا يريدون اعطاء العرب فرصة للاستراحة او لاعادة تنظيم صفوفهم. كانوا يعرفون

ان الوقت ثمين وأن الامم المتحدة قد تتدخل وأن الجيش الأردني قد يتدخل. كان اليهود يعرفون أهمية وضع العالم أمام الأمر الواقع. وهكذا نراهم – بعد ان استولوا على معظم الأحياء العربية المحيطة بالقدس القديمة من الغرب والشمال والجنوب، وبعد أن قطعوا اتصال القدس القديمة برام الله شمالاً وبيت لحم والخليل جنوباً – أخذوا يهاجمون أبواب السور التي وصلوا اليها وهي باب الخليل والباب الجديد وباب النبي داؤد، بقصد الدخول الى المدينة القديمة والاستيلاء عليها، وافساح المجال أمام العرب (مع التهديد والتخويف) كي ينزحوا الى الشرق عن طريق اريحا المفتوحة امامهم.

وعمد اليهود الى مهاجمة مواقع العرب في الطور وجبل الزيتون ايضاً: فقد كانت بناية (المطّلع) المعروفة باسم (أوغستا فكتوريا) في ايدي الجيش البريطاني. واعتزم رجال الجيش أن يغادروا البناية يوم ١٠ ايار، فقام عثمان بدران قائد (سرية الحسين) من المناضلين بتسلّمها منهم ورفع علم فلسطين فوقها. وفي أيام ١٠ – ١٣ أيار انسحبت سرية الأمن الثانية والسرية ١٣ اللتان كانتا ترابطان هناك، فشن اليهود المرابطون في هداسا هجوماً على المناضلين، ولكن هؤلاء ردوهم على أعقابهم وكبدوهم عدة خسائر في الأرواح.

وفي تلك الاثناء أخذت سيارات يهودية تسير في الشوارع وهي تحمل مكبرات الصوت تدعو العرب في المدينة القديمة الى الاستسلام.

« أشفقوا على نسائكم وأطفالكم وأخرجوا من هذا الحمام الدموي. استسلموا لنا مع أسلحتكم ولن يصيبكم أي أذى... ما تزال طريق اريحا مفتوحة أمامكم. أهربوا من القدس قبل ان تقتلوا جميعاً».

وازاء ضغط القوات اليهودية أصدر فاضل رشيد، آمر قوة جيش الانقاذ في القدس، أمراً بانسحاب المناضلين الى داخل السور. وتراجع المناضلون الى المدينة القديمة. وأغلقوا أبواب السور من الغرب والجنوب والشمال، بينما استمرت مجموعة من المناضلين في المقاومة في حي المصرارة وحي سعد وسعيد.

لا شك في أن القدس القديمة كانت مدينة في يومي ١٧ و ١٨ ايار لسورها المنيع الذي كان له الفضل الاكبر في بقائها بيد العرب. وكان السلطان العثماني سليمان القانوني آخر الملوك الذين زادوا من تحصين ذلك السور.

وعمد المدافعون العرب الى مقاومة هجمات اليهود. فأخذوا يردون على نيران العدو من فوق السور. وكان في داخل الأسوار ما ينوف على ٦٠ الف عربي أكثرهم من النازحين عن الأحياء التي استولى عليها اليهود. وكان المدافعون العرب يعانون من نقص الذخائر وقلة السلاح والرجال المدربين. وقد دبت الفوضى في صفوفهم. ولم يكن في المدينة من أعضاء الهيئة العربية العليا سوى أحمد حلمي باشا عبدالباقي فأشرف على الدفاع عن المدينة وعلى ادارتها. اما قيادة المدافعين فقد كانت بيد الرئيس فاضل رشيد (جيش الانقاذ) وخالد الحسيني (الذي خلف عبدالقادر الحسيني في قيادة قوات الجهاد المقدس).

ولم تجد القدس في أيام محنتها من تلجأ اليه الا الملك عبدالله، فأخذت وفود المدينة تتجه الى عمان، طوال ثلاثة ايام، مناشدة اياه ان يرسل قواته لانقاذها من الخطر الداهم. وكان هناك كثيرون أرسلوا برقيات استغاثة واستنجاد، ومن بين هؤلاء احد ضباط الشرطة محمد داؤد (الذي تولى رئاسة الوزارة العسكرية في الأردن عام ١٩٧٠) فتلقى من الملك رداً يقول فيه «قاتلوا ورابطوا وصابروا فالغوث آت باذن الله».

واتصل الملك بقائد الجيش يحثه على انجاد المدينة. ولما كان هذا يقضي معظم وقته في الجبهة، فان الملك بعث اليه يوم ١٦ أيار الرسالة التالية مع منير ابو فاضل (أحد ضباط شرطة فلسطين وقد آثر البقاء في القدس والاشتراك في الدفاع عنها):

عزيزي غلوب باشا

إن موقع القدس من العرب والمسلمين ونصارى العرب معلوم، وان وقوع أي كارثة من اليهود على اهلها كأن يقتلوا أو يجلوا أمر عظيم التبعة علينا. ولا يزال الموقف ليس بالميئوس منه، وانني آمر بلزوم الاحتفاظ بما هو تحت اليد الان البلدة القديمة وطريق أريحا اما بواسطة القوات التي في نواحي رام الله او بارسال قوة من احتياط القوات هناك. انني أرجو ان تنفذوا هذه الرغبة بكل سرعة، عزيزي.

٧ رجب ١٣٦٧ عبدالله

وفي تلك الساعات الحرجة أرسل فاضل رشيد برقيتي استغاثة الى الملك عبدالله وقيادة الجيش العربي والقاوقجي:

١ – الحالة خطرة. العدو يقوم بهجوم علينا في قطاعات المدينة. المدفعية تقصف بشدة من

كل ناحية. يجب ان تصلنـا النجـدات والا فمصيرنـا الفنـاء.. الفنـاء.. أؤكد لكم الفناء وسقوط المدينة. القنابل تسقط في الحرم.

٢ – ازدادت الحالة سوءا. المدفعية تقصف الحرم. وآسـفاه علـى المدينـة المقدسـة. ازحفـوا لانقاذ الموقف. الأرواح تنتظر نجدتكم السريعة.

بل ان اللواء عبدالقادر الجندي مساعد رئيس أركان الجيش العربي، أرسل في الصباح الباكر من يوم ١٨ ايار البرقية التالية الى القاوقجي:

القدس في ضيق شـديد. علـى وشـك الانهيـار. هـل باسـتطاعتكم نجدتهـا بـأقرب وقـت وأقرب طريق؟

عاشت القدس يوم ١٧ ايار في ضيق عظيم. وذهبت وفود من العرب الى عمان ترجو الملك عبدالله وأركان حكومته ان يهبـوا لنجـدة القدس. قبيـل منتصـف الليـل جـاء وفـد مـن المدافعين عن المدينة الى الرئيس بركات طـراد، قـائد سـرية منكـو للمتطوعيـن الأردنيين، الذي كان يتمركز مع رجاله في جبل الزيتون، يرجوه ان يبلغ الملك عبدالله بـأن ذخـائرهم تكاد تنفد وان القدس في خطر. فأبرق بركات الى قيادة الجيش يقول:

اليهود هاجموا مدينة القدس من ثلاث جهات من أسـوار المدينـة. هنـاك ارتبـاك بـالقوة الداخلية، وهم حول المدينة كالهلال. اذا لم ترسـلوا قـوة سـتذهب القدس وسـتون ألـف نسمة ضحية لليهود.

وفي تلك الليلة تلقى بركات من عمان جواباً يقـول: بشـروا أهـل القـدس غـداً صباحـاً يأتيهم الفرج.

وفي صباح ١٨ ايار أرسل بركات فئتين مـن رجالـه مـع أسـلحتهم وعتـادهم لمسـاعدة المناضلين في داخل الأسوار. فكان لوصولهم اثر طيب في رفع معنويات المنـاضلين الذيـن اعتقدوا انهم من جنود الجيش.

وتلقى الرئيس بركات رسـالة من قائد حاميـة ديـر ابوطـور يطلـب اليـه ان يرسـل قـوة لمساعدته لان الجبهة انهارت. فبادر الـى ارسـال فئـة مـن رجالـه الـى ذلـك الموقـع. ولكـن أفرادها اكتشفوا عند وصولهم ان اليهود كانوا قد استولوا على الديـر، فعـادوا أدراجهـم الـى جبل الزيتون.

وكان دخول تلك المجموعة الصغيرة من سرية المتطوعين الأردنيين متوافقاً مع دخول فئتين نظاميتين من فئات سرية الأمن الاولى.

* * *

واتصل أحمد حلمي باشا هاتفيا بديوان الملك عبدالله يوم ١٦ ايار قائلاً: «ان لم تنجدونا سريعاً سقطت القدس نهائياً في أيدي اليهود». وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ١٧ ايار اتصل مرة أخرى يقول «أناشدكم الله ان تنجدونا وتنقذوا المدينة وأهلها من سقوط مؤكد». وأبلغت الرسالة للملك فاتصل بأحمد حلمي مستفسراً عن الحالة في المدينة. كان الملك غاضباً جداً من موقف الحكومة وقيادة الجيش وتقاعسهما عن انجاد القدس، وكان طلب عدة مرات ان يبادر الجيش لانقاذ القدس ولكن أوامره لم تنفذ. وفي الساعة الرابعة والنصف طلب من رئيس ديوانه (عبدالرحمن خليفة) ان يذهب الى رئيس الوزراء توفيق ابوالهدى ويبلغه رسالة شفوية من الملك باصراره على ان يدخل الجيش الى القدس. ووصل رئيس الديوان الى منزل ابوالهدى في نحو الخامسة صباحاً، قبيل بزوغ الشمس، وأيقظه من النوم. ولم يلبث الرجلان ان فوجئا بدخول الملك الى المنزل. كان واضحاً انه لم يصبر على الانتظار. ودهش ابوالهدى عندما بادره الملك قائلاً: لماذا لم تنفذ أوامري؟ ومع دهشته أخذ يحاول تهدئة الملك حتى جلس. وعندئذ اتصل هاتفياً – وهو ما يزال بثياب النوم – بعبدالقادر الجندي مساعد جلوب وسأله عن سبب تقاعس الجيش عن انقاذ القدس. وكان من جملة ما قاله: انني امهلك ساعة واحدة لاصدار الأوامر للجيش بالتحرك، واذا لم يأتني خبر بعد ساعة أن الجيش دخل القدس فلن تبقى انت في وظيفتك ولن يبقى جلوب في وظيفته.

في صباح ذلك اليوم (١٧ ايار) عقد مجلس الوزراء اجتماعاً في الديوان الملكي برئاسة الملك عبدالله وبحضور الفريق جلوب واللواء الجندي. وفي الجلسة قال الملك أريد منكم تأليف مجلس وصاية على العرش لانني أريد أن أتولى بنفسي قيادة القوات في القدس. انني لا أطيق البقاء على قيد الحياة اذا سقطت القدس وأنا أتفرج. وفي تلك الجلسة حدثت مشادّة بين وزير الداخلية هاشم خير والفريق جلوب، عندما أخذ هذا يبدي بعض الأعذار. ولكن الاجتماع لم ينفض الا بعد ان اتخذ مجلس الوزراء قراراً بدخول الجيش الى القدس.

يقول الفريق جلوب: بذل الملك والحكومة كل جهد لتأمين الهدنة. وبذلت لجنة الهدنة

كل جهودها لتمديد الهدنة، ولكن مساعيها ذهبت عبثا. كان اليهود يوافقون على التوقف عن القتال بين حين وآخر، ولكن عملياتهم العسكرية تظل مستمرة بحجة أو باخرى.. الاستغاثات ظلت مستمرة: أنقذونا، ساعدونا. لقد وصل اليهود الى باب الخليل. لقد احتلوا الشيخ جراح. انهم يتسلقون أسوار المدينة. أنقذونا، ساعدونا.. كان الوضع في عمان متوترا. بدا الملك متعباً ومهموماً. ورئيس الوزراء أرهقه التوتر. وظلت الاستغاثات تتوالى: اليهود تسلقوا السور في جبل النبي داؤد، وأخذوا يهاجمون الباب الجديد. أنقذونا. لم يبق لدينا عتاد. لا نستطيع الصمود أكثر مما صمدنا. اين الجيش العربي؟ أنقذونا من شان الله.

وبينما كان جلوب يزور قيادة الفرقة في (بيتين) يوم ١٧ ايار تلقى في الساعة ٣٠ر١١ صباحاً البرقية التالية من عمان:

يأمر جلالة الملك بالتقدم باتجاه القدس من ناحية رام الله. انه يقصد بهذه العملية ان يهدد اليهود، لعلهم يقبلون الهدنة في القدس.

وبعد نصف ساعة تلقى جلوب البرقية الأخرى التالية:

من وزير الدفاع الى جلوب باشا

جلالة الملك قلق للغاية وهو يصر على ارسال قوة من رام الله مع مدفعية لمهاجمة الأحياء اليهودية في القدس. اليهود يهاجمون بوابات المدينة القديمة لكي يدخلوا اليها. ان الهجوم على اليهود سوف يخفف الضغط على العرب وسيضطر اليهود لقبول الهدنة في القدس. القنصل البلجيكي كان هنا وفهم جلالة الملك منه ان عملاً كهذا من جانبنا ربما يدخل الرهبة في نفوس اليهود ويجعلهم أقل عناداً. جلالته ينتظر عملاً سريعاً. أخبرنا بسرعة ان العملية بدأت.

كان الملك رهن القلق الشديد، فقد كانت الساعات تمضي ولجنة الهدنة عاجزة عن ان تفعل شيئاً امام اصرار اليهود على التقدم. وبدا واضحاً أن المدافعين العرب لا يستطيعون الصمود طويلاً امام ضغط اليهود. وأخذت المخاوف تساور الملك بأن اليهود سيدخلون الى المدينة القديمة حيث الحرم الشريف وحيث المسجد الاقصى ومسجد قبة الصخرة وضريح ابيه الملك حسين.

ولم تلبث مخاوف الملك حتى تحققت عندما تمكن اليهود من الدخول الى المدينة من باب النبي داؤد واتصلوا بالحي اليهودي. لقد نفذ جنود البالماخ هذه العملية. كان اليهود يقاتلون الان في كل مكان ويستعملون مدافع الهاون والسيارات المصفحة بالاضافة الى الأسلحة الصغيرة. وتطور القتال الى معركة واسعة النطاق. وبدا ان امكانات عقد الهدنة أصبحت بعيدة، كما ان عزائم المدافعين العرب أخذت تضعف وتتراخى.

كان الملك والوزراء وجميع أبناء الاردن يرون انه لا مفر من تدخل الجيش العربي في القدس، وانهم لا يستطيعون الانتظار تعلقاً بأمل عقد الهدنة، وهو أمل كان استمرار هجمات العدو يؤكد بطلانه. كانت الكارثة تبدو واضحة أمام الجميع. وكان جلوب هو الوحيد الذي أصر في خلال الأيام الثلاثة الماضية على الانتظار. ولكن جلوب لم يكن يستطيع الوقوف أكثر مما وقف في وجه الملك والوزراء والرأي العام. بل لم يكن يستطيع ان يحتفظ بولاء جيشه طويلاً اذا استمر على موقفه، لأن أفراد الجيش أعلنوا مشاعرهم بصراحة: بعضهم أضرب عن الطعام وبعضهم أخذ سلاحه معه ومضى الى صفوف المناضلين وبعضهم صارح جلوب وجهاً لوجه. لم يعد اولئك الجنود يطيقون البقاء ساكتين بينما يحرز العدو مزيداً من التقدم ساعة بعد أخرى. واليهود أنفسهم كانوا يحطمون أمل جلوب بعقد الهدنة، وكان استمرارهم في العمليات العسكرية يبرهن على صحة رأي القائلين بأنه لا يجوز للجيش الأردني ان يبقى بعيداً عن المعركة. وكان جلوب يعرف ان طريق باب الواد كانت مفتوحة، وأن اليهود يرسلون الأسلحة والامدادات من الساحل الى القدس، وأن التعزيزات التي تصل الى القدس لن تلبث أن تجعل قوة اليهود كبيرة الى الحد الذي يمكنهم من الاستيلاء على ما بقي من القدس بأيدي العرب، ثم التقدم نحو أريحا ونهر الأردن، وقطع الطريق من الخلف على قوات الجيش في رام الله ونابلس. ولكنه مع ذلك كان يرى انه واقع بين أمرين – أحلاهما مر – فاما أن يبقى الجيش في مواقعه التي اتخذها مساء يوم ١٥ ايار في مواقف دفاعية عن قطاعي نابلس ورام الله، وبذلك تكون المجازفة باحتمال ضياع القدس، واما ان يتحرك الجيش لانقاذ القدس، وبذلك تكون المجازفة باحتمال ضياع القطاعين. ومن هنا قوله «ان وجود اليهود في القدس جعل منها مفتاحاً للوضع العسكري». بل ان جلوب نفسه لم يلبث ان أدرك ان نظريته العسكرية – القائمة على ان الجيش لا يستطيع في آن واحد أن يدافع عن قطاعي نابلس ورام الله ويحارب في القدس،

أخذت تتهاوى تحت وطأة تقدم اليهود في القدس، وهو التقدم الذي كان يحمل في طياته ليس وضع الجيش العربي في موقف صعب فحسب، بل امكان اخراج ذلك الجيش كله من ميدان القتال والقضاء عليه.

ضاعت ايام ثمينة على الجيش العربي. ثلاثة أيام او أربعة ذات أهمية بالغة في حساب الأحداث. ضاعت هذه الأيام لان رئيس أركان حرب الجيش العربي أخطأ خطأ عظيماً في تقدير نيات العدو ومقاصده، وكان تقديره لقوة العدو اكثر بكثير من الواقع. كان من المتوقع ان يكون أكثر اقداماً، وأن يحسب حساباً الى ان اليهود كانوا مضطرين الى توزيع قواتهم على الجبهات الأخرى - على الأقل لمواجهة تقدم الجيش المصري. مع العلم بأن القوات اليهودية كانت متفوقة على الجيوش العربية، وبأن تلك القوات لم تكن تقوم بأية عمليات هجومية كبيرة في تلك الأيام الحرجة الا في قطاع القدس، وبأن القوات العراقية والسورية واللبنانية لم تستطع ان تجتذب نحوها الا القوات اليهودية المحلية المواجهة لقطاعاتها. ومع التسليم بأن جلوب - مثله مثل كثيرين من قادة الجيوش - لم يكن يريد ان يجازف بجيشه الصغير، ويلقي به في أتون معركة هجومية قد لا يتاح له الخروج منها بسلام. ومع التسليم بأن جلوب كان يعرف ان الجيش يستطيع ان يقوم بدور دفاعي على جبهة محدودة، أكثر مما يستطيع ان يقوم بدور هجومي ضد قوات متفوقة... مع التسليم بكل هذا، فان من الصعب التسليم والقبول بتلك الخطة المبالغة في الحذر التي سار عليها جلوب في الأيام الثلاثة او الأربعة الاولى، والتي أضطر أن يبدلها تحت ضغط عمليات العدو. ومن هذا نرى ان عمليات الجيش العربي في القدس، والتقدم الى الخط الأمامي في اللطرون وباب الواد، كان في أساسه رد فعل على حركات العدو، وليس عملاً من أعمال المبادرة.

الفريق جلوب نفسه يقول «بدا أن المسؤولية كلها تقع على عاتقي وحدي. لقد عارضت الملك والحكومة لمدة ٤٨ ساعة، على أمل عقد الهدنة. واذا ما سقطت المدينة القديمة فسوف نفقد كل شيء. يجب الاقدام على عمل ما يحول دون ذلك». ولكن مهما قال الفريق جلوب، فان المحور الأساسي الذي كان يرتكز كل فكره عليه في أيام ١٥ - ١٧ ايار، هو ابقاء قواته ضمن القسم العربي من قرار التقسيم، وتفادي الاشتباك مع العدو. ولكن العدو نفسه أفسد ذلك الحلم الذي كان يداعبه. وهكذا نراه - بعد ضياع ثلاثة أيام ثمينة - يدرك

ان اليهود يريدون الاستيلاء على القدس كلها، ولا يريدون ان يقبعوا وراء الخط الذي عينه لهم قرار التقسيم.

وفي مواجهة الوضع المتفاقم اتخذ رئيس الأركان الخطوات الأولية التالية:

١ - أرسل يوم ١٧ ايار سرية من الكتيبة الرابعة الى اللطرون لمنع اليهود من استعمال طريق باب الواد. وفي اليوم التالي تحركت الكتيبة الرابعة كلها الى تلك المواقع.

٢ - أمر بالتقدم من رام الله نحو القدس فتمت السيطرة على عطاروت وقلندية والنبي يعقوب. كما وُضع مدفعان عيار ٢٥ رطلا في موقع يستطيعان فيه قصف مواقع العدو في القدس.

٣ - يوم ١٧ أيار تحركت سرية الأمن الاولى من الخان الأحمر الى جبل الزيتون. وفي الصباح الباكر من يوم ١٨ أيار دخلت السرية الى القدس القديمة.

وأعاد الفريق جلوب تقدير موقف الجيش العربي من جديد. وبدا له ان سرية واحدة لا تستطيع ايقاف زحف قوات اليهود المتفوقة في القدس، وان هؤلاء لن يلبثوا ان يهاجموا جبل الزيتون من مواقعهم في حي الشيخ جرّاح ومن هداسا، ولن يلبثوا أن يقطعوا طريق القدس - اريحا، ويطوقوا المدينة القديمة من جميع الجهات.

كانت كتائب الجيش العربي تقوم كلها بواجبات ضرورية، واذا حرك ايا منها « فلن يكون بمقدورنا الدفاع عن حدود خط التقسيم في المواقع الأخرى». الكتيبة الرابعة كانت قد تمركزت يوم ١٨ ايار في اللطرون، وكانت الكتيبة الأولى تشتبك مع قوة يهودية في قلقيلية.

لم يبق امام القائد سوى الكتيبتين الثانية (التي كانت تقف في مواجهة اليهود في جبل الرادار وتعدّ العدة لمهاجمته والاستيلاء عليه)، والكتيبة الثالثة التي كانت قوة الاحتياط الضرورية للكتائب الأخرى.

وفكر جلوب بأن رجال الجيش سيضيعون في مدينة كبيرة تضم مائة الف يهودي. انهم بدو وقرويون، وبعضهم لم يدخل في حياته مدينة كبيرة، بينما كان اليهود يعرفون كل حجر في القدس. واذا دفع جنوده الى المدينة فسوف تلحق بهم خسائر كبيرة، وهي خسائر لا يمكن تعويضها بسبب عدم وجود الاحتياط. ولكن على الرغم من كل شيء فلا مفرّ من

دخول الجيش الى المدينة من جهة الشمال، واسترداد حي الشيخ جرّاح، والحيلولة دون استيلاء اليهود على المدينة كلها.

توصل جلوب الى هذه النتيجة مساء يوم ١٨ أيار وهو في طريقه من بيتين الى عمان. لقد ساد عنده الاقتناع التام بأنه لم يعد هناك أي أمل بعقد هدنة في القدس وبأنه لا بدّ للجيش العربي من التدخل لانقاذ المدينة (او ما بقي منها للعرب) من السقوط.

وحال وصوله الى عمان كتب برقية الى قيادة الفرقة يقول فيها « لقد قررت ان نتدخل بقوة في القدس». وتضمنت البرقية أوامره الى قيادة الفرقة بأن تعدّ العدة لمهاجمة الشيخ جراح في فجر اليوم التالي، وان تتقدم من هناك لتأمين الاتصال مع المدينة القديمة، وبأن تدخل السرية الثامنة الى القدس القديمة لتعزيز سرية الأمن الأولى.

لقد قضي الأمر الذي فيه تستفتيان. وأضطر الفريق جلوب ان يزج بالجيش العربي في حرب حاول جاهداً ان يتفاداها. كان في أعماقه يتمنى لو ان اليهود اكتفوا بالوقوف عند خطوط التقسيم، وبما أحرزوا من نجاح حتى ذلك الحين، حتى لا يدفع بالقوات التي يقودها الى أتون الحرب. ولكن اليهود قلبوا حساباته رأساً على عقب، ولم يمكنوه من تنفيذ خطته التي سعى اليها. وحتى بعد ان اتخذ القرار بالتدخل في القدس، نراه يقول:

«العملية التي أمرت بها لم تكن سليمة من ناحية عسكرية محضة. كانت كتائبنا الأربع منتشرة في منطقة تزيد على الفي ميل مربع. ولو أردنا مهاجمة القدس بالقوة الضرورية، التي تتطلبها المهمة، لكان علينا ان ندفع كل قواتنا لخوض ذلك الهجوم، وهذا معناه التخلي عن بقية فلسطين».

ومهما يكن من أمر فان قوات الجيش العربي بدأت سلسلة من العمليات العسكرية اعتباراً من يوم ١٨ ايار.

وعلينا الان ان نرافق تلك القوات في المعارك التالية:

١ – معركة القدس القديمة.

٢ – معركة حي الشيخ جراح.

٣ – معارك اللطرون وباب الواد.

* * *

تلقي الوثائق البريطانية أضواء على ما حدث في تلك الأيام العصيبة. ففي ١٧ أيار كتب كركبرايد الى وزارة خارجيته يقول:

١ – تسلمت رسالة من الملك عبدالله يقول فيها باختصار انه يدرك واجباته القومية والدينية تجاه فلسطين عامة وتجاه القدس بصورة خاصة، وانه سوف يتجنب – في حدود الامكان – اية عملية تجر المتاعب على بريطانيا. ثم يعرب عن أمله بأن الأردن وبريطانيا سوف يخرجان من الأزمة الراهنة بعلاقات صداقة أشد متانة. وهو يأمل ان تذكروا وقفة الأردن الى جانب بريطانيا في أيام الحرب.

٢ – النقطة المهمة في هذه الرسالة اشارة الملك الى فلسطين بأجمعها والى القدس. انه يدرك انه شرع الان في عملية يمكن ان تؤدي به الى أبعد من المخطط الأساسي، الا وهو ان تحتل قواته بعض المناطق العربية من فلسطين. وأعتقد انه يهدف الى الحصول من الحكومة البريطانية على تصريح يحمل معنى المعاضدة او الموافقة على الأقل.

٣ – أقترح الاجابة بابداء الامتنان على تأكيده بتجنب اثارة المشاكل لبريطانيا، وانه لا مجال لنسيان ولاء الأردن في اثناء الحرب الأخيرة. ويحسن أن نضيف: إن أي تباعد عن الخطة الأصلية ستكون نتيجته ان تعيد الحكومة البريطانية النظر في موقفها.

وردّت وزارة الخارجية بالموافقة على اقتراحات كركبرايد، ولكنها طلبت منه ان يؤكد على الملك عبدالله «ان هجوماً شاملاً يقوم به الجيش العربي على القدس، سيخلق وضعاً تنتج عنه أعظم المشاكل لنا ولعلاقتنا مع الأردن».

وفي ١٩ أيار أرسل كركبرايد الى وزارة الخارجية البرقية التالية:

١ – إن ضغط الرأي العام في شرقي الأردن وفلسطين، بالاضافة الى هجوم اليهود على أحياء القدس العربية وعلى منطقة الجليل العربية – أرغم الجيش العربي على التحرك بأسرع مما كان مقصوداً في البداية. والحقيقة ان الجيش يواجه الان هجوم اليهود في خارج المناطق المخصصة للدولة اليهودية.

٢ – قام جلوب بزيارة وحدات الجيش العربي في نابلس ورام الله يومي الاثنين والثلاثاء (١٧و١٨ ايار) وكان هدفه الرئيسي ان يفلت من الحاح الملك ورئيس الوزراء عليه بأن يبدأ العمليات العسكرية في الحال. وفي فلسطين وجد جلوب وحدات عسكرية

في حالة غضب شديد لانها لم تشتبك مع العدو (غادروا عمان قبل ٧٢ ساعة فقط)، حتى انه شعر أن الجنود يمكن ان يخرجوا على الطاعة اذا هو أبقاهم مدة اطول في حالة ركود.

٣ – ويقال الان في شرقي الأردن وفلسطين ان الجيش العربي ليس سوى أداة في يد الانكليز وغايته فرض التقسيم. **ويوم امس سألني رئيس الوزراء عما اذا كنت اعطي تعليمات لجلوب كي يتجنب الاصطدام مع اليهود، ام ان جلوب يفعل ذلك على مسؤوليته.** أجبت على هذا القول بما يناسب. ثم قلت ان السرعة الهستيرية التي يعمل بها العرب ربما تنتهي بكارثة، إلا اذا استعمل أحد الناس عقله. تراجع رئيس الوزراء، ولكن اتضح ان خطأً ثابتاً يجب السير عليه في الحال.

٤ – كان أمام جلوب ان يختار الهجوم على مناطق أمامية تؤدي به الى منطقة يهودية، أو أن يعمل على انقاذ المناطق العربية في القدس. اختار القدس وهو على حق في ذلك. ان انقاذ الأماكن المقدسة سيعطي الأردن مكانة مرموقة في أنظار العرب، ويجنبه الاتهام بانه يهاجم مناطق يهودية – مع ان أعمال العدوان التي يقوم بها اليهود ضد المناطق العربية ليست قليلة. (٢)

في هذه المراسلات كثير مما يمكن مناقشته، ولكنها على العموم تعطينا برهاناً واضحاً على ان بريطانيا لم تعمل شيئا لمصلحة العرب (كما يتهمها اليهود). بل على العكس فعلت كل ما كان بوسعها لمنع الجيش الأردني من الاشتباك مع اليهود في الأيام الأولى.

فمن يلوم العرب اذا شعروا ان عالم الغرب وقف كله ضدهم في تلك الحرب؟

معركة القدس القديمة (المرحلة الأولى)

عندما تألفت الكتيبة السادسة يوم ١٠ أيار لم يكن لدى قائدها و.ق. عبدالله التل سوى سريتين هما:

– سرية الأمن الاولى بقيادة الرئيس محمود الموسى
– سرية المشاة الثامنة بقيادة الرئيس عبدالرزاق عبدالله

وكانت سرية الأمن الأولى قد بقيت في حيفا حتى يوم ١٠ أيار عندما غادرت تلك

المدينة الى نابلس، ثم وصلت الى الشونة في اليوم التالي. وبعد وصول السرية بيوم تحركت فئتان منها الى منطقة الخليل للاشتراك في الهجوم على مستعمرة كفار عصيون. وعادت االفئتان الى الشونة مساء يوم ١٣ أيار بعد الاستيلاء على المستعمرة. وفي صباح اليوم التالي تحركت السرية من الشونة. وعسكرت في موضع الخان الأحمر على بعد ١٧ كيلو متراً من القدس. اما السرية الثامنة فكانت قد انتقلت ايضاً من حيفا في شباط ١٩٤٨ وعسكرت في الشونة الجنوبية، ومن هناك أخذت مفارزها تقوم بمرافقة القوافل التي تنقل العتاد من حيفا ووادي الصرار، لحراستها. وفي اول ايار انتقلت السرية الى اريحا ثم تحركت يوم ١٥ ايار الى موقع الخان الأحمر. وكان واجب السريتين ان تحافظا على سلامة الطريق بين القدس واريحا. وقد باشرت السريتان بحفر الخنادق الدفاعية وارسال الدوريات. في يوم ١٥ ايار جاء الفريق جلوب الى سرية الأمن الأولى وسأل قائدها: هل فكرت بطريقة للانسحاب فيما اذا هوجمت؟ واستغرب قائد السرية هذا السؤال، فأجاب قائلاً: نعم فكرت بذلك يا سيدي ولكننا نتجه الان الى الأمام.

ظهر يوم الأثنين ١٧ أيار اتصل الملك عبدالله هاتفياً بعبدالله التل قائد الكتيبة السادسة وأمره بارسال احدى سراياه الى القدس (لا بد ان يكون الاتصال قد حدث بعد ان اتخذ مجلس الوزراء الأردني قراره بتحريك الجيش الى القدس). بعد قليل عاد الملك للاتصال مرة أخرى، وأمر التل بأن يتحرك مع السريتين الى القدس.

وفي مساء ذلك اليوم تحركت سرية الأمن الاولى باتجاه الغرب، واتخذت مراكز لها في الطور على جبل الزيتون.

لم يكد قائد السرية ينال قسطاً من الراحة حتى أيقظه أحد الجنود لأمر مهم. كان هناك عثمان بدران قائد سرية الحسين من المناضلين في الطور ومعه جمال الصوفي (مساعد قائد قوة جيش الانقاذ في القدس) وصالح العلمي من أهل القدس. عند رؤيته لهم بادروه قائلين: لقد اخترق اليهود باب النبي داؤد واتصلوا بالحي اليهودي في داخل المدينة القديمة. ونحن نخشى ان تسقط المدينة القديمة كلها اذا لم تبادروا الى انجادنا. وفي اثناء وجود هؤلاء في قيادة السرية اتصل عبدالله التل بقائد السرية وقال له:

جاء وفد من أهل القدس الى عمان وأبلغ الملك عبدالله ان المدينة تكاد تسقط بأيدي اليهود. عليك ان ترسل نجدة من جنودك في الحال الى المدينة.

كان من نصيب سرية الأمن الأولى أن يكون لها شرف الدخول الى القدس في طليعة القوات الأردنية.

وكانت الساعة عندئذ تشير الى الواحدة من صباح يوم الثلاثاء ١٨ أيار.

لم يمض سوى وقت قصير حتى كانت فئتان من جنود السرية قد تأهبتا للحركة، ففي أيام الحرب يخلد الجنود الى النوم بلباس الميدان. وأخذ جنود الفئتين ينحدرون من أعلى جبل الزيتون، ويمرون الى جانب كنيسة الجسمانية، ثم من وادي قدرون الصغير قريباً من مقام السيدة مريم، ثم عبروا من باب الأسباط الى داخل المدينة القديمة، بينما كانت الساعة تشير الى الثالثة صباحاً.

كانت الفئة الأولى بقيادة الملازم الأول نواف الجبر الحمود والفئة الثانية بقيادة الملازم الثاني مصطفى ابراهيم الشوبكي، ومعهما دليلان من أهل القدس أحدهما صالح العلمي والثاني داؤد ابوالهوى، ولم يكن عدد رجال الفئتين يزيد على خمسين.

عندما وصل الجنود الى مدرسة الروضة، مضى الملازم الحمود ليبلغ الرئيس فاضل عبدالله رشيد قائد قوة جيش الانقاذ في القدس انه جاء للاشتراك في القتال ومعه فئتان. ورد فاضل بلهجته العراقية قائلاً:

- بابا.. ويش تعمل الفئة والفئتين. اليهود يبغون دخول المدينة واحتلالها.

قال الحمود: انني مع جنودي مستعدون للدفاع عن المنطقة الضعيفة التي تعينونها.

قال فاضل مقاطعا: ماكو فايدة.

كانت خلاصة أقواله: ان اليهود سيقومون بهجوم كاسح، وان المسألة مسألة قوة، وان الوضع يكاد يكون ميئوساً منه.

وأخيراً قال فاضل: اذهبوا الى الباب الجديد وامنعوا اليهود من الدخول منه.

ومضت المجموعة بين الشوارع الضيقة حتى وصلت الى الباب الجديد، ومن هناك انتقل بعض أفرادها الى مبنى (النوتردام) الذي كانت ترابط فيه مجموعة من المناضلين. كان هناك اطلاق نار كثيف من قبل العدو، فاشترك الجنود الأردنيون في الرد عليه (٣)

وبينما كان جنود الفئتين يتبادلون اطلاق النار مع العدو من فوق الباب الجديد ومن النوتردام، تلقى فاضل رشيد نبأ اختراق اليهود لباب النبي داؤد، واتصالهم بالحي اليهودي القديم. عندئذ بادر فبعث رسالة مستعجلة الى قائدي الفئتين جاء فيها:

اخترق اليهود باب النبي داؤد. اذا لم تسارعوا لانقاذ الوضع، فان العدو سيحتل الحرم والقدس كلها.

كانت الشمس قد أشرقت عندما تلقى الملازمان الحمود والشوبكي، رسالة فاضل رشيد، فأسرعا لسحب الجنود الذين كانوا في النوتردام، وأخذوا يعدّون أنفسهم للانتقال من الباب الجديد الى باب النبي داؤد.

فيما بين الساعة الخامسة والسادسة صباحاً دخلت بقية فئات السرية الى القدس. ومضى الرئيس محمود الموسى الى الروضة حيث كان فاضل وضباطه يتناولون الافطار. دعوه فأقبل على الطعام. كان قد قضى الأيام الأربعة الأخيرة وهو ينام بحذائه ولا يزيد طعامه وطعام جنوده عن الخبز الجاف. وسأل عن الوضع في المدينة، فقال فاضل: بعد ساعات ستسقط القدس.

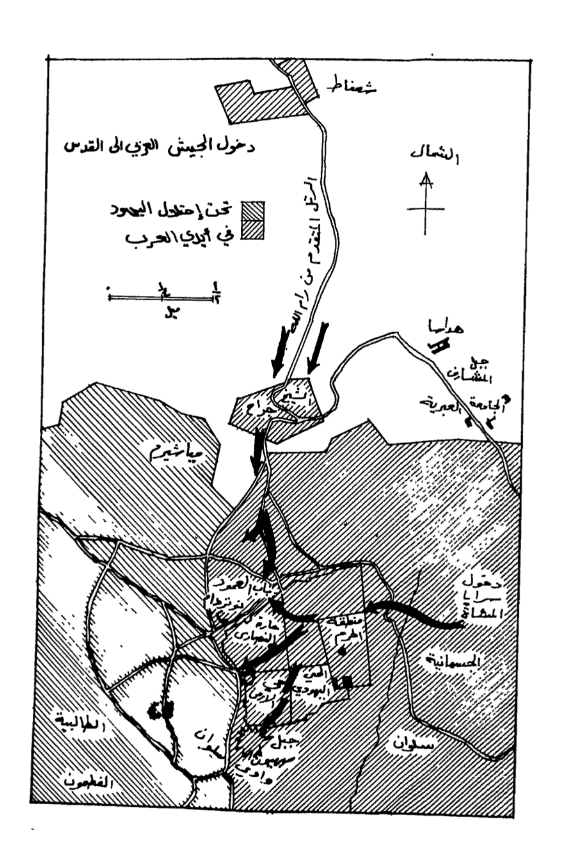
- لماذا؟
- سقط باب النبي داؤد بيد اليهود وقد استولوا على دير الأرمن وهم الان يدخلون بقوات كبيرة الى الحي اليهودي. (٤).
- كم عددكم؟
- سبعمائة (جنود جيش الانقاذ).
- أية مساعدة يمكن أن تقدموها لي اذا قمت بالهجوم على الباب؟
- لا تنتظر منا أية مساعدة.

وقال جمال الصوفي: اعتمد على نفسك فقط. لان رجالنا منهكون ولم يعد في مقدورنا بذل أي جهد.

لم يبق هناك مجال لمزيد من القول.

لاحظ الرئيس محمود الموسى مدى التخبط الذي كان يسيطر على ذهن فاضل رشيد، اذ طلب اولاً حماية الباب الجديد، ثم طلب ثانياً مواجهة الاختراق اليهودي لباب النبي داؤد. وكان على الرئيس الموسى ان يواجه الخطر بكامل قوته التي لم يكن عدد أفرادها يزيد على مائة وخمسين رجلا. لم تكن عنده فكرة واضحة عما كان يجري في قطاعات القدس الأخرى.

وهكذا أرسل يستدعي القوة الأولى التي كانت عند الباب الجديد. ولم يلبث ان جمع


شعفاط
دخول الجيش العربي الى القدس
الشمال
الخط المتقدم من رام الله
تحت إحتلال اليهود
في أيدي العرب
ميل
هداسا
جبل
المشارف
الجامعة العبرية
الشيخ
جراح
مياشيرم
باب العمود
نوتردام
حارة
النصارى
منطقة
الحرم
دخول
سرايا
المشاة
الجسمانية
الحي
اليهودي
حي
الأرمن
جبل
صهيون
وادي
سلوان
الطالبية
القطمون

جنوده كلهم أمام مستشفى الهوسبيس، حتى يتمكن من الاشتباك مع الأعداء بكل ما لديه من قوة. كان اختراق اليهود لأحد أبواب المدينة القديمة واتصالهم مع الحي اليهودي، ينذر بالخطر الداهم على المدينة كلها وعلى العرب فيها. لذلك كانت المهمة العاجلة القيام بهجوم معاكس واسترداد الباب وفصل اليهود في خارج السور عن اليهود في داخل السور.

في الساعة العاشرة من صباح يوم ١٨ ايار، مضى الرئيس الموسى مع حضيرة من جنوده لاكتشاف الوضع. وعلى الرغم من انه كان قد خدم في القدس سنة ١٩٤٦ ويعرف أزقتها ودروبها، الا انه اصطحب معه دليلاً من المدينة هو علي الحسيني (من الجهاد المقدس). ومضى الى دير الارمن الملاصق لباب النبي داؤد. كانت الطريق الرئيسية التي تصل بين القلعة والباب مغلقة بفعل النار التي كان العدو يطلقها من جرسية الدير الألماني على قمة جبل النبي داؤد خارج السور. أخذ يبحث عن طريق مأمونة لجنوده، فلاحظ شباكاً في الطابق الثاني من دير الأرمن. ذهب الحسيني الى دار مجاورة وجاء منها بسلم، وتسلق اثنان من الجنود السلم ومع كل واحد منهما بندقية سريعة الطلقات.

كان فاضل رشيد قد أبلغ الرئيس الموسى ان اليهود استولوا على دير الأرمن، ولكن لم يلبث ان تبين ان هذا غير صحيح. كان سكان الدير قد أغلقوا البوابة الحديدية المنيعة على أنفسهم.

سارع الجندي ضيف الله الروسان الى تكسير زجاج النافذة، ودخل هو ورفيقه فوجدا نفسيهما في مطبخ، وكان هناك راهبان يطبخان الطعام فلم يشعرا الا والجنديان فوق رأسيهما. وارتقى السلم ستة جنود آخرين، ولم يلبث هؤلاء ان فتحوا البوابة الحديدية، فدخلت السرية كلها الى الدير، وما هو الا وقت قصير حتى تركزت فئة في برج الدير بقيادة الملازم الحمود، وتركز قسم في المدرسة وقسم في المؤخرة.

لم يلبث قائد السرية ان مضى يستكشف مواقع العدو، والتقى شابا ملثما (عرف فيما بعد انه فوزي القطب قائد مفرزة التدمير) فسأله عن أقرب مكان يتمركز فيه العدو. أشار الى موقع يبعد نحو ١٠٠ متر، ثم اشار الى موقع آخر. كان جنود العدو يتمركزون في البرج فوق الباب وراء أكياس الرمل. واقترب جنود الحضيرة التي كانت ترافق القائد حتى أصبحوا على بعد ٣٠ متراً من الباب. وفجأة فتحوا النار على جنود العدو ببنادقهم وبمدفع البيات الصاروخي. كانت المفاجأة تامة وتقدم بعض الجنود تحت غطاء النار، فسارع

اليهود الى الفرار من البرج ومن الباب دون اية مقاومة. لم يكن هناك قتلى من الطرفين. ولم تستغرق العملية سوى دقائق معدودة. وقبيل ظهر ذلك اليوم كانت حضيرة من الجنود الأردنيين (نحو ثمانية) قد تمركزت في البرج فوق باب النبي داؤد. ونجحت السرية في قطع الاتصال بين اليهود في خارج السور والحي اليهودي في داخله.

بعد ان تمت السيطرة على باب النبي داؤد، أراد قائد السرية ان يتعرّف على قوة العدو. مضىُ ومعه حضيرة من الجنود الى حي المغاربة الملاصق للحي اليهودي وسور الحرم الغربي. دله فوزي القطب على مواقع العدو، وحذره من ان يصيبوه برصاص بنادقهم اذا اقترب منهم. واقترب قائد السرية ومعه جندي يحمل مدفعاً صاروخياً (بيات) ووقف الى جانب جدار متهدم. أخذ الجندي يرمي على الأهداف بقصد التعرّفِ على قوة نار العدو. بعد ان أطلق الجندي القذيفة التاسعة من المدفع أصيب هو بطلقة. كان من حسن حظه انها أصابت اولا ساعة جيب على صدره. تلك الساعة أفسدت قوة الطلقة وأنقذت حياة الجندي. كانت أصابته بسيطة.

واشتد تبادل اطلاق النار بين أفراد العدو وأفراد الحضيرة. عندئذ أصيب الرئيس الموسى في جانب ساقه فلم يلبث ان انسحب هو وجنود الحضيرة الى داخل سور الحرم. وتطوع رجل ضخم فساعده على الذهاب الى مستشفى الهوسبيس حيث ضمد جرحه، ثم عاد به. ثارت في نفسه رغبة قوية في ان يقتص من جنود الموقع الذي جاءت منه الطلقة (كنيس الحلبية)، فدخل من فوهة أحدثتها الحرب في أحد الجدران، ولحق به النائب أنور محمد والجندي أحمد محمود وصالح العلمي. سار بخفة وحذر حتى أطل من نافذة الكنيس فرأى جنود العدو وهم يتحدثون بأصوات مرتفعة ويشربون الشاي. ودحرج قنبلة يدوية بين قضبان النافذة، ثم أتبعها بقنابل ثلاث أخرى. ثارت القنابل الأربع وكان لها دوي شديد. أطل أحد جنود العدو من فوق وقذف قنبلة من صنع محلي، فأصابت احدى شظاياها كتف القائد بجرح بسيط.

انسحب الرئيس الموسى وجنوده للمرة الثانية وعادوا الى دير الأرمن. هناك شعر بالألم فأوكل قيادة السرية للملازم الحمود وعاد هو الى مركز السرية الخلفي في الطور. أصابته قشعريرة وفي اليوم التالي تبين ان ذراعه اليمنى أصيبت في موضعين. ولكن الاصابة لم تكن بليغة ولم تعقه عن الاستمرار في القتال.

كان الجنود مرهقين الى أقصى حد بسبب الجهد الذي بذلوه طوال النهار، ولقلة ما أصابوا من النوم في الليلة السابقة. وأصر رهبان الدير أن يقدموا وجبة العشاء لأفراد السرية كلها، قياما بواجب الضيافة واعراباً عن الترحيب. كان الأرمن قد تضايقوا كثيراً من اليهود. وساد الهدوء بعد غروب الشمس، فأخلد البعض الى النوم وبقي البعض مستقيظاً للرقابة.

ومضت بضع ساعات. وعلى حين غرة تحطم سكون الليل بفعل اطلاق نار كثيف. كان العدو يشن هجوماً جديداً للاستيلاء على الباب والاتصال بالحي اليهودي. حدث ذلك بعد منتصف الليل بقليل. ونشبت المعركة على أشد ما تكون. بدأ العدو الهجوم من خارج الأسوار، ومن داخل الحي اليهودي. واستعمل اليهود راجمات الألغام، ولكن أياً من الألغام التي أطلقوها لم ينفجر. في الساعة الواحدة والنصف تمكن جنود العدو من فتح ثغرات في الباب الضخم بواسطة الأوكسجين، فتراجع الجنود الأردنيون عن الباب. تدفق جنود العدو والتفوا نحو الدير وهم يصرخون (قاديما...قاديما). واشتد اطلاق النار على جنود السرية من ثلاث جهات، ولم يبق تحت سيطرتهم سوى جانبين من جوانب الدير. وأخذت القنابل اليدوية تتساقط على ساحة الدير المبلطة بالحجارة، فيكاد دوي انفجاراتها يصم الأذان. بعض الجنود استعملوا نوعين أو ثلاثة أنواع من الأسلحة. لم يكن أمامهم الا الثبات والاستبسال وهم في مواقعهم في الطوابق الثلاثة للمدرسة. حتى الانسحاب كان عسيرا، لو فكروا فيه. ووصل جنود العدو الى باب المدرسة الشمالي الشرقي وهم يحملون لغما كبيرا يريدون نسف المدرسة بواسطته.

وأطلق الجنود نيران أسلحتهم فانفجر اللغم بن أيدي جنود العدو. في أثناء ذلك حدث بعض الارتباك وخطر على بال أحد الضباط انه لا بد من الانسحاب، وأعطى اشارة للجنود المرابطين في الطابق الأعلى بالنزول. عرف الملازم الحمود بذلك فاعترض بشدة. قال يخاطب الذين كانوا حوله: لن ننسحب من هنا. علينا أن نثبت في مراكزنا فاما الموت والشهادة واما الحياة والنصر. كانت تلك لحظة من لحظات التاريخ. كان الجندي عبدالكريم مسلّم يحمل مدفع هاون والى جانبه جندي يحمل القنابل. جاء اليه الحمود وأخذ منه المدفع وطلب اليه ان يقوم بتعبئة القذائف. ووجه فوهة المدفع نحو الأعداء الذين كانوا يطلقون نيران أسلحتهم من جرسية الدير الألماني على قمة جبل النبي داود. بعد أن أطلق نحو

عشرين قذيفة انفجرت بالقرب منهما قنبلة، ولاحظ ان الجندي عبدالكريم أصيب بشظية، فأصر عليه ان يعود الى الخلف، لتضميد الجرح. وفي الطابق الثاني من المدرسة شاهد الجنود ممرضة يهودية متقدمة في السن وقد سقطت قتيلة والى جانبها حقيبة الاسعاف. في بعض المواقع لم تكن المسافة بين جنود الطرفين أكثر من أربعة أمتار. كان الأرمن يساعدون في أعمال المراقبة. وسقطت قنبلة يدوية أمام النائب انور محمد فأزاحها بقدمه، وانفجرت بعد لحظة فأصابت ذراعه اليمنى وكسرتها. وقاربت الذخيرة على الانتهاء. ولم تكن هناك وسيلة للاتصال مع مؤخرة السرية فذهب نائب العهدة عبدالحميد جويحان تحت النار ومعه دليل من رجال الشرطة وأحضر ذخيرة مكنت السرية من الصمود في مواقعها حتى اندحر العدو. كان اليهود يهاجمون من ثلاث جهات: من الجهة الجنوبية من خارج السور، ومن الشرق من حارة اليهود، ومن الجهة الشمالية حيث أرسلوا مفرزة تدمير. في الطابق الثالث من المدرسة كان الجندي سلامة المصاروة (الكرك) يحمل رشاش برن فشعر بحركة في ملعب المدرسة بين السور ومبنى الدير. وسلط نيران رشاشته فأوقع بأفراد العدو اصابات مباشرة وظل يلاحقهم بنيران رشاشته حتى أُضطر من بقي منهم الى الفرار. كان ذلك الجندي المقدام يجهل انه سيلاقي حتفه في اليوم التالي. لم يستطع اليهود ان يتمركزوا في أي موقع بسبب شدة الدفاع. وظل القتال مستمراً حتى الساعة السابعة عندما هدأ نوعاً ما بعيد شروق الشمس. بقي اليهود في مواقعهم في باب النبي داؤد وبقيت القوة الأردنية تسيطر على الدير. لم يستطع الهجوم اليهودي الكثيف ان يزحزح تلك القوة عن مواقعها، على الرغم من تفوق المهاجمين بالعدد والعدة. وكان الفضل الأكبر في تلك الليلة للملازم نواف الجبر الحمود قائد السرية بالوكالة، الذي أعطى مثالاً عظيماً لجنوده ومنحهم ثقة وشجاعة فوق ثقتهم وشجاعتهم، هذا على الرغم من ان جراحه التي أصيب بها في كفار عصيون لم تكن قد شفيت بعد. ولولا اصراره على الثبات في مدرسة الدير لتطور الوضع في داخل الأسوار بصورة لا تحمد عقباها.

عاد قائد السرية الى الدير بعد ان ضمد الطبيب في مستشفى الهوسبيس جراحه (في رجله وذراعه). كان اليهود ما يزالون يسيطرون على باب النبي داؤد وعلى البرج فوق الباب. في نحو الساعة التاسعة صباحاً أخذ الرئيس الموسى يعد رجال السرية للهجوم على

الباب. قال له الجندي عبدالرحمن: هل تظن اننا حديد لتضعنا بين نارين؟ (نار العدو من الباب ومن الحي). ضربه القائد بعصا كان يتوكأ عليها فشج رأسه وأعاده مخفوراً الى مركز السرية. ثم طلب من الملازم نواف ان يوجه نارا كثيفة الى البرج، وتحت غطاء النار تقدم هو وجنديان (أحمد فلاح الحوامدة من سوف وأسعد سليم من ناعور). كان اليهود قد جاءوا في اثناء الليل بأكياس رمل واحتموا خلفها، ولكنهم لم يصمدوا وفروا باتجاه جبل النبي داؤد. ثم تقدم الملازم الحمود مع فئة من الجنود فتمركزوا على البرج.

بقي بيد العدو البرج الشرقي الذي يبعد نحو ٢٠٠ ياردة عن البرج الذي تم احتلاله وهو يلاصق الحي اليهودي. وتقدم الرئيس الموسى نحو البرج على رأس ستة جنود، فلم يلبث ان استولى عليه. كانت شدة الهجوم والسرعة التي تم بها وراء سقوط البرجين. ومن المحتمل ان عدد المدافعين عنهما كان قليلاً. ومع سقوط البرجين سقط الباب ايضاً في أيدي جنود الجيش العربي.

أراد الرئيس الموسى ان يستغل النجاح الذي أحرزه، فتقدم في ساعات بعد الظهر على رأس عدد من الجنود نحو منازل الحي اليهودي. كانت المقاومة طفيفة في بادىء الأمر ولكنها لم تلبث ان اشتدت عند الوصول الى المستشفى على بعد ٥٠٠ متر تقريباً. الجندي عبدالكريم مسلّم اهتزت مشاعره عندما شاهد قائد السرية يتقدم الصفوف، فأخذ يزغرد. كان يرافق القائد الجندي جودت رشيد سليم، أصابته رصاصة فسقط على الأرض. وأصيب الجندي محمد النهار (ابن عم قائد السرية) فسقط. أحد رفاقه شاهد الدماء تنزف منه، ثم سقطت الى جانبه قنبلة محرقة فاشتعلت النار في قدميه. وكان هناك مناضلون في جهة الحرم أخذوا يطلقون النار دون التفريق بين عدو وصديق. وتسلق الجندي رشيد البركات الى سطح المستشفى ورفع الراية الأردنية، لتعريف المناضلين بهويتهم، ولكن في أثناء نزوله أصابته رصاصة قاتلة، فسقط على الارض. وفي خلال ذلك أصيب أربعة جنود بجراح.

في ساعات العصر تلك التحق بجنود السرية اثنان من الانكليز. كانا من المتطوعين في صفوف الجهاد المقدس، وعند اشتداد المعركة جاءا للاشتراك فيها. كان مع أحدهما رشاش (برن) ومع الثاني بندقية. وطلبا من قائد السرية ان يضم اليهما عدداً من الجنود لمهاجمة بناية في الحي اليهودي كان الرصاص ينطلق منها. ولكن قائد السرية لم يوافق

قائلاً ان نار العدو من جرسية الدير الألماني فوق جبل النبي داؤد تسيطر على تلك البناية. تشبثا برأيهما وتقدما نحو البناية، وعندئذ أمر القائد بعض الجنود ان يلحقوا بهما لاسنادهما، ولكن أولهما لم يلبث أن سقط صريعاً، وأصيب الثاني بجراح عند طرف البناية، وحاول ان يعود زاحفاً، ولكن خارت قواه. تقدم أحد الجنود وعاد به ولكن فاضت روحه بعد قليل. عندئذ قرر قائد السرية ان يوقف الهجوم. كان هناك شعور بالأسى لمقتل هذين المتطوعين. في اليوم التالي دفنا في القدس بالمراسم التي تقام لقتلى الجيش (٥).

على ان القتال لم يتوقف سوى اربع أو خمس ساعات. لم يكن من السهل على الأعداء أن يتقبلوا انفصال قواتهم في خارج السور عن قواتهم في الداخل. كان قائد السرية يتوقع ان يعيدوا الكرة فطلب من جنوده ان يتحصنوا وراء أكياس الرمل التي تركوها وراءهم.

في الساعة العاشرة ليلا بدأ الهجوم الثالث من الخارج والداخل في آن واحد. كان الهجوم شديدا استعمل فيه العدو راجمات الألغام والرشاشات. وتمكنت قوة العدو من الوصول الى الباب، ولكن جنود الجيش العربي ثبتوا وأخذوا يقذفون عليهم القنابل اليدوية من فوق السور. وتقدمت جماعة من الحي اليهودي نحو الباب. سأل أحد الجنود: من هناك. قال أحد القادمين: نحن من الجيش العربي. أدرك الجندي ابراهيم سالم انهم من الأعداء. لم يكونوا يعرفون كلمة سر الليل. وانهمر الرصاص من الجانبين. كان الملازم الحمود في قلب المعركة، ومثل لمح البصر أحس بطلقة تصيب فكه الأيمن. وتدفق الدم من وجهه. واستمر القتال محتدماً طوال الليل، **كان هناك تصميم لا يتزعزع «انهم لن يمروا».** وتراخى الهجوم مع الساعات الأولى من صباح يوم ٢٠ ايار، وانسحب جنود العدو بعد ان سحبوا قتلاهم في ظلمة الليل. ولم تفقد السرية أحداً. كان هناك جريحان فقط: الملازم الحمود، وواحد من حماة البرج البسلاء أصابته رصاصة اقتلعت عينه، وكتبت له الحياة.

في ذلك اليوم عملت السرية على اغلاق الباب الخشبي وعلى تحصين الموقع وراءه بمزيد من أكياس الرمل. لقد تحطمت هجمات العدو واحدة بعد أخرى وتمت السيطرة على الموقع، وأحكم طوق الحصار حول الحي اليهودي.

وبدأت مرحلة أخرى، مرحلة اخضاع الحي القديم الذي جعل منه اليهود قلعة منيعة.

ان قصة جهاد السرية الأولى في القدس ليست سوى نموذج على الجهاد الذي خاضته وحدات الجيش العربي التي أتيحت لها فرصة الاشتباك مع العدو. والواقع ان تلك السرية

لم تبق وحدها طويلا فـي القدس، ففي صباح يوم ١٩ أيار دخلت السرية الثامنة بقيادة الرئيس عبدالرزاق عبدالله. عند مـرور السرية بقرية العيزرية تعرضت لنار العدو من موقع النبي داؤد خارج الأسوار، فأسرعت باتجاه جبل الزيتون حيث قضت ليلة فيه. واتخذت السرية من دير الروم مركزا لها وأخذت مواقعها فيما بين باب الخليل وباب العمود، وفي القلعة وعلى الأسوار. يوم ٢١ أيار خسرت السرية مساعد قائدها الملازم جدعان مجيد (من قبيلة الرولة) وثمانية جنود وضباط صف. كانت أكثرية أفراد السرية من البدو. في عصر ذلك اليوم سقطت قنبلة علـى الموقـع الـذي كـانوا يتمركـزون فيه، فقتلتهم جميعا. وضم تراب المدينة المقدسة أجساد أولئك الشهداء من ابناء البادية. في اليوم نفسه صدر الأمر للملازم الأول تركي عبدالله بعارة (ضابط التدريب في عمان) ان يتحرك فورا الى القدس لكي يحل محل جدعان مجيد. كان الجيش العربي يعاني من النقص في الضباط في تلك الحرب.

ولم تلبث السرية السادسة بقيادة الرئيس ضرغام الفالح حتى دخلت الى القدس، وانضمت الى السرية الأولى بالقرب من باب النبي داؤد والأسوار المحيطة به، وأخذ ضباطها وأفرادها يساهمون في شرف الدفاع عن أرض الوطن.

معركة الشيخ جرّاح

عندما أتخذ القرار بأن يتقدم الجيش العربي للحيلولة دون سقوط القدس كلها بأيدي اليهود، قررت قيادة الجيش ان يكون تقدم القوات المحاربة من جانبين:

أولاً – الدخول بقوات الكتيبة السادسة الى داخل المدينة القديمة لمنع اليهود من اختراق الأسوار والتغلغل في أحيائها. وقد تحقق هذا بفضل البسالة التي أبدتها سرية الأمن الاولى.

ثانياً – اختراق الطوق الذي ضربه اليهود على ثلاث جهات من المدينة، وذلك باستعادة حي الشيخ جراح، وفتح طريق الاتصال بين المدينة القديمة وبين مدينة رام الله.

فالهجوم اليهودي لم يكن يستهدف المدينة القديمة وحدها، بل كان في الوقت نفسه يستهدف الجهة الرابعة – جهة الشرق – التي بقيت للعرب: وتتمثل في حي وادي الجوز

وجبل الطور ورأس العمود، وتضم الطريق الوحيدة الباقية أمام عرب القدس للاتصال بالخارج، الا وهي طريق القدس – أريحا. ان الاحتفاظ بالمدينة القديمة للعرب كان يقتضي في تلك الساعات الحرجة منع العدو من اختراق أسوارها، وفي الوقت ذاته كسر الكماشة المحيطة بها من الخارج ودفعها الى الوراء.

عندما تلقى الزعيم نورمان لاش، قائد الفرقة، بعد غروب شمس يوم ١٨ أيار، برقية الفريق جلوب التي أمره فيها بمهاجمة القدس من الشمال، بادر للعمل على جمع قوة عسكرية تستطيع القيام بالمهمة المطلوبة. وكانت أقرب وحدات الجيش الى القدس هي الكتيبة الثانية وسرايا الأمن المتفرقة في رام الله وحولها. وقد عمل لاش على الاتصال بالقائمقام أحمد صدقي الجندي، قائد اللواء الرابع، وبوكيل القائد سليد قائد الكتيبة الثانية، من أجل وضع ترتيبات الهجوم.

ولم يكن لدى الفرقة سوى بضع ساعات لكي تجمع القوة الضرورية للقيام بذلك الهجوم الذي سيتم البدء به قبل فجر يوم ١٩ أيار، أي بعد ٢٤ ساعة من بدء دخول السرية الأولى من جبل الزيتون الى القدس القديمة.

كانت سرية المشاة التاسعة بقيادة الرئيس سليمان مسعود قد بدأت حركة التقدم من رام الله جنوباً باتجاه القدس. فقد زحفت السرية يوم ١٥ أيار نحو مستعمرة عطاروت (المحاذية لمطار قلندية)، وكان المناضلون يطوقونها منذ أيام ولا يستطيعون اقتحامها. وعندما شاهد سكان المستعمرة اقتراب جنود الجيش العربي بادروا الى الانسحاب تحت جناح الظلام وانضموا الى رفاقهم في مستعمرة النبي يعقوب. وفي اليوم التالي تقدمت السرية نحو النبي يعقوب، فانسحب جميع من كان فيها يوم ١٧ أيار الى القدس عن طريق الشيخ جراح. ولم تواجه السرية أية مقاومة في المستعمرتين، الا أن اليهود كانوا قد زرعوا بعض الألغام قبل انسحابهم، فانفجرت عندما دخل المناضلون الى المستعمرتين وأصابت عدداً منهم.

وقد حدث عصر يوم ١٨ أيارأن قائد الفرقة أصدر أمرا بأن يقوم أحد المدافع الثقيلة برمي ثلاث قنابل على مواقع اليهود في القدس الجديدة – على سبيل التخويف – فقام و.ق. محمد المعايطة بنقل مدفع الى جبل النبي صموئيل المشرف على المدينة، ومن هناك أشرف على اطلاق ثماني قنابل. ولم يلبث ان فوجيء بالضابط البريطاني الكابتن بولك يصل الى الموقع ويدير فوهة المدفع جانباً ويقول بانفعال: عندما تكون عندكم مدافع

وذخيرة، فانكم تستطيعون أن تضربوا على هواكم!!.

كانت الكتيبة الثانية أقرب الكتائب المسلحة الى مدينة القدس، اذ كانت الكتيبة الرابعة قد تحركت في اليوم السابق الى اللطرون، وكانت الكتيبتان الأولى والثالثة تتمركزان في لواء نابلس. ولم يكن من المعقول دفع سرية مشاة أو سريتين لاختراق أحياء القدس. بل كان لا بد من جمع قوة كافية من الكتائب المدربة على فنون القتال ودعمها بأسلحة اسناد كافية ومدفعية ومدرعات. وهكذا قررت قيادة الفرقة أن تستخدم معظم وحدات الكتيبة الثانية بالاضافة الى سريتين من سرايا الأمن (الكتيبة الخامسة). وكان من المفروض أن يتولى القائمقام اشتون، قائد اللواء الثالث، قيادة القوة المختلطة التي ستقوم بالهجوم. ولكن اشتون كان يعاني من إصابة شديدة بالدوزنطاريا، فألقيت المهمة على عاتق و.ق. سليد، قائد الكتيبة الثانية (٦).

في مساء ذلك اليوم تم اعداد «أمر المعركة» في قيادة الفرقة، وقد تضمن ما يلي:

قيادة فرقة المشاة الأولى	قيادة الفرقة الأولى
أمر المعركة رقم ٤٨/٥	الجيش العربي
	١٨ أيار ١٩٤٨

الهدف

١ – تقوم الفرقة بدخول القدس في الساعة ٣٤٥ من صباح ١٩ أيار، لتحقيق ما يلي:

أ – الدفاع عن المدينة القديمة بكاملها.

ب –السيطرة على الحي العربي الممتد من الشيخ جراح حتى باب العمود.

الأسلوب

٢ – يتولى و.ق. سليد قيادة القوة المختلطة التالية:

سرية مدرعات	الكتيبة الثانية
قسم مدافع ٦ رطل	الكتيبة الثانية
قسم مدافع هاون عيار ٣ بوصه	الكتيبة الثانية
سريتا مشاة	الكتيبة الخامسة
السرية الثامنة	الكتيبة السادسة

٣ – يتم تنفيذ الهجوم على مرحلتين:

٤ – **المرحلة الاولى**

أ – تقوم السرية الثامنة بالدخول الى المدينة القديمة في الساعة ٣٤٥ من يوم ١٩ أيار، وتتلقى أوامرها مباشرة من قائد الكتيبة السادسة.

تتمركز السرية السادسة في الطور.

ب –تقوم القوة المختلطة (باستثناء السرية الثامنة) بالاستيلاء على حي الشيخ جراح.

٥ – **المرحلة الثانية**

تقوم سرية من الكتيبة الخامسة بالتقدم الى باب العمود، وتتصل بالكتيبة السادسة.

٦ – **الاحتياط**

تتحرك سرية مدرعات وسرية مشاة وقسم مدافع هاون ٣ بوصة من اللواء الأول، على أن تصل الى منطقة قيادة الفرقة في الساعة ٤ من صباح ١٩ أيار، وتبقى قوة احتياط تحت أوامر قيادة الفرقة.

٧ – **المدفعية**

تتحرك فئة المدفعية الى الموقع مع طلوع الضوء يوم ١٩ أيار لكي تدعم الهجوم اذا لزم الأمر.

يتقدم ضابط ملاحظة المدفعية مع القوة المختلطة.

٨ – الاتصالات الداخلية: تستعمل القوة الذبذبة المستعملة في سرية المدرعات. (انتهى)

في نحو الساعة الحادية عشرة ليلا اتصلت قيادة الفرقة بوكيل القائد سليد وطلبت اليه ان يعدّ كتيبته للتحرك في تلك الليلة. وبعد أن أخطر سليد قادة السرايا بالأمر، ذهب الى قيادة الفرقة في قرية (بيتين) قرب رام الله حيث شرح له الزعيم لاش خطورة الوضع في القدس وسلم اليه (أمر المعركة) الذي أدرجت ترجمته أعلاه. كانت الليلة قد انتصفت عندئذ، فقال سليد انه يستحيل عليه ان يعود الى كتيبته ويجمع الأسلحة المساندة ويتحرك الى شعفاط، ويقوم بعملية استطلاع (في ظلام الليل)، بحيث تبدأ حركة الهجوم في الساعة ٣٤٥، كما يقضي أمر المعركة. هذا فضلاً عن ان سليد لم يكن يعرف شيئاً عن سريتي المشاة اللتين سترافقان قوته. قال لاش انه يدرك صعوبة القيام بتنفيذ الخطة في الساعات

القليلة المعينة، ولكن نظرا لخطورة الوضع في القدس فان عليه – سليد – أن يفعل كل ما يستطيع.

وعاد سليد مسرعا الى مقر الكتيبة، ومن هناك تحرك مع السرايا والوحدات التي ستقوم بالهجوم. وفي الساعة الثانية صباحاً احتشدت الوحدات التالية من الكتيبة الثانية عند مثلث طريق رام الله – الجيب اللطرون:

سرية المشاة الأولى بقيادة الملازم الأول عباطة عيد

سرية المشاة الثالثة بقيادة الملازم الأول رفيفان خالد الخريشا

سرية المدرعات الثانية بقيادة الملازم الأول حمدان صبيح البلوي

مع أسلحة الاسناد التالية:

٤ مدافع ٦ رطل بقيادة الملازم الثاني حيدر مصطفى (مدافع مقاومة دبابات)

٤ مدافع هاون عيار ٣ بوصة بقيادة النائب زامل بشر

٦ رشاشات فيكرز متوسطة بقيادة النقيب جزّاع ابراهيم

لم يبق في مواقع الكتيبة الا سرية المشاة الثانية بقيادة الملازم الاول محمد كساب، وسرية القيادة، ومدفعي ٦ رطل ومدفعي هاون. وبقي في الموقع الرئيس عكاش الزبن أركان حرب الكتيبة والملازم نايف الحديد قائد السرية المساندة. وكان بقاء هذه العناصر ضروريا لمواجهة القوات اليهودية المتمركزة في جبل الرادار وفي مواقع أخرى.

وكانت قيادة الفرقة قد أصدرت أمرا بأن تقوم فئة المدافع الثقيلة (٤ مدافع) بمساندة الهجوم، على أن يقتصر اطلاق النار على بضع طلقات بين الفينة والأخرى بسبب نقص الذخيرة. ولهذه الغاية نقلت المدافع من رافات الى قلندية. وكان قائد الفئة و.ق. محمد المعايطة هو الذي سيقوم بوظيفة ضابط الملاحظة، مع مقدمة الهجوم، بينما بقي في موقع المدافع الملازم عامر خماش والملازم سامح البطاينة.

تحركت وحدات الكتيبة الثانية بالسيارات الى موقع الحشد في مطار قلندية. وهناك اجتمع، بالاضافة الى الضباط الذين ذكرتهم سابقا:

و.ق. عبدالحليم الساكت : مساعد قائد اللواء الرابع (قائد الكتيبة الخامسة)

و.ق. محمد المعايطة : قائد بطارية المدفعية

الرئيس محمد خلف العمري: قائد سرية الأسن الثانية

الرئيس سليمان مسعود : قائد سرية المشاة التاسعة

الملازم الأول علي أبونوار : ركن اللواء الثالث (مساعد سليد)

قال سليد يخاطب أولئك الضباط: لقد احتل اليهود حي الشيخ جراح واتصلوا بهداسا على جبل المشارف (سكوبس)، وهم يحاولون تطويق القدس من ناحية الشرق أيضاً. سوف نقوم الان بهجوم لاحتلال حي الشيخ جراح. على المدرعات بقيادة حمدان أن تسير في المقدمة، وعلى سرايا المشاة أن تزحف وراءها.

لم يتحدث القائد عن عملية الاستطلاع التي يجب أن تسبق أية عملية عسكرية من هذا النوع، ذلك أن ضيق الوقت لم يكن يسمح بذلك. قال أحد ضباط السرايا: نحن لا نعرف المنطقة. أجابه سليد: هذا الطريق المعبد يوصل للشيخ جراح.

صعد جنود الكتيبة الثانية الى سيارات النقل، فلم تلبث حتى وصلت بهم الى نقطة البدء في أول مرتفع شعفاط. أما جنود سرايا الأمن فقد لحقوا بهم على أساس انهم لن يكونوا في طليعة الهجوم. وكان هؤلاء يتألفون من الوحدات التالية:

- سرية الأمن الثانية بقيادة الرئيس محمد خلف العمري (ومعه الملازم الاول فايز ايوب وضباط آخرون).
- السرية التاسعة بقيادة الرئيس سليمان مسعود (ومعه من الضباط عبدالرحمن الفراهيد وعزالدين يوسف بيشه وقاسم المعايطة).
- فئتان من السرية الرابعة يقودهما الملازم أحمد الفياض الضرغام.
- فئة من جنود الحراسات بقيادة النقيب هديبان عوده حداد

وكانت هذه الوحدات بقيادة و.ق. عبدالحليم الساكت

في الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم الاربعاء ١٩ أيار، مع أضواء الفجر الأولى، وتحت السماء الصافية، بدأت تلك القوة المختلطة تقدمها. وعلى الرغم من قلة عدد الجنود، وعلى الرغم من السرعة الشديدة التي تم بها الحشد والانتقال الى خط القتال – فان المعنويات كانت عالية والجنود متلهفين لخوض المعركة. كل واحد كان يعتقد أنه اذا سقط في سبيل القدس فسيكون من بين الشهداء. ولم يكن بين أفراد القوة أحد يحس بتأثير السهر أو يشعر بالتعب، فالاكثرية منهم شبان تتراوح أعمارهم بين العشرين والثامنة والعشرين. كانوا جميعاً يتمتعون بلياقة بدنية عالية، سواء ابناء البوادي أو أبناء القرى: شبان أشداء

ذوو أجسام خفيفة صلبة وعزائم فولاذية، تستطيع التحمل ومواجهة الشدائد.

تقدمت المدرعات على الطريق المعبد بينما سارت السرية الثالثة (رفيفان) على الميمنة وسارت السرية الأولى (عباطة) الى اليسار، وسارت وحدات سرايا المشاة على مسافة غير بعيدة وراء الرتل الأول. بدت بنايات القدس الشامخة أمام أنظار هم هادئة يلفها السكون. كثيرون أحسوا بأنهم في عرس فأخذوا يغنون ويزغردون. واجهت سرية المدرعات بعض العوائق التي كان اليهود قد أنشأوها بعد انسحاب الانكليز، ولكنها تمكنت من اجتيازها، ومضت تتقدم ووراءها جنود المشاة والأسلحة المساندة. ولاحظ سائق المدرعة الأولى ثلاثة أعمدة من الأسمنت المسلح قائمة في الطريق، في مدخل حي الشيخ جراح، بحيث لا تستطيع المدرعات ان تمر من بينها أخذت المدرعة تضرب الحاجز الأوسط بقذائف مدفع ٢ رطل، ولكنها لم تؤثر فيه. لم تكن هناك طريق أخرى يمكن ان تسير المدرعات عليها. جاء سليد ونزل من مدرعته يتفحص الوضع. أسرع يستدعي الملازم حيدر مصطفى امر مدافع ٦ رطل وطلب اليه ان ينسف أعمدة الاسمنت بمدافعه. وبادر حيدر فأحضر واحدا من المدافع وأخذ يوجه قذائفه الى الحاجز الأوسط فلم يلبث ان تناثرت أجزاؤه، ثم كسر الحاجزين الآخرين. أمر سليد سرية المدرعات ان تتقدم ولكن الجنود ترددوا لانهم سمعوا ان الطريق ملغومة. تفحص سليد الطريق المعبدة فلم يجد فيها ما يدل على ذلك، فتقدم بمدرعته اولاً وتبعته المدرعات الأخرى. كان الرصاص يصل من الأبنية القريبة، فأخذت المدرعات تقصف المواقع التي تنطلق منها النار. تقدمت القوة الى الأمام حتى وصلت الى قبالة الثكنة البريطانية في الحي الى الغرب من الطريق، فقصفتها المدرعات بقنابلها. ولكنها لم تستطع اسكات نار العدو (قيل ان أفراداً من عصابة شتيرن كانوا يتمركزون فيه). وفي تلك الاثناء كان وكيل القائد محمد المعايطة يوجه قصف مدفعية ٢٥ رطلاً نحو مواقع العدو. وأراد سليد أن يطلب اطلاق قنابل دخان لوضع حاجز من الدخان بين القوة المهاجمة والثكنة، ولكنه اكتشف ان هوائي جهاز اللاسلكي في مدرعته كان قد انقصف بفعل رصاص العدو. على الرغم من ذلك استمرت المدرعات في التقدم. كان نظام الهجوم ان تتولى احدى سرايا المشاة المستقلة احتلال حي الشيخ جراح، وان تتقدم السرية الأخرى بعد ذلك حتى تصل الى باب العمود، وذلك بعد ان تتولى عناصر الكتيبة الثانية اسكات نار العدو.

كانت فئة النقيب هديبان عودة قد توقفت بالقرب من رأس المنحدر، فأصدر سليد أمـراً الـى قائدها بـالتقدم نحـو الجسر القـائم فـي آخر المنحدر. قـال هديبـان: لا بـد ان تلحقونـا بالذخيرة لان ما معنا يكاد ينفد. وعد سليد ان يؤمن لـه ذخيرة. وتقدم هديبـان وجنـوده فلم يلبثوا أن وصلوا الـى الجسر وتمركـزوا حواليـه، تحـت النـار الكثيفـة المنطلقـة عليهم مـن هداسا. بعد قليل وصـل سليد وسائق مدرعته وكل منهما يحمل على كتفه صندوق عتاد. عاد سليد الى رأس المنحدر على بعد ١٠٠ ياردة فوجـد المدرعـات تقـف هنـاك غير بعيد عـن حاجز آخر من الحجـارة أقيم على الطريق في الجـانب الأيسر مـن المنحـدر. تقدم ومعـه محمد المعايطه وحمدان نحو الحاجز. كان هناك شخص مدني يجلس الى جانبه فقال لهم ان كومة الحجارة ملغومـة. وتفحص سليد الموضع فلم يجد أثراً للألغـام. وعندئذ أخذ الضبـاط الثلاثة يلقون الحجارة الى الجانبين لفتح الطريق، بينما كانت هاونـات العدو تشـدد القصـف مـن هداسـا ومـن البنـايـات فـي غربـي الحـي. وانطلـق الرصـاص مـن سطح بنايـة قريبـة. وسقطت قنبلة هاون بالقرب منهم فانفجرت وأصابت احدى شظاياها قائد الكتيبـة فـي أسـفل ظهره، فسقط على الأرض والدماء تنزف منـه. وبـادر الجنـدي (غربـي عمـر) فحملـه الـى سيارته المدرعة وأعاده الى نقطة الاسعاف في شعفاط ثم نقله الى مستشفى الميدان فـي رام الله.(٧)

كانت إصابة قائد الكتيبة في نحو الساعة الثامنة والنصف صباحاً. وعلى الأثـر اتصـل الملازم علي ابونوار بقيادة اللواء الثالث، فلم يلبث الزعيم لاش أن اصدر أمراً الـى مسـاعد سليد، و.ق. بوكانن، بأن يذهب الى موقع الشيخ جراح ويتولى قيـادة الكتيبـة. وعلـى الفـور مضى بوكانن الى الموقع. وفي تلك الأثناء كان محمد المعايطة وحمدان وبعض الجنود، قـد أزاحوا كومة الحجارة، بحيث تم فتح الطريق واندفعت المدرعات الى الأمام.

بقي على وحدات المشاة أن تجتاز منطقة الأرض العراء بين حي الشيخ جـراح وحـي المصرارة (مسافة ٢٥٠ ياردة)، والتي كانت نيران أسلحة العدو تسيطر عليهـا مـن حـي مياشيرم على بعد ٣٠٠ ياردة فقط ومن هداسا ايضـاً. كـان علـى الرتـل المهـاجم ان يجتـاز الأرض العراء تحت نار حامية حتى يصل الى المصرارة والى باب الزاهرة وباب العمود. وسلطت أسلحة الجيش العربـي نيرانهـا بشدة وكثافـة. وكـان قصـف المدفعيـة والأسـلحة المساندة مؤثراً وفعالاً، فأخذت السرية الأولى (عباطة) تتقـدم عبـر وادي الجـوز الـى يسـار

الطريق، بينما تقدمت السرية الثالثة (رفيفان) على يمين الطريق حتى وصلت الى سور القدس أمام باب العمود في نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر. وفي الوقت نفسه وصلت فئة عبدالرحمن الفراهيد وفئة هديبان عودة الى الكولونية الأميركية. كان التقدم على العموم سريعا، وكان هجوم القوة الأردنية كاسحا على الرغم من الحواجز والعوائق والنار الكثيفة. وقد حدث في تلك الأثناء ان بعض فئات سرايا الأمن ترددت في التقدم لاحتلال أحد المواقع المعرضة لنار العدو، فتطوع الملازم عبدالرحمن الفراهيد للقيام بالمهمة، وتقدم على رأس فئته، ولم يلبث ان سيطر على الموقع وتمركز فيه. وبوصول القوة الى باب العمود والاتصال بقوات الكتيبة السادسة، تحقق الهدف الذي رسمه أمر المعركة.

ووصف الميجر دزموند بوكانن (في رسالة منه) الوضع بقوله: «عند وصولي الى باب العمود، طلبت من قيادة الفرقة (بواسطة اللاسلكي) أن تزودني بالأوامر عما يجب فعله، فتلقيت أمراً بالتراجع الى الشيخ جراح. لا أشك في أنني كنت أستطيع الاستيلاء على باب العمود، لأن الدفاع عنه كان ضعيفاً [يعني هنا منطقة باب العمود خارج سور القدس] ولكن لاشـ بك كان على صواب [في اصدار الأمر بالتراجع]، لأنه لم تكن لدينا قوات، كما أذكر، كي تقوم بمساندتنا وتعمل على التثبت في الموقع. وهكذا عدنا الى المنطقة المزروعة بأشجار الزيتون في الشيخ جراح. وهناك تعرضنا لاطلاق نار كثيف من قنابل الهاون، التي أصابتني احداها».

تراجعت وحدات الكتيبة الثانية على كره منها. والحقيقة أن التراجع عن باب العمود كانت له عواقب وخيمة. وتقول بعض المصادر الأجنبية ان مقاومة اليهود كانت ضعيفة، بل بلغ الأمر أن أعلاماً بيضاء ارتفعت فوق كثير من المنازل اليهودية، دليلاً على الرغبة في الاستسلام. ويعتقد مؤلفا كتاب (يا قدس) ان الجيش العربي أضاع فرصة عظيمة يوم ١٩ أيار، لان اليهود فوجئوا بالهجوم من ناحية الشيخ جراح، ولم يكونوا مستعدين لمواجهته. ولكن انسحاب الوحدات التي تقدمت الى باب العمود وما وراءه، والوضع الدفاعي التي اتخذ في اليومين التاليين – أتاح للعدو فرصة التقاط أنفاسه واستعادة ثقته، فحشد قوة كافية في مواجهة الجيش العربي. ومن هنا عنف المقاومة التي جوبهت بها الكتيبة الثالثة يوم ٢٢ أيار. بل ان الأخوين (كمشي) يعتقدان ان القدس الجديدة كلها كان يمكن ان تسقط لو ان الجيش العربي عزز اندفاعه الأول واستمر في الهجوم. ومن رأيهما

أن الهجوم على القدس من الشمال عبر الشيخ جراح ومنطقة النوتردام «كان أشد فترات الحرب حرجاً» بالنسبة لليهود. (٨)

في تلك الأيام ظهرت البسالة الفردية والاستماتة والاقدام في أروع صور البطولة. وقد حدث ان جنود أحد مدافع الستة أرطال تقدموا في ساعة الاندفاع الأولى من باب العمود الى محاذاة بنك باركلس وراء مبنى النوتردام على مفترق شارع مأمن الله، وأخذوا يطلقون النار باتجاه شوارع القدس الجديدة التي كانت آنذاك خالية من الناس. كان العريف ابراهيم عواد (من قبيلة العقيدات في دير الزور) قائد وحدة المدفع. كان ورفاقه ذوي قلوب جريئة لا تهاب الموت. وبحث الملازم حيدر مصطفى عن ذلك المدفع حتى وصل اليه. قال للعريف: لقد صدر الأمر بأن نتراجع الى الخلف. قال العريف: أريد ذخيرة وسأبقى هنا. قال الملازم: لم يبق لدينا ذخيرة الان، ولكننا سنعود قريباً لانجاز المهمة التي بدأنا بها. تردد ابراهيم عواد ورفاقه الستة قبل ان ينصاعوا لأمر قائدهم. كانت القدس كلها تفتح ذراعيها لهم، وكانوا يودون لو أن مدافع الكتيبة الأخرى والمدرعات والرشاشات تنضم اليهم لكي يندفعوا الى الامام ويسحقوا مقاومة العدو.

عاد بوكانن الى مرتفع الشيخ جراح وطلب ضباط الوحدات للاجتماع به من أجل اعطاء التعليمات لتطهير الحي والقضاء على مصادر نيران العدو (الذي كان ما يزال يتمركز في الأبنية الكبيرة هناك). وفي اثناء الاجتماع في ساحة منزل راغب النشاشيبي، في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، سقطت قنبلة هاون بالقرب من المكان فانفجرت وأصابت بوكانن شظية منها في صدره، فسقط على الأرض، وكانت الاصابة بليغة. وبادر رفاقه فأعادوه الى مستشفى الميدان في رام الله(٩).

وفي أثناء قتال ذلك اليوم قتل مراسل جريدة التايمس الذي كان يرافق الجيش العربي لتغطية أنباء المعركة، وقد أصابته رصاصة في قلبه فلقي حتفه على الفور. وفي ٢٠ أيار نشرت التايمس في صفحاتها النبأ التالي:

عمان ١٩ ايار ١٩٤٨. قتل الصحافي ريتشارد ويدهام، مراسل مجموعة صحف كمسلي، في ضواحي القدس الشمالية هذا الصباح، بينما كان يقوم بتصوير قوات الجيش العربي. وكانت اصابته بفعل طلقات الأسلحة التي كانت تأتي من مستشفى هداسا الذي يتمركز فيه اليهود على جبل المشارف (سكوبس).

قبل أن يصاب بوكانن، كان الرئيس صادق الشرع (ركن ثان في عمليات الفرقة) قد وصل مع سرية مدرعات الكتيبة الثالثة، ولذلك ألقى قائد الفرقة على عاتقه مسؤولية قيادة القوة المختلطة منذ أن بلغه نبأ اصابة بوكانن. وظل الرئيس الشرع يتولى قيادة القوة في حي الشيخ جراح الى أن وصلت الكتيبة الثالثة فتولت مهمة التقدم مرة ثانية الى باب العمود.

كانت سرية مدرعات الكتيبة الثالثة بقيادة الملازم الاول زعل الرحيّل، من جملة وحدات الاحتياط التي قضى أمر المعركة ان تأتي من منطقة نابلس. وتحركت تلك السرية من أراضي قرية حوّاره في أثناء الليل فوصلت الى قلندية مع ضوء الصباح، ومن هناك تحركت الى حي الشيخ جراح. أما بقية القوة الاحتياطية فقد وصلت الى أطراف الحي قبيل غروب شمس ذلك اليوم (١٩ ايار) وكانت تتألف من:

- السرية الثالثة من الكتيبة الاولى، بقيادة الملازم الأول عواد حامد.
- ٤ مدافع عيار ٦ رطل.
- ٤ مدافع هاون عيار ٣ بوصة بقيادة المرشح ضاري مشاش الخريشا.

وتثبتت هذه الوحدات في الحي، وراء القوات التي سبق أن تقدمت أمامها. ولم تكن مقاومة العدو قد توقفت، ولذلك واجهت حال وصولها نيران أسلحته من الغرب والشرق، خصوصاً في اليوم التالي عندما أخذ يشن هجمات معاكسة من سانهدريا ومشيرم.

كان زعل الرحيل قد اصطحب معه في قلندية اثنين من المناضلين الفلسطينيين، تطوعا للقتال مع سريته، وقد أفاد من وجودهما في الاستدلال على شوارع القدس. وعند وصوله الى تلة شعفاط أبقى عددا من المدرعات على التلة للمحافظة على المؤخرة والبقاء كقوة احتياط، وأرسل اربع مدرعات باتجاه مستشفى هداسا من فوق قرية العيسوية. وقامت المدرعات الأربع بضرب اليهود المتمركزين في هداسا وأسكتت نيرانهم، ولم تتقدم أكثر مما يجب لان هداسا والجامعة العبرية كانتا محاطتين بالأسلاك الشائكة والمداخل اليهما مزروعة بالألغام. اما بقية المدرعات فتقدم زعل بها حتى لحق بمدرعات الكتيبة الثانية، وظل يشق طريقه حتى المصرارة وسور المدينة القديمة. وبالفعل كان حمدان قد وصل قبله الى باب العمود ومعه ست مدرعات. ولكن عند الظهر أصدر بوكانن أمره بعودة المدرعات الى الشيخ جراح بقصد التصدي لنار العدو. ولم يلبث حمدان وزعل حتى انسحبا

عائدين الى الحي. وكان العدو قد أفاق من الصدمة الأولى وأحصر مزيدا من مدافع الهاون وراجمات الألغام الى مواقعه في سانهدريا ومن هناك أخذ يقصف المواقع الأردنية. اما أفراد العدو في هداسا فكانوا يدلون رفاقهم على مواقع الجيش العربي، بينما كان قناصتهم يطلقون النار على كل شيء يتحرك. وغابت شمس ذلك اليوم – ١٩ ايار – دون ان تصل الى الجنود لقمة طعام.

بعد ان تولى الرئيس صادق الشرع قيادة القوة عصر يوم ١٩ أيار، بادر الى توزيع المدرعات، فتراجعت سرية حمدان من باب العمود الى تلة شعفاط لحماية المؤخرة، وانتشرت مدرعات سرية زعل الرحيل في مواجهة العدو في الشيخ جراح وهداسا. وسقطت الثكنة البريطانية في المساء فجمع الرئيس الشرع قسم الأمر في أثناء الليل لوضع الترتيبات لمهاجمة مركز شرطة الشيخ جراح الذي يتمركز فيه العدو. وانقضى يوم ٢٠ أيار والطرفان يتبادلان اطلاق النار، الى ان أقبل المساء فقامت فئة من الجيش العربي بمهاجمة مركز الشرطة وتمكنت من الاستيلاء عليه، فتمركزت فيه احدى الفئات، بينما تقدمت عناصر أخرى الى أطراف سانهدريا من ناحية الشمال، وأخذ الطرفان يتبادلان القصف بالأسلحة الثقيلة والمتوسطة. ولم يكن قصف اليهود دقيقا، كما ان قنابلهم لم تكن تنفجر كلها.

وكان و.ق. محمد المعايطة يعمل من داخل مدرعة ملاحظة في توجيه قصف المدفعية الثقيلة. وفي ساعات العصر (يوم ٢٠ أيار) أصابته رصاصة في ذراعه اليمنى فعاد الى رام الله لتضميد جرحه، بعد ان اتصل بالقيادة وطلب ارسال ضابط ملاحظة يحل محله. (١٠)

لم يلبث العدو ان استجمع قواه بعد الصدمة الأولى، فقام في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٠ أيار بهجوم معاكس، مهد له أولا بقصف من راجمات الألغام، ثم تقدم مشاته من سانهدريا باتجاه مركز الشرطة. وألقت طائرة صغيرة للعدو قنبلة ضخمة من صنع محلي فسقطت على سقف المركز وفتحت فيه ثغرة واسعة ارتج بفعلها البناء رجة عنيفة. ووصل المهاجمون الى الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمركز على بعد بضعة أمتار. وقابلهم الجنود الأردنيون – ومن جملتهم فئة هديبان – بنار حامية وهم ينتخون ويهزجون « يا بو قذيله، طلّ وشوف» فردّوهم على أعقابهم وأوقعوا بهم خسائر كبيرة عند الأسلاك، حتى

أضطروا الى الانسحاب في الساعة الثالثة صباحاً. وقد ساندت مدافع الهاون حماة المركز مساندة فعالة.

وفي تلك الليلة اشتركت في صد الهجوم اليهودي مجموعة من المجاهدين البدو كانوا يرابطون في أطراف حي الشيخ جراح، وهم بقيادة الشيخ جدعان بن مهيد (سوريا) والشيخ نايف الخريشه (بني صخر). وقد أصلوا المهاجمين بوابل من نيران أسلحتهم، فارتدوا على أعقابهم. وفي الصباح وجدت في أرض المعركة جثة قتيل يهودي وآثار دماء وربطات اسعاف.

ووصلت يوم ٢١ أيار السرية ١٣، وهي احدى سرايا الأمن، ويقودها الرئيس فارس العبد. وكانت قد انسحبت من القدس الى اريحا ومن هناك تقدمت الى الشيخ جراح وانضمت الى الوحدات المتمركزة فيه.

ظل القتال المرير مستمراً طوال أيام الأربعاء والخميس والجمعة (١٩-٢١ أيار). وتحملت وحدات الكتيبة الثانية وطأة الحرب في تلك الأيام الثلاثة، اذ حشد العدو جميع أسلحته لزحزحتها عن المواقع التي استولت عليها ولمنعها من التقدم.

وهكذا استطاعت القوة المختلطة أن تحقق هدفها وأن تستولي على المنطقة التي عينت لها، وأن تكسر ذراع الكماشة اليهودية وتعيد الاتصال بين القدس ورام الله. وبدا ان الهجوم كان مفاجأة لبعض وحدات العدو، اذ بادرت فئات منها الى الفرار، ووجد الجنود الأردنيون في بعض الأماكن أدوات حلاقة وكاسات شاي في مواضعها، كأن جنود العدو كانوا يستعدون لتناول طعام الافطار. بل ان أعلاماً بيضاء ارتفعت فوق منازل عدة في حي سانهدريا، حتى خُيِّل للبعض ان العدو على وشك الاستسلام.

دفعت قيادة الفرقة الى معركة الشيخ جراح كل القوات التي كان بالامكان حشدها في خلال الساعات القليلة التي توافرت لها، دون أن تتأثر المواقع الأخرى. وقد عزز الضغط على العدو مدفعا هاوتزر ٦ عقده، وضعهما الجيش العراقي باسناد القيادة الأردنية في منطقة الجيب خلف النبي صموئيل، وأخذ يقصف بهما المواقع البعيدة. وكان ضابط الموقع للمدفعين الملازم نوري جميل (شقيق جمال جميل الذي حاول القيام بانقلاب في اليمن ضد الامام يحيى، ثم ألقي القبض عليه وأعدم). ويظهر أن تأثير المدفعين كان محدوداً.

وكانت قيادة الفرقة قد اعتزمت في تلك الاثناء ان تعيد السرايا التي دعيت على عجل

للقيام بالمهمة – الى وحداتها الأساسية، وأن تدفع الى القدس وحدة عسكرية متجانسة ومتكاملة. وهكذا عادت سرايا ووحدات الكتيبتين الثانية والأولى الى مراكزهما الأساسية، وألقي عبء اتمام المهمة على عاتق الكتيبة الثالثة.

كان أولئك الذين قضت الأوامر أن يبقوا في مواقع أخرى يتحرقون شوقاً للاشتراك في القتال، حتى أن الملازم نايف الحديد جاء من موقع كتيبته الى الشيخ جراح في مدرعة تحمل عتادا، حتى يكون قريباً من خط النار وان يسهم في المعركة بجهد ما.

المدرعات في شارع مشيرم

سبق أن ذكرت ان و.ق. محمد المعايطة كان يقوم بمهمة ضابط الملاحظة في الشيخ جراح بتوجيه قصف المدافع الثقيلة عيار ٢٥ رطلا ضد مواقع العدو في القدس الجديدة. وقد استمر المعايطة يقوم بمهمته، متنقلا من موضع الى آخر في مدرعة استطلاع صغيرة تحمل جهاز لاسلكي للاتصال مع مركز فئة المدافع في مطار قلندية، الى أن أصيب بجرح في ذراعه اليمنى عصر يوم ٢٠ أيار. عندئذ اضطر أن يعود الى رام الله لاسعاف جرحه، بعد أن طلب من قيادة الفرقة ارسال ضابط ملاحظة آخر لكي يحل محله. وفي الوقت نفسه تولى الملازم الاول عامر خماش قيادة البطارية.

ووقع الاختيار على الملازم الثاني محمد نجيب البركات، الذي كان أحد ضباط فئة المدفعية الثقيلة المتمركزة في الحقول غير بعيد عن قرية الجيب، وراء جبل النبي صموئيل. فقد جاء الملازم الأول مصطفى الخصاونة الى موقع الفئة وأصدر الامر لمحمد نجيب بالتحرك الى القدس لكي يقوم بمهمة ضابط الملاحظة. وعرض الملازم الثاني سامح البطاينة أن يرافق محمد نجيب في الذهاب الى القدس كي يساعده في أداء المهمة. ولكن الخصاونة قال: هذه حرب، ونحن لا نريد أن نجازف بضابطين. واحد يكفي.

أسرع محمد نجيب في الاستعداد للمضي الى القدس. كان متشوقاً لأداء واجبه والقيام بدور في المعركة. كان لدى قيادة فئة المدفعية عدد من المدرعات فذهب في مدرعة ملاحظة، سائقها حمد عبدالله، ومعه جندي آخر لاستعمال المدفع والرشاش، وجندي لاسلكي، وذهب مع هؤلاء السائق عوض اسماعيل على اساس صداقته لحمد.

قبل أن يصعد الى المدرعة ودع محمد نجيب زملاءه، فقال له أحدهم: انتبه لنفسك. ورد محمد نجيب: الأعمار بيد الله. إنني لا أخاف على نفسي بل أخشى على أخي الصغير. (في حرب ١٩٤٨ كان أخوه الأصغر محمد أمين بركات برتبة مرشح قائد فئة في السرية الأولى من الكتيبة الرابعة).

قضى محمد نجيب ليلته تلك في حي الشيخ جراح. في صباح اليوم التالي (٢١ أيار) قدم نفسه للرئيس صادق الشرع، فطلب منه أن يقوم بمهمته كضابط ملاحظة في نقطة متقدمة بالقرب من المنعطف الحاد الذي تتفرع منه الطريق الى باب العمود والى شارع مشيرم. ومضى محمد نجيب، ولكنه بدل أن يتوقف في الموقع المعين، استمر في سيره حتى تجاوز النقطة الأمامية. وبدل أن يسير في الطريق اليسرى المؤدية الى باب العمود، فانه انحرف الى اليمين، الى شارع مشيرم الذي يتمركز فيه العدو. لا ندري هل كان الخطأ خطأه هو أم خطأ السائق، ولكنه على كل حال كان خطأ قاتلا. فعندما بلغت المدرعة بداية الشارع انطلقت قنبلة من مدفع بيات فأصابتها اصابة مباشرة وأعطبتها. انحرفت المدرعة بفعل صدمة القنبلة ثم توقفت ملاصقة للجانب الشرقي من الشارع. شاهد الرئيس صادق الشرع نار العدو تنطلق على المدرعة غير المسلحة، فطلب من زعل الرحيّل ان يبادر الى انقاذها ومن فيها. وصعد زعل الى الطابق الثاني من البناية التي كان يقف الى جانبها، وشاهد المدرعة المعطوبة، ثم بادر الى الاتصال بوكيل القائد عبدالحليم الساكت (قائد سريتي المشاة) وطلب منه تكليف سرية مشاة بمساندة مدرعاته لكي يعمل على سحب المدرعة تحت ستار من النار. ولكن الساكت قال انه لا يستطيع أن يزج جنوده في قتال عدو متمركز في منطقة معمورة. لم يثن هذا الجواب من عزيمة زعل فاتصل بثلاث من مدرعاته وأمرها أن تلحق بمدرعته وتحميها بنار أسلحتها. كان العيط مطر آمراً لاحدى تلك المدرعات وفهد مقبول آمراً للثانية وعطيشي سليمان آمراً للثالثة. تقدمت مدرعة الملازم زعل حتى وصلت الى مكان المدرعة المعطوبة. كان اليهود يتمركزون في الطابقين الثاني والثالث من الأبنية المحيطة بالشارع من الجانبين، وهم يطلقون النار من أسلحتهم ويقذفون القنابل اليدوية. تحركت المدرعات في منطقة مكشوفة لجنود العدو، ولكن النار الساترة كانت قوية وكثيفة، فتمكن زعل من الوصول الى المدرعة المعطوبة، وهناك قفز من مدرعته وألقى نظرة داخل المدرعة الأخرى. كان فيها ثلاثة قتلى من جملتهم

الضابط ومأمور اللاسلكي (جريس عيسى الهلسه)، وكان هناك جنديان يستتران بين المدرعة وجدار البناية المجاورة. عاد زعل الى مدرعته وأمر السائق مطلق سلمان والجندي هزاع رضيمان أن يتقدما لدفع المدرعة المعطوبة. ولكنه لم يلبث أن لاحظ خندقاً في عرض الشارع مغطى تغطية كاملة، عرف ذلك من بروز أطراف ورق الكرتون فوق جانبي الخندق. أمر السائق أن يبتعد عن موضع الخندق. وبينما كان السائق يستدير لاحظ زعل دما يرشق على ملابسه فالتفت ليرى الجندي هزاع وقد أصابته رصاصة في صدره. وفي اللحظة ذاتها أحس كأن المدرعة ارتفعت عن الأرض ثم عادت ترتطم بها. لقد أصابتها قنبلة صاروخية اصابة مباشرة. وصعد السائق الى المدرعة يحاول تشغيلها ولكنه اكتشف أن العطب أصاب أجهزتها. في تلك الأثناء كان الجنديان من أفراد مدرعة المدفعية قد تسللا الى الخلف طلباً للنجاة. وظهر ان اصابة هزاع كانت خارجية، فحمله السائق مطلق على كتفه وتراجعا الى الخلف من خلال الخندق الذي كان اليهود قد حفروه ليكون خط اتصال لهم. اتصل زعل لاسلكيا بالمدرعات الأخرى وأمر قادتها أن يتقدموا نحوه. وتقدم العيط مطر الى الأمام حتى وصلت مدرعته الى محاذاة مدرعة قائد السرية، فطلب منه اسناده بنار ساترة. وألقى العيط نظرة على مدرعة المدفعية فوجد انها أصيبت اصابتين مباشرتين احداهما من فوق والثانية في الجانب. وعلى الرغم من كثافة النيران تقدم وألقى نظرة داخل المدرعة فلم ير سوى القتلى وجهاز اللاسلكي. وأخذ جنود العدو يقذفون قنابل يدوية من بيت مجاور. وانطلقت صلية رشاش من طابق علوي فأصيب العيط في صدره وكتفه اليسرى، وغاب عن الوعي، فحمله زميلاه (العدد خلف سلامة العقيدات والسائق عليان حسن) وعادا به الى الخلف، ثم الى المستشفى. (أخرج الاطباء رصاصة من كتفه وقطبوا جرحه، ولكنه لم يبق في المستشفى سوى خمسة أيام عاد بعدها الى سريته، على الرغم من أوامر الطبيب. كان يشعر أن من العار عليه البقاء في المستشفى).

في تلك الاثناء كان الوكيل سالم شبيكان (مساعد زعل) يتمركز مع مدرعتين في مواجهة هداسا على جبل المشارف. وعندما عرف بما حدث (أجهزة اللاسلكي في المدرعات كانت تنقل المكالمات فيما بين قادتها) اتصل بالملازم زعل وسأله عما اذا كان يريد منه الحضور لمساعدته، ورد زعل قائلا انه لا حاجة لحضوره. ثم وصلت الى المكان

مدرعة أخرى يقودها النائب حواس غازي (من شمر) وسائقها الهيلم سعيد (السائق أسود اللون ولكنه من أشجع الشجعان). اقتربت المدرعة تحت النار والخطر الى مسافة ستة أمتار، فنزل زعل من مدرعته المعطوبة وقفز الى الأخرى فعادت به الى حي الشيخ جراح.

لم يقتنع سالم شبيكان باجابة قائد السرية، فتحرك الى شارع مشيرم، في الوقت الذي كان قائد السرية قد ترك مدرعته المعطوبة وعاد الى الخلف مع مدرعة حواس غازي. اقترب سالم شبيكان من المدرعتين المعطوبتين، فضرب العدو مدرعته بقذيفة مدفع صاروخي (بيات)، وكانت الاصابة مباشرة اشعلت النار فيها فاحترقت. وقد نتج عن تلك الاصابة مقتل عدد المدرعة (المدفعي) واصابة سالم شبيكان بجراح. ولكن شبيكان تمكن – على الرغم من جراحه – ان يتراجع هو والسائق الى الخلف مع الخندق الذي كان اليهود حفروه.

وهكذا بقيت في شارع مشيرم ثلاث مدرعات معطوبة (مدرعة محمد نجيب ومدرعة زعل الرحيل ومدرعة سالم شبيكان).

بعد غياب الشمس عاد زعل الرحيل ومعه عدد من جنود سرايا الأمن الى مكان المدرعات، تحت حماية النار الساترة من مدافع مدرعات السرية، وبارشاد اثنين من المناضلين الفلسطينيين تمكن زعل من استرداد أسلحة مدرعته اما مدرعة المدفعية فلم يكن فيها سلاح. وخاطر جندي اللاسلكي يعقوب غانم بنفسه حتى استرد جهاز اللاسلكي من المدرعة (منح وسام الاقدام تقديراً لشجاعته).

في تلك الليلة تلقت السرية أمرا بالانسحاب الى قلندية، للالتحاق بمجموع الكتيبة الثالثة والعودة معها مرة أخرى الى القدس.

وعلى الرغم من ان قائد السرية ترك ثلاثا من مدرعاته لمراقبة المدرعات المعطوبة، الا ان اليهود تمكنوا بعد ذلك من سحب اثنتين منهما: مدرعة المدفعية ومدرعة سالم شبيكان.

وهكذا خسر الجيش ضابطاً وثلاثة جنود وثلاث مدرعات، عدا الجرحى، بسبب النقص في المعلومات، وضعف الاستخبارات، وعدم الاستعانة بالأدلاء.

ومن الغريب ان قيادة الفرقة لم تعمل على الافادة من خبرة المجاهدين من أبناء

القدس، عندما أمرت القوة المختلطة بالتقدم الى الشيخ جراح يوم ١٩ أيار، وعندما أمرت الكتيبة الثالثة بالحلول محل تلك القوة يوم ٢٢ أيار. بل ان تلك القيادة ارتكبت خطأ أكبر لانها لم تضع عدداً من ضباط القوة المختلطة ليكونوا أدلاء للكتيبة الثالثة عند تقدمها في أحياء القدس. ولو تم ذلك لتفادت وقوع معظم الخسائر التي وقعت. على اننا نستطيع ان نلاحظ مما تقدم قوة العلاقة الحميمة بين رجال الجيش، الذين اندفعوا لنجدة بعضهم البعض، وظهر معدنهم الأصيل في ساعات الخطر والشدة. ولكن – اذا تركنا العاطفة جانباً – يبقى السؤال: هل كان تصرف زعل الرحيل في محاولة الوصول الى المدرعة المعطوبة تصرفاً تبرره قواعد الفن العسكري؟

الكتيبة الثالثة تدخل القدس

كانت الكتيبتان الأولى والثالثة ترابطان في قطاع نابلس منذ يوم ١٥ أيار: الأولى في مواقع متقدمة في قرية دير شرف (على مفرق نابلس – جنين) والثالثة في أراضي قرية حواره قرب مدينة نابلس لتكون احتياطا وعلى استعداد للاشتباك مع العدو، اذا ما تقدم في احدى النقاط. اما قيادة اللواء الأول (الذي يدير حركات الكتيبتين) فقد تمركزت في مستنبت عسكر (شرقي مدينة نابلس). وقد تمركزت وحدات من الكتيبة الأولى في نقاط أمامية في قلقيلية وطولكرم وشويكة وباقة الغربية. من الواضح ان قيادة الجيش عمدت الى هذا الترتيب لقلة ما كان تحت تصرفها من وحدات عسكرية. ولو أرادت القيادة ان تقيم جبهة مترابطة في ذلك القطاع الواسع لاحتاجت الى عشر كتائب على الأقل. ولكن جنود الكتيبة الثالثة المتحمسين للقتال لم يعجبهم البقاء في مؤخرة الجبهة، بينما كانت المعارك تحتدم في جميع أطراف فلسطين، فتذمروا وشكوا وأعلنوا سخطهم جهاراً، وهو ما لم يحدث بين أفراد الكتيبة الاولى الذين تمركزوا على خطوط التماسّ مع العدو. وقد كانت الخطة الأولية تقضي بأن تتمركز الكتيبة الثالثة في قطاع اللطرون. وفي ١٠ أيار قام قائد الكتيبة الكولونيل نيومان ومعه ضباط الكتيبة بكشف على المواقع في ذلك القطاع، على اعتبار ان الكتيبة سوف تحتلها بعد بضعة أيام. ولكن عندما قرر مؤتمر القادة العرب في دمشق (يوم ١٠ ايار ذاته) ان يترك قطاع نابلس في عهدة الجيش الأردني، عمدت القيادة الى وضع هاتين الكتيبتين فيه، والى وضع اللواء الثالث الذي يضم الكتيبتين الثانية والرابعة في قطاع رام الله.

وفي اليوم التالي (١٦ أيار) تلقى الملازم الأول صالح الشرع (ركن العمليات والاستخبارات في اللواء) أمراً من القائد جولدي بأن يذهب الى (جبع) مقر فوزي القاوقجي قائد جيش الانقاذ ويدعوه للقدوم الى نابلس لمقابلة قائد الفرقة الزعيم لاش. وبالفعل جاء القاوقجي واجتمع بلاش وجولدي. وفي اليوم التالي بدأ جيش الانقاذ عملية الانسحاب من مواقعه الى سوريا – عن طريق الأردن – وقد تمت عملية الانسحاب خلال اسبوع واحد. (١١)

على ان القرار بدخول الجيش الى القدس خلق وضعاً جديداً بالنسبة للكتيبتين الأولى والثالثة. ففي ١٨ أيار صدر الأمر لسرية مدرعات الكتيبة الثالثة (قائدها الملازم الأول زعل الرحيّل) بالتحرك الى القدس للاشتراك مع وحدات أخرى في احتلال حي الشيخ جراح. ولم تلبث القيادة حتى قررت ان تنقل الكتيبة الثالثة كلها الى القدس لكي تحل محل الكتيبة الثانية. كان ذلك القرار ينطوي على قدر من المجازفة في إبقاء كتيبة واحدة فقط (الكتيبة الاولى) في قطاع نابلس بأطرافه المترامية. ولكننا لن نلبث ان نرى ان قرار نقل الكتيبة الثالثة جاء في نطاق تحوير مهم في الخطة العامة للقوات العربية، الا وهو انتقال القوات العراقية من محور جسر المجامع – جيشر الى قطاع نابلس. كما ان انتقال الكتيبة الثالثة الى القدس أتاح المجال لوحدات الكتيبة الثانية بالعودة الى مراكزها الأساسية في مواجهة تلة الرادار ذات الموقع المهم.

ومع صدور أمر الحركة للكتيبة الثالثة، صدر أمر آخر بحركة بطارية مدافع الميدان الثانية من دير شرف الى بيت حنينا، لكي تشترك في مساندة القوات التي تهاجم اليهود في القدس (بالاضافة الى الفئة الأولى من البطارية الأولى).

عند عصر يوم الجمعة ٢١ ايار جاء قائد اللواء الى مركز الكتيبة الثالثة وأبلغ ضباطها بقرار الحركة الى القدس. وسرعان ما انتشر النبأ السار بين الجنود، فأخذوا يرددون: ماذا؟ القدس؟ الحمد لله. نحن ذاهبون الى القدس. غمرت الابتسامات وجوههم وشعروا بالفرح والاستبشار.

وبسرعة فائقة أعد الجنود والضباط أنفسهم للحركة. ولم تلبث الكتيبة أن تحركت من حوارة جنوباً على طريق القدس، حتى وصلت مع غروب الشمس الى وادي قرية جفنا الى

الشمال من رام الله. استقبل أهل القرية كتيبة الجند بالتصفيق والهتاف وأخذوا يقدمون لهم الشراب.

ذهب نيومان الى قيادة الفرقة في رام الله، ثم عاد وجمع ضباط الكتيبة تحت شجرة مشمش. قال لهم: سوف نتجه هذه الليلة نحو القدس للقتال فيها. اننا لا نستطيع القيام بكشف مسبق لهذه العملية نظراً لضيق الوقت. كانت هناك خارطة فردها القائد أمام الضباط، ولكن الخارطة لم تعطهم فكرة واضحة عن محاور التقدم. أعرب نيومان عن تأثره لان جنوده سيحاربون في مدينة لا يعرفون شوارعها وطرقها، وهم لم يدربوا على القتال في المدن. كان نيومان ضابطاً محترفاً خاض المعارك في الحرب العالمية الثانية، وكان يعرف خطورة المهمة التي ألقيت على عاتق كتيبته.

مرت السيارات من مدينة رام الله. وكان الجيش قد حول مدرسة البنين الى مستشفى، وكانت غرف المدرسة وأروقتهاغاصة بالجرحى الذين أصيبوا في القدس وأكثرهم من جنود الكتيبة الثانية. لم تكن هناك فرشات، فكان الجرحى يمددون على الأرض العارية. وبلغت مسامع اولئك الجنود أنباء حركة الكتيبة الثالثة، فتسلل عدد مهم في سكون، ومضوا الى الطريق يلوحون للسيارات المارة كي يذهبوا معها. (أنا محمد حريثان من الكتيبة الثانية، خذوني معكم يا اخوان). وعندما جاء الطبيب في صباح اليوم التالي وجد ان نصف الجرحى اختفوا. لقد مضوا مرة أخرى لخوض المعركة في القدس.

وفي أثناء الليل تحركت الكتيبة بالسيارات من جفنا الى مطار قلندية (منطقة الحشد) وهنا انضمت اليها سرية المدرعات التابعة لها بقيادة الملازم زعل الرحيل.كانت هذه السرية قد قضت ثلاثة أيام من القتال المتواصل في القدس (١٩ - ٢١ أيار) وقد خسرت بعض مدرعاتها في محاولة انقاذ ضابط الملاحظة محمد نجيب البركات بالاضافة الى ٣ قتلى و٦ جرحى من أفرادها، وقد منح قائدها وسام الاقدام لما أبدى من بسالة في مواجهة الخطر. وبينما كانت الكتيبة الثالثة تتحرك من جفنا الى قلندية انسحبت سرية المدرعات من القدس لكي تعود اليها في مقدمة الكتيبة. ومع ان احدى الغايات الرئيسية من عودة السرية كانت تنطوي على تقديم المعلومات اللازمة لقيادة الكتيبة - الا ان نيومان لم يبد اهتماما. وعندما أقبلت الكتيبة على حي الشيخ جراح، اقترب الملازم زعل الرحيل من قائد الكتيبة

وقال له: أراكم تسيرون نحو القدس على شكل قافلة دون حذر ودون خطة (لم يكن القائد يعرف العربية ولم يكن قد تعلم العربية في أثناء خدمته في شرطة فلسطين). احمّر وجه نيومان وأجاب بصوت غاضب: هذا ليس خطأي. أنا عسكري محترف، ولكن هذا أمر مفروض يجب أن أتبعه. قال الملازم: ما هي وظيفتي؟ أجاب القائد: عليك أن تفتح طريق الكتيبة من الشيخ جراح الى المصرارة حتى القنصلية البريطانية.

تناول أفراد الكتيبة طعام العشاء في قلندية، ثم ساروا على أقدامهم حتى اقتربوا من قرية شعفاط، وهناك أخلدوا الى النوم في حقول القمح لمدة ساعتين فقط. وفي الساعة الثانية والنصف من صباح يوم السبت ٢٢ أيار اتخذت السرايا وضع القتال وبدأ الجنود يتقدمون على أساس انهم في خط القتال الأمامي. وكان قائد الكتيبة قد وزع السرايا على أن تسير السرية الرابعة (غازي الحربي) الى اليمين والسرية الثانية (محمد النعمان) الى اليسار، وان تسير السرية الثالثة (عيد أديلم) خلف الاثنين، للاحتياط. ولكن عيد أديلم رفض هذا الأمر اذ اعتبره ماسا بشرفه ان يسير وراء السريتين الأخريين. واستجاب القائد لرغبة عيد أديلم، فوضع سريته في المقدمة الى اليسار (بدلا من سرية محمد النعمان). وكان هدف الكتيبة الاستيلاء على مجموعة أبنية تسيطر على القدس الجديدة، الا وهي النوتردام وبنك باركلس ومدرسة الراهبات.

في الساعة ٥٠ر٣ وصلت الكتيبة الى خط البدء عند تلة شعفاط. قبيل الحركة قال عيد أديلم لزميله غازي الحربي: كيف نهاجم اليهود وهم متحصنون في البنايات، وهم آلاف مؤلفة ونحن سريتان لا يزيد عددنا على ٣٠٠ جندي؟ قال غازي: يا عيد، كيف حنا ما نهاجم وعندنا أوامر من قائد الفرقة وقائد الكتيبة؟ موتنا الى الامام أحسن من موتنا الى الخلف. في تلك اللحظة ارتفع صوت المؤذن، فرفع عيد بصره نحو الفجر الطالع وقال: اشهد ان لا اله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم مضى في طليعة جنوده.

كان هدف السرية الثالثة (عيد أديلم) دير النوتردام، وهدف السرية الرابعة (غازي الحربي) بناية بنك باركلس. تقدم المشاة تحت حماية نيران الأسلحة المساندة. عند الوصول الى منحدر حي الشيخ جراح، اشتد تبادل اطلاق النار، وكان العدو يوجه نيران أسلحته من هداسا شرقاً ومن حي سانهدريا غرباً. وبينما كان المشاة يجتازون قطعة أرض عراء بين حي الشيخ جراح وحي المصرارة ازداد اطلاق النار حتى أصبح جحيماً. لقد فتح العدو

جميع نيران أسلحته من راجمات ألغام وهاونات ورشاشات. وانفصلت السرايا واتخذت كل سرية اتجاها لها. كان هناك عدد من المدرعات تسير في مقدمة كل سرية. وكانت مدافع ٢٥ رطلا تساند الهجوم، ولكن القنابل كانت متفرقة وعددها قليل. ولم يكن هناك أدلاء يرافقون قادة السرايا في شوارع لا يعرفونها، فانحرفت سرية غازي الحربي (الرابعة) الى اليمين (باتجاه سانهدريا) أكثر مما يجب، وأخذت تتقدم في أرض مزروعة بالقمح يطل عليها قناصة العدو من الأحياء الغربية. وجوبهت السرية بنيران شديدة فقتل وجرح عدد من أفرادها، وكان من بين القتلى النائب سند ناصر (أخو صحينه) والنائب سليمان كساب.

أضطرت السرية أن تتراجع الى الوراء أمام شدة نيران المقاومة. وجاءت مصفحتان فأعيد القتلى والجرحى فيهما. ولم تلبث السرية أن اندفعت فاجتازت الارض العراء في الشيخ جراح. وهناك سقط فواز الجوفي وأصيب آخرون. أما السرية الثالثة فقد مضت في طريقها عبر الشارع الرئيسي، بينما كانت أصوات انفجارات قنابل الهاون وراجمات الالغام ترتفع بصورة تصم الاذان. لحق زعل الرحيل بعيد أديلم وسأله: الى اين يا عيد؟ قال عيد: والله لا أدري ما هذه المشكلة التي وقعنا فيها، فلا نعرف أين العدو ولا اين الصديق. ولكن عيد على الرغم من حيرته مضى على رأس جنوده الى الأمام. ولم يلبث أن وصل الى باب الزاهرة، فعبر وجنوده منه الى المدينة القديمة ثم ساروا في الشوارع حتى وصلوا الى باب العمود، ومن هناك اندفعوا الى خارج السور يهاجمون العدو المتحصن في دير النوتردام. كانت الساعة تقارب السابعة والنصف صباحاً عندما بدأت السرية الثالثة هجومها على النوتردام. لقد سار الجنود مسافة طويلة مشيا على أقدامهم، ولم ينالوا سوى قسط ضئيل من النوم والراحة، ولكنهم كانوا يستمدون معيناً من القوة والقدرة على التحمل من فتوتهم وصلابة أعوادهم وخفة أبدانهم ومن حماستهم المشبوبة. تقدم الجنود وهم يطلقون نيران أسلحتهم، كما أخذ جنود الكتيبة السادسة المرابطون فوق الأسوار يساندون هجوم السرية. وكان هناك عدد من المدرعات تقصف مصادر نيران العدو برشاشاتها ومدافعها من عيار رطلين. كانت هناك أربع من تلك المدرعات تتمركز قبالة القنصلية البريطانية في المصرارة. ولكن لم يكن لديها عدد كاف من القنابل (١٢). ومضى جنود السرية نحو هدفهم بين البنايات تحت وابل من النار حتى وصلوا الى مسافة مائة متر من النوتردام، واجتازوا حاجز الأسلاك الشائكة بينما ازداد اطلاق النار من جانب العدو. كان هناك

قناصة للعدو في النوتردام وفي أبنية أخرى مجاورة. وأخذ جنود السرية يقصفون الباب الرئيسي بقنابل مدفع البيات، ولكن القصف لم يحدث أي تأثير. وبدأت القنابل اليدوية تنهال على الجنود المتقدمين من النوافذ العليا للبناية. وفي أثناء ذلك تساقط عدد من أفراد السرية بين قتيل وجريح. كان الملازم عيد أديلم في الصف الأول. أصيب ضابط صف الى جانبه بشظايا قنبلة فتهاوى على الارض. واستدار عيد نحو الرجل الجريح فأصابته صلية رشاش في رأسه وفي أنحاء أخرى من جسمه فسقط على الأرض. كان الوكيل فليّح ماطر (مساعد قائد السرية) غير بعيد عن المكان الذي سقط فيه القائد، فتقدم لاغاثته ولكنه اضطر الى الارتداد تحت شدة نيران العدو. كان الوقت عصرا حينذاك. اتضح للمساعد أن السرية لا تستطيع الوصول الى البناية، ولا تستطيع أن تنسحب عبر الأرض المكشوفة الى الوراء، لان ذلك سيؤدي الى وقوع خسائر أكبر بين الافراد. قرر أن يثبت في مواقعه الى أن تغيب الشمس.

واستمر القتال تحت وهج حرارة ذلك اليوم القائظ. وعندما أخذت الشمس تغيب وراء الأفق الأحمر، تراخت حدة القتال بالتدريج وخف ضجيج المعركة. كانت السرية قد خسرت ثمانية قتلى (بينهم باير تليج ومضفي البطون وصعفك زعال) واثنين وعشرين جريحا. كثيرون غير هؤلاء أصيبوا بجراح بسيطة ولكنهم تكتموا عليها وآثروا أن يستمروا في القتال على أن يتخلوا عن رفاقهم. ومع المغيب تقدمت ثلاث من مدرعات الكتيبة السادسة، وبواسطتها وتحت ستار نيرانها أمكن نقل القتلى والجرحى. ورويدا رويدا تراجع الجنود الى المباني المجاورة ومنها الى باب العمود. كانت السرية قد أمضت ٢٤ ساعة وهي في حركة مستمرة وقضت نحو ١٢ ساعة وهي تخوض معركة القتال. كان الجنود مرهقين وقد أضناهم الجوع والعطش. ولم تكن المعركة التي خاضوها معركة متكافئة، اذ كان القتال بين الأبنية وفي الشوارع الضيقة تجربة جديدة بالنسبة لهم، وهم أبناء البادية الذين نشأوا في الفلوات المفتوحة وكان مجالهم الأفضل أن يخوضوا الحرب في منطقة خالية من البنيان. استغرب البعض ان يؤمر الجنود بالسير على أقدامهم تلك المسافة الطويلة، بينما كان من الممكن أن تحملهم السيارات حتى تلة شعفاط. ولكن ذلك الأمر كان في نطاق القواعد العسكرية، اذ أن تقدم الجنود في السيارات، في منطقة قريبة من العدو، ينطوي على مجازفة ربما تنتج عنها عواقب خطيرة. وطوال ذلك اليوم لم يصل اليهم أي طعام،

لولا أن عبدالله التل ومعه بعض جنود الكتيبة السادسة زودوهم بالخبز والبرتقال (١٣).

كان مما زاد الوضع سوءاً ان سرية محمد نعمان لم تساند سرية عيد أديلم في الوقت الملائم، لانها انحرفت الى اليسار نحو مستشفى هداسا وهناك قابلتها نار العدو فأصيبت مدرعة تجرّ مدفع ٦ رطل. ولم تلبث السرية أن رجعت على طريق وادي الجوز الى باب العمود. وهذا كله استغرق وقتاً ثميناً. ومضى الملازم فندي عميش لاسترجاع المدرعة المعطوبة مع المدفع، وفي أثناء العودة أصيب بجراح في رجله وأصيب اثنان آخران بجراح خطيرة.

فيما بعد، وعندما ساد الهدؤ، وصف أحد الجنود البدو من أفراد الكتيبة الثالثة، دخوله ورفاقه الى القدس، بهذه الأبيات:

قرطنا ستر الدخان	والقنابل مشتغلات
والمدرّع جنب السور	تسمع حسّ الفيكرزات
حسّ القلّه يوم تجيك	تفضح القلب فوقيك
خذ الموضع قبل تجيك	ما هو فعل التعليمات (١٤)

معركة النوتردام

كان من جملة واجبات الكتيبة الثالثة بحسب الخطة الأساسية ان تستولي على بناية النوتردام، التي تقع على هضبة مرتفعة وتسيطر على حي المصرارة وعلى سور القدس القديمة بازاء الباب الجديد. لقد أسفر القتال الذي خاضته الكتيبة يوم السبت ٢٢ أيار عن تثبيت خط متصل من باب العمود الى حي الشيخ جراح، ولكنه لم يسفر عن مكاسب ذات أهمية. وكانت الأهداف التي عينت للكتيبة في الأصل ما تزال بأيدي العدو. وعلى رأس قائمة تلك الأهداف بناية النوتردام.

اتخذ قائد الكتيبة نيومان من فندق فريال مقرا لقيادته. وفي أثناء الليل وضعت الخطة للهجوم على النوتردام، وهي تقضي بأن تقوم بالهجوم المباشر السريتان الثانية (محمد نعمان) والرابعة (غازي الحربي) وأن تساندهما سرية المدرعات والسرية المساندة (الملازم فندي عميش). واقتضت الخطة أن يكون الهجوم من جهة الشمال (المصرارة) ومن جهة الشرق (باب العمود)، وأن تمهد له المدافع الثقيلة (من بيت حنينا).

قضى جنود الكتيبة ليلتهم تلك في الاستعداد وفي أخذ قسط من الراحة. أصبح صباح يوم الاحد ٢٣ أيار، وارتفعت الشمس فوق المدينة المقدسة لتطل على حركة محمومة من الجانبين. وبينما أعد ضباط سرايا المشاة جنودهم لخوض المعركة، تولى الملازم فندي عميش تركيز الأسلحة المساندة لتغطية الهجوم العتيد على الوجه التالي:

- ثمانية مدافع هاون عيار ٣ بوصات، تم تركيزها فوق أسوار المدينة القديمة فوق مغارة النبي سليمان المجاورة لباب العمود.
- مدفعان عيار ٦ رطل في باب العمود، وهو مدفع مقاوم للدروع ويمتاز بقدرته على الاختراق وصوته القوي المزعج.
- ست رشاشات من طراز براوننج وضعت على سطوح المنازل المواجهة لبناية النوتردام، وفي مقبرة الساهرة.

وفي الوقت نفسه أخذت أربع سياراتٍ مدرعة بقيادة زعل الرحيل تستعد لمساندة المشاة، بينما كان ضابط الملاحظة المرشح احسان الحلواني يعمل على« تثبيت» مواقع العدو لقصفها بمدافع ٢٥ رطلا.

كانت بناية النوتردام قد أُنشئت على طراز القلاع في القرون الوسطى، وقد عمل الأعداء في خلال الأيام القليلة الماضية على تحصين مداخلها بأكداس من أكياس الرمل وأغلقوا بابها الرئيسي بجدار من الاسمنت المسلح، وأحاطوها بسياج من الاسلاك الشائكة. ثم ان ضخامة البناية وتعدد طبقاتها، كانت تتيح لجنود العدو حرية التنقل من جهة الى أخرى، ومن طابق الى طابق، وهم في مأمن من أي خطر. كما ان جنود العدو كانوا يتمركزون في المستشفى الايطالي – وهو مجموعة مبان ضخمة على مسافة ٣٠٠ ياردة فقط الى الشمال من النوتردام – وكذلك في المستشفى الفرنسي وراء النوتردام من جهة الغرب. وقد كون العدو من هذه المواقع جبهة دفاعية عميقة وحصينة لم يكن من السهل السيطرة عليها.

في الساعة الثانية عشرة بدأ الهجوم. وأخذت قنابل مدافع الميدان عيار ٢٥ رطلا تتساقط على البناية. وأخذ جنود المشاة يتقدمون بين المنازل والشوارع الضيقة تحت نار الأسلحة المساندة. وارتفع دوي المعركة واشتعل الجو بانفجارات القنابل. كانت هناك عناصر للعدو في منازل مجاورة للنوتردام، فأخذ الجنود يطهرونها من غرفة الى غرفة.

وعندما سيطر جنود السرية الرابعة على تلك المنازل وأقبلوا علـى النوتـردام، استبدت بهم الحماسة فأخذوا يهزجون:

يالبنت يالّي بالبيت   شوفيني كنّي ذليــت

واقترب الجنود من البناية الضخمة حتى أصبحوا على مسافة ١٠٠ متر منها. عندئذ أضطرت الأسلحة المساندة ان تتوقف حتى لا تصيب الجنود المهاجمين بنيرانها. أما مدافع ٢ رطل المثبتة في المدرعات فلم تكن تستطيع ضرب الأهداف المواجهة لها بصورة افقية موازية للموقع الذي تطلق منه النار، وليس بالامكان رفع فوهاتها الى فوق. وكان الاعتماد بالدرجة الأولى على قنابل ٢٥ رطلا و ٦ رطل، لاحداث خرق في حدران البناية يتمكن جنود المشاة بواسطته من اقتحامها والدخول اليها. ولكن تلك الأسلحة – بالرغم من قوتها – لم تستطع احداث الخرق المطلوب بالنظر لسماكة الجدران ومتانتها.

عندما توقفت الأسلحة المساندة، أخذ جنود العدو يقذفون القنابل اليدوية ويطلقون نار الرشاشات من نوافذ البناية العليا. وأصيب عدد من جنود الكتيبة، وكانت إصابات البعض قاتلة. وتقدمت سيارة اسعاف (مدرعة مقصوصة) لنقل القتلى والجرحى فألقى اليهود عليها قنبلة يدوية فاحترقت. بينما ركض سائقها وجندي الاسعاف الى الخلف يطلبان النجاة. غضب نيومان لذلك غضبا شديدا (كان ضرب سيارة الاسعاف عملاً وحشيا لا يتفق مع أخلاقيات الحرب)، وطلب من المرشح الحلواني أن يشدد القصف المدفعي. ولكي يتمكن من تركيز التصويب أكثر وأكثر، انتقل المرشح الحلواني الى مئذنة جامع سعد وسعيد المواجهة للنوتردام وأخذ يرشد الرماية، ولكن القنابل لم تؤثر كثيراً.

في ساعة العصر أصبح حاجز الأسلاك الشائكة تحت نار جنود الكتيبة. كان لا بد من فتح ثغرة فيه. كان غازي الحربي وعدد من جنوده في بناية بيضاء كبيرة شمالي النوتردام ولا تبعد كثيرا عنها. طلب غازي ثلاثة مقصات فجيء بها. قال يخاطب رجاله: هذه ثلاثة مقصات ياجنود، فمن يتطوع لقصّ الأسلاك ويفتح لنا الطريق؟ تطوع الجندي رخيّص عايد (بني صخر) والجندي عزيز الساطي (عتيبه) والجندي خلف (شمّر). تقدم هؤلاء الثلاثة تحت النار الساترة وتمكنوا من قص الأسلاك وفتح ثغرة فيها. أطلق اليهود عليهم النار ولكنهم لم يصيبوا أحداً منهم. في تلك اللحظات خيل لغازي ان المدافعين عن البناية انسحبوا فأراد ان يطلق اشارة الانتصار ثم يندفع نحوها على رأس جنوده، ولكن قائد المدرعات

أقنعه بأن لا يفعل، بعد ان شاهد من خلال منظاره جنود العدو وراء أكياس الرمل في الشرفات وعلى رؤوسهم الخوذ وبأيديهم القنابل اليدوية، وهم يتربصون انتظاراً لاقتراب الجنود.

لم يتمكن جنود السرية الثانية بدورهم من الوصول الى بنك باركلس. لقد تقدم هؤلاء من الباب الجديد. بينما تقدمت فئة من جنود السرية الثالثة بقيادة ركن الكتيبة (الملازم الاول خالد مجلي) من جهة باب العمود. ولكن نار العدو أوقفت تقدم القوتين.

وفي أثناء تبادل النار أصيب قائد السرية الثانية الملازم محمد نعمان بشظية هاون في أعلى فخذه فحمله جنوده الى الخلف (١٥). أحد الجنود الجرحى ظل يزحف الى الخلف حتى التصق بالسور، وفي أثناء الليل سحبه رفاقه بواسطة الحبال من فوق السور. وازاء كثافة نار العدو اضطر جنود السريتين الى التراجع عبر الباب الجديد للاحتماء بالأسوار. ولكن فئات السرية الثالثة الأخرى بقيادة الوكيل فليّح ماطر، لم تجد مقاومة كبيرة وهي تتقدم للاستيلاء على عدد من الأبنية الى الغرب من النوتردام. وعندما أقبل الليل تمركز جنود تلك الفئات في مواقعهم، وكذلك جنود السرية الرابعة.

في أثناء الليل رتب قائد الكتيبة الثالثة مع قائد بطارية المدفعية أمر الاتيان بأحد المدافع الثقيلة الى القدس ليقصف بناية النوتردام بقنابل مباشرة. ومضى المرشح احسان الحلواني الى بيت حنينا، وفي الصباح الباكر عاد في مدرعة مقصوصة تجر المدفع تحت حماية مدرعتين. عندما مرت المدرعات في الشيخ جراح أطلق عليها العدو ناراً كثيفة، ولكن الرصاص لم يخترق المدرعات. كان من كثافة النار أن أصيبت عجلات المدرعة التي تجر المدفع وأصيبت الفتحة الزجاجية الضيقة التي يرى السائق منها الطريق. ومع ذلك استمر السائق في سيره حتى اجتاز مسافة الأرض المكشوفة أمام نار العدو. وفي مقبرة باب الساهرة تم نصب المدفع وراء جدار. كان مع المدفع أفراد مرتبه الستة (بين هؤلاء ضابط صف بريطاني كان تطوع للقتال في صفوف الجيش). وفي نحو الساعة العاشرة بدأ قصف النوتردام بقنابل مباشرة من مسافة لا تتجاوز ٤٠٠ متر. كان ذلك عملاً استثنائياً لان المدفع في الأصل مدفع ميدان يطلق قنابله بصورة قوسية. واهتزت بناية النوتردام. ولاحظ المرشح الحلواني أحد جنود العدو يسقط من قبة البناية ومعه رشاشه. واستمر اطلاق القنابل نحو ساعتين. في أثناء ذلك جاء روبنسون قائد البطارية ليراقب العملية. ولم تلبث القنابل

أن فتحت ثغرة واسعة في واجهة النوتردام.

وعند الظهر كان المدفع قد قصف البناية بخمس عشرة قنبلة. ثم قرر ضابط المدفع أن يعود به الى مقره في بيت حنينا بعد ان قام بالمهمة المحدودة التي كلف بها. لقد بدا كأن اطلاق النار توقف من البناية وأن جنود العدو أركنوا الى الفرار. وخشية من نار العدو على الأرض المكشوفة في الشيخ جراح، فقد أعيد المدفع عن طريق رأس العمود – اريحا – نابلس – رام الله.

في الوقت الذي أخذت قنابل المدفع الثقيل تقصف بناية النوتردام، كان عدد من جنود السرية الرابعة قد وصلوا الى الطابق الأرضي منها. لقد استأنف غازي الحربي هجومه مع فجر ذلك اليوم (الاثنين ٢٤ ايار)، وتقدم على رأس فئة من جنوده في هجمة صادقة فاستطاعوا أن يفتحوا الباب الحديدي الكبير بقنابل مدفع بيات كانوا يحملونه. وركض نحو عشرة منهم الى الطابق الأرضي وغازي في طليعتهم. أما أكثر جنود السرية فقد ظلوا في ساحة البناية وحديقتها، تحول النار التي أخذ جنود العدو يصبونها عليهم من الطوابق العليا – دون انضمامهم الى رفاقهم الذين سبقوهم. حاول غازي ورجاله أن يصعدوا الى الطوابق الأخرى، ولكن نار العدو من فوقهم لم تتح لهم أية فرصة. وزاد موقف الجنود المتمركزين في الحديقة حرجا ان بعض المناضلين العرب كانوا يحتلون منزلاً الى اليمين، وعندما شاهدوا أشخاصاً يتحركون في حديقة النوتردام، أخذوا يطلقون عليهم النار اعتقاداً منهم بأن هؤلاء من جنود العدو.

في تلك الأثناء أصيب الجندي رخيّص عايد وهو في ساحة النوتردام برصاصة في بطنه فدلقت أمعاؤه. وقد بادر رفاقه فنقلوه الى الخلف (شفي فيما بعد).

في ساعة الضحى أيقن غازي الحربي أن وضعه حرج لان نار العدو وقنابله المسلطة من فوق فصلت بينه وبين بقية أفراد سريته الذين ظلوا في ساحة النوتردام وبستانها، متسترين هنا وهناك. وبادر غازي الى الاتصال لاسلكيا بقيادة الكتيبة ليبلغها انه احتل الطابق الأرضي وأنه بحاجة الى تعزيزات لاحتلال البناية كلها. أجابه قائد الكتيبة بأنه ليست لديه أوامر لارسال تعزيزات. ثم وصلت اليه برقية (بواسطة احدى المدرعات) من قائد الكتيبة يأمره بالانسحاب. رد غازي على البرقية قائلا: لن انسحب. ووصلت اليه بعد ذلك برقيتان أخريان تأمرانه بالانسحاب وكان جوابه الرفض. في تلك الفترة كان اطلاق النار على أشدّه ودوي الانفجارات يصم الاذان. أخذ جنود العدو يلقون قنابل دخانية وقنابل

محرقة على الطابق الأرضي فأصيب عدد من الجنود بجراح، وقُتل النائب محمد علي عويد (عتيبة). تضايق الجنود من العطش والجوع في ذلك اليوم الملتهب الطويل. عثروا على معلبات ولكنهم خشوا ان تكون مسمومة فلم يفتحوا أيا منها. ظلوا على هذه الحال طوال اليوم حتى أيقن قائدهم بعدم فائدة الانتظار. بعد الغروب بساعتين انسحب هو وجنوده تحت حماية رشاشاتهم، وعادوا الى البيت الأبيض الذي انطلقوا منه قبل ١٤ ساعة. ولكن في أثناء الانسحاب قتل اثنان من الجنود وبقيت جثتاهما على الأرض. في اليوم التالي ذهب الملازم عميش لاحضار الجثتين في مدرعة مقصوصة تحت حماية نار الأسلحة الساترة. تقدمت المدرعة في شارع ضيق جانبي. عند طرف الشارع نزل الملازم وجنديان لنقل الجثتين بينما أخذ السائق علي يدير المدرعة الى الوراء استعداداً للعودة، ولكن المدرعة وقفت في عرض الشارع بسبب ضيق المسافة. أحد افراد العدو شاهد ما يجري فألقى قنبلة يدوية أخذت تتدحرج مع انحدار الشارع حتى استقرت تحت المدرعة ولم تلبث أن انفجرت، فاشتعلت فيها النار. في تلك الاثناء كان الملازم ورفيقاه قد نقلوا الجثتين الى الشارع الضيق، ثم جيء لهم بنقالة فعادوا بهما، بينا ظلت النار تشتعل في المدرعة طوال الليل، وفي الصباح لم يكن بقي منها الا الهيكل. أما السائق فقد أصيب بجروح في فخذه وهو يغادر المدرعة فركض طلبا للنجاة، وبعد أن قضى اسبوعين في المستشفى، مضى الى نجد لزيارة أهله من قبيلة عتيبة (١٦).

وهكذا أخفق الهجوم على النوتردام بعد ثلاثة أيام من القتال العنيف. ونتيجة لذلك تولد اقتناع عند قيادة الجيش انها لا تملك القوات الكافية لشن مزيد من الحملات الهجومية في داخل مدينة القدس.

يقول الفريق جلوب في كتابه (جندي مع العرب) ما خلاصته:

أُضطر جنود المشاة الى الانسحاب من بناية النوتردام بعد أن أصبحوا مطوقين تقريباً. كان عدد القتلى والجرحى قد ارتفع الى حد خطير – فمن مجموع مائتي رجل بدأوا الهجوم، كان النصف قد لاقوا حتوفهم أو أصيبوا بجراح عميقة. كالعادة كان الذين يصابون بجراح خفيفة يتكتمون عليها ويبقون في خط النار. السرية الرابعة فقدت جميع الضباط وضباط الصف باستثناء واحد. لقد خاض ضباط الكتيبة الثالثة وأفرادها معركة القتال بشجاعة فائقة واقدام عظيم طوال ثلاثة أيام. حاربوا بتصميم واندفاع على الرغم من

العطش والعرق والجوع أحيانا. كتب بل نيومان قائد الكتيبة يقول:

«لم يكن بمقدور أي جنود أن يفعلوا أفضل مما فعل هؤلاء».

في اليوم التالي زرت أفراد الكتيبة. جاءني غازي الحربي الذي خاض معارك القتال ثلاثين عاما في شبه الجزيرة العربية، وانهلّت الدموع على وجهه المتغضن الذي لوحته الشمس وهو يرجوني أن أوافق على شن هجوم آخر على النوتردام. قال بلهجة الواثق: «سنحتلها هذه المرة يا أبو فارس». ولكنني لم أوافق. كان عدد رجال الكتيبة الثالثة قد هبط الان الى ٥٠٠ رجل فقط، ينتشرون بين الشوارع والمنازل ولا يوجد وراءهم جندي واحد من القدس الى عمان. في وضع كهذا لم يكن بمقدورنا الاقدام على مغامرات. لم يكن لدينا احتياط ولم يكن عتادنا يكفي لأكثر من اسبوعي قتال. لقد أنقذنا المدينة القديمة وثبتنا خط دفاعنا ومنعنا اليهود من الاستيلاء على المدينة بكاملها... اننا لا نستطيع أن نغامر بفقد جنودنا المدربين من أجل الاستيلاء على مبنى. وقلت لغازي: سوف نأخذ النوتردام فيما بعد. وأجاب غازي بهدوء: ان شاء الله.

كان الاخفاق في الاستيلاء على النوتردام أمراً مهمّاً في معركة القدس، اذ احتفظ اليهود بتلك السلسلة من الأبنية القائمة على الهضبة المرتفعة (النوتردام والمستشفى الايطالي والمستشفى الفرنسي) وبقي الأردنيون في الأراضي المنخفضة المقابلة لها. وليس من المؤكد أو المحتمل أن استيلاء الجيش العربي على النوتردام - لو حدث بالفعل - كان سيؤدي الى استيلائه على مناطق أخرى من القدس الجديدة أو عليها كلها، ولكن الاستيلاء عليها (النوتردام) كان سيؤدي حتماً الى تحسين وضع القوات الأردنية في القدس.

المهم في الأمر أن القوات الأردنية في القدس الجديدة تحولت منذ ذلك اليوم الى الدفاع، بينما انتقل الأعداء الى الهجوم. وظلت الكتيبة الثالثة تتمركز في مواقعها الدفاعية تلك حتى ١٧ أيلول ١٩٤٨ عندما حلت الكتيبة الخامسة (بقيادة و.ق. علي الحياري) محلها.

تضاربت الآراء حول مدى الصواب في القرار الذي اتخذه الفريق جلوب بعدم الاستمرار في الهجوم على النوتردام. عدد من العسكريين الأردنيين الذين تحدثت اليهم (غازي الحربي، زعل الرحيل، فندي عميش، بادي عواد، فهد مقبول) يعتقدون انه كان بالامكان الاستيلاء على النوتردام لو ان الفريق جلوب عمل على تعزيز سرية غازي. فهناك قول بأن قائد الكتيبة ومساعده (نيومان وهنكن تيرفن) لم يضعا خطة محكمة للهجوم،

وأمضيا معظم الوقت في فندق فريال، وان المدفع الثقيل توقف عن اطـلاق النـار فـي وقت حرج، بينما كان يجب ان يستمر في قصف البناية، وان القوة المهاجمـة كـان ينقصـهـا فئـة تدمير تزرع الألغام في جدران البناية وتقوم بتفجيرها. قال غازي بكل ثقة انه كان بالامكان احتلال البناية لو أرسلت قيادة الكتيبة تعزيزات اليـه، وانـه تنـاقش فـي الموضـوع مـع قـائد الكتيبة بعد ذلك فقال له انه عسكري وعليه اطاعة الأوامر، وان أوامر جلـوب ولاش كـانت تقضي بأن لا يرسل اليه تعزيـزات. وكـان مـن جملـة الانتقـادات علـى خطـة المعركـة: ان الهجوم بدأ ظهرا واستمر حتى مغيب الشمس، فكان الضوء السـاطع فـي عيـون المهـاجمين طوال الوقت، بينما لو بدأ الهجوم في الصباح لكانت الشمس في عيون المدافعين. (١٧)

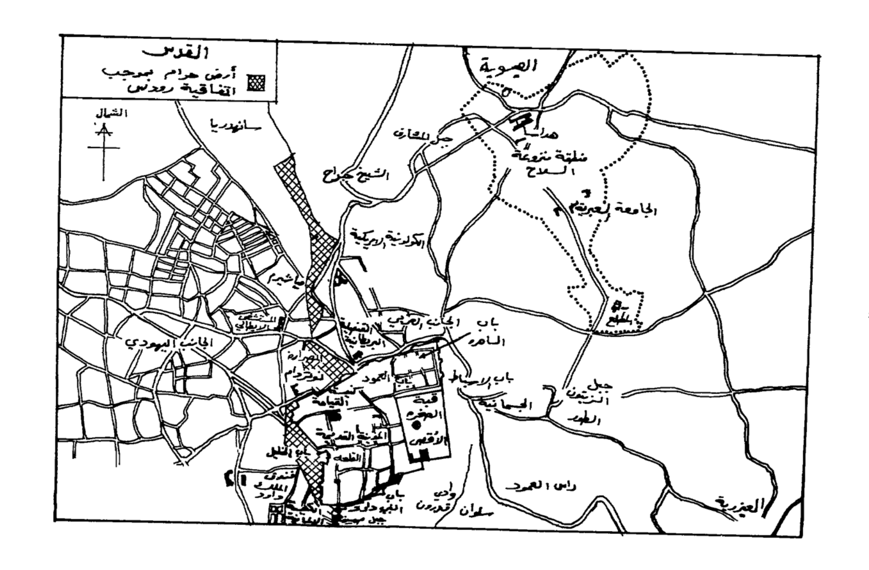
وعلى رأي علي ابونوار: ان مهاجمة النوتردام كانت عملية تكتيكية لا تؤدي الى غايـة مهمة، وانه كان الأولى بالجيش ان يهاجم القدس الجديدة على خط مستقيم من مركز شرطة الشيخ جراح، ثم الانحراف الى اليسار خلف مشيرم. بـل كـان الأجـدر اسـتراتيجيا مهاجمـة القدس الجديدة من منطقة جبل المكبر – بيت لحم.

ويقول فندي عميـش ان قـائد الكتيبـة نيومـان (اوسـترالي اشـترك فـي معـارك الحـرب العالمية الثانية) كان ينتقد قيادة الجيش التي أرسلت كتيبته للقتال في القدس وليـس الـى بـاب الواد، وانه كان يصف القادة الانكليز بالجهل والاهتمام بالقضايا السياسية اكثر من الاهتمـام بأصول الفن العسكري.

ولكننا مقابل هذا نـرى زعـل الرحيـل يقـول ان معنويـات أفـراد السـرية الثانيـة كـانت ضعيفـة بعـد ان أصيب قـائدهم محمـد نعمـان بجـراح، وأنـه وجدهـم فـي القـدس القديمـة «يتذمرون من أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون، ولم تكن عندهم خطة». ونرى ان القوتين اللتيـن تقدمتا من ناحية السور لم تتمكنا من الوصول الى البنايـة بسـبب النـار التـي كـانت تنصـب عليهما.

كما ان الملازم عطا علي أستدعي من الشيخ جـراح لكـي يتولـى قيـادة السـرية الثانيـة «بسبب النقص في الضباط» وكثرة الخسائر.

فهل كان يجدر بالقائد المسؤول ان يستمر في دفـع جنـوده الـى مهاجمـة قلعـة عظيمـة دون أن تكون لديه الأسلحة الضرورية (مدفع حصـار مثـلا) لضمـان النجـاح؟ وهـل كـانت حماسة الأفراد تبرر مزيداً من الخسائر؟


القدس
أرض حرام بموجب اتفاقية رودس
الشمال
سانهدريا
الشيخ جراح
جبل المشارف
هداسا
منطقة منزوعة السلاح
الجامعة العبرية
الكولونية الأمريكية
الجانب اليهودي
الجانب العربي
باب الساهرة
باب العمود
باب الأسباط
القنصلية البريطانية
كنيسة القيامة
قبة الصخرة
الأقصى
الجسمانية
جبل الزيتون
الطور
راس العمود
العيزرية
سلوان
وادي قدرون
باب الخليل
القلعة
فندق الملك داود
جبل صهيون
الصوانة

المهم ان الانسحاب من النوتردام ترك في نفوس الضباط والجنود مرارة لم تمحها الأعوام.

وكانت قيادة اللواء والكتيبة الأولى تحركا يوم ٢٣ ايار من منطقة نابلس - بعد وصول طلائع القوات العراقية الى تلك المنطقة. ووصلت قيادة اللواء والكتيبة في اليوم نفسه الى قطاع رام الله واتخذتا من خربة أداسا، قرب رام الله، مركزاً لهما.

رامات راحيل

تقع هذه المستعمرة على مسافة خمسة كيلو مترات الى الجنوب من القدس. وقد أنشئت على رابية مرتفعة شرقي طريق القدس - بيت لحم. وبحكم موقعها هذا كانت تشرف على تلك الطريق وعلى أحياء القطمون وتلبيوت وميكور حاييم وعلى معسكر العلمين، والى الشرق من المستعمرة تقوم قرية صور باهر. وما كاد الانكليز يغادرون القدس يوم ١٤ ايار حتى قام المحاربون اليهود منها بقطع الطريق، فتوقف بذلك الاتصال بين القدس من جهة وبين بيت لحم والخليل من جهة أخرى. كان ذلك يعني قطع الطريق بين فلسطين الجنوبية كلها وبين فلسطين الى الشمال والشرق من القدس، لانها كانت الطريق المعبدة الوحيدة بين الجنوب والمناطق الأخرى.

كانت في بيت لحم يومذاك مجموعة من مناضلي الجهاد المقدس بقيادة أبراهيم ابوديه، فبدأت المناوشات بين الطرفين. وجاء الشيخ محمد علي الجعبري والرئيس حكمت مهيار والملازم الاول نزار المفلح من الخليل الى بيت لحم، واتفقوا فيما بينهم على مهاجمة المستعمرة واعادة فتح الطريق الى القدس. وقد تم الاتفاق ان تشترك في الهجوم:

- فئة من السرية الثانية عشرة بقيادة نزار المفلح.
- مدرعتان يقودهما النائب عبدالله قاعد.
- ٥٠ مناضلا من الخليل (وهم المناضلون الذين دربهم الجيش العربي) ويقودهم النائب محمد عبدالله ابوالعاص.
- مجموعة الجهاد المقدس بقيادة ابراهيم ابوديه.
- سرية اسامة من المناضلين الأردنيين بقيادة فارس عقيل.

بدأ هجوم هذه القوة المشتركة يوم ١٥ ايار، فتقدم الجنود والمناضلون نحو المستعمرة

تحت غطاء من نار المدرعتين، وظل القتال مستمراً طوال يومين، اذ ان العدو أبدى مقاومة مستميتة. ولكن القوة العربية استمرت في الضغط حتى تمت الغلبة لها يوم ١٧ ايار فاستولت على المستعمرة، بينما انسحب جنود العدو. وفي أثناء الهجوم أصيب ابراهيم أبودية بجراح خطيرة. واستشهد محمد صالح الشالاتي من سرية اسامة. وقد وصف أحد ضباط منظمة الأرغون هذه المعركة فقال ان حامية المستعمرة كانت تتألف من ٤٠٠ مقاتل، وان اليهود خسروا عددا من القتلى والأسرى (لا تذكر المصادر العربية وقوع أي أسرى من اليهود)، وخسروا المدفع الوحيد الذي كان معهم، ثم اضطر الباقون الى الانسحاب.

ما كادت المستعمرة تسقط بأيدي القوة العربية حتى اندفع اليها القرويون وأخذوا ينهبون ما فيها. وفقد قادة المناضلين السيطرة على الوضع، ولم تستطع قوة الجيش أن تكبح جماح القرويين. وفي أثناء ذلك اشتعلت النار في بعض أبنية المستعمرة. وكانت النتيجة ان العدو لم يلبث أن قام بهجوم معاكس يوم ١٩ أيار، فاضطر الجنود والمناضلون الى الانسحاب من المستعمرة بعد يومين من استيلائهم عليها.

على ان تقدم القوات المصرية من الجنوب أنعش آمال أهل الخليل وبيت لحم، فذهب وفد من أهل الخليل يوم ١٩ أيار الى بئر السبع وطلب من القائد أحمد عبدالعزيز أن يرسل جزءا من قواته للاشتراك مع القوات الأردنية في الدفاع عن منطقتهم. وعلى الرغم من أن قوة أحمد عبدالعزيز كانت تتألف من متطوعين، الا انه كان يملك عددا من المدافع التي عززت ثقته بمقدرة قوته الحربية، فلبّى طلب الوفد وزحف صوب الخليل فوصل اليها في يوم ٢٠ أيار (١٨).

لم يبق أحمد عبدالعزيز طويلاً في الخليل، بل أسرع بالتقدم الى بيت لحم فبلغها على رأس قوة صغيرة في اليوم التالي، وبادر الى نصب بضعة مدافع كانت معه في محاجر بيت لحم. وللمرة الثانية تم اعداد الترتيبات لمهاجمة رامات راحيل، على أن تقوم بذلك الوحدات التالية:

- فئة من الجيش العربي بقيادة الملازم الأول قاسم الناصر
- مدرعتان يقودهما النائب عبدالله قاعد
- المناضلون من الجهاد المقدس، ومناضلون من قرية صور باهر بقيادة جاد الله محمود

- المتطوعون المصريون (نحو خمسين)
- المناضلون من أهل الخليل
- مجموعة مناضلين من بني صخر بقيادة الشيخ محمد الفايز

بدأ الهجوم في الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٣ أيار، وقد قامت المدافع المصرية بالتمهيد له فقصفت المستعمرة بوابل من القنابل. ثم تقدم الجنود والمناضلون واستطاعوا الاستيلاء على جانب من أبنية المستعمرة. بينما ظل العدو يتشبث بالجانب الآخر. ولحقت بالمهاجمين جملة خسائر وسقط منهم عدد من الشهداء. وفي أثناء الليل وصلت الى العدو نجدات من القدس الجديدة، فعمدت هذه للقيام بهجوم معاكس. وكانت فئة الجيش العربي تتمركز في بناية كبيرة، فتبادلت اطلاق النار مع المهاجمين وألحقت بهم جملة خسائر، وقتل اثنان من أفرادها (الجندي محمد عطيه خليل الصرايرة والعريف محمد سليم المومني). وأدرك الملازم الناصر خطورة وضعه فعمد الى الانسحاب بعد أن وضع لغمين في أسفل البناية بمساعدة مجاهد يوغسلافي. وكان آخر من بقي في البناية اثنان هما الضابط والجندي الاول عبدالله عبدالحميد الخصاونة. رفض الجندي الخروج أولا، ولكن الضابط أمسكه بكتفه ودفعه أمامه بالقوة، وخرجا.

وهكذا استعاد اليهود المستعمرة، ولم يكتفوا بذلك بل تابعوا القوة المنسحبة الى دير مار الياس، ثم تراجعوا عائدين الى مستعمرتهم. أما العرب فلم يعودوا لمهاجمة رامات راحيل بعد ذلك (١٩).

الفصل الثالث

١ – سجلات مجلس الامن الدولي، الوثيقة S/748 صفحة ٩٠، السنة الثالثة، ملحق شهر أيار ١٩٤٨.

٢ – الوثائق البريطانية الملف: F. O. 371/68829 والملف F. O. 371/68853

٣ – على قول عارف العارف ان جنود جيش الانقاذ انسحبوا من الحي الذي يقع فيه باب النبي داؤد وتركوا ذلك الباب مفتوحا (النكبة صفحة ٧٧٦).

٤ – من مفارقات الفوضى في تلك الايام أن المناضلين كانوا يتمركزون في بناية النوتردام، بعد ان اخرجوا جنود الهاجاناه منها يوم ١٥ ايار. وعندما وصلت القوة الأولى من سرية الامن الى الباب الجديد شاهد افرادها اولئك المناضلين فانضم بعضهم اليهم. ويقول المجاهد ابراهيم السمريه (من كفر سوم) انه كان مسؤولا عن ١٤ مناضلا في النوتردام، وانهم كانوا منذ يومين يتعرضون لهجوم عنيف من قبل اليهود. ويظهر انهم انسحبوا من البناية، بعد ان انسحب جنود سرية الامن منها ومن الباب الجديد عندما تلقوا أمر قائد السرية بالانضمام اليه امام مستشفى الهوسبيس، دون ان يدرك أحد أهمية موقعها. ونفهم من ابراهيم السمريه ان فاضل عبدالله ارسل مجموعة من المناضلين السوريين لكي تحل محل مجموعته، وان هؤلاء هم الذين انسحبوا من النوتردام فدخل اليهود اليها. وربما كانت أوامر فاضل بالانكفاء الى داخل السور وراء التخلي عن النوتردام.

٥ – كان هناك عدد من المتطوعين الانكليز يحاربون في صفوف المناضلين. فر اكثرهم من الخدمة في الجيش البريطاني وكانوا ناقمين على اليهود لقتلهم زملاء لهم. احدهم اتخذ اسم عبدالغني غيث، وآخر اتخذ اسم ابو علي، وثالث اتخذ اسم (سعيد). لم يلبث هؤلاء ان التحقوا بسرية الامن الاولى وكان عددهم نحو عشرين. وظلوا يشاركون في المعارك حتى الهدنة الثانية. شهد لهم كثيرون بالشجاعة والاخلاص. هذا مع العلم ان عدداً آخر من الانكليز كان يقاتل في صفوف اليهود. وكان هناك شخص انكليزي بين الاسرى الذين وقعوا في ايدي الجيش العربي عند سقوط الحي اليهودي.

٦ – انني مدين للكولونيل هـ. ف سليد الذي ارسل لي صورة عن امر المعركة، ووصفا لمراحل الهجوم حتى الوقت الذي أصيب فيه، واضطر الى التخلي عن قيادة القوة المهاجمة. والذي وضع أمر المعركة هو و. ق. جون داونز، ركن العمليات في قيادة الفرقة.

٧ - بقي سليد تحت العلاج بضعة ايام فقط، عاد بعدها لقيادة الكتيبة الثانيه. وفي ٣٠ ايار أعيد الى الضفة الشرقية مع غيره من الضباط الانكليز، وبقي هناك حتى آب عندما عاد لقيادة الكتيبه. بقي في خدمة الجيش العربي حتى سنة ١٩٥٢ وجدير بالذكر انه كان الوحيد بين الضباط الانكليز الذي منح وسام الاقدام.

٨ - كتاب O Jerusalem الصفحات ٤٤٦ - ٤٥٥.

وكتاب Both Sides of the Hill الصفحات ١٨١ - ١٨٧ و ١٩٥.

٩ - كان بوكانن احد ضباط قوة حدود شرق الاردن، ثم انضم الى الجيش العربي.
ومن غرائب القدر انه اصيب وحده عند انفجار القنبله، بينما لم يصب احد غيره من الضباط الذين كانوا يحيطون به.
ونقل بوكانن الى مستشفى الجيش في الزرقاء وهناك زاره الملك عبد الله وبعد ان شفي من جراحه (بقيت ثلاث شظايا في ظهره) عاد الى اللطرون في اثناء فترة الهدنة الاولى. لكن خدمته لم تطل بعد ذلك فعاد الى بلاده.
(رساله من بوكانن بتاريخ ٢ تشرين الاول ١٩٨٢).

١٠ - عاد محمد المعايطه الى خط القتال بعد تضميد جراحه، ولكنه لم يلبث ان نقل بعد ثلاثة ايام الى معسكر العبدلي في عمان، وبقي هناك شبه محجوز فترة من الزمن، لاتهامه بالاسراف في اطلاق قنابل المدفعيه، الى ان تدخل الملك عبد الله في امره فنقل الى سلك الشرطه. وقد قال له الملك عبد الله يومذاك: اننا يا بني نتمنى لو كنا نملك السلاح والمال من مصادرنا لكي نخوض الحرب كما نريد، ولكننا مضطرون لمسايرة الانكليز بسبب حاجتنا اليهم.

١١ - يقول القاوقجي في مذكراته ان اللواء نور الدين محمود (وكيل القائد العام للجيوش العربيه) ابلغه في ١٣ ايار ان مهمة جيش الانقاذ تنتهي بعد دخول الجيوش النظاميه، وانه اخذ يسحب قواته - على غير رغبة منه - من قطاع نابلس ورام الله ابتداء من ١٧ ايار، وان الفريق جلوب حاول ان يحمله على تبديل خطة الانسحاب وتاخيرها فرفض قائلا انه يتلقى أوامره من القياده العليا. وقال انه أتم الانسحاب في ٢٣ ايار.
فلسطين في مذكرات القاوقجي، اعداد الدكتوره خيريه قاسميه.
منشورات: مركز الابحاث الفلسطيني ودار القدس، بيروت، ١٩٧٥.
وهذه المذكرات ليست مصدرا موثوقا ويجب ان تؤخذ بحذر لانها كتبت باسلوب اعتذاري تبريري.

١٢ – ذات يوم لاحظ الميجر هنكن تيرفن مساعد قائد الكتيبة الثالثه ان المدرعات تقصف العدو بقنابل متلاحقه فقال للملازم زعل الرحيل: هذه القنابل تصنع في بريطانيا وتكلف مالا كثيرا. عندما يبدأ العرب في صنع القنابل فاضرب بقدر ما تريد.

١٣ – وصف الفريق جلوب استشهاد عيد اديلم بقوله:

قبل خمسة عشر عاماً جاء الي في الباديه – فتى في اوائل العقد الثاني من العمر لكي ينخرط جنديا في قوة الباديه.
لقد خدمنا سوية فترة طويلة من هذه السنوات الخمس عشرة – وكنا نلتقي باستمرار.
وفي خلال ذلك كبر الفتى واصبح (كما قال قائد كتيبته) ضابطا على قدر كبير من الجاذبية والاقدام. وها هو الان ممدد تحت بطانيه، وقد لفه سكون الموت في بناية اصابها الدمار في شوارع القدس الحافلة بالغبار.

١٤ – اندفعنا مسرعين نعبر حاجز الدخان الذي تصاعد بفعل انفجارات القنابل، بينما كانت تصك الاسماع لعلعة رشاشات الفيكرز من المدرعات المتقدمة الى جانب السور. وكلما اقبلت قنبلة اشتد خفقان القلب. وكان لا بد من التثبّت هنيهة في الموضع، هنا وهناك، اتقاء للخطر الداهم وليس انصياعا للتعليمات.

١٥ – كان الملازم عطا علي – أحد ضباط الكتيبة الثالثة – قد التحق بوكيل القائد عبد الحليم الساكت في الشيخ جراح ليكون ركن حرب معه. ولكنه لم يلبث ان استدعي ليتسلّم قيادة السرية الثانية بعد اصابة محمد نعمان.

١٦ – اخبرني غازي الحربي عندما اجتمعت به في الزرقاء يوم ٧ تموز ١٩٧٢ انه يحتفظ في منزله بالرياض بنصوص البرقيات الست التي تبادلها مع قائد الكتيبة في اثناء وجوده في النوتردام. اما علي، سائق المدرعة المحترقة، فقد عاد الى الأردن بعد ثلاثة أشهر وشرح للفريق جلوب ما حدث فامر باعادته للخدمة في كتيبته.

١٧ – فيما بعد حدث مثل هذا في معركة البرج. وقال لي احد كبار العسكريين: ان السوريين واجهوا نفس المشكلة في الهجوم الذي شنوه بعد ظهر يوم ٦ تشرين الاول ١٩٧٣، ولذلك لم يوفقوا الى تحقيق انتصارات تماثل انتصارات المصريين في تلك الحرب.

١٨ – كان تقدم المصريين الى الخليل خطأ فادحا، كما أثبتت الأحداث فيما بعد، فانهم علـى الرغم مـن قلـة عددهـم وعددهـم – نسـبيا – وضعوا نصب أعينهـم الانتشـار فـي منـاطق واسـعة دون ان يقضوا قبل ذلك على المستعمرات اليهودية التي خلفوها وراءهم، وكان في وجودها الخطر كـل الخطر. ثم أن منطقة الخليل – بيت لحم كـانت ضمـن مسـؤولية الجيش الأردنـي، بدليـل وجـود السرية ١٢ فيها. وكانت تلك السرية ترفع العلم الأردنـي علـىدور الحكومـة ومراكـز الشـرطة. ولم يلبث الخلاف ان نشب بين قوتين تمثل كـل منهمـا دولـة وتحـاول ان تكـون وحدهـا صاحبـة السلطة. وزاد الوضع سوءا ان الاهلين انقسموا بين متحزب للاردن ومتحزب لمصر، فكان فـي ذلك كله ضرر على البلاد وأهلها.

١٩ – يقول عارف العارف ان العرب اشتغلوا بالنهب "بل اقتتلوا على الغنائم" (النكبة صفحة ٤٠٣). ويقول جلوب " ثم تفرق العرب للنهب فاستعاد اليهود الضاحية". وتقـول مصـادر يهوديـة ان العرب استولوا على المستعمرة ثلاث مرات، وان اليهود أخرجوهم منها في المرات الثلاث.

عزيزي غلوب باشا

ان موقع القدس من العرب والمسلمين ونصارا العرب معلوم وان وقوع اي كارثة من اليهود على اهلها كأن يقتلوا او يجلوا امر عظيم التبعة علينا ولا يزال الموقف ليس بالمأيوس منه وأني آمر بلزوم الاحتفاظ بما هو تحت ايدينا الآن البلدة القديمة وطريق اريحا اما بواسطة القوات التي في نواحي رام الله او بارسال قوة من احتياط القوات هناك اني ارجو ان تنفذوا هذا الامر بكل سرعة عزيزي

[illegible]

صورة الرسالة التي بعث بهـا الملـك عبداللـه الـى الفريـق جلـوب، يـأمر فيهـا بدخـول الجيش العربي الى القدس.

الفصل الرابع

معارك اللطرون وباب الواد

هم أردنيون وفي اللطرون من دمهم ... تزهو شقائق نعمانٍ ونوّارُ

سقوا رياحين باب الواد ظامئةً ... نسغ الصدور، فباب الواد معطارُ

وما فلسطين والأردن، ما افترقا، ... الا قرابٌ تلظى منه بتّارُ

يوسف الخطيب

فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً ... تقوم مقام النصر إن فاته النصرُ

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه ... إليه الحفاظ المرّ والخلق الوعرُ

ونفسٌ تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفرُ

فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها: من تحت أخمصك الحشرُ

ابو تمام الطائي.



أهداف القيادات

تنبع أهمية المواقع التي تمتد من القدس باتجاه الغرب، من كونها منطقة جبلية وعرة، تمر من منتصفها الطريق الوحيدة التي تربط بين القدس والسهل الساحلي. وتسير هذه الطريق في واد سحيق، وتشرف عليها من الجانبين جبال شاهقة وعرة. وقد شهدت هذه المنطقة عبر عصور التاريخ معارك ضارية بين القوات القادمة من الساحل وبين القوات المدافعة عن الجبال. فأية قوة عسكرية تتخذ من الساحل قاعدة لها، لا بد لها - اذا ما أرادت الاستيلاء على القدس - ان تمر من طريق باب الواد، ولا بد لها من ان تتغلب على قوات الطرف الآخر الذي يتخذ من الجبال الوعرة حصوناً طبيعية للدفاع والمقاومة. وقد كانت هذه المنطقة مسرحاً للمعارك في عهد الفتوحات العربية وفي عهد الصليبيين، وأخيراً في أيام الحرب العالمية الأولى. ومنذ بدء القتال بين العرب واليهود في عام ١٩٤٧ اتخذ المجاهدون العرب من تلك الجبال معاقل لهم يرابطون فيها ويعملون منها على منع اليهود من استعمال الطريق للعبور الى القدس. ذلك ان اليهود - في غزوتهم الأخيرة لفلسطين - اتخذوا من الساحل الفلسطيني ميدانا لبناء مدنهم ومستعمراتهم منذ بدء هجرتهم واستيطانهم في أواخر القرن التاسع عشر. لقد فعلوا في غزوتهم الثانية هذه عكس ما فعلوا في غزوتهم الأولى، وكان ذلك هو الأمر الطبيعي بالنسبة لهم. ففي الغزوة الأولى جاءت جموعهم من مصر مروراً بسيناء ووادي عربة وشرقي الأردن الى اريحا وجبال القدس ونابلس - وفي الغزوة الثانية جاءوا من أوروبا عن طريق البحر، واستوطنوا في الساحل وجعلوا منه مركز قوتهم ومنشاءاتهم وصناعاتهم. وكان الاستثناء المهم في هذه الخطة، ان اليهود جعلوا من القدس (الواقعة في منتصف المنطقة الجبلية) قاعدة كبيرة من قواعد تجمعاتهم، فانشأوا

خارج الأسوار القديمة عدة أحياء لهم، وأقاموا فيها مؤسسات مهمة، وزرعوا حولها عدداً من المستعمرات، حتى زاد عددهم في المدينة قبل انتهاء الانتداب على عدد العرب.

وهكذا كانت القدس هدفا عسكريا ذا أهمية بالغة في حرب فلسطين. لقد جعل قرار التقسيم من القدس منطقة دولية. ولو انصاع اليهود لهذا القرار، لما دارت في القدس وحول القدس تلك المعارك الحامية التي استمات فيها الطرفان: العرب (ممثلون بالجيش الأردني) من جهة، واليهود من جهة أخرى. ولكن اليهود اتخذوا خطة الهجوم في القدس وعلى طريق القدس – تل ابيب. ففي داخل المدينة استولوا على عدد من الأحياء العربية قبل انتهاء الانتداب، وعمدوا الى استئناف الهجوم في الساعة التي رحل فيها الانكليز ظهر يوم ١٤ ايار، بقصد الاستيلاء على بقية الأحياء العربية وعلى المدينة القديمة ايضاً. اما على طريق القدس – تل ابيب، فقد استولوا على عدد من القرى العربية ومن أهمها القسطل، واستولوا على تلة الرادار، وكانوا ماضين في شن الهجمات للاستيلاء على بقية سلسلة الجبال المشرفة على باب الواد، للسيطرة على ذلك الممر التاريخي وربط القدس مع الساحل ربطاً محكماً مأمونا.

لا بد لنا في هذا الصدد من الاعتراف بأن الرؤية عند القيادة اليهودية كانت أكثر وضوحا مما كانت عند القيادات العربية. فالقيادة اليهودية منذ البداية كانت تعرف هدفها وتعمل لبلوغه والوصول اليه. أعلنت تلك القيادة قبولها بالتقسيم لكي تظهر للعالم بأنها تريد السلام، ولكنها في الوقت نفسه كانت تعمل ليل نهار من أجل الحرب، بل كانت تخوض معارك القتال فعلا. وقد اتخذت من رفض العرب للتقسيم ذريعة تحتج بها أمام العالم بأن العرب هم المعتدون. وصدق العالم (العالم المهتم بفلسطين: أي أوروبا وأمريكا) أقوال اليهود، ولم يكلف أحد نفسه ان يقارن بين ادعاءات اليهود السلمية وبين أفعالهم الحربية العدوانية التي تمثلت بصورة خاصة في الاستيلاء – قبل انتهاء الانتداب – على مدن وقرى خصصها قرار التقسيم للعرب. أما القيادات العربية فقد كان أمرها مختلفاً. حقاً لقد كانت تلك القيادات تعرف أن هدفها العام هو احباط التقسيم وانقاذ عرب فلسطين، ولكن جهدها لتحقيق ذلك الهدف كان أضعف بكثير مما تحتمه قوة العدو الغازي. خذ مثالا على ذلك من ان الخطة العامة للحرب التي وضعتها قيادات القوات العربية يوم ١٠ أيار، لم تشر الى القدس ولم تحسب أي حساب لها. بل انها – على عكس المتوقع – قررت ابعاد

الجيش الأردني عن القدس وتكليفه بأن ينقسم الى رتلين: أحدهما يعمل من غور الأردن باتجاه بيسان والثاني يعمل من قطاع نابلس باتجاه العفولة!!

ولم يكن تقدير قيادة الجيش الأردني للموقف أفضل كثيراً من تقدير القيادات العربية الأخرى. كانت تلك القيادة تعتقد بأن التقسيم أمر واقع، وبأن الخطة المثلى بالنسبة لها ان يقف الجيش موقف الدفاع وأن ترابط وحداته على خطوط قريبة من خط التقسيم، وليس على خط التقسيم نفسه - على الأرجح لكي لا تستفز اليهود او تحتك معهم. كان ايمان تلك القيادة بحتمية التقسيم نوعا من خداع الذات. وكان ايمانها بالتقسيم ينبع من الاعتقاد بقوة القرارات الدولية وبقوة اليهود العسكرية، وبأن الجيش الأردني أصغر وأضعف من أن يقوم بأية عمليات هجومية ناجحة، وبأن واجب الجيش الأردني ان يقف موقف الدفاع عن المناطق التي خصصها قرار التقسيم للعرب في قطاعات الخليل والقدس ورام الله ونابلس. وكان هناك اعتقاد (ربما نشأ عن مقابلة الكولونيل جولدي لبعض قادة اليهود في مستعمرة مشروع روتمبرغ)، بأن اليهود لن يعمدوا للهجوم على المناطق التي خصصها قرار التقسيم للعرب والتي يرابط فيها الجيش الأردني - الا اذا بادأهم الجيش الأردني بالهجوم. من الواضح ان القيادة البريطانية للجيش - الفريق جلوب بالذات - كانت تتصرف من منطلق الاجتهادات السياسية، وليس كقوة عسكرية تخضع لأوامر القيادة المدنية المتمثلة بمجلس الوزراء. وكان من جملة الاعتبارات السياسية التي لعبت دورها أن الجيش يعتمد في تمويله وتسليحه على بريطانيا، ولذلك قررت قيادته أن تلتزم بموقف الدفاع، وأن تترك مهمة الهجوم على عاتق الدول العربية الأخرى التي لا تعتمد جيوشها على بريطانيا تمويلا وسلاحا وعتادا.

وظلت القيادة الأردنية تتعلق بأهداب الأمل، وتقف بعيدا عن نقاط التماس مع اليهود، طوال ثلاثة أيام - بل أربعة - واليهود ماضون في هجومهم على ما بقي بأيدي العرب من أحياء القدس. ولم تتخذ الخطوة الايجابية الاولى (في صباح يوم ١٨ أيار) الا بعد ان أوشك اليهود ان يستولوا على القدس كلها، والا بعد أن بلغ السخط في نفوس أفراد الجيش حدّاً يهدد بالانفجار، والا بعد أن صعدت وحدات اليهود المقاتلة الى مرتفعات اللطرون وباب الواد، وبعد ان ظهر للعيان ان اليهود لا يريدون التوقف عند خطوط التقسيم ولا يريدون هدنة في القدس، وان خطة الدفاع السلبي أصبحت تحمل أخطاراً أعظم بكثير من أخطار

الدخول في القتال. بعد هذا كله، اتخذت قيادة الجيش الأردني قرارها بالاصطدام مع اليهود، ليس في معارك هجومية بل في نطاق ما يمكن تسميته (الدفاع الايجابي)، أي العمل على استرداد بعض المواقع التي سبق ان استولى اليهود عليها (في القدس) والوقوف في مواقع أخرى لا يستطيع اليهود تجاهلها (اللطرون وباب الواد).

وقد حدث يوم ١٨ أيار أن اجتمع الفريق جلوب بالسير اليك كركبرايد، الوزير البريطاني المفوض في عمان، وأبلغه انه نتيجة للعوامل والضغوطات المختلفة، فانه قرر ادخال قوات من الجيش الى القدس وتحريك قوات أخرى الى قطاع اللطرون وباب الواد. فقال له كركبرايد ان هذا يعني الدخول في حرب فعلية.

ولما كانت القدس – وما تمثله – محور الصراع، فقد كان مفتاح القدس في باب الواد والجبال المشرفة عليه.

طبيعة الموقع

يمكن القول بايجاز ان المواقع التي لم تلبث الكتيبتان الثانية والرابعة أن تمركزتا فيها، هي أطراف سلسلة الجبال الوعرة التي تطل من ناحية الغرب على سهل اللد والرملة، وتطل في امتدادها شرقاً على الوادي الذي تمر فيه طريق باب الواد. وهذا الوادي الذي تمر فيه الطريق من السهل الساحلي (من يافا وتل ابيب عبر اللد والرملة) الى القدس، يشكل فاصلاً طبيعياً بين السلسلة الجنوبية من الجبال والتي كان من المتوقع ان يصل اليها المصريون في زحفهم من الجنوب، والسلسلة الشمالية التي تمركزت فيها قوات الجيش الأردني. وسوف أحاول فيما يلي تقديم وصف موجز للمواقع التي دارت فيها رحى القتال:

اللطرون: تقع على حافة الطرف الغربي من السلسلة الشمالية، وهي تشرف من مرتفعات آكامها على السهول المنبسطة تحتها الى الغرب والجنوب، ومن جملتها وادي الصرار، ومستعمرة خلدة. وهذا الموقع يشمل الأماكن التالية:

- مركز شرطة اللطرون، الذي أقيم على هضبة عالية.
- دير اللطرون، وهو بناية ضخمة تحيط بها الكروم والأشجار ويسيطر على الطرق الرئيسية المجاورة له.
- محطة مياه اللطرون التي تزود القدس بالماء وتقع الى الجهة الشمالية من مركز الشرطة.

- بير الحلو، وهو بئر ماء الى الجنوب من اللطرون على بعد ١٠٠ ياردة فقط.
- عمواس: قرية تبعد عن اللطرون مسافة كيلو متر واحد، وتحيط بها الجبال، التي يقوم على أحدها مقام الصحابي معاذ بن جبل، وتمر منها طريق رام الله – يافا.
- يالو: قرية الى الشرق من عمواس بمسافة ثلاثة كيلو مترات، وجبالها تشرف على الطريق العام المؤدية الى القدس مباشرة، وتسيطر عليها.
- دير ايوب: قرية صغيرة الى الجنوب من يالو، ولا تبعد عن الطريق العام المؤدي الى القدس سوى ٤٠٠ ياردة.
- بيت يافا: قرية على طريق رام الله – اللطرون، تحيط بها أشجار الزيتون وتقع في منتصف سهل فسيح.
- بيت سيرا: على طريق رام الله – اللطرون. والى الشمال منها ملتقى طرق مهم أُطلق عليه اسم المثلث.
- صفا: شمالي بيت سيرا، يقع الى الغرب منها تل مرتفع يدعى (رأس كركر) وهو يشرف على السهل الممتد من هناك الى قرية البرج.
- القباب: قرية تقع على الطريق العام بين اللطرون والرملة.
- بير ماعين: في منطقة جبلية الى الغرب من مثلث بيت سيرا.
- البرج: قرية كبيرة الى الشمال من قرية بير ماعين، تقوم على هضبة كبيرة تشرف على السهول والأودية المحيطة بها.
- عجنجول: قرية صغيرة الى الجنوب من بير ماعين، تقع على مرتفع عال يشرف على السهول المحيطة به، قرب طريق رام الله – اللطرون.

اما الى الجنوب والجنوب الغربي من منطقة اللطرون – باب الواد، فتقع مجموعة من القرى العربية والمستعمرات اليهودية، نذكر منها:

- مستعمرة خلدة: مركز تجمع القوات اليهودية.
- مستعمرة كفروريا: في منطقة اللطرون، بين الجبال.
- دير محيسن: على سفوح الجبال الى الغرب من مركز اللطرون.
- بيت جيز: قرب مستعمرة كفروريا.

- بيت محسير: قرية في أعلى مرتفع في الجهة الجنوبية من منطقة اللطرون. ذات موقع مهم وتشرف على ملتقى طريق القدس – اللطرون.
- عرطوف: قرية في سلسلة الجبال الجنوبية التي تشرف على طريق باب الواد وفيها مركز شرطة حصين.

الكتيبة الرابعة

هذه هي المواقع الرئيسية الأمامية التي تمركزت فيها أو بالقرب منها وحدات الجيش العربي، بعد ان أضاعت بضعة أيام ثمينة في الخطوط الخلفية. وقد سبق لي أن أشرت الى ان الكتيبة الثانية تمركزت مساء يوم ١٥ ايار في منطقة الرادار والنبي صموئيل، بينما تمركزت الكتيبة الرابعة بالقرب من قرى دير نظام وخربثا ومثلث بيت سيرا. ولا بد من القول ان المواقع التي تمركزت فيها الكتيبة الرابعة كانت تبعد مسافات تتراوح بين عشرة كيلو مترات وخمسة عشر كيلو متراً من المواقع العسكرية المهمة في اللطرون وعمواس ويالو، وهي المواقع التي انسحبت منها قوات جيش الانقاذ (بدون سبب معقول وقبل ان تطمئن الى ان قوات عسكرية أخرى ستتسلمها منها) ولم يبق فيها سوى فئة واحدة (نحو ٣٠ رجلاً) من السرية الحادية عشرة يقودها الملازم الثاني عبدالمجيد المعايطة، ومعه زمرة من المجاهدين الأردنيين، للمحافظة على مركز شرطة اللطرون، بالاضافة الى حفنة من المجاهدين الأردنيين والفلسطينيين بقيادة الشيخ هارون بن جازي، وكانوا يتمركزون في جبال يالو. ويبدو ان اليهود لم يعرفوا بانسحاب قوات جيش الانقاذ وخلو معظم مواقع اللطرون – باب الواد من المقاتلين العرب، يدل على ذلك ان قوة يهودية أغارت على قرية دير ايوب في الساعات الاولى من يوم ١٦ أيار فنسفت عدداً من بيوتها ثم عادت أدراجها.

وأخيراً وبعد أن وصلت شكاوى أهالي القرى الأمامية الى الملك عبدالله، قررت قيادة الفرقة مساء يوم ١٧ أيار ان تحرك احدى سرايا الكتيبة الرابعة الى الامام. ووقع الاختيار على السرية الثالثة التي يقودها الرئيس صالح العيد، لكي تعزز القوة الموجودة في مركز شرطة اللطرون. وبالفعل تحركت فئتان من هذه السرية في الساعة الاولى من صباح يوم ١٨ أيار، ومعهما من الأسلحة المساندة مدفعان لمقاومة الدبابات (٦ رطل) ومدفعا هاون

عيار ٣ بوصات ورشاشتا فيكرز ومدرعتان (كان لدى الكتيبة سبع مدرعات) ومدرعة استطلاع فيها جهاز لاسلكي. ولكن في منتصف الطريق جاء هرون بن جازي لملاقاة صالح العيد، وأقنعه بأن موقع يالو معرض للخطر أكثر من اللطرون، فاتصل هذا بقيادة اللواء مستأذنا في التوجه الى يالو بدلا من اللطرون، فأذنت له. وفي ساعة الفجر أخذت الفئتان مراكزهما في مرتفعات يالو.

لم تكن حركة السرية الثالثة سوى مقدمة لحركة الكتيبة كلها الى الخط الأمامي. وبالفعل غادرت الكتيبة مواقعها مساء يوم ١٨ ايار، ولم تلبث أن استقرت في المواقع التي عينها لها قائدها القائد حابس المجالي الذي قام بالكشف على المنطقة هو وأركان حربه. وقد تم تركيز السرايا على الوجه التالي:

السرية الاولى: في جبال قرية عمواس (الرئيس كامل عبدالقادر).

السرية الثانية: في اللطرون غير بعيد عن الدير (الرئيس عبدالله السالم النمري).

السرية الثالثة: في جبال يالو (الرئيس صالح العيد الفاخوري).

لقد ترك لنا محمود الروسان، ركن الكتيبة، وصفاً حياً في كتابه (معارك باب الواد) للأماكن التي تمركزت فيها سرايا الكتيبة الرابعة، وكيف ان الجنود بادروا الى حفر المراكز الدفاعية حال وصولهم الى المواقع التي عُيّنت لهم، وكيف أخذ أفراد قسم الهندسة يضعون الأسلاك الشائكة أمام تلك المراكز ويزرعون الألغام، وكيف تم توزيع الأسلحة المساندة المؤلفة من مدافع ٦ رطل، ومدافع الهاون عيار ٣ بوصات ورشاشات الفيكرز، التي وضعت جميعها على قمم الجبال والآكام بحيث أصبحت السفوح المترامية تحتها والمعابر والطرق تحت مدى نيرانها. وكيف اتخذت قيادة الكتيبة مراكزها بين الأشجار جنوبي قرية عمواس. ثم حدثنا عن المناضلين من أبناء القبائل الأردنية الذين كانوا برابطون في تلك المواقع قبل وصول الكتيبة الرابعة، والذين كان لهم الفضل في سد الفراغ الذي حدث بين انسحاب قوات جيش الانقاذ يوم ١٥ أيار وبين وصول الكتيبة يوم ١٨ ايار، وها هم الان يضعون أنفسهم تحت امرة قائد الكتيبة الرابعة. اما السرية المساندة (بقيادة الرئيس عزت حسن) فقد تم توزيع أفرادها هنا وهناك مع اسلحتهم لتعزيز سرايا المشاة الثلاث. وقد تمركز عدد منهم في الجبل الذي يضم مقام الصحابي معاذ بن جبل، ومعهم مدافع مقاومة الدبابات لحماية المداخل والطرق المؤدية الى مركز الشرطة.

كان من حسن حظ السرية الأولى أنها وجدت في جبال عمواس حزاما من الخنادق التي تتصل ببعضها البعض، وكان حفرها جنود الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى. وقد أفاد منها الجنود في تلك الليلة بعد أن نظفوها من الأتربة.

لم تمر تلك الليلة بسلام، فقد تقدمت دورية مقاتلة للعدو الى منطقة السرية الثالثة في يالو، واقتربت من مواقعها، فنشب اشتباك بين الطرفين، ثم تمكن أفراد الدورية من الانسحاب. وقد عرف العدو من ذلك الاشتباك ان الجيش العربي أصبح يشغل الان مواقع اللطرون وباب الواد. وفي تلك الليلة اقتربت قوة أخرى للعدو من مراكز السرية الثانية، فتصدت لها السرية المساندة من عمواس بنيران أسلحتها، فعمد اليهود الى الانسحاب.

في اليوم التالي انهمك الجنود في تقوية مراكزهم الدفاعية، خاصة بعد ان أدركوا أهمية الخنادق والتحصينات. وقد عمد قائد السرية المساندة في ذلك اليوم والأيام الثلاثة التالية الى نقل كميات من الأسلاك الشائكة والأكياس الفارغة من معسكر بيت نبالا (الذي غادره الانكليز). وقد تمت تعبئة الأكياس بالتراب وأفادت السرايا منها في اقامة الحواجز الدفاعية.

غني عن القول ان الكتيبة أخذت منذ الليلة الأولى، ترسل الدوريات - بين مقاتلة وكاشفة - حول مواقعها، لاكتشاف أي تقدم لقوات العدو قبل الوصول الى المراكز الدفاعية للوحدات. وقد تم تعيين دورية ثابتة لرصد تحركات العدو المحتملة في المنطقة الواسعة التي تقع بين عمواس ويالو. كما قامت قيادة الكتيبة بتوزيع فصائل المجاهدين الأردنيين الذين كان عددهم في بداية الأمر نحو ٢٢٠ مناضلا (ازداد العدد فيما بعد) للعمل في مناطق معينة، وبالتعاون مع سرايا الكتيبة. وكذلك وضعت الترتيبات للافادة من مناضلي القرى التي تقع أراضيها في منطقة عمليات الكتيبة. وكانت الكتيبة تقدم لهؤلاء كميات معينة من ذخائر البنادق يوما بيوم، او كلما دعت الحاجة الى ذلك.

عرطوف

يجدر بي هنا أن اشير الى أن قوة من الجيش العربي كانت ترابط في عرطوف، التي تقع في المنطقة الجنوبية من باب الواد، والتي أخذت الكتيبة الرابعة ترسل الدوريات اليها.

ففي صباح يوم ٢٣ نيسان ١٩٤٨ تحركت من رام الله قوة صغيرة من الجيش لا يزيد

عدد أفرادها عن ٣٠ رجلا، بقيادة الملازم الثاني عيسى مفضي تادرس. وقد تلقى قائد القوة تعليماته من القائمقام أحمد صدقي الجندي قائد اللواء الرابع في رام الله، وتتلخص بأن يذهب وجنوده الى مركز شرطة عرطوف للمرابطة فيه، وبأن يرتدي هو وهم الحطات الصفراء (بدلا من الشماغات الحمراء) حتى يظهروا لمن يراهم كأنهم مناضلون. وكان مما قاله الجندي: يوجد الى جانبكم مستعمرة يهودية، اذا لم يعترضكم سكانها فلا تعترضوهم. (مستعمرة عرطوف تجاور قرية عرطوف).

كانت القوة مسلحة بالبنادق ورشاش برن وعدد من بنادق تومسون وبضعة صناديق من العتاد والقنابل اليدوية. وقد تم تزويدها بسيارة عسكرية متوسطة الحجم، وهذه السيارة كانت تنقل الأرزاق للقوة من السرية الموجودة في الخليل.

احتلت القوة المركز الذي كان فيه نحو عشرة من رجال شرطة فلسطين العرب. وكان في المركز جهاز لاسلكي أخذ الملازم يتصل عن طريقه بقيادة اللواء. ولكن مأمور الجهاز فر يوم ٢٨ نيسان، أما باقي أفراد الشرطة فقد غادروا المركز يوم ١٤ ايار، وهو اليوم الذي انتهت فيه خدمتهم مع سلطات الانتداب.

بعد سقوط مستعمرة كفار عصيون انسحب يهود مستعمرة عرطوف، بعد أن أنذرهم قائد القوة الأردنية بأنه ينوي مهاجمتهم. ولم يلبث أهل القرى المجاورة (دير ابان ومناضلون أردنيون) حتى نهبوا المستعمرة، ولكن سقط عدد منهم قتلى بفعل الألغام التي تركها اليهود في المستعمرة، كما أصيب عدد منهم بجراح.

ولم تلبث الكتيبة الرابعة حتى أخذت ترسل الدوريات عبر الوادي الى عرطوف، بعد أن أصبحت القوة المرابطة فيها مرتبطة باللواء الثالث من ناحية عسكرية.

وفي ٢٣ أيار انضمت الى قوة عرطوف حضيرة (١١ جنديا) بقيادة النائب عيادة عيسى مدانات، وبذلك ارتفع عدد رجال القوة الى ٤٠ رجلا. وظلت هذه القوة تقوم بدورها، كنقطة عسكرية أمامية، كما اشتركت في عدد من الاشتباكات والمعارك، مما سيأتي ذكره في مواضعه. وكان من المنتظر ان تتقدم القوات المصرية من الفالوجة وعراق سويدان حتى عرطوف فتحتل الجبهة المقابلة لجبهة الجيش العربي في اللطرون وباب الواد، وبذلك يتم قطع الممر (الذي كان اليهود يعملون على توسيعه) بين الساحل والقدس. ولكن المصريين لم يتقدموا، ولم تكن لدى الجيش العربي الامكانات لتعزيز عرطوف

والانتشار بكثافة في منطقتها. وظل الوضع يتردى حتى اضطرت قوة عرطوف الى الانسحاب، واخلاء هذا المركز المهم.

معارك اللطرون

كان هدف العدو الرئيسي في جبهة باب الواد، ابقاء الاتصال بين مراكزه في الساحل وبين مراكزه في القدس، وارسال التعزيزات والأسلحة والذخائر والمؤن الى القدس. وفي ليلة ٢٠-٢١ ايار حاولت قافلة كبيرة للعدو ان تمر من الطريق، وكانت استخبارات الجيش الأردني قد عرفت سلفا بأمر القافلة. وقد بادرت المدفعية الثقيلة (٢٥ رطلا) فأمطرتها بالقنابل حتى اضطرتها الى التراجع. وحدث اشتباك بين المناضلين ومفرزة للعدو، نتج عنه مقتل ثمانية من أفراد العدو وواحد من المناضلين.

وهنا يجدر التنويه بالشجاعة التي كان يبديها ضباط المدفعية الذين كانوا يتناوبون على القيام بدور ضابط الملاحظة، وهو دور ينطوي على قدر كبير من الخطورة. وقد كان لسلاح المدفعية فضل كبير في اسناد قوات المشاة وتمكينها من الصمود والحاق الخسائر بالعدو وتشتيت جموعه.

وفي الليلة التالية (٢١-٢٢ أيار) تقدمت قوة للعدو من جهة بير الحلو نحو منطقة اللطرون وهدفها مركز الشرطة – بينما أخذت قوة أخرى تناوش قوة الجيش العربي المتمركزة بين أشجار الدير. واستطاعت القوة ان تقترب من مركز اللطرون حتى مسافة ٢٠٠ ياردة. وعلى الرغم من النار التي سلطتها حامية المركز، وخاصة من مدافع الهاون عيار ٢و٣ بوصة، فان قوة العدو استمرت في التقدم حتى وصلت الى مسافة ١٠٠ ياردة من الخنادق الدفاعية. واشتد اطلاق النار، وحمي وطيس المعركة، واقترب جنود الطرفين الى مسافة ٣٠ ياردة فقط. ولكن مفارز العدو لم تلبث ان أيقنت انها لن تتمكن من اختراق الدفاعات الأردنية، فعمدت الى التراجع في الساعة الرابعة من صباح ٢٢ أيار، تاركة وراءها سبعة قتلى. اما من الجانب الأردني فقد جرح جندي وأحد المناضلين. كان ذلك الاشتباك أول معركة مجابهة حقيقية تخوضها سرايا الكتيبة الرابعة. كانت تجربة فريدة بالنسبة لكثيرين من الأفراد. وقد أدى اندحار العدو، بعد ان اقترب الى مسافة مرمى الحجر، الى بعث مزيد من الثقة في النفوس، كما أدى الى مزيد من التقدير للخنادق

والأسلاك الشائكة والموانع. ولكن الوقوف موقف الدفاع وانتظار مجيء العدو لا يكفي للاحتفاظ بقوة المعنويات. ولذلك أعدت قيادة الكتيبة مساء يوم ٢٢ أيار دورية مقاتلة بقيادة الملازم محمد المحاسنة. وتألفت الدورية من فئة مشاة ومدفعي هاون ٣ بوصة، وتحركت في أربع سيارات ترافقها مدرعة واحدة تحمل جهازاً لاسلكياً، باتجاه موقع بير الحلو وهدفها الكشف على طريق اشوع – عرطوف والوصول الى حامية مركز الشرطة في عرطوف. وعندما اقتربت الدورية من قرية بيت محسير اشتبكت مع قوة من العدو كانت تتمركز هناك، وقد انسحبت قوة العدو الى الأحراش الكثيفة بعد ان تكبدت جملة خسائر. اما الدورية فاستمرت في تقدمها حتى وصلت الى عرطوف ثم عادت.

وفي الليلة التالية (٢٣ايار) تحركت دورية مقاتلة أخرى من الكتيبة الرابعة بقيادة الملازم علي المطلق الهباهبة، الى مركز شرطة عرطوف. وكانت مهمة الدورية ان تكتشف تحركات العدو من جهة وأن توصل مدفعي بيات (صاروخ) مع كمية من العتاد، لتعزيز مفرزة عرطوف بسلاح لمقاومة الاليات. وقد قامت الدورية بمهمتها. وفي طريق عودتها اصطدمت بدورية العدو فأصلتها ناراً حامية، واشترك معها في قتال دورية العدو مجموعة من المجاهدين من قبيلة الحويطات يقودهم الشيخ عتيق العطنة.

كانت أعمال دوريات الكتيبة الرابعة تتسم بكثير من الخطورة في تلك الجبهة، لان العدو أخذ يحشد المزيد من قواته هناك ويحاول توسيع رقعة الأراضي التي يسيطر عليها على طريق القدس. فالملازم محمد المحاسنة تولى بعد يومين قيادة دورية نهارية أخرى ومعها ضابط هندسة بريطاني ومدرعتان صغيرتان تحملان متفجرات، بالاضافة الى مدرعتين مسلحتين ومدفعي هاون. وكان هدف الدورية نسف عدد من الجسور في منطقة عرطوف، وهي جسور كان العدو يستعملها لايصال المعدات الى القدس بين التلال الجنوبية. وقد قوبلت الدورية بنار كثيفة من قبل العدو المستحكم، فتوقفت واتصل قائدها بقيادة الكتيبة التي تركت له حرية اتخاذ القرار. وأراد ان يتقدم على مسؤوليته، ولكن الضابط البريطاني رفض ان يتقدم لاعتقاده بوجود الخطر. وأصدر القائد أمرا لرجاله بالتقدم تحت حماية قنابل الهاون، ولكن العريف (علي) قائد المدفعين، أطلق كل ما كان لديه من القنابل دفعة واحدة، فاضطر القائد الى اصدار الأمر بالرجوع. وفي ليلة أخرى اكتشفت

دورية ثانية بقيادة المحاسنة ان اليهود ينقلون الذخائر عبر التلال الوعرة على أكتافهم لايصالها الى القدس (وادي الصرار – خلدة – منطقة باب الواد – القدس). وقد استتبع ذلك اشتباك عنيف في الليلة التالية بين دورية مقاتلة من الكتيبة الرابعة وبين قوات العدو.

الكتيبة الثانية في باب الواد

اشتد الضغط على الكتيبة الرابعة في منطقة عملياتها الواسعة، وبدا واضحاً ان العدو يحشد قواته للقيام بهجوم واسع النطاق على المواقع التي تدافع الكتيبة عنها، وان الكتيبة لا تستطيع – مهما كانت بسالة أفرادها – ان تحول دون اختراق العدو لجبهتها اذا ما تقدم بقوات كبيرة، ومن محاور مختلفة، بين تلك الجبال العالية والأودية السحيقة. ومن الواضح أن القيادة بنت تقديراتها على ان العدو سيبذل كل ما في وسعه لفك طوق الحصار على القدس – أي لاختراق طريق باب الواد، عن طريق الاستيلاء على مرتفعات اللطرون ويالو. كان مائة الف يهودي في القدس يعانون ويلات الحصار، وكانت المواد الغذائية تتناقص عند هؤلاء، كما ان انقطاع الماء من محطة مياه اللطرون كان مشكلة كبيرة بالنسبة ليهود القدس. لهذه الأسباب قررت القيادة ان تنتقل الكتيبة الثانية الى جبال يالو ومنطقة باب الواد (حيث كانت السرية الثالثة من الكتيبة الرابعة) على ان تحل الكتيبة الاولى قبالة جبل الرادار. وقد تضمن ذلك القرار ضم فئة مدفعية ثقيلة لاسناد الكتيبة الثانية بالاضافة الى فئة المدفعية المتمركزة بين أشجار الزيتون في قرية بيت نوبا، وبأن تبقى سرية المدرعات التي يقودها الملازم الاول حمدان الصبيح تحت امرة قيادة اللواء، كقوة احتياط لاسناد الكتيبتين الثانية والرابعة. وبالفعل تم تنفيذ هذه الحركة بصورة دقيقة يوم ٢٤ ايار. وكان وكيل القائد سليد قد شفي من جرحه وعاد لقيادة الكتيبة الثانية.

وفي هذا اليوم بالذات ساندت المدفعية الثقيلة هجوما قام به المناضلون الأردنيون على مستعمرة كفروريا، ذات الموقع الاستراتيجي المهم الى الجنوب من طريق باب الواد. وكان عدد أولئك المناضلين يزيد على مائتين بالاضافة الى مناضلي قرية بيت جيز القريبة من المستعمرة. وقد قصفت المدفعية الثقيلة المستعمرة بقنابلها لمدة ١٢ دقيقة، تقدم بعدها المناضلون ففتحوا ثغرة في الأسلاك الشائكة المحيطة بالمستعمرة. ولكن النجدات اليهودية لم تلبث أن أخذت تصل من مستعمرة خلدة، فتراجع المناضلون وتفرقوا.

وكان من جملة القرارات الجديدة ان قيادة اللواء الثالث انتقلت الى أراضي قرية بيت نوبا غير بعيد عن مراكز المدفعية الثقيلة.

الهجوم الكبير الأول: ٢٥ أيار

ان الضيق العظيم الذي كان يعاني منه مائة الف يهودي في القدس، دفع القيادة اليهودية الى بذل كافة جهودها لاختراق جبهة الجيش العربي من اللطرون حتى جبال يالو، على مسافة اربعة كيلومترات. وقد أصدر بن غوريون في ٢٢ أيار أوامره الى يادين مدير العمليات بفتح طريق باب الواد. وأخذ اللواء اليهودي السابع بقيادة الكولونيل شلومو شامير (الذي كان ضابطا في اللواء اليهودي في الحرب العالمية الثانية)، يحتشد في مستعمرة خلدة على بعد نحو سبعة كيلو مترات الى الغرب من اللطرون. وكان من المقرر ان يبدأ ذلك الهجوم يوم ٢٣ أيار، ثم تأجل الى اليوم التالي. ولكنه لم يبدأ بالفعل الا في الساعات الأولى من صباح يوم الثلاثاء ٢٥ ايار.

كان ذلك اللواء يتألف من اربع كتائب هي: كتيبة بالماخ (من الجنود المدربين المتمرسين) بقيادة الميجر جيرمان، وكتيبة مدرعات بقيادة الميجر حاييم لاسكوف، وكتيبة من جنود مهاجرين وصلوا من اوروبا الى فلسطين اخيرا، بقيادة هاروتز، وكتيبة رابعة من سرايا متفرقة. هذا بالاضافة الى عدد من المدافع الثقيلة ومدافع الهاون. وكانت مهمة اللواء ان يستولي على مواقع الجيش العربي، ويفتح طريق باب الواد، ويتيح المجال أمام قافلة من سيارات الشحن الكبيرة (موسوقة بالمؤن والذخائر) كانت تنتظر فرصة للمرور الى القدس. وبينما كان شامير يعد الترتيبات الأخيرة لزحف القوة، جاءته من قيادته برقية تقول «الوضع في القدس حرج. عليك ان تخترق مواقع العدو في هذه الليلة». ولم يلبث ان تلقى برقية أخرى تقول «عليك تنفيذ مهمتك مهما كان الثمن».

ولضمان نجاح العملية تضمنت خطة الهجوم ان يقوم لواء آخر (لواء هارل) بمشاغلة الكتيبة الرابعة من جهة الشرق، لاعاقتها عن صد هجوم اللواء السابع – ليس ذلك فحسب، بل للزحف نحو رام الله، حالما يتمكن اللواء السابع من اختراق جبهة اللطرون. وقضت الخطة ايضاً ان تقوم كتيبتان بالهجوم على مواقع اللطرون، وان تتجه ثلاث سرايا من كتيبة البالماخ (الكساندروني) الى مركز الشرطة وقرية اللطرون. وفي الوقت نفسه كان على

سريتين من كتيبة المهاجرين ان تقوما بعملية تطويق فتزحفا الى الجنوب من اللطرون وتهاجما قرية دير أيوب الى الشرق من اللطرون بنحو اربعة كيلو مترات. وكان من جملة مهام السريتين ان تحتلا في اثناء زحفهما قريتي بيت جيز وبيت سوسين.

وغني عن القول ان القيادة الاسرائيلية وضعت خطتها بناء على المعلومات التي تجمعت لديها عن مواقع الجيش العربي، وبالأخص من تقارير الدوريات العديدة التي تعرفت في الليالي الماضية على المواقع التي تتمركز فيها الكتيبة الرابعة.

كانت خطط القيادة الاسرائيلية دقيقة، وتعتمد في التنفيذ على الكثرة العددية بالدرجة الأولى، وهي كثرة تشكل في حد ذاتها قوة نارية متفوقة. فالقوة المهاجمة كانت تتألف من اربع كتائب (اي أربعة أضعاف القوة المدافعة). وكانت الخطة تعتمد على الهجوم المباشر من جهة وعلى الألتفاف من جهة ثانية، وهي نموذج على خطط القيادة الاسرائيلية في الحروب مع العرب والتي تتميز دائما بدفع قوات متفوقة في العدد والعدة ضد أية قوة تقرر تلك القيادة مهاجمتها. ولا يخفى المقصود من التفوق: الا وهو ضمان اكبر قسط ممكن من النجاح للعملية، وبث الثقة في نفوس أفراد القوة المهاجمة.

ولكن كانت هناك ظروف طارئة لم تحسب قيادة العدو حسابا لها عندما وضعت خطتها. وأهم تلك الظروف ان الكتيبة الثانية تحركت الى جبهة باب الواد يوم ٢٤ أيار، فتعين على قوات العدو ان تواجه كتيبتين لا كتيبة واحدة فقط. وكانت هناك ظروف أخرى تدخلت في سير المعركة، وسيأتي الحديث عنها في سياق البحث.

في الساعة الثامنة من مساء يوم ٢٤ ايار تحركت قوات اللواء السابع من خلدة بواسطة الحافلات باتجاه اللطرون. وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ٢٥ ايار وصلت الحافلات الى قرية دير محيسن (التي كان أهلها قد هجروها) وهي تقع على مسافة ثلاثة اميال غربي اللطرون. وهناك نزلت سرايا كتيبة البالماخ من الحافلات مع أسلحتها وعتادها. وفي هذا الوقت بالذات وقع اول خطأ في تنفيذ الخطة، ذلك ان أحد الضباط اليهود، وكان في موقع آخر قريب، صمم ان يرفع من معنويات جنوده، فأمر ببدء القصف من مدفعي الهاوتزر (عيار ٦٥ ملليمترا) ونتيجة لذلك استدلت القيادة الأردنية على موقع المدفعين وسرعان ما ردت عليهما بمدافع ٢٥ رطلا، فأصابتهما وأسكتتهما.

على ان مشاة سريتين من السرايا المهاجمة أخذوا يتقدمون في الوادي باتجاه

اللطرون. وبدت أضواء الفجر الأولى وازدادت سرعة اطلاق مدافع الهاون من المواقع الأردنية ترافقها نار الرشاشات.

في الوقت نفسه أخذت كتيبة المهاجرين تتقدم في حركة دائرية حول اللطرون بقصد تطويق الموقع من ناحية الجنوب الشرقي. وعى الرغم من نار المدافع التي أخذت تنصب عليها، فان الكتيبة استمرت في زحفها حتى اقتربت من قرية بيت سوسين، وهناك اصطدمت بدورية أردنية، فاشتبكت معها. ولم يلبث المناضلون حتى أخذوا يهاجمونها من الشرق. كل هذا أخذ جنود الكتيبة على حين غرة، اذا كانت قيادتهم قد أبلغتهم ان تلك المنطقة كانت خالية. وبدأ ضباط الكتيبة يصدرون أوامرهم، ولكن بعض الجنود فهموا مضمون تلك الأوامر وبعضهم لم يفهم، لانهم كانوا من أمم شتى ولا يعرفون العبرية.

كانت الدورية التي اصطدمت بالعدو، ويقودها الملازم قاسم العايد، قد اتجهت مساء ٢٤ ايار جنوبا على طريق عسلين – عرطوف، بقصد تأمين الحماية لمفرزة من سلاح الهندسة كانت ستقوم بنسف جسر وراء قرية اشوع، لعرقلة مرور سيارات اليهود على الطريق المعبدة. وسار أفراد الدورية وأكثرهم يحمل متفجرات، عبر الأودية والهضاب. وعند وصولهم الى قرية اشوع، أرسل قائد الدورية عددا من رجاله الى مركز عرطوف (للاتصال بقائد حاميته) بينما اتجهت مفرزة الهندسة نحو الجسر المنوي نسفه. ولكن حدث ان الرجال الذين ذهبوا الى عرطوف كانوا يحملون علبتين من كبسول المتفجرات، نسوا ان يسلموهما لمفرزة الهندسة. وقد نتج عن ذلك بعض التأخير اذ اضطر قائد الدورية ان يرسل ثلاثة جنود للحاق بالجنود الذين اتجهوا نحو عرطوف من اجل استعادة العلبتين. وبعد ساعة من الزمن استعيدت العلبتان وقامت مفرزة الهندسة بنسف الجسر. وهكذا أتمت الدورية مهمتها، واتجهت في طريق العودة، بينما أخذ قائدها يحث رجاله على السير بسرعة حتى يعوض ما فات عليه من الوقت. ولكن الطريق كانت وعرة وطويلة. وشعر بعض الجنود بالتعب، الا أنهم كانوا شبانا في مقتبل العمر، ولم تكن أجسامهم قد اكتنزت بعد، وأكثرهم أبناء فلاحين من قرى شرقي الأردن اعتادوا على السير مسافات طويلة. وسرعان ما أخذت تباشير الفجر تزيد مدى الرؤية أمامهم. واقترب أفراد الدورية من السفح، فلم تلبث ان أخذت تصك أسماعهم أصوات العيارات النارية المتبادلة بين مواقع كتيبتهم والمواقع القريبة منهم. ووقف القائد بضع دقائق يفكر ماذا سيفعل. شعر ان هناك

جماعات من العدو غير بعيد عنه. ربما كان القدر ساق اليه فرصة ذهبية لمفاجأة العدو من حيث لا يتوقع. كان معه نحو ٤٥ شاباً مسلحين بالبنادق والرشاشات ومتشوقين للقتال. كان العدو يبعد عنهم مسافة كيلو مترين تقريباً، وبينهم وبينه واد عميق. وتقدم الملازم العايد على رأس رجاله، وعندما أصبحوا على مسافة قريبة من جنود العدو فتحوا عليهم نيران بنادقهم ورشاشاتهم. وفوجيء هؤلاء، وكانت مفاجأة مذهلة، فأخذوا يركضون هنا وهناك في حالة ارتباك، حتى انهم لم يردوا على النار بالمثل من شدة وقع المفاجأة. ووقعت في صفوفهم اصابات عديدة، بينما أخذوا يفرون باتجاه بير الحلو. ولم تتوقف الدورية عن ملاحقة جنود العدو الا بعد ان أخذت نيران الرشاشات تنصب عليهم من تلة الى اليسار (تل المرّار)، ذلك ان تعزيزات العدو كانت تتوارد بالسيارات من مستعمرة خلدة الى قرية بيت جيز وتزحف من هناك الى تل المرار. وكانت تلك السيارات تعود الى خلدة وهي تحمل القتلى والجرحى. وفي الوقت نفسه اشترك فصيل من المناضلين في القتال، ولكن الملازم العايد منعهم من الاختلاط مع جنوده، طالبا اليهم ان يشتبكوا مع العدو من ناحية اخرى (لم يكن المناضلون منضبطين كالجنود النظاميين). ولم يلبث الملازم عيسى مفضي حتى أقبل من عرطوف على رأس ٣٠ رجلا من جنوده (كان قد سمع اطلاق المدافع فهب للاشتراك في المعركة). وبادر للاشتباك مع ميمنة العدو من الجهة الجنوبية. وقد كان لاشتراك مفرزة عرطوف في القتال تأثير على سير المعركة، اذ كان عتاد دورية قاسم العايد قد قارب على النفاد، ولان العدو اعتقد ان هناك عملية تطويق تقوم بها القوات الأردنية من ناحية الجنوب، فزاد هذا من اضطراب صفوفه الخلفية.

أما في قيادة الكتيبة الرابعة، فقد كان قصف مدفعية العدو، الذي بدأ بعيد الساعة الواحدة صباحا على مركز الشرطة والدير الافرنسي وقرية عمواس-هو الذي أعطى الانطباع بأن العدو يقوم بالتمهيد لهجوم واسع النطاق، خاصة وان قصف المدفعية استمر نحو ساعة من الزمن. وفي الساعة الثانية والنصف وصلت فئتان من جنود العدو (قدمتا من مستعمرة كفرروريا) الى مواقع قرب بير الحلو، ولكن احدى الدوريات الكاشفة أحست بها فأنذرت قيادة الكتيبة بوجودها.

بدأت المعركة بقصف مقابل من المدفعية الثقيلة، حيث أبدى ضابط الملاحظة الملازم محمود المعايطة أستهانة بالخطر وهو يقترب من المواقع التي كانت قنابل العدو تتساقط

فيها. وسرعان ما تم اسكات مدفعية العدو. وقد حدث الاشتباك الأول في اللطرون والأحراش المحيطة بالدير، بين جنود العدو وجنود السرية الثانية (ومعهم عدد من المناضلين). وقد تمكن جنود العدو من الاقتراب الى مسافة ١٠٠ ياردة من خطوط دفاع السرية فقابلتهم نار الرشاشات والأسلحة الخفيفة ومدافع الهاون القوسية عيار ٢ بوصة والقنابل اليدوية. واشتد القتال فترة من الوقت حتى أخذت صفوف العدو المتقدمة تضطرب وتتراجع الى الوراء تحت ستار الظلام، وحتى أصبح التراجع أشبه ما يكون بالهزيمة. وهكذا أخفق ذلك الهجوم المباشر وتلاشى في نحو الساعة الثالثة والربع صباحا.

على ان هجوم الفئتين المشار اليهما (نحو ٥٠ جنديا) لم يكن سوى مقدمة للهجوم الكبير. وربما كان المقصود منه تحويل أنظار قادة الكتيبة عن المواقع التي ستتجه اليها قوة العدو الرئيسية. والواقع ان قوة العدو الرئيسية تقدمت من جبال قرية بيت سوسين المقابلة لمواقع اللطرون من جهة الجنوب. ولكن تأخر العدو في الزحف حتى الساعة الرابعة صباحا، أتاح للمراقبات الأردنية ان تكشف حشوده وخط تقدمه، فأخذت المدفعية الثقيلة تقصف تلك الحشود وتوقع الاصابات في صفوفها. واستمر اطلاق قذائف المدفعية حتى طلوع الشمس – وهو الوقت الذي بدأت فيه دورية قاسم العايد اشتباكها مع جناح العدو الأيمن – وعلى الرغم من شدة نيران المدفعية الأردنية، فقد تمركزت احدى سرايا العدو في سفوح الجبل الأقرع – جبال بيت سوسين – وفي نحوالساعة العاشرة صباحا حاول العدو ان يتقدم الى الأمام، ولكنه لم يلبث ان نكص على أعقابه، أمام شدة النار التي أخذت تنصب على وحداته من مختلف الأسلحة. وخلافا للتقليد المتبع عند القوات اليهودية، فان جنود العدو أخذوا يتراجعون تاركين وراءهم قتلاهم وجرحاهم والكثير من أصناف الأسلحة والعتاد والتجهيزات.

كانت مدفعية ٢٥ رطلا سيدة الميدان في هذه المعركة، فقد لاحقت العدو المهزوم بقنابلها حتى قرية بيت جيز (التي هجرها أهلها). ولم تهدأ حدة المعركة الا في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا.

وهكذا لحقت الهزيمة بالعدو في هذه المعركة التي استمرت نحو ١٥ ساعة متصلة. وقد خسر العدو عددا كبيرا من جنوده قدرها قادة الكتيبة الرابعة ب ٨٠٠ قتيل، عدا الجرحى. اما قيادة العدو فلم تعترف الا بسقوط ٧٥ قتيلا، بينما اعترف المؤرخون

الاسرائيليون بعد ذلك أن خسائرهم كانت اكبر بكثير من هذا الرقم. وقد غنم الجيش والمناضلون نحو ٢٢٠ بندقية وعشرات من بنادق ستن و ١٥ رشاش براوننج وأربعة مدافع صاروخ وأربعة مدافع هاون ٢٢ بوصة، وأجهزة ومعدات ومتفجرات وقنابل يدوية تركها العدو على أرض المعركة عند انهزامه. وعلى الرغم من الاختلاف على حقيقة عدد القتلى اليهود، فان كتيبة المهاجرين «حلت بها أسوأ هزيمة حلت بوحدة اسرائيلية عسكرية في الحروب الثلاثة التي خاضتها اسرائيل مع العرب» (١). والمقصود هنا حروب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧.

اما خسائر الجانب الأردني فقد كانت استشهاد ثلاثة من أفراد الدورية المقاتلة، بينهم النائب شبلي علي عبدالرحمن الذي أبدى بسالة نادرة في الهجوم على جنود العدو. واثنين من المناضلين، بالاضافة الى اربعة من أهل قرية عمواس. كما أصيب ستة من الجنود والمناضلين بجراح. وقد وقع في أيدي جنود الدورية ستة أسرى يهود فساقوهم معهم، وعند وصولهم الى اللطرون أخذهم قائد السرية الثانية الى غرفة قديمة خلف الدير وأخذ يهدىء من روعهم بعد أن لاحظ خوفهم بقوله: نحو دولة متمدينة ولنا أنظمة ونحن نعرف حقوق الأسرى ولن يصيبكم أذى. ثم قدم لهم الماء والشاي والسجائر. وعند العصر تم تسليمهم الى قيادة اللواء في قرية يالو.

لعبت الظروف الطارئة دوراً كبيرا في هذه المعركة، وقد تمثلت تلك الظروف في دورية قاسم العايد التي ذهبت في مهمة معينة، وتأخرت ساعة او ساعتين في أدائها. «ولا تكرهوا شيئا لعله خير لكم». اذ لولا ذلك التأخير، لعادت الدورية الى قواعدها قبل ان يبدأ هجوم العدو. ويعتقد الرئيس عبدالله السالم قائد السرية الثانية انه لولا اشتباك تلك الدورية مع جناح العدو، لتمكن أفراد ذلك الجناح من التمركز في منطقة الكتيبة. ويجدر بنا الا ننسى ان مفرزة عرطوف عززت الدور الأساسي الذي قامت به الدورية، لان وصولها الى موقع القتال ضمن الاستمرار في الضغط على العدو حتى حلت به الهزيمة. أما الرئيس عزت حسن قائد السرية المساندة فيعتقد ان قيادة العدو كانت على ثقة كبيرة من الانتصار الى حد انها لم تحسب حسابا للفشل ولم تضع خطة للانسحاب، وعدم وجود خطة انسحاب كان السبب في الخسائر الكبيرة التي تكبدتها القوة المهاجمة.

ولكن هذا يجب الا ينتقص بحال من الأحوال من ثبات رجال الكتيبة في مواقعهم بقيادة قائدهم حابس المجالي. ولا شك ان هذه المعركة تعطي خير دليل على النتائج الباهرة التي تنجم عن التعاون بين مختلف الوحدات، وعلى الأخص بين وحدات المشاة ووحدات المدفعية وأسلحة الاسناد. وكان ذلك الانتصار يحمل معنى آخر ذا أهمية: لقد كانت الكتيبة الرابعة تحت قيادة ضابط أردني هو القائد حابس المجالي، وكان جميع ضباطه وجنوده من أبناء القرى الأردنية. وهم في خلال خدمتهم العسكرية لم يتدربوا على خوض معارك حرب نظامية مثل أفراد الكتائب الاولى والثانية والثالثة – ولكنهم استطاعوا بروح الانضباط والرجولة والاستعداد للتضحية – ان يعوضوا عن كل ذلك ويلحقوا الهزيمة بقوة تفوقهم في العدد ثلاث او أربع مرات.

ويجدر بالذكر ان الطائرات العراقية أسهمت في هذه المعركة بقصف مواقع العدو. وقد منح الملك عبدالله أوسمة لقادة تلك الطائرات.

معركة الرادار

سبق أن أوضحت كيف ان قرار التدخل عسكريا في القدس، اقتضى القيام بعدة اجراءات، كان من أهمها اتخاذ قرار سريع بنقل الكتيبتين الاولى والثالثة (اللواء الأول) من قطاع نابلس الى قطاع القدس – رام الله. وبالفعل انتقلت الكتيبة الثالثة على الفور، اذ كانت تعتبر كتيبة احتياط ولم تكن تتمركز في مواقع أمامية. اما الكتيبة الأولى فقد كانت سراياها تتمركز في الخطوط الامامية غير بعيد عن المواقع التي تحتلها القوات اليهودية، وقد اشتبك بعض تلك السرايا مع العدو في مناوشات حربية.

في ٢٢ أيار قامت الكتيبة الاولى بتسليم مواقعها للقوات العراقية، التي كانت تنتقل من منطقة جسر المجامع الى منطقة نابلس. وبعد غروب شمس ذلك اليوم تحركت الكتيبة الى قطاع رام الله عن طريق قرية بيرزيت. وفي ٢٣ أيار تمركزت سراياها في المواقع التالية:

السرية الثانية: الملازم محمد محسن الحربي – قرية بدّو الى الجنوب من رام الله.

السرية الثالثة: الملازم عواد حامد – قرية النبي صموئيل.

السرية الرابعة: الملازم سلامة عتيّق – قرية القبيبة وبيت سوريك.

وهذه المواقع تقابل مواقع اليهود في تلة الرادار وفي مستعمرة الخمسة، غربي رام الله.

اما قيادة الكتيبة فقد تمركزت بين رام الله وقرية بدو.

كانت القوات الأردنية في ذلك اليوم تشتبك في معارك ضارية مع العدو في القدس (المدينة القديمة والنوتردام والشيخ جراح) وفي اللطرون، والمسافة بينهما نحو عشرين كيلو مترا. وقد أتيح للجيش العربي ان يتمركز في مواقع منيعة بسبب وعورة المنطقة وكونها منطقة جبلية تكثر فيها الجبال والأودية. ولكن كانت هناك طريق معبدة ذات أهمية تمتد من رام الله غربا حتى تلتقي بالطريق الرئيسية بين يافا والقدس (طريق باب الواد)، وتمر تلك الطريق بقرية بدو. وكان اليهود يسيطرون على مسافة من تلك الطريق في قرية ابوغوش. وهذه الطريق كانت مهمة جدا، اذ لو تقدم اليهود عليها نحو رام الله لتمكنوا من تهديد الطريق الرئيسي الممتد من رام الله الى اللطرون، او الطريق الرئيسي الآخر بين رام الله والقدس. والطريقان مهمان وحيويان بالنسبة لقوات الجيش العربي المتمركزة في القدس وفي اللطرون. وهذا هو السبب الذي حدا بالقيادة الى ابقاء سرية وعناصر أخرى من الكتيبة الثانية في بدو، عندما تحركت معظم وحدات الكتيبة يوم ١٩ ايار لمهاجمة العدو في القدس.

كانت تلة الرادار تعتبر مفتاحا لهذا القطاع، وكان وجود الأعداء فيها يؤلف خطرا دائما على رام الله وعلى الطريق الرئيسية الممتدة بينها وبين القدس. ومن هنا كان من أولويات قيادة الجيش ان تعمل على استردادها. ومن هنا سبب مرابطة الكتيبة الأولى في مواقعها الجديدة قبالة تلة الرادار.

في اليوم التالي – ٢٤ ايار – جاء قائد اللواء الأول القائمقام جولدي وقائد كتيبة المدفعية وركن العمليات صالح الشرع وخططوا مع قائد الكتيبة – لعملية الهجوم على التلة، على ان تتم في صباح يوم ٢٦ ايار. ولم تكن التلة تبعد عن قرية بدّو سوى كيلو متر ونصف.

وفي تلك الاثناء كانت الكتيبة الثانية قد انسحبت من القدس، وتحركت يوم ٢٤ ايار الى جبال يالو، لكي تكون سندا للكتيبة الرابعة في الدفاع عن تلك المنطقة.

عند العصر، جمع قائد الكتيبة الأولى قادة السرايا وأبلغهم بصدور الأمر لمهاجمة الرادار. وعندئذ تطوع الملازم سلامة عتيق للقيام بالعملية قائلا انه يطلب الى قائد الكتيبة ان يهدي اليه هذا الواجب المقدس.

كان العدو يحتل موقع الرادار بقوة سرية تقريباً، وهي من سرايا لواء هارل. وكان

الموقع محصنا بالأسلاك الشائكة من أيام الانكليز، وقد زرعت الأرض مع امتداد الطريق المؤدية الى التلة بألغام ضد المصفحات والأشخاص. اما الطريق المؤدية الى التلة فليست أكثر من ممر ضيق على حافة منحدر شديد الانحدار، وزيادة في التحصين قام العدو باغلاق ذلك الممر بحواجز من الاسمنت المسلح وحفر الألغام. هذا بالاضافة الى ان حامية التلة كانت تستند الى قوات يهودية أخرى في مجموعة مستعمرات يهودية على مسافة ميلين فقط الى الغرب منها، وأهمها مستعمرة الخمسة.

أخذت السرية الرابعة تستعد للقيام بالهجوم، وتم تزويد أفرادها بمقصات الأسلاك. وقد تضمنت الخطة ان يكون هناك تمهيد للهجوم بقصف القنابل من مدفعي ٢٥ رطلا ومن مدافع الهاون عيار ٣ بوصات. كما قضت الخطة ان تقف السرية الثانية على أهبة الاستعداد لتساند الهجوم وتكون قوة احتياط.

بدأت العملية في الساعة ٤٥ر٣ من صباح ٢٦ أيار. وكان تمهيد المدفعية الثقيلة لمدة تسع دقائق فقط بسبب قلة العتاد. وزحف جنود السرية ببسالة فائقة في مواجهة نار كثيفة من الرشاشات والبنادق، وبمساندة أربع مدرعات تغطي مدافعها زحف المشاة. ووصل أول جندي الى حاجز الاسلاك الشائكة وأعمل المقص فيها، ولكن لم تلبث ان أصابته رصاصة فسقط على الارض. كمن العريف عودة نهري الى جانب جثة رفيقه وألهب خنادق العدو المقابلة بنار رشاشته، بينما تقدم آخرون لقص الأسلاك. كان هناك اطلاق نار كثيف مع انفجارات القنابل اليدوية. أبدى العدو مقاومة شديدة، ولكن الهجوم كان صاعقاً. توقفت احدى الفئات المهاجمة قليلا أمام شدة المقاومة، فتقدم قائد السرية لكي يرى الوضع، وعندئذ أصابته شظية في رجله فكسرتها. في الساعة الرابعة والنصف اندفع أفراد احدى الفئات الى داخل مواقع العدو واشتبكوا مع جنوده في قتال عنيف بالسلاح الأبيض، حتى اضطروهم للفرار تاركين وراءهم ١٣ قتيلا. وفي اثناء فرار العدو قتل من أفراده آخرون، وكان فرار هؤلاء باتجاه الغرب نحو المستعمرة، هذا عدا الذين أصيبوا بجراح. خسرت السرية خمسة شهداء وأصيب ١٦ من أفرادها بجراح، وكان قائد السرية ومساعده الوكيل سليمان جراد من بين الجرحى. في ذلك اليوم أبدى جنود وضباط السرية الرابعة جرأة نادرة، وأعطاهم قائدهم مثالا عظيما على البسالة والاقدام، اذ تقدم جنوده عندما أصيب يريدون ان يحملوه ويعيدوه الى الوراء، ولكنه رفض ان يغادر المكان الذي سقط فيه الا بعد

ان يتم احتلال مواقع العدو وتطهيرها. ليس ذلك فحسب بل انه زحف الى الامام على يديه ورجله السليمة وهو يجر ساقه المكسورة حتى وصل الى قلب الموقع وأطلق بنفسه اشارة التنوير اشعارا باحتلال الهدف. وبعد ذلك كله رفض ان يحمله رفاقه الا بعد أن يتم اخلاء الجرحى الآخرين من أفراد سريته. ومما يذكر ان المدرعات استدارت حول التلة لملاحقة جنود العدو وهم يفرون حاملين جرحاهم، وعندئذ أطلقت النار عليها من مستعمرة الخمسة فأصابت المدرعة الأولى واشتعلت فيها النار، وأصيب قائد المدرعة الثانية بصلية رشاش فقتل.

ويمكن القول أيضا ان الوكيل سليمان جراد (حويطات) تولى قيادة الفئة التي اشتبكت مع العدو بالسلاح الأبيض، بعد اصابته في صدره، والى جانبه النائب مدلول سليمان (الذي لم يلبث أن استشهد) والنائب قرطوع ذوقان (العيسى). وبعد الاستيلاء على الموقع قامت مفرزة الهندسة بخلع الألغام من الطريق المتجهة الى مستعمرة (الخمسة)، ولم تلبث المدرعات حتى أخذت تتقدم نحوها، لمساندة هجوم مجموعة من المناضلين الحويطات يقودهم صقر عبطان الجازي. ولكن العدو واجه المدرعات بنيران الهاونات، فأصيبت احداها بقنبلة أشعلت فيها النار حتى احترقت تماما، مما أدى الى اغلاق الطريق الضيقة والى توقف الهجوم. أما قائد المدرعة الذي قتل فهو النائب محسن مطلق علي (الرولة).

لم تكد نار القتال تخمد حتى أسرعت السرية الثانية الى التلة تستحكم فيها، حتى يتاح المجال أمام افراد السرية الرابعة ان يلتقطوا أنفاسهم وياخذوا قسطا من الراحة بعد الجهد الذي بذلوه. وتولى الملازم رشيد مرشود قيادة السرية الرابعة مكان الملازم سلامة عتيق الذي نقل الى المستشفى (٢).

أعيدت السرية الرابعة الى الخلف وألقي عبء الدفاع عن تلة الرادار على عاتق السرية الثانية. وفي اللية التالية شن العدو من مستعمرة الخمسة هجوما قويا بدأ الساعة ٣٠ر٩ مساء واستمر حتى الساعة ٣٠ر٣ من صباح ٢٨ ايار. وقد وصل اليهود في هجومهم الى مسافة بضعة امتار من استحكامات السرية، ولكنهم اضطروا الى التراجع بعد ان سقط كثيرون منهم بين قتيل وجريح. وفي تلك المعركة قتل الجندي جريبان سالم ابوتايه (الحويطات) الذي قذفه أحد جنود العدو بقنبلة يدوية فتلقاها بيديه وأعادها ثم تلقى قنبلة ثانية فانفجرت وقضت عليه. واستشهد ايضا العريف قطيفان مرجي وراد (السردية). وقبيل بدء

ذلك الهجوم أغارت طائرة للعدو على الموقع وألقت قنبلتين فلم تنفجرا (من القنابل التي كان اليهود يصنعونها محليا). وقد أبدى اليهود في هجومهم هذا استماتة في محاولة استرداد الموقع، وكانوا يشجعون بعضهم البعض وهم يصرخون: قاديما، قاديما. وفي اثناء القتال استشهد الملازم وديع قسطندي ابراهيم (من الفحيص) ضابط الاسعاف في الكتيبة، بينما كان يؤدي واجبه في خط النار.

وواصل اليهود هجماتهم على موقع الرادار في عدة محاولات لاسترداده، ولكن المدافعين عنه ظلوا يصدونهم المرة بعد الأخرى ويرغمونهم على التراجع مع تكبيدهم الخسائر الفادحة. ثم حلت السرية الثالثة بقيادة الملازم عواد حامد في الموقع. وفي ليلة ١ حزيران هاجم اليهود بقوة كتيبة وأطبقوا على الموقع من جميع الجهات. وصمد المدافعون حتى جاءتهم نجدة من الكتيبة، فألحقت بالمهاجمين هزيمة منكرة. وفي اثناء القتال أصيب قائد السرية عواد حامد بجراح خطيرة، فنقل الى المستشفى وبقي فيه نحو شهر. ثم عادت السرية الثانية الى الموقع. واستمر العدو في شن الهجمات كل ليلة تقريبا. كانوا يجيئون من مستعمرة الخمسة ومن القسطل ومن قرية أبوغوش. وفي كل مرة كانوا ينسحبون مع طلوع الفجر. وذات صباح وجد جنود السرية بين القتلى ثلاث فتيات احداهن ممرضة من مواليد برلين وأخرى من مواليد حيفا والثالثة من مواليد هولندا (حسب الهويات). وعثر على قتلى مربوطين بالحبال (اما لجرهم الى الوراء اذا قتلوا أو لعدم تمكينهم من الفرار). وكان أكثر القتلى شبانا تتراوح اعمارهم من ١٨ الى ٢٠ سنة. وفي معركة ١ حزيران قدرت خسائر العدو بخمسين قتيلا، عدا الجرحى. حتى في أثناء الهدنة لم يسلم الموقع من هجمات العدو. ففي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ١٣ حزيران، قصف العدو موقع الراداربقنابل المدفعية من مستعمرة الخمسة، فقتل اثنان من الجنود من جراء القصف، وأصيب قائد السرية الثانية الملازم محمد محسن الحربي بشظية قنبلة اخترقت طبلة أذنه اليسرى وشظية أخرى في رجله، وخرجت الدماء من رأسه. وقد سببت الاصابة له عاهة دائمة، اذ فقد السمع باذنه المصابة منذ ذلك الحين.

وهكذا تحطمت جميع الهجمات على صخرة البطولة التي أبداها ضباط وأفراد الكتيبة الأولى في الدفاع عن هذا الموقع المهم. وبقيت تلة الرادار تحت سيطرة القوات الأردنية حتى حرب ١٩٦٧. وفي هذا الصدد يجدر بالذكر ان احتفاظ الجيش العربي بتلة الرادار،

كان يؤلف في حد ذاته حماية للطرق المؤدية الى اللطرون من ناحية الشرق. فبالنسبة للجيش العربي كانت تلة الرادار نقطة دفاعية حيوية، اما بالنسبة لليهود، فقد كانت تمثل – مع موقع النبي صموئيل – عائقا أمام مشاريعهم الهجومية نحو القدس ورام الله، هذا على الرغم من انها لم تكن تهدد بصورة مباشرة طريق القدس – الساحل، ذات الأهمية الحيوية بالنسبة لهم.

الهجوم الكبير الثاني : ٣٠ أيار

كان من الواضح للقيادة الأردنية ان اخفاق اليهود في هجومهم على مواقع اللطرون يوم ٢٥ أيار لن يكون خاتمة المطاف، وأن العدو لا يستطيع الوقوف ساكناً ازاء الضيق الذي يعاني منه يهود القدس، نتيجة لوقفة الجيش العربي في اللطرون وباب الواد على عنق طريق الخلاص بالنسبة لهم: طريق باب الواد. لهذا كله كانت قيادة الجيش تتوقع مزيدا من الهجمات التي يرمي العدو من ورائها الى فك طوق الحصار وازاحة الكتيبة الرابعة عن عنق الطريق. ولما لم يكن لدى الجيش اية قوات احتياط تعزز بها مواقعها لصد الهجمات المتوقعة، فقد طلبت من القيادة العامة للجيوش العربية في الزرقاء ان تحث قوات الدول العربية الأخرى على القيام بحركات تعرضية، كل منها في جبهتها، لتخفيف الضغط على الجيش العربي. وبالفعل أصدرت القيادة العامة يوم ٢٧ ايار وصايا الحركات وقد جاء فيها ان موقف القوات الأردنية في باب الواد واللطرون حرج جداً، وان على القوات العراقية والمصرية ان تقوم بحركات تعرضية بحيث يتقدم العراقيون نحو ناثانيا ويتقدم المصريون الى خط يبنا – عاقر. كما طلبت القيادة العامة من القوات السورية ومن قوات الانقاذ القيام بحركات تعرضية مماثلة (٣).

ولكن هل قامت الجيوش العربية بأية هجمات مؤثرة في ذلك الوقت؟ الواقع انه لا توجد أدلة على ذلك.

وقد حدث بالفعل ما كانت القيادة الأردنية تتوقع حدوثه، اذ ان القيادة اليهودية لم تكد تعرف باخفاق هجوم ٢٥ ايار حتى اتخذت قراراً بمهاجمة مواقع اللطرون وباب الواد مرة ثانية. هذا مع العلم ان تلك القيادة اعتبرت هجوم ٢٥ ايار ناجحا، على اساس انه أرغم الجيش الأردني على تخصيص نصف قواته للدفاع عن اللطرون، ولم يبق أمامه مجال لكي يندفع بكامل قواته لمهاجمة مواقع اليهود في القدس.

كان دافيد بن غوريون، رئيس وزراء اسرائيل، يتولى توجيه العمليات العسكرية. وكان يعتقد ان مصير الحرب يتوقف على نتيجة القتال بين الجيش الاسرائيلي والجيش الأردني، وقد قال آنذاك «**إما ان يخترق الجيش العربي مثلثنا، أو نقوم نحن باختراق مواقعه. فاذا نجحنا نكون قد أوشكنا ان نكسب الحرب. الجبهة الرئيسية هي المنطقة التي يتمركز فيها الجيش العربي: القدس وجبال القدس، وليس النقب او الجليل. انني احترم الجيش العربي الى أقصى حد**» (٤).

في يوم ٢٨ أيار اتخذ بن غوريون قرارا بتعيين الكولونيل الأمريكي دافيد ماركوس (٥) قائدا عاما للجبهة بين القدس واللطرون، برتبة عميد. وكانت تعليمات بن غوريون اليه: يجب الاستيلاء على اللطرون وفتح طريق القدس. وقد وضعت تحت امرة هذا القائد ثلاثة ألوية هي لواء اتزيوني ولواء هارل واللواء السابع. وكانت هذه القوة يومذاك «أكبر قوة أسرائيلية يقودها قائد واحد».

جاء ماركوس الى مستعمرة خلدة، وأخذ يضع مع شامير خطة الهجوم الجديد ضد مواقع اللطرون. وكان ماركوس واثقا من مقدرة قواته على اجتياح مواقع اللطرون بهجوم مباشر. وقد تقرر ان يقوم اللواء السابع مرة أخرى بالهجوم، وان تتولى مسؤولية التقدم في الطليعة كتيبتان:

- كتيبة المصفحات بقيادة لاسكوف ومهمتها التقدم الى مركز الشرطة والاستيلاء على قرية اللطرون وتدمير المدافع المتمركزة على التلة قرب الدير (مدافع الاسناد)، على ان تسير وراء القوة المدرعة سرية مشاة مهمتها التثبت في مركز الشرطة، بينما تستمر المدرعات في العمل على انجاز باقي واجباتها.
- الكتيبة ٥٢ من لواء جيفاتي (بالماخ) بقيادة برولوف (والتي نقلت من قطاع النقب)، ومهمتها القيام بهجوم تحويلي على الجناح الشرقي لتحصينات اللطرون، بهدف الاستيلاء على مرتفعات باب الواد وقرى دير ايوب ويالو وبيت نوبا، ثم الالتفاف وراء مواقع اللطرون والوصول الى طريق رام الله. وكان من جملة أهداف حركة الالتفاف تلك ارغام الكتيبتين الثانية والرابعة على التراجع من مواقعهما الأمامية للدفاع عن خطوط مواصلاتهما الخلفية. واقتضت الخطة ايضا ان تزحف كتيبة المهاجرين وراء كتيبة البالماخ للتمركز في المواقع التي سيتم الاستيلاء عليها.

بدأت كتيبة البالماخ عملياتها بالتقدم الى قريتي بيت جيز (تبعد عن مستعمرة خلدة نحو كيلو مترين الى الشمال الغربي منها) وبيت سوسين (تبعد نحو كيلو مترين ونصف عن خلدة)، اللتين كان اليهود قد استولوا عليهما في اثناء الهجوم الاول على اللطرون.

في الوقت نفسه كانت الكتيبتان الثانية والرابعة تستعدان لمواجهة الهجمات المقبلة. وقد عملت قيادة الجيش على تزويد الكتيبة الرابعة بعدد من مدافع مقاومة الطائرات، بعد ان أخذت طائرات العدو تحلق فوق المواقع الأردنية بصورة تكاد تكون يومية (مرات للاستكشاف ومرات لالقاء قنابل مصنوعة محليا). وغني عن القول ان دوريات الكتيبتين كانت تعمل باستمرار بين مواقعهما من جهة ومواقع العدو من جهة أخرى. وفي مساء يوم ٣٠ ايار تحركت دورية مقاتلة بقيادة الوكيل يوسف الجريس (قائد فئة في السرية الاولى من الكتيبة الرابعة)، باتجاه مستعمرة كفروريا. وقد اشتبكت مع دورية مقاتلة للعدو قرب المستعمرة، ثم عادت بعد اداء مهمتها. وكان ذلك الاشتباك فاتحة للمعركة الكبيرة التي كان العدو على وشك القيام بها.

مهد العدو لهجومه بقصف مدفعي بدأ في الساعة التاسعة مساء، على مواقع الكتيبتين في اللطرون وباب الواد. وبدا لقيادة الكتيبة الرابعة ان العدو يمهد للقيام بهجوم كبير، فأصدر القائد حابس المجالي أوامره لكافة الوحدات بأن تكون على أهبة الاستعداد. وكان المجالي قد أصدر أمرا بعيد العصر للملازم محمد المحاسنة (من السرية الاولى) بأن يتولى قيادة دورية كاشفة من اربعة أفراد ويتحرك الى وادي سلبيت في الجهة الشمالية من مدخل قرية عمواس، لكشف عناصر للعدو كانت تحاول الاقتراب من جسر صغير (عبارة) على الطريق العام بين قريتي سلبيت (التي كانت بأيدي العرب) والقباب (التي كان اليهود يحتلونها). وبالفعل تحرك المحاسنة بعد أن اصطحب معه أربعة مناضلين من ابناء بلدته (الطفيلة) لشد أزره بسبب قلة عدد أفراد الدورية، حسب الأمر الذي تلقاه. وبعد خروج الدورية من قرية عمواس، ركز ضابط ملاحظة العدو القصف فسقطت قنبلة على منزل في القرية فأصابت سكانه اصابات قاتله، ثم سقطت قنبلة أخرى فأصابت الملازم المحاسنة في فخذه، فنقله رفاقه الى العيادة في عمواس حيث قام الدكتور يعقوب ابوغوش باسعافه (٦). ثم تحرك الملازم تركي يوسف الهنداوي (من ضباط السرية الثالثة) لقيادة الدورية، وبينما كان في طريقه الى الموقع، تمكنت فئة من العدو من الوصول الى العبارة وقامت بنسفها.

وأطلق أفراد الدورية النار على العدو عندما شعروا بوجوده، ولكن جنود العدو بادروا الى الانسحاب بعد ان أتموا مهمتهم. وقد حال نسف تلك العبارة دون وصول المدرعات عبر تلك الطريق للاشتراك في المعركة. وكانت العبارة على الطريق الرئيسية بين يالو واللطرون، الأمر الذي قضى على الاعتقاد بأن مواصلات الكتيبة مع مؤخرتها مأمونة.

في الساعة الحادية عشرة تقريبا من مساء ذلك اليوم (الأحد) أخذت قوات العدو تتقدم على محورين: كتيبة المصفحات باتجاه اللطرون للاستيلاء على الجناح الأيمن لمواقع الكتيبة الرابعة، بينما اتجهت كتيبة البالماخ تريد الاستيلاء على يالو وعلى ملتقى الطرق بين القدس ورام الله.

كان العدو يغطي زحفه بقوة كثيفة من النار. ولم تلبث احدى السرايا حتى اقتربت من مواقع السرية الثالثة (صالح العيد) في التلة المحاذية لمقام ابن جبل. ولكن هنا كان يتحتم على قوة العدو أن تجتاز منطقة مكشوفة تحت مواقع السرية الثالثة التي بادر أفرادها الى قذف العدو بوابل من القنابل اليدوية ونيران مدافع الهاون عيار ٢ بوصة وبكافة أسلحتهم الخفيفة، بينما لم تكن المسافة بين القوة الزاحفة والقوة المتمركزة في خنادقها تزيد على ٤٠٠ ياردة.

في الوقت ذاته اجتازت فئة من العدو الوادي المحاذي لمقام ابن جبل من جهة الجنوب وأخذت تتقدم نحو سرية القيادة. وهنا احتدمت المعركة بين الطرفين وأخذ كل منهما يلقي بكل ما يملك من قوة نارية ضد خصمه. اما مواقع السرية الأولى فقد أخذت تنصب عليها نار أسلحة العدو بقصد اشغالها واعاقتها عن تقديم اية معاونة للسرايا الاخرى. ولم يغفل العدو في خلال هذا كله عن تسيير الدوريات بقصد منع النجدات من الوصول عن طريق رام الله.

هنا حانت الفرصة الملائمة لسرية الأسلحة المساندة (الرئيس عزت حسن) المتمركزة في التلة فوق قرية عمواس. لقد تمكن العدو من الدخول بين مواقع هذه السرية والسرية الثانية وهو يقصد الوصول من هناك الى مركز شرطة اللطرون. كانت مدافع ٦ ارطال في منخفض، وبينما كان أحد تلك المدافع يطلق قذائفه، دخلت قنبلة يدوية الى الخندق وقتلت جندي المدفع. واستدل قائد السرية من هذا ان جنود العدو أصبحوا على مسافة عشرين مترا من مواقعه. في هذا الوضع أخذ رصاص الأسلحة المساندة يمر فوق رؤوس جنود

العدو (بسبب قربهم الشديد). اتصل عزت حسن بحابس المجالي قائد الكتيبة وأبلغه بتحرج الموقف. قال حابس: لقد طلبت من السرية الثانية ان تنجدكم. عليك ان تصمد ١٥ دقيقة أخرى ريثما تصل النجدة. خطر لعزت حسن ان يوجه أفواه مدافعه الى الأرض لعلها تؤثر على مشاة العدو. وسرعان ما أعطى الأمر بذلك. أخذت القنابل تسقط على بعد ٢٠ مترا فقط. استمر ذلك نحو خمس دقائق فاضطر العدو ان يتراجع تحت ضغط النار التي انصبت عليه.

ساد السكون نصف ساعة بعد ذلك الجحيم المستعر. على حين غرة ارتفع صوت بوق سيارة، وصراخ فتاة تردد كلمة قاديما. وارتفع صوت محركات السيارات المصفحة من وراء الدير وهي تتجه الى مركز الشرطة. وساد الاعتقاد في نفس قائد السرية المساندة ان تلك السيارات هي مدرعات الكتيبة الثانية، فلم يوجه نار أسلحته اليها. ولم تلبث أربع سيارات مصفحة حتى دخلت الى مركز الشرطة. وكانت الساعة عندئذ نحو الثانية بعد منتصف الليل.

كان رتل السيارات المدرعة يضم ٣٥ سيارة، بعضها وصل مؤخرا من اوروبا وبعضها تم تصفيحه في مصانع اليهود المحلية. وكانت السيارات تحمل مدافع رشاشة وقاذفات لهب، بالاضافة الى عدد منها يحمل مدافع هاون خفيفة.

في مركز الشرطة كانت ترابط فئة واحدة من سرايا الأمن المستقلة بقيادة الملازم عبدالمجيد المعايطة، تساندها عصبة من المناضلين على رأسها الشيخ نهار السبوع من عرب النعيمات. وعندما بدأت المعركة وقف هؤلاء على قدم الاستعداد. وعلى سطح المركز كانت هناك رشاشتا فيكرز: واحدة في البرج الشمالي والأخرى في البرج الغربي، وجنود آخرون وراء أكياس الرمل وبأيديهم القنابل اليدوية. كان النائب يوسف صعب قائد رشاشتي الفيكرز في مركز الشرطة، وهو من دروز لبنان وعلى قدر عظيم من الشجاعة. اما بناية المركز فقد كانت محاطة بصفوف عريضة من الأسلاك الشائكة، والى جانبها أربعة أكواخ (مستودعات) كبيرة من الخشب. وبلغ أسماع جنود المركز هدير محركات السيارات المتقدمة. حتى ذلك الحين لم يكن أحد منهم قد أطلق رصاصة واحدة على العدو. كانت السهولة التي وصلت فيها المدرعات الى المراكز غريبة، وسبب ذلك يعود الى قنابل الدخان التي أطلقتها السيارات، والظلمة، وما ساد عند البعض من ظن بأن السيارات لم تكن

سوى مدرعات الجيش العربي.

كان ماركوس ولاسكوف في سيارة القيادة، وراء السيارات الثماني الأولى التي وصلت الى مركز الشرطة. واجتازت المصفحات الثماني حاجز الأسلاك الشائكة المحيطة بالمركز، بعد ان سلطت النارعلى الجنود المتمركزين على جانبي المدخل الرئيسي، فقتل أحد هؤلاء وجرح آخر بينما تراجع البقية وانضموا الى زملائهم في الداخل. وبعد ان قطع جنودها خط الهاتف بين قائد المركز وقيادة الكتيبة، انقسمت الى فئتين احداهما أحاطت بالمركز من الجنوب وأخذت تطلق النار من قاذفات اللهب والأوكسجين وحمم النابالم من مسافة لا تتجاوز ٢٥ ياردة، بينما تقدمت الفئة الثانية نحو الباب المصنوع من الحديد المصفح. ولم تلبث ان تقدمت سيارات أخرى من المركز من الجهة الغربية وأخذت تحاول فتح ثغرات في الأسلاك الشائكة.

عندما وصل جنود المصفحة الأولى الى الباب الحديدي اكتشفوا انه كان مغلقاً (ولكنه لم يكن مقفلا). توقفت المصفحة قليلا ثم أخذ جنودها يسلطون نار الاوكسجين على الباب في محاولة منهم لفتحه ثم الدخول الى ساحة المركز. في الداخل كان الجندي الاول محمود العلي الروسان وزميل له يستعدان لاطلاق قنبلة من مدفعهما الصاروخي على السيارة المصفحة، ولكن شاء القدر ان تصيب رصاصة طائشة كبسولة القنبلة قبل اطلاقها، فتنفجر قبل خروجها من فوهة المدفع، فيقتل الروسان ويصاب زميله بجراح.

على ان توقف المصفحة أمام الباب أعطى المدافعين فرصة ملائمة، فأخذوا يقذفون العدو بكل ما لديهم من أسلحة وبالقنابل اليدوية، وهم ينتخون وتتجاوب زغاريدهم في الفضاء، ويرددون عبارة الله اكبر، الله اكبر.

وكما لعبت الصدفة دورها في انفجار قنبلة الصاروخ، فانها لعبت دورا آخر بعد لحظات عندما تسرب لهب الأوكسجين الى الأكواخ الخشبية القريبة من المركز. وسرعان ما اشتعلت النار فيها وغمر المكان ضوء اللهب الساطع، فانكشفت مصفحات العدو للعيان. عندئذ اتضحت الحقيقة لقائد الكتيبة، وأدرك الخطر الداهم الذي يحيق بالمركز، فأصدر أوامره للأسلحة الثقيلة بتوجيه نيرانها الى مركز الشرطة في عملية (إيعاز تخليص الأرواح – علي وعلى أعدائي). لم يكن أمامه سبيل غير ذلك. وكان لا بد من القضاء على العدو قبل أن يثبت أقدامه. وبادر الرئيس عزت حسن الى توجيه نيران مدافعه ورشاشاته نحو

العدو لمدة عشر دقائق. كانت النار صاعقة لا تبقي ولا تذر، وكان عزت حسن على ثقة من انه لم يبق من الأعداء أحد. وعندما توقفت النار من المدافع الأردنية، وانجلى غبار القصف، لم يكن هناك أي رد فعل من أسلحة العدو. لقد تم تدمير المصفحات التي كانت على باب المركز، بينما عمدت الأخرى الى الفرار. وكانت الساعة عندئذ نحو الثالثة صباحا.

كانت المصفحات الأربع التي وصلت الى الباب الرئيسي قد أصيبت كلها. الى جانب احداها كان ضابط برتبة رئيس، وفتاة اللاسلكي قتيلة والسماعات على أذنيها. كان جهاز اللاسلكي ما يزال يعمل، وكانت آخر صرخة أطلقتها الفتاة قبل مصرعها: «لقد اشتعلت النار في سيارتنا». الاصابات التي وقعت في أفراد العدو كانت بفعل رشاشات سرية الاسناد ومن القنابل اليدوية التي قذفها جنود الحامية من سطح المركز. معظم الجنود والضباط الذين كانوا في المصفحات لاقوا حتفهم، ولم ينج الا القلائل (٧).

في اثناء المعركة طلب قائد الكتيبة نجدة من سلاح المدرعات. وبالفعل قدمت فئة بقيادة حمدان الصبيح، ولكن نسف اليهود للعبارة، ووجود ألغام بثها العدو في الطريق، حال دون وصولها في الوقت الملائم، اذ اضطرت ان تسلك طريقا فرعية فلم تصل الا بعد طلوع الشمس، وبعد ان ابتعد العدو.

على ان الهجوم على مركز الشرطة لم يكن عملية منفردة، بل كان جزءاً من خطة واسعة النطاق، حسب العدو تفاصيلها بدقة. ففي الوقت الذي كانت فيه المصفحات تقصف مركز الشرطة بنار أسلحتها، أصدر لاسكوف أمرا الى سريتي المشاة أن تتقدما، ومع كل سرية ثلاث مصفحات: احداهما لاحتلال قرية عمواس والأخرى الى دير اللطرون. ولكن السريتين واجهتا مقاومة عنيفة واشترك أهل القرية في القتال. كانت هناك امرأة ولها ولدان احدهما في الرابعة عشرة والثاني اصغر منه بسنة. أخذ ثلاثتهم يلقون القنابل اليدوية على جنود العدو من خندق كانوا قد حفروه خارج بيتهم بالقرب من الطريق المؤدي الى مركز الشرطة. وانفجرت القنبلة الأولى، وارتفعت صرخات الألم. بعض جنود العدو اعتقدوا ان هناك لغما انفجر أمامهم. ولكن قنابل أخرى تطايرت نحوهم. وصاح أحد الولدين: انظري يا اماه، انهم يعودون الى سياراتهم ويهربون. لقد بعثنا الفزع في نفوسهم. وألقت الأم وابناها قنابل أخرى على جنود العدو، فاعتقد هؤلاء انهم يواجهون كمينا قويا وأخذوا

يتراجعون. وفي غمرة المعركة أصابت الأم رصاصة طائشة فسقطت شهيدة في سبيل الأرض، ولكنها لم تقض نحبها الا بعد ان عرفت ان الهزيمة أحاقت بالاعداء وانهم تراجعوا مدحورين عن عمواس. كانت وقفة تلك السيدة الفلسطينية الباسلة، برهاناً ساطعا على استعداد ابناء الشعب للتضحية بنفوسهم في سبيل الوطن.

كانت تلك خاتمة المعركة المجيدة في جبهة الكتيبة الرابعة.

* * *

أما في جبهة الكتيبة الثانية، فقد زحف برولوف بكتيبة من جنود البالماخ – وهم صفوة الجنود المدربين في القوات اليهودية – من الجهة الشرقية من يالو عن طريق قرية دير ايوب. في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كان العدو قد اقترب من مواقع السرية الثالثة (رفيفان خالد) التي كانت تتمركز في الجزء الأمامي من ناحية الشرق، وهي أقرب السرايا الى طريق باب الواد. كان تقدم العدو من أماكن لم تتوقع السرية مجيئه منها، لذلك لم يشعر أفراد السرية بجنود العدو الا بعد ان اصبحوا على بعد ٤٠-٥٠ مترا من مواقعهم. بادر العدو الى اطلاق النار من الرشاشات والبنادق، وكذلك الى قذف القنابل اليدوية. تلقى الصدمة الأولى جنود الخفر في مقدمة السرية، ولم يلبث جنود السرية كلهم حتى اخذوا من خنادقهم يردون على النار بنار مثلها. لم يستمر الاشتباك مدة طويلة، اذ عمد جنود العدو الى التراجع، بعد ان تركوا وراءهم عددا من القتلى غير بعيد عن خنادق السرية. وقد حاولت فئة من جنود العدو أن تتقدم من بين الأشجار المحيطة بالقرية، ولكنها لم تلبث ان تعرضت لنار الجنود المرابطين هناك، ولم تتمكن من الانسحاب فأبيدت كلها. وفي تلك الليلة أبدى المرشح علي مثقال الفايز شجاعة فائقة في التصدي لجنود العدو. وتقول المصادر اليهودية ان قائد كتيبة البالماخ أمر جنوده بالتراجع بعد أن واجهوا مقاومة شديدة، ولم يحاول مواصلة الضغط في هجومه. كان حريصا ان لا يصاب جنوده بخسائر كبيرة. وقد اتصل بقائد اللواء (افيدان) قائلا انه لا يستطيع التقدم، فسمح له بالتراجع الى خلده.

وتقول تلك المصادر ان برولوف أرسل سرية من المهاجرين الجدد الى التلة التي تشرف على قرية دير أيوب، ولكنها تراجعت بعد مصرع اثنين من جنودها. وأرسل

برولوف سريتين أخريين لتطويق التلة ومهاجمتها من الشمال، ولكنهما لم تبلغا مواقعهما المعينة لهما الا بعد أن انتشر ضوء الصباح، وعندئذ قرر ان الوضع أصبح نوعا من المجازفة (لم يكن اليهود في حرب ١٩٤٨ يميلون الى القتال في ساعات النهار)، فطلب الاذن بالانسحاب فووفق على طلبه. وكان من رأي ماركوس ان كتيبة البالماخ تصرفت بصورة مخجلة. وبعد انتهاء المعركة أمر بن غوريون بعزل برولوف واجراء تحقيق في أسباب انسحابه.

كانت خسائر الكتيبتين الثانية والرابعة استشهاد أربعة واصابة سبعة من الجنود بجراح. اما خسائر العدو فكانت كما يلي:

١٠٣ قتلى في منطقة الكتيبة الرابعة (١٧ في اللطرون و٤٩ في جبهات سرايا الكتيبة، و ٣٧ في مركز الشرطة).

٥٨ قتيلا في منطقة الكتيبة الثانية.

هذا عدا عن القتلى والجرحى الذين سحبهم العدو بالحبال.

وقد غنمت الكتيبة الرابعة أربع مصفحات يهودية ونحو ٢٠٠ بندقية، وعددا من الرشاشات والقنابل اليدوية.

ولكن المصادر اليهودية تقلل من حجم الخسائر التي حلت بالقوة المهاجمة، فهي تقول ان كتيبة البالماخ لم تخسر سوى اثنين (أو ثلاثة) من جنودها. وعلى رأي الأخوين كمشي فان اللواء السابع لم يخسر في الهجومين الكبيرين اللذين تحدثنا عنهما (٢٥ و ٣٠ أيار) سوى ١٨٧ قتيلا.

وفي اليوم التالي عمدت الكتيبة الرابعة الى سحب مدرعات العدو المعطوبة ثم أرسلتها الى قيادة اللواء الثالث.

ولكن الاغتباط بهذا الانتصار لم يلبث ان عكره استشهاد الملازم عبدالمجيد المعايطة، الذي وقف على رأس جنوده البواسل وقفة الأبطال يردون العدو عن مركز الشرطة. ذلك أن العدو أراد ان ينتقم لهزيمته فوجه في ساعات الصباح نيران مدافعه الى مركز الشرطة وقرية عمواس ومواقع الكتيبة الرابعة الأخرى. وبينما كان المعايطة يشرح لبعض الضباط الذي جاءوا لدراسة مراحل المعركة على الطبيعة، أصابته شظية قنبلة من مدفع هاون إصابة بليغة في خاصرته، فلم يلبث ان توفي بسببها (٨).

ولا بد من التنويه بدور المدفعية الثقيلة في المعركة، اذ قصفت بقنابلها فئات العدو وسياراته في اثناء تراجعها، وألحقت بها خسائر فادحة.

وبلغت انباء الانتصار مسامع الملك عبدالله فاغتبط لذلك. وتلقى قائد الكتيبة من قيادة الفرقة البرقية التالية:

صاحب الجلالة يشكركم على انتصاراتكم الباهرة التي تحرزونها من وقت لآخر، ويرغب جلالته ان تبقوا السيارات المدرعة التي غنمتموها في معركة اللطرون صباح اليوم ليحضر لمشاهدتها.

وبالفعل غادر الملك عمان في الصباح الباكر من يوم ١ حزيران فوصل الى موقع اللطرون ترافقه ثلاث مدرعات من اللواء الأول بقيادة الملازم صالح الشرع. وفي هذه الزيارة تفقد الملك موقع المعركة واستمع الى شرح عن تفاصيلها. ثم التفت الى حابس المجالي قائد الكتيبة الرابعة قائلاً: **انك وجنودك تدافعون عن أرض سبقكم للدفاع عنها قادة عظام من امثال عمرو ابن العاص وصلاح الدين. ومن أسماك حابس ما أخطأ لانك حبست العدو وحلت دون تقدمه. ان كتيبتك الرابعة هي الكتيبة الرابحة بأذن الله.**

طريق بورما

كانت الهزيمة التي ألحقها الجيش الأردني بالقوات الاسرائيلية ضربة قاسية على اليهود، بسبب الوضع التمويني الحرج في القدس. لذلك وضع ماركوس ترتيبات لتزويد يهود القدس ببعض المؤن عبر دروب وعرة بين التلال، بواسطة الجنود والدواب. وقد أوصى ماركوس بفتح طريق جديدة الى الجنوب من الطريق الرئيسية. وفي ١ حزيران تمكنت تسع سيارات جيب محملة بالمواد العسكرية من الوصول الى القدس. وبدأ اليهود فعلا العمل على حل مشكلة تموين يهود القدس على مرحلتين:

مرحلة طارئة: وتنطوي على نقل المؤن والعتاد على الدواب وسيارات الجيب من مستعمرة خلدة الى قرية بيت سوسين (كان اليهود قد استولوا على هذه القرية وعلى اختها بيت جيز وطردوا أهلهما)، ومن هناك الى قمة الجبل، حيث كان هناك نحو ٦٠٠ رجل ينقلون الأحمال على ظهورهم الى الوادي فيتم تحميلها على سيارات الشحن التي تنقلها الى

القدس. وكانت المسافة التي يقطعها الرجال وهم يحملون المواد الغذائية والعتاد تقارب ثلاثة أميال. ولاشك ان هذه العملية ساعدت على تزويد اليهود في القدس بما يسد الرمق من الطعام وبما يساعدهم على الاستمرار في القتال، اذ تقول المصادر اليهودية انه لم يبق لديهم في القدس في أول حزيران سوى طعام اسبوع واحد وعتاد يكفي لقتال ليلة واحدة.

مرحلة الحل التام: وتنطوي على شق طريق فرعية للسيارات في المنطقة الواقعة الى الجنوب من باب الواد، والتي استطاع اليهود ان يسيطروا عليها لان القوات العربية لم تقترب منها. وهذه الطريق تبدأ من مستعمرة خلدة الى قرية بيت جيز ومنها لى كفروريا ثم الى بيت سوسين حتى بيت محسير وسريس، حيث تلتقي بعد ذلك مع طريق القدس الرئيسية (قبل ان تنحدر الى باب الواد). وقد بدأ العمل من قرية بيت جيز حيث أسرع اليهود الى حشد الجرافات وآلات الحفر وأعداد من المهندسين والعمال. وبدأت فرقتان من الجرافات والعمال (رجالا ونساء) العمل من ناحية مستعمرة خلدة ومن ناحية القدس. وأخذ العمل يسير طوال ساعات اليوم، بينما كانت سيارات الجيب تعمل في أثناء ساعات الليل على نقل القنابل والعتاد الى القدس. وفي خلال خمسة أيام من العمل الشاق المتواصل، استطاعت الفرقتان ان تلتقيا في منتصف المسافة الوعرة، وأخذت سيارات الشحن تنقل المؤن والتعزيزات الأخرى. وفي يوم ١٠ حزيران مرت أول قافلة سيارات يهودية من تل ابيب الى القدس. وأطلق اليهود على هذه الطريق اسم (طريق بورما).

كانت الطريق الجديدة تمر غير بعيد عن المواقع التي ترابط فيها الكتيبتان الثانية والرابعة، وفي نطاق المسافة التي تستطيع المدافع الثقيلة (٢٥ رطلا) ان تقصفها. وقد خطط اليهود ان يتم انشاء الطريق بصورة سرية حتى لا يكتشف العرب أمرها ويعملوا على عرقلة العمل فيها. ولذلك أخذوا يزيدون من حركة دورياتهم المقاتلة في مواجهة الجبهة الأردنية، بقصد التغطية على أعمال الانشاءات. وكانوا يقومون بمعظم العمل في أثناء الليل للحفاظ على السرية.

ولكن العرب عرفوا بأمر الطريق، اذ اكتشفت احدى دوريات الكتيبة الرابعة أفراد اليهود وهم يحملون المواد الغذائية ويسيرون على جبال بيت سوسين. وقد عرض قائد الكتيبة الرابعة على قيادة اللواء أن يقوم بمهاجمة مستعمرة خلدة، على ان ترسل القيادة احدى كتائب الجيش لكي تحل في اللطرون. كما اتصل بقيادة اللواء عدة مرات، يطلب

اعطاء الأوامر للمدفعية الثقيلة بقصف المنطقة التي يعمل فيها العدو على شق الطريق. وذات يوم عمد القائد حابس المجالي الى ارسال ركن الكتيبة الملازم الاول محمود الروسان لهذه الغاية، ولكن القائمقام اشتون لم يوافق قائلا ان وعورة المنطقة تجعل من المستحيل على اليهود ان يتمكنوا من شق الطريق بل زاد على ذلك فبعث الى القائد المجالي أمراً خطيا يقول فيه: عليك أن لا تضيع قنابل المدافع من عيار ٢٥ رطلا ضد قطاع بيت جيز - بيت سوسين، تحت أي ظرف من الظروف. وكانت وجهة نظر قيادة الجيش العربي ان النقص الشديد في قنابل المدافع الثقيلة لم يكن يسمح بقصف تلك المنطقة، وان الكتيبتين الثانية والرابعة لم يكن بالامكان تحريكهما من مواقعهما الحصينة لمهاجمة منطقة أخرى. وكانت العملية تحتاج الى كتيبة أخرى، ولكن لم يكن لدى الجيش وحدات يمكن تخصيصها للقيام بذلك الواجب. أضف الى ما تقدم ان قوات الجيش المحدودة كانت قد خسرت ٢٠٪ من أفرادها بين قتيل وجريح، وكانت ترابط على جبهة طولها ٧٠ ميلا.

على ان الطريق الجديدة لم تكن تؤلف حلا جذريا بالنسبة لليهود، لانها كانت ضيقة ووعرة من جهة، ولانها كانت تحت مرمى المدافع الأردنية من جهة ثانية. كان الحل الجذري بالنسبة لتأمين المواصلات اليهودية بين القدس وتل ابيب، يكمن في الاستيلاء على مرتفعات اللطرون ويالو، وتأمين سلامة القوافل في اثناء ذهابها وايابها على الطريق الرئيسية: طريق باب الواد.

سحب الضباط الانكليز

كان الضباط الانكليز يتولون قيادة الجيش الأردني منذ انشاء الامارة في عام ١٩٢١. وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ كان عدد أولئك الضباط لا يزيد على عدد اصابع اليد الواحدة. ولكن عدد أولئك الضباط أخذ يزداد ابتداء من عام ١٩٤٠ عندما تم الاتفاق بين حكومتي الأردن وبريطانيا على انشاء كتائب مسلحة في الجيش. وقد نشأ عن ذلك ان الحكومة البريطانية أخذت تعير للجيش الأردني ضباطا محترفين من خريجي كليات الأركان لقيادة الكتائب المسلحة.

بعد انتهاء الحرب العالمية سنة ١٩٤٥ استمرت الترتيبات بين الحكومتين بشأن تمويل الجيش الأردني وتسليحه وقيادته، على أساس معاهدة التحالف المعقودة عام ١٩٤٦. وفي

اجتماع لرؤساء الأركان البريطانيين بتاريخ ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٨، تقرر ان الحد الأدنى لحجم الجيش الأردني يجب ان لا يقل عن ٧ آلاف رجل، وتقرر أيضا ان تقدم بريطانيا للأردن معونة مالية مقدارها مليونا جنيه لادامة الجيش خلال السنة المالية ١٩٤٨ - ١٩٤٩، بالاضافة الى نصف مليون جنيه لشراء المعدات.

وقد قام الفريق جلوب ببحث موضوع الاعانة المالية للجيش في اثناء وجوده في لندن في شباط ١٩٤٨ (حينما كان يرافق رئيس الوزراء توفيق أبوالهدى). وفي اجتماع عقد يوم ٢ شباط في وزارة الحربية للبحث في اعادة تنظيم الجيش الأردني، تساءل جلوب عما اذا كان المبلغ المقرر يكفي لادامة الجيش دون تخفيض كفاءته وقدرته القتالية. وقال ان التخفيض المقترح سيشمل ما يلي:

- تخفيض مدفعية الميدان الى كتيبة تتألف من بطاريتين،
- الغاء مدفعية ١٧ رطلا ضد الدبابات،
- الغاء مركز التمريض ومركز اسعاف الميدان وغير ذلك،

ونفهم من مذكرة لوزارة الحربية مؤرخة في ٧ شباط، ان تلك الوزارة كانت تعارض في تزويد الجيش بمدافع ١٧ رطلا و ٢٥ رطلا، لاعتقاد المسؤولين فيها انه لا يوجد مبرر لتزويد الجيش الأردني بها.

يبدو ان الحكومة البريطانية لم تكن قد أدخلت في حساباتها قيام حرب فعلية بين الدول العربية واليهود في فلسطين - أو على الاقل - لم تكن هناك حسابات لاشتراك الجيش الأردني في عمليات حربية. ولكن عندما بدا واضحا في نيسان ١٩٤٨ ان الحرب واقعة لا محالة، وان الجيش الأردني لا بد ان يشترك فيها - تحركت الدوائر المختصة في لندن وأخذت تبحث الموقف على ضوء علاقتها بالأردن من جهة وعلاقاتها الدولية من جهة ثانية. ففي ٢٧ نيسان بعث وزير الدفاع البريطاني الى زميله وزير الخارجية مذكرة جاء فيها انه يوجد في الجيش الأردني نحو اربعين ضابطا بريطانيا: ثلاثون منهم أعارهم الجيش البريطاني للخدمة في الجيش الأردني (أي أنهم كانوا ما يزالون ضباطا عاملين في الجيش البريطاني)، وعشرة منهم تعاقدت معهم الحكومة الأردنية بصفة شخصية. وقد أبدى وزير الدفاع رأيه في أن دخول الضباط المعارين الى فلسطين مع وحدات الجيش الأردني، مع احتمال وقوع قتال بين الجيش الأردني واليهود « سوف يؤدي الى حدوث مشاكل

للحكومة البريطانية». ثم اقترح وزير الدفاع على وزير الخارجية ان يضع الترتيبات (عن طريق الوزير البريطاني المفوض في عمان) للحيلولة دون دخول أولئك الضباط البريطانيين الذين ما يزالون على ملاك الخدمة العسكرية في الجيش البريطاني – الى فلسطين. وقد جاء في المذكرة انه يمكن بقاء أولئك الضباط في شرقي الاردن للعمل في المعسكرات (ادارة وتدريب). أما بشأن الضباط الذين تعاقدت الحكومة الأردنية معهم بصفة شخصية ومباشرة، فان هذه التعليمات لا تسري عليهم. ومن بين هؤلاء اثنان هما الزعيم لاش والزعيم برود هيرست، كانا يخدمان في سلك الشرطة في فلسطين.

ونرى من مذكرة بعث بها وزير المستعمرات في اليوم التالي ان الفريق جلوب والزعيمين لاش وبرود هيرست كانوا ضباطا متقاعدين في حكومة فلسطين، وأن حكومة فلسطين سوف تنهي خدماتهم معها عند انتهاء الانتداب. واقترحت المذكرة ان يعمل الوزير البريطاني المفوض في عمان على ايفاد هؤلاء الضباط الثلاثة في اجازة، حتى لا يشتركوا في أية عمليات عسكرية قد يقوم بها الجيش الأردني في فلسطين. ثم عاد وزير المستعمرات فبعث مذكرة أخرى الى وزير الخارجية حول وضع الفريق جلوب (كان آنذاك برتبة زعيم في الجيش البريطاني) بالذات قائلا انه من العسير على وزارة المستعمرات ان تسمح بأن يبقى قائدا للجيش الأردني « اذا ما اشتبك ذلك الجيش في قتال مع اليهود في فلسطين».

أخذ هذ الموضوع قسطا من اهتمام وزارة الخارجية البريطانية. فقد جاء في برقية وجهتها الى الوزير المفوض بعمان، انها ربما تصدر تعليمات بأن لا يدخل الضباط العاملون في الجيش البريطاني أراضي فلسطين، واذا ما دخلوا اليها أن لا يتجاوزوا المناطق المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم. وتساءلت البرقية «فهل اذا منعناهم من دخول فلسطين سيؤدي ذلك الى الحاق ضرر بالغ بعلاقاتنا مع الحكومة الأردنية...؟». وجاء في تلك البرقية ان بريطانيا كانت تدفع المعونة المالية على أربعة أقساط، وان القسط الاول تم دفعه في ١٣ نيسان، (ولا يمكن استرداده) وانه سيجري بحث موضوع القسط الثاني (الذي يستحق في ١٢ تموز) قبل موعد الأستحقاق بأسبوعين.

ان هذه المراسلات السرية تعطينا فكرة عن دقة وضع الجيش الأردني بالنسبة لاتجاهات السياسة البريطانية، وفيما يتعلق بتوفير بريطانيا معونة مالية لادامته وضباطا

محترفين لقيادته، بالاضافة الى تزويده بالسلاح والعتاد. ويبدو لنا ان قيادة الجيش (الفريق جلوب) أخذت تبحث عن مخرج ما لتفادي الوصول الى قرار يلحق الضرر بعلاقات الصداقة بين الأردن وبريطانيا. وتكشف لنا وزارة الخارجية النقاب عن الاتصالات السرية التي جرت بين قيادة الجيش وقيادة الهاجانا، والتي استهدفت « تحديد مناطق فلسطين التي ستحتلها قوات الطرفين»، وبالتالي « تفادي نشوب القتال بين العرب واليهود». وقد توصل وزير الخارجية الى قرار يقضي بانتظار تطور الأحداث. وجاء في مذكرة وزير الخارجية (١٣ أيار) انه اذا ما نشب القتال الفعلي بين الجيش الأردني واليهود «نتيجة لهجوم أردني على الدولة اليهودية داخل حدودها التي عينتها الامم المتحدة – فاننا دون شك سنأمر جميع الضباط الانكليز النظاميين بالانسحاب والبقاء خارج فلسطين».

ويتضح لنا حرص الحكومة البريطانية على أن لا يكون لها ضلع في الحرب الوشيكة، أن وزارة الحربية قامت في ١٤ أيار بشطب اسم جلوب من قائمة ضباط الاحتياط في الجيش النظامي أي انه لم يعد – اعتبارا من ذلك التاريخ – عضوا عاملا في الجيش البريطاني. (٩).

وقد تركت الحرية للضباط الثلاثة (جلوب ولاش وبرود هيرست) في اختيار البقاء في خدمة وزارة المستعمرات أو ترك الخدمة مع انتهاء الانتداب على فلسطين، فاختاروا انهاء خدماتهم والتعاقد مع الحكومة الأردنية. وفي ٢٥ أيار كان الوضع بالنسبة لوزارة الخارجية البريطانية كما يلي:

١ – ان ضباط الجيش البريطاني سوف يسحبون من فلسطين اذا ما نشب القتال بين الأردن واليهود، كنتيجة لهجوم أردني على الدولة اليهودية داخل حدودها التي عينتها هيئة الأمم.

٢ – ان اشتراك الجيش الأردني في القتال في القدس لا يمكن اعتباره هجوما على الدولة اليهودية. (على اعتبار ان قرار التقسيم لم يضع القدس في داخل حدود الدولة اليهودية). ان العرب لم يبدأوا القتال هناك، ولم يثبت ان الضباط البريطانيين اشتركوا في عمليات القتال في القدس.

٣ – لا بد من مراجعة الوضع اذا رفض الملك عبدالله الاقتراح القائل بايقاف اطلاق النار. وقد أبلغت وزارة الخارجية ذلك للملك.

ان هذه الوثائق تعطينا فكرة عن الوضع الذي كان سائدا في شهر أيار ١٩٤٨، بالنسبة لوجود الضباط الانكليز في الجيش الأردني. ونفهم من مذكرة قدمها الفريق جلوب الى وزارة الحربية البريطانية (١٩٤٩/٦/٢٢) ان الجيش البريطاني كان يوافق على اعارة الضباط على اساس التطوع لمدة ثلاث سنوات على الأقل. ومن وجهة نظر رسمية كان أولئك الضباط يعتبرون في أثناء خدمتهم في الجيش الأردني، بأنهم في خدمة دولة أجنبية. وتقول المذكرة ان اختيار أولئك الضباط كان يتم بعناية وتدقيق، وانه – على الرغم من ذلك – ثبت ان ستة منهم لم يكونوا ملائمين « ولم تكن خدماتهم مشرفة لا للجيش العربي ولا للجيش البريطاني». وعلى رأي جلوب في مذكرته تلك فان الخدمة في الجيش العربي كانت تتطلب أعلى مستوى من الكفاءات العسكرية أو المقدرة الفنية «لان كفاءة الجيش العربي تعتمد على كفاءتهم». ولم تكن قيادة الجيش تقبل الضباط الذين خدموا في الهند والمستعمرات «بسبب الاختلاف الكبيرفي الظروف والأحوال بين الأردن وتلك الأقطار».

بقي الوضع مترجرجا حتى يوم ٢٩ ايار عندما وافق مجلس الأمن الدولي على قرار تقدمت به بريطانيا، ويتضمن دعوة العرب واليهود الى الموافقة على عقد هدنة في فلسطين لمدة أربعة أسابيع، ودعوة جميع دول العالم الى الامتناع عن تزويد أي من الأطراف المشتركة في القتال بالأسلحة والمعدات الحربية.

لقد كان لهذا القرار تأثير بعيد المدى على الجيش الأردني، إذ أن الحكومة البريطانية بادرت في اليوم نفسه فأرسلت تعليمات بسحب جميع الضباط البريطانيين المعارين، من منطقة العمليات العسكرية، على أن لا يتأخر تنفيذ التعليمات عن يوم ٣٠ أيار.

وكان من نتائج ذلك القرار ان قيادة الفرقة انقسمت الى (١) قيادة حربية، بقيت في بيتونيا وفيها الزعيم لاش قائد الفرقة (وهو ضابط متعاقد) ومعه ركن حرب وكيل القائد علي الحياري، و (٢) قيادة خلفية، في منطقة يوشع في السلط وفيها ركن العمليات القائد داونز ومساعده جونز وركن ثان للعمليات الرئيس صادق الشرع. وانتقلت قيادة اللواء الأول أيضا الى يوشع بينما بقيت قيادة اللواء الثالث في منطقة رام الله. وانتقل قادة الكتائب الأولى والثانية والثالثة وكذلك قادة المدفعية، الى الزرقاء. وبقي الوضع على هذه الحال حتى انتهت فترة القتال الثانية، فعاد كل ضابط الى وحدته الأصلية.

يعلق الفريق جلوب على ذلك القرار بقوله:

«كان القرار ضربة قاسية لان الأردن لم يعتد على الأراضي التي خصصها قرار التقسيم لليهود، ولان معاهدة تحالف كانت تربط بين بريطانيا والأردن. للذلك نظر الأردن الى هذا القرار وكأنه طعنة من صديق في وقت الضيق. ان الضباط الذين شملهم القرار كانوا ضباط العمليات العسكرية وقائدي اللوائين وقادة ثلاث كتائب وجميع ضباط المدفعية المدربين. ولما كان سلاح المدفعية قد أنشيء قبل ثلاثة أشهر فقط، فلم يكن هناك ضباط أردنيون قد تدربوا بالقدر الكافي على تسديد نار المدافع. الضباط العرب في الجيش كانوا ضباط أمن، لان الجيش كان قوة للأمن حتى سنة ١٩٤٠. لذلك كانت الخدمة العسكرية لكبار الضباط العرب في الجيش تقتصر على ثماني سنوات فقط. كان الضباط الانكليز أساس بنية الجيش، وكان من المحتمل أن يؤدي انسحابهم الى انهيار تام، لولا حماسة الجنود وارتفاع معنوياتهم».

والحقيقة ان بريطانيا لم تقتصر في اجراءاتها على سحب الضباط الانكليز، بل انها عمدت الى ايقاف جميع امدادات السلاح والعتاد الى الأردن، كما أوقفت تقديم المساعدة المالية للجيش. كان موقف بريطانيا طعنة في الصميم، لان الأردن لم يكن يملك مالا، ولم يكن يملك سلاحا أو عتادا، غير ما بقي لديه – وهو قليل – من السلاح والعتاد الذي سبق ان تلقاه من بريطانيا.

وقد ظهر فيما بعد ان قرار بريطانيا ألحق ضرراً بالغا بالأردن خاصة والدول العربية الأخرى عامة، لان العرب لم يستطيعوا تدبير مصادر أخرى تزودهم بالسلاح والعتاد، بينما مضى اليهود يجلبون السلاح الى فلسطين بواسطة البحر والجو، من اوروبا وأمريكا، بوسائل عديدة توصلوا اليها، فلم تلبث كفتهم حتى رجحت على كفة العرب، تحت سمع بريطانيا – حليفة العرب – وبصرها. ولم تكن للعرب سيطرة على البحار أو الأجواء لكي يحولوا دون جلب السلاح والعتاد الى اليهود في فلسطين، بينما كانت بريطانيا تستطيع ان تفعل ذلك – بل على الأقل كانت تستطيع تزويد العرب بحاجاتهم الضرورية، للابقاء على نوع من التعادل في قوة الطرفين. وتبدو الطعنة بكل بشاعتها عندما نلاحظ ان القوات العربية كلها لم تقترب من المناطق التي خصصها قرار التقسيم لليهود، بينما كان اليهود قد استولوا على مناطق واسعة خصصها قرار التقسيم للعرب.

ان قرار سحب الضباط البريطانيين لم يشمل اولئك الضباط الذين لم يكونوا على ملاك الخدمة في الجيش البريطاني حينذاك، ومن بين هؤلاء الفريق جلوب رئيس الأركان والزعيم لاش قائد الفرقة والزعيم برود هيرست (المساعد الاداري لرئيس الأركان). ويقول جلوب انه لم يلبث ان تلقى رسالة من المفوضية البريطانية بعمان تشير الى قانون بريطاني قديم، والى انه يمكن توجيه الاتهام اليه بأنه قبل الخدمة في صفوف دولة أجنبية مشتبكة في حرب بدون موافقة حكومة جلالته. وكان جوابه انه اذا كانت حكومة جلالته لا تعلم بوجوده في الأردن، فلا بد انها تعاني من فقدان الذاكرة.!!

أما السير اليك كركبرايد فيقول ان توقف بريطانيا عن تقديم المساعدات المالية والعسكرية للأردن، وضع الأردن في موقف خطير، لان الأردن لم يكن لديه احتياطي من المال والسلاح، ولم يكن يملك أية موارد أخرى. وقد غضب الملك عبدالله ووزراؤه غضباً شديدا للقرار. واستدعى الملك كركبرايد وقال له ان الحليف الذي يتسبب في دخول حليفه الآخر في الحرب، ثم يقطع عنه الموارد الأساسية، فلا يمكن اعتباره حليفا مرغوبا فيه.

على ان الضباط الذين سحبوا الى شرقي الاردن لم يلبثوا ان عادوا الى مواقعهم في فلسطين بعد بدء الهدنة الثانية. وترى نموذجا على ابتعاد الكتاب الاسرائيليين عن جادة الصواب، مما زعمه دان كرزمان عندما قال ان جلوب سحب الضباط الانكليز الى شرقي الأردن، ثم أعادهم الى قياداتهم بمجرد انتهاء المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا من القاء خطابه في مجلس النواب (كان انصار اليهود من أعضاء مجلس العموم البريطاني قد اثاروا ضجة ضد وجود الضباط البريطانيين في الجيش الأردني).

على أن القرار الأكثر خطورة، الا وهو ايقاف تزويد الأردن بالمعونة المالية وبالسلاح والعتاد، بقي ساري المفعول. واذا قيل انه كان بمقدور الضباط العرب في الجيش ادارة العمليات العسكرية، على الرغم من انهم لم يكونوا مؤهلين عسكريا (تعليما وخبرة) مثل الضباط البريطانيين – فأنه لم تكن لدى الأردن وسيلة من الوسائل للتعويض عن العجز الذي أخذ يتفاقم يوما بعد يوم في مخزون عتاد الأسلحة، والذي تحتاج معارك الحرب منه الى سيل دائم الجريان (١٠).

ومن المعروف ان بريطانيا ظلت متمسكة بهذا القرار تحت ضغط حكومة الولايات المتحدة التي هددت بقطع جميع المساعدات الاقتصادية التي كانت تقدمها لبريطانيا. وكان

الرئيس الأمريكي هاري ترومان من أشد المتحمسين لقيام دولة اسرائيل ولمعاضدتها ضد العرب.

وفي عمان استدعى رئيس الوزراء توفيق ابوالهدى الفريق جلوب لمقابلته، وعرض عليه رسالة الحكومة البريطانية التي تحمل قرارها بسحب الضباط البريطانيين، ثم قال له: أي نوع من الحلفاء يكون هؤلاء الانكليز؟

وعاد جلوب الى مكتبه وأمر القائد بلاكدن (قائد الكتيبة الأولى وقد سحب من فلسطين مع الضباط الآخرين)، بأن يسافر حالا الى لندن لكي يعمل على تجنيد عدد من الضباط المتقاعدين من الجيش البريطاني والتعاقد معهم لكي يحلوا محل الضباط المسحوبين.

وسافر بلاكدن ولم تمض سوى بضعة أيام حتى تعاقد مع بعض الضباط، وكان أولهم و.ق. لوكت، الذي لم يلبث ان وصل الى الأردن وأسندت اليه قيادة الكتيبة الثانية.

الهجوم الكبير الثالث : ٩ حزيران

لم تكن الطريق الفرعية التي شقها اليهود بين الجبال الوعرة تقدم لهم الحل المنشود لتأمين طريق الاتصال مع القدس. لذلك انصبت أفكار قادتهم على ضرورة القيام بهجوم ثالث واسع النطاق، للاستيلاء على مرتفعات اللطرون وجبال يالو، والسيطرة بذلك على طريق باب الواد قبل ان تحل الهدنة التي كانت الدول الكبرى تضغط من أجل فرضها.

وضع العقيد الأمريكي ماركوس خطة الهجوم، على ان تقوم به قوة مؤلفة من ثلاثة ألوية من افضل ألوية البالماخ هي:

- لواء يفتاح بقيادة ايجال الون (قائد عام البالماخ والذي صمم أن يتولى قيادة اللواء بنفسه). وقد نقل هذا اللواء من الجليل لكي يحل محل اللواء السابع الذي زعزعته الهزيمتان السابقتان.
- لواء هارل الذي كان يتمركز بين القدس والمنطقة الممتدة من مستعمرة الخمسة (معال هاهميشا) حتى سفوح يالو.
- اللواء السابع الذي كان عليه أن يغطي الهجوم بمدفعيته، ويتولى حماية طريق بورما.

قضت الخطة ان يتم الهجوم على أساس القيام بحركة كماشة ضد اللطرون، وأن تأتي الضربة الرئيسية من الشرق هذه المرة، بقصد شق اسفين بين مواقع الكتيبتين الثانية

والرابعة، وقضت الخطة ايضا ان يتم التمهيد للهجوم الرئيسي بسلسلة من الهجمات التحويلية من ناحيتي الشرق والغرب. وقد تم تخصيص كتيبة من لواء يفتاح وكتيبة أخرى من لواء هارل للهجوم من ناحية الشرق، بينما أعطيت كتيبة أخرى من لواء يفتاح واجب الهجوم على قرية بدو، بهدف تطويق تلة الرادار وعزل القوة المتمركزة فيها. كما قضت الخطة ان تزحف الكتيبتان المكلفتان بالهجوم من مواقع الانطلاق لكي تستوليا على التلة المشرفة على دير ايوب (يسميها اليهود: تلة المدفعية)، ثم تزحفا من هناك لمهاجمة موقع اللطرون من الخلف.

قيل ان الذي أملى هذه الخطة على ماركوس هو الاعتقاد السائد في قيادة العدو بان ثلاث كتائب أردنية كانت تتمركز في مواقع يالو – اللطرون، وان هذه الكتائب – اذا تركت وشأنها – سوف تعمد الى مهاجمة طريق بورما لمنع اليهود من استعمالها، او الى مهاجمة مستعمرة الخمسة على طريق القدس – باب الواد. وقد تأخر الهجوم عن موعده الأول أربعة أيام لان قادة البالماخ لم يكونوا يحبذون شن هجمات مباشرة على مواقع حصينة كموقع اللطرون، الا بعد تأمين قوات متفوقة.

لم يلبث العقيد ماركوس ان انتقل الى مركز الجبهة الوسطى في قرية ابوغوش، (التي كان يقيم فيها عرب أصدقاء لليهود – على قول أحد المؤلفين الأجانب)، للاشراف على تنفيذ الخطة.

اما في الجانب الأردني فقد كان الاعتقاد سائداً بأن اليهود لا بد ان يقوموا بهجمات أخرى غايتها فك طوق الحصار عن القدس. ولذلك مضت الكتيبتان الثانية والرابعة في الاستعداد لمجابهة أي هجوم جديد، وبالاستمرار في تسيير الدوريات المقاتلة والكاشفة في المناطق المقابلة لمواقع العدو. وقد استدل قادة الكتيبتين على مقاصد العدو الهجومية من استمراره في قصف مواقعهما بقنابل مدفعيته. وفوجيء الضباط والجنود في ضحى يوم ١ حزيران بتحليق طائرتين للعدو فوق منطقتي يالو وعمواس، حيث أسقطتا ثلاث قنابل، ثم قامتا بتسليط نيران رشاشاتهما على بعض المراكز الدفاعية، ولكن القنابل انفجرت بعيدا وكانت مسافة اطلاق الرشاشات عالية، فلم تحدث الغارة أية أضرار. وقد قامت مدافع مقاومة الطائرات باطلاق النار على طائرتي العدو.

بدأت قوات العدو تحتشد في قرية بيت سوسين، بينما وصلت احدى دورياته المقاتلة

الى الوادي الذي يفصل بين قريتي عمواس وسلبيت. وفـي ليلـة ٥ حزيـران تقدمـت دوريـة قوية للعدو حتـى وصلـت الـى مسـافة ٣٠٠ يـاردة مـن مراكـز السـرية الثالثـة (مـن الكتيبـة الرابعة). وبعد أن أخذ أفـراد الدوريـة مواقعهـم، قـاموا بتسـليط نـيران أسـلحتهم مـن بنـادق ورشاشات على مراكز السرية. وسـرعان مـا ردت السـرية علـى النـار بـالمثل. ولـم يلبـث بعض أفراد الدورية حتى تحولوا الى الناحيـة الشـرقية وأخـذوا يتقدمـون نحـو تـل مجـاور، ولكن قوة من الكتيبة الثانية كشفتهم وأرغمتهم على الانسحاب. وقـد اسـتمر الاشـتباك حتـى الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل. وفـي الوقـت نفسـه قـامت دوريـة أخـرى للعـدو بزرع بعض الألغام في الجهة الغربية من مركز شـرطة اللطـرون، خـارج نطـاق الأسـلاك الشائكة، وأطلقت النار مـن أسـلحتها علـى المركـز وقطعـت خـط المواصـلات الـذي يربـط المركز بالقيادة. ولكن الدورية لم تلبث ان انسـحبت مـع اول خيـوط الفجـر. ان تقـدم أفـراد دوريتي العدو الى مسافة قريبة من مواقع الجيش العربي، يعطي الدلالـة علـى نشـاط العـدو وعلى الروح الهجومية التي كانت تدفعه الى الضغط على تلك المواقع يوما بعـد يـوم وليلـة بعد ليلة، على الرغم من الخسائر التي كان يمنى بها. ومن الواضـح ان العـدو كـان يتلمـس نقاط الضعف في جبهة الجيش الأردني ويحاول زعزعة الروح المعنوية وبث الارتباك.

وفي يوم ٦ حزيران زاد العدو من كثافة اطلاق النار من مدافعه على مواقع الكتيبتين، وعلى مركز قيادة اللواء في قرية يالو، واستمر ذلك طوال اليوم. وربما كـان ذلـك القصـف المتواصل هو السبب الذي حدا بقيادة اللواء الى الانتقال مسافة الى الوراء للتمركز في قرية بيت سيرا عند مفترق طريق رام الله – خربثا، وهو موقع وعر كانت تتمركز فيه المدفعيـة الثقيلة.

وزاد العدو من نشاطه فتقدمـت قـوة مـن جنـوده بعد منتصـف الليـل وتمركـزت علـى الجبال الجنوبية – جبال بيت سوسين – وأخـذت تطلـق النـار علـى مسـافات بعيـدة، ربمـا بهدف تحويل انتباه القوات الأردنيـة. وقـد تجمعـت المعلومـات لـدى قيـادة الكتيبـة الرابعـة، وكلها تشير الى وجود حشود قوية للعدو في قريـة القبـاب وخلـف معتقـل اللطـرون وحـول مستعمرة كفروريا وفي قرية بيت سوسين. وعلى هذا تحركت دوريـة مقاتلـة مسـاء يـوم ٨ حزيران باتجاه قرية سلبيت، لكي تشاغل العدو اذا حاول اجتياز الوادي.

في تلك الليلة – ليلة ٨-٩ حزيران – نشبت المعركة الكبيرة الثالثة، على مرتفعات اللطرون ويالو.

بدأ العدو باطلاق نيران أسلحته المساندة والثقيلة على مواقع الكتيبتين الثانية والرابعة، وعلى مواقع المدفعية الثقيلة، وعلى مركز نقليات الكتيبة الثانية في قرية بيت نوبا. وردت المدفعية الثقيلة بقصف مواقع العدو المقابلة، واستمر تبادل القصف حتى الساعة الحادية عشرة ليلا.

لم يكن قصف مدفعية العدو الا مقدمة لتغطية زحف المشاة. وبالفعل تقدمت الكتيبتان اللتان أوكلت اليهما مهمة الهجوم، نحو مواقع الكتيبتين الأردنيتين. ففي نحو الساعة العاشرة مساء بدأت الكتيبة الخامسة (بقيادة شادمي) وهي احدى كتائب لواء هارل، زحفها باتجاه الشمال الغربي، وهدفها الاستيلاء على مرتفعات يالو. ولكن قائد الكتيبة (كما تقول المصادر الأجنبية) أخطأ، فبدلا من الزحف في الوادي المؤدي الى يالو والى التلة المشرفة على قرية دير ايوب حيث تتمركز مدافع الكتيبة الثانية (الأسلحة المساندة) – فانه انحرف الى اليسار وزحف بجنوده في واد آخر أدى به وبهم الى وادي عمواس. هناك أرسل ذلك القائد سريتين من سرايا كتيبته اتجهت احداهما الى اليمين لمهاجمة تلة معاذ بن جبل من ناحية الشرق، بينما اتجهت السرية الأخرى يسارا وأخذ أفرادها يزحفون في وادي عمواس الذي كان مزروعا بنبات القمح بقصد الوصول الى مواقع السرية المساندة، على الجانب الغربي من التلة.

كان القائد حابس المجالي، قد وزع سراياه على النحو التالي:

- السرية الأولى في الجهة الشمالية الغربية من موقع اللطرون ومهمتها حماية مدخل قرية عمواس.
- السرية الثانية في دير اللطرون، في الجهة الجنوبية من الموقع.
- السرية الثالثة على تلة معاذ بن جبل – التي هي أكثر المواقع ارتفاعا في جبهة الكتيبة الرابعة – وتقع في الجهة الشمالية الشرقية من جبهة الكتيبة. ومع هذه السرية فئة من السرية المساندة بقيادة الملازم محمد نعيم، وتتألف من مدفع هاون ٣ بوصة ورشاشتي فيكرز. وكانت هذه الفئة تتمركز على الطرف الشرقي من التلة وتحت موقعها منحدر حاد.

- السرية المساندة على تلة تتصل بتلة معاذ من الجهة الغربية، وتشرف على وادي عمواس، وقد ركزت مدافع الهاون الأربعة على طرف التلة الجنوبي وسلطتها باتجاه دير اللطرون ومركز الشرطة، لضرب العدو اذا تقدم الى هذين الموقعين.
- قيادة الكتيبة وسرية القيادة، على طرف تلة معاذ بن جبل من ناحية الشمال الغربي.

بدأ جنود العدو زحفهم تحت ستار الظلام، حتى وصلوا في الساعة الحادية عشرة الى المواقع الأمامية في جبهة السرية الثالثة وفي جبهة السرية المساندة. وكان من حرص قيادة العدو على توفير كل الفرص لنجاح الهجوم، انها أرسلت وحدات أخرى من الجنود لمهاجمة المواقع الأخرى للكتيبة الرابعة. وقد تقدمت وحدة للعدو الى أحراش دير اللطرون وأخذت تتغلغل فيها ومن هناك تسلط نيران أسلحتها نحو مركز الشرطة. وفي الوقت نفسه تقدمت وحدتان أخريان لمشاغلة السرية الأولى والسرية الثانية – بقصد منعهما من ارسال النجدات الى المواقع الأخرى. (ان هذه الدقة في تنظيم الخطة تعطي فكرة بان قائد العدو لم يخطيء في توجيه هجومه – كما يقول أحد المصادر الأجنبية – بل تدل على انه كان ينفذ الخطة الموضوعة والتي حسبت حساب جميع الاحتمالات).

استطاعت سرية العدو اليمنى ان تصل الى مراكز السرية الثالثة وفئة الملازم محمد نعيم. وقد أتاح المنحدر الحاد تحت تلك المراكز لجنود العدو مجال التقدم دون أن تؤثر عليهم نيران القوات الأردنية. وسرعان ما بدأ الاشتباك العنيف بين الطرفين. وصعد جنود العدو مع المنحدر حتى وصلوا لى خنادق السرية الثالثة، ولم يلبثوا أن اخترقوا خط الدفاع الاول على تلة معاذ بن جبل. وبعد أن تمركز جنود العدو هناك أخذوا يقصفون المواقع المقابلة لهم ووراءها نقطة ملاحظة المدفعية وقيادة الكتيبة «بشكل لم يسبق له مثيل». ونشبت المعركة في هذا القطاع من جبهة الكتيبة، على أشد ما تكون المعارك، وأخذت كافة الأسلحة تطلق نيرانها، بما في ذلك مدافع الهاون والرشاشات والقنابل اليدوية والقنابل الصاروخية ومدافع الهاون القوسية عيار ٢ بوصة. اما العدو فكان يستعمل الأسلحة المساندة العادية والأسلحة الخفيفة. وساندت المدفعية الثقيلة عمليات الكتيبة الرابعة، وكان الملازم محمود المعايطه يقوم بوظيفة ضابط الملاحظه، وقد وضع مركزه في أعلى نقطة من تلة ابن جبل، وأخذ يعمل على توجيه اطلاق نار المدفعية بينما كان موقعه يتعرض لنار العدو. وكان يساعده الملازم عبدالعزيز عصفور. وقد تمكن الضابطان من كشف تجمعات

العدو حول مركز الشرطة وعلى الطريق العام وفي السهل الواقع بين جبال بيت سوسين وتلة ابن جبل – فوجها قنابل المدفعية الثقيلة ضدها.

في تلك الأثناء دوى في الجو صوت انفجارين، وفيما بعد تبين ان احدى دوريات العدو قامت باجتياز وادي سلبيت الى الجهة الجنوبية من قرية عجنجول، وهناك نسفت جسراً على الطريق العام قرب بيت نوبا. كما قامت دورية أخرى للعدو بنسف عبّارة قرب مدخل عمواس الشرقي. كل ذلك بقصد منع وصول النجدات من الوحدات الخلفية.

تأزم الموقف وبدا الخطر شديدا، خاصة بعد أن تمكن جنود العدو بعيد الساعة الثانية من صباح يوم ٩ حزيران من الوصول الى نقطة ملاحظة المدفعية، بعد ان أضطر المدافعون عنها الى التراجع. وفي اثناء ذلك سقط عدد من الشهداء بينهم اثنان من جنود المدفعية، واقترب جنود العدو من مركز قيادة الكتيبة حتى أصبحوا على مسافة ٧٠ ياردة منها.

تراجع محمود المعايطة مسافة الى الخلف، واستطاع أن يجمع عدداً من الجنود والكتبة والمراسلين، ثم عاد على رأسهم واشتبك ورفاقه مع جنود العدو. دار القتال في الخنادق وجهاً لوجه. ألقى قنبلة يدوية فأصابت قائد السرية وجندي الرشاش. خرّا صريعين فبادر رفاقهما الى الانسحاب. في تلك الهجمة الصادقة سقط عدد من جنود الجيش العربي (حنـ عيسى سالم من أدر، ورجب أسعد نعمان من جرش، وخليل مصطفى خليل من صويلح) كان المعايطة في طليعة الذين منحوا وسام الاقدام، بالنظر لما أبدى من روح قتالية.

في تلك الاثناء كانت سرية العدو اليسرى قد زحفت في وادي عمواس بين زروع القمح حتى أصبحت على مقربة من مواقع السرية المساندة، وهناك انفصلت عنها فئة أخذت تسير الىً اليمين مع المنخفض الذي يفصل مواقع السرية الثالثة عن مواقع السرية المساندة. ولم تلبث المعركة ان نشبت على جبهة السرية المساندة وجبهة سرية القيادة. ان وعورة المنطقة وكثرة الصخور الكبيرة فيها وظلمة الليل – ساعدت جنود العدو على التغلغل بين التلال والشعاب والوصول الى المواقع الأمامية بصورة تكاد تكون مفاجئة. من هنا نفهم كيف ان أعداد مدافع الهاون الأربعة فوجئوا بالقنابل اليدوية يقذفها جنود العدو عليهم فتنفجر بالقرب منهم. عندئذ أمر الرئيس عزت حسن جنوده بخفض أفواه المدافع الى مستوى الارض المنحدرة في سفح التلة واطلاق القنابل منها. كان ذلك مخالفة لقواعد الفن

العسكري، ولكن الضرورات لها أحكام. وفوجـيء جنـود العدو بالقنـابل القويـة تنفجـر بيـن الصخـور فتتنـاثر شظاياها فـي وجوههـم. وبـدا كـان الارض أصبحـت جحيمـا أمـامهم، فاضطروا الى التراجع مع الوادي وهـم يحملـون بعـض القتلـى والجرحـى معهـم ويـتركون البعض الآخر بين الصخور. وتراجعت كذلك الفئة الأخرى التي كانت وصلـت الـى مواقـع سرية القيادة.

في تلك الليلة برزت أخوّة السلاح بين جنود الجيش العربي في أجلى مظاهرها وأروع معانيها. كانت أذهانهم جميعا قد اتحدت على هدف واحد الا وهو دحر العـدو. وكـان لسـان كل واحد يقول: انهم لن يمروا. وعندما نضب عتاد الخط الأمامي للأسلحة الخفيفة ولم يبـق مع الجنود سوى عدد قليل من القنابل اليدوية، أخذ بعض جنود سرية القيادة ينقلون الذخـيرة الى رفاقهم في خط النار عبر المسالك الوعرة وتحت القصف الشديد.

وأخذ المـلازم محمـد نعيم يعمـل مـع جنـوده علـى صـد هجوم العدو. وتعطـل أحـد الرشاشين وأصيب أحد الجنـود بجـراح فـي كتفـه. وفـي الخنـدق الأول ركـز جنـود العدو رشاش براوننج وأخذوا يطلقون منه النار. وارتفـع صيـاح جنـود العدو فـي المنحـدر وراء رفاقهم الذين وصلوا الى الخندق. كانوا يرددون كلمة (قاديما) بصوت واحد. واستمر جنـود الفئة يطلقون النار من رشاش برن وعلى رأسهم العريف حابس مسلم. عاد محمد نعيم الـى الوراء يستعين بقائد سريته، ولكن الرئيس عزت حسن كان في ذروة الاشتباك علـى جبهتـه فأمره بالعودة الى موقعه طالبا اليـه ان يصمـد فيـه. وجـاء المراسـل عبداللـه مثقـال يحمـل صندوقي قنابل يدوية قائلا ان قائد الكتيبة وركن حربه أعداها للاستعمال. بـدا كـأن الارض أخذت تلتهب من شدة رماية العدو. وفي نقطة المراقبة، ظل جندي شركسـي شـجـاع (خليـل مصطفى خليل من صويلح) يطلق النار من رشاش برن، حتى أُصيب فسقط شهيدا وصمت الرشاش. وبعد قليل أصيب الجندي علي حسن عبدالفتاح (من الطفيلة) في فمه ولم يلبث ان فارق الحياة. وأقبل العريف عبدالله سلامه محمود (من سمر الكفـارات) ومعـه جنديـان مـن قيادة الكتيبة، للاشتراك في ايقاف تقدم العدو، ولكن بعد بضع دقائق كان قـد أصيـب اصابـة قاتلة.

في تلك الأثناء كان قائد الكتيبة يعد العدة للقيـام بهجـوم معـاكس. اتصـل بقـائد السـرية المسـاندة وبقـائد سـرية القيـادة (المـلازم الاول نصـر أحمـد) وطلـب اليهمـا حشـد جنودهمـا

ومهاجمة العدو وطرده من المرتفع. كانت النقاط التي استولى عليها العدو ذات أهمية كبيرة، واذا استطاع أن يتثبت فيها، واذا استطاع ان يستولي على قمة التلة وعلى مقام ابن جبل – فان مواقع الكتيبة كلها تصبح عرضة لنار أسلحته وتحت سيطرتها، وفي ذلك ما فيه من الخطر. أصبحت المسألة مسألة حياة او موت: اما طرد العدو او الوصول الى حافة الهزيمة.

وغير بعيد عن قائد الكتيبة كان الدكتور يعقوب ابوغوش، طبيب الكتيبة. سأله حابس: هل معك مسدس؟

– نعم

– كم رصاصة فيه؟

– ست رصاصات ،

– في مسدسي ايضا ست رصاصات ،

وصمت المجالي لحظات ثم قال: سنبقى هنا. واذا وصل جنود العدو الينا، أطلق كل واحد خمس رصاصات عليهم، اما السادسة فنضرب بها أنفسنا.

وكان هناك مدفع رشاش للعدو على طرف التلة، أخذ يبطيء في اطلاق النار. وأدرك حابس المجالي ان عتاده قارب على الانتهاء فأمر الوكيل فنخور أحمد أن يبادر لمهاجمته. ولم يلبث فنخور حتى باغت جنود الرشاش بنيران بندقيته، وجاء به الى القائد (فيما بعد قدمه المجالي هدية للملك عبدالله).

كانت الساعة عندئذ قد اشرفت على الرابعة صباحا، وأخذت أضواء الفجر الأولى تسمح بمدى أوسع من الرؤية. وبينما كانت نجمة الصبح تطل ببهائها على المشهد الدامي، ارتفعت من مقام الصحابي ابن جبل صرخات استنجاد محمومة: وين النشامى، وين راحو النشامى.

لم يكن لدى الرئيس عزت حسن جنود يمكن الاستغناء عنهم للقيام بالهجوم المعاكس، ذلك ان جنود سرية الاسناد هم جنود الأسلحة المساندة الذين يرتبطون بأسلحتهم. لذلك نرى محمود الروسان يطلب الى الرئيس عبدالله السالم قائد السرية الثانية ان يبادر الى ارسال قوة من سريته قائلا: اذا لم ترسل نجدة في الحال فأن اليهود ربما يحتلون قيادة الكتيبة وتصبح سريتك مطوقة. وأسرع عبدالله السالم الى ارسال فئتين احداهما بقيادة المرشح

محمد محسن والثانية بقيادة النائب حمد عبدالقادر. وحال وصول الفئتين تولى الرئيس عزت حسن قيادتهما، وضم اليهما عددا من جنود الخدمات في سريته، فأصبح لديه نحو ٣٥ رجلا. وسارت هذه القوة مع سفح التلة من الناحية الجنوبية حتى وصلت الى المواقع التي كان العدو فيها. وتقدم الجنود يهاجمون فكان ذلك مفاجأة تامة للعدو. ونشب القتال، وأطبق أحد الجنود على رشاشة للعدو فصرع الجندي الذي كان يطلق النار منها. وكان ذلك بداية لهزيمة رفاقه. وفي اثناء ذلك أُصيب محمد محسن بجراح.

اما الملازم نصر أحمد فقد بادر لتنفيذ أمر قائد الكتيبة، وأسرع يحشد جنوده حواليه. كان هناك نحو ستين منهم، أكثرهم من الكتبة والسائقين وجنود الخدمات الأخرى، ولا تتجاوز أعمار بعضهم ١٨ عاما، بالاضافة الى بعض المناضلين. قال يخاطبهم: اننا في خطر يا جنودي، وهذه الساعة ساعتكم انتم. علينا ان نقوم بعمل مؤثر في الحال. كان نصر يدرك بغريزته وتربيته العسكرية أن الدقائق لها قيمة وانه يجب عليه ان يبادر للهجوم بسرعة قبل ان يتمركز جنود العدو وقبل ان تصل اليهم التعزيزات. تولد عنده شعور بأن يرمي نفسه في لجة الموت دون حساب للنتائج. وسرت حماسته الى نفوس الجنود. كان موقع سريته اقل انخفاضا من التلة التي تغلغل فيها العدو. وبسرعة شكل من جنوده خط حرب، ثم اتجهوا بأسلحتهم نحو التلة التي يدور عليها القتال. ساروا صفا واحدا وعلى مسافات متقاربة. وتقدموا بصياح وجلبة شديدة ولم تكن المسافة بينهم وبين التلة تزيد على ٢٠٠ متر. كانت الأشباح عندئذ تظهر للعيان. وفي تلك اللحظات الحاسمة ارتفع صوت المؤذن الشيخ موسى العجلوني في ساحة المقام يردد عبارة (الله اكبر، الله اكبر). اهتزت نفوس الجنود عند سماعهم هذا النداء المقدس، وأخذت أصواتهم تدوي وهم يرددون (الله اكبر ، الله اكبر). واندفعوا الى الأمام مهللين مكبرين وهم يطلقون النار بعنف وكثافة. واقتربوا من التلة ولكنهم لم يشاهدوا أحدا. ولعلمهم ان العدو هناك، أخذوا يكنسون الارض أمامهم بنار البنادق والرشاشات وبالقنابل اليدوية. ولم تلبث نار أسلحة العدو حتى أخذت تجابههم. واستمرت المجابهة ربع ساعة فقط. ورويدا رويدا تلاشت مقاومة العدو، وأركن جنوده الى الفرار.

كانت تلك الهجمة الصادقة ذروة المعركة كلها بالنسبة للمهاجمين والمدافعين على السواء. كانت هي العمل الحاسم والحد الفاصل في تلك العملية الواسعة. وتساءل القادة

والضباط: كيف حدث هذا؟ من الواضح ان جنود العدو الذين تمركزوا في طرف التلة كانوا نحو سرية (٨٠-١٠٠ جندي). لم تزد اقامتهم في الموقع أكثر من نصف ساعة، وعلى الأرجح لم تصل اليهم تعزيزات في تلك الفترة الثمينة، وكان الهجوم المعاكس صادقا تجلت فيه البسالة والاستهانة بالموت. ولا بد أن جنود العدو اعتقدوا ان عدد المهاجمين أكبر بكثير مما كان فعلا. لقد كان لصياح الجنود المهاجمين تأثير مرعب في نفوس جنود العدو، حتى ان قائدهم اعتقد ان قوة مدرعة هي التي قامت بالهجوم المعاكس على رجاله. تساقط بعضهم قتلى ولم يقو الباقون على الثبات فولوا الادبار يطلبون لأنفسهم النجاة. وكان من شدة الذعر الذي أصيبوا به ان بعضهم ألقى بنفسه في بئر عميقة هناك. وكان من صدق الهجوم المعاكس، المندفع من جانبين، أن أبيد معظم جنود العدو الذين كانوا وصلوا الى ظهر التلة. اما اولئك الذين كانوا يندفعون وراءهم فقد أركنوا الى الفرار في المنحدر لا يلوون على شيء حتى وصلوا الى طريق يافا - القدس. كان نور الصباح عندئذ قد انبلج تماماً، ربما نحو الساعة الخامسة. وتطلع جنود الكتيبة الرابعة فلم يروا أحدا من رجال العدو. وكان نوعا من العجيبة ان جميع الجنود الذين قاموا بالهجوم المعاكس عادوا سالمين الى مواقعهم ولم يصب أحد منهم بجراح الا المرشح محمد محسن.

عند شروق الشمس كان على أرض تلة معاذ بن جبل سبعة من جنود الجيش العربي يتوسدون الثرى في رقدتهم الأخيرة. كانوا قد تلقوا رصاص العدو في صدورهم ونحورهم، وافتدوا بلادهم بأنفسهم، وحافظوا على شرف الجندية. وغير بعيد عنهم كانت جثث عديدة لأفراد من العدو بعضهم في الخنادق الأمامية على طرف التلة، وبعضهم على مسافة امتار منها. كانت هزيمتهم سريعة حتى ان الناجين منهم لم يتمكنوا من سحب جثث رفاقهم، فظلت ملقاة على الأرض. ولم يلبث ان ظهر ان العدو كان أرسل خمسة أكياس من الخبز وست صفائح من الماء الى الموقع، وكانت هناك كميات من المعلبات وعلب الحلويات الصغيرة والشوكولاته والمعاول. حقا لقد حرص العدو على تزويد جنوده بالمواد التموينية، ولكنهم اضطروا الى تركها ملقاة على الأرض.

بالاضافة الى الجنود السبعة الذين استشهدوا، كان هناك شهيد آخر من جنود النقليات وأربعة مناضلين ومدني من قرية عمواس، كما أصيب ١٦ بجراح بينهم اثنان من المناضلين. اما العدو فقد ترك على أرض المعركة ٥٦ جثة على تلة ابن جبل و ١٨ جثة

في منطقة السرية الثالثة و ٢٣ جثة في جبهة السرية الثانية – في اللطرون (اي نحو مائة قتيل في منطقة الكتيبة الرابعة وحدها). وقد غنم الجنود والمناضلون نحو ١٢٠ بندقية وكميات من العتاد والقنابل وخمس رشاشات وجهازي لاسلكي وخمس نقالات للجرحى. ويقول دان كرزمان ان حوالي نصف أفراد كتيبة العدو الخامسة لاقوا حتفهم في ذلك الهجوم.

قال الدكتور يعقوب ابوغوش: اقترب اليهود من خندق قيادة الكتيبة حتى أصبحوا على بعد خمسين مترا. لم يكن بيننا وبين العدو سوى نصر أحمد وجنديين. حمل نصر صندوق قنابل يدوية من طراز ٣٦ ملز وأعدها للاستعمال وأخذ يزحف الى الأمام ويدفع الصندوق أمامه. عندما أصبح على مسافة مرمى الحجر من جنود العدو أخذ يقذفهم بالقنابل فقتل عدداً منهم وأخذ الباقون يتراجعون في حالة اضطراب، وأثناء تراجعهم سقط اثنان منهم في بئر. استمر وجنوده في مطاردة الجنود المهزومين. انها الحرب. والجندي في المعركة إما قاتل او مقتول.

ولم يكن دور السرية الثالثة في المعركة ثانويا. فقد أبدى الجنود والضباط مقاومة مستميتة. وحينما استولى جنود العدو على خط الدفاع الاول، حمل الرئيس صالح العيد رشاشته وتقدم الى الصف الأمامي بين جنوده وأخذ يطلق النار على جنود العدو. لم يكن هناك بد من الثبات وقهر العدو. وكان الملازم قاسم العايد على رأس مجموعة من جنود السرية على طرف المنحدر. وانقطع خط الاتصال بينه وبين قائد السرية، ولم يستطع ان يبعث رسولا لان العدو كان قد دخل بين موقعه وموقع القائد. شعر بالوحدة. كان كل شيء مضطربا وغامضا، وبدا كأن المصير أصبح في كف القدر. اقترب جنود العدو من الخنادق وأخذوايضغطون على أفراد فئته بعزم وتصميم، عندئذ أمر جنوده أن يخرجوا من الخنادق ويستعدوا لمواجهة جنود العدو بحراب بنادقهم. لم يكن يريد ان ينقض الأعداء على جنوده وهم في داخل الخنادق. في تلك اللحظات الحرجة تذكر آية في القرآن الكريم (... واذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر...). بدا الوضع له كما وصفته الآية. وعلى حين غرة ارتفع صوت المؤذن على التلة المجاورة. لم يكن موعد الأذان قد أزف بعد، ولكن ذلك الشيخ الطيب شعر ان الجنود بحاجة الى زاد روحي فرفع صوته الى الله. وأحس براحة نفسية، وغمر جوانحه الأمل وشعر انه أصبح أكثر قربا من الله. لا بد أن جنوده –

مسلمين ومسيحيين – اهتزوا لسماع صوت المؤذن وسرت في عروقهم حرارة جديدة، فأخذوا يطلقون النار على العدو بمزيد من العزم. وبدا كأن جنود العدو اضطربوا عندما سمعوا صوت المؤذن يخترق ظلام الليل، فلم يلبثوا ان أخذوا يتراجعون الى الوراء. ورويدا رويدا أخذ ضوء الصباح الجديد يتيح المجال لمزيد من الرؤية. ولم تلبث المعركة حتى تلاشت، وأصبح اطلاق النار متقطعا. ومضى قاسم العايد يتفقد المواضع التي وصل اليها جنود العدو، فشاهد جثثهم ملقاة على الأرض تخضبها الدماء.

* * *

أما مصير هجوم العدو كله، فقد دار الفصل الأخير منه على مسرح مواقع الكتيبة الثانية في جبال يالو.

ان الخطأ الذي ارتكبه شادمي، قائد الكتيبة الخامسة، ترتب عليه خطأ آخر. فعندما تمكنت قواته من بلوغ خط الدفاع على تلة ابن جبل قبيل الساعة الثالثة من صباح يوم ٩ حزيران – اعتقد انه حقق الهدف المعين له، فبث رسالة بالراديو يقول فيها ان قواته سيطرت على ثلثي «مرتفع يالو»، هذا على الرغم من استمرار مقاومة القوات الأردنية في الخنادق الغربية. في ذلك الوقت كان موشى كلمان قائد الكتيبة الثالثة ما يزال يقف مع جنوده على قدم الاستعداد الى الجنوب من طريق باب الواد. وعندما تلقى رسلة شادمي التي كان بانتظارها، بادر الى الزحف بثلاث سرايا من كتيبته متجها نحو الشمال حتى وصل الى نقطة الى الشرق من مرتفع يالو. ومن تلك النقطة استدار غربا لكي يواجه ذلك المرتفع.

ولكن الهدوء الذي كان يغلف ذلك المكان بعث في نفسه شيئا من الحيرة. كان ذلك الهدوء يتناقض مع رسالة شادمي القائلة بأن القتال ما يزال مستمرا فوق المرتفع. على ان حيرته لم تطل، فاعتزم ان ينفذ الجانب المرسوم من الخطة لكتيبته، ألا وهو الوصول الى قمة مرتفع يالو، ثم الاتجاه شمالا والانقضاض على تلة المدفعية. وهكذا تولى قيادة سرية إسناد يحمل جنودها معدات ثقيلة وسار على رأسها نحو قمة المرتفع، وقد ساد في نفسه اعتقاد ان كتيبة شادمي لا بد أن تكون سيطرت على المرتفع بأكمله.

وسار الجنود في صفوف متقاربة وهم ينؤون بأحمالهم الثقيلة. وعندما وصل كلمان

الى نحو عشرين مترا من القمة صاح بجنوده « قاديما». ولكن الدهشة استولت عليه عندما سمع أزيز قنبلة يدوية تخترق الفضاء وتنفجر قريبا منه. صاح بجنوده: هيا انبطحوا. وتفجرت قنابل يدوية أخرى فأُصيب عدد من جنوده، ثم أخذت قنابل الهاون تخترق الفضاء فوق رؤوسهم لتسقط في المؤخرة. ذهل كلمان وأدار جهاز اللاسلكي على موجة الكتيبة الخامسة فسمع قائدها (شادمي) ينبيء قيادة لوائه أن خسائر فادحة لحقت بقوته وانه لا يدري أين يكون. ثم صاح: انهم يهاجموننا بالمصفحات. يجب ان نتراجع. عندئذ تلقى كلمان أمرا من قيادة لوائه بأن يتجه بجنوده الى تلة المدفعية، اذ افترضت قيادة اللواء ان الكتيبة الخامسة ذهبت خطأ الى هناك. ولكن كلمان قال ان ضوء الصباح أخذ ينتشر وان تلك التلة تبعد نحو ميل عن مكان الكتيبة.

وهكذا أخذت كتيبة العدو التالثة تتراجع الى الوراء تحت ضغط نار كثيفة من قبل الكتيبة الأردنية الثانية، حتى وصلت الى الطريق الرئيسية في الوادي. وقد كان قائد الكتيبة (كلمان) حريصا على ان لا يترك أحدا من جنوده القتلى او الجرحى وراءه، اذ كان جنوده مربوطين بالحبال بعضهم لبعض، حتى يمكن سحب من يلقى حتفه منهم. ان المصادر اليهودية – فيما أعلم – لم تعط تفسيراً لهذا الأمر الغريب. فقد كان اليهود يهتمون كثيرا بجر جثث قتلاهم بالحبال. وجاء في أحد المصادر أن المناضلين أطلقوا النار على الجرحى الذين تخلفوا على أرض المعركة في الهجومين السابقين وأخذوا عتادهم وملابسهم وتركوا جثثهم في العراء تتناوشها الثعالب والعقبان. فهل كان قادتهم يقصدون تجنيب جنودهم مثل هذا المصير، أم كانوا يربطونهم حتى لا يعمدوا الى الفرار؟.

بعد المعركة بيوم واحد وصلت سرية المشاة الخامسة بقيادة الرئيس أديب القاسم، الى مواقع الكتيبة الرابعة لتعزيزها (من ضباطها الملازمون غازي الهنداوي وأنور الطرابيشي وجميل السكران). أخذت السرية مواقعها بينما كانت قنابل العدو الثقيلة تتساقط وتنفجر هنا وهناك. وقد انفجرت احدى تلك القنابل بين افراد السرية فأدى الانفجار الى استشهاد اربعة جنود واصابة ثلاثة آخرين بجراح. أحد أولئك الجنود (علي حسن من الطفيلة) أصيب بشظية وهو في خندقه الأمامي، فأسرع عائدا الى قائد سريته وهو يحمل رشاشته بيده

والدماء تنزف من صدره وقال له: هذا سلاحي يا سيدي أمانة لديك، وانا أموت في سبيل الوطن. وتطلع قائد السرية اليه فرأى صدره مفتوحا بفعل الشظية. ولم يكد الجندي يتم كلماته حتى سقط على الأرض وأسلم الروح.

في اليوم التالي بدأت الهدنة، وتوقف اطلاق النار في الساعة الثامنة من صباح يوم ١١ حزيران ١٩٤٨.



الملازم عيسى مفضي تادرس والملازم محمود كشك

(مخفر عرطوف – حيث التقت القوات الاردنية والمصرية)



الملازم عيسى حدادين والملازم محمد خليل عبد الدايم

(من ضباط سلاح المدفعية – ١٩٤٨).

حواشي الفصل الرابع

١ - كولينز ولا بيير: يا قدس، ترجمة سليمان موسى، عمان ١٩٧٢ صفحه ١٨٩.

٢ - هذا الضابط الباسل في الاصل من بلدة سكاكه في الجوف (السعوديه). وقد قضى في المستشفى بضعة اشهر، ثم عاد للخدمه، وظل يضلع في مشيته. ثم أحيل على التقاعد وتوفي سنة ١٩٦٥. راجع ما جاء عنه في كتاب Bedouin Command.

٣ - الفريق صالح صائب الجبوري: محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية، ١٩٧٠، بيروت، مطبعة دار الكتب، ص ص ١٨٦- ١٨٧.

٤ - Jon & David Kimche: Both Sides of the Hill, Secker & Warburg, London, 1960, p. 195.

٥ - من خريجي كلية الأركان الامريكية (وست بوينت) وكان قد خاض معارك الحرب العالمية الثانية.

٦ - في صباح اليوم التالي نقل المحاسنه الى المستشفى العسكري في رام الله. وقد رافقه في سيارة الاسعاف رئيس اللطرون الذي أصيب بطلقة في معدته، فأعطاه المحاسنه الأولوية لخطورة حالته ولكونه رجل دين. وبقي المحاسنه اربعة اشهر في المستشفى. كان ثاني شخص يمنح وسام الاقدام في الجيش العربي، اذ سجل أعلى رقم في قيادة الدوريات.

٧ - على رأي مؤلفي كتاب (يا قدس) أن عدداً من جنود المصفحات تمكنوا من النجاة بأنفسهم تحت جناح الظلام، بينما كانت زخات العيارات النارية تئز فوق رؤوسهم.

٨ - نقل الملازم المعايطه بعد اصابته الى مستشفى الميدان في رام الله. ولكنه لم يلبث ان فارق الحياة فلقي وجه ربه شهيدا وهو ما يزال في الرابعة والعشرين من عمره.

٩ - كان جلوب قد وضع على قائمة الاحتياط في كانون الاول ١٩٢٠ عندما عينته حكومة العراق في خدمتها. وكانت التعليمات العادية تقضي بشطب اسمه في سنة ١٩٤٧ عند بلوغه الخمسين من العمر.

١٠ - الوثائق والمراسلات التي اشرت اليها في هذه النبذه، موجوده في ملفات دار الوثائق البريطانية التاليه F O 371/68828. 68853. 75297. Cab. 128/12.

الفصل الخامس

معركة القدس

يحملن كل شمري باسل ... شهم الجنان خائض غمر الوغى

يغشى صلا الحرب بحديه إذا ... كان لظى الحرب كريه المصطلى

لو مثّل الحتف له قرناً لما ... صدّه عنه هيبة ولا انثنى

ولو حمى المقدار عنه مهجة ... لرامها أو يستبيح ما حمى

تغدو المنايا طائعات أمره ... ترضى بما يرضى وتأتي ما أتى

أبو بكر محمد بن دريد

القتال في القدس القديمة

تحدثت في فصل سابق عن الدور الذي قامت به سرية الأمن الأولى في خلال أيام ١٨-٢٠ أيار، في صد القوات اليهودية عن المدينة القديمة، ومنعها من الاتصال بالحي اليهودي في داخل الأسوار. ولكن السرية الأولى لم تبق وحدها سوى يوم واحد. ففي صباح اليوم التالي (١٩ ايار) دخلت الى القدس السرية الثامنة بقيادة الرئيس عبدالرزاق عبدالله، وتقدمت في الوقت نفسه السرية السادسة بقيادة الرئيس ضرغام الفالح الى جبل الطور. وفي ٢٠ أيار دخلت السرية السادسة ايضاً الى القدس، بينما أنشئت سرية مساندة بقيادة الملازم غالب رضيمان، وأخذت مواقع لها في رأس العمود وجبل الطور.

اتخذ عبدالله التل قائد الكتيبة من مدرسة الروضة في القدس مركز قيادة له، وأخذ يتولى ادارة الحركات العسكرية بالقوة الموجودة لديه.

وقد بادر للاتصال بقادة المناضلين في المدينة وأقنعهم بتوحيد القيادة ووضعها في يده، فوافقوا على ذلك. وكان ذلك اجراء مهما لأن وحدة القيادة ضرورية في أي موقع لنجاح العمليات العسكرية.

ثم عمد الى توحيد السريتين الأولى والسادسة تحت قيادة الرئيس محمود الموسى. وقد أخذت هاتان السريتان مسؤولية الدفاع عن الأسوار في قطاع باب النبي داود، ومهمة تضييق الخناق على الحي اليهودي.

كان عدد الأفراد المقاتلين في السرايا الأربع لا يزيد كثيرا عن ٦٠٠ بين ضباط وجنود. وقد استطاعت هذه المجموعة القليلة من الرجال ان تصمد في وجه قوات العدو المتفوقة في

عددها، وأن تقوم بعمليات هجومية في منطقة معمورة. وكانت مهمة الكتيبة السادسة ذات شقين:

١ – صد هجمات العدو على أبواب السور.

٢ – الضغط على القوة اليهودية المتمركزة في الحي اليهودي داخل الأسوار وتضييق الخناق عليها.

لم تكن المسافة بين اليهود في النوتردام وجنود الجيش في الباب الجديد تزيد على ٥٠ مترا، لذلك كان تبادل اطلاق النار بين الطرفين مستمرا. وقد شهد باب النبي داود هجمات متكررة ومستميتة اذ كان أقرب طريق الى الحي اليهودي المحاصر، الذي عمل اليهود بكل ما لديهم من قوة للاتصال به والحيلولة دون سقوطه. اما باب الخليل فقد كان في منطقة مكشوفة يصعب على اليهود اقتحامها، ولذلك كانت المناوشات تقع فيه على فترات متباعدة الى حدّ ما.

ولم يخض جنود الجيش الأردني المعركة منفردين، بل التحقت بهم قوات المناضلين والجهاد المقدس وجيش الانقاذ ورجال الشرطة العرب، وكان هؤلاء يقدمون للجنود مساعدات قيمة لمعرفتهم بالمواقع والمنعطفات والأزقة. وكانت تلك القوات تتألف من:

أ – فوج الحسين من جيش الانقاذ بقيادة الرئيس فاضل عبدالله، ومعه سرية مجاهدين من سوريا.

ب – فوج الجهاد المقدس بقيادة خالد الحسيني.

جـ – قوة الشرطة العرب بقيادة منير ابوفاضل.

اما في المناطق المحيطة بالقدس فقد كانت هناك مجموعات عديدة من المناضلين، نذكر منها:

سرية الحسين بقيادة عثمان بدران ومركزها جبل الزيتون (الطور).

ولكن من الانصاف القول ان القوات النظامية كانت تؤلف العمود الفقري وتتحمل مسؤولية القتال دفاعا وهجوما، ولم تكن القوات الأخرى الا بمثابة اسناد ورديف لها.

هنا لا بد من كلمة موجزة لتعريف القارىء بالحي اليهودي الذي تبلغ مساحته نحو ربع مساحة المدينة القديمة في داخل الأسوار. انه يتألف من منازل اكثرها قديم تربط بينها أزقة ضيقة ودهاليز. ومعظم تلك المنازل ملك للعرب يقيم فيها اليهود بالايجار. وتحاذي الحي

منطقة الحرم الشريف من ناحية الشرق وحي الأرمن من ناحية الغرب والأحياء الاسلامية من ناحية الشمال. اما من الجنوب فهو يلاصق السور. وكان عدد سكان الحي نحو ١٨٠٠ يهودي بينهم محاربون من الهاجانا وعصابتي الأرغون وشتيرن. وقد استعد اليهود للقتال فحصنوا الحي بالمتاريس والاستحكامات وزرعوا مداخله بالألغام وحفروا الخنادق، وثقبوا ثغرات في الجدران تسهل على المحاربين الانتقال من منزل الى منزل، وجعلوا دفاعهم بالعمق، وخزنوا المؤن والذخائر. وكانت أوامر الوكالة اليهودية تقضي بالدفاع عن الحي حتى النهاية، وتحريم النزوح او الاستسلام.

كان عدد المحاربين اليهود في الحي نحو ٤٠٠ رجل وفتاة وهم يتألفون من ٢٠٠ من الهاجانا و١٠٠ من الأرغون بالاضافة الى ٨٠ شخصا دخلوا صباح يوم ١٩ ايار. ومع ان اليهود أخفقوا في شق ممر يصل بين مراكزهم في القدس الجديدة وبين الحي اليهودي، فانهم ظلوا يسيطرون على جبل النبي داؤد في خارج السور. وتمركز قناصتهم في برج كنيسة الدورميثون الضخمة القائمة على قمة الجبل، ومن البرج أخذ اولئك القناصة يسيطرون بنار أسلحتهم على جانبٍ كبير من المدينة القديمة من ناحية الجنوب، وأخذوا يطلقون النار على الشوارع وعلى كل من يسير فيها.

لم يكن أمام جنود الكتيبة السادسة طريقة لاخضاع الحي سوى الضغط عليه وتدمير منازله بواسطة الألغام. كان الجنود يفتحون ثقبا في الجدار تحت غطاء النار الساترة ثم يلقي أحدهم قنبلة يدوية في الداخل، وبعد ذلك يقفز الجنود الى الغرفة وسلاحهم بأيديهم، ثم يفتحون الباب ببطء الى الغرفة المحاذية. وقد استعان الجنود بفئتي تدمير الأولى بقيادة فوزي القطب والثانية بقيادة أحمد الظاهر الديك، اذ كان أفرادهما يحملون الألغام الى جدران المنازل تحت حماية الرشاشات ثم يقومون بتفجيرها، وعلى الاثر يعمد الجنود الى الاقتحام والتمركز جداراً بعد جدار ومنزلا بعد منزل. كان ذلك عبر ممرات مظلمة صعودا ونزولا على درج ضيق، ثم الى المخابىء تحت الأرض. كان أفراد فئتي التدمير يصنعون تلك الألغام بأنفسهم من متفجرات كانوا قد خزنوها واحتفظوا بها. بينما كان الجنود يستعملون مدفع بيات الصاروخي الذي صمم أصلا لتعطيل الدبابات، ولكنه كان ذا قوة عظيمة ومؤثرا في فتح ثغرات في الجدران. وهكذا أخذت عمليات النسف المنظم تؤدي الى تضييق الرقعة اليهودية يوما بعد يوم. وكان القتال شرسا وعنيفا، لأن الجنود كانوا

يواجهون مقاومة عنيدة وخطرا في كل خطوة يخطونها، ويتكبدون في اثناء ذلك الخسائر، اذ كان جنود العدو يتحصنون وراء النوافذ، ويتربصون الى جوانب الجدران ويطلقون النار على كل من يقترب منهم. وكانت مدافع الهاون تقصف الحي اليهودي من مراكزها في رأس العمود في فترات متقطعة من الليل والنهار، وبذلك أسهمت في ارباك المدافعين عنه وايقاع الخسائر بهم واشعال النيران في منازلهم. اما القوة الأردنية المتمركزة في دير الأرمن فقد أخذت تعمل – بالاضافة الى حماية باب النبي داؤد – على دق اسفين بين حي الأرمن والحي اليهودي. ويقول عبدالله التل ان الأرمن والوا العرب وساعدوهم في أيام القتال.

بالاضافة الى ما تقدم كان لليهود في الحي كنيسان لهما قبتان مرتفعتان تسيطران على ممرات الحي والشوارع المجاورة. كان القناصة اليهود يطلقون النار من القبتين على الأحياء المجاورة ويلحقون الخسائر بالمدنيين. وقد حاولت القوات الأردنية ان تتفادى ضرب الكنيسين، وأنذرت اليهود بعدم استعمالهما مراكز حربية، ولكن عندما أصر هؤلاء على اطلاق النار منهما، لم يبق امام العرب مناص من ضربهما وتدميرهما.

استمرت القوات الأردنية خلال ايام ٢٠ – ٢٣ أيار في التضييق على الحي اليهودي، وقد استولت على عدد من المنازل. وفي يوم ٢٤ أيار تمكنت من نسف (المحددة) التي كانت تعيق تقدم الجنود، فأصبحت مراكز اليهود مكشوفة من الجهة الجنوبية. وفي اليوم التالي ظهر واضحا ان الارهاق الشديد لحق بأفراد القوة المدافعة، فلم يكن بمقدورهم القيام بشن هجوم في اثناء النهار. لذلك سمح الرئيس محمود الموسى لجنوده بأن يرتاحوا باستثناء الرقباء.

استمات اليهود في هجماتهم على أبواب السور المحاذية للمناطق الواقعة تحت سيطرتهم. وكان هدفهم خرق الدفاعات العربية والاستيلاء على ممر يوصلهم الى الحي اليهودي في داخل المدينة القديمة. لذلك أخذوا يشنون الهجمات كل ليلة تقريبا، وكان اكبرها ذلك الهجوم الذي قاموا به عصر يوم ٢٥ أيار على باب النبي داؤد. بدأ اليهود الهجوم في الساعة الرابعة بعد الظهر بقصف من مدافع الهاون وراجمات الالغام، ثم أخذ مشاتهم يقتربون من الباب. وانتظر جنود الجيش العربي حتى اقترب أفراد العدو فانهالوا عليهم بالقنابل اليدوية. وكان جنود العدو يحملون لغما كبيرا يريدون تفجيره عند السور من أجل

فتح ثغرة فيه، ولكن اللغم انفجر بينهم فقتل عددا منهم بينما أركن الناجون الى الفرار. وقد تمكنت جماعة أخرى من أفراد العدو من اشعال النار في الباب الخشبي بواسطة قنابل فسفورية، فوصل اللهب الى أعلى السور حتى مواقع الجنود. وبلغت المعركة ذروتها من العنف والشدة عندما اقترب افراد العدو الى مسافة ٢٠ مترا من السور وثبت الجنود الأردنيون ثبات الأبطال. وظلت المعركة مستمرة طوال الليل. وزاد من اشتداد القتال ان جنود العدو قاموا في تلك الاثناء بالتحرك من داخل الحي اليهودي في محاولة للالتقاء بجماعتهم. وتمكن جنود الأردن من صد هؤلاء وهؤلاء، حتى أرغموهم على التراجع والانسحاب في الساعات الاولى من صباح يوم ٢٦ ايار. وقد كان لمدافع السرية المساندة في رأس العمود دور كبير في رد العدو على أعقابه.

وبعد غروب شمس يوم ٢٥ أيار وصلت السرية الخامسة مشاة بقيادة الرئيس محمد اسحق الى القدس لتعزيز القوات المتمركزة فيها (١). وقد دخلت الى المدينة عن طريق باب المغاربة، وتمركزت في دير الأرمن مع سرية الأمن الاولى، قبالة الحي اليهودي. وبادرت السرية الى الاشتراك في القتال ضد مواقع العدو. كانت المعركة تدور على أشدها طوال الليل. وفي الليلة التالية انفجرت قنبلة هاون في مواقع السرية، فأصيب الرئيس محمد اسحق ومساعده الملازم عصر المجالي والملازم حسن محمد حسن ابودنيا بجراح مختلفة، بعضها خطير، فنقلوا الى المستشفى. واستشهد النائب عبدالمجيد النوباني، وأصيب عدد من الجنود بجراح. وقد استمرت السرية في القتال بقيادة الملازم حسين محمد خالد.

وفي يوم ٢٦ ايار تمكن القائد عبدالله التل من ادخال ثلاث مدرعات عبر الأزقة الضيقة والمنعطفات. وقد بذل المناضلون من أهل القدس جهودا كبيرة في تمهيد الدروب الوعرة حتى وصلت الى المواقع المقصودة فتمركزت واحدة منها في باب الخليل وتمركزت اثنتان في باب النبي داؤد. وأخذت المدرعتان الأخيرتان تقصفان الحي اليهودي بقنابل مدفعهما قصفا متواصلا. اما الأولى فوجهت نيرانها الى مواقع العدو المقابلة في القدس الجديدة. وقد استقبل أهل القدس تلك المدرعات بالهتاف والتصفيق وساد بينهم الاعتقاد أن الجيش الأردني قادر على دحر العدو ومنعه من اختراق الأسوار.

على ان الخسائر التي لحقت بالسرية الخامسة، وما ظهر من ان استسلام الحي اليهودي أصبح وشيكا، وتطورات الوضع العسكري في منطقة رام الله - دفعت القيادة الى اصدار

الأمر بانتقالها ولما يمض على وجودها في القدس سوى يومين. وهكذا غادرت السرية القدس صباح يوم ٢٧ أيار الى قرية بيتونيا عن طريق اريحا – نابلس، حيث أعيد تنظيمها وكلفت بالقيام بمهام أخرى، كما سيأتي بيانه.

استمات اليهود من أجل اختراق السور والوصول الى الحي اليهودي، وفي اثناء هجماتهم فجروا ألغاما في دير القربان فاحترقت كنيسة الدير ونسفت واجهته، وسقطت قنابلهم على كنيسة القيامة فأحرقت القبة الكبرى، كما سقطت القنابل على أديار اخرى. وألقت الطائرات اليهودية رزما وصناديق بواسطة الباراشوت على الحي القديم، ولكن جنود الجيش سبقوا اليهود اليها ففتحوها وكانت تحتوي على ذخائر للبنادق والرشاشات.

واشترك الرئيس بركات طراد الخريشا في القتال على رأس فئة من مناضلي سرية منكو. وقامت هذه الفئة بمهاجمة الحي اليهودي من الجهة الشمالية. وقد تعاونت في الهجوم مع فئتين نظاميتين احداهما بقيادة الملازم مصطفى ابراهيم الشوبكي (من السرية الاولى) والثانية بقيادة النائب ضحوي ربيدي (من السرية الثامنة).

وفي يوم ٢٧ ايار اقتربت القوات النظامية من المنازل المجاورة للكنبس اليهودي الكبير الذي اخذ اليهود يطلقون النار من قبته، وفي اثناء ذلك قتل جندي من السرية الثامنة وأصيب آخر بكسر في يده. وقد ربط الجنود زميلهم القتيل بحبل وسحبوه وتراجعوا الى الخلف. وحاول بركات مساعدة الجندي الجريح على التراجع الى الخلف، لكنه أُصيب برصاصة في ركبته اليسرى، فنقله جنوده الى المستشفى. وقد خسرت الفئة التي كان يقودها بركات أربعة قتلى وأصيب بعض افرادها بجراح (٢).

ان ضغط الجيش الأردني على الحي اليهودي جعل وضع سكانه في غاية الخطورة، اذ ان هؤلاء كانوا يتراجعون الى الوراء كلما سقط منزل من منازلهم. وهكذا كثرت ضحاياهم وانتشرت الروائح الكريهة في الحي وشحّت المياه وكثر الجرحى حتى لم يعودوا يستطيعون دفن موتاهم. وطلب اليهود (بواسطة مندوب الصليب الأحمر الدولي) نقل النساء والأطفال والشيوخ والجرحى الى الأحياء الجديدة في القدس، ولكن و. القائد عبدالله التل لم يوافق على ذلك الطلب.

وضاق طوق الحصار والنار على الحي يوم ٢٧ أيار وأخذت خطوط العدو الدفاعية تنكمش تدريجيا، حتى وصلت الى كنيسهم الكبير (قدس الأقداس) الذي أصبح هدفا مباشرا

لنيران الجيش. وعندئذ استدعى عبدالله التل مندوب الصليب الأحمر وطلب اليه ابلاغ الانذار التالي الى السلطات اليهودية «اذا لم يخل المحاربون اليهود الكنيس الكبير لغاية الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٩٤٨/٥/٢٧ فاني سأضطر لهدمه عليهم».

وبالفعل توقفت القوة المحيطة بالحي عن القتال بضع ساعات. وفي اثناء ذلك تكرر الانذار بواسطة البوق ثلاث مرات لكي يسمعه اليهود المحصورون. ولكن اليهود (غلاظ الرقاب والأكباد) ظلوا على عنادهم. عندئذ، وبعد مضي المدة المقررة، استأنف العرب هجومهم، وجاءت فئتا التدمير بألغامهما، وتهاوت جدران الكنيس على من كان فيه، كما هدمت من قبل كنس اليهود الصغيرة الأخرى، لأنهم اتخذوا منها مواقع عسكرية.

وتعالت صرخات اليهود بأن العرب يعتدون على الأماكن المقدسة، فعقد الدكتور لينز مندوب الصليب الأحمر مؤتمراً صحفياً أعلن فيه انه نقل الانذار بوجوب اخلاء الكنيس ولكنه لم يتلق أي جواب عليه. هذا مع العلم بأن اليهود لم يراعوا حرمة الأماكن المقدسة الخالية من المحاربين، فقد أصابت قنابلهم (التي كانوا يطلقونها بكثرة من راجمات الألغام على أحياء القدس القديمة، خبط عشواء) عددا من الأماكن المسيحية المقدسة من كنائس وأديرة.

كان الهجوم على كنيس اليهود الكبير ذروة المعركة في الحي اليهودي. لقد تقدّم جنود السرية الأولى وأخذوا يقصفونه من ثلاث جهات. وبدا أن الذخائر في أيدي جنود العدو قاربت نهايتها، اذ أخذو يردون على الهجوم بالقاء علب الحليب المحشوة بالديناميت وزجاج مولوتوف. وأصيبت جدران الكنيس فتهاوى بعضها. وسقط أحد المناضلين قتيلا. وتقدم الجندي عبدالكريم مسلّم الشوبكي الى وسط الكنيس فأصيب بصلية رشاش في رجليه الاثنتين. سقط على الارض ورأى بعينيه عظم رجله اليسرى وقد خرج من الجلد. أحس كأن رجله لم تعد جزءا من جسمه. أخذ يستنجد والرصاص ينهمر عليه. جاء جندي (من الحوامده) ومعه رشاش برن وأخذ يعطي نارا ساترة حتى يتيح المجال لرفاقه كي يسحبوا عبدالكريم الى الوراء. ولكن رشاشه أصيب وتعطل فاضطر ان ينسحب. وتقدم جندي شاب من احدى قرى اربد فحمل عبدالكريم على ظهره وسار به خطوتين، ولكنه أصيب بطلقة في يده وخاصرته فألقى حمله وركض ليحتمي وراء جدار قريب. ثم جاء الجندي أحمد محمد الضمور فحمل عبدالكريم تحت نار العدو، واجتاز به جدار الكنيس، وهناك حمله

رفاق آخرون وهو مغمى عليه الى مستشفى الهوسبيس (٣).

في فجر يوم الجمعة ٢٨ ايار ركز الرئيس محمود الموسى قوة بقيادة الملازم مصطفى ابراهيم في الناحية الشمالية من الحي، مع تعليمات بأن لا يشعر اليهود بوجود قوته. وفي الوقت نفسه تحرك مع المدرعتين وقوة صغيرة وهاجم الحي من الناحية الجنوبية لايهام جنود العدو بأن الهجوم ينصب عليهم من تلك الناحية. ونجحت الخدعة فأخلى اليهود مواقعهم في الشمال واحتشدوا في الجنوب. وبعد ان تصاعد القتال واشتد في تلك الناحية مضى الرئيس الموسى الى القوة الشمالية وتولى قيادتها بنفسه بعد طلوع الشمس، حيث تم له الاستيلاء على مواقع مهمة دون مقاومة تذكر.

واستمرت المدرعات ومدافع الهاون في قصف الحي، يدعمها الجنود والمناضلون، حتى بدا الحي وكأنه مغطى بسحابة سوداء من الموت والدمار. عندئذ أيقن اليهود انه لم تبق فيهم بقية على المصابرة والصمود، فخرج اثنان من بين الجدران المتهدمة وكل واحد منهما يرفع علما أبيض. كان ذلك في نحو الساعة العاشرة صباحا. واقتادهما أحد الجنود الى دير الأرمن، حيث قيادة السرية الأولى.

كان الرئيس محمود الموسى ما يزال يتولى قيادة الهجوم، عندما جاء اليه أحد الجنود من مركز قيادته يعلمه ان وفدا من الأعداء وصل الى مكتبه بقصد الاستسلام. تطلع فشاهد أعلاما بيضاء ترتفع هنا وهناك. أعطى أمراً للملازم مصطفى ابراهيم بالتوقف عن اطلاق النار وأن يبقى مع الجنود في مواقعهم، ثم أسرع عائدا الى مكتبه. وهناك وجد رجلين مسنيّن كلاهما يجيد العربية. ولم يلبث ان تبين انهما حاخامان. وقفا عند وصوله فصافحهما وهو يسأل ماذا تريدان؟

- نريد ان نستسلم
- التسليم بلا قيد أو شرط
- موافقون.

اتصل محمود الموسى بعبدالله التل وأخبره عن وصول الوفد، فلم يلبث ان حضر ومعه الشيخ مصطفى السباعي والدكتور عزت طنوس والدكتور موسى الحسيني وكامل عريقات والرئيس فاضل عبدالله.

في الوقت ذاته قدم الجنود ماء للرجلين. وكـان أحدهمـا مصابـا بجـرح فأسـعفه الجنـود، وعندئذ اطمأن وهدأ روعه.

عندما وصل عبدالله التل أبلغه الرجلان أنهما موفدان من قبل يهـود الحـي لعـرض أمـر التسليم الى الجيش العربي، وأنهما سيعودان الى الحي لدعوة وفد المفاوضة العسكري اذا ما ووفق على العرض. وافق القائد على مبدأ التسليم فعـاد أحـد الرجليـن الـى الحـي اليهـودي، بينما بقي الآخر يقرأ في التوراة. ولم يطل الانتظار حتى عاد الحاخام ومعه ضابط الهاجاناه (شاؤل الطويل)، والمختار (مردخاي ونجارتن) الذي كانت ابنتاه الممرضتان ترافقانه.

كان اليهود مرهقين قلقين، فقدم لهم الجنود الشاي والسجائر، فلم يلبث شعورهم بـالتوتر ان أخذ يخف بالتدريج.

بعد وصول الوفد ذهب الرئيس الموسى ليتفقد جنـوده، وفـي الطريـق تبلـغ بكسـرة خـبز جافة.

طلب ضابط الهاجاناه، حضور مندوب الصليب الأحمـر، فلم يلبـث ان حضـر السـنيور اسكراتي (مندوب الامم المتحدة) ومعــه ممثـل عـن الصليـب الأحمـر. وعـرض القـائد التـل عندئذ شروطه كما يلي:

١ - تسليم السلاح والذخائر.

٢ - أخذ الرجال المحاربين والقادرين على حمل السلاح اسرى حرب.

٣ - احتلال الحي ثم تسليم النساء والأطفـال والمرضـى والمصـابين بجـروح خطـيرة الـى اليهود، بواسطة الصليب الاحمر.

حاول أعضاء الوفد اليهودي تخفيف الشروط العربية. وكان من جملة محاولاتهم الطلـب بأن يسمح لهـم جميعـا بـالخروج الـى الأحيـاء اليهوديـة. واسـتمر الأخـذ والـرد نحـو ثـلاث ساعات. وبازاء اصرار التل على الشروط التي عرضها، عاد ضـابط الهاجانـاه الـى الحـي اليهودي ليطلع قائده (موشي روزناك) عليها. تلكأ روزنـاك قليـلا. ولكنـه لـم يلبـث ان ادرك انه لم يبق أمامـه أي مجـال آخـر عـدا الاستسـلام، فجمـع ضباطـه وعـرض عليهـم الأمـر، فوافقوا جميعا على التسـليم (باسـتثناء ممثـل الأرغـون). وعندئـذ مضـى روزنـاك الـى ديـر الأرمن، وهناك سلم مسدسه للقائد التل وأبلغه بقبـول شـروطه. وعلـى الفـور نظمـت وثيقـة التسـليم بـاللغتين العربيـة والانكليزيـة، ووقعهـا عبداللـه التـل عـن الجيش العربـي وموشــي روزناك عن الهاجاناه ومختار الحي اليهودي.

وثيقة تسليم الحي اليهودي في القدس القديمة
(ترجمة عن الانكليزية)

الفريق الأول : وكيل القائد عبدالله التل.

الفريق الثاني: قائد الهاجاناه ومختار الحي اليهودي في القدس القديمة.

بناء على الطلب المقدم من يهود القدس القديمة للاستسلام، قدم الفريق الأول الشروط فقبلها الفريق الثاني، وهي:

١ – القاء السلاح وتسليمه للفريق الأول.

٢ – أخذ جميع المحاربين من الرجال أسرى حرب.

٣ – السماح للشيوخ من الرجال، وللنساء والاطفال، ولمن جراحهم خطيرة، بالخروج الى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، بواسطة الصليب الاحمر.

٤ – يتعهد الفريق الأول بحماية أرواح جميع اليهود المستسلمين.

٥ – يحتل الجيش العربي الحي اليهودي في القدس القديمة.

٢٨ أيار ١٩٤٨ التوقيع : عبدالله التل موشه روزنك ونجارتن

أوقف الجيش العربي أطلاق النار بعد التوقيع على اتفاقية التسليم، وصدر أمر يمنع التجول، لكي تتم عملية التسليم قبل حلول الظلام. واجتمع سكان الحي في ساحة، وانتشر الجنود والمناضلون على أطراف المنطقة خوفا من أن يهجم الناس على الحي انتقاما لما فعل اليهود بأهل القدس. وفي أقل من نصف ساعة تم جمع السلاح. وكان عدد اليهود نحو ١٥٠٠ شخص، وقد استبد بهم الخوف، ولكن الجنود العرب تصرفوا بشهامة وفروسية، وأبت عليهم المرؤة ان يتصرفوا كما فعل اليهود في دير ياسين وفي القرى والمدن التي استولوا عليها. وأخذ الضباط والجنود يتجولون بين صفوف اليهود حتى أخرجوا المحاربين ومن هم في سن الجندية، وعزلوهم على حدة، وتم ذلك بهدوء ولين، بل ان الجنود أخذوا يقدمون الماء والسجائر اليهم. وبعد ذلك نقل جميع من كانوا في المستشفى الى قاعة كبيرة في دير الأرمن، لتسليم المصابين بجراح خطيرة الى بني قومهم ونقل الباقين الى معسكر الأسرى.

بعد أن تمت عملية فصل المدنيين عن المحاربين، فتح جنود الجيش العربي باب النبي داؤد وسمحوا للنساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين بالمرور الى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة – وتمت العملية بحضور مندوبي الصليب الأحمر. وقد سلك الجنود مسلكا ينطوي على الشهامة اذ أخذوا يساعدون العجزة على حمل أمتعتهم، بل أخذوا يحملون الشيوخ والعجائز على ظهورهم من الحي اليهودي حتى الباب الرئيسي. ولم يحاول أحد ان يتعرض بسوء لأي يهودي، ولم ترد أية شكاية على أي جندي أو مناضل. وفي الساعة التاسعة مساء انتهت عملية تسليم المدنيين الى ذويهم. اما المصابون بجراح خطيرة، وكانوا نحو ١٥٠ شخصا، فقد سلموا الى ذويهم في اليوم التالي (٢٩ ايار). وكان عدد الأسرى ٣٤٠ شخصا، وقد قضوا الليلة في مركز الشرطة، وفي صباح اليوم التالي نقلوا الى معسكر الأسرى في أم الجمال. ولم يأخذ الجيش أسرى من نساء اليهود الا فتاة محاربة اطلعت على بعض مواقع الجيش، بالاضافة الى ابنتي المختار ونجارتن اللتين أصرتا على الذهاب الى معسكر الأسرى مع ابيهما. وبعد بضعة أيام أعادت قيادة الجيش العربي المختار والفتيات الثلاث الى بني قومهم.

قدر عبدالله التل ان قتلى اليهود في معركة القدس القديمة زادوا على ٣٠٠ محارب وان ٨٠ جرحوا تقريبا جراح نصفهم خطيرة. وقد لحق بالحي اليهودي دمار كبير. وظهر ان يهود الحي القديم كما يقول التل «صبروا واحتملوا مرارة الحرب الى درجة لا تطاق». اما خسائر الجيش الأردني فقد بلغت ١٤ شهيدا من الجنود وعشرة من المناضلين، بالاضافة الى ٢٥ جريحا من أفراد الجيش .

وكان من اغتباط الملك عبدالله باستسلام الحي اليهودي انه وجه الى الفريق جلوب البرقية التالية يوم ٢٩ ايار:

أرغب اليكم في أن تبلغوا أفراد وضباط وصف ضباط الفرقة الأولى الباسلة رضاءنا وتقديرنا لها في حركاتها الحربية التي قامت بها من ١٥ أيار ١٩٤٨ الى اليوم، وبالأخص في حركات القدس الشريف التي جعلتنا نبتهل الى الله ان يحفظ هذه القوة المجاهدة التي استحقت اعجاب العالم في أصعب المناورات العسكرية وحرب الموت. وانني لفخور بهم مبتهج بأعمالهم، معلق الآمال عليهم وعلى شجاعتهم. ويرغبني في عرض اسماء من يجب تلطيفهم بالأوسمة والترقيات.

كان انتصار الجيش العربي في معركة القدس القديمة ثاني انتصار مهم يحرزه بعد الاستيلاء على مستعمرة كفار عصيون والمستعمرات الثلاث المحيطة بها. واذا كان الانتصار الأول قد قضى على وجود اليهود في منطقة الخليل، فان الانتصار الثاني قضى على وجودهم في المدينة القديمة وأبقاها خالصة للعرب. وقد أفاد الجيش العربي في معركة كفار عصيون من وجود المستعمرة في موقع بعيد عن مراكز التحشد اليهودية، اما في المعركة الثانية فقد أفاد من وجود السور الذي وقف حاجزا قويا أمام الهجمات اليهودية المتكررة.

القتال في القدس القديمة

المرحلة الثانية ٢٠ ايار – ١١ حزيران

لم يتوقف القتال في القدس القديمة بعد سقوط الحي اليهودي يوم ٢٨ ايار، لأن اليهود استمروا في شن الهجمات على السور وعلى مواقع الجيش المواجهة لهم. وقبل ان أتحدث عن المعارك والاشتباكات التي وقعت في جبهة الكتيبة السادسة، أود ان أقدم لمحة عن وضع القوات العربية – نظامية وغير نظامية – في القدس والى الجنوب منها.

كانت مدينة القدس محور الصراع الأساسي. وبعد معركة النوتردام وسقوط الحي اليهودي اتخذ الطرفان مواقع متقابلة ابتداء من تلة شعفاط وحي الشيخ جراح في الشمال الى بيت لحم في الجنوب.

- كانت الكتيبة الثالثة تتمركز في المنطقة الممتدة من باب العمود الى حي الشيخ جراح، وتضم منطقة باب العمود والكولونية الأمريكية وحي سعد سعيد.
- اما في حي الشيخ جراح وتلة شعفاط فقد كانت تتمركز سرية الأمن الثانية (محمد خلف العمري) والسريتان ٩ (سليمان مسعود) و ١٣ (فارس العبد) وفئتان من السرية الرابعة.
- سرية الحسين بقيادة عثمان بدران، (نحو ١٠٠ من المناضلين) في جبل الزيتون.
- ثلاث سرايا من الكتيبة السادسة (الأولى والسادسة والثامنة) في القدس وعلى أسوارها.
- السرية المساندة من سرايا الكتيبة السادسة، في رأس العمود.
- مدفعا هاوتزر عيار ٧ر٣ بوصة، في رأس العمود.

اما الى الجنوب من القدس فقد كان الوضع كما يلي:

- السرية ١٢ المشاة وعدد جنودها نحو ١٥٠، وفئاتها موزعة في الخليل وبيت جبرين وعرطوف وبيت لحم. وكان الاتصال مقطوعا بين هذه السرية وبقية القوات الأردنية منذ انتهاء الانتداب، نتيجة لسيطرة اليهود على الطريق المعبدة الوحيدة التي تخرج من القدس باتجاه بيت لحم والخليل.

كانت قوات الجهاد المقدس والمناضلين (ومن جملتها سرية أبوعبيدة وسرية أسامة الأردنيتين) ترابط في مواقع: بيت لحم، بيت صفافا، المالحة، عين كارم، صور باهر.

اما قوات العدو فكانت تتمركز في رامات راحيل وحي النبي داؤد (وهو تل عال يشرف على أحياء عديدة من القدس)، وقمة تل الثوري.

بعد دخول الكتيبة السادسة الى القدس، أرسل عبدالله التل فئة بقيادة احد الضباط الى سفح النبي داؤد فتمركزت في دير الفرنسيسكان، كما أرسل مفرزة من المناضلين البدو لتعزيز مفرزة الجهاد المقدس المرابطة في سفح تل الثوري (بقيادة محمد ابوصوّي). وكان لوجود السرية المساندة في رأس العمود أثر فعال في مشاغلة اليهود المتمركزين في النبي داؤد والثوري ومنعهم من الهجوم على قرية سلوان ثم التقدم شرقا لقطع طريق القدس - أريحا ذات الأهمية القصوى.

كان اليهود قد اعتصموا في الكنيسة الألمانية الحصينة فوق قمة النبي داؤد وفي المنازل العربية المجاورة، وتحصنوا في (دير ابي طور) في حي الثوري، ومن هناك أخذوا يطلقون نيران أسلحتهم على رأس العمود وسلوان. ولذلك وقعت اشتباكات عديدة بين الطرفين. وقد بقي الوضع كذلك حتى يوم ٦ حزيران عندما قام المناضلون البدو بقيادة يوسف الفهد العدوان بهجوم على اليهود في الثوري فتمكنوا من طردهم من الدير والمنازل المحيطة به، الا ان قائدهم سقط برصاصة من العدو، فتراجع البدو وهم يحملون قائدهم الجريح الذي لم يلبث ان توفي بعد وصوله الى المستشفى في القدس، فعاد اليهود الى مراكزهم السابقة.

وظل اليهود يحتفظون بجيب خطير في مؤخرة الخط الأمامي الأردني. انه جبل المشارف (أو جبل سكوبس كما تسميه المصادر الأجنبية) الذي تقوم عليه أبنية الجامعة العبرية ومستشفى هداسا. وموقع هذا الجبل مهم جدا من الناحية العسكرية لأنه يشرف على القدس من الناحية الشمالية الشرقية. لقد ظلت قوة يهودية تعتصم في أبنية الجامعة وهداسا

بعد ان استعاد الجيش الأردني حي الشيخ جراح. وكان العدو يطلق نيران أسلحته من هذا الموقع على مواقع الجيش الأردني.

وكرد فعل على عدوانية اليهود تولدت عند قيادة الجيش فكرة مهاجمة المؤسستين. وفي ٢٥ ايار قصفهما مدفعا الهاوتزر من رأس العمود بنحو ٧٥ قنبلة. وكان من أثر ذلك ان تحذيراً وجّه الى الحكومة الأردنية (عن طريق الوزير البريطاني المفوض في عمان) بأن تدمير المؤسستين سيثير السخط في أمريكا على أساس انهما مؤسستان ثقافيتان. وعندئذٍ صدر الأمر بايقاف القصف. ويقول جلوب انه كان من السهل نسبيا على الجيش العربي ان يستولي على ذلك الموقع.

اما جبل المكبّر، فقد اتخذ مندوبو منظمة الصليب الأحمر من دار المندوب السامي التي تقوم عليه، مركزا لهم في بداية فترة القتال الأولى. وكانت منطقة الجبل تشمل أبنية الكلية العربية ومدرسة الزراعة، ولم يكن يسمح للمحاربين من الطرفين بالدخول اليه.

* * *

اتضح نتيجة لعمليات الكتائب الثالثة والخامسة والسادسة في القدس، فيما بين ١٨ و ٢٨ ايار، ان الاستيلاء على القدس الجديدة بواسطة العمليات العسكرية أمر تقصر عنه القوة الحربية لتلك الكتائب، مع انها كانت تقارب نصف قوة الجيش كله، لأن حرب الشوارع تبتلع عددا كبيرا من جنود المشاة. ولذلك نرى ان الهدف الرئيسي لقوات الجيش الأردني أصبح – كما يقول عبدالله التل – تشديد الحصار على القدس وتضييق الخناق عليها حتى يعلن اليهود المقيمون فيها الاستسلام. وكانت وسيلة الجيش لتحقيق ذلك ان يستمر في ضغطه على عنق الزجاجة في خط المواصلات اليهودي على طريق باب الواد، وهو الضغط الذي كانت تقوم به الكتائب الثلاث الأخرى: الأولى والثانية والرابعة (٤).

على أن قيادة قوات العدو لم تكن غافلة عن هدف الجيش الأردني، لذلك أخذت بالمقابل تبذل كل ما في وسعها لدفع قبضة ذلك الجيش عن عنق الزجاجة. ومن هنا نراها تشن الهجمات المتتالية لاختراق الجبهة الأردنية – ليس في قطاع باب الواد فحسب بل في قطاع مدينة القدس ايضا.

وقد كان للحصار الذي ضربه الجيش الأردني على يهود القدس – ولم يكن عددهم يومذاك يقل عن مائة الف –تأثير شديد، اذ أخذت المؤن والذخائر تتناقص عندهم يوما بعد

يوم. وأخذوا يوزعون الماء بالبطاقات نتيجة لانقطـاع مياه رأس العين التي تزود المدينة بالمياه، (كان موقع رأس العين وكذلك محطات الضخ في اللطرون وباب الواد تحت أيدي العرب). ويقول أحد المصادر ان قائد اليهود في القدس (شالتئيل) منع اطلاق قنابل الهاون أو راجمات الالغام الا بأمر منه، وانه في صباح ٢٩ ايار لم يكن لدى يهود القدس سوى ٨ قنابل لكل مدفع هاون ونحو ٤٠ طلقة لكل بندقية. وقد عانى اليهود كثيرا من النقص في المواد الغذائية. وفي ٤ حزيران بعث حاكم الجانب اليهودي من القدس (دوف جوزيف) رسالة الى بن غوريون قال فيها انه لم يبق لديه من الطحين ما يكفي الا لخمسة أيام (بمعدل رغيف صغير للشخص الواحد في اليوم).

وفي تلك الأثناء حدث اجتماع بين الفريق جلوب والقائدين العراقيين صالح صائب الجبوري ونور الدين محمود. وفي اثناء الاجتماع اقترح جلوب على الجبوري ان تقصف الطائرات العراقية الأحراش الواقعة غربي القدس بقنابل محرقة، قائلا: ان القدس الجديدة على وشك السقوط، فاذا أشعلتم النار في هذه الأحراش فمن المرجح ان يبادر اليهود الى الانسحاب من المدينة. ولكن الجبوري ردّ قائلا: انني لست مستعدا لأثارة حرب دعاية شديدة ضد العرب في العالم، لأن القدس مدينة مقدسة. وقال جلوب: انك تنسى انها الحرب، واننا في الحرب العالمية الثانية هدمنا الكثير من كنائس الألمان، كما هدم الألمان كثيرا من كنائسنا (٥).

ولم تكن وطأة الحرب على أهل القدس العرب أقل مما كانت على اليهود، اذ كان ما لا يقل عن ٣٠ الفا من اللاجئين قد تدفقوا على المدينة القديمة من الأحياء والقرى التي استولى اليهود عليها. ولذلك كانت قنابل اليهود التي أخذوا يقصفونها على الأحياء، تلحق خسائر كبيرة في النفوس. ولم تكن هناك كهرباء، لأن محطة التوليد كانت في أيدي اليهود، ولذلك ارتفع سعر زيت الكاز ارتفاعاً فاحشا، وكان هناك نقص شديد في الماء، الى ان أمكن تأمينه من عين فاره على بعد تسعة اميال. وهناك اعتقاد عام عند العرب ان اليهود كانوا مضطرين للاستسلام لو طالت فترة الحرب الأولى اسبوعا أو أسبوعين، وان الهدنة الأولى التي بدأت في ١١ حزيران كانت السبب في عدم سقوط القدس بأكملها في أيدي العرب. على ان اليهود لا يعترفون بهذه الفرضية العربية ويصرون على أنهم استنبطوا طريق النجاة من طوق الحصار عندما قاموا بشق طريق بين التلال الوعرة (طريق بورما) وأنهوا

العمل فيها قبل بدء الهدنة. وسنفي هذا الموضوع حقه من البحث فيما بعد.

في القدس القديمة مضى يوم ٢٩ أيار هادئا، وربما كان السبب ان تسليم الجرحى اليهود تم في ذلك اليوم بواسطة مندوبي الصليب الأحمر، كما تم تسليم بقية سكان الحي اليهودي الذين قضوا ليلتهم أمام باب النبي داؤد من الداخل. ولكن اليهود قاموا في اثناء ليلة ٣٠ ايار بهجوم واسع على مواقع الجيش الأردني في القدس القديمة وفي حي الشيخ جراح. وقد شنوا هجومهم من جبل صهيون وبالقرب من باب النبي داؤد، ومهدوا لذلك بمدافع الهاون وراجمات الالغام، وكان هدفهم السور ودير الأرمن. ولم يبادر جنود الجيش الى اطلاق النار على المهاجمين الا بعد ان اقتربوا من السور الى مسافة ٣٠ - ٤٠ مترا، وعندئذ انهالت عليهم نار الرشاشات والبنادق والقنابل اليدوية فارتدوا على أعقابهم. وقد التقطت قيادة الفرقة برقية للعدو جاء فيها ان خسائره بلغت ٨٥ قتيلا. ولم تلحق بأفراد القوات الأردنية أية خسائر.

واستمر العدو يشن هجماته الليلية بصورة تكاد تكون مستمرة. ويجب الاعتراف بأن الفضل الأكبر في صد تلك الهجمات يعود للسور القديم. وفي يوم الاحد ٦ حزيران (وقد اتضح ان حلول الهدنة أصبح وشيكا) أخذ اليهود يصبون كل ما كان لديهم من نار الأسلحة والمدافع على الأحياء العربية، ولا سيما حي الشيخ جراح، بقصد الحصول على أكبر قدر مستطاع من التقدم قبل توقف القتال، وربما كانوا يعتقدون ان بامكانهم الوصول الى هداسا وتطويق القدس القديمة. كما انهم نسفوا جميع المباني القائمة بين الباب الجديد والنوتردام. وقد أصاب القصف المدفعي عددا كبيرا من الأديرة والكنائس. ورد الجيش الأردني على اليهود بالمثل فقصف مواقعهم بقنابل المدافع، واستمر تبادل القصف المدفعي طوال اليومين التاليين. وأصابت قنابل العدو كنيسة القيامة (للمرة الثالثة) والحرم القدسي. وجرت اشتباكات في حي الثوري وحي النبي داؤد وفي المصرارة والشيخ جراح. وقصفت مدافع الجيش الأردني مواقع العدو في روميما ومياشيرم وأحياء أخرى، مما أدى الى شبوب عدد من الحرائق، وبلغ القصف ذروته يوم ٨ حزيران، واستمر في اثناء الليل، وكان له تأثير شديد.

الكتيبة الثالثة في الشيخ جراح

إن اخفاق الهجوم على النوتـردام يـوم ٢٥ أيـار كـان ذا تـأثير كبير علـى خطـط القيـادة الأردنية فيما يتعلق بالقدس. فقد اقتنع الفريق جلوب أنه لا يستطيع المجازفة بعـد ذلـك بدفـع جنوده القلائل الى مهاجمة أحياء القدس ذات الأبنية الحجرية المتينة، في وجه عدو يستميت في القتال ولا يتخلى عن مواقعه بسهولة. وهكـذا تحولـت الكتيبـة الثالثـة الـى اتخـاذ مراكـز دفاعية لها في المنطقة الممتدة من حي باب العمـود فالكولونيـة الأمريكيـة فحـي المصـرارة وحي سعد وسعيد حتى جسر الشيخ جراح. بينما كانت تتمركز في حي الشيخ جـراح وفـي مداخل القدس الشمالية اكثر من ثلاث سرايا من سرايا الأمن المستقلة.

عندما انتهت معركة النوتردام كان اليهود يحتلون دارا بيضـاء في حي سعد وسعيد (الـى الغرب من بوابة مندلبوم). ولاحظ قائد الكتيبة ان الاستيلاء على تلك الدار يزيـد مـن متانـة مواقع الكتيبة، فأمر السرية الثانية (قائدها الملازم سالم شبيكان) بتحقيق ذلك الهدف. ونشبت المعركة في منطقة مكشوفة فأصيب عدد من الجنود، ولكن السرية ظلت تتقدم حتى استولت على الدار وعلـى منـازل أخـرى الـى جانبهـا. اسـتمرت المعركـة طـوال اليوم، وكـان بين الجرحى قائد احدى المدرعات صف الضابط بادي عواد (في رأسـه وبطنـه). الا ان العـدو قام في تلك الليلة بهجوم معاكس شديد، فاستطاعت احدى وحداته ان تستولي علـى الطوابـق الأرضية في عمارتين. وقد استمرت المعركة نحو أربع ساعات أضطـر العـدو فـي نهايتهـا الى التراجع واخلاء العمارتين. وفي الصباح كان هناك أربعة قتلـى مـن جنـود العـدو علـى أرض الشارع وفي رجل كل قتيل حبل لا يقل طوله عن عشرين مترا.

وعمدت فئتان من جنـود المشـاة الـى مهاجمـة حشـد للعدو بيـن الحـراج المحاذيـة لحـي سانهدريا، فرد هؤلاء بقنابل الهاون. وفي اثناء تبادل القصف أصيـب هديبـان حـداد بشـظية في فخذه. وانسحب المهاجمون وفي طريق انسحابهم لقيهم و. ق. كورفيلد والمـلازم الاول معن أبونوار (كلاهما من ضباط اللواء الاول)، فحمل أبونوار الجريح في المدرعة الى باب العمود حيث تم اسعافه. ورفض هديبان ان يذهب الى المستشفى، وعندمـا عـاد الـى جنـوده عند العصر وجد انهم لم يتناولوا غداءهم بعد، بانتظار عودته. «كان جنودي كأخواني».

ولم ينفك العدو عن شن الهجمات على مواقع الكتيبة الثالثة، حتى ان نيومـان أبلـغ قيـادة اللواء ذات يوم انــه سيضطر للتخلـي عـن مواقعـه الأماميـة، اذا لـم يسـمح للمدفعيـة الثقيلـة

بقصف مواقع اليهود بمزيد من القنابل. وبسبب شدة ضغط العدو على حي الشيخ جراح، عمدت القيادة الى نقل سرية المشاة الثانية من مواقعها في جسر دامية والجفتلك الى ذلك الحي. والواقع ان ضباط وجنود تلك السرية لم يطيقوا البقاء في مؤخرة الجبهة، بينما يخوض رفاقهم في السلاح معارك الشرف ضد العدو. وقد دفعت روح الحماسة المتأججة في صدور أفراد السرية، ان قائدهم الرئيس فواز ماهر أرسل في صباح يوم ٢٥ أيار برقية الى و. ق. عبدالله التل في القدس قال فيها « أرجو أن ينال أفراد السرية الثانية شرف قتال اليهود الأشرار».

كانت تلك السرية تتمركز عند رأس جسر دامية على الضفة الغربية من نهر الأردن منذ ٧ أيار، مع وجود فئتين منها بقيادة الملازم الثاني مشرف حسن في مواقع دفاعية على طريق بيسان. وبعد ان بدأ القتال في فلسطين وأخذت أصوات قصف المدافع في القدس تصل الى اسماع الأفراد، أخذت روح القلق تسري في نفوسهم لوجودهم في مراكز خلفية وشعورهم بأنه ليس من العدل بقاؤهم بعيدا عن ميدان القتال. كانت هناك حماسة شديدة في نفوس أفراد جميع الرتب، ولم يكن معهم أية أمتعة (أي انهم كانوا في حالة أستعداد للاشتباك مع العدو). وبعد بضعة أيام من ارسال البرقية، قام الفريق جلوب بزيارة السرية وهو في طريق عودته من الجبهة وقال يخاطب قائدها:

- يا فواز، لماذا لا تريد البقاء هنا؟ القطاع الشمالي في حمايتك. ووظيفتكم مهمة جدا. وهكذا الحرب لا يستطيع كل الجنود ان يشاركوا فيها.

وردّ عليه الرئيس فواز ماهر: أرجوك يا سيدي ان تترك هذا الشرف لغيري، وأعطني فرصة الالتحاق بجبهة القتال.

عندئذ تناول جلوب لوحة الكتابة (التي لم تكن تفارقه) وكتب عليها بضع عبارات ثم مضى عائدا الى عمان. وكم كانت فرحة قائد السرية وجنوده عندما وصلت اليهم في اليوم التالي برقية تتضمن الأمر بالتحرك الى القدس.

أبقى قائد السرية قوة تتالف من ٥٠ جندياً بقيادة الملازم مشرف حسن لحماية رأس الجسر ومراقبة الطريق المؤدية الى بيسان. اما هو فتحرك مع باقي أفراد السرية بسيارات نقل عن طريق الجفتلك – نابلس – رام الله. وبعد مغيب الشمس تحركت السرية الى بيت

حنينا، وهناك ترجل الأفراد وساروا على أقدامهم (نحو خمسة كيلو مترات) الى قرية شعفاط ثم الى تلة شعفاط والتل الافرنسي.

انضمت السرية الثانية الى السرايا الأخرى في الشيخ جراح. وكان هناك قصف شديد ورماية قوية على مركز الشرطة طوال الليل. في الصباح تبين للرئيس فواز ماهر أن أفراد سريته أطلقوا أكثر من ثلاثة آلاف طلقة وبعض القنابل اليدوية وقنابل الدروع. لقد قضوا الليل وهم يطلقون النار دون هدف معين، وكانوا يفعلون ذلك احتذاء بالجنود الذين كانوا في تلك المواقع قبلهم... كان ذلك مخالفا لمبادىء القتال الأساسية أي ان لا يطلق المحارب النار الا على هدف مُعين. في الليلة التالية أطلقت السرية ست رصاصات وفي الليلة الثالثة خرجت من السرية طلقة واحدة فقط. لاحظ الزعيم لاش قائد الفرقة الفرق الكبير بين ما استهلكته السرية من عتاد في الليلة الاولى وما استهلكته في الليلتين التاليتين، وقارن ذلك بكميات العتاد الكبيرة التي أطلقها أفراد السرايا الخرى. ومنذ ذلك اليوم توقف اطلاق النار الا على هدف معين، وأخذ ضباط الوحدات يقضون الوقت في الخنادق الأمامية مع جنودهم.

في الليلة التي سبقت بدء الهدنة الأولى لاحظ جنود المواقع الأمامية المتقدمة في الشيخ جراح ان العدو يحشد قواته في الحديقة الكبيرة ما بين مشيرم وسنهدريا، بهدف الهجوم على مواقع القوات الأردنية. تم الاتصال بقيادة اللواء لمساندة المدفعية. وعند منتصف الليل شرع العدو في التقدم، ولكنه لم يلبث ان فوجيء بالنار تنصب عليه من مدافع ٦ رطل والهاونات والرشاشات، بينما أخذت المدفعية الثقيلة تقصف مواقع تحشده. وعرف العدو ان هناك يقظة واستعدادا في الجبهة الأردنية، فتراجع الى الوراء. طلب الرئيس ماهر من قيادة اللواء اذنا للقيام بهجوم معاكس بهدف الاستيلاء على حي مشيرم، ولكن الضابط البريطاني هناك قال له: لقد قمتم بما فيه الكفاية. عليكم الان ان تخلدوا الى الراحة.

وقد حدث ان و. ق. كورفيلد (ركن عسكري اللواء الاول) عرف ان السرية التاسعة لا تستطيع استعمال مدفع هاون جديد (عيار ٣ بوصة) تم تزويدها به مؤخرا (بسبب عدم وجود جنود مدربين على استعمال هذا النوع من السلاح) فأبلغ الملازم الأول معن أبونوار (ركن ادارة اللواء) بالأمر، فتطوع للقيام باعداد المدفع للاستعمال، ومضى الى الشيخ جراح ومعه ضابط الصف مسيّب سليمان، حيث تم نصب المدفع. ولم يلبث العدو حتى قام

بهجومه عند منتصف الليل، فبادر الملازم أبونوار الى الاشتراك في صد الهجوم وأطلق هو وضابط الصف نحو ١٠٠ قنبلة من ذلك المدفع على مواقع العدو.

قوة متحركة الى اللد والرملة

عند دخول الجيوش العربية الى فلسطين في ١٥ ايار لم تدخل منطقة اللد والرملة في حسابات أي جيش من تلك الجيوش. بل ان خطة الحركات العسكرية التي وضعتها القيادة الموحدة في دمشق في ١٠ أيار لم تتطرق الى ذكر اللد والرملة والمنطقة المحيطة بهما. هذا مع العلم بأن المدينتين كانتا قريبتين من مركز القوة اليهودية – تل ابيب – وكان احتمال تعرضهما لهجمات العدو كبيراً، فهما في موقع متوسط بين الساحل (الذي يسيطر عليه اليهود) ومدينة القدس التي كانت أشد المعارك تدور بين الفريقين من أجل السيطرة عليها. وقد زاد من أهمية موقع المدينتين وجود مطار مدني كبير بالقرب من اللد ووجود معسكر صرفند بالقرب من الرملة، بالاضافة الى ان اللد كانت ملتقى سكك الحديد (القدس – يافا وحيفا – القنطرة). كانت تدافع عن المدينتين قوات من المناضلين والجهاد المقدس بقيادة حسن سلامة، أحد رجال المفتي محمد امين الحسيني. وتدل المعلومات المتوافرة ان ذلك القائد كان واثقا من قدرة قواته على الدفاع الناجح عن المدينتين، الى حد انه كان ينظر بريبة وحذر نحو جيش الانقاذ والجيش العربي ولا يتلهف للتعاون معهما. وكانت القوة التي تأتمر بقيادة حسن سلامه تتألف من بضع مئات من رجال الجهاد المقدس والحرس البلدي والمتطوعين البدو من قبائل شرقي الأردن. وقد تحمل حسن سلامه مسؤولية ادارة دفة القتال في قطاع اللد والرملة، ولكن أسلحة رجاله كانت محدودة وخفيفة، وأهم من ذلك ان اولئك الرجال كانوا متطوعين غير نظاميين يحاربون في كثير من الأحيان على طريقة الفزعة. وشتان بين المجهود العسكري الذي تستطيع ان تقدمه قوة نظامية وبين ما تستطيع ان تقدمه قوة غير نظامية.

في البداية كان الاعتقاد السائد عند القادة العرب أن اليهود ليسوا من القوة بحيث يستطيعون تهديد المدينتين، لأنهم لا بد أن يحشدوا جميع قواتهم لمواجهة الجيوش العربية الزاحفة. وكان هناك اعتقاد بأن المناضلين من ابناء فلسطين قادرون – بمساندة المجاهدين العرب – على الدفاع عن المدينتين ريثما تتمكن الجيوش العربية من توجيه ضربة قاصمة

الى العدو. ولكن بعد دخول الجيوش العربية بأيام، أخذ الوضع في فلسطين يتضح على حقيقته. كل يوم من بعد ١٥ ايار كان يثبط من عزائم أهل فلسطين، ويضعف ثقتهم بفعالية الجيوش العربية، ويطامن من توقعاتهم ويزيد من مخاوفهم.

ونستدل على اتجاهات ذهن الملك عبدالله، أنه عمد بعد نشوب الحرب الى تعيين رئيس الوزراء السابق ابراهيم هاشم، حاكماً عسكرياً عاماً في المناطق التي تقرر دخول الجيش العربي اليها، والى تعيين حكام محليين في القدس ورام الله وأريحا والخليل. بل بلغ من تفاؤل الملك أنه عيّن نعيم عبدالهادي حاكماً عسكرياً لمدينتي اللد والرملة (كان قائمقاماً لهما في عهد الانتداب). ولكن رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى أرجأ التنفيذ الى أن يثبت الجيش أقدامه في المدينتين.

وظلت وفود الفلسطينيين تتجه نحو العواصم العربية تستنجد وتستغيث. بعض أعضاء تلك الوفود كان يعود وبعضهم كان يتخذ من السفر فرصة للابتعاد بنفسه (وبعائلته) عن مواقع الخطر. وذهبت وفود من أهل المدينتين الى عمان. وكان الملك عبدالله يلح على قائد الجيش ان يبذل كل ما في وسعه لانجادهم وتعضيد قوات المناضلين التي تدافع عن المدينتين. ولكن قائد الجيش بين للملك ولرئيس الوزراء أن الجيش الأردني لا يستطيع الاستغناء عن أية قوة لارسالها الى اللد والرملة، وان الجيش – تبعا لذلك – لا يستطيع ان يوسع نطاق عملياته بحيث تشمل المدينتين.

وكان أكثر ما يمكن تقديمه لتعزيز الدفاع عن المدينتين وتقوية معنويات المناضلين المدافعين عنهما – ارسال فصائل المتطوعين الأردنيين وتزويدهم بالبنادق لشد أزر اخوانهم فيهما.

هنا لا بدّ من كلمة عن فصائل المتطوعين الأردنيين الذين سلحتهم قيادة الجيش الأردني بالبنادق وأرسلتهم الى منطقة اللد والرملة. لقد كان أكثرهم – ان لم يكن جميعهم – من أبناء القبائل، وكان عددهم يتراوح ما بين ٢٥٠ – ٣٠٠ متطوع، ويتولى قيادة مجموعاتهم عدد من شيوخهم نذكر منهم جمال المجالي وشبلي صفوق المجالي وفضيل الشهوان (عجارمه) وعودة حامي الأصفر (بني عطية) وفارس المعايطة، وهايل الحديد. وقد كان وصولهم الى تلك المنطقة في أوائل شباط ١٩٤٨. ومن البديهي القول ان الملك عبدالله هو الذي كان وراء تشجيع ابناء القبائل الأردنية على الذهاب الى فلسطين وحث قيادة الجيش

العربي على تزويدهم بالسلاح والعتاد (٦).

ولكن توالي الوفود والاستغاثات، وضغط الملك عبدالله والحاحه، جعلت الفريق جلوب يفكر بوسيلة أخرى لدعم الدفاع عن المدينتين، الا وهي ارسال قوة صغيرة سريعة الحركة تكون بمثابة ظهير للمناضلين المدافعين عن المنطقة. وقد يكون من المرجح ان الذي دفع جلوب الى اتخاذ قراره ذاك، ان اليهود استولوا يوم ٣٠ أيار على موقع رأس العين، وفي اليوم التالي نشبت معركة دامية بين المناضلين وبين اليهود، فتمكن المناضلون من استرداد الموقع ولكن قائدهم حسن سلامه أصيب بجراح لم يلبث ان توفي بسببها. ان أهمية القائد بالنسبة للمجموعات غير النظامية أعظم بكثير منها بالنسبة للوحدات العسكرية النظامية. وربما خشي جلوب ان يكون تأثير مقتل حسن سلامه مماثلا لتأثير مقتل عبدالقادر الحسيني قبل ذلك بخمسين يوما، فاعتزم ان يرسل قوة تحول دون تردي الوضع في المنطقة كلها. وهنا لابد من القول ان منطقة اللد والرملة كانت تغطي ميسرة القوات العراقية في قطاع نابلس من جهة وتغطي ميمنة القوات الأردنية في قطاع رام الله من جهة ثانية، وذلك على مسافة ١٥ ميلا، وكانت سلامتها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للعراقيين والأردنيين. وبعد مقتل حسن سلامه مضى الرسل من المدينتين يستنجدون بقيادة القوات العراقية في الجبهة، ولكن ضباط تلك القيادة كانوا يعتذرون بأن منطقتهم واسعة وبأنهم لا يستطيعون توسيع جبهتهم أكثر واكثر، ثم ينصحون الرسل بالتوجه الى القيادة الأردنية.

وهكذا صدر في ٢ حزيران أمر مستعجل بتأليف قوة مختلطة بقيادة الرئيس برومج أحد ضباط الكتيبة الثانية، وان يكون تشكيل هذه القوة من الوحدات التالية:

- ٣ مدرعات.
- فئة من احدى سرايا الكتيبة الرابعة بقيادة المرشح محمد أمين بركات.
- فئة من احدى سرايا الكتيبة الثانية.
- مدفعان عيار ٦ ارطال.

وكان مجموع رجال القوة نحو ٨٠ جنديا وصف ضابط. ومما يدل على السرعة التي تألفت بها القوة صدور الأمر لقادة الفئات بالاستعداد للحركة في خلال ساعة واحدة من ابلاغهم بذلك.

تجمعت الوحدات بالقرب من مثلث بيت سيرا. ثم تحركت بالسيارات عصرا الى الرملة

حيث اتخذ قائدها من مركز الشرطة بين اللد والرملة مقرا له، وهذا المركز من طراز ابنية (تيجارت) التي أنشأها الانكليز في اثناء ثورة ١٩٣٦ – ١٩٣٨، وهي أشبه ما تكون بالقلاع. اما أفراد الفئات فقد تمركزوا في خنادق أرشدهم اليها المناضلون، على طريق يافا (من الرملة حتى سكنة فانوس). وقد شاهد اليهود المعتصمون في مبنى (ملجأ الرجاء) مجيء هذه القوة فقذفوها في مساء اليوم الذي وصلت فيه بقنابل الهاون وقتلوا اثنين من رجالها وجرحوا ثلاثة. وردت القوة على النار بالمثل وقصفت موقع القوة اليهودية بقنابل مدفعيها ومدافع المصفحات. كانت هذه القوة تمتاز بقدرتها على الحركة السريعة وبكثافة النار التي تملكها، وقد أطلقت عليها قيادة الفرقة اسما رمزيا (شروق الشمس: (Sun Rise) . ثم انها كانت تتميز بروح الهجوم والاقتحام. ومن هنا نرى قائدها يضع بعد يومين من وصوله خطة لمهاجمة مستعمرة (جيزر) الواقعة على مقربة من قرية (البرية) العربية (٤ كيلو مترات شرقي الرملة). ومع ان هذه المستعمرة صغيرة لا تزيد أبنيتها عن عشرة منازل، الا ان حاميتها كانت قبل مدة ارغمت سكان قرية (البرية) على الرحيل عنها. ولم يكن فيها يوم الهجوم سوى أفراد الحامية. وبالفعل بدأت القوة الهجوم في الساعة الخامسة صباحا، فأخذت المدرعات الثلاث تقصف المستعمرة لمدة نصف ساعة ثم تقدم الجنود المشاة والمدرعات أمامهم، وتمكنوا في وجه مقاومة عنيفة من تطهير الخنادق واستحكامات الأسمنت المسلح، بينما تدفق مناضلون كثيرون الى موقع المعركة. وكانت أسلحة أفراد العدو مدفع هاون ورشاشات وبنادق، وهم خليط من الرجال والفتيات. ولم تلبث حامية المستعمرة حتى استسلمت بعد ان سقط عدد من أفرادها بين قتيل وجريح. وكان عدد الذين استسلموا نحو خمسة وثلاثين بينهم ١٧ محاربة. واستشهد اثنان من أفراد القوة الأردنية وجرح هجهوج المجالي في أثناء الهجوم. وقد غنم الجيش العربي جميع الأسلحة التي كانت لدى الحامية. وبينما انصرف المناضلون الى نهب المستعمرة، اصطحب الجنود الأسرى (في حافلة كانت في المستعمرة) وعادوا بهم الى مركز الشرطة. وهنا تم ارسال الأسرى الى قيادة اللواء، أما الأسيرات فقد بقين في مركز الشرطة بضعة أيام الى أن تم تسليمهن حسب تعليمات القيادة – الى مستعمرة بيت شيمن. ولم يلبث ان عاد أهل قرية البرية الى منازلهم والى مستعمرة جيزر وظلوا فيها (الى ان عادت قوات العدو في اثناء الهدنة فأخرجتهم مرة أخرى).

اما المصادر الاسرائيلية فتقول ان وحدة أردنية قامت يوم ١٠ حزيران بمهاجمة مستعمرة (جيزر) بالقرب من خلدة واستولت عليها بعد معركة عنيفة وأسرت جميع من بقي من سكانها على قيد الحياة. وعندما بلغ أسماع ماركوس (قائد قطاع باب الواد) نبأ سقوط المستعمرة بادر الى ارسال وحدة من لواء يفتاح فشنت هجوما معاكسا واستردت المستعمرة. وفي اثناء المعركتين حل دمار كبير بالمستعمرة حتى تحولت الى رماد.

ويجدر بالذكر ان قائد اللواء الرابع انتدب في تلك الفترة الملازم الاول محمود الرفاعي للذهاب الى اللد والرملة، لكي يتولى الاشراف على الأمن وليكون بمثابة ضابط ارتباط بين الجيش العربي والأهلين. وقد اتخذت هذه الخطوة بعد أن قام وفد من الرملة برئاسة الشيخ مصطفى الخيري بزيارة قائد اللواء ومطالبته بذلك. وبقي الملازم الرفاعي يتولى شؤون الأمن في المدينتين الى أن عين و. ق. ادريس سلطان حاكما عسكريا، فانضم اليه.

ابدت القوة الأردنية نشاطا ملحوظا في مناجزة العدو والاشتباك معه، حتى لم يكن ينقضي يوم واحد (على قول عارف العارف) دون ان تشتبك مع العدو في القتال من الساعة الثامنة صباحا حتى العاشرة مساء. وكانت المنطقة التي تتجول دورياتها فيها واسعة نسبياً: من مثلث بيت دجن الى صرفند، ومن قرية النعانة جنوبا الى قرية القباب شرقا، ثم الى منطقة ولهلما شمالا وقرية العباسية وتل لتفنسكي غربا. ووقعت أشد المعارك التي خاضتها في اليوم الذي بدأت فيه الهدنة، اذ قرر قائدها ان يباغت مستعمرة بير يعقوب المحاذية لبلدة صرفند الخراب (الى الغرب من الرملة). وبالفعل تحركت القوة في الساعة الرابعة صباحا بالسيارات من الرملة واللد، ومن هناك نحو المستعمرة. وعندما أصبحت المدرعات على مسافة ١٥٠ مترا من المستعمرة فتحت نار مدافعها عليها، بينما أخذ المشاة يتقدمون والى جانبهم مجموعات من المناضلين. ولكن هذا الهجوم جوبه بمقاومة شديدة، ووقعت اصابات بين الجنود، ولم يتمكنوا من التقدم. وعندئذ أدرك القائد صعوبة الاستيلاء على المستعمرة فأصدر أمرا بالانسحاب تحت حماية نار المدرعات. وفي أثناء ذلك أصيبت احدى المدرعات بقذيفة عطلتها عن الحركة فتقدمت مدرعة أخرى لربطها بالجنزير وسحبها، وقد أصيب أحد جنود المدرعة عند ذلك بطلقة في رجله. وكانت خسارة القوة في تلك المعركة قتيلين واصابة خمسة بجراح. ولم تعرف خسائر العدو. وكان انسحاب القوة قبل بدء الهدنة بنصف ساعة.

بعد بدء الهدنة بثلاثة أيام (١٥ حزيران) حل الملازم الاول نايف الحديد (أحد ضباط الكتيبة الثانية) محل الرئيس برومج في قيادة هذه القوة، وزيد عدد المدرعات فأصبحت ستا، وجيء بمدفعي ٦ رطل آخرين. ويمكن القول ان القوة ظلت تواصل نشاطها في أثناء الهدنة. ففي النهار دوريات سريعة تجوب المنطقة وتضرب أي موقع للعدو يمكن ضربه، وفي الليل تتمركز في مواقع متفرقة. وقد تمكنت القوة من احتلال ملجأ الرجاء في أوائل أيام الهدنة. وكان اليهود أيضا يقومون بنشاط مماثل في المنطقة، لذلك كانت الاشتباكات مستمرة بين الطرفين، وكل منهما يترصد الآخر، ويعمل جاهداً على الايقاع به.

في أواخر حزيران ذهب الفريق جلوب يزور تلك المنطقة. فاستقبله الملازم نايف الحديد بالقرب من معسكر بيت نبالا (معسكر كبير للجيش البريطاني تركه الانكليز عرضة للنهب، ثم تمركزت فيه قوة صغيرة من الجيش العربي لحمايته). وتجول جلوب في المنطقة ولاحظ خطورة المواقع. وفي أثناء ذلك طلب منه قائد القوة تعزيزات جديدة حتى يتمكن من الدفاع عنها، فقال له: عليكم ان تعتبروا أنفسكم قوة انتحارية لحماية الخطوط التي خلفكم، ولا يوجد عندي قوات اضافية ولكنني سأبذل كل ما في الوسع لتعزيزكم.

على أن اعتبارات أخرى أملت على القائد ان يستبدل هذه القوة السريعة الحركة بقوة أخرى من المشاة. من الواضح أن بعض تلك الاعتبارت عسكري وبعضها سياسي. فقد تلقى قائد القوة برقية من قيادة كتيبته بأن يسلم مهمته الى و. ق. ادريس سلطان الذي عين حاكماً عسكريا في منطقة اللد والرملة والى الرئيس أديب القاسم قائد السرية الخامسة. وعادت فئات القوة فانضمت كل منها الى وحدتها الأساسية، وحلت محلها السرية الخامسة المشاة.

هجوم اليهود على غور الصافي

ان من يدرس تفاصيل الحركات العسكرية في فلسطين، يلاحظ ان اليهود بنوا خططهم على أساس اتخاذ مبدأ الهجوم في جميع تلك الحركات، حتى في المواقع والظروف التي تقتضي اتخاذ خطة الدفاع. وخير مثال على ذلك ما بدر منهم في مجموعة مستعمرات كفار عصيون الموجودة في منطقة منعزلة عن مواقع الحشد والتعزيز. كانت للروح الهجومية التي دفعتهم قيادتهم الى انتهاجها فوائد معنوية كبيرة، كما ظهر مع مرور الأيام أنها عادت عليهم بمكاسب عسكرية مهمة.

ومن خلال هذا المبدأ يمكن أن نفهم الهجوم الذي شنوه على مخفر الجيش العربي في غور الصافي، في أراضي شرقي الأردن، صباح يوم ٢ حزيران ١٩٤٨.

لقد سبق ان ذكرنا ان يهود مستعمرة كاليه (في الطرف الشمالي من البحر الميت) انسحبوا بواسطة الزوارق الى مستعمرة اسدوم (في الطرف الجنوبي من البحر الميت)، فأصبحت لديهم هنا قوة لا يستهان بها من المحاربين. وكان سكان المستعمرة وعمال المصنعين القريبين منها يحصلون على حاجتهم من الماء العذب من ينابيع غور الصافي في الضفة الشرقية بواسطة خط انابيب. وعندما بدأت أعمال العداء قام العرب بتخريب الخط فتضايق اليهود من جراء ذلك.

تقوم بناية المخفرعلى هضبة مرتفعة، في الطرف الشرقي – الجنوبي من البحر الميت على بعد نحو ٣ كيلو مترات من الحدود الدولية مع فلسطين وعلى بعد ٧٠ كيلو مترا الى الجنوب الغربي من بلدة الكرك. وكانت في المخفر قوة من فرسان الدرك تتألف من ٢١ دركيا يقودهم الرئيس ابراهيم السحاقات (ابو شلاش). ويبعد هذا المخفر نحو ١٢ كيلو مترا عن المستعمرة اليهودية الواقعة في أراضي فلسطين (اسدوم).

بدأ اليهود حركاتهم بعد غروب شمس يوم ١ حزيران، وقد تقدموا بالسيارات حتى منطقة الحدود الدولية، وهناك ترجلوا وأخذوا يسيرون مشيا على أقدامهم فوق أرض سبخة (رمال ناعمة) لا تستطيع السيارات ان تجتازها، وقد انقسموا الى فريقين: فريق اقترب من المخفر وفريق تسلق سفح الجبل حيث قطع خط الهاتف وقام بزرع الألغام في المضيق الوعر المعروف باسم (المريصد) والذي تمر منه الطريق الوحيدة الصالحة لسير السيارات بين غور الصافي وبلدة الكرك، بقصد الحيلولة دون وصول النجدات أو اعاقتها. وفي الساعات الأولى من يوم ٢ حزيران أخذ رجال الفريقين يقتربون من المخفر حتى أحاطوا به وطوقوه. وقد أحس أحد الخفراء بحركة غير عادية فعمد الى تنبيه القائد وجنوده. ولم يلبث المهاجمون حتى أخذوا يطلقون النار من أسلحتهم الخفيفة. وكانت خيل قوة الدرك على مرابطها خارج البناء، فوجهوا النار اليها حتى قتلت جميعها (نحو عشرين) ولم ينج منها سوى حصان واحد. وبدأت المعركة على أشدها بين القوة المهاجمة وبين حامية المخفر وصمد رجال الحامية وثبتوا بينما أسرع الجندي المختص يبلغ قائد منطقة الكرك بواسطة جهاز اللاسلكي الموجود في المخفر، بعد ان ظهر ان العدو قطع خط الهاتف،

فبادر قائد المنطقة و. ق. نديم رجب يبلغ القيادة في عمان بنبأ الهجوم ويطلب النجدة، ثم تحرك على رأس عدد من جنوده نحو موقع الاشتباك.

لم تكن لدى القيادة في عمان أية قوات عسكرية، فطلب الملك عبدالله من هزاع المجالي ان يذهب الى الكرك ويأخذ معه مائة بندقية وعتادا كافيا لكي يعمل على حشد المتطوعين وانجاد حامية المخفر. ووصل المجالي في مساء ذلك اليوم الى الكرك، فوجد عددا من رجالها في انتظاره فوزع البنادق عليهم، ثم تحرك معهم (نحو ١٥٠) بالسيارات. وعند وصول هذه المجموعة الى غور عسال (المريصد) انفجر أحد الألغام التي زرعها العدو تحت السيارة الأولى فنسفت، ولكن سائقها نجا. عندئذ تسمرت السيارات الأخرى مكانها حتى جيء برجل أرمني له خبرة بالمتفجرات فاستطاع ان يحصر الألغام وأن يفجرها. واستأنفت مجموعة الرجال سيرها حتى أشرفت على الغور. عندئذ بادر المهاجمون اليهود الى الانسحاب تاركين وراءهم بعض البنادق والذخيرة، ورباطات عليها دماء (مما يدل على وقوع اصابات في المهاجمين). ولم تلبث ان وصلت نجدة أخرى من درك الطفيلة بقيادة الرئيس سليمان الساكت، كما وصلت قوة من جنود مخافر الدرك في البلقاء بقيادة الرئيس رفاعي الحمود. هذا بالاضافة الى جموع الأهلين من الكرك ومعان والطفيلة والقرى والمضارب المحيطة بها.

وفي ٨ حزيران وصلت طائرتان (عراقيتان على الأرجح) ولكنهما أخطأتا الهدف. ثم لم تلبث ان وصلت طائرتان أخريان، فقصفتا مواقع العدو وأغرقتا عددا من قواربه. ثم وصل من عمان الزعيم برود هيرست ومعه مدفعان عيار ٢٥ رطلا ومفرزة من الجند بقيادة و. ق. سليد وقام المدفعان بقصف المستعمرة والمنشاءات المحيطة بها قصفاً مؤثراً نتجت عنه حرائق وتهديمات. وفي اليوم التالي أعلنت الهدنة.

كانت خسائر حامية المخفر قتيلين هما النائب زايد رشيد الطوالبة والجندي محمد راشد الحنيطي، وأصيب الجندي ابراهيم عثمان بجراح، هذا بالاضافة الى عدد من أهل الغور المدنيين أطلق اليهود عليهم النار فقتلوا خمسة منهم بينهم امرأتان، وأصابوا عددا آخر بجراح (٧).

عمليات الجيوش العربية الأخرى

١٥ ايار – ١١ جزيران

علقت الأمة العربية آمالها على جيوش الدول المحيطة بفلسطين. وفيما بعد تبين ان كل دولة من الدول العربية كانت تعلق آمالها على الدول الأخرى. كان هناك قدر كبير جدا من الأمل والأمنيات وقدر قليل جدا من الواقعية. وحتى بعد ان أخفق جيش الانقاذ وقوات الجهاد المقدس في الاشتباكات التي وقعت في فلسطين في اثناء الشهور الثلاثة التي سبقت ١٥ ايار – ظل الأمل قائما بأن القوات النظامية سوف توقف اليهود عند حدهم وسوف تكيل لهم الصاع صاعين. ظل الاعتقاد سائدا بان كافة العرب لا بد ان ترجح بعد ان يرحل الانكليز، وبأن منطق الأمور يقضي بتغلب حق العرب على باطل اليهود. ولم يكن هذا الاعتقاد سائدا عند العرب وحدهم، بل ان الرأي العام في العالم كان يعتقد ان المجموعة اليهودية في فلسطين، والتي يقل عدد أفرادها عن مليون نسمة، لا يمكن أن تتغلب على أمة عريقة وعلى شعب يدافع عن أرضه، وعلى جيوش دول قائمة منذ سنين ولكل دولة منها مواردها ومؤسساتها الثابتة.

ولكن الأيام لم تلبث ان أثبتت حقيقة مرة لم يكن العرب يتصورونها، ولم يكن العالم كله يتصورها. لقد ظهر واضحا بعد أسابيع قليلة، ان الدول العربية المعنية:

- لم تكن تعرف قوة العدو الحقيقية.
- لم تكن مستعدة لخوض الحرب، وما تحتاج اليه الحرب من قوات وأسلحة وأموال.
- لم تكن أي منها تملك معلومات صحيحة عن القوة العسكرية الحقيقية للدول الشقيقة الأخرى التي ستدخل الحرب الى جانبها.

سأقدم فيما يلي صورة موجزة عن عمليات كل جيش من الجيوش العربية في خلال فترة القتال الاولى (١٥ ايار – ١١ حزيران ١٩٤٨)، هذا مع التحفظ على كلمة جيش، لأنها لا تنطبق في واقع الأمر على قوة تتألف من بضعة آلاف رجل، وانما درجت العادة على اطلاق هذه التسمية على القوات العسكرية لكل قطر عربي اشترك في الحرب.

القوات السورية

قامت الخطة التي وضعها رؤساء أركان حرب القوات العربية (في الاجتماع الذي عقدوه في الزرقاء في أواخر نيسان ١٩٤٨) على ان تدخل القوات السورية الى فلسطين

من بانياس وبنت جبيل باتجاه صفد والناصرة. ولكن هذه الخطة عدلت في الاجتماع الذي عقده اولئك الرؤساء في دمشق يوم ١٠ ايار، فعين للقوات السورية واجب الدخول الى فلسطين عن طريق القنيطرة والجولان باتجاه بلدة سمخ. وتقول بعض المصادر (دون ان تستند في أقوالها على أساس ثابت موثوق) ان هذا التعديل تم بناء على رغبة الملك عبدالله، بينما تقول مصادر أخرى انه تم بناء على رغبة الفريق جلوب. وهذه بالطبع أقوال أخذت تتردد بعد ان أخفق السوريون في عملياتهم. وما دام ان رؤساء الأركان هم الذين اتخذوا القرار، وما دام ان القيادة السورية وافقت عليه، فالمسؤولية فيه تقع بطبيعة الحال على عاتق اولئك الرؤساء وعلى القيادة السورية. والذي أصدر الأمر فعلا هو اللواء نور الدين محمود، نائب القائد العام للجيوش العربية. (٨)

كان الجيش السوري قد أنشيء حديثا، من الضباط والجنود الذين كانوا يخدمون في عهد الانتداب الفرنسي (وبعضهم في عهد الدولة العثمانية). وكانت أسلحته ضعيفة، ولم يكن لديه من العتاد والذخيرة ما يكفي للقتال أكثر من اسبوع واحد، ولم تكن لدى قيادته معلومات عن القطاع الذي ستحارب فيه.

في ١٥ ايار اجتاز اللواء الأول حدود فلسطين، وكان يتولى قيادته العقيد عبدالوهاب الحكيم. وقد أعطي ذلك اللواء أفضل ما كان لدى الجيش السوري من أسلحة وضباط وجنود. وكان اللواء قد أضطر الى الانتقال – عبر منطقة وعرة – بجنوده وأسلحته، في خلال ثلاثة أيام من مواقعه الأولى الى المرتفعات المطلة على سمخ. ثم بدأ تقدمه بالانحدار الى (الحمة). ولم يلبث أن اشتبك في القتال مع قوات العدو التي كانت استولت على بلدة سمخ وتمركزت في قلعة الشرطة. وقد استمر القتال أربعة أيام حتى تسنى للسوريين السيطرة على البلدة في صباح يوم ١٨ ايار. وباستيلاء السوريين على سمخ انسحب اليهود من مستعمرتي (شعار هاجولان ومسعدة) الواقعتين الى الشرق من نهر اليرموك فاحتلتهما القوات السورية. وقد أسهمت القوات العراقية من مواقعها في جسر المجامع في ضرب مواقع العدو، وساندت السوريين في حركاتهم.

وبعد أن تمركزت القوات السورية في سمخ قامت في يوم ٢١ ايار بمهاجمة مستعمرة دجانيا. ولكنها لم تحرز أي نجاح، اذ قابلها اليهود بنيران مدافع ٦٥ ميلمترا، فأصابت عددا من المصفحات السورية، مما أرغم هؤلاء على ايقاف الهجوم. ومن الغريب ان القوات

السورية لم تلبث ان انسحبت من المستعمرتين، ثم انسحبت من سمخ نفسها بعد اشتباكات محدودة مع العدو. ولم يقم العراقيون بمساندة السوريين عند اشتباكاتهم الأخيرة مع العدو، لأنهم أخذوا في ذلك اليوم ينسحبون من قطاع جسر المجامع الى قطاع نابلس. وهكذ تراجع السوريون الى المرتفعات التي تقدموا منها قبل اسبوع، وظلوا يقفون هناك قبالة حدود فلسطين الدولية حتى ابتداء الهدنة الأولى، بل حتى انتهاء حرب فلسطين. وظهر للمسؤولين في سوريا ما أرتكب الضباط الذين تولوا ادارة القتال من أخطاء أدت الى اخفاق عمليات الجيش العسكرية، فنقل العقيد الحكيم الى دمشق، وعين الزعيم حسني الزعيم رئيسا للأركان مكان اللواء عبدالله عطفه.

على ان قيادة الجيش السوري لم ترض لنفسها هذا الوضع، فقامت قوة من ذلك الجيش يوم ١٠ حزيران (اليوم الذي سبق بدء الهدنة) بعبور جسر بنات يعقوب، جنوبي بحيرة الحولة، وهاجمت مستعمرة كعوش (مشمار هايااردن) واستولت عليها. وكانت تلك المستعمرة الواقعة على بعد ميل واحد من الحدود الدولية، هي رأس الجسر الوحيد الذي احتلته القوات السورية في أراضي فلسطين، والضابط الذي قاد هذه المعركة هو المقدم سامي الحناوي قائد اللواء الثاني.

القوات العراقية

كانت القوة العراقية التي وصلت الى الأردن في بادىء الأمر تحت قيادة الزعيم طاهر الزبيدي، وتتألف من جحفل اللواء الأول بقيادة العقيد نجيب الربيعي، وكانت تدعم هذه القوة ١٢ طائرة من طراز انسون وفيوري.

تحرك أحد أفواج اللواء (القوة الآلية) من المفرق الى منطقة جسر المجامع، بعد ظهر يوم ١٤ أيار. وعند وصول القوة بادرت الى اعتقال الأربعين يهوديا الذين ظلوا في محطة توليد الكهرباء (روتمبرغ) وأخذت تتمركز الى الشرق من النهر قبالة مركز شرطة جيشر (وهو حصن منيع من طراز تيجارت أحيط بالاسلاك الشائكة) ومستعمرة جيشر، اللتين كان اليهود أعدوا أنفسهم فيهما لمقاومة أي تقدم عربي باتجاه بيسان. وعندما شاهد اليهود القوات العراقية تتمركز الى الشرق من نهر الأردن، قاموا بنسف ثلاثة جسور يمكن أن يمر عليها العراقيون وهي الجسر القديم بين نهرايم وجيشر، وجسر روتمبرغ وجسر سكة الحديد.

بدأت القوة العراقية عملياتها في الساعة الخامسة من صباح ١٥ أيار، اذ أخذت سريتا مشاة ومدرعات بعبور نهر الأردن من مخاضة الى الجنوب من جيشر، بينما أخذت الطائرات والمدافع (٢٥ رطلاً وهاون) ورشاشات المدرعات تقصف القلعة. وقد رد اليهود على ذلك بنيران أسلحتهم.

في أثناء النهار (١٥ ايار) تحرك فوج آخر من المفرق الى منطقة المجامع، وبعد غروب الشمس قام هذا الفوج بعبور النهر. وفي صباح ١٦ أيار شنت القوات العراقية هجوما على المستعمرة والقلعة من اتجاهين، ولكنها أضطرت الى التوقف أمام نيران العدو (مدافع هاون ورشاشات وألغام)، وظهر ان قنابل مدافع ٢٥ رطلا لم تؤثر على القلعة والاستحكامات. وجددت القوة هجومها واستطاعت في ساعة العصر ان تحتل محطة القطار في جيشر وقرية المجامع والتلال المشرفة على القلعة من الغرب والجنوب. وفي تلك الليلة حاولت القوة انشاء جسر على النهر، ولكنها لم تستطع لأن العدو كان فتح سدود النهر فارتفع منسوب الماء. ثم وصلت المعدات اللازمة فتم نصب الجسر يوم ١٨ ايار.

واستأنفت القوة العراقية عملياتها في صباح ١٧ أيار ضد القلعة والمستعمرة، وتقدمت سريتان لاحتلال قرية كوكب الهوى الواقعة في التلال المرتفعة الى الغرب، فاستطاعت ان تستولي على أطرافها، بينما استمر تبادل القصف والقتال القريب مع العدو في القلعة والمستعمرة. وتقدمت سريتا مدرعات نحو القلعة حتى أحاطت بها. ثم اقتربت احدى المدرعات من الباب الحديدي. واستمرت المعركة طوال الليل، ونسف المهاجمون جزءاً من الباب ثم انسحبت المدرعة الأمامية والنار تشتعل فيها، وتعطلت أربع مدرعات أخرى عند سياج الأسلاك الشائكة.

في اليوم التالي (١٨ ايار) قام العدو بهجوم معاكس على القوة العراقية في قرية كوكب الهوى، فأوقع بها خسائر فادحة واضطرها الى التراجع، بينما ظلت القوات المحيطة بالقلعة والمستعمرة تتبادل اطلاق النار مع المدافعين عنهما.

ان هذا الاخفاق من جهة والقرار بدخول الجيش الأردني الى القدس (١٨ ايار) دفع قيادة الجيشين العراقي والأردني الى تبديل جبهة القوات العراقية من قطاع جسر المجامع الى قطاع نابلس. ذلك ان الجيش الأردني وجد نفسه مضطراً الى الانسحاب من قطاع نابلس حتى يتمكن من القتال في القدس.

ففي يوم ١٩ ايار عقد اجتماع في عمان حضره الملك عبدالله والأمير عبدالاله وعبدالرحمن عزام والفريق الجبوري واللواء نور الدين محمود والفريق جلوب واللواء عبدالقادر الجندي والزعيم سعد الدين صبور والعقيد محمود الهندي والمقدم شوكت شقير. وفي ذلك الاجتماع اقترح الأردن نقل قوات الجيش العراقي الى منطقة نابلس مع ابقاء قسم من القوة العراقية في منطقة جسر المجامع. واعترض الفريق الجبوري على الاقتراح وبين أضرار تجزئة القوة العراقية الى جزئين وطلب ان تعمل في منطقة واحدة. (هذا مع العلم ان الجبوري ونور الدين محمود كانا يلحان على قيادة الجيش الأردني ان تقوم بعمليات عسكرية في قطاع رام الله وفي منطقة جنين والعفولة في آن واحد!!). ولكن على الرغم من اعتراض الجبوري فان الاجتماع تمخض عن قرار بانتقال القوات العراقية الى قطاع نابلس.

وفي اليوم التالي (٢٠ ايار) عقد في درعا اجتماع حضره الملك عبدالله والرئيس شكري القوتلي والرئيس بشارة الخوري والامير عبدالاله. وكان الاجتماع بدعوة من الرئيس القوتلي وغايته تحقيق التقارب بين رؤساء الدول العربية، وعلى الأخص ازالة النفور بين الملك عبدالله والرئيس القوتلي الناشيء أصلاً عن دعوة الملك عبدالله لتوحيد الأقطار السورية. وقد حضر الاجتماع السادة جميل مردم ورياض الصلح وعبدالرحمن عزام والزعيم صبور.

ان قرار القيادة العراقية (المتفق مع قرار اللواء نور الدين محمود) أدى الى توقف الهجوم على جيشر وعلى كوكب الهوى. وأخذت القوات العراقية تنسحب الى الضفة الشرقية من النهر استعدادا للتحرك الى قطاع نابلس. وقد تضمن القرار ابقاء قوة عراقية في قطاع جسر المجامع (فوج مشاة وبطارية مدفعية وسرية مدرعات) للتصدي لأي هجوم يحتمل أن تشنه قوات العدو من جيشر وبيسان.

بدأت القوات العراقية تتحرك (يوم ٢١ ايار) من قطاع جسر المجامع على طريق اربد المفرق – الزرقاء – عمان – جسر اللنبي – الجفتلك – نابلس. وفي ليلة ٢٣ أيار وصلت طلائعها (القوة الآلية) الى دير شرف وحوّاره في قطاع نابلس. وفي خلال الايام التالية أخذت الوحدات الأخرى تتمركز في جنين وطولكرم وقلقيلية.

وفي الوقت نفسه كانت قيادة اللواء الأردني الأول وكتيبتيه الأولى والثالثة قد انسحبت

من ذلك القطاع الى القدس وقطاع باب الواد، بينما انسحبت قوات جيش الانقاذ واتجهت الى سوريا لاعادة التنظيم.

يجدر بي هنا أن أشير الى طول الطريق التي سلكتها القوات العراقية في اثناء الانتقال من منطقة المجامع الى منطقة نابلس، والتي استغرقت عدة أيام بسبب عدم وجود طرق صالحة في الضفة الشرقية من وادي الأردن، بينما كانت شبكة المواصلات في فلسطين تتيح المجال (أمام القوات اليهودية) لقطع مسافة مماثلة في بضع ساعات.

كما تجدر الاشارة الى ان الفريق الجبوري (رئيس أركان الجيش العراقي) شكا من اتساع منطقة نابلس التي ترتب على القوات العراقية ان تتمركز فيها، وان ذلك الاتساع «حال دون بقاء قوة تستطيع القيام بأعمال تعرضية في تلك الجبهة، بل كانت هذه القوات ليست كافية حتى للدفاع عن هذا القاطع الواسع والخطير». وهذه الشكوى تتناقض مع موقف القيادة العراقية التي كانت تطالب القوات الأردنية الأقل عددا بأن تحارب في القدس وباب الواد ومنطقة رام الله، وأن تقوم في الوقت نفسه بالهجوم على العفولة (٩).

قامت القوات العراقية ابتداء من يوم ٢٨ ايار بغارات على زرعين واللجوّن وعلى مستعمرتي كولم (غوليم) وكفاريونا، واشتبكت مع قوات العدو في قاقون، ووصلت وحداتها الى كفر قاسم ورأس العين. وقد استطاع الرتل الذي وصل الى طولكرم ان يستولي على مستعمرة كولم ويدمرها، ثم هاجم مستعمرة كفار يونا القريبة منها ولكن اليهود حشدوا قوة كبيرة فتمكنوا من صد العراقيين واضطروهم الى الانسحاب من كولم والارتداد الى طولكرم.

وخاضت القوات العراقية معركة مع العدو في جنين، اذ قامت قوة يهودية تتألف من ثلاث كتائب ووحدات أخرى تسندها الطائرات يوم ١ حزيران باحتلال قرى صندلة وجلمة ومقيبلة. وفي اليوم التالي تمكن العدو من احتلال سلسلة التلال الى الجنوب من جنين وقطع الطريق المؤدية الى نابلس، ودخل جنين، فارتدت القوة العراقية التي كانت هناك الى داخل القلعة. وبادرت القوات العراقية الى القيام بهجوم معاكس، فاشتبكت في ٣ حزيران مع العدو في قتال شديد حتى ألحقت به الهزيمة وأرغمته على الانسحاب في صباح اليوم التالي. وقدرت خسائر العدو بما يزيد على ٢٠٠ قتيل عدا الجرحى. وفي الليلة التالية قام

العدو بهجوم ثان استخدم فيه قوات كبيرة، ولكن القوات العراقية دحرت قواته وألحقت بها خسائر فادحة.

حقق الجيش العراقي انتصاراً في معركة جنين، وهي أكبر معركة خاضها مع العدو في حرب فلسطين. الا انه لا مفر من القول ان تلك المعركة كانت دفاعية، بل ان حركات الجيش العراقي كلها كانت دفاعية منذ دخوله الى فلسطين حتى انسحابه منها (باستثناء الهجوم على جيشر الذي مني بالاخفاق).

وفي اثناء معركة جنين طلبت القيادة العراقية من القوات السورية وقوات جيش الانقاذ ان تقوم بمهاجمة مواقع العدو، إلا ان تلك القوات لم تقم بأية حركة.

أما اليهود فقد اعتبروا أنفسهم منتصرين في المعركة، اذ أنهم حققوا هدفهم بتثبيت العراقيين في مواقعهم، وبقبول مبدأ الدفاع، وحالوا بينهم وبين ارسال التعزيزات الى الجيش الأردني في القدس، وأرغموهم على الغاء الخطة التي أعدوها لمهاجمة ناثانيا. كما ان اليهود استولوا على قرية قاقون (بين طولكرم وناثانيا) وردوا الهجمات العراقية المعاكسة لاستردادها. ليس ذلك فحسب بل ان اليهود ظلوا يحتفظون باحدى عشرة قرية استولوا عليها وهم في طريقهم الى جنين وهي: صندلة، مقيبلة، جلمة، زرعين، نورس، المزار، زبوبا، دير غزالة، عربونة، عرانة، فقوعه.

وربما كان من أسوأ الأخطاء التي ارتكبها المسؤولون والقادة العراقيون انهم لم يستعدوا سلفا الاستعداد الكافي لخوض الحرب، ولم يدفعوا بكامل قواتهم الى ميدان القتال منذ اليوم الأول. فبينما وصل جحفل اللواء الأول الى الأردن في ١٥ ايار، نرى ان جحفل اللواء الرابع وصل الى نابلس في ٢ حزيران (وهو الذي خاض معركة جنين ثاني يوم وصوله)، وان جحفل اللواء الثالث وصل الى قطاع نابلس قبيل بدء الهدنة الثانية. وسواء حدث ذلك عن عدم ادراك لخطورة الوضع وضخامة المسؤولية، ام لنقص في كفاءة القيادات العسكرية والسياسية، أم لأن أوضاع الجيش العراقي ودرجة استعداده لم تتيحا له مجال التحرك منذ البداية دفعة واحدة – فقد ضاعت عليه فرصة احراز انتصارات مهمة كان يمكن أن يحرزها لو أنه تقدم بكامل عدده وعدته للهجوم على العدو في الأيام الأولى من الحرب.

القوات اللبنانية

لم يكن عدد أفراد الجيش اللبناني يتجاوز خمسة آلاف بقيادة اللـواء فـؤاد شـهاب. كـانت أسلحة الجيش فرنسية وكان نحو الفين من رجاله يقومون بحفظ الأمن الداخلـي. ان ضـعف الجيش حدا بالحكومة اللبنانية الى اتخاذ خطة الدفاع – أي عدم التقدم عبر حدود فلسـطين. وقيل ان خلافا وقع بين بشارة الخوري رئيس الجمهورية ورياض الصلح رئيس الـوزراء حول اتخاذ خطة الدفاع او الهجوم. وقد نتج عن اتخاذ خطة الدفاع أن الجيش اللبناني أعـار للجيش السوري اربعة مدافع ميدان عيار ١٠٥ ملليمتر.

قامت قوة يهودية في ١٣ ايار بمهاجمة قريـة المالكيـة التـي كـانت فـي أيـدي اللبنـانيين، ولكنها اضطرت الى التراجع. وفي ١٩ أيار قام اليهود بالهجوم مرة أخـرى فاسـتولوا علـى المالكية وقَدَس، الا ان القوات اللبنانية بقيادة المقدم جميـل الحسـامي شـنت يـوم ٦ حزيـران هجوما معاكسا على اليهود في المالكية، فـاضطرتهم الـى اخلائها بعـد معركـة داميـة. وقـد اشترك الفوج الثاني من جيش الانقاذ في هذه المعركة. وعلى الأثـر تقدمـت قطعـات جيش الانقاذ الى الناصرة ومنطقة الجليل.

القوات المصرية

في صباح يوم ١٥ ايار اجتازت القوات المصرية حدود فلسطين، فبلغت مدينة غزة فـي اليوم التالي.وكانت تلك القوات تتألف من لواء مشاة بقيادة اللواء المـواوي. وتقدمـت كتـائب اللواء الثلاث في أراض عربية، فالكتيبة الأولى اندفعت نحو المجدل فبلغتها يوم ٢٢ ايار ثم اتجهت شرقا الى الفالوجه وعـراق سـويدان وبيـت جـبرين، والكتيبـة السادسـة (بقيـادة و.ق محمد نجيب) هاجمت بعض المستعمرات الاسرائيلية في النقب فلـم تتمكـن مـن احتـلال أي منها، فارتدت عنها بعد ان تكبدت الخسائر، ثم تجاوزتهـا ومضـت فـي تقدمها. امـا الكتيبـة التاسعة فقد هاجمت مستعمرة ياد مردخاي (دير سنيد) وخـاضت معركـة ضاريـة اسـتمرت من ١٩ الى ٢٤ ايار حتى تمكنت من الاستيلاء عليها، ولكنها تكبدت في اثناء ذلـك خسـائر جسيمة. وفي ٢٩ ايار تمكنت هذه الكتيبة من بلوغ بلدة اسدود. وقيل ان التقدم الـى اسـدود تم تلبية لطلب قيادة الجيش الأردني من أجل تخفيف الضغط عن القوات الأردنية في قطـاع اللطرون – باب الواد. ولم تلبث الكتيبة الثانية حتى انضمت الـى الكتـائب الثـلاث الأخـرى عبر الطريق الساحلي.

تقدم رتل مصري الى بئر السبع، بينما تقدمت قوة أخرى الى الشمال من المجدل وهاجمت مستعمرة (نيتساليم) واستولت عليها يوم ٧ حزيران بعد معركة حامية. والقوة التي استولت على المستعمرة هي الكتيبة السابعة التي كانت وصلت أخيرا الى ميدان القتال.

خضع تقدم القوات المصرية لاعتبارات سياسية، اذ اهتم رجال الحكم في مصر باذاعة البلاغات عن تقدم قواتهم وتوغلها في أراضي فلسطين. لذلك طالت خطوط المواصلات وتبعثرت الكتائب وانتشرت الوحدات في منطقة واسعة تتناثر فيها مستعمرات حصينة وتهدد مؤخرتها. وعندما وصلت القوات المصرية الى مراكز التحشد اليهودية فضلت ان تتحول شرقاً نحو الفالوجة وبيت جبرين (وهي مناطق لم يكن للعدو أي وجود فيها) بدل ان تستمر في التقدم نحو الشمال لمجابهة القوات اليهودية الرئيسية. إن ذلك إن دلّ على شيء فانما يدل على تجاهل الهدف الأساسي من الحرب – أية حرب – الا وهو تدمير القوة العسكرية للعدو. وسبب هذا يعود الى ان انتشار القوات المصرية لم يبق لدى قيادتها القوة الضاربة التي يمكن ان تقوم بعمليات التعرض والهجوم، وكان أقصى حد وصل اليه المصريون في زحفهم نحو الشمال هو الحد الذي وضعه قرار التقسيم. (١٠)

أما القوة التي وصلت الى قطاع الخليل فكانت تتألف من عدد قليل من الجنود ونصف كتيبة من المتطوعين، وكان عدد من ضباط الجيش المصري يساعدون البكباشي أحمد عبدالعزيز قائد القوة. ولم يؤد وصول هذه القوة الى زيادة فعالية العرب العسكرية في ذلك القطاع، ولكن وجودها كان عبئا على القيادة المصرية، ومبعثا للخلاف بين حكومتي مصر والأردن، وسببا في انقسام الأهلين بين مشايع للمصريين ومشايع للأردنيين.

ولم يقف العدو ساكتا تجاه تقدم القوات المصرية، اذ أخذت وحداته تزحف من مراكزها الرئيسية بالقرب من تل ابيب باتجاه الجنوب، فاستولت على معظم القرى العربية الى الشمال من غزة (ومن جملتها بيت داراس)، ووصلت في زحفها الى حدود بلدة اسدود حيث اصطدمت بالمصريين وحالت بينهم وبين احراز مزيد من التقدم.

وهكذا عندما بدأت الهدنة كانت القوات المصرية قد تثبتت في خط يمتد من المجدل الى عراق سويدان الى الفالوجة الى بيت جبرين. ولكن مواقع الوحدات على ذلك الخط كانت

متباعدة، ولم تكن وراءها قوات ضاربة تسندها، وهذا ما أتاح للعدو مجال اختراقها فيما بعد.

* * *

من المهم – ما دمنا في صدد الحديث عن حركات الجيوش العربية وفعالياتها في فترة القتال الأولى – ان نشير الى ان اللواء نور الدين محمود أعفى نفسه يوم ٨ حزيران من واجب القيادة العامة، بعد ان تبين له بوضوح ان كل جيش كان يتصرف على هواه ولا يلقي بالا لأوامر تلك القيادة وتوجيهاتها. وفي التقرير الذي كتبه في ذلك اليوم حول سير حركات الجيوش العربية في فلسطين نراه يعلن بصراحة «**ان الجيوش العربية في الحال الحاضر قد انتقلت من خطة الهجوم الى خطة الدفاع، وان القوات العراقية بدورها لا تتمكن من القيام بأي عمل تعرضي بمفردها... ولا يؤمل انتقال الجيوش العربية الى حركات هجومية خلال الأيام القليلة القادمة ما لم تضاعف قوات الجيشين المصري والأردني**».

ان هذا التقرير مفيد جدا للاجابة على حجج القائلين بأن الهدنة الاولى ألحقت الضرر بالعرب، وبأنها كانت خطأ فادحا، لأن نور الدين محمود كان على اطلاع وثيق على مواقف الجيوش العربية وأوضاعها، وفي وضع أفضل من غيره لتقدير الموقف العام لتلك الجيوش.

اعلان الهدنة

لا بد لنا من العودة قليلا الى الوراء، لكي نتعرف على الأسباب التي أدّت الى اعلان الهدنة والى قبول العرب بها.

ففي ١٧ نيسان أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً دعا فيه جميع الدول الى حظر شحن السلاح والأعتدة الحربية الى فلسطين. وقد التزمت بريطانيا وامريكا بهذا القرار وامتنعتا عن تزويد الأطراف المتنازعة في فلسطين بالسلاح والعتاد. كان من الطبيعي ان يتأثر العرب أكثر من غيرهم بمفعول هذا القرار، لأن مصر والعراق والأردن كانت تسلح قواتها العسكرية بأسلحة من صنع بريطاني، ولان العتاد الذي كانت تستعمله كان يرد من بريطانيا. وطالب العرب بريطانيا أن تفي بالتزاماتها لهم ولكن بريطانيا أبلغتهم أنها لا

تستطيع، وحجتها في ذلك ان تزويدها العرب بالسلاح سيؤدي الى تزويد أمريكا لليهود ايضا بالسلاح، (بفعل ضغط الفئات المتعاطفة مع اليهود في امريكا).

كان لهذا القرار تأثير كبير على العرب، اذ كانوا اعتادوا على الحصول على السلاح والعتاد من بريطانيا، ولم تكن لديهم الفعالية الكافية للقيام باجراءات ناجعة للحصول على ما يحتاجون اليه من مصادر أخرى. وهكذا أخذوا يستهلكون ما لديهم دون ان يعوضوا النقص، بينما الاستمرار في الحرب يحتاج الى سيل لا ينقطع من السلاح والعتاد. اما العدو فقد أخذ يعد عدته ليوم الصدام المرتقب منذ صدور قرار التقسيم، وأخذ يجمع الأموال من امريكا ويبتاع السلاح والعتاد من اوروبا، بفعالية لم يكن للعرب شيء منها.

وبعد نشوب القتال اتخذ مجلس الأمن في ٢٠ ايار قراراً بتعيين الكونت فولك برنادوت (من الأسرة المالكة في السويد) وسيطا من قبل هيئة الأمم المتحدة بين العرب واليهود، ومهمته التوفيق بين الفريقين والتوصل الى حل لمشكلة الصراع في فلسطين.

وفي ٢٢ ايار اتخذ مجلس الأمن قرارا يدعو العرب واليهود الى ايقاف القتال في خلال ٣٦ ساعة، فقبل اليهود القرار اذ كانوا في ضيق شديد في القدس وخاصة في الحي اليهودي داخل الأسوار. اما العرب فقد رفضوا القرار لأنه لا ينص على الغاء قرار التقسيم.

ثم اتخذ مجلس الأمن قرارا آخر في ٢٩ ايار (باقتراح من بريطانيا) يأمر جميع الفرقاء في فلسطين بايقاف القتال وعقد هدنة بينهم لمدة أربعة اسابيع يعمل برنادوت خلالها على التوفيق بينهم. وطلب مجلس الأمن من العرب واليهود ان يعلموه في موعد أقصاه ١ حزيران عما اذا كانوا يقبلون هذا الأمر أم يرفضونه، حتى اذا ما رفضه أي منهم بحث المجلس في تطبيق العقوبات التي نص عليها ميثاق هيئة الأمم المتحدة.

واجتمع سياسيو العرب وقادتهم في عمان يوم ١حزيران لدراسة الوضع واتخاذ قرار بقبول الهدنة أو رفضها. كان رياض الصلح وجميل مردم من أكثر المتحمسين للاستمرار في الحرب مهما كانت النتائج. هذا مع العلم ان لبنان وسوريا كانتا أشد الدول العربية ضعفا من الناحية العسكرية. وقد درس اولئك الزعماء جميع الاحتمالات، وأخذوا بعين الاعتبار أقوال القادة العسكريين بأن قواتهم لا تملك كميات كافية من العتاد. وانتقل اولئك الزعماء في اليوم التالي الى بلدة عالية (٢ حزيران) لاستئناف المداولات، وهناك اتخذوا قرارهم

بالموافقة على الهدنة، وأبلغوا مجلس الأمن في اليوم ذاته انهم يقبلون قراره (١١).

بذل برنادوت نشاطا فائقا في مساعيه لاقناع الطرفين بقبول الهدنة، فقد وصل الى القاهرة في ٢٨ ايار، ثم وصل الى عمان في ١ حزيران واجتمع مع الملك عبدالله. وكان لجهوده الحثيثة أثر كبير في موافقة الجانبين على عقد الهدنة. وبعد موافقة الجانبين عمد مجلس الأمن الى تخويل برنادوت صلاحية تعيين موعد ايقاف القتال بعد استشارة الفريقين واعضاء لجنة الهدنة. ونتيجة لكل هذا تم الاتفاق على ان تبدأ الهدنة في الساعة الثامنة بالتوقيت المحلي (اي الساعة السادسة بتوقيت جرينتش) من صباح يوم الجمعه ١١ حزيران. وكان ذلك يعني ان اسابيع الهدنة الأربعة سوف تنتهي يوم ٩ تموز.

تضمن قرار مجلس الأمن أمراً للوسيط الدولي بان يراقب الفريقين في اثناء فترة الهدنة ويتأكد من قيامهما بتنفيذ الشروط التي قامت الهدنة على أساسها. ومن أجل ذلك ألحق المجلس ببرنادوت فريقا من الضباط لكي يساعدوه في مراقبة الطرفين والتأكد من تقيدهما بشروط الهدنة.

نصت بنود الهدنة كما اقترحها برنادوت على جملة مبادىء أهمها:

- لا يجوز لأي فريق أن يدخل خلال فترة الهدنة رجالا مقاتلين الى فلسطين ومصر والعراق ولبنان وسوريا والسعودية والأردن واليمن.
- عدم استيراد أي نوع من الأسلحة من قبل الطرفين المتحاربين.
- عدم استغلال الهدنة لتقوية المقدرة الحربية عند الطرفين.
- تقوم منظمة الصليب الأحمر الدولية بالاشراف على تزويد القدس بالماء والمؤن خلال فترة الهدنة، وتستعمل طريق تل ابيب – القدس لهذه الغاية.

كان أهم أساس للهدنة ان لا يحصل أي طرف على مكاسب عسكرية في أثنائها. وقد أكد برنادوت للعرب ان منظمة الصليب الأحمر سوف تشرف على مرور سيارات المواد الغذائية بحيث لا يصل الى اليهود الا ما يكفيهم في فترة الهدنة فقط.

بناء على هذا كله أرسل النقراشي رئيس وزراء مصر في ٩ حزيران الى برنادوت، رسالة عن حكومات مصر والعراق والسعودية ولبنان وسوريا والأردن بالموافقة على مقترحاته « لنبرهن على رغبتنا الصادقة في التعاون مع هيئة الأمم لوضع حل سلمي عادل لقضية فلسطين». وفي اليوم نفسه تلقى برنادوت رد حكومة اسرائيل بالموافقة على وقف القتال بحسب الشروط التي اقترحها.

يجدر بي هنا أن اتساءل عن الأسباب التي حدت بساسة الدول العربية الى الانصياع لقرار مجلس الأمن والموافقة على عقد الهدنة مع العدو، وان اتساءل عما اذا كان ذلك القرار صائبا ام خاطئا.

معظم العرب الذين كتبوا عن الوضع عند اعلان الهدنة اعتبروا ان القوات العربية كانت في موقف عسكري جيد، وان استمرار القتال كان من مصلحة العرب.

ولكن الان وبعد مرور ثلاثة وثلاثين عاما على تلك الأحداث (١٢)، يستطيع الباحث ان يتساءل عن المكاسب الحقيقية التي أحرزها العرب خلال ٢٧ يوما من القتال. واذا صح ان تدمير قوة العدو هو الهدف الرئيسي لكل جيش يدخل ميدان القتال، فاننا نلاحظ ان العرب لم يتمكنوا من تحقيق ذلك الهدف ولو جزئيا. واذا صح ان دحر العدو عن مواقع يتمركز فيها هو هدف من الأهداف المهمة – فاننا نلاحظ ان العرب لم يستولوا الا على الحي اليهودي في القدس القديمة وعلى عدد قليل من المستعمرات النائية المعزولة (وبعد قتال مرير ومعارك ضارية) بينما استولى العدو على العديد من المدن والقرى العربية (بسهولة نسبية)، وكان هو البادىء بالهجوم في كثير من المعارك. والأراضي التي تمركزت فيها قوات مصر والأردن والعراق كانت في أيدي العرب عند دخول تلك القوات، بينما وقفت القوات اللبنانية على الحدود، وارتدت قوات سوريا عن سمخ منذ الأيام الاولى للقتال وظلت على الخطوط الدولية الى ان استولت على مستعمرة مشمار هاياردن قبل بدء الهدنة بيوم واحد.

والقوات المصرية استولت على مستعمرتين من مجموع ١١ مستعمرة مرت بها، ثم توقفت عندما وصلت الى المناطق التي خصصها قرار التقسيم لليهود، حيث واجهت مقاومة صلبة. بل إن قوات العدو استولت من ايدي القوات المصرية على قرى عسلوج وكوكبة والجسير وعبديس وجوليس ومواقع اخرى، وكلها ذات أهمية حربية. (١٣)

وفي اعتقادي ان قادة العرب ما كانوا ليوافقوا على الهدنة لو ان كفتهم كانت الراجحة بالفعل.

كانت فترة القتال الأولى أفضل فرصة أتيحت للعرب من قبل ومن بعد في فلسطين. ولكنهم لم يستعدوا لها الاستعداد اللازم: أي انهم لم يدفعوا بكل ما لديهم من قوات عسكرية

عبر الحدود في اليوم الأول من بدء القتال (فيما عدا الأردن، الى حد ما). وضاعت الفرصة.

اما القول بأن اليهود استغلوا فترة الهدنة لجلب مزيد من السلاح والطائرات والمعدات فصحيح الى حد ما، لان السلاح الذي ابتاعوه كان يرد اليهم في اثناء فترة القتال وكان سيستمر في الوصول لو استمر القتال ولم تكن هناك هدنة.

السؤال الذي تصعب الاجابة عليه بصورة قاطعة يتعلق بالقدس: فلو لم تكن هناك هدنة: هل كانت القدس الجديدة تستطيع الصمود أم لا؟

كانت الجيوش العربية تعاني من مشاكل عديدة برزت واضحة عندما أخذت تخوض معارك الحرب مع العدو. وكان النقص في العتاد أهم تلك المشاكل لان الدول العربية لم تستطع استيراد العتاد اللازم من أي مصدر، بعد ان توقفت بريطانيا عن تزويدها به. وقد بلغ من شدة تأثير ذلك النقص ان الحكومة المصرية عمدت في شهر أيار الى مصادرة حمولة سفينة من عتاد مدافع ٢٥ رطلا بعد أن أبحرت السفينة من السويس الى العقبة.

هذا في وقت كان اليهود يكدسون أثناءه تلالاً من الذخيرة. (مما سنعرض له فيما بعد).

ان الجيوش العربية – مجتمعة ومنفردة – لم تستطع تحقيق أي انتصار ذي أهمية حقيقية، كأن تستولي على مدينة من مدن اليهود المهمة، أو على الأقل تسترد مدينة من المدن العربية التي استولى اليهود عليها. ولقد أخفق الجيشان المصري والأردني في تأمين الاتصال بينهما الى الشمال والغرب من القدس، عندما عجزا عن الاستيلاء على الشريط الضيق الذي كان لليهود بين القدس وتل ابيب. في الواقع ان ذلك الشريط أصبح في نهاية فترة القتال أكثر اتساعا مما كان عليه في ١٥ أيار، لان اليهود استولوا على عدد من القرى العربية في ذلك الشريط، ورحل سكان قرى أخرى عنها فتقدم اليهود اليها.

وفي ١٧ حزيران أدلى اللواء نور الدين محمود بايضاحات أمام لجنة فرعية للجامعة العربية، في القاهرة، جاء فيها ما يلقي ضوءا على وضع القوات العربية، وعلى الأسباب التي كانت وراء قبول العرب بالهدنة، وقد جاء في تلك الايضاحات ان « المرحلة التي اجتازتها الجيوش العربية حتى الان تعتبر مرحلة تحشد ومسير اقتراب، وانها في تقدمها وعملها هذا لم تلاق مقاومة تذكر او بالأحرى لم تصطدم بحصون العدو القوية ما عدا وحدات الجيش الأردني العاملة في منطقة القدس، وان المرحلة الثانية سوف لا تكون بهذه

السهولة، وسوف تتطلب تضحيات بالمال والرجال، ويحتمل ان تكون صعبة ووعرة جدا..». وبيّن نور الدين محمود أن الجيوش العربية «انتقلت في الوقت الحاضر من وضع المهاجم الى وضع المدافع لعدم وجود قوات احتياطية كافية تمكنها من استئناف الهجوم أو التقدم...».

في تقرير نور الدين محمود هذا حقائق ولكنها ليست كل الحقائق، فاليهود لم يلجأوا الى موقف الدفاع الا في حالات ومواضع محدودة، وكان الطابع العام لعملياتهم هجوميا. في القدس وباب الواد كان اليهود هم المهاجمون لان كلا الموقعين كان قريبا من مراكز العصب الحساسة بالنسبة لهم. وعندما ارتدت القوات العراقية عن جيشر وأخذت تحتشد في قطاع نابلس بادروا الى مهاجمة جنين. وبعد اشتباك محدود في سمخ اضطرت القوات السورية الى الوقوف موقف الدفاع. اما الجيش المصري فكان يتقدم في مناطق بعيدة عن مراكز العصب الحساسة لليهود.

وفي الحروب ليس المهم التقدم هنا وهناك، بل المهم تدمير قوات العدو، أو تجزئتها، أو قطع طرق تموينها وامدادها. على ضوء ما تقدم نستطيع ان نرى أن القوات العربية في خلال ٢٧ يوما من القتال، لم تستطع أن تضرب العدو ضربة خطيرة واحدة. ومع ان اليهود فقدوا عددا قليلا من مستعمراتهم (كفار عصيون، النبي يعقوب، الحي اليهودي في القدس القديمة، ياد مردخاي، نيتساليم، مشمار هاياردن)، الا انهم على العموم صمدوا في وجه القوات العربية، واستطاعوا ان يحسنوا خطوطهم عن طريق الاستيلاء على عدد من المدن العربية وعشرات من القرى. ومنذ أن بدأت الحرب، لم يكتفوا بالدفاع عن مستعمراتهم، داخل مشروع التقسيم، بل أخذوا يعملون على التوسع واحتلال المزيد من المواقع. فمن وجهة نظر اليهود: لم يعد قرار التقسيم ملزما لهم بعد ان رفضه العرب، وان الحرب فتحت أبواب فلسطين من جديد للفريقين لكي يكسب كل منهما ما يستطيع كسبه من أرضها.

وجاء في تقرير الوفد البرلماني العراقي الذي زار جبهات القتال، عن الدور الأول للحرب ما يلي:

«في هذا الدور استبسل الجيش الأردني في قتال القدس وباب الواد واللطرون، والجيش العراقي في جنين، والجيش السوري في مشمار هايردن. قاتلت هذه الجيوش قتال الأبطال

وضحت بكثير من ضباطها وجنودها في ميدان الشرف. وتقدم الجيش المصري الى اسدود وقاتل قتالا عنيفا وضحى كثيرا أيضا...» (١٤)

اما تقرير لجنة التحقيق النيابية (العراق) في قضية فلسطين فيقول «.. ان الجيوش العربية تمكنت في أول الأمر من التوغل في المناطق التي تقدمت فيها والتي كانت مناطق عربية في الغالب، ولكنها جابهت مقاومة عنيفة عند تقدمها في المناطق اليهودية، وان اليهود استماتوا في الدفاع عن مستعمراتهم، كما ان استحضاراتهم لمجابهة هذ الحركات ووجود قوات مدربة وغير قليلة لديهم مكنهم من الدفاع في مختلف المناطق في وقت واحد، ومن القيام في الوقت نفسه بهجمات مقابلة لاسترداد المواقع التي خسروها في بادىء الأمر» (١٥).

وفي هذا الصدد لابد من الاشارة الى أن كثيرين من الضباط الأردنيين ما يزالون يعتقدون ان قبول العرب للهدنة الاولى كان خطأ فادحا من وجهة النظر العسكرية، ومن هؤلاء المشير حابس المجالي. ويقول اللواء صادق الشرع ان تلك الهدنة ألحقت الضرر بالعرب فعلا لان اليهود تمكنوا عن طريقها من تزويد مدينة القدس – التي كانت على وشك الانهيار – بالمؤن والسلاح والعتاد، كما تمكنوا من تزويد مستعمرات النقب بالأسلحة والذخائر والمؤن. وهو يرى انه لولا تلك الهدنة لما استطاع اليهود الاستمرار طويلا في شن عمليات عسكرية واسعة النطاق، ولما استطاعوا الصمود في القدس الجديدة.

وأخيراً تجدر الاشارة الى نظرية شغلت أفكار كثيرين من العرب، وهي أن القوات العربية لم تضع خططها على أساس مهاجمة اليهود داخل حدود التقسيم. ومن خلال هذه النظرية، اتجه معظم النقد الى الجيش الأردني. إنني لا أشك في أن النظرية تفرعت في الأصل عن حملات الدعاية التي شنها العرب الذي منوا بالاخفاق أكثر من غيرهم في تلك الحرب. والحقيقة أن اخفاق العرب لم يكن ناشئاً عن نشوب معارك الحرب خارج حدود التقسيم أو داخل تلك الحدود، بل عن أن قواتهم العسكرية لم تكن كافية لقهر القوات اليهودية. ولو كانت لدى العرب قوات عسكرية متفوقة، لما كان هناك فرق في كسر شوكة العدو والحاق الهزيمة به – سواء تحقق ذلك خارج حدود التقسيم أو داخله.

حواشي الفصل الخامس

١- كانت فئات هذه السرية تتمركز في نابلس وجنين وطولكرم، منذ شباط ١٩٤٨ لمساعدة الشرطة الفلسطينية على حفظ الامن بعد انسحاب الانكليز، ومجموع افرادها نحو ٢٠٠ جندي وضابط. وفي يوم ٢٤ ايار سلمت السرية مواقعها الى القوات العراقية وأخذت تعمل على تنفيذ أوامر القائمقام جولدي (قائد اللواء الاول) بأن تتحرك الى القدس. ولما لم يكن لدى السرية وسائط نقل فقد اضطر قائدها ان يحجز نحو عشرين سيارة شحن ويحمل جنوده عليها الى القدس عن طريق رام الله بيتين – غور الاردن – الخان الاحمر – جبل الزيتون. وهذا يعطي دليلا آخر على خطورة الوضع في حي الشيخ جراح.

٢ – عندما تراجع الجنود الى الخلف سمع بركات الجندي الجريح يصيح به قائلا: لا تتركني يا ابو فواز. فذهب اليه وطلب منه ان يتراجع معه، فقال انه لايستطيع السير على قدميه. واقترح عليه ان يحمله فلم يقبل. خشي بركات أن تدب الفوضى بين جنوده اذا لم يكن على رأسهم فسار نحوهم بضع خطوات، ثم خطر له ان الجريح قد يظن انه فر طلبا للنجاة وتخلى عنه فيتحدث للناس بذلك فيما بعد، فعاد أدراجه نحو الجريح. وفي اثناء عودته أطلق عليه أحد جنود العدو النار من بندقيته فأصيب في ركبته. وتحامل على نفسه وعاد الى الوراء حتى اتصل بزملائه قادة الفئات وأخبرهم بأمر الجريح، ثم اغمي عليه.

٣ – قطع الأطباء رجل عبد الكريم من فوق الركبه. وفي تلك الاثناء سقطت قنبلة على المستشفى، قتل من جرائها الممرض فرنسيس الذي حمله الى غرفة العمليات. ذات ليلة زاره الامير عبدالاله ومعه عبد الله التل. ثم نقل الى الزرقاء وقص الاطباء رجله مرة اخرى. بقي سنة ونصف يعاني الالآم المبرحه. كان قبل بدء القتال قد عقد خطوبته على احدى الفتيات وفي المستشفى اخذ يتساءل هل تقبل خطيبته ان تتزوج منه بعد قطع رجله. لكنه شفي وركب له الجيش رجلا اصطناعية وبقي في الخدمه حتى عام ١٩٦٦ وتزوج عبد الكريم وأنجب عدة ابناء.

٤ – ارجو ان يلاحظ القارىء ان الكتيبتين الخامسة والسادسة لم تكونا قد تألفتا رسميا في خلال الفترة الاولى للقتال (١٥ أيار – ١١ حزيران)، واطلاق اسم ((كتيبه)) على سرايا المشاة: الاولى والسادسة والثامنة من جهة، والثانية والرابعة والتاسعة، ليس الا من قبيل التجاوز وعلى اعتبار ما سيكون.

بقية الحواشي في صفحة ٣٣٧



توفيق ابو الهدى



الفريق كلوب



عبد القادر الجندي



احمد صدقي الجندي



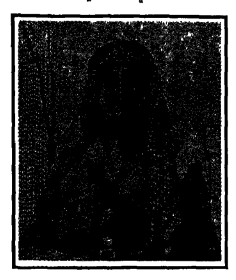
حابس المجالي



علي الحياري



محمد المعايطه



عبد الله التل



صادق الشرع



محمد خلف العمري



هـ. ف. سليد

ادريس سلطان



عزت حسن

فواز ماهر



نايف الحديد



عبد الرحمن الفراهيد



عبد الحليم الساكت

عامر خماش

قاسم الناصر

عبد الله السالم النمري

حمد عبد الله ابو دخينه

عكاش الزبن



محمود الموسى



محمود الروسان



خالد الصحن



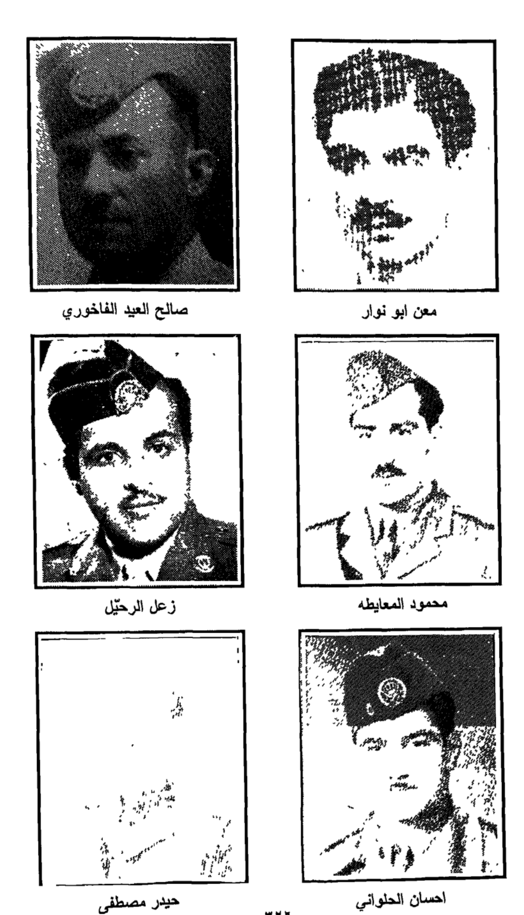
علي ابو نوار



محمد هاشم



عبد الكريم الدباس



صالح العيد الفاخوري

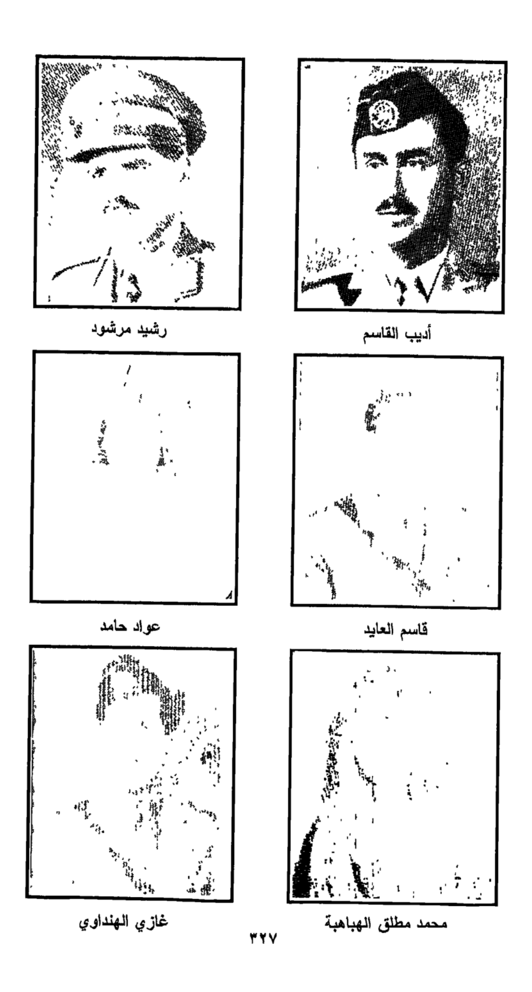
معن ابو نوار

زعل الرحيّل

محمود المعايطه

حيدر مصطفى

احسان الحلواني



أديب القاسم

رشيد مرشود

قاسم العايد

عواد حامد

محمد مطلق الهباهبة

غازي الهنداوي



نواف الجبر الحمود



غازي الحربي



محمد علي الأمين



مصطفى ابراهيم الشوبكي



فناطل ثنيّان



توفيق القسوس



عباطه عيد



محمد المحاسنه



محمد كساب



نصر احمد الشبول



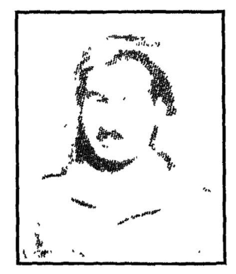
عبد الرزاق الشريف



هديبان عوده حداد



رقيفان خالد الخريشا



اميل جميعان



حمدان صبيح البلوي



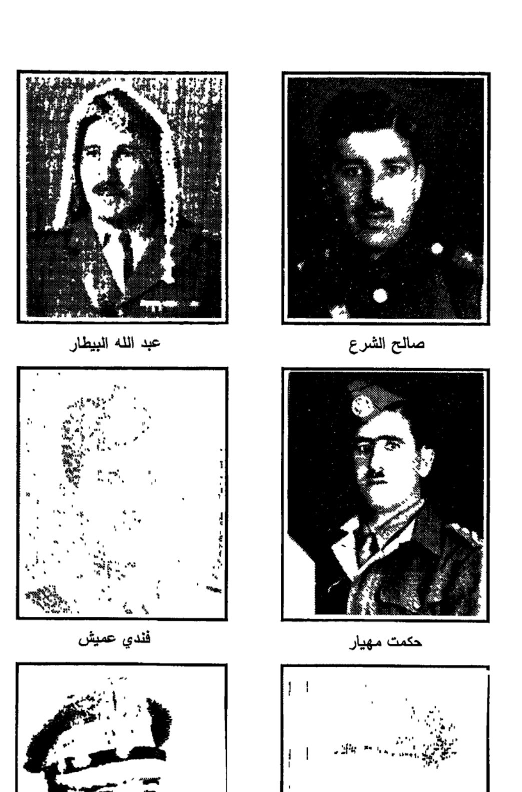
ضرغام الفالح



سالم شبيكان



محمد السحيم



صالح الشرع

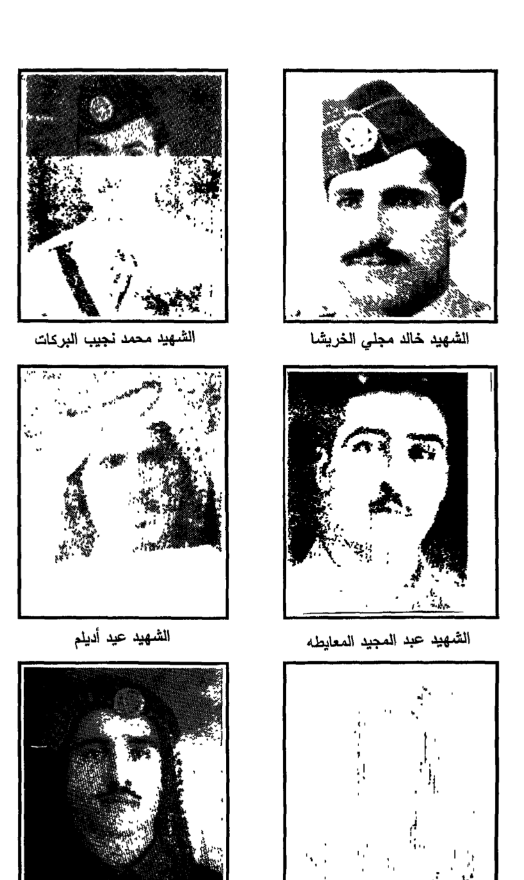
عبد الله البيطار

حكمت مهيار

فندي عميش

عبد الرزاق عبد الله

مشهور حديثه الجازي



الشهيد خالد مجلي الخريشا

الشهيد محمد نجيب البركات

الشهيد عبد المجيد المعايطه

الشهيد عيد أديلم

الشهيد عبد الله فلاح

الشهيد وديع قسطندي



صلاح عزيز اباظه

الشهيد اسحق مهاجر

عبد الحميد جويحان

الشهيد زايد رشيد طوالبه

عبد الكريم مسلم الشوبكي

الشهيد صالح الحواتمه



الرئيس نايجل برومج.
الرئيس محمد احمد سليم
الرئيس عكاش الزبن
و. ق. راضي الهنداوي
القدس ١٩٤٩.



الرئيس عبد الغني الجبور، كامل عريقات (قائد قوات الجهاد المقدس في منطقة الخليل) الزعيم صالح المجالي (الحاكم العسكري لمنطقة الخليل).
(العرّوب - ١٩٤٩/٤/٢٨).



الملازم أول عكاش الزبن
الملازم أول عز الدين يوسف بيشه
الملازم أول نايف الحديد.
معسكر العلمين، القدس – ١٩٤٦.



و ق محمد المعايطه قائد الكتيبة السادسة و ق عبد الله التل حاكم القدس العسكري. الرئيس
قسيم محمد قائد السرية الثانية القدس – ١٩٤٨.



الرئيس قسيم محمد قائد السرية ١٢ الرئيس فواز ماهر قائد السرية الثانية الملازم أول مشرف حسن (السرية الثانية)



من اليمين : الملازم أول أميل جميعان، الرئيس أديب القاسم، الملازم أول محمود الروسان،
الملازم أول الدكتور يعقوب أبو غوش، الملازم أول علي الخضرا (رام الله - أيلول ١٩٤٨)

٥ - حدثني بهذا الزعيم المتقاعد راضي الهنداوي، الذي كان يومذاك ضابط ركن في العمليات الحربية في قيادة الجيش. وقد كانت للعراقيين مدافع بعيدة المدى غير بعيد عن القدس (في موقع الجيب)، ولكنهم لم يكونوا يستعملونها الا قليلا ربما لنقص العتاد.

٦ - انظر ايضا كتاب أليك كركبرايد: صفحة ٤٥ : From the Wings

٧ - كتب عن هذه الحادثة اثنان: هزاع المجالي (مذكراتي ص ص ٧٠-٧٣)، وعارف العارف (النكبة: الجزء ٣ ص ص ٥٢٢-٥٢٣). والفرق في معلومات المصدرين كبير. ومن الغريب ان العارف يذكر ان قوة العدو المهاجمة كان لديها اربع دبابات ومدافع هاون وراجمات الغام وان ثلاث طائرات أردنية مقاتلة حلقت في الجو، وأن العدو كان لديه في المستعمرة ١٥٠٠ مقاتل، وان الهجوم شنته ثلاث سرايا قوامها ٦٠٠ محارب، وأن قوة العدو تركت وراءها أكثر من ٤٠ قتيلا. (وفي هذا كثير من المبالغة وعدم الدقة). ومن المعروف أن الأردن لم يكن يومذاك يملك طائرات مقاتلة أو غير مقاتلة. ويقول كركبرايد - الذي كتب عن الحادثة أيضا - أن اليهود نهبوا عددا من رؤوس البقر والماعز، وتركوا وراءهم جثة احدى فتياتهم المحاربات.

٨ - على حد قول الفريق صالح صائب الجبوري (في مقابلة لي معه يوم ٢٥ آذار ١٩٨١) ان الفريق جلوب أثر على اللواء نور الدين محمود، فاصدر هذا أمره الى القوات السورية لتبديل الموقع الذي ستدخل منه الى فلسطين. وازاء هذا يبقى علينا ان ننتظر نشر مذكرت نور الدين محمود، لعلها تكشف عن الحقيقة.

٩ - عندما سألت الفريق الجبوري عن هذا التناقض كان جوابه: كان اعتمادنا كبيرا على الجيش الأردني لأنه جيش مدرب ومستعد، وكنا نعتقد انه يستطيع القيام بهذه العمليات. وهذا الجواب في رأيي يعطي دليلا آخر على طريقة تفكير قادة الجيوش العربية يومذاك، اذ كان من البديهي ان يكون القادة العراقيون على معرفة وثيقة بحجم القوات الأردنية وقدراتها.

١٠ - جاء في يوميات جمال عبدالناصر (ركن الكتيبة السادسة) ان هم القيادة المصرية كان يومذاك «أن تحتل أكبر مساحة من الارض. وكانت النتيجة ان الكتائب الأربع توزعت على خطوط طويلة، وأصبحت قواتنا المبعثرة لا هم لها الا حماية نفسها ومواصلاتها. ولم يكن تحت تصرف القيادة احتياطي متحرك... لم نكن نحارب كجيش، وانما تحولنا بعد دخول فلسطين الى جماعات

متفرقة على مراكز واسعة الانتشار. وكانت النتيجة ان العدو نجح في تثبيتنا فيها، واحتكر لنفسه حق الحركة وحشد القوات والهجوم علينا من حيث يريد...».
يوميات عبدالناصر عن حرب فلسطين: منشورات مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، باريس، ١٩٧٨، صفحات ٣٢ - ٣٤.

١١ - جاء في رسالة بعث بها رياض الصلح الى مزاحم الباججي رئيس وزراء العراق بتاريخ ١٤ آب ١٩٤٨ قوله «إن ممثلي شرق الأردن أبلغونا قبل قرار مجلس الأمن وعند الاجتماع في عاليه، ان شرق الأردن لا يمكنه ان يرفض قرار هذا المجلس حتى ولو رفضته جميع الدول العربية... القيادة العراقية أعلنت عندئذ أن الجيش العراقي في حالة انسحاب الجيش الأردني ينسحب هو أيضا من الميدان دون ريبة».

١٢ - كتب هذا سنة ١٩٨١.

١٣ - يقول حاييم هيرتزوغ في كتابه (الحروب العربية الاسرائيلية) انه كان لليهود ٢٧ مستعمرة في جنوب فلسطين وصحراء النقب وان المصريين استولوا على ثلاث منها: كفار داروم، ياد مردخاي ثم نيتزانيم.

١٤ - قدم هذا التقرير الى رئيس وزراء العراق في ١٥ آب ١٩٤٨.

١٥ - مطبعة الحكومة العراقية، بغداد، ١٩٤٩، صفحة ٢٠٠. وهو في ٢٢٦ صفحة من القطع الكبير.

الفصل السادس

أيام الهدنة الأولى

رأتني كأشلاء اللجام ولن ترى ... أخا الحرب إلا ساهم الوجه أغبرا

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

حاتم الطائي

اتجاهات أمريكا وبريطانيا

من البديهي القول أن الولايات المتحدة الأمـير كيـة وبريطانيـا كانتـا أكـثر اهتمامـاً بمـا يجري في فلسطين من غيرهما من دول العالم، بسبب التزام أمريكا جانب اليهود مـن جهـة وبسبب الوجود البريطاني في الأقطار العربيـة المحيطـة بفلسطين، مـن جهـة ثانيـة. وتـدل الوثائق الأمريكية والبريطانية على أن التعاون بين الدولتين كـان وثيقـا فـي هـذا المضمـار، وان التنسيق فـي المواقـف بينهمـا كـان متصـلا ومسـتمرا. ولكـن تعـاون الدولتيـن وأعمـال التنسيق بينهما، لا تعني انهما كانتا على وفاق تام فـي أسلوب معالجـة النزاع بيـن العـرب واليهود. ومن الواضح أن بريطانيا كانت تجد نفسها مضطرة في أحيان كثيرة إلى الانحنـاء والسير بموجب الرغبات الأمريكية.

ومما يجدر التأكيد عليه أن اليهود حولوا اعتمادهم في أثناء الحرب العالمية الثانية مـن بريطانيا إلى أمريكا، بل اخذوا يقفون من بريطانيا موقف العداء – متنكرين لما صنعته لهـم طوال ثلاثين عاما. وفي أثناء ١٩٤٧و١٩٤٨ كانوا يلحون في عرض شكاواهم على أمريكا لكي تقوم بالضغط على بريطانيا مربيتهم السابقة.

من هذا المنطلق نرى ايرنست بيفن وزير خارجية بريطانيـا، يؤكد للسفير الأمريكـي في لندن (٢٤ايار) ان حكومته مارست ضغوطـاً شـديدة علـى الحكومـات العربيـة حتـى لا تتدخل في فلسطين قبل ١٥ أيار، وانها نجحت في ذلك على الرغم مـن استفزازات اليهـود المستمرة. وقـال بيفـن – فـي معـرض تـبرير سياسـة حكومتـه – ان المنـدوب السـامي فـي فلسطين استطاع ان يحصل على موافقة الطرفين على إيقاف إطلاق النـار فـي القدس لمـدة ثمانية أيام، ثم حصـل علـى موافقـة العـرب علـى إحـلال الهدنـة فـي القدس. ولكـن اليهـود

رفضوا الهدنة ثم خرقوا وقف إطلاق النار، وبذلك تسببوا في اندلاع نار القتال في القدس. ولم يفت الوزير البريطاني ان يشير إلى ان اليهود احتلوا يافا وعكا المخصصتين للعرب واستولوا على جزء كبير من الجليل الغربي.

وفي اليوم نفسه أرسل بيفن إلى مارشال (وزير خارجية أمريكا) مذكرة ردّ فيها على الاتهام القائل بأن بريطانيا تقدم للأردن معونة مالية، وتعير جيشه ضباطا بريطانيين، وتمده بالسلاح والمعدات، فقال ان هذا كله جزء من التزامات بريطانيا للأردن بموجب المعاهدة المعقودة بينهما. وقال انه تم دفع قسط المعونة المالية المستحق في نيسان، وان القسط الثاني يستحق في تموز. **وقال ان لدى الضباط البريطانيين تعليمات سرية، بأنهم يجب ان ينسحبوا إلى شرقي الأردن اذا ما اشتبك الجيش العربي في قتال مع اليهود وهاجمهم في داخل الحدود التي أوصت بها هيئة الأمم.** وبشأن الأسلحة قال بيفن: ان بريطانيا لا ترسل إلى الأردن أية أسلحة الا ما كان منها للإيفاء بالعقود التي سبق التوقيع عليها. ثم أكد ان الجيش العربي لم يدخل أية مناطق مما أوصى به قرار التقسيم للدولة اليهودية، وان هجوم الجيش على بعض أحياء القدس جاء نتيجة مباشرة لخرق اليهود لاتفاق وقف إطلاق النار «ونحن على ثقة ان هذا الهجوم ما كان ليحدث لو أن اليهود وافقوا على الهدنة في القدس».

وعقد في لندن يوم ٢٥ أيار اجتماع على مستوى عال حضره رئيس الوزراء البريطاني اتلي وبيفن واللورد تيدر (قائد سلاح الطيران) والسفير الأمريكي. وفي الاجتماع قال السفير: ان هناك استياء عميقا في أمريكا لوجود الضباط الإنكليز في الجيش العربي، ولان أولئك الضباط يتولون قيادة الوحدات المقاتلة في القدس. فقال بيفن انه يأمل ان توضع أسس للتفاهم بين أمريكا وبريطانيا للعمل سويا إزاء فلسطين، حتى لا تسمم هذه القضية علاقات الدولتين. فرد السفير قائلاً: ان سحب الضباط الإنكليز من القدس سوف يساعد على ذلك. **وقال اللورد تيدر في معرض المقارنة بين قوات الفريقين: ان قوات اليهود تزيد على قوات العرب بنسبة أربعة إلى واحد، وهي افضل تسليحا.** وقال أحد القادة البريطانيين: يجب التفريق بين ٣٠ ضابط بريطاني بالإضافة إلى أربعة او خمسة ضباط معارين للجيش العربي، وبين الضباط الذين التحقوا بالجيش بعقود شخصية مثل جلوب باشا. ان جلوب لا يخضع لسلطة الحكومة البريطانية أكثر مما يخضع لأمريكا الجنود الأمريكان الذين حاربوا في ثورة أمريكا الجنوبية. ثم انه لا يوجد أي ضباط إنكليز في

القدس القديمة، وفي القدس الجديدة لا يوجد سوى ضابط بريطاني متطوع (هانكن تيرفن) وضابط آخر (نيومان). لقد صدرت التعليمات لكركبرايد حتى يبذل كل جهد مع الملك عبدالله لسحب جميع الضباط الإنكليز من منطقة القدس. **ولدى الضباط الإنكليز النظاميين أوامر ثابتة بأن يتركوا وحدات الجيش في اللحظة التي يدخل الجيش فيها إلى القسم المخصص لليهود**، وهو أمر لم يحدث حتى الآن، على الرغم من وجود القوات اليهودية في الجليل الغربي وفي مناطق أخرى مخصصة للعرب.

المفارقة التي تلفت النظر في هذا الصدد، ان بريطانيا كانت متضايقة من وجود ضباطها على رأس الجيش العربي وتسعى لسحبهم من فلسطين – بينما كانت دول عربية أخرى تلح على الملك عبدالله ان ينزع القيادة من أولئك الضباط، بناء على الاعتقاد بأنهم يكبحون جماح الجيش العربي في خوض معارك القتال بمزيد من العزم والفعالية.

وكان من مواقف بريطانيا انها – عندما رفض العرب في ٢٦ ايار قرار مجلس الأمن بايقاف إطلاق النار – تقدمت باقتراح إلى مجلس الأمن يقضي بالتوقف التام عن القتال في فلسطين وبصورة دائمة (وليس لمدة أربعة أسابيع فقط). وفي اليوم التالي قال بيفن للسفير الأميركي: اذا وافقتم على الاقتراح الذي قدمناه إلى مجلس الأمن بالتوقف التام عن القتال، فاننا سنوقف الإرساليات الصغيرة من الأسلحة إلى الأردن والعراق ومصر، وسنعلن سحب كل الضباط المعارين للجيش العربي من فلسطين (٢١ ضابطا و ٥ ضباط صف)، وسنعلن أيضا ان دفع قسط المعونة المالية للجيش العربي، والذي يستحق دفعه في شهر تموز، لن يتم الا في نطاق قرارات الأمم المتحدة.

وأتساءل هنا: هل كان الاقتراح البريطاني بايقاف إطلاق النار بصورة دائمة، نابعا من الخشية ان يتطور القتال في غير مصلحة العرب؟

من الواضح ان السياسة البريطانية كانت تخشى ان يتطور النزاع إلى حد يخرجه عن نطاق العرب واليهود. كان الساسة البريطانيون يدركون ان أمريكا لن تقف مكتوفة الأيدي اذا ما أحاقت الهزيمة باليهود، وكانت لهم حساباتهم فيما يتعلق بالعرب، على الرغم من ان بريطانيا لم تكن راضية عن موقف العراق ومصر منها. لقد كان التوصل إلى حل سلمي هدفا مهماً للسياسة البريطانية، شريطة اجراء تعديلات على خطوط قرار التقسيم بحيث تصبح اكثر معقولية. من هنا نرى المستر بيلي (البريطاني) يقول لزملاء أمريكان: ان

بريطانيا تتمنى ان يتم التوصل إلى تعديل حدود إسرائيل، وخاصة في النقب، حتى لا ينقطع الاتصال البري بين عرب آسيا وعرب افريقيا. وقد سئل بيلي عن رد الفعل البريطاني المحتمل فيما لو رفعت أمريكا الحظر عن توريد السلاح والرجال إلى اليهود وأدى ذلك إلى انتصارهم، بل إلى اندفاعهم إلى شرقي الأردن... وكان جواب بيلي: ان بريطانيا ستكون ملزمة في تلك الحالة بالعمل على صد اية هجمات على شرقي الأردن، طبقا للمعاهدة بينهما.

وفي أثناء الهدنة، وبينما كان برنادوت يدرس احتمالات التوصل إلى حل يرضي الطرفين، (لم يكن برنادوت يدرك ان ذلك أشبه ما يكون بالمستحيل)، نرى وزارة خارجية أمريكا تتجه نحو الفكرة القائلة بان أفضل حل لمشكلة فلسطين هو إعادة رسم حدود إسرائيل بحيث تكون دولة مترابطة متجانسة، وان تضم للأردن معظم الأجزاء التي ستبقى للعرب، وان تبقى القدس دولية. وكان هناك رأي في وزارة خارجية أمريكا يقول بان خارطة تقسيم ١٩٤٧ تشبه إحدى لوحات بيكاسو. وقد ارتأى بعض كبار المسؤولين هناك ان تقوم دولة إسرائيل في المنطقة الممتدة من تل أبيب إلى حيفا مع جزء كبير من الجليل الغربي، وأن يعطى النقب للعرب. هذه الآراء وجدت ترحيبا في أوساط وزارة خارجية بريطانيا، وقيل انها في مصلحة العرب «**اذا أمكن إقناعهم بقبولها**».

تركزت عملية الإقناع في حث العرب على قبول تمديد الهدنة، ولكن الساسة العرب لم يوافقوا. وفي الجولة الثانية من القتال أحرز اليهود انتصارات عسكرية جعلت الوصول إلى حل سلمي أمراً بعيد المنال أكثر من أي وقت مضى.

خطة برنادوت

بالنسبة لبرنادوت كان عقد الهدنة هدفاً مؤقتاً محدودا، يؤدي بلوغه إلى الاقتراب من الهدف الكبير الذي عهد مجلس الأمن اليه بتحقيقه، الا وهو التوصل إلى حل للنزاع بين العرب واليهود بالطرق السلمية. كان برنادوت يعتقد انه يستطيع اقناع الطرفين بعدم جدوى الحرب، وبأن من الأفضل التوصل إلى حل عن طريق التفاوض. وكان يعتقد ان خطة التقسيم التي أقرتها الأمم المتحدة تتضمن أخطاء تلحق الضرر بالطرفين وانه يمكن وضع خطة جديدة أقرب إلى مصلحتهما. وقد عمل برنادوت على الاستئناس بآراء الساسة العرب، فاجتمع في القاهرة يوم ١٦ حزيران بالنقراشي ورياض الصلح وتوفيق ابو الهدى

وعزام، وقيل انهم أكدوا له ان العرب لا يستطيعون الاعتراف بقيام دولة يهودية، وان الحل الأمثل هو قيام دولة فلسطينية موحدة، يعيش فيها العرب واليهود على أسس ديموقراطية ثابتة (ما اقرب هذا الاقتراح إلى الحل الذي كان الملك عبدالله يدعو له). ولكن الوسيط قال ان اقتراح الساسة العرب يخالف قرار التقسيم ولن يقبل به اليهود بعد ان أعلنوا قيام دولتهم وأكدوا انهم لن يقبلوا عنها بديلا. وكانت قد اعترفت بقيام إسرائيل حتى ذلك الحين ١٥ دولة على رأسها أمريكا والاتحاد السوفياتي.

ومهما يكن من أمر فان برنادوت أصدر في ٢٨ حزيران مسودة خطة جديدة وضعها بقصد التوصل إلى حل نهائي. وفيما يلي أهم النقاط في تلك الخطة:

١ – تتحد المناطق العربية في فلسطين مع الأردن، وبعد ذلك يعقد الأردن اتحادا مع اسرائيل.

٢ – يتولى الاتحاد شؤون الاقتصاد والسياسة الخارجية والدفاع.

٣ – تدير كل دولة من دولتي الاتحاد شؤونها الداخلية.

واقترح برنادوت تعديلات على قرار التقسيم، تقضي بضم النقب كله، أو جزء منه، إلى الأردن، على ان تحصل اسرائيل مقابل ذلك على الجليل الغربي، كله أو بعضه. واقترح برنادوت ايضا ان تكون القدس في المنطقة العربية (مع اعطاء اليهود فيها ادارة ذاتية)، وان يكون ميناء حيفا ومطار اللد منطقتين حرتين، وان يعاد النظر في وضع يافا.

لم يلبث برنادوت حتى اذاع مقترحاته رسميا في ٤ تموز، وأخذ في الوقت نفسه يعمل بكل نشاط لاقناع الطرفين بتجديد الهدنة التي كانت ستنتهي يوم ٩ تموز. وكانت غايته من تجديد الهدنة العمل على اقناع الطرفين بالتوصل إلى الحل السلمي المنشود. ولكن مقترحات برنادوت لم ترض أيا من الطرفين: فالعرب رفضوها لانها بنيت على أساس قيام دولة يهودية، واليهود رفضوها لعدة أسباب أهمها انها تعطي القدس والنقب للعرب، هذا بالاضافة إلى تعصبهم وثقتهم بمقدرتهم العسكرية، وبانه سيكون باستطاعتهم الاستيلاء على مناطق جديدة اذا ما استؤنف القتال.

جاء رفض العرب للمقترحات نتيجة لاجتماع عقدته اللجنة السياسية للجامعة العربية. وفي ٣ تموز رد عبدالرحمن عزام على المقترحات بمذكرة بعث بها إلى برنادوت، بالنيابة عن العرب، فانتقدها قائلا انها تقوم على مشروع التقسيم وعلى قيام دولة يهودية، وان

اللجنة السياسية لا تستطيع قبولها.

وجاء في بيان ادلى به توفيق ابو الهدى رئيس وزراء الأردن، بعد رفض مقترحات برنادوت، ما يلي:

ان هذه المقترحات تعتبر أراضي المملكة الأردنية جزءا من فلسطين، الأمر الذي يخالف الواقع، ويرفضه الأردن حكومة وملكا وشعبا، إذ أن المملكة الأردنية الهاشمية دولة مستقلة ذات سيادة، وهي لا ترضى ان تزجّ بالمشكلة الفلسطينية، كما انها لا تسمح باقامة دولة يهودية في فلسطين، وتعارض فكرة التقسيم.

اما اليهود فقد أورد وزير خارجيتهم شاريت، في مذكرة بعث بها إلى برنادوت بتاريخ ٥ تموز، أسباباً لرفضهم لها، وفيها ما يدل على اتجاه تفكيرهم وعلى حقيقة موقفهم. وتتلخص الأسباب التي وردت في المذكرة بأن مقترحات برنادوت تتجاهل «قيام دولة اسرائيل» وتتجاهل التغيرات التي وقعت في احتلال الأراضي «كنتيجة مباشرة لصدنا الهجوم الذي وقع على دولة اسرائيل من قبل عرب فلسطين ومن قبل الدول العربية المجاورة»!! وجاء في المذكرة ان اليهود استطاعوا صد «الغزوة» العربية والحاق الهزيمة بالذين قاموا بها،!! وانهم يعارضون ضم القسم العربي من فلسطين إلى أية دولة عربية مجاورة، وان اسرائيل ترفض أي تدخل في سيادتها، وتصر على حرية الهجرة، وتعتبر الاقتراح المتعلق بالقدس «كارثة»، ولا تقبل بحال من الأحوال وضع القدس تحت حكم العرب.

وعندما أيقن برنادوت ان الفريقين لا يقبلان خطته الأولى بادر إلى وضع تعديلات غير جوهرية عليها وتقدم بها في يوم ٥ تموز، وهي:

١ – تجريد منطقة القدس من السلاح (مع ابقائها للعرب).

٢ – تجريد منطقة مصافي النفط في حيفا من السلاح.

وفي الوقت نفسه دعا جميع الأطراف المعنية إلى تمديد أجل الهدنة.

وتقول الوثائق الأمريكية ان السعودية وسوريا كانتا أول الدول العربية التي رفضت مقترحات برنادوت، وذلك في ٣٠ حزيران.

نشاطات الملك عبدالله

كانت تطورات الموقف في ميدان القتال وفي حلبة السياسة، الشغل الشاغل للملك عبدالله. ولقد كانت للقدس مكانة خاصة في نفس الملك، ومن هنا كان يتابع انباء القتال فيها بأشد الاهتمام. ويذكر عبدالله التل ان الملك كان يشعر بالقلق الشديد خوفا من ان يتمكن الأعداء من اختراق أسوار القدس القديمة، حتى انه ظل يتصل به يوميا ويخاطبه بواسطة الهاتف في أثناء النهار وفي الليل ايضا.

قام الملك بزيارة جبهة القتال أكثر من مرة، وزار باب الواد بعد المعركة التي خاضتها الكتيبة الرابعة يوم ٣٠ ايار. ولكن الملك لم يزر القدس لأسباب يتعلق بعضها بالضرورات السياسية وبعضها الآخر من منطلق حرص الحكومة على سلامته الشخصية. ولكن لم تكد الهدنة تبدأ في صباح يوم الجمعة ١١ حزيران حتى كان الملك في طريقه إلى القدس، حيث تفقد الأماكن المقدسة والأسوار ومواقع الجيش، ثم أدى الصلاة في المسجد الأقصى. وفي ذلك اليوم عيّن السيد أحمد حلمي عبدالباقي حاكما عسكريا للقدس. وبلغ من رضاه عن عبدالله التل انه أمر بترقيته إلى رتبة قائد، على الرغم من انه لم يمض سوى شهر واحد على ترقيته السابقة(١).

وفي صدد القتال الذي دار في القدس، يقول الفريق جلوب:

في صباح أحد الأيام، في فترة القتال الأولى، أستدعيت إلى القصر. كان الملك عبدالله قلقا للغاية. قال لي: أستحلفك بالله ان تخبرني بالحقيقة، هل نستطيع الصمود في القدس، أم سيأخذها اليهود؟

أجبت: ان شاء الله، لن يأخذوها أبدا.

ومضى الملك يقول: أريد منك ان تعدني بأن تخبرني اذا ما تبين لك ان اليهود سيأخذون القدس.´ لا أريد أن أعيش لأشاهدهم في الأماكن المقدسة. سوف أذهب إلى هناك وأموت على أسوار المدينة.

قلت: ان شاء الله، لن يحدث هذا.

وفي اثناء فترة الهدنة تلقى الملك دعوة لزيارة مصر والسعودية، لقد كان لثبات الجيش العربي في المعارك التي خاض غمارها، وسيطرته التامة على مدينة القدس القديمة – تأثير كبير في نفوس رؤساء الدول العربية، فارتفعت مكانته وعلا شأنه. اما الملك فقد كان يريد

التوصل إلى توحيد مواقف الدول العربية سياسيا وعسكريا، وإلى وضع القرار بتوحيد الجيوش العربية موضع التنفيذ والتطبيق، والوقوف شخصيا على رأي الملك فاروق وحكومته. وهكذا ذهب الملك يوم ٢٢ حزيران إلى القاهرة حيث احتفى به الملك فاروق وأستقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً حافلاً. وقد جرت محادثات بين الملكين، تبودلت فيها الآراء. وعرض الملك عبدالله رغبته في ان يزور مركز القيادة المصرية في فلسطين بصفته القائد العام، ولكن رغبته هذه قوبلت بالاعتذار. ووجه الدعوة إلى فاروق كي يزور القدس، ولكن فاروق اعتذر بدوره. وجرى البحث في قضية باخرة السلاح والعتاد التي صادرها المصريون، فقيل للملك ان ذلك السلاح والعتاد سبق توزيعه على القوات المصرية. ونلمس مما كتبه الملك عبدالله ان تلك الزيارة لم تحقق أي هدف ايجابي: فالقيادة الموحدة بقيت اسمية، والسلاح المصادر لم يسترد. ويقول هزاع المجالي في مذكراته ان محادثات دارت بين النقراشي وفوزي الملقي (وزير خارجية الأردن) حول امكانية تمديد الهدنة وعدم استئناف القتال «لانه أصبح واضحا لدى الجميع ان الأمور كانت تسير لصالح اليهود..» .

اما الزيارة للملك عبدالعزيز آل سعود في الرياض، والتي بدأت يوم ٢٧ حزيران، فقد كانت أكثر نجاحاً، لان أهدافها كانت سياسية اكثر منها عسكرية، وكان على رأس تلك الأهداف ازالة سوء التفاهم بين الملكين والأسرتين. وفي هذه الزيارة تجلت واقعية الملك عبدالله ونظره البعيد وارتفاعه إلى مستوى التحدي الذي كان يواجه العالم العربي. وقدر الملك السعودي زيارة الملك الهاشمي، فالتقى معه على ضرورة انتهاج سياسة واقعية. وكان من جملة نتائجها ان تحسنت العلاقات بين البلدين، وتم على اثرها تبادل التمثيل الدبلوماسي بينهما. وقد أعجب الملك عبدالله بصراحة ابن السعود وتبينه للحقائق.

وقام الملك بزيارة بغداد يوم ٣٠ حزيران في طريق عودته من السعودية، حيث اجتمع مع ابن اخيه الامير عبدالاله ومع مزاحم الباجچي رئيس الوزراء. وقد اغتمّ الملك كثيراً عندما أبلغه الباجچي ان الدول العربية قررت عدم تمديد الهدنة، بل قال انه يعجز عن وصف ما حصل له من الكرب والهم عندما سمع ذلك النبأ. **ذلك ان الملك كان يعرف انه لم يكن بيد الجيش العربي «من أعتدة الأسلحة الثقيلة ما يكفي لحرب يومين اثنين»،**

وكان يعرف أن قوات الدول العربية الأخرى لم تكن تملك من السلاح والعتاد ما تستطيع به ان تعدل الموقف لصالح العرب اذا ما استونف القتال.

خطوط الهدنة واتفاقية المشارف

أبدى الكونت برنادوت نشاطاً عظيماً في القيام بالمهمة التي كلفه بها مجلس الأمن. وفي الساعة التي بدأت فيهاالهدنة، كان برنادوت قد استطاع تجنيد عدد من الضباط من جنسيات مختلفة، لكي يعملوا على مراقبة تنفيذ شروط الهدنة في مختلف جبهات القتال. وكان أول مهامهم وضع خرائط تبين مواقع الطرفين المحاربين والخطوط التي يتمركز كل جانب عليها، مع تعيين المناطق الحرام التي تفصل كل منهما عن الآخر. وكانت مدينة القدس أهم موقع برزت فيه ضرورة وضع الخرائط الدقيقة، بالنظر لقرب مواقع الطرفين من بعضهما البعض، وبالنظر لتشابك المواقع وتداخلها. وفي ١٦ حزيران اجتمع ممثلو قوات الفريقين في القدس بدعوة من ضباط الرقابة الدولية. وفي الاجتماع مثل الجانب الأردني:

و. ق. عبدالله التل: عن الكتيبة السادسة.

و. ق. هانكن تيرفن والرئيس خالد مجلي - عن الكتيبة الثالثة.

ومثل الجانب اليهودي القائد دافيد شالتيئل وعدد من مساعديه.

ونتج عن الاجتماع التوقيع على الخرائط التي تبين مواقع كل جانب، والمناطق الحرام التي تفصل أحدهما عن الآخر.

ولم تلبث أيام الهدنة أن شهدت التوقيع على اتفاقية ثانية تقضي بتجريد منطقة جبل المشارف (سكوبس) من السلاح ووضعها في عهدة الأمم المتحدة. ولا نعلم حقيقة الأسباب التي أدت إلى التوقيع على اتفاقية منفصلة تتعلق بهذه المنطقة، ولكن من الواضح أن وجود أبنية ضخمة لليهود فيها - مستشفى هداسا والجامعة العبرية - وما كان من تطويق الجيش الأردني لها يوم استيلائه على حي الشيخ جراح، هو العامل الأساسي في عقد تلك الاتفاقية. كان من المتوقع ان يعمل الجيش الأردني على الاستيلاء على تلك الأبنية، حتى لا تبقى شوكة في ظهره. ويظهر ان النية اتجهت إلى ذلك لكي تتزامن مع الهجوم على النوتردام، اذ أخذت مدافع الجيش تقصفها من رأس العمود. ولكن التداخلات السياسية حالت دون

ذلك. فقد قيل يومئذ ان تدمير أماكن ذات صبغة ثقافية وانسانية، سيدفع اليهود (وسيطرتهم على وسائل الاعلام معروفة) إلى اثارة ضجة عالمية ضد العرب، خصوصا اذا حدث نتيجة للقصف ان احترقت مكتبة الجامعة الضخمة.

ويتضح من المصادر الموثوقة ان امريكا وبريطانيا تدخلتا مع الملك عبدالله من أجل عدم التعرض لأبنية الجامعة والمستشفى على جبل المشارف، بحجة انهما مؤسستان انسانيتان وثقافيتان، وانه لا دخل لهما في الحرب القائمة. ويقول التل انه أراد أن يقصف أبنية اليهود تلك بمدافع سريته المساندة، على اعتبار ان اليهود جعلوا من تلك الأبنية معقلا عسكريا مهما – الا ان الزعيم لاش قائد الفرقة طلب اليه الا يفعل، وأبلغه ان المدفعية الثقيلة لن تقصفها لان امريكا وبريطانيا تدخلتا للابقاء عليها. ويبدو ان قيادة الجيش أضاعت فرصة ثمينة أتيحت للاستيلاء على تلك الأبنية في خلال فترة القتال الأولى، أي قبل مجيء برنادوت، لان الوضع الحربي من جهة واستمرار اليهود في اطلاق النار منها من جهة ثانية – كانا يحتمان ذلك. وجاء في كتاب برنادوت (إلى القدس) ان السلطات البريطانية والأمريكية طلبت من العرب ان لا يقصفوا أبنية الجامعة والمستشفى، وان الملك عبدالله وافق على ذلك الطلب نتيجة لتدخل السير اليك كركبرايد، الوزير البريطاني المفوض في عمان(٢). ولا شك في ان برنادوت استعمل كل ما لديه من نفوذ معنوي لعقد هذه الاتفاقية، وبالمضمون الذي انطوت عليه.

وفي هذا الصدد يقول كركبرايد:

أعد الجيش العربي العدة للاستيلاء عل هداسا والجامعة العبرية. ولكن قيل للأردنيين ان الهجوم على هاتين المؤسستين سيثير الرأي العام في امريكا ضد العرب. لذلك وافق الجيش العربي على ترتيب اقترحه الكونت برنادوت وهو ان تجرد المؤسستان من السلاح، وان توضعا تحت عهدة الامم المتحدة، وان تبقى مجموعة من أفراد الشرطة الاسرائيلية في المؤسستين لحمايتهما من اللصوص، ريثما يبت في أمرهما فيما بعد. ولكن برنادوت اغتيل، وبصورة غامضة تحولت مجموعة الشرطة اليهودية إلى سرية من جنود المشاة، ظلت ترابط في البنايتين..

ويلاحظ هنا ان كركبرايد لا يذكر هوية الجهة التي قالت ما قالت للأردنيين.

وأكد لي الزعيم المتقاعد راضي الهنداوي (ركن في العمليات الحربية في قيادة

الجيش)، ان الملك عبدالله اتصل شخصيا بالقيادة وأمر بالاستيلاء على هداسا والجامعة العبرية، ولكن نتيجة للقصف التمهيدي بالمدافع عليها، جاء المستر ستابلر مساعد القنصل الأمريكي في القدس، إلى عمان، وقابل الملك عبدالله، وابلغه ان تدمير المؤسستين سيكون له تأثير شديد في الولايات المتحدة وسيلحق الضرر بالعرب. ونتيجة لذلك التدخل وافق الملك عبدالله على عدم مهاجمتهما.

اما الفريق جلوب فيقول ان المقاتلين اليهود كانوا في اثناء فترة القتال يطلقون النار من الأبنية الضخمة للجامعة والمستشفى على مؤخرة الجبهة الأردنية في القدس. وعندما كان الجيش يرد على ذلك بقنابل الهاون – وبقنابل ٢٥ رطلا في إحدى المرات – كانت الصرخات تتعالى بأن العرب يقصفون المستشفيات. وفي تلك الأثناء أبلغت الحكومة الأردنية ان المستشفى والجامعة أنشئتا بأموال تبرعات في الولايات المتحدة. وقيل لنا ان أية محاولة يمكن ان نقوم بها لتدمير هذه الأبنية او للاستيلاء عليها، سوف ينتج عنها سخط بالغ في امريكا. وعندما اقترح برنادوت تجريد هذه الأبنية من السلاح وتسليمها للأمم المتحدة، بدا لنا ذلك حلا معقولا. ووافق الاسرائيليون على الاقتراح ولكنهم طلبوا السماح لهم بابقاء عدد من رجال الشرطة المدنيين للحيلولة دون اختلاس المعدات الطبية الثمينة والكنوز الأدبية في الجامعة. وكان برنادوت واضحا جدا في تأكيده بأن جبل سكوبس سيكون تحت سيطرة الأمم المتحدة وحدها، وقال انه سوف يعمل تدريجيا على استبدال الشرطة اليهود برجال تابعين لهيئة الأمم. وهكذا تم التوقيع على اتفاقية بهذا الشأن. ويقول جلوب في موضع آخر: ان هذه الاتفاقية جلبت فيما بعد متاعب كثيرة، وان وعود برنادوت ذهبت أدراج الرياح لان الأمم المتحدة فقدت نفوذها في فلسطين بعد مصرعه. وسرعان ما اكتشفنا ان اليهود في هداسا لم يكونوا من رجال الشرطة بل كانوا سرية مشاة من الجيش النظامي. وقد حاول عدد من الجنود اليهود التسلل من خطوطنا ذات ليلة، فاشتبك معهم جنود الجيش العربي ولم يلبثوا ان أركنوا إلى الفرار بعد ان تركوا على الارض كمية من عتاد مدافع الهاون عيار بوصتين وثلاث بوصات، مما دلنا على وجود مدافع في داخل الجامعة والمستشفى... **لقد كان من السهل علينا ان نستولي على هذا الموقع في عام ١٩٤٨، ولكننا خُدعنا ولم نستول عليه بسبب خطة برنادوت تلك.** وبسبب ضعف الأمم المتحدة بقي الموقع – الذي تحول إلى حصن حربي – في أيدي جنود المشاة اليهود.

وقد حدث، قبيل بدء الهدنة، ان ضابطا يهوديا جاء من هداسا وهو يرفع علماً أبيض وقال لضابط الصف الذي كان يقف في نقطة مراقبة أمامية قرب الشيخ جراح: ان اليهود في هداسا والجامعة يريدون التسليم. وعندما أحيط قائد اللواء الاول جولدي بالأمر أرسل الملازم الاول صالح الشرع، مساعد ركن العمليات في قيادة اللواء، وزوده بالتعليمات اللازمة، وبالفعل ذهب الملازم الشرع ومعه بضعة جنود إلى الموقع، فلم يلبث أن جاء الضابط اليهودي ومعه حرس يحملون علما. وقال ذلك الضابط (بواسطة أحد رجاله الذي كان يعرف العربية) اننا نريد التسليم بشروط.

- ما هي شروطكم؟
- ان نخرج بسلاحنا ونذهب إلى مشيرم تحت رقابة الصليب الاحمر.
- نوافق على ذلك.
- الا تريد ان تستشير قيادتك؟
- انا مخول بابلاغك اننا موافقون.

وقال الضابط اليهودي: ما دام الأمر كذلك، فغدا سنتصل بكم ونخبركم.

وعاد أدراجه، ولم يرسل خبرا. وفي صباح اليوم التالي بدأت الهدنة. ولا تذكر المصادر الاسرائيلية شيئا عن هذه الحادثة. ولذلك لا نعرف هل كان عرض الانسحاب جديا ام لا.

تم التوقيع على اتفاقية المشارف يوم ٧ تموز أي بعد أن اتضح للعيان ان الحرب ستستأنف من جديد. وقد وقع عليها الزعيم نورمان لاش (قائد الفرقة) عن الجيش العربي، والقائد شالتئيل (قائد القوات اليهودية في القدس) عن الجانب الاسرائيلى. ووقع الاتفاقية قنصل بلجيكا في القدس بصفته رئيس لجنة الهدنة القنصلية التابعة لهيئة الأمم المتحدة، وكبير المراقبين الدوليين في القدس (برونسون).

جاءت الاتفاقية في ستة بنود، وتتلخص في نزع الصبغة العسكرية عن المنطقة التي تضم مستشفى هداسا والجامعة العبرية والعمارة الألمانية المعروفة باسم اوغستا فكتوريا (المطّلع) وقرية العيسوية. ونصت الاتفاقية على ان يسحب الفريقان المتحاربان ما لهما في المنطقة من جنود وضباط وآلات قتال، وأن لا يستعملاها قاعدة حربية لأية عمليات عسكرية، وان لا يهاجماها. أو يدخلاها بطرق غير مشروعة، وأن تظل المنطقة تحت

حماية هيئة الأمم إلى ان تنتهى الأعمال العدائية أو يتوصل الفريقان إلى اتفاق جديد بشأنها.

ونصت الاتفاقية على ان يقوم بحراسة القطاع اليهودي (هداسا والجامعة) عدد لا يتجاوز ٨٥ من أفراد الشرطة اليهود ومعهم ٣٣ شخصا من المدنيين، وأن لا يزيد عدد أفراد الشرطة العرب في بناية المطلع على اربعين، وان لا يزيد عدد سكان قرية العيسوية الا بموافقة الطرفين. كما نصت على ان تتخذ هيئة الأمم المتحدة تدابير لتزويد أفراد الفريقين بما يحتاجون اليه من مؤن وماء.

وأضيف إلى هذه الاتفاقية في ١٣ تشرين الثاني ١٩٤٨ بند يخوّل اليهود حق استبدال رجالهم مرةً في الشهر، باشراف المراقبين الدوليين.

واذا وجد المرء مبرراً لوضع الأماكن اليهودية تحت حماية الأمم المتحدة، فمن العسير فهم المبرر لقبول الأردن في تلك الظروف بوضع بناية المطلع وقرية العيسوية العربية تحت حماية الأمم المتحدة بينما كان كلاهما جزءاً من الجبهة الأردنية. ويبدو لي ان قيادة الجيش تساهلت دون مبرر، بل قصرت كثيرا لانها لم تعمل على التوصل إلى شروط أفضل للأردن.

لم يحترم اليهود هذه الاتفاقية، بل انهم استطاعوا – مع مضي السنين – أن يهرّبوا الأسلحة والذخائر إلى منطقتهم وأن ينشئوا فيها الاستحكامات بحيث أصبحت قلعة عسكرية منيعة، ونجمت عن كل ذلك عدة حوادث خطيرة(٣).

قرار استئناف القتال

ليس من المبالغة القول ان قرار الدول العربية عدم تجديد الهدنة، واستئناف القتال، كان يحمل في طياته من الخطورة قدرا لا يقل عن القرار الأول لتلك الدول بالتدخل في فلسطين بقواتها النظامية. ولعل القرار الثاني يبدو أشد خطورة من القرار الأول، اذا افترضنا ان الدول العربية، أصبحت أكثر معرفة بجوانب قوتها وضعفها، وبجوانب قوة العدو وضعفه، مما كان عليه الأمر في البداية.

لقد أقدمت الدول العربية على التدخل في فلسطين – من أجل انقاذ أهلها العرب من شرور الغزوة الصهيونية – بعد استعداد نفسي استمر سنوات وسنوات، وبعد استعداد عسكري استمر بضعة أشهر. وفي فترة القتال الأولى التي استمرت ٢٥ يوما لم تستطع القوات العربية ان تضرب العدو ضربة موجعة واحدة في الصميم. فلماذا أقدمت على

خوض الحرب مرة أخرى، وهي تعرف – كما يفترض – ان قدرتها على تنفيذ الضربة الموجعة لم تصبح أفضل مما كانت في ١٥ ايار؟

في الحقيقة ان الدول العربية كانت على حق كل الحق في التدخل في فلسطين، لانه ما كان يجوز بحال من الأحوال ان يقيم الغزاة الباغون دولة لهم في أرض فلسطين العربية، دون ان يعمل العرب على مقاومتهم ومحاولة صدهم وإلحاق الهزيمة بهم. ونحن اذا اعترفنا ان العرب لم يستطيعوا في فترة القتال الأولى ان يصدّوا الغزاة ويلحقوا الهزيمة بهم – فاننا في الوقت ذاته نعتبر ان خوض الحرب أنقذ شرف العرب وكرامتهم، بغض النظر عن حسابات الربح والخسارة.

اما الدول الكبرى – وعلى الأخص الولايات المتحدة وبريطانيا – فقد تصرفت بطريقة مخزية وغير أخلاقية. لقد ادعت الدولتان انهما تلتزمان بعدم اللجوء إلى القوة لتنفيذ قرار التقسيم، أي انهما – بكل بساطة – تركتا المجال مفتوحا أمام العرب واليهود لكي يتصارعا، حتى ترسم نتيجة الصراع معالم الحل النهائي. ولكن اذا كان هناك شيء من المنطق في موقف الدولتين هذا في الجولة الأولى، فان السماح للفريقين بالدخول في جولة ثانية لم يكن يتسم بأي درجة من درجات المنطق، ولم يكن له مبرر. وسوف نلاحظ بعد قليل ان برنادوت نفسه أدرك ان الدول الكبرى وحدها تستطيع ان توقف حمّى النزاع عند حد. ولكن تلك الدول آثرت – على الرغم من مناشدة برنادوت لها – ان تترك الفريقين يشتبكان في الصراع مرة أخرى (وبعد ذلك مرات ومرات) حتى يتحقق في ميدان الحرب الحل (مهما كان ظالما) الذي لم يتحقق على طاولة المفاوضات.

سبق أن أشرت إلى القرار الذي اتخذه مجلس الأمن في ٢٢ ايار ودعا فيه الفريقين إلى التوقف عن اطلاق النار. ووافق اليهود في ٢٥ أيار على الاستجابة لذلك القرار شريطة أن يوافق العرب. كانت موافقة اليهود تستهدف انقاذ الحي اليهودي في القدس القديمة من السقوط في يد الجيش العربي. اما الدول العربية، فقد ناب الدكتور ناجي الأصيل، وزير خارجية العراق، عنها في الاجابة على دعوة مجلس الأمن، إذ ألقى يوم ٢٦ أيار بيانا لا يرفض القرار ولايقبل به، بل يتضمن القول إن دول الجامعة تريد حلاً للمشكلة وليس مجرد وقف لاطلاق النار، وان اللجنة السياسية سوف تبقى ٤٨ ساعة أخرى في عمان انتظاراً لأي اقتراح من مجلس الأمن بشأن الحل المنشود.

وعاد مجلس الأمن في ٢٩ أيار فأصدر قراراً آخر يأمر فيه بوقف جميع أنواع القتال لمدة أربعة اسابيع، على ان لا يدخل إلى فلسطين أشخاص محاربون في خلال هذه الفترة وان تمتنع جميع الدول عن توريد السلاح للأقطار المشتركة في القتال (أي ان يبقى ميزان القوى في اثناء الهدنة على حاله). واجتمعت اللجنة السياسية مرة أخرى لبحث الموضوع. وسرعان ما تبين ان مصر والأردن كانتا تحبذان الاستجابة لقرار مجلس الأمن، ثم انضم العراق اليهما في تفضيل الاستجابة للقرار. أما سوريا ولبنان فقد كانتا تحبذان تحدي مجلس الأمن والاستمرار في القتال. وقيل ان سبب ذلك يعود إلى خشية ساسة تلك الدول من سخط الرأي العام. وتقول الوثائق الأمريكية ان مراقبين مستقلين لاحظوا ان الهدنة جاءت في الوقت المناسب لانقاذ الجيش الأردني من مغبة النقص في العتاد، وان رغبة الأردن في الموافقة على الهدنة تعود أسبابها إلى تناقص الأعتدة، التي قيل انه لم يكن بقي منها لدى الجيش يوم اعلان الهدنة الا ما يكفي لقتال سبعة أيام. كما ان الضغط البريطاني على مصر والأردن كان له تأثير في ميل الدولتين إلى الموافقة على قرار الهدنة. وقد سبق ان ذكرت قول الملك عبدالله من انه لم يبق بيد الجيش العربي من عتاد الأسلحة الثقيلة الا ما يكفي لحرب يومين اثنين.

ويقول محمد مهدي كبّه ان الدول العربية وافقت بالاجماع على الهدنة « لعدم امكانها الاستمرار في الحرب في الظروف الراهنة.. حتى ان حكومة النقراشي باشا في مصر، هددت بانها ستعقد الهدنة مع اليهود بمفردها اذا لم توافق الدول العربية الاخرى عليها..»(٤).

وفي منتصف فترة الهدنة عقد باترسون القائم بالأعمال الأمريكي في القاهرة، محادثات مع ممثلي الدول العربية، ثم كتب تقريرا يوم ٢٥ حزيران قال فيه ما خلاصته:

ان الاتجاه العام عند العرب كما يلي:

١ – رفض جميع الحلول، سواء وضعها برنادوت أو سواه، اذا كانت تنطوي على التقسيم او انشاء دولة اسرائيل.

٢ – استئناف القتال عند انتهاء الهدنة، حتى ولو أدى ذلك إلى الهزيمة وسقوط الحكومات القائمة حاليا.

واختتم باترسون تقريره قائلاً: من المرجح ان العرب يجدون انهم يواجهون مشكلة.

فاذا وافقوا على أي مشروع ينطوي على التقسيم، فان ذلك ينطوي بدوره على خطر سقوط عدد من الحكومات بفعل الجماهير الغاضبة. ولكنهم يواجهون نفس المجازفة او أكثر اذا ألحقت الهزيمة بجيوشهم في ميدان القتال. على انهم يستطيعون في الحالة الأخيرة ان يلقوا اللوم على أمريكا بحجة انها تعاضد اليهود، وعلى بريطانيا بحجة انها خضعت لضغط أمريكا ولم تعمل بموجب معاهداتها والتزاماتها لتزويد العرب بالسلاح.

وبينما كان برنادوت يعمل على اعداد مشروع حل ينال موافقة الطرفين، حثت أمريكا الدول العربية على تمديد الهدنة من أجل انجاح مهمته. وفي اثناء زيارة الملك عبدالله للسعودية، قام العاهل السعودي بابلاغ الولايات المتحدة ان العاهلين يرغبان في التوصل إلى حل عادل يعطي العرب حقوقهم، وانهما يعتمدان في تحقيق ذلك على روح العدالة والانصاف عند الحكومة الأمريكية.

وجاء في تحليل تفصيلي كتبه جيسوب (مندوب امريكا لدى الأمم المتحدة) قوله: ان الدلائل تشير إلى ان أكثر العرب تعبوا من القتال، وقد كشفت الحرب عن ضعف تنظيمهم وضعف معداتهم الحربية. ثم مضى إلى القول « يبدو واضحا أن الأردن وحده يملك قوة عسكرية محترمة، ولكنه في وضع من يستطيع أن يكسب اكثر نتيجة التوصل إلى تسوية عن طريق المفاوضات».

وباقتراب نهاية الهدنة كان لا بد للدول العربية ان تتخذ قراراً، إمّا بتمديد الهدنة أو رفض تمديدها. وفي ٣ تموز بدأت اللجنة السياسية اجتماعاتها في القاهرة. وقد بحثت اللجنة في أمر تعيين قائد عام فعلي للجيوش العربية، ولكنها لم تتوصل إلى نتيجة. وعرضت الدول العربية على مصر تعيين قائد مصري لقيادة الجيوش العربية، ولكن مصر لم ترد ان تتحمل مسؤولية تلك القيادة، ولم توافق على وضع قواتها تحت الامرة الفعلية لقائد غير مصري. وفي هذا الصدد نذكر ما جاء في تقرير لجنة التحقيق النيابية (العراق) في قضية فلسطين: « إن المصريين لم يقبلوا في تموز ١٩٤٨ توحيد القيادة. فلا قبلوا وضع جيشهم تحت قيادة عربية موحدة، ولا رضوا ان يتولوا هم هذه القيادة».

ويذكر الفريق الجبوري ان رئيس وزراء الأردن توفيق ابو الهدى تحدث في اجتماع يوم ٥ تموز فقال ان حالة الجيوش العربية من حيث الأسلحة والعتاد واحدة وكلها متقاربة ونريد ان نعمل تدبيراً. ثم قرأ تقرير اللواء نور الدين محمود المؤرخ في ٨ حزيران والذي

يقرر ان الجيوش العربية تقف في حالة دفاعية. كما قرأ تقرير اللجنة العسكرية في القاهرة عن نقص الأعتدة، وعلى الأخص عتاد مدافع ٢٥ رطلاً. وقال أبو الهدى انه تلقى من عمان تقريرا يشير إلى عدم وجود احتياط للجيوش العربية، وضرورة إرسال قطعات جديدة من كافة الاقطار العربية إلى فلسطين.

اما الفريق محمد حيدر، القائد العام للقوات المصرية، فقد قال ان الجيش المصري «لا يمكن أن يتقدم من أماكنه الحالية ما لم يدك ويستولي على جميع القرى (اليهودية) البالغ عددها ٢٧ قرية». واتضح في اليوم التالي ان المصريين مصممون على البقاء في الخطوط التي وصلوا اليها، ولا يمكنهم الاشتراك بحركات مع الجيوش العربية الأخرى، وليس في وسعهم ان يفعلوا أكثر من مهاجمة المستعمرات اليهودية التي كانت ما تزال صامدة وراء خطوطهم(٥).

وفي هذا الصدد تجدر الاشارة إلى ما ذكره الملك عبدالله من انه أصدر أمراً إلى رئيس الوزراء « بان لا يقبل نقض الهدنة الاولى مهما كان، ولو استقالت الحكومة، قبل ان تمتلىء يد الجيش بما يقتضي من الأعتدة الثقيلة والخفيفة..» ونستدل على قلق الملك من أنه أرسل مرافقه محمد الحسين بطائرة إلى القاهرة وهو يحمل رسالة منه إلى ابو الهدى يطلب اليه فيها ان يبذل جهده ويستعمل نفوذه من أجل تمديد الهدنة فترة يستطاع فيها تدبر الموقف. ولكن ابو الهدى كان مقتنعاً ان الأردن لا يستطيع اتخاذ قرار منفرد عن الدول العربية الأخرى.(٦)

من البديهي ان مداولات اللجنة السياسية لم تكن سراً مغلقاً بالنسبة لممثلي الدول الكبرى، فقد كان المتطوعون بالكلام كثيرين. وعندما اتضح ان أعضاء اللجنة يتجهون إلى عدم تجديد الهدنة، أخذت بريطانيا وأمريكا تضغطان على رؤساء الدول العربية وتحاولان اقناعهم بتمديد أجل الهدنة.

ففي ٦ تموز بعث وزير خارجية بريطانيا إلى الدول العربية برقيات يحثها فيها على تمديد الهدنة وقبول مقترحات برنادوت، واعتبار القدس مدينة مفتوحة. ومما جاء في تلك البرقيات قول الوزير ان مقترحات برنادوت أفضل للعرب من قرار التقسيم. وفيما يلي خلاصة تلك البرقية:

الأمر الجوهري هو تمديد الهدنة. اذا استؤنف القتال بمبادرة من العرب فان مجلس

الأمن سيدين عملهم، وسيكون من المستحيل على بريطانيا ان تستأنف تزويدهم بالسلاح. الدولة اليهودية قائمة وهي ستبقى على صورة من الصور. مقترحات الوسيط تقدم فرصة حل أكثر ملاءمة للعرب من السابق. اذا كان العرب سيحصلون على ضمانات اضافية لمنع توسيع حدود الدولة اليهودية، فسيكونون في أفضل وضع بالنسبة للبدائل الممكنة في الوقت الحاضر. ترى بريطانيا ان من مصلحة العرب ان يقبلوا مقترحات برنادوت أساساً للمباحثات. تستطيع الحكومات ان تقترح تعديلات اذا لزم الأمر. **اذا أهملت الحكومات العربية هذه الاعتبارات وجعلت نفسها مسؤولة عن استئناف القتال، فان جميع الدلائل تشير إلى ان انتصار العرب في الحرب مستحيل. والواقع ان احتمال وقوع نكسات عسكرية خطيرة يجب ان يؤخذ في الحساب.**

مهما قلنا، فلا بد أن نعترف ان هذه البرقية كانت صريحة إلى أقصى حدود الصراحة.

وفي اليوم التالي (٧ تموز) أبرق وزير خارجية أمريكا يبلغ الدول العربية ان حكومته تشدد على الأهمية العظمى لتمديد الهدنة في فلسطين، كما اقترح برنادوت، وانها **تحث الحكومات العربية على ان تعرف ان تمديد الهدنة والتفاوض هما الوسيلة الوحيدة للتوصل إلى تسوية دائمة.**

كما ان مجلس الأمن الدولي ناشد في اليوم نفسه أطراف النزاع ان يوافقوا على تمديد الهدنة.

ولكن اللجنة السياسية للجامعة اتخذت في يوم ٨ تموز قراراً باتا برفض تمديد الهدنة. وقد تولى عزام باشا ابلاغ الكونت برنادوت هذا القرار. وتضمن جواب عزام ما يلي:

لقد اتضحت استحالة اقناع الأقلية اليهودية بالتخلي عن مطامعها السياسية... وتصميمها على فرض ارادتها بالقوة والارهاب على الأكثرية الساحقة لأهل البلاد... أضف إلى ذلك انتهاك تلك الأقلية لشروط الهدنة واستغلال فترة الهدنة كوسيلة لمضاعفة عدوانها ضد العرب ولاغراق البلاد بسيل متصل من المهاجرين - كل هذه العوامل تضطر الدول العربية لان لا توافق على تمديد الهدنة في ظل الظروف الراهنة وان تتخذ كل الاجراءات المناسبة لوضع حد لهذه الظروف. وعلى أية حال فان هذا لا يعني

ان العرب يغلقون الباب في وجه أية جهود اخرى قد يقوم بها الوسيط، وهي لا تقف حجر عثرة في وجه مقترحات أخرى قد يرى سعادته تقديمها.

ولم يكن الضغط مقتصراً على الدول العربية، بل كان يشمل سلطات العدو ايضا. ومن هنا نرى اسرائيل تبلغ امريكا ومجلس الأمن وبرنادوت يوم ٨ تموز بانها توافق على تمديد الهدنة.

وحتى يوم ٩ تموز استمرت المحاولات لاقناع الدول العربية بتمديد الهدنة. ففي ذلك اليوم عاد وزير خارجية بريطانيا فأبرق إلى كل ممثل من ممثلي حكومته في العواصم العربية يقول ما خلاصته:

عليك مرة اخرى أن تؤكد على الحكومة التي تمثل بريطانيا فيها، **الخطر الشديد الذي يواجه العرب اذا هم أصروا على رفض مناشدة مجلس الأمن لهم** من أجل تمديد الهدنة، خاصة بعد أن وافق اليهود على تمديدها.

وجاء في تلك البرقية ايضا ان دول الجامعة وضعت نفسها في وضع خطر، وان بريطانيا تبذل جهودها لانقاذ الحكومات العربية من عواقب قرارها المتسرع.

ووصل برنادوت ومعه مساعده الدكتور بانش إلى عمان يوم ٩ تموز واجتمعا بالملك عبدالله، فأعرب لهما الملك «**عن قلقه الشديد لما يتوقع من نشوب الحرب مجددا**». ومن عمان أرسل بانش البرقية التالية إلى وزارة خارجية امريكا:

يشعر برنادوت ان مجلس الأمن يجب ان يتخذ اجراء فوريا وقويا لاعادة الدول العربية إلى صوابها. والان وقد قررت الجامعة العربية ان ترفض تمديد الهدنة، فيجب التوصل في الحال إلى صيغة تسمح للدول العربية بان تعود عن قرارها دون أن تفقد ماء وجهها. ان برنادوت يعتقد انه اذا اتخذ مجلس الأمن قرارا يهدد الدول العربية بالتدخل المسلح، اذا لم تستجب لقرار التمسك بالهدنة - فان تلك الدول سوف تتراجع عن قرارها.

ومما جاء في تلك البرقية ان الرسميين العرب أبلغوا برنادوت بصورة خاصة، ان قرارا كهذا سيوفر مخرجا للساسة العرب، اذ يستطيعون عندئذ ان يقولوا لشعوبهم: يجب أن نخضع لقرارات الامم المتحدة لاننا لا نستطيع أن نحارب العالم كله.(٧)

وفي لندن عقد بيفن اجتماعا مع كبار رجال وزارته. وقد ساد في الاجتماع شعور من

التفاؤل بان الملك عبدالله – نتيجة لزيارة برنادوت – قد يوافق منفردا على تمديد الهدنة، دون التقيد بقرارات اللجنة السياسية للجامعة. وكان من رأي بيفن وماكنيل (وزير الدولة) ان الملك عبدالله هو الزعيم العربي الوحيد الذي يستطيع انقاذ الوضع. وبعد الاجتماع أرسل بيفن إلى الوزير البريطاني المفوض في عمان البرقية التالية:

٩ تموز ١٩٤٨ **في الحال**

لا أدري اذا كان الموقف قد تبدل نتيجة لمحادثة الملك مع الكونت برنادوت، ولكن اذا كنت ترى ان الضرورة تقضي بذلك، عليك الان ان تقدم للملك النصيحة التالية:
لقد تحمل الجيش العربي حتى الان عبء القتال في فلسطين، وهو أفضل قوة محاربة ذات فعالية في الجانب العربي. ان القرار الأخير للجامعة العربية يعني ان الحكومات التي قدمت مساهمة قليلة لمجهود العرب العسكري، تفرض على الجيش العربي ان يدخل مرة أخرى معارك القتال. وفي هذه الظروف سيكون للملك الحق ان يوضح ان الذخائر والأعتدة التي يملكها الجيش لا تكفي الا لبضعة أيام، وان العرب اذا ما بادروا إلى خرق الهدنة، ووضعوا أنفسهم في وضع الملوم، فان عليهم ان لا ينتظروا الحصول على أية امدادات من الحكومة البريطانية، وانه ليس للأردن مصدر آخر للحصول منه على ما يحتاج اليه. وبناء عليه فانه لا يستطيع ان يتهور ويأمر قواته بالهجوم. ان على العرب ان يقفوا في مواقعهم الحالية، وان يقاوموا أي هجوم يقع عليهم، وعليهم ان يقتصدوا في اطلاق الذخيرة مهما كان الثمن. ان مسؤولية الملك الأولى أن يدافع عن بلاده، وهو لا يستطيع ان يسمح بأن يتردى وضع قواته إلى حد يستحيل عليها فيه الدفاع عن البلاد. واذا ما طلب الملك من الدول الأعضاء في الجامعة العربية ان تعيد النظر في قرارها برفض تمديد الهدنة، فان عليه ان يطلب من تلك الدول ان تتفحص المشكلة على ضوء وضعه العسكري، كما شرحته اعلاه.

ولكن الملك عبدالله آثر ان يلتزم بقرار الأكثرية، مع علمه ويقينه ان ذلك القرار لم يكن يتسم بالواقعية. وفي ذلك كان لسان حاله يقول:

وما انا الا من غزّية ان غوت غويتُ، وان ترشد غزية أرشد

اما برنادوت فقد بقي في المنطقة حتى انتهى أمد الهدنة دون ان يوفق في مساعيه لتجديدها. وعندئذ سافر إلى مقر هيئة الأمم المتحدة في امريكا. وكمحاولة أخيرة، أبرق وهو في الطريق (١٠ تموز) يناشد الفريقين مرة أخرى ان يوافقا على تمديد الهدنة عشرة أيام أخرى. ومع ان قوات العدو كانت قد بدأت حركاتها الهجومية، فقد أبرقت وزارة خارجية اسرائيل إلى برنادوت تبلغه بموافقتها على اقتراحه - اذا ما وافق العرب على ذلك.

هنا يبرز السؤال: لماذا قرر ساسة الدول العربية رفض تمديد الهدنة، على الرغم من تأكديات قادة جيوشهم انهم لا يملكون القوات الكافية لدحر العدو، وعلى الرغم من قرارات مجلس الأمن، وعلى الرغم من نصائح بريطانيا وأمريكا؟.

في اعتقادي ان اللوم، كل اللوم يقع على عاتق ساسة دولتين اثنتين هما مصر اولاً والعراق ثانيا. فالنقراشي رئيس وزراء مصر كان يعرف من قادة جيش بلاده ان ذلك الجيش لا يستطيع خوض عمليات هجومية، وانه مضطر ان يقف حيث هو، لأسباب كثيرة من أهمها نقص العتاد ووجود مستعمرات يهودية وراء خطوطه، أو في صميم الجبهة التي يتمركز فيها، ومزاحم الباجچي كان يعلم من تأكيدات قادة جيش العراق أن ذلك الجيش وجيوش الدول العربية الأخرى لا تستطيع احراز النصر وأن العدو قوي. ومع ذلك تحمس النقراشي لعدم تجديد الهدنة بل أصر عليها، وكان الباجچي ايضا يصر على استئناف القتال.

فكيف أصرّ النقراشي على قبول الهدنة الأولى، وبعد شهر واحد أصر على عدم تجديد الهدنة - أي على استئناف القتال - وهو يعرف ان وضع العرب العسكري لم يتحسن خلال تلك الفترة، بل على العكس أصبح أكثر ضعفاً مما كان عليه يوم بدأت الهدنة، اذا ما قيس بازدياد قوة العدو؟؟ لقد قيل ان ساسة الدول العربية كانوا يخشون ان تقوم اضطرابات في بلادهم بسبب سخط الجماهير التي غذتها الصحف والدعايات في بادىء الامر بالآمال الخادعة، وأوهمتها ان النصر في متناول اليد وأن العدو يكاد يركع على قدميه. ولكن هل يتصرف قادة الدول المسؤولون عن مصائر بلادهم وشعوبهم طبقا لما تمليه الحقائق، أم انسياقا مع العواطف غير المسؤولة؟؟

وقيل ان رياض الصلح كان أشد الزعماء حماسةً لاستئناف القتال، وربما كان

لشخصيته القوية تأثير على النقراشي وغيره. وقيل انه « لولا الحاج رياض الصلح لاستئناف القتال لما استأنفت الدول العربية الحرب بعد انتهاء مدة الهدنة بل لقبلت امتدادها»(٨) وقيل ان شكري القوتلي والساسة السوريين كانوا ايضا متحمسين لاستئناف القتال. ولكن كان يجدر بساسة مصر والعراق – اكبر دولتين عربيتين – ان لا يأخذا بحماسة الصلح والقوتلي، انطلاقا من الواقع القائم على ان لبنان وسوريا لم تكن لديهما قوات عسكرية يعتد بها، ويمكن ان تؤثر في الحرب ضد العدو. وكذلك بالنسبة لعبد الرحمن عزام الذي لم يكن في واقع الامر سوى موظف عند الدول العربية.

ربما كان اولئك الساسة يعتقدون ان استئناف الحرب سيرغم الدول الكبرى – أو مجلس الأمن – على التقدم بحل أفضل للعرب. وربما اعتقد اولئك الساسة ان نصائح بريطانيا لهم مشوبة بالغدر والخديعة، وربما اعتقدوا (كما كانوا يعتقدون في البداية) ان القادة العسكريين العرب يبالغون في تقدير قوة العدو، وربما، وربما...

ويتضح من المعلومات المتوافرة ان الأردن كان الدولة الوحيدة التي تحملت مسؤولياتها بشجاعة وواقعية وأعلنت بصراحة انه لا يجوز استئناف القتال دون ان يتوافر للعرب سلاح كاف وعتاد وافر. ولكن الأردن اضطر ان يوافق على رأي الأكثرية، لان انفراده بسياسة مستقلة في تلك الفترة كان يحمل من الأخطار أكثر مما كان ينطوي عليه قرار الأكثرية بعدم تجديد الهدنة.

لم يكن غريبا ان تقتدي الدول العربية الأخرى – وهي على ما هي عليه من قلة العتاد – بخطة مصر العسكرية، الا وهي التزام مبدأ الدفاع. ولكن الأمر المثير للاستغراب ان تقرر الدول العربية استئناف القتال والوقوف في الوقت نفسه موقف الدفاع. وأقول هنا «استئناف القتال» لان عدم تجديد الهدنة لم يكن يعني شيئاً آخر سوى استئناف القتال والدخول في معارك حربية. ألم يقدّر ساسة الدول العربية ان العدو قد لا يتخذ موقفا غير منطقي مثل موقفهم، فيحشد قواته ويعمد إلى الهجوم؟ ألم يفصح العدو عن روحه الهجومية في اثناء الهدنة بخرقه لها مرات ومرات، الأمر الذي شكت منه مذكرة اولئك الساسة التي رفضوا فيها تمديد الهدنة؟

لقد كان الملك عبدالله على حق عندما قال انه يعجز عن وصف ما أصابه من الغم والكرب حينما بلغه قرار الساسة العرب بعدم تمديد الهدنة، اذا رأى ان ذلك القرار ينطوي

على ضعف الشعور بالمسؤولية وعدم تقدير العواقب، وعدم التحلي بالشجاعة. وعندما عاد توفيق أبو الهدى من القاهرة، سأله الملك عن سبب موافقته على استئناف القتال، فأجاب: **لقد وجدت نفسي المعارض الوحيد، لان الآخرين كلهم كانوا يريدون استئناف القتال. ولو انني أعلنت عدم موافقتي لما نتج عن ذلك سوى اتهامنا بالخيانة وعدم تجديد الهدنة في الوقت نفسه.** ان الأردن لا يستطيع ان يرفض الاشتراك في القتال اذا أصرت الدول العربية الأخرى على القتال. ثم ان الشعب هنا لن يتقبل ذلك.(٩)

عندئذ تساءل جلوب: ولكن كيف نستطيع ان نحارب دون عتاد؟ فرد عليه ابو الهدى قائلا: لا تطلقوا النار الا اذا أطلق اليهود عليكم النار أولاً. واعتبر جلوب هذا الجواب بمثابة تعليمات من الحكومة الأردنية اليه في كيفية ادارة دفة القتال.

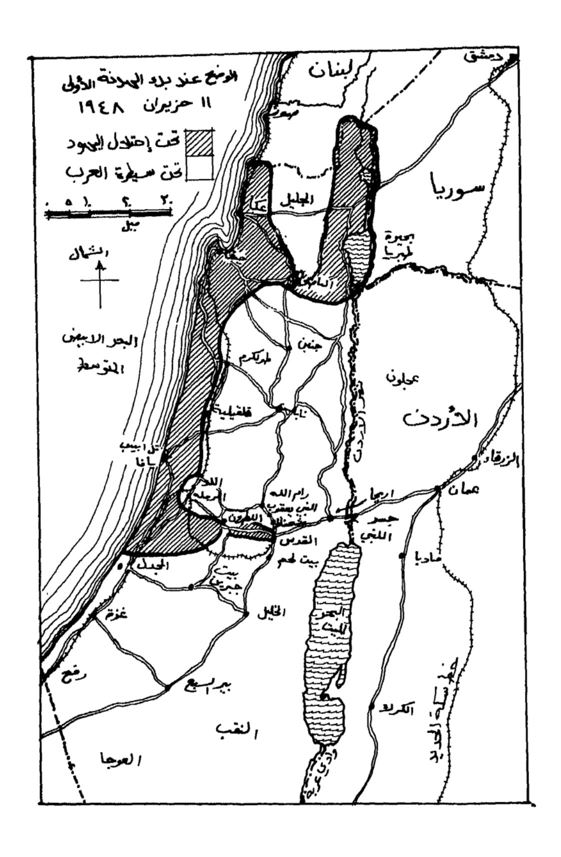
ربما كان رئيس الوزراء يعرف ان تعليماته تلك غير منطقية وغير معقولة: ففي الحرب لا يمكن ان تضمن الطريقة التي سيتصرف بها العدو. ولكن ماذا كان يستطيع رئيس الوزراء ان يقول غير ما قال، في المأزق الذي وجد نفسه فيه، على غير رغبة منه وعلى غير اقتناع؟ لقد كان قرار ساسة العرب باستئناف القتال والتزام مبدأ الدفاع في آن واحد، قراراً حافلاً بالمخاطر، اذ تركوا حرية المبادرة بيد العدو – وحرية المبادرة عنصر مهم في الحرب – ولم يعملوا على اعداد أية خطط هجومية، متناسين المبدأ المهم القائل: ان خير وسيلة للدفاع هي الهجوم. ومن المحتمل ان تكون قيادة العدو قد عرفت بمضمون القرار العربي، فأعدت خططها على أساس حشد قواتها الضاربة، والقيام بمهاجمة أية جبهة عربية تشاء، في الوقت الذي تشاء، وهي مطمئنة إلى أن الجبهات الأخرى ستبقى هادئة حتى يأتيها الدور.

فلا غرابة أن أحاقت الكوارث بالجيوش العربية، واحداً بعد آخر، لان ساسة الدول العربية اتخذوا قرارات لا تتسم بروح المسؤولية، ولا تحسب حساباً للعواقب.

أيام الهدنة: في الجانب العربي

قابل الشعب العربي اعلان الهدنة باستغراب ودهشة. فالتصريحات التي كان يدلي بها الزعماء، والبيانات والتعليقات التي كانت تنشرها الصحف – خلقت في النفوس شعوراً بأن الجيوش العربية النظامية ستتكفل بتأديب الغزاة اليهود وايقافهم عند حدّهم، وجرّهم الى جادة الصواب. لم تكن عند عامة الناس معلومات واضحة عن قوات الطرفين، ولم تكن الصحف تنشر الا تأكيدات محرريها البواسل بأن كافة أفراد الأمة مستعدون للتضحية بالنفس والنفيس، وبأن المقاتلين العرب سوف يجتثون الخطر من جذوره، وبأن شراذم العصابات الصهيونية مقضي عليها حتما. وفي أثناء فترة القتال الأولى مضت الأيام واحداً بعد آخر والشعب العربي ينتظر أن يسمع الأنباء التي طالما حلم بسماعها: استيلاء القوات العربية على هذه المدينة أو تلك المستعمرة من مدن العدو ومستعمراته، أو يسمع على الأقل بتحرير طبريا أو صفد أو يافا أو حيفا – من المدن العربية التي استولى العدو عليها قبل ١٥ أيار. ولكن الانتظار طال، ولم تكن هناك أنباء الا عن وصول القوات العربية الى غزة ونابلس والخليل وغيرها من المدن التي كانت ما تزال بأيدي العرب. وتبادر عندئذ لأبناء الشعب العربي أن الحرب طويلة وقاسية، وان العدو لا يبادر الى الفرار أمام الجحافل العربية.

تألفت في معظم المدن العربية لجان لجمع التبرعات وشراء الأسلحة للمناضلين، ولكن البلاد العربية بصورة اجمالية لم تعش جو الحرب، ولم تتخذ الحكومات اجراءات كفيلة باشتراك المواطنين في المجهود الحربي. ذهب الجنود يقاتلون، اما المدنيون فاقتصرت مشاركتهم في الحرب على الاستماع للاذاعات وقراءة الصحف وتحليل الأنباء. ومضت العواصم والمدن العربية تعيش حياتها العادية الرتيبة، ولم تلامس العاصمة الأردنية – عمان – أجواء الحرب الا عندما أغارت عليها طائرتان للعدو في ليلة ١ حزيران وألقتا القنابل فوق أحيائها فقتل خمسة أشخاص وجرح اثنان وتهدّم عدد من المنازل. عندئذ تعرف المواطن العادي على الحرب عن كثب، وعرف ان الحروب الحديثة لا تقتصر على اصطدام جيش بجيش، وانما هي اصطدام شعب بشعب (لا فرق بين عسكريين ومدنيين). وعرف المواطن العادي ايضا أن هناك عدوا يتلقى الضربات ويرد عليها.(١٠)


الوضع عند بدء الهدنة الأولى
١١ حزيران ١٩٤٨
تحت إحتلال اليهود
تحت سيطرة العرب
ميل
الشمال
البحر الابيض المتوسط
لبنان
دمشق
سوريا
عكا
الجليل
حيفا
بحيرة طبريا
جنين
طولكرم
عجلون
الأردن
قلقيلية
نابلس
الزرقاء
تل ابيب
يافا
اللد
الرملة
رام الله
النبي يعقوب
اريحا
عمان
اللطرون
القدس
جسر اللنبي
مادبا
بيت لحم
بيت جبرين
الخليل
البحر الميت
غزة
رفح
بير السبع
الكرك
النقب
العوجا

ومثلما استغرب المدنيون هدنة الأسابيع الأربعة استغربها العسكريون. وكان الاستغراب على أشده بين ضباط الجيش العربي وجنوده، لسببين أساسيين: أولهما انهم كانوا ألصق الجيوش العربية بفلسطين، وثانيهما ان قادة الجيش كانوا من الانكليز الذين تنسحب عليهم علامات الاستفهام المرسومة تجاه السياسة البريطانية. كان أولئك الجنود والضباط يودون الاستمرار في الحرب ويريدون أن يلحقوا الهزيمة بالعدو. وها هي الهدنة تأتي والعدو لم تلحق به الهزيمة. لقد اعتبروا الهدنة بمثابة لطمة لهم، اذ كانوا ما يزالون يضيقون الخناق على القدس، وكان أملهم قويا باستسلامها. وتبادر الى أذهانهم ان الهدنة جاءت لانقاذ يهود القدس، فامتلأت نفوسهم بالسخط. كان رجال الجيش العربي يعتقدون ان حصارهم للقدس وقطعهم الغذاء والماء عنها، وتحطيمهم لجميع هجمات العدو الرامية الى فك ذلك الحصار – لا بد ان ينتهي باستسلام العدو المحصور. ومن هذا المنطلق اعتبروا ان الهدنة انقذت « مائة الف يهودي من موت محقق»، وانها اختلست من بين أيديهم نصراً قريب المنال.

كانت قضية الحصول على العتاد من أهم ما يشغل بال الملك عبدالله وقيادة الجيش. فقد كان الجيش العربي يعتمد كل الاعتماد على تزويد بريطانيا له بالسلاح والعتاد. ومنذ البدء بانشاء الكتائب المسلحة سنة ١٩٤٠ والجيش يعتمد في كل شيء على بريطانيا. وقد بقي الأمر كذلك حتى ١٥ أيار عندما انسحبت بريطانيا من فلسطين، وتقيدت بقرار حظر توريد السلاح الى الدول العربية واليهود. وكان الجيش قد حصل على كميات من العتاد من مستودعات الجيش البريطاني في منطقة قناة السويس، ولكن معظم تلك الكميات صرف في فترة القتال الأولى. ومن أشد الضربات الموجعة التي وجهت الى الجيش ما كان من مصادرة المصريين للباخرة المحملة بالذخائر، وكان معظم حمولتها من قنابل المدافع الثقيلة. وقد جاء في أحد المصادر ان تلك الباخرة كانت تحمل – من جملة ما تحمل من عتاد – ١٥ الف قنبلة من قنابل مدافع ٢٥ رطلاً.

لم يستطع الأردن، ولم تستطع الدول العربية الأخرى، الحصول على ذخائر جديدة بدل الذخائر التي صرفت في فترة القتال الأولى. وكما أسلفت القول، كان اعتماد هذه الدول على بريطانيا وفرنسا اعتمادا كليا. وعندما التزمت هاتان الدولتان بقرار حظر توريد السلاح – لم تستطع الدول العربية ان تحصل على حاجتها من الذخائر من أية مصادر

أخرى. وقام السوريون بمحاولة جلب كمية من العتاد والسلاح من تشيكو سلوفاكيا، وتولى المهمة و. ق. فؤاد مردم، ولكن عملاء العدو استطاعوا احباط تلك المحاولة، فلم يصل الى القوات السورية شيء من ذلك العتاد والسلاح. وكان من أهم الأسباب التي حالت بين العرب والحصول على السلاح من وراء قرار الحظر الدولي - كما فعل العدو - أن العرب لم تكن لهم جاليات ذات صفة مزدوجة، مثلما كان لليهود في كل قطر من أقطار اوروبا.

وسعى الملك عبدالله سعيا حثيثا للحصول على سلاح وعتاد من بعض الدول الصديقة. ففي الثلث الثالث من شهر أيار (اي بعد بدء الحرب باسبوع واحد)، أوفد عمر زكي الأفيوني، الوزير الأردني المفوض لدى تركيا، برسالة خاصة الى الرئيس التركي عصمت اينونو، يناشده فيها تزويد الأردن ببعض ما يحتاج اليه من السلاح والعتاد. وقد أبدى الرئيس التركي تعاطفه مع الملك، ولكنه اعتذر بأن بلاده لا تستطيع القيام بعمل يتعارض مع مقاصد حليفتيها أمريكا وبريطانيا. وعندما اقترح الوزير المفوض تزويد الأردن بما يحتاج اليه بطريقة سرية ودون علم الانكليز، أجابه اينونو: وهل تخفى على الانكليز خافية؟. وكرر الملك محاولته في شهر تموز، ولكن الرئيس التركي ظل على موقفه الأول، ونصح العرب بالاتجاه نحو حل سياسي للمشكلة (بعد اخفاقهم في ميدان القتال).(١١)

(راجع في ملاحق هذا الكتاب نصوص ثلاث رسائل بعث بها الملك عبدالله الى رئيس الجمهورية التركية).

وفي نطاق سعي الأردن للحصول على سلاح وعتاد، تألفت لجنة أهلية برئاسة العين صبري الطباع لجمع التبرعات، وقيل انها تمكنت من جمع مبلغ مائة الف دينار. وقد تم تكليف حامد الوادي (رئيس ديوان الملك عبدالله سابقا) بالسفر الى ايطاليا لشراء سلاح وعتاد. ولكنه لم يوفق في مهمته. ثم أوفد الملك عبدالله مرافقه هاشم الدباس الى باريس (ومعه رجل أعمال لبناني) حيث تم الاتصال مع عدد من شركات بيع الأسلحة، للحصول على عروض بالأسعار. وعاد الدباس الى عمان وقدم تقريرا بامكان الحصول على أعتدة وسلاح. وقيل ان التقرير أحيل الى رئيس أركان الجيش. وكانت مهمة الدباس هذه في فترة اجتماعات لجنة التوفيق الدولية في لوزان. كما حدث في الفترة ذاتها ان الملحق العسكري الأردني في لندن وكيل القائد كمال الحمود، كلف بالبحث عن مصادر للسلاح والعتاد.

وجرت اتصالات بهذا الشأن عن طريق الملحق العسكري في سفارة باكستان، وعلى الأرجح كان الشراء سيتم بواسطة المبلغ الذي تم جمعه من التبرعات الشعبية. ولكن هذا المسعى تعثر مثل غيره من المساعي المتعلقة بهذا الموضوع.

وفي احدى مراحل الحرب بلغ وزارة الدفاع انه بالامكان شراء كميات من عتاد مدافع الهاون عن طريق بعض الوسطاء في لبنان، فأرسل فوزي الملقي وزير الدفاع الى بيروت لجنة مؤلفة من فريح قعوار المدير المالي في القيادة، والقائد سعيد العاملي، والرئيس راضي الهنداوي، لهذه الغاية. ولكن اتصالات اللجنة لم تؤد الى نتيجة ايجابية. وفي هذا الصدد يقول الفريق جلوب:

بعد سريان مفعول الهدنة ذهبت الى رئيس الوزراء وشرحت له طبيعة وضعنا المقلقل، والخسائر الكبيرة التي لحقت بأفراد الجيش وعدم وجود احتياط لدينا. وسألته عما اذا كان يوافق على تجنيد مزيد من الجنود حتى نكون في وضع أفضل اذا ما استؤنف القتال. وكان رد رئيس الوزراء: لن يكون هناك قتال بعد اليوم. لقد اتفقت مع النقراشي، على ذلك، ونستطيع كلانا ان نقنع الآخرين بوجهة نظرنا. لا، لا قتال بعد اليوم. وحاولت أن أوضح للرئيس ان اليهود قد يهاجموننا. ولكن توفيق باشا كان متصلبا في موقفه، اذ عاد يقول: لا قتال بعد اليوم، ولا مخصصات مالية جديدة للجيش. وكان من نتيجة هذا الموقف اننا لم نستفد الا قليلا من فترة الهدنة الثمينة.

على ان قيادة الجيش قامت في أثناء فترة الهدنة ببعض الاجراءات التنظيمية، نذكر منها:

١ - تأليف الكتيبة الخامسة في بيت حنينا، بقيادة و. ق. علي الحياري، والكتيبة السادسة في القدس بقيادة و. ق. عبد الله التل. وتألفت كل منهما من ثلاث سرايا من سرايا الحاميات التي اشتركت في الجولة الاولى من القتال . وبقيت الكتيبتان تابعتان للواء الرابع. إن تأليف هاتين الكتيبتين لم يكن يعني أية زيادة فعلية في قوة الجيش، بل استهدف التنظيم وزيادة الفعالية.

ولما كنت بينت سابقا ملاك الكتيبة السادسة من السرايا، فانني أدرج فيما يلي ملاك الكتيبة الخامسة:

تم تشكيل هذه الكتيبة في منطقة بيت حنينا بتاريخ ١٤ حزيران ١٩٤٨ أي في أثناء

الهدنة الأولى . وقد تألفت على النحو التالي:

قائد الكتيبة	وكيل القائد علي الحياري
ركن حرب	الملازم الأول صالح الشرع
السرية الأولى	الرئيس سليمان مسعود (السرية ٩ سابقاً)
السرية الثانية	الرئيس محمد خلف العمري
السرية الثالثة	الملازم الأول راضي العبدالله
السرية المساندة	و. ق. كريم أوهان (مساعد قائد الكتيبة أيضاً)
سرية القيادة	الملازم عبد الله العايد

وفيما بعد تألفت سرية مشاة رابعة، أسندت قيادتها الى الملازم الأول أحمد الفياض الضرغام.

وقد تلقى جنود هذه الكتيبة تدريبات سريعة على فنون القتال واستعمال الأسلحة، وذلك قبل أن تتسلم مواقعها في خط النار الأمامي.

اما الاجراءات الأخرى التي اتخذتها القيادة في اثناء الهدنة فهي:

٢ – تم تبادل المواقع بين الكتيبتين الثانية والرابعة، اذ انتقلت الكتيبة الثانية الى منطقة اللطرون ــ عمواس، وانتقلت الكتيبة الرابعة الى جبال يالو. وقد تم ذلك في اليوم الأول من تموز. وفي الوقت نفسه نقلت بطارية المدفعية الى الخلف بعض المسافة وتمركزت بين أشجار الزيتون في أراضي بيت لقيا.

٣ – قام سلاح الهندسة في الجيش بانشاء طريق تصلح لمرور السيارات بين القدس وبيت لحم، بديلاً عن الطريق المباشرة التي استولى اليهود عليها عند رامات راحيل.

وكان الاتصال بين المدينتين قبل ذلك يتم على ظهور الدواب أو مشياً على الأقدام. وتمر تلك الطريق من بيت لحم الى بيت ساحور ــ دير العبيديين ــ أبو ديس ــ العيزرية. وبذلك عاد الاتصال بين منطقة الخليل وبقية المناطق الباقية للعرب في فلسطين.

٤ – حلت الكتيبة الخامسة في مواقع بدو والرادار والنبي صموئيل، وبذلك أصبحت الكتيبة الأولى قوة احتياط للجيش.

٥ – انشأت الكتيبة السادسة برجاً لمدفع عيار ٦ أرطال على سطح القلعة في باب الخليل، ثم رفع المدفع بعد أن فكت أجزاؤه وأعيد تركيبه في ذلك البرج الذي يشرف على معظم أحياء اليهود في القدس الجديدة.

٦ - تم تأليف سرية المشاة ١٩ بقيادة الملازم الأول قاسم أبو شريتح (حويطات)، وقد تألفت من جنود البادية الذين جمعتهم القيادة من هنا وهناك. وبعد فترة تدريب قصيرة في موقع النبي صالح، تحركت السرية الى مثلث بيت سيرا وانضمت هناك الى السرية الخامسة (الى ان تحركت هذه الى اللد والرملة). وقد أنف جنود البادية أولا من حفر الخنادق والاحتماء بها، ولكن اطلاق العدو نار المدافع عليهم من وراء قرية البرج اضطرهم الى قبول الواقع فحفروا خنادق عميقة.

٧ - تم تدريب عدد من الضباط والجنود على استعمال بطارية مدافع هاون ثقيلة عيار ٢ر٤ بوصة (عددها ثمانية مدافع). وكان الجيش العربي نقل هذه المدافع من رفح في أوائل سنة ١٩٤٨ وبقيت في مستودعات الجيش، حتى ظهرت الحاجة الماسة الى المدفعية في فترة القتال الأولى. وقد أشرف على التدريب و. ق. روبنسون. وعند استئناف القتال تحركت البطارية الى فلسطين، حيث تمركزت فئة منها بالقرب من موقع النبي صموئيل، في قطاع القدس، والفئة الأخرى قرب خربثا لاسناد الكتيبة الأولى. وتولى قيادة البطارية و. ق. مانسل وهو ضابط متعاقد. ومن ضباطها العرب: أحمد أرسلان ومحمد علي أمين ومحمد خليل عبد الدايم وعيسى حدادين وبطرس حمّارنة.

٨ - تسلم الجيش العربي من الجيش العراقي بطارية مدافع (عددها ثمانية) عيار ١٨ رطلا ومعها أربعة آلاف طلقة. كانت هذه المدافع ملغاة في الجيش العراقي، ولكن بسبب حاجة الجيش العربي الماسة لمزيد من الاسناد المدفعي، فقد تم استعارة هذه المدافع نتيجة اتصال قام به الملك عبد الله مع الأمير عبد الاله. وقد نقل الجيش هذه المدافع الى قرية العيزرية التي تشرف على القدس من ناحية الشرق، ورافقها عدد من المدربين العراقيين بقيادة الملازم عبد الرزاق عبد اللطيف القاضي، لتدريب الأفراد الأردنيين على استخدامها. أما قيادة البطارية فقد أسندت الى الملازم الثاني محمد خليل عبد الدايم. ومن هذا نلاحظ ان التدريب والاشتراك في القتال كانا يتمان معا، في ظروف صعبة. ومع ان البطارية كانت ضمن مسؤولية قيادة المدفعية، الا انها ألحقت بقائد الكتيبة السادسة لمساندة الدفاع عن المدينة القديمة، كما انها ساندت عمليات الكتيبة الثالثة، وكان لها تأثير فعال في الرد على مدفعية العدو.

بالاضافة الى ما تقدم عمل الجيش العربي على اثبات وجوده في اللد والرملة، ولو بصورة رمزية تستهدف تقوية معنويات الأهلين ومعنويات المناضلين المدافعين عن المدينتين. وقد تم تعيين حاكم عسكري هو و. ق. ادريس سلطان، كما أرسلت السرية الخامسة بقيادة الرئيس اديب القاسم (٢٣ حزيران) لكي تتمركز في المدينتين وتشد من أزر السكان والمناضلين. وكان وجود تلك القوة الصغيرة استجابة لاستغاثات أهالي المدينتين بالملك عبد الله والحكومة الأردنية، بعد ان اقترب الخطر منهم وأخذ اليهود يضيقون عليهم الخناق. ولم يكن منتظرا من مئة جندي مشاة مسلحين بالبنادق ان يدافعوا عن مدينتين كبيرتين دفاعاً ناجحاً وفعالاً اذا قام العدو بهجوم مركز وبقوة كبيرة، ولكن كان المقصود تقوية المعنويات واثبات وجود احدى الدول العربية في حالة وقوع تسوية سلمية. ولا ننسى ان قيادة الجيش كانت في السابق قد أرسلت الى تلك المنطقة نحو ٣٠٠ مجاهد أردني من المتطوعين، وأكثرهم من ابناء القبائل وزودتهم بالبنادق والذخائر، وكانت حركة المناضلين الأردنيين في اثناء فترة القتال الأولى. ونفهم من تأكيدات توفيق ابو الهدى للفريق جلوب ان تسوية سلمية كانت متوقعة مع الافتراض ان الدول الكبرى ستفرضها.

وهناك نقطة أخرى تدل ان الموضوع كان اجراء عسكريا، لان الحاكم العسكري ادريس سلطان كان أحد ضباط الجيش، بينما كان الحكام العسكريون الذين عينتهم الحكومة للقدس ورام لله والخليل ونابلس – من المدنيين الذين أعطتهم الحكومة رتباً عسكرية فخرية.

وعلى الرغم من تأكيدات رئيس الوزراء من ان الحرب لن تستأنف، فان القيادة بذلت كل ما كان في الوسع للافادة من جميع الجنود الذين كانوا على ملاك الجيش. بل عمدت القيادة الى تجنيد عدد من الشبان للتعويض عن الجنود الذين قتلوا او أصيبوا بجراح. ويقول الفريق جلوب أنه أرسل الى الجبهة كل من كان في الامكان الاستغناء عنه من الجنود، حتى مراسلي المكاتب في القيادة أُرسلوا الى فلسطين، وتحول معظم جنود البادية الى جنود نظاميين.

هذا فيما يتعلق بالوضع على جبهة الجيش الأردني.

أما فيما يتعلق بالجيوش العربية الأخرى، فيمكن اعطاء الصورة الموجزة التالية:

القوات المصرية

كانت القوات المصرية يوم اعلان الهدنة تتمركز على خط يمتـد مـن اسدود والمجدل الى دير سنيد – الفالوجة – عراق سويدان – بيت جبرين. بينما كانت قوات المتطوعين قـد وصلت الى بيت لحم والخليل. وقوات المتطوعين هذه كانت فـي الواقـع جـزءا مـن الجيش المصري، يقودها ضباط مصريون وترتبط بالقيادة المصرية وتأتمر بأمرها.

وقد حدث قبيل بدء الهدنة ان العدو استولى على بلدة عسلوج (١١ حزيران) واضطـر القوة المصرية المرابطة فيها الى الانسحاب. وتحصن العدو في عسلوج، ولم تحاول القوات المصرية استردادها على الرغم من أهمية موقعها العسكري.

وفي أثناء الهدنة عزز المصريون قواتهم في فلسطين، حتى أصبحت تتألف مـن فرقـة مشاة كاملة مع أسلحة الاسناد اللازمة. وقد وافقت قيادة الجيش على ان تكون مهمة القـوات الموجودة في فلسطين – في حالة تجدد القتال – كما يلي:

١ – تأمين خط المواصلات بتطهير المستعمرات المشرفة عليه (٩ مستعمرات).

٢ – بعد اتمام ذلك تكون القوات المصرية على استعداد للتقدم جنـوب تـل ابيب، فـي نفس الوقت الذي سوف تكون فيه باقي الجيوش العربية مستعدة لاجراء مثل هذا التقـدم مـن جانبها. (١٢).

عمل اليهود على انشاء خط قتـال لقواتهم قبالـة خـط القتـال المصـري، وعملـوا علـى تحسين ذلك الخط في أثناء الهدنة، فاحتلوا قرى بيـت دوراس، الجسـير، عبديـس، جوليـس، والتبة ٩٦، وطردوا أهالي هذه القرى منها. ثم احتلـوا قريـة كوكبـة وطـردوا أهلهـا ايضـاً، وأخذوا يمونون مستعمراتهم بواسطة قوافـل كبيرة تحمـل المـؤن (والسـلاح والعتـاد). وفـي بادىء الأمر لم تعمل القوات المصرية على الاشتباك مع العدو، الا انها لم تلبث في أواخـر شهر حزيران حتى عمدت الى مهاجمة بيت دوراس فاستولت عليها، ولكن العدو تمكن مـن استردادها. ومن الغريـب ان الوثـائق الأمريكيـة تقـول ان القيـادة المصـريـة أصـدرت أمـراً لقواتها بأن لا تعمل على استعادة القرى التي استولى عليها اليهود فـي أثنـاء الهدنـة، وأن لا تقوم بأعمال انتقامية ضد المعتدين (١٣). هذا على الرغم من معرفـة تلـك القيـادة بـأن تلـك القرى ذات أهمية استراتيجية.

وفي أثناء الهدنة انضمت الـى القـوات المصـريـة وحـدات مـن المتطوعيـن مـن مصـر

وليبيا والسودان والسعودية واليمن.

وقد قيل أن عدد أفراد القوات المصرية المرابطة في فلسطين، أزداد في اثناء الهدنة الى ١٨ الفا، وان هذه القوات تزودت بعدد من مدافع ٢٥ رطلا ومدافع هاون عيار ٥ر٤ بوصة وبعدد من الطائرات، وحصلت على مقادير كبيرة من الأسلحة الأخرى (التي تبين فيما بعد انها معطوبة وفاسدة).

القوات العراقية

كانت القوات العراقية عند بدء الهدنة تتألف من الوحدات التالية:

١ – جحفل اللواء الأول الذي اشتبك مع اليهود في معركة جيشر ثم انتقل الى منطقة نابلس بقيادة نجيب الربيعي.

٢ – القوة الآلية بقيادة العقيد رفيق عارف.

٣ – جحفل اللواء الرابع بقيادة العقيد صالح زكي توفيق، وصل الى نابلس في حزيران ودخل معركة جنين في اليوم التالي.

٤ – فوج يتمركز في منطقة جسر المجامع، قبالة جيشر، وفي الأيام الأخيرة من الهدنة أخذ هذا الفوج يسلم مواقعه الى فوج الشرطة السيارة، ثم انتقل الى قطاع نابلس بعد ذلك.
وكانت هذه الوحدات تتمركز في نابلس وجنين وطولكرم وقلقيلية، والمواقع الأمامية في القطاع.

٥ – الفوج الثاني من اللواء الخامس بقيادة المقدم عمر علي، وصل الى قطاع نابلس في ٢ تموز.

وبعد بدء الجولة الثانية:

٦ – جحفل اللواء الثالث، وصل الى القطاع يومي ١٤ – ١٥ تموز.

وتقدر المصادر أن القوات العراقية في حرب فلسطين ازداد عدد أفرادها من خمسة الآف عند بدء القتال في ١٥ أيار الى عشرة آلاف في أثناء فترة القتال الثانية.

وفي أثناء الهدنة قامت القوات العراقية بتنظيم المناضلين الفلسطينيين في وحدات مقاتلة، وقامت بتدريبهم وتسليحهم وألفت منهم أربعة أفواج (كتائب). وقد اشترك المناضلون في القتال الذي نشب في اثناء فترة القتال الثانية.

اما الضباط الذين تولوا قيادة القوات العراقية في حرب فلسطين، فهم:

اللواء نور الدين محمود	٥ – ١٤ ايار ١٩٤٨.
الزعيم طاهر الزبيدي	١٨ ايار – ٢٠ تموز ١٩٤٨.
اللواء مصطفى راغب	٢٠ تموز – ١١ تشرين الاول ١٩٤٨.
اللواء نور الدين محمود	١١ تشرين الاول ١٩٤٨ – ١٦ حزيران ١٩٤٩.
الزعيم رفيق عارف	١٦ حزيران ١٩٤٩ – ٢٧ تموز ١٩٤٩.

وفيما يتعلق بالقوات السورية واللبنانية وجيش الانقاذ، فتقول بعض المصادر انها لم تستطع زيادة فعاليتها بصورة محسوسة نتيجة للهدنة، وان مجموعها كلها لم يزد على ثمانية الآف رجل.

* * *

لم يستغل العرب فترة الهدنة على الوجه الأكمل، لأسباب كثيرة تتعلق بمستوى كفاءة القادة العسكريين والامكانات المتاحة لهم، كما تتعلق بتردد السياسيين بين تجديد الهدنة او استئناف القتال. ولم تكن لدى الحكومات العربية تلك الفعالية التي كانت لدى اليهود فيما يتعلق بجلب الأسلحة والذخائر من وراء قرار حظر توريد السلاح الى المنطقة. حقا لقد زادت الدول العربية قواتها من نحو ٢٥ الفا في فترة القتال الأولى الى نحو ٤٠ الفا عند بداية فترة القتال الثانية، ولكن نسبة الزيادة عند اليهود كانت أكبر، اذ ازداد جيشهم النظامي حتى أصبح لا يقل عن ٦٠ ألف جندي وضابط . وعند بدء القتال في الجولة الأولى كان العرب يتفوقون بما لديهم من طائرات مقاتلة ومدفعية ومصفحات، ولكن هذا التفوق انتهى في اثناء فترة الهدنة. وعند بدء الجولة الثانية كان لدى اليهود طائرات مقاتلة ومدفعية ثقيلة تزيد كثيرا على ما كان لدى العرب من هذين السلاحين.

ويجدر بالذكر ان جيش الانقاذ (الذي انتقل في الثلث الأخير من شهر ايار من قطاع نابلس والقدس ورام الله)، تمركز في الجليل الشرقي قبيل بدء الهدنة، واتخذ قائده فوزي القاوقجي من مدينة الناصرة مركزا لقيادته.

أيام الهدنة: في الجانب اليهودي

أفاد اليهود كثيراً من أسابيع الهدنة الأربعة، فأعادوا تنظيم قواتهم، وتمكنوا من استيعاب الأسلحة والمعدات التي كانت تصل اليهم باستمرار من اوروبا، وخاصة من تشيكوسلوفاكيا. وقامت قيادة اليهود العليا بتوزيع القوات العسكرية على اربع مناطق لكل منطقة قيادة. وتولى يادين منصب رئيس الأركان.

قضت أوامر اعادة التنظيم بان يكون لدى اليهود جيش واحد خاضع لقيادة واحدة. وكان هذا يعني منع المنظمات الارهابية (الأرغون وشتيرن) من ان تكون لها قوات منفصلة. ولكن الأرغون حاولت تحدي تلك الأوامر عندما وصلت اليها السفينة (اتلانتا) وعليها ٩٠٠ متطوع ومقادير كبيرة من الأسلحة والذخائر. وبعد ان تم انزال الرجال ومعظم الأسلحة والذخائر، قامت قوات الحكومة باغراق السفينة، وأرغمت منظمة الأرغون على الخضوع لها. وكان مناحيم بيغن يتزعم منظمة الأرغون، وهو الذي قال إن الأسلحة التي كانت السفينة تحملها تكفي لتسليح عشر كتائب. ومن الجدير بالذكر ان السفينة جاءت من فرنسا، وان الحكومة الفرنسية قدمت مقادير كبيرة من السلاح والعتاد للأرغون مجاناً، وسمحت لتلك المنظمة الارهابية باقامة قاعدة عسكرية لها قرب مرسيليا. وللاستدلال على حجم الأسلحة التي جمعتها المنظمة هناك نقول انها كانت تتألف من ٥ آلاف بندقية و ١٥٠ مدفعا و ٣٠٠ رشاش برن و ٤ ملايين رصاصة وعدة الآف من القنابل. وعلى الرغم من قرار مجلس الأمن بحظر توريد السلاح للعرب واليهود، فان السفينة وصلت في ٢٠ حزيران الى شاطيء فلسطين ونشرت الصحف العالمية أنباءها.

اما السلاح والعتاد الذي حصل عليه اليهود من تشيكوسلوفاكيا فحدث عنه ولا حرج، ذلك ان تلك الحكومة سمحت لهم باقامة قاعدة جوية في (زاتك)، فأخذوا يشحنون منها السلاح بالطائرات الى مطار عاقر في فلسطين. ولم يكفهم ذلك بل حصلوا من امريكا على طائرات من قاذفات القنابل، وقاموا بتهريبها عن طريق تشيكوسلوفاكيا.

والغريب ان الانكليز (حلفاء العرب التقليديين!!) اكتشفوا حركة تهريب السلاح من تشيكوسلوفاكيا منذ أوائل حزيران ١٩٤٨، اذ كانت سفارتهم هناك تزود وزارة خارجيتهم بمعلومات عن تدريب الطيارين اليهود، وعن الطائرات الثلاث وهي من قاذفات القنابل الثقيلة التي غادرت تشيكوسلوفاكيا في ١١ حزيران، في طريقها الى فلسطين.

ولعبت تشيكوسلوفاكيا دوراً رئيسياً في بناء قوة الطيران اليهودية، وزاد التعامل بينها وبين اليهود بعد قرار الأمم المتحدة بمنع تصدير السلاح للعرب واليهود. وقد زودت اليهود على الأقل بثلاثين طائرة مقاتلة، نُقلت قطعاً وأُعيد تركيبها في فلسطين. وكان ذلك كله يتم بمعرفة الاتحاد السوفياتي – على الرغم من عضوية الدولتين في هيئة الأمم ومن موافقتهما على القرار المذكور.(١٤).

وعلى الرغم من قرار حظر توريد السلاح، وعلى الرغم من شروط الهدنة ومراقبي الامم المتحدة، فان سفينة أخرى أنزلت يوم ١٥ حزيران على شاطيء فلسطين عشرة مدافع عيار ٧٥ ميللمترا وعشر مصفحات و١١٩ مدفعا عيار ٦٥ ميللمترا و ٤٥ ألف قنبلة. وأنزلت سفينة ثالثة ١٢٠ طناً من المتفجرات. ثم وصلت من المكسيك سفينة تحمل ٣٦ مدفعا عيار ٧٥ ميللمترا و ٥٠٠ مدفع رشاش و ١٧ ألف قنبلة وسبعة ملايين طلقة بندقية. ثم وصلت من امريكا سفينتان تحملان سيارات جيب وسيارات نقل. وعند بدء الجولة الثانية كانت قوة طيران العدو تضم ٧٣ طائرة من أنواع مختلفة، استخدم الاسرائيليون لقيادتها طيارين متمرسين من يهود وغير يهود.

وكان برنادوت ومن معه من المراقبين على علم بوصول تلك البواخر. وقد جاء في مذكراته انه كان على علم بوصول السفينة اتلانتا وان المراقبين أسرعوا الى الشاطيء لتفتيشها ولكن رجال الأرغون منعوهم من الاقتراب منها. وقال برنادوت ان ما حملته تلك السفينة من سلاح وعتاد ورجال قلب التوازن العسكري بين العرب واليهود. ومع ذلك تحمل برنادوت المسؤولية الأدبية في أنه لم يفعل شيئا، ولم يستقل من مهمته على الأقل. ولعله كان يعتقد انه يستطيع تمديد الهدنة والتقريب بين وجهتي نظر الفريقين، حتى يتوصل الى الحل الدائم بصورة سلمية. وما كان أشبهه في موقفه ذاك، برئيس وزراء بريطانيا تشمبرلين، الذي وثق بوعود هتلر وأقنع نفسه بأن هتلر لا بد أن يقتنع بأهمية السلام.

وبينما كانت سلطات اليهود تعمل على استيعاب تلك الأسلحة وعلى تدريب الآلاف من الجنود الجدد – كانت أيضاً تعمل على توزيع الأسلحة والقوات الجديدة على مختلف الجبهات. وفي نظر القيادة اليهودية، كانت جبهة القدس ذات أولوية استثنائية، لذلك عمدت خلال أيام الهدنة الى اتمام الطريق الفرعية وتحسينها (طريق بورما). وفي ١٩ حزيران تم شقها نهائياً، فمرت عليها في ذلك اليوم ١٤٠ سيارة شحن. وأتاحت هذه الطريق لليهود

مجال تزويد قواتهم في القدس بالسلاح والعتاد، دون فحص من قبل المراقبين الدوليين الذين كانت مهمتهم تنحصر في الطريق الأساسية – طريق باب الواد. وهكذا أخذ اليهود يشحنون المؤن والبضائع على طريق باب الواد، ويشحنون الأسلحة والذخائر على الطريق الفرعية. وخلال اسبوع واحد وصل الى القدس من المواد الغذائية ما يكفي سكانها اليهود مدة أربعة أشهر . كان هذا كله يناقض شروط الهدنة، ولكن أي شرط من شروط الهدنة لم يخرقه اليهود؟؟

اعتبر الأردن استمرار العمل في شق تلك الطريق الجبلية خرقا لبنود الهدنة، فاحتج لدى المراقبين الدوليين ولدى رجال الصليب الأحمر الذين كانوا يراقبون ما تحمله القوافل . ومضى المراقبون للاطلاع والتحقيق، ولكن اليهود منعوهم من دخول مواقعهم (ولم يفعل برنادوت ومراقبوه شيئا). ولم يستطع الجيش العربي أن يفعل شيئاً سوى أن يمنع المراقبين من دخول مواقعه. وجاء جلوب ولاش واشتون يشاهدون قوافل السيارات تمر على تلك الطريق ليلاً ونهاراً.

وفي الوقت نفسه مد اليهود خط أنابيب جديد للمياه طوله ١٦ كيلومترا، الى جانب الطريق الفرعية. وأخذ هذا الخط يزود سكان القدس الجديدة بالماء، بعد ان قطع العرب عنهم مياه رأس العين.

وبذلك كله لم تعد القدس الجديدة تحت الحصار.

ومثلما تمكن اليهود من تزويد القدس الجديدة بالمؤن والأسلحة، فانهم عملوا أيضاً على تزويد المستعمرات اليهودية في النقب بما كانت في أشد الحاجة اليه من ذلك. وكانت قوافلهم تمر عبر الخطوط المصرية، باشراف المراقبين الدوليين. وقد أدى ذلك الى تقوية تلك المستعمرات التي أخفق الجيش المصري في الاستيلاء عليها في أيام القتال، فبقيت قائمة. وفيما بعد دفع المصريون ثمنا غاليا لتركهم اياها وراء ظهورهم.

وأخذت عصابتا الأرغون وشتيرن تستعدان لمقاومة تدويل القدس الذي نص عليه قرار التقسيم، فجلبت العصابتان تعزيزات وأسلحة ومعدات، وتمركز رجالهما في مناطق استراتيجية حتى أصبحت جيوبا محصنة. أما في الجانب العربي فقد أخذ السكان ينزحون عن المدينة القديمة حتى تناقص عددهم (كما يقول عارف العارف) من ٦٥ ألفا الى خمسة آلاف.

وعمل اليهود في أثناء الهدنة على تحسين مواقعهم العسكرية في كافة القطاعات، وذلك بالاستيلاء على ما أمكن من التلال الاستراتيجية، وبتطهير جيوب المقاومة وطرد سكان القرى من منازلهم. ومن القرى التي احتلوها وطردوا أهلها ثم دمروها، ثلاث قرب حيفا هي جبع (غير جبع مركز قيادة القاوقجي سابقاً) واجزم وعين غزال، وقد قاموا بذلك في ٢١ تموز، بعد بدء الهدنة الثانية.

ان افادة اليهود من الهدنة قلبت القوى بسرعة فائقة وغير متوقعة. وقد كانت أسباب ذلك تعود بالدرجة الأولى الى حسن التنظيم، والخبرة الكفؤة، وسيطرة القيادة السياسية والعسكرية على المجهود العام لليهود وتوجيه ذلك المجهود بدقة وصرامة . وكانت قيادتهم تعرف هدفها بوضوح وتسير نحوه دون تردد. ثم لا ننسى أن الأموال كانت متوافرة لديهم لشراء الأسلحة واستخدام الأشخاص الأكفاء في ذلك. ووجد يهود فلسطين في يهود اوروبا واميركا المنتشرين في جميع أقطار القارتين – انصاراً طبيعيين ومخلصين، فتعاونوا معهم وأخذوا يقدمون لهم المساعدة بكل وسيلة من الوسائل الممكنة. وكان من بين هؤلاء أشخاص مستعدون للتضحية والعمل الشاق دون انتظار أية مكافأة أو تقدير.

هنا أود أن أعرب عن اعتقادي بخطأ رأي القائلين بأن قبول العرب للهدنة الأولى هو الذي جر عليهم البلاء . فالواقع أن الأسلحة والذخائر والطائرات التي تلقاها اليهود في شهر حزيران، لم تصل الى فلسطين لأن الهدنة أصبحت نافذة، بل وصلت في المواعيد التي كانت ستصل فيها، سواء كانت هناك هدنة أم لم تكن. ولو أستمر القتال بين الفريقين لكانت تلك الأسلحة وصلت الى اليهود، لان العرب لم يكونوا يملكون أساطيل بحرية وجوية تحول دون وصولها، ولم يكونوا يملكون أجهزة استخبارات وعملاء أكفاء يمكن أن يعيقوا وصولها. وأعتقد انه يكون أقرب الى الصواب أن نقول: **ان العرب أضاعوا فرصة ثمينة – ربما كانت فرصتهم الوحيدة – في انهم لم يحشدوا كل ما كان لديهم من جند وسلاح، ويدفعوا بها الى ميدان القتال منذ اليوم الاول للحرب.** ان الأسلحة والذخائر التي بدات تصل الى اليهود بكميات كبيرة ابتداء من أوائل حزيران، واستمر وصولها في تموز وفي الأشهر التالية – كانت نتيجة أعمال دائبة وترتيبات دقيقة قام بها أشخاص أكفاء وأجهزة متكاملة، في الأشهر الخمسة أو الستة التي سبقت انسحاب الانكليز من فلسطين. واذا كانت هناك من فائدة للهدنة، فانها تكمن في اتاحة المجال للعدو كي يقوم بتوزيع الأسلحة التي

أخذت تصل اليه علـى الوحـدات العسـكرية وعلـى الجبهـات المختلفـة دون ان تكـون قواتـه منهمكة في معارك القتال. أي ان الاستعدادات التي قام بهـا العدو فـي بدء الحـرب، كـانت ستؤدي – في غياب استعدادات مماثلة في الجـانب العربـي – الـى قلـب مـيزان القـوى مـع مضي الزمن، سواء استمر القتال أو جاءت الهدنة . ولكن الهدنة مكنـت العـدو مـن التفـرغ ومهدت بذلك الى الاسراع في قلب ميزان القوى.

حواشي الفصل ٦

١ – عارض الفريق جلوب في هذه الترقية الاستثنائية. ولكنه لم يلبث – ازاء اصرار الملك – حتى اتخذ الترتيبات لترقية التل (٨ تموز) وزميله علي الحياري (٧ تموز)، حفاظا على مبـدأ التسلسل في الأقدمية، وعلى الروح المعنوية بالنسبة لضباط الجيش الاخرين الذين قـاموا بواجبـاتهم فـي خوض معارك القتال على أفضل وجه.

٢ – To Jerusalem, P. 43

٣ – النص الانكليزي للاتفاقية في سجلات مجلس الأمن الرسمية، السنة الثالثة، رقم ٧٢، تـاريخ ٢٢ ايـار ١٩٤٨، ص ص ٣٠-٣١ (ملحق) Security Council Official Records, Third Year, No. 72 - 22 May 1984 والنص العربي فـي كتاب عبد الله التل ، صفحة ٢٣٧.

٤ – مذكراتي في صميم الأحداث، صفحة ٢٦٢. وكان كُبه عضوا في الوزارة العراقية في تلك الفترة.

٥ – كتاب الجبوري، الصفحات ٢١٤-٢١٨.

٦ – مذكرات هزاع المجالي، صفحة ٧٨.

٧ – من الواضح ان برنادوت كان مقتنعا بأن استئناف الحرب لن يكون في صالح العرب. فقبـل انتهـاء الهدنة كتب ما يلي:

« ان المعلومات التي أخذت تصل الينا في هذه الفترة من مصادر مختلفـة، عززت انطبـاعي بـان العرب – من وجهة نظر عسكرية – في وضع صعب. فاذا استمروا في الحرب، واذا لـم يحصلـوا على معونة مادية من انجلترا او من جهة اخرى، فمـن المحتمـل ان لايكـون لهـم أي امـل بكسـب الحرب».

٨ – أحمد فراج طايع: صفحات مطوية عن فلسطين (نقلا عن كتاب محمد فيصل عبد المنعم، صفحة ٤١٧).

٩ – اوفد الملك عبد الله مرافقه محمد الحسين الى القاهرة بطائرة خاصة، وحمله رسالة الى ابو الهدى يحضه على تمديد الهدنه. ولكن رأي ابو الهدى استقر على ان الأردن لا يستطيع اتخاذ قرار يتعارض مع اتجاه الدول العربية الاخرى (كان على الاردن ان يدفع ضريبة كونه دولة صغيرة). راجع مذكرات هزاع المجالي صفحة ٧٨.

١٠– يقول كركبرايد أن ١٦ قنبلة ضد الأشخاص أسقطت على عمان في تلك الغارة. وكانت الأوامر للطيارين ان يقصفا القصر الملكي ولكن القنابل سقطت بالقرب منه، كما أُلقي عدد من القنابل على المطار.

١١– الأوراق الخاصة لعمر زكي باشا الافيوني، وقد سمحت كريمته السيدة .عُمرين باطلاعي عليها. راجع التفاصيل في كتابي (وجوه وملامح) الجزء الثاني، ١٩٩٤ الصفحات ٤٢–٤٧.
والوثائق البريطانية : برقية من كركبرايد الى وزارة خارجيته بتاريخ ٥ تموز ١٩٤٨، عما أخبره به الوزير التركي المفوض بعمان، بهذا الشأن. الملف F. O. 371/68830

١٢– محمد فيصل عبد المنعم: أسرار ١٩٤٨، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٨ صفحة ٣٩٥. وقد نقلت نص الهدفين حرفيا لكي يتعرف القارئ على خطة المصريين العسكرية، ومدى تناقضها مع اصرارهم على استئناف القتال.

١٣– برقية من القائم بالأعمال الأميركي في القاهرة الى وزير خارجيته في ١٩حزيران ١٩٤٨، حول محادثة له مع النقراشي. الوثائق الأمريكية ١٩٤٨، ص ١١٢٥

١٤– الوثائق البريطانيه. الملف F.O. 371/68637

الفصل السابع

مرحلة القتال الثانية

إذا لقيتَ عدوَّكَ فاثبُتْ له حتى يتقهقرَ ، فإذا تقهقرَ فاتبعهُ حتى يقعَ ، فإذا وقعَ فاضربْ عنقَهُ .

عمرو بن العاص

ومن لم يَذُدْ عن حوضهِ بسلاحهِ يُهدَّمْ ، ومن لا يَظلمِ الناسَ يُظلَمِ

زهير بن أبي سلمى

سقوط اللد والرملة

تحدثت في الفصل السابق عن أوضاع العرب واليهود في أثناء فترة الهدنة التي استمرت أربعة أسابيع، وعن الأسباب التي حدت بالدول العربية الى رفض تجديد الهدنة، وهو موقف كان يعني العودة الى القتال.

ومثلما بدأت الهدنة في الساعة الثامنة (بالتوقيت المحلي) من صباح يوم الجمعة ١١ حزيران، فانها انتهت بانتهاء الأسابيع الأربعة، أي في الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة ٩ تموز.

وعاد الطرفان مرة أخرى يحتكمان الى السلاح، مع فارق مهم جدا وهو اتخاذ العرب خطة الدفاع واتخاذ العدو خطة الهجوم.

وخلال الأيام العشرة التي دارت فيها رحى الحرب، وقعت أحداث كثيرة ومثيرة على جبهة الجيش العربي الأردني، وعلى جبهات الجيوش العربية الأخرى.

يلخص ديبوي خطة الاسرائيليين الهجومية فيقول انها قامت على الأولويات التالية:

١ – تأمين القدس الجديدة، وتوسيع الطريق بينها وبين تل أبيب.

٢ – تأمين طرق المواصلات الى المستعمرات اليهودية في النقب.

٣ – قهر جيش الانقاذ والاستيلاء على الجليل.

٤ – منع الجيوش العربية من الاستيلاء على أراض جديدة. (١)

والواقع ان خطة الاسرائيليين العامة كانت تستهدف توسيع المنطقة التي يسيطرون عليها، في أي موقع وفي أية جهة، يمكن لهم أن يتوسعوا فيها. وفي هذا النطاق كان هجومهم على مدينتي اللد والرملة.

ولا عجب ان تقع المدينتان في نطاق أول الأولويات بالنسبة للعدو، لأنهما تقعان في وسط السهل الساحلي الى الشرق من يافا وتل ابيب، وتحيط بهما المستعمرات الاسرائيلية من الغرب والشمال والجنوب، ولا تدافع عنهما الا قوات المناضلين غير النظاميين وسرية مشاة من الجيش الأردني.

لم تكن قوات مصر والعراق والأردن بعيدة عن المدينتين، فقد وصل العراقيون الى مجدل يابا ورأس العين، ووصل المصريون الى عرطوف، ووصل الأردنيون الى عمواس واللطرون، ولكن أياً من هذه الجيوش الثلاثة لم يكن يملك القوة الكافية لكي يتقدم عشرة أو عشرين ميلاً نحو المدينتين من أجل الدفاع عنهما، أو اتخاذهما قاعدة للتقدم الى الأمام، نحو رأس الأفعى – تل ابيب. كان لكل من المصريين والعراقيين اعذارهما، أما الجيش الأردني فان الفريق جلوب احتج بقلة عدد قواته – بالمقارنة مع قوات العدو – قائلا ان الضرورات العسكرية اقتضت منه ان يركز جنوده في الشعاب والأكمات على سفوح الجبال، على أساس ان الجيش يستطيع الصمود في تلك المواقع الوعرة وصد قوات العدو المهاجمة، بينما لو غامرت احدى الكتائب بالنزول الى السهول المفتوحة، فإن قوات العدو تستطيع عندئذ ان تتغلب عليها، أو على الاقل تقطع خطوط مواصلاتها. كان جلوب قد درس طبيعة الأرض جيداً، ووضع خططه على أساس التضاريس الطبيعية، ولم يسمح لنفسه بأن يغامر بجنوده وأن يدفع بهم بعيداً عن مواقعهم الحصينة، ولو لملاحقة كتائب العدو بعد انهزامها. وكان من رأيه ان الجيش استطاع في شعاب اللطرون أن يصد كل الهجمات في اثناء فترة القتال الأولى « ولكن لو نزلنا الى السهل لاستطاع العدو أن يخترق الجبهة عند اللطرون، ثم يزحف على رام الله في وسط المنطقة العربية».

على أن قيادة الجيش لم تترك منطقة اللد والرملة وشأنها. فقد عملت منذ البداية على تدريب الشبان الراغبين في الدفاع عن بلادهم، وعملت على تزويد المناضلين بالسلاح والعتاد، وعلى غرس الثقة في النفوس.

أسرعت القيادة بعد نشوب الحرب الى دفع مجموعات المجاهدين من أبناء القبائل الأردنية للوقوف الى جانب أخوانهم المجاهدين الفلسطينيين، ثم جمعت قوة منتخبة سريعة الحركة وأرسلتها للقيام بحركة دوريات ناشطة، على الرغم من شدة الحاجة الى كل جندي في مواقع القتال لصد هجمات العدو الشرسة على اللطرون وجبال يالو. ثم عمدت القيادة

في أواسط أيام الهدنة الى استبدال تلك القوة المتحركة بقوة من المشاة - ربما بسبب الاعتقاد الذي ساد حينذاك من ان الحرب لن تستأنف. وقال جلوب ان قيادة الجيش كانت تهدف من وراء ارسال تلك القوة الى غايتين « أولاهما أن نثبت حقنا في تلك المنطقة العربية، لئلا يدعي اليهود أنها منطقة محايدة ... والثانية أن نحفظ الأمن الداخلي فيها، إذ لم تكن هناك حكومة تسيطر على الأمن ...» (٢).

وقال في كتابه (جندي مع العرب): ان السرية أرسلت « لكي يتيح وجودها للأردن ان يطالب بالمدينتين للعرب، اذا تبعت الهدنة مفاوضات، كما قال رئيس الوزراء».

حقا لقد كانت المدينتان أقرب الى ميمنة الجبهة الأردنية منهما الى ميسرة العراقيين أو المصريين. وقد أبدى الأردن اهتمامه بهما وقلقه عليهماقبل دخول الجيوش العربية الى فلسطين، وكان لوجود المناضلين الأردنيين فيهما ثم لدخول القوة الصغيرة التي سبق ذكرها اليهما ورفعها العلم العربي على مراكز الشرطة فيهما - كان لكل ذلك أثر في الانطباع الذي ساد في اذهان الناس بأن الأردن تحمل مسؤولية الدفاع عنهما. ولم تجد الايضاحات التي طُرحت فيما بعد في ازالة ذلك الانطباع.

ان الفريق جلوب يؤكد انه أبلغ الملك عبد الله ورئيس الوزراء قبل انتهاء الانتداب البريطاني، بأن الجيش الأردني بسبب صغر حجمه لا يستطيع التمركز في المدينتين، على الرغم من أن قرار التقسيم أعطاهما للعرب. وقال ان كليهما وافق على مبدأ عدم امكان الجيش الدفاع عنهما. وأعطى جلوب برهانا على قوله ان الحكومة الأردنية لم تعين حاكماً عسكرياً لهما - من أجل استمرار الادارة المدنية - كما فعلت بالنسبة لنابلس ورام الله والخليل والقدس. وكانت وجهة نظر رئيس الوزراء:

لقد تبين لنا اننا لا نستطيع التمركز في اللد والرملة . فاذا عينا حاكماً عسكريا لهما ثم استولى اليهود عليهما، فسيبدو الأمر أسوأ بالنسبة لنا.

وهكذا لم تكن في المدينتين ادارة عسكرية أو مدنية في فترة القتال الأولى. الا ان جلوب عاد وأرسل القوة الرمزية التي ذكرناها سابقا، في أثناء الأيام الأخيرة من فترة القتال الأولى، لكي تكون موجودة في المدينتين عند بدء الهدنة، فتعمل على تنظيم الأمن، ويقطع وجودها على اليهود (عند بدء مفاوضات التسوية المتوقعة) احتمال الادعاء بأن المدينتين لا تدخلان في الرقعة التي تسيطر عليها القوات الأردنية.

لا شك أن هناك مجالا لتوجيه الانتقاد للدول العربية - ومن جملتها الأردن - على أساس انها لم تحسب حساب جميع الاحتمالات العسكرية والسياسية فيما يتعلق باللد والرملة وغيرهما، ولكن واقع الدول العربية وساستها لم يكن يختلف عن واقع عرب فلسطين وزعمائهم. لقد أخفقوا - ربما باستثناء الملك عبد الله - في الوصول الى تقدير صحيح لقوتهم وقوة العدو، وأخفقوا فوق ذلك في ادراك ذهنية العدو (النابعة من مبادىء العهد القديم). أحداث ووقائع كثيرة تدلنا على ذلك، ومن جملتها ما ذكره الفريق جلوب من أنه اقترح ان يستولي الجيش الأردني على مستعمرة بن شيمن - التي تقع على الطريق الوحيدة بين المدينتين ومنطقة رام الله، ولكن محمد علي الكيالي رئيس بلدية اللد « رجانا بأن لا نقدم على ذلك، اذ قال انه على علاقات طيبة مع اليهود وهو يريد الدفاع عن المدينة باسلوب الدبلوماسية، وأن جيشنا اذا بدأ يهاجم المستعمرات اليهودية فان اليهود سيهاجمون اللد». ان هذا المنطق من رجل ذي مركز قيادي يفترض انه عرف الاسرائيليين على حقيقتهم - بعد كل المجازر التي اقترفوها بالدم البارد في فلسطين - يفوق في غرابته أي منطق مماثل من ساسة الدول العربية المجاورة لفلسطين. وهذا بطبيعة الحال لا يعفي الفريق جلوب من مسؤولية الابقاء على تلك المستعمرة التي لم يلبث العدو أن اتخذها نقطة ارتكاز قوية في عملياته الهجومية، والتي كان المنطق العسكري يحتم القضاء عليها (٣).

من الواضح ان العدو كان يعرف ما يريد. ففي الوقت الذي كان يبلغ فيه مجلس الأمن أنه يوافق على تمديد الهدنة، كان قادة جيشه يعدّون الخطط للقيام بحركات هجومية على أوسع نطاق. ولم تكد تبدأ الساعة التي تنتهي فيها هدنة الأسابيع الأربعة، حتى أخذت قوات العدو تتحرك للاستيلاء على اللد والرملة اللتين كانتا الهدف الأول في خططه الهجومية.

يظهر لنا مما رواه الفريق جلوب عن تلك الأحداث، أنه كان يدرك ان بدء القتال يعني سقوط المدينتين في أيدي العدو. لم تكن هناك قوات أردنية أو غير أردنية تستطيع الدفاع عن المدينتين بصورة ناجحة، فلم تكن في داخلهما سوى السرية الخامسة وقوات المناضلين. اما مسافة الخمسة عشر ميلا بين ميسرة العراقيين في مجدل يابا وبين ميمنة الجبهة الأردنية في اللطرون - فقد كانت خالية من القوات العسكرية. وكما سبق أن قلنا كانت المدينتان في السهل الساحلي على بعد خمسة أميال من سفوح المناطق الوعرة ذات الأودية والتلال الى الشرق منهما والتي تمتد من اللطرون الى بيت سيرا الى قبية ورنتيس.

كانت القيادة الأردنية تملك بعض الدلائل على ان اليهود سيهاجمون المدينتين عند انتهاء الهدنة. ويظهر ان فكرة الوقوف في وجه العدو، اذا هاجمهما، كانت تراود أذهان المسؤولين في تلك القيادة. ففي اثناء الهدنة استدعى قائد الفرقة كلا من و. ق. علي الحياري والملازم الأول صالح الشرع، وكلفهما باعداد الترتيبات لتأليف الكتيبة الخامسة لكي تحل محل الكتيبة الاولى. وكان مما قاله لهما « اذا ما استؤنف القتال فان الكتيبة الأولى ستقوم باحتلال مستعمرتي ريشون ورحوبوت، من أجل حماية اللد والرملة، لان المصريين لم يتقدموا شمالا بما فيه الكفاية».

عندما بدأ القتال كانت الكتيبة الأولى تؤلف الاحتياط الوحيد للجيش الأردني بأجمعه. وكان من حق القيادة ومن واجبها ان تبقي تلك الكتيبة على قدم الاستعداد للتدخل في أي موقع من الجبهة يتحرج الوضع فيه. لقد وجه البعض نقداً شديداً للفريق جلوب لانه لم يدفع بتلك الكتيبة الى اللد والرملة، للوقوف في وجه الزحف اليهودي المتوقع. وكان ذلك النقد قائما على اجتهادات سياسية وليس على نظريات عسكرية محضة، ذلك ان أي عسكري محترف لا يمكن ان يوافق على زج الجيش كله في المعركة، دون ابقاء أية قوة احتياطية تستطيع التدخل لسد أية ثغرة قد يتمكن العدو من احداثها. كان وجود الاحتياط آنذاك مهماً جداً، لأن الحرب استؤنفت على أساس الدفاع من جانب العرب والهجوم من جانب اليهود. وكان ذلك يعني اعطاء العدو حرية حشد قوات ضاربة كبيرة للهجوم ومحاولة اختراق الجبهة العربية في الموقع الذي يختاره وفي الوقت الذي يريده. وقد كانت كتائب الجيش العربي يومذاك تنتشر على مسافات أوسع بكثير مما تقتضيه مبادىء التعبئة العسكرية. فالكتيبة الخامسة – مثلا – عندما تسلمت مواقعها قبيل بدء القتال بيوم واحد، وجدت أن جبهتها لا تقل عن ١٥ كيلومترا، بينما المفروض ان لا تزيد جبهة الكتيبة على ثلاثة كيلو مترات، كما انه لم يكن هناك تماسّ بين هذه الكتيبة وميسرة الكتيبة الرابعة في جبال يالو، ولا بين ميسرتها وميمنة الكتيبة الثالثة في القدس، أي ان العدو كان يستطيع حشد قواته ومحاولة أختراق الجبهة في الأرض الخالية بين الكتيبتين(٤).

على ان القيادة الأردنية قررت الافادة من الكتيبة الأولى في نشرها على سلسلة التلال الوعرة الى الشرق من اللد والرملة، فصدر الأمر لها قبيل استئناف القتال بأن تتحرك الى أراضي قرية دورة القرع (على طريق رام الله – نابلس) للوقوف هناك استعداداً

للطوارىء. ولكنها بعد أن بقيت هناك ثلاثة أيام تلقت أمراً آخر بالتحرك الى موقع الجفتلك في الجانب الغربي من وادي الاردن لسد المنافذ أمام قوة يهودية ظهرت دلائل على انها أخذت تحتشد حوالي بيسان، وكان التحليل يقول انها تنوي التقدم من بيسان باتجاه الجنوب. لقد دار جدل حول تلك الحركة : هل كانت تقوم على أسباب حقيقية أم على ذرائع زائفة، وهل كان لها ما يبررها؟

انني سأعود الى تفصيل الحديث عن حركة الكتيبة الأولى الى غور الجفتلك، ولكنني قبل ذلك أود ان أعرض لوجهة نظر الفريق جلوب المتعلقة بالخطة العسكرية العامة التي اتبعها. فهو يقول ما خلاصته:

كانت لدينا بعض الدلائل على أن اليهود سيعمدون الى مهاجمة مدينتي اللد والرملة. ولكن لو أرسلنا أحدى كتائبنا المتمركزة في اللطرون، لعمد اليهود في الحال الى قطع طريق الرجعة عليها، خاصة وان مستعمرة بن شيمن كانت تعترض طريق الاتصال بيننا وبين المدينتين، وسيكون بمقدور الاسرائيليين تطويق الكتيبة في المدينتين والزحف بقوة كبيرة لمهاجمة الكتيبة الباقية في اللطرون. كانت اللطرون تسيطر على طريقين احداهما طريق باب الواد والثانية طريق رام الله. ولو حدث ان تغلب اليهود على كتيبة اللطرون لأصبحت الطريق مفتوحة أمامهم الى القدس والى رام الله أيضا. ولو حدث ذلك لاستطاعوا ان يزحفوا من رام الله الى القدس أو منها الى نابلس وراء خطوط الجيش العراقي، وعندها ستكون كارثة على الجيشين الأردني والعراقي، وسيضيع ما بقي للعرب من فلسطين . من هنا كانت اللطرون مفتاح الجبهة كلها . وسيكون من الجنون اضعاف حاميتها.

كنا نعرف ان المدينتين ستسقطان اذا شن العدو هجوماً مركزا عليهما . وكان يترتب علينا عندئذ ان نسد الثغرة بيننا وبين العراقيين. لم تكن لدينا أية قوات لهذه الغاية. كل جندي من قواتنا كان في الخط الأمامي، ولم تكن لدينا أية وحدة احتياطية.

كان رئيس وزراء الأردن قد رفض الموافقة على تجنيد عدد من الجنود، علماً بأننا احتفظنا بعدد من سرايا الحاميات المشاة التي لم تكن لها ميزانية ابتداء من نيسان. **لقد احتفظت بهذه الوحدات بمبادأة مني، ولولا ذلك لضاع القسم الأكبر من فلسطين.**

مما هو جدير بالملاحظة هنا ان الفريق جلوب لم يف موضوع الكتيبة الأولى حقه من

الايضاح والتفصيل. فهو لم يقل انها أصبحت احتياطيا للجيش بعد ان تسلمت الكتيبة الخامسة مواقعها، ولم يقل انه كان يستطيع ارسالها الى اللد والرملة مع ابقاء الكتيبتين الثانية والرابعة في مواقعهما في اللطرون وجبال يالو. ولم يقل انه أراد ان يؤلف من وحداتها خطا دفاعيا بين مجدل يابا واللطرون. كل ما يقوله: انه أعد العدة، عندما اتضح يوم ٩ تموز ان اليهود يشنون هجوما واسع النطاق، لسد الثغرة بين جيشي الأردن والعراق، ولمساعدة المدينتين بقدر المستطاع. وكان مجمل ترتيباته انه حرك الكتيبة الأولى باتجاه الشمال الغربي الى بيت نبالا فبلغتها في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ١٠ تموز. والواقع انه لم تتحرك الى بيت نبالا سوى سرية المدرعات وسرية مشاة . وقد تقدمت فئات من السريتين الى دير طريف، حيث كانت قوات اللواء المدرع الاسرائيلي قد وصلت الى هناك بعد أن احتلت قرية قوله وقرى أخرى. وفي دير طريف وقع اشتباك بين الطرفين واستطاع العدو ان يتثّبت في الجانب الغربي من الموقع، بينما بقيت قوة الجيش العربي في الجانب الشرقي.

علينا الان أن نصف مراحل الهجوم اليهودي:

لقد اختارت قيادة العدو الجنرال آلون ليتولى اعداد خطة الهجوم ويعمل على تنفيذها، وقد وضعت تحت امرته أربعة ألوية من أفضل وحدات البالماخ المدربة، وهي: لواء هارل، ولواء يفتاح (بقيادة كوهين) ولواء كرياتي واللواء المدّرع الثامن (بقيادة ساده). وتقرر أن تساند الهجوم مدفعية من عيار ٦٥ و ٧٥ ملليمترا التي كانت وصلت الى اليهود في اثناء الهدنة من اوروبا، بالاضافة الى الطائرات المقاتلة. وكان اللواء المدرع يضم سيارات مصفحة وكتيبة كوماندو (رقم ٨٩) مؤلفة من سيارات جيب مسلحة وسيارات نصف ترك بقيادة و. ق. دايان. وعلى قول هيرتزوغ فان وحدات من لوائي الكسندروني وعتسيوني أُلحقت بهذه القوات.

في صباح يوم ٩ تموز قام العدو بالزحف من اتجاهين، في عملية واسعة النطاق على شكل كماشة تستهدف تطويق المدينتين من ناحية الشرق أولاً، تمهيداً للاستيلاء عليهما. وعلى هذا تقدم لواء يفتاح من مستعمرة خلدة من جهة الغرب، فاستولى على قرية القباب الواقعة على طريق القدس – يافا، ثم اتجه شمالا بين التلال الى الشمال الغربي من موقع اللطرون فاستولى على قرية عنابة في الساعة الواحدة من صباح يوم ١٠ حزيران، ثم تقدم

الى جمزو ودانيال حتى وصل الى مستعمرة بن شيمن. اما اللواء المدرع فقد بدأ زحفه من مستعمرة ملبّس بالقرب من تل ابيب فاستولى على ولهلمينا والطيرة وقوله ومطار اللد ثم على قرية العباسية. وعندما أقبلت طلائع ذلك اللواء يوم ١٠ تموز على قرية دير طريف اصطدمت هناك بمصفحات الجيش العربي، واستطاعت ان تستولي على جانب من الموقع بينما بقيت قوة الجيش العربي في الجانب الآخر. وفي أثناء الاشتباك وقعت عدة اصابات في سيارات العدو المسلحة وفي جنوده وضباطه، وأصيبت احدى مدرعات الجيش العربي اصابة مباشرة فانقلبت، ولم يلبث العدو حتى سحبها تحت حماية قنابل الهاون. وقد بقيت قوة من وحدات العدو تشاغل قوة الجيش العربي، بينما اتجهت معظم وحدات كتيبة الكوماندو نحو مستعمرة بن شيمن، على مسافة اربعة كيلو مترات الى الشرق من اللد. وبذلك تم تطويق المدينتين في اليوم الثاني لاستئناف القتال.

اما لواء هارل فقد ألقيت على عاتقه مسؤولية المحافظة على طريق القدس – تل أبيب، والعمل على زيادة عرض الممر اليهودي بين الجبهتين المصرية والأردنية، وتأمين قوات احتياط للوائين الآخرين، ثم القيام بهجمات مباشرة على جبال يالو واللطرون بعد أن يتم تهديد طرق مواصلات القوات الأردنية المتمركزة فيهما، من الخلف. وقد شنت وحدات من ذلك اللواء عدة هجمات على موقع الرادار ولكنها لم تفز بطائل وارتدت مدحورة الى الوراء.

في تلك الأثناء تقدمت ثلاث سرايا من كتيبة المشاة الثالثة (لواء يفتاح) من قرية دانيال باتجاه اللد لكي تختبر قوة الدفاع فيها. وكان بعض جنود السرايا يرتدون كوفيات فظن الأهلون أنهم من الجيش الأردني، ثم لم يلبثوا أن تبينوا الحقيقة المرة عندما أخذت سرايا العدو تقصف المدينة بقنابل الهاونات. لم تكن هناك سوى مقاومة ضعيفة، ولكن الأمر اختلف تماما عندما وصل جنود العدو الى مركز الشرطة الرئيسي بين المدينتين (حيث كان و. ق. ادريس سلطان وجنوده)، فقد جوبهوا بمقاومة عنيفة من قبل قوة الجيش الأردني التي كانت تتمركز هناك. واستمر الاشتباك طوال ساعتين، تكبدت سرايا العدو في اثنائها خسائر، فاضطرت الى التراجع بعد ان طلبت من قائد الكتيبة ان يبادر الى تعزيزها.

كانت أول الدلائل على بدء الهجوم اليهودي ظهور طائرتين في سماء المدينتين صباح يوم ٩ حزيران، أخذتا تلقيان مناشير تتهجم على الدول العربية ورؤسائها وتتحدث عن

تفرق العرب، وتدعو الأهلين الى الاستسلام بخروج أهل كل مدينة والتجمع الى الشرق منها، مع القول ان المدينتين مطوقتان ولا فائدة ترجى من المقاومة. وفي مساء اليوم التالي (السبت ١٠ تموز) أغارت الطائرتان على المدينتين وقصفتاهما بالقنابل، فدمرت بعض الأماكن وقتل وجرح كثيرون.

نتيجة للمقاومة العنيفة التي أبدتها القوة الأردنية في مركز الشرطة، تم الاتصال بدايان قائد كتيبة الكوماندو، التي كانت ما تزال في دير طريف الى الشمال من بيت نبالا. لذلك انحرف دايان نحو اللد، وكان الوقت عصرا، وعندما اقتربت كتيبته من المدينة، اندفعت وهي تطلق النار بكثافة من مدافعها الرشاشة، نحو اليمين ونحو اليسار، في عملية ارهاب متعمدة، واخترقت السيارات المسلحة المدينة ذهاباً واياباً وجنودها يطلقون النار على كل شيء يتحرك.

ازداد الوضع اضطراباً عندما دخلت ثلاث مدرعات من الكتيبة الأردنية الأولى الى مدينة اللد عصر يوم الأحد. فقد خُيِّل للعدو والصديق عند ذاك ان هذه المدرعات ليست سوى طليعة قوة أردنية كبيرة بدأت تتقدم للدفاع عن اللد. وحدث ان المناضلين من أهل اللد تشجعوا عند قدوم المدرعات فخرجوا يهاجمون اليهود وقتلوا عدداً منهم. وعندما انسحبت المدرعات عاد اليهود يطلقون النار من كافة الأسلحة على السكان فقتلوا كثيرين. وقد اعتبر اليهود ان عودة المناضلين لاطلاق النار بعد دخولهم المدينة لم تكن الا ثورة مسلحة. وبعد ان استتب الأمر لليهود في اليوم التالي أخذوا يخرجون الناس من منازلهم قسرا ويطردونهم، حتى زاد عدد الذين أُخرجوا على خمسين الفا. وكان أكثر هؤلاء من سكان القرى المجاورة الذين لجأوا الى المدينة قبل سقوطها. ولم تكن حجة اليهود بأن أهل اللد ثاروا عليهمَ سوى ذريعة من جملة الذرائع العديدة التي برعوا في استنباطها لاقناع الذين لا يعرفون الحقائق، بأنهم على حق وبأن العرب على باطل.

وكان سقوط مدينة اللد نهائياً بيد العدو مساء يوم الاحد ١١ تموز ١٩٤٨.

بعد غياب شمس ذلك اليوم، انسحبت السرية الخامسة (ليلة ١١ – ١٢ تموز)، فتقدمت قوات العدو في صباح اليوم التالي (الاثنين) نحو الرملة ودخلت المدينة دون أن تجد أية مقاومة.

هذه صورة لتلك الأحداث المفجعة كما روتها المصادر التاريخية. ويبقى علينا بعدها أن نلقي نظرة على صورة الأحداث كما ترسمها أقوال قادة القوة الأردنية التي واجهت هجوم العدو.

سبق أن ذكرت شيئا عن الأمر الذي صدر للسرية الخامسة بأن تدخل الى مدينتي اللد والرملة لكي تحل محل القوة السريعة الحركة التي كانت قبل ذلك هناك. كانت السرية الخامسة قد التحقت بالكتيبة الرابعة في اليومين الأخيرين من أيام القتال في المرحلة الاولى (٩ – ١٠ حزيران). وفي اثناء فترة الهدنة صدر من قيادة اللواء الرابع أمر جديد لقائد السرية الرئيس اديب القاسم بأن ينتقل الى الرملة لاستلام مواقع دفاعية فيها، وخاصة محطة سكة حديد اللد. وتحركت السرية يوم ٢٣ حزيران من منطقة اللطرون الى الرملة حيث اتخذ قائدها من مركز الشرطة مقرا له، وقام بتوزيع فئات السرية على محطة سكة الحديد وفي مداخل المدينة. وكانت مهمة السرية ان تساند المناضلين الأردنيين والفلسطينيين، وتعمل على مساعدتهم وتزويدهم بالذخائر.

كانت طريق مواصلات السرية تمر من الرملة الى اللد ثم الى بيت نبالا، ذلك ان الطريق الأخرى المؤدية الى مثلث بيت سيرا لم تكن مأمونة.

بادر قائد السرية بعد وصوله الى التعاون مع المناضلين، فعمل على تنظيم خنادقهم الدفاعية، حتى تتمكن من اسناد بعضها البعض، وأخذ يعمل على تحسين الدفاع عن المدينتين.

وبعد دخول السرية الخامسة صدر أمر آخر بتعيين وكيل القائد ادريس سلطان وكيلا للحاكم العسكري لمدينتي اللد والرملة. ولم يلبث ذلك الضابط ان ذهب الى المدينتين مع القائمقام أحمد صدقي الجندي (قائد اللواء الرابع) حيث اجتمعا مع رئيس بلدية الرملة محمود علاء الدين ورئيس بلدية اللد محمد علي الكيالي. ونستدل على مهمة ذلك الضابط من الرسالة التالية التي وجهها اليه قائد اللواء بتاريخ ١ تموز ١٩٤٨:

عطوفة الفريق كلوب باشا يعتبركم مسؤولين عن أمور الدفاع في جبهات اللد والرملة، ويؤازركم بهذه المهمة الملازم محمود الرفاعي وقائد فئة بيت نبالا والنائب علي السوفاني. لذا أرجوكم بذل كل ما هو في المستطاع من الجهود لتحسين حالة التحكيمات وضبط وربط المناضلين والاشراف على هذه الشؤون من كافة النواحي(٥).

لم يكن مع ادريس سلطان عند ذهابه الى اللد سوى سبعة جنود، وقد اتخذ من مركز الشرطة الرئيسي (بناية تيجارت) في منتصف المسافة بين المدينتين مقرا له. وكان في ذلك المركز ضابطا الشرطة الفلسطينية سليمان سعيد وأخوه طاهر سعيد ومعهما ستة عشر رجلا من الشرطة الفلسطينية، فانضموا اليه وأخذوا يتعاونون معه. وكان ترتيب قائد اللواء الرابع ان يتخذ ادريس سلطان من مركز شرطة اللد مقرا له، ولكن ادريس اختار البناية الرئيسية بين المدينتين لأهميتها كقلعة عسكرية، وخاصة في حالة الدفاع. وحال وصول ادريس سلطان الى مركز الشرطة عمل على الاتصال مع قادة المناضلين الأردنيين فوجد ان عددهم يتراوح ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠ رجل، فأخذ يوزع عليهم العتاد لبنادقهم. وكان هؤلاء يرابطون في مواقع دفاعية اختاروها بالتعاون مع قوات المناضلين الفلسطينيين التابعين للجهاد المقدس. وكان المناضلون الأردنيون من ابناء القبائل، وكل مجموعة تحت رئاسة شيخها، ونذكر من أولئك الشيوخ: شبلي المجالي وفضيل الشهوان (في مطار الرملة) وجمال المجالي وفارس المعايطة وعودة حامي الأصفر. وقد لعب هؤلاء دورا طيبا في أثناء الهدنة وفي فترة القتال، اذ بذلوا مع المناضلين الفلسطينيين كل ما في الوسع لصد محاولات العدو للتوسع وبعدها في مقاومة زحف قواته. ولكن قادة الجهاد المقدس الذين اتخذوا من مركز شرطة اللد مقرا لهم، لم يتعاونوا قلبا وقالبا مع القوة الأردنية.

وعندما اتضح أن الهدنة لن تجدد وأن القتال سوف يستأنف، أرسل قائد اللواء الرابع الى ادريس سلطان (٩ تموز) فئة من الجنود الأغرار تتألف من ١٧ شابا على رأسهم النائب صلاح عزير. وكان سلاح هؤلاء البنادق بالإضافة إلى رشاش برن. وعند وصول هؤلاء بادر ادريس سلطان فأرسلهم الى مطار اللد، لينضموا الى مجموعة المدافعين عنه وهم مزيج من الفلسطينيين والأردنيين ومعهم فئة من الجنود بقيادة النائب علي السوفاني. وقد أرسل قائد اللواء الرابع إلى ادريس سلطان البرقية التالية:

> سنحرك اليكم الان قوة من المشاة مع أعتدة للمناضلين، وغداً ستصلكم بعض الأسلحة المساندة. أرجو تطمين رؤساء البلدية في الرملة واللد وذلك بصورة سرية.

ثم أرسل مع قائد الفئة النائب صلاح عزير رسالة الى أدريس سلطان قال فيها إنه يرسل اليه ١٨ صندوق عتاد لتوزيعها على المناضلين، وان قوة مساندة « كمدرعات وما شاكلها». سوف تتوجه اليه في اليوم التالي. وطلب منه مرة أخرى أن يطمئن « رئيسي

بلديتي اللد والرملة، وتؤكد لهم بأننا مهتمين في أمرهم والمصلحة العامة دون أن نفتر».

استدعى ادريس سلطان رئيسي البلديتين وطلب منهما الاستعداد لمواجهة أخطار المرحلة المقبلة والمحتملة. استقر رأي الرجلين على الذهاب الى رام الله لمطالبة قائد اللواء الرابع بتعزيز الدفاع عن المدينتين بمزيد من القوات العسكرية. وفي رام الله أحالهما أحمد صدقي الجندي على الزعيم لاش قائد الفرقة في بيتونيا. لم يجدا هناك ما يبعث الاطمئنان في نفسيهما، فاتجها الى عمان في محاولة لمقابلة الفريق جلوب، ولكنهما لم يجداه فاجتمعا باللواء عبدالقادر الجندي. كان الجواب ان الجيش سيبذل كل ما يستطيع. عندئذ ابتاعا كمية من العتاد من بعض تجار السلاح في عمان وعادا الى رام الله، ولكن العدو كان في اثناء ذلك قد استولى على اللد والرملة، فكان ذلك آخر عهدهما بالمدينتين.

هنا أود الاشارة الى أن السرية الخامسة كانت تحت إمرة قائدها، الخاضع لقيادة اللواء الثالث، بينما كان و. ق. ادريس سلطان تحت امرة اللواء الرابع. ومع ان مهمته كانت ادارية، ومع ان مهمة الجنود الذين كانوا معه لم تكن تتعدى الدفاع عن المركز الذي يقيم فيه – فانه وزع معظم جنوده على نقاط أمامية مع أوامر بمناجزة العدو ومقاومة تقدمه.

اما فئات السرية الخامسة (كل فئة نحو ٤٠ جنديا) فقد كانت موزعة على النحو التالي:–

- فئة بقيادة الملازم غازي الهنداوي في محطة سكة حديد اللد.
- فئة بقيادة الملازم أنور الطرابيشي على مثلث الرملة – اللد – صرفند (موقع ركس).
- فئة بقيادة الملازم عبده العايش الحياري في مقام النبي صالح في الجهة الجنوبية من مدينة الرملة.
- فئة القيادة في مركز شرطة الرملة وقائدها الملازم جميل السكران.

نلاحظ مما تقدم ان جميع أفراد القوة الأردنية في اللد والرملة كانوا على أهبة الاستعداد للاشتباك مع العدو، عندما انتهت أيام الهدنة وبدأت الحرب من جديد.

بدأ الهجوم الاسرائيلي أولا على مطار اللد، على مسافة خمسة كيلو مترات من المدينة، وكانت تدافع عنه مجموعات من المناضلين ومعهم النائب علي العتوم والنائب صلاح عزير، ومعهما عدد من الجنود، وقد مهد العدو لهجومه بقصف عنيف من المدفعية، ثم تقدم جنوده تساندهم المصفحات بنار كثيفة. كان المناضلون الفلسطينيون بقيادة (حمزه)

و(عبد ربه) ومعهم مصفحتان. وعلى الرغم من كثافة نار العدو وعدم التكافوء بين أسلحته الثقيلة وبين الأسلحة الخفيفة التي يحملها الجنود والمناضلون – فان هؤلاء صمدوا وقاتلوا بكل بسالة، وسقط منهم قتلى وجرحى. واتصل و. ق. ادريس سلطان بواسطة اللاسلكي بالزعيم اشتون قائد اللواء الثالث (وكان آنذاك في بيت نبالا)، طالبا ارسال مصفحات ونجدات. لم يكن عندئذ بين اللد وبيت نبالا سوى مستعمرة بن شيمن. جاء الجواب من قيادة اللواء: سنبذل كل جهد ممكن ونحن بانتظار الأوامر. واستمرت المعركة في المطار طوال يوم السبت. وأثناء ذلك دمر العدو مصفحة للمناضلين وقتل أحد قادتهم (عبد ربه). وفي صباح يوم الأحد (١١ تموز) تمكن العدو من الاستيلاء على المطار، فتراجع الجنود والمناضلون الى مدينة اللد.

بعد سقوط المطار أخذ العدو يحشد قواته للهجوم على اللد. وفي الوقت ذاته أخذت طائرات العدو تلقي القنابل على المدينتين وعلى مراكز الشرطة الثلاثة والمواقع الأخرى التي يتمركز فيها الجنود، فتوقع الخسائر في النفوس وتثير الاضطراب والفزع. ومع القنابل ألقت الطائرات منشورات أخرى تنذر الأهلين بما خلاصته:

ان قوات الهاجانا تطوق المدينتين من جميع الجهات. لا يمكن للقوات العربية انقاذكم. على وفود التسليم ان تذهب الى الحاكم العسكري الموجود في قرية جمزو لعرض شروط الاستسلام .

عندئذ شعر ادريس سلطان ان الوضع حافل بالأخطار، فأرسل الى القيادة في عمان برقية قال فيها «الكارثة واقعة لا محالة اذا لم تصل الينا النجدات حتى الساعة الرابعة بعد الظهر». ولكنه لم يتلق جوابا من عمان أو من قيادة الفرقة.

اما الرئيس أديب القاسم فقد طلب من قيادة اللواء ان تتصل مع الجيش العراقي لارسال طائرات تقابل طائرتي العدو، اللتين كانتا تسرحان وتمرحان في أجواء المدينتين. لم يتلق جوابا ولم تظهر طائرات عراقية. فكر بطريقة أخرى يشد بها من معنويات الأهلين فكتب مناشير يطلب فيها منهم ان لا يلتفتوا الى مزاعم العدو أو يصغوا الى الاشاعات، ويطمئنهم بأن قوات الجيش العربي تستطيع الدفاع عن المدينتين. تم توزيع المناشير، ولكن على الرغم من ذلك سادت البلبلة وانتشر الاضطراب، وأخذ بعض المناضلين الأردنيين ينسحبون. حاول اقناعهم بالثبات، ولكن بدا لهم ان الوضع أصبح ميئوسا منه، فاستمروا في الانسحاب.

عند ظهر يوم الأحد (١١ تموز) بدأت القوات الاسرائيلية تزحف من الناحية الشرقية نحو مدينة اللد، وكانت تساند المشاة دبابات ومصفحات بالاضافة الى الطائرات. واشتد القصف من الأسلحة الثقيلة على خطوط المناضلين فصمد هؤلاء ساعة من الزمن ثم اضطروا الى التراجع بسبب كثافة نار العدو وما أصابهم من خسائر. وواصلت قوات العدو زحفها فبلغت أطراف المدينة في الساعة الرابعة من بعد الظهر : فالمصفحات وسيارات الجيب المسلحة جاءت من ناحية بن شيمن، بينما تقدم المشاة من ناحية جمزو. وكان هؤلاء واولئك يطلقون النار من مدافعهم الخفيفة ومن رشاشاتهم وبنادقهم على اليمين واليسار وعلى كل شيء يتحرك، فقتل كثيرون من أهل المدينة. وقد استمر ذلك حتى غروب الشمس في نحو الساعة السابعة.

لم يقتصر هجوم العدو على مدينة اللد وحدها، بل استهدف مركز الشرطة الرئيسي بين المدينتين ومطار الرملة ومثلث الرملة – اللد – صرفند. وفي هذه المواقع حدث التماس المباشر بين القوات المهاجمة وفئات الجيش العربي. واستطاع جنود الجيش ان يردوا الطلائع الاولى للعدو. وعندما اشتد هجوم العدو على محطة سكة حديد اللد، وبدا خطر تطويق الموقع ماثلا للعيان، قرر الملازم الهنداوي الانسحاب، لتعزيز الفئتين اللتين كانتا تتعرضان للهجوم في مطار الرملة وفي ملتقى الطرق (المثلث).

هنا لا بدّ من القول ان أسلحة السرية كانت تتألف من البنادق والرشاشات، ولم يكن مع فئاتها الثلاث المقاتلة سوى٣ مدافع هاون عيار٢ بوصة، وهذا المدفع قوسي ولا يتجاوز مداه ١٥٠٠ يارده. وكم من مرة اتصل قائد السرية بقائد اللواء الثالث يطلب اليه تزويده بمدافع هاون عيار ٣ بوصات وبمدرعات، ولكن اتصالاته ذهبت على غير طائل. وعندما اشتد الهجوم على مواقع الفئات المتقدمة، فان قائد السرية أعطى قادة الفئات أمراً باستعمال مدافع الهاون مع البنادق لمجابهة موجات العدو التي كانت تحاول اختراق خطوط الدفاع، ولتعطيل مصفحات العدو.

واستطاع العدو في تقدمه أن يطوق مطار الرملة (غربي المدينة). وهناك تصدت له مجموعة المناضلين التي يقودها الشيخ فضيل الشهوان، حيث أبدى أفراد تلك المجموعة عنادا بطوليا في الدفاع عن مراكزهم. ومن الجدير بالذكر ان هذا المجاهد ومجموعته لم ينسحبوا من ميدان القتال الا بعد ان تلقت السرية الأمر بالانسحاب. وقد تحرج موقف هذه

المجموعة فلم تستطع الانسحاب الا بعد وصول الملازم غازي الهنداوي على رأس فئته، ذلك أنه بادر الى الاشتباك مع العدو، فاتاح لها بذلك مجال الانسحاب من خلال الطوق.

وفي ملتقى الطرق (مثلث ركس) تصدت فئة الملازم أنور الطرابيشي للمهاجمين، وثبتت في مواقعها ومعها مجموعة من المناضلين الفلسطينيين. ولكن العدو وجه نار أسلحته الثقيلة نحو مصادر المقاومة، فأضطر هؤلاء الى التراجع. وفي أثناء تراجعهم اصطدموا بوحدات العدو التي كانت تقصف مركز الشرطة الرئيسي بين المدينتين. وهنا وقع أشد الاشتباكات عنفاً، اذ ان العدو ألفى نفسه يواجه النار المنطلقة من داخل المركز بالاضافة الى نار أسلحة الفئة المنسحبة من المثلث والفئة المنسحبة من محطة سكة الحديد. وتصدى النائب سليمان الشرمان لطليعة جنود العدو، وأطلق قنبلة من مدفع الهاون الذي كان يحمله على احدى سيارات العدو المسلحة. فاشتعلت فيها النار وأخذت تحترق، كما قتل الجنود الذين كانوا في السيارة نصف المجنزرة وراء السيارة المحترقة. فوجيء العدو بهذه المقاومة العنيفة التي لم يكن يتوقعها، وربما اعتقد أن القوة الأردنية التي فاجأته من الخلف لم تكن الا مقدمة لقوة أخرى اكبر منها، فعمد الى التراجع نحو اللد، تاركا وراءه السيارة المحترقة وعددا من الرشاشات والبنادق. وقد أبدى الملازم الهنداوي بسالة في الضغط على العدو، بالرغم من اصابته بجرح في يده. وقد حدث هذا الاشتباك بعد ظهر يوم الأحد ١١ حزيران، وكان من نتيجته ان توقف الهجوم على الرملة.

على ان حقيقة الوضع لم تكن خافية على ادريس سلطان وأديب القاسم، فقد كانا يعرفان جيدا انه لم يكن هناك أي أمل بقدوم نجدات أردنية، أو غير أردنية، بعد أن مرت ثلاثة أيام على بدء الهجوم الاسرائيلي، وبعد ان حقق العدو الكثير من أهدافه في تلك الأيام الثلاثة. كان العدو قد استولى على مدينة اللد ومطارها والقرى المحيطة، وأحكم الطوق حول الرملة، وسيطر على طريق المواصلات الوحيد بين المدينتين وبين أقرب نقطة للقوات الأردنية في بيت نبالا. ومنذ بدء الهجوم كان وصول المؤن قد توقف وكذلك الذخائر، حتى أخذت القوة الأردنية تستعين ببلديتي اللد والرملة للحصول على ما تحتاج اليه من طعام. أضف الى ذلك أن الموجود من العتاد والذخائر محدود ولن يلبث أن ينفد (٦). ووجد ادريس سلطان نفسه مع عدد قليل من الجنود ورجال الشرطة وليس لديهم أي طعام، بل لم يبق لديهم سوى القليل من الماء. حتى الفئة التي أرسلها بقيادة النائب صلاح

عزيز لتعزيز الدفاع عن مطار اللد، لم تعد الى المركز ولم يبلغه أي نبأ عن مصيرها بعد سقوط المطار. ولم يلبث ان اتخذ قراراً صعباً : لا بدّ من الانسحاب هذه الليلة، قبل فوات الأوان.

بعد غروب الشمس أعد ادريس سلطان عدته للانسحاب مع من كان معه من جنود ورجال شرطة. كانت تعليماته اليهم : لا تدخين ولا كلام ولا اطلاق نار دون أمر. كلمة السر (علي). اذا أصابني مكروه يتولى الملازم سليمان سعيد المسؤولية بعدي. كان أحد الجنود أُصيب بجراح بالغة في أثناء الهجوم على المركز، فأرسله القائد بعد انسحاب العدو الى مستشفى الرملة (أسره اليهود في المستشفى، وبعد مدة أعيد الى الأردن). عندما ساد الظلام بدأ الخروج من البناية، ولكن القائد أبقى العلم مرفوعا في مكانه، حتى لا يشعر العدو بانسحابه فيعمل على مطاردته وقطع الطريق عليه. سار أفراد القوة بين شجيرات الصبار ومعهم دليل. في الطريق أطلق العدو عليهم النار ولكن القائد أمر بعدم الرد. مروا في الوادي بين قريتي جمزو وعنابة، وفي الصباح وصلوا الى قرية نعلين ومنها مضوا الى قيادة الفرقة. هناك التقى ادريس بالفريق جلوب ومعه لاش وبهجت طباره (الحاكم العسكري في رام الله).

سأله جلوب : كيف؟ أجاب ادريس: من الضروري اغاثة الناس الذين طردهم اليهود، وهم بحالة يرثى لها وفي أشد الحاجة للماء.

وتوصل أديب القاسم الى الاستنتاج ذاته، وقدّر أن العدو تراجع نحو اللد بفعل المفاجأة وانه لن يلبث أن يعود للهجوم بقوة أكبر بعد أن يعيد تنظيم صفوفه. كان قد أنبأ قيادة اللواء ان قواته استطاعت رد مقدمة العدو، فتلقى برقية شكر. ولكن ما نفع برقية الشكر في وضع كهذا؟ حقا لقد كانت معنويات جنوده عالية، وكان عندهم الاستعداد للالتحام مع العدو حتى النهاية، ولكن واجبه كان يقضي عليه ان يفكر كمسؤول عن أفراد سريته. ربما خطر له أن يثبت حتى يعود العدو للهجوم مرة أخرى؟، ولكن هل يمكن أن يتفادى هو ورجاله أحد مصيرين: الاستشهاد أو الوقوع في الأسر؟ إن تعليماته في الأصل لم تنص على شيء من هذا. على كل حال من الأفضل ان يضع الأمر بين يدي قيادته ولتتخذ هي القرار. في ساعات العصر أرسل البرقية التالية الى قيادة اللواء الثالث :

اللد سلّمت. الرملة على وشـك التسليم. ١٢٠ الـف نسمة تحت رحمـة القدر. انتظـر الأمر الأخير.

بعد ساعة تلقى الجواب التالي:

انسحب مشياً على الأقدام الى قرية دير طريف بعد اتلاف جميع المهمات العسكرية.

كانت فترة حرجة بالنسبة للقائد، اذ أدرك عندئذ أنه سيغادر المدينـة وأهلهـا ومـن بقـي من المدافعين عنها. قد يؤدي الانسحاب في وضح النهار الى حوادث لا تحمـد عقباهـا، لان آمال الأهلين كانت معلقة عليه وعلى ضباطه وجنوده. أخيراً قرر ان يكون الانسحاب ليـلا، حتى لا يزيد في اضطراب الأهلين وفزعهم. كما قرر ان يسلك الطريق الواقعة بين قريتـي جمزو وعنابة اللتين كان اليهود قد احتلوهما (تبعـد القريـة عـن اختهـا بضعـة كيلومـترات)، بدلا من الطريق المؤدية الى دير طريف، لأنها غير مأمونة. (كان اليهود فـي أثنـاء زحفهـم قد وصلوا الى ديرطريف، ثم أخرجهم الجيش العربـي منهـا ثـم عـادوا للهجـوم عليهـا مـرة ثانية). عين لرجاله نقطة التجمع الى الشرق من المدينة وأبلغ وحدات السرية بذلك. ثم عمل على اتلاف ما أمكن من التجهيزات داخل المركز، ومن جمله ذلك الجهـاز اللاسـلكي الـذي كان يتصل بواسطته مع قيادة اللواء. بعد الغروب بساعتين أخذت وحدات السرية تصل الى نقطـة التجمـع. كـانت تعليمـات القـائد لجنـوده ان يسـيروا بهـدوء وبـترتيب عسـكري ودون تدخين. كان هناك استعداد للاشتباك مع العدو اذا اعترض طريق السرية، لذلك سار الجنـود وهم يحملون أسلحتهم ومع كل بندقية مائة طلقة. لحقت بالسرية جماعات من الأهلين (نسـاء وأطفال)، طلبوا السماح لهم باقتفـاء أثـر السـرية، ولكـن القـائد خصـص عـدداً مـن الأفـراد لحراستهم والسير بهم على مبعدة حتى لا يلحق بهم أذى فيما اذا اشتبكت السـرية فـي قتـال مع العدو. كانت الطريق وعرة وطويلة والحر شديدا، فلم تصل السرية الى قريـة نعليـن الا بعد تسع ساعات. كانت مسيرة شاقة حتى ان بعـض الأطفـال والمتقدميـن فـي السـن قضـوا نحبهم من شدة العطش. وعنـد وصولهـم علمـوا أن ادريـس سـلطان وجنـوده وصلـوا قبلهـم ببضـع ساعات. كان جلوب ولاش بانتظارهم فتفقدوا الجنود. وصلت السرية بكامل عددهـا، ولم يتخلف سوى الجندي الجريح الذي بقي في مستشفى الرملة.

وكان انسحاب السرية بعد غياب شمس يوم الأحد، في ليلة ١١ - ١٢ تموز ١٩٤٨.

على ان الانسحاب لم يشمل جميع أفراد القوة الأردنية التي كانت في اللد والرملة. فقـد

حدث أن فئة النائب صلاح عزير – التي كان ادريس سلطان أرسلها في اليوم الثاني من بدء القتال لتعزيز الدفاع عن مطار اللد، مع تعليمات بأن تدافع عن مواقعها دفاعا مستميتا – حدث ان هذه الفئة انحازت بعد سقوط المطار الى جانب الجنود والمناضلين الذين كانوا يرابطون في مدينة اللد ذاتها. وبعد ان اشتركت الفئة في عملية الدفاع عن المدينة، أضطرت الى التخلي عن مواقعها مثلها مثل الفئات الأخرى، ولم تعد الى مركز قيادتها الا بعد انسحاب ادريس سلطان ومن كان معه. كان صلاح عزير شابا قوي القلب ثابت الجنان يتحلى بصفات الفروسية ويعشق البطولة، فقضى ليلته تلك في المركز ومعه جنوده (نحو عشرة) الذين كانوا يتمتعون بمعنويات عالية على الرغم من انهم كانوا في مطلع سن الشباب ولم يدخلوا في الجندية الا منذ فترة قصيرة. في صباح يوم الاثنين ١٢ تموز انضم اليه عدد من رجال الشرطة الفلسطينية وبعض المناضلين. ولم يلبث المركز حتى تعرض لنار العدو، فأخذ صلاح وجنوده يردون على النار بالمثل، فأوقعوا بأفراد العدو عدة اصابات ودمروا احدى سياراته المصفحة. وكرّ العدو عليهم اكثر من مرة ومع ذلك ظلوا صامدين في موقعهم يرفعون راية المقاومة الى ان غابت الشمس وساد الظلام. كان واضحا انهم لا يستطيعون المضي طويلا في المقاومة بسبب قلة ما بقي لديهم من عتاد وبسبب الجوع والعطش. لم تكن هناك وسيلة أمامهم الا الانسحاب، ولكن عز على النائب صلاح ان يترك الراية الأردنية التي كانت ترتفع فوق المركز غنيمة للعدو، فصعد الى السطح وعمل على انزالها دون مبالاة برصاص العدو. أشار على جنوده وعلى المناضلين ان ينسحبوا اثنين اثنين مع بنادقهم وعتادهم ويسلكوا الطريق الوعرة بين جمزو وعنابة. كان أحد الجنود قد أصيب بجراح، ولكنه تحامل على نفسه وتمكن من اجتياز خطوط العدو بمساعدة رفاقه. بقي صلاح واثنان من الجنود حتى انسحب الجميع، فغادروا المركز ومضوا يلحقون برفاقهم في ظلام الليل.

كان ثبات تلك الفئة القليلة من الجنود ٢٤ ساعة خلف خطوط العدو، وصمودهم في وجه الهجمات المتكررة والنار الكثيفة – مثالا واضحا على روح البسالة والاقدام التي كان يتحلى بها جنود الجيش العربي وضباطه. بعد عودة صلاح عزير استقبله الفريق جلوب وهنأه على روح الانضباط والكفاءة القيادية التي أبداها. ولم يلبث ان منح وسام الاقدام تقديرا لبسالته.

وهكذا نرى أن تلك القوة الأردنية التي لم يكن يزيد عدد أفرادها على مائتي جندي وضابط، صمدت في مواقعها وخاضت عدة معارك مواجهة مع العدو، طوال ثلاثة أيام، ألحقت به في أثنائها جملة خسائر في النفوس والأسلحة (من جملتها تدمير أربع مصفحات). بل تخلفت مجموعة منها وشاغلت العدو في اليوم الرابع. وقد انسحبت هذه القوة في ثلاث دفعات منفصلة دون تنسيق بينها، وهي تحمل سلاحها وعتادها، بقدر كبير من الانضباط والنظام، ومرّت من خلال طوق العدو الكثيف وكل مجموعة منها على أهبة الاستعداد للقتال والمجابهة. كان سلوك هذه القوة – سواء عند الاشتباك مع العدو بكل جرأة، أو عند الانسحاب من بين خطوطه – انجازاً عسكرياً باهراً يضاف الى انجازات كثيرة مماثلة في سجل الجيش العربي.

أشاد الملك عبد الله بما أبدته قوة الجيش العربي في اللد والرملة، وما كان « من دفاع سرية واحدة ثماني واربعين ساعة وهي مطوقة بلوائين يهوديين وخروجها سالمة ووصولها بجميع لوازمها الى أفضل الجيش..» . يقول الفريق جلوب في هذا الصدد ان السرية انسحبت بعد أن ارسلت اليها القيادة أمراً بذلك « وكان انسحابها بما يشبه الأعجوبة، فوصلت الى مثلث بيت سيرا ومعها أسلحتها بصورة نظامية، بعد قتال مع العدو لمدة ٤٨ ساعة. لقد كان ذلك الانسحاب الليلي من خلال خطوط العدو، دون أن تفقد السرية رجلا أو بندقية، نموذجا رائعا على روح الانضباط».

ومع ان المصادر الاسرائيلية لا تشير الى خسائر قوات العدو في هجومها على اللد والرملة، الا ان ما ورد في كتاب موشي ديان عن قصة حياته، يعطينا فكرة عن الوقفة التي وقفتها وحدات الجيش العربي القليلة والمتفرقة في وجه ذلك الهجوم. فهو يقول ان كتيبته وكتيبة الدبابات ٨٢ اشتركتا في الهجوم على دير طريف، وان عددا من السيارات المسلحة أصيبت وجرح أثنان من قادة السرايا. وفي أثناء زحف كتيبته نحو اللد خسرت سيارة جيب بفعل لغم . وعند دخول الكتيبة الى اللد جوبهت بنار حامية من مخفر الشرطة. ثم جوبهت بنار قوية جداً من مركز الشرطة الرئيسي بين اللد والرملة، إذ أُطلقت عليها نار الرشاشات والقنابل اليدوية من البرج والطلاقيات في الطابق العلوي، وأصابت قنبلة يدوية احدى السيارات المسلحة فجرحت كل من كان فيها، كما أُصيبت سيارة جيب وأخذت تحترق، وأُصيبت معظم سيارات كتيبته بالرصاص وانفجر رشاش احداها. وقال ان مدرعات

الجيش العربي (الثلاث) هاجمتهم وأطلقت عليهم النار، وان وحدة الجيش العربي التي بقيت في دير طريف استطاعت أن تسترد الموقع من السرية الاسرائيلية التي بقيت هناك. وعند عودة كتيبته لمهاجمة مركز الشرطة جوبهت بالنار والقنابل اليدوية، وكان مجموع خسائر كتيبته هناك ٩ قتلى و ١٧ جريحا، وان معظم سياراته أصيبت كما أصيب كثيرون من الجنود والضباط بجراح(٧).

قبل أن أختتم هذا الفصل المتعلق بسقوط اللد والرملة، أرى لزاما علي ان أعرض لتحركات الكتيبة الاولى في تلك الفترة الحرجة، وللاتهامات التي وجهت الى رئيس الأركان الفريق جلوب وكبار الضباط الانكليز حول تحركات تلك الكتيبة، لما لذلك كله من علاقة بموضوع الجهد الذي بذله الجيش في الدفاع عن المدينتين.

سبق القول ان الكتيبة الأولى سلمت مواقعها في الرادار والنبي صموئيل الى الكتيبة الخامسة يوم ٧ تموز، أي قبل انتهاء الهدنة بيومين، وان الكتيبة خُصّصت لتكون احتياطياً عاماً للكتائب الخمس الأخرى في جبهاتها الممتدة من القدس شرقاً الى اللطرون غرباً.

اتخذت الكتيبة مواقعها في قرية دورة القرع (على مسافة نحو عشرة كيلومترات الى الشمال من رام الله على طريق رام الله – نابلس)، وقضت هناك اليوم الذي سبق بدء المرحلة الثانية من القتال. وهنا لا بد من القول ان قيادة الكتيبة كانت منذ ٣٠ ايار بيد وكيل القائد روبرت ملفل ومساعده وكيل القائد كارتر (٨).

عندما استؤنف القتال صباح يوم ٩ تموز، كانت أول بادرة من بوادر تحركات العدو، ان كتيبتين مدرعتين من قواته قامتا بالهجوم على بيت نبالا ودير طريف (وهما قريتان متجاورتان والى جانب بيت نبالا معسكر بريطاني كبير بقي خاليا بعد انسحاب الانكليز)، فاضطرت الفئة التي كانت تدافع عنهما الى الانسحاب.

بادرت قيادة الفرقة الى اصدار الأوامر الى الكتيبة الأولى للعمل على مواجهة تقدم العدو. وسرعان ما تحركت القوة التالية نحو القريتين بقيادة مساعد الكتيبة:

- سرية المدرعات بقيادة الملازم حمد عبد الله ابو دخينة.
- سرية المشاة الثالثة بقيادة الملازم عبد الله فلاح.
- بطارية مدافع الهاون الثقيلة بقيادة الرئيس أحمد أرسلان.

في أثناء الليل أخذت هذه القوة مواقعها قبالة مواقع العدو – الى الشرق من القريتين .

وفي الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي (السبت ١٠ تموز) قامت سرية المشاة بالهجوم مع مساندة بطارية المدافع والمدرعات. توافرت للهجوم عناصر المباغتة والسرعة والاقدام، فتم الاستيلاء على القريتين والمعسكر، وأضطر العدو الى الانسحاب بعد ان تكبد جملة خسائر. ولكن في اثناء الهجوم توغلت بعض المدرعات في خطوط العدو وسقطت احداها في حفرة وتعذر سحبها لشدة كثافة نار العدو، فبقيت في موضعها، (وهذه هي المدرعة التي ذكر دايان ان كتيبته اغتنمتها).

كان الموقع الذي استعادته القوة الأردنية ذا أهمية استراتيجية، فهو يقع على مسافة اربعة كيلو مترات فقط الى الشرق من اللد، ولا يبعد سوى عشرة كيلو مترات عن مجدل يابا حيث يتمركز العراقيون، كما يمر منه تقاطع طرق حيوي.

قضت القوة الأردنية ذلك اليوم في مواقعها الجديدة، بينما أخذ أهل القريتين يعودون الى منازلهم التي كانوا غادروها الى التلال المجاورة عند دخول اليهود. في ظهر اليوم التالي (الأحد ١١ تموز) وصل الى الموقع رجل على ظهر جواد وهو يحمل أنباء دخول اليهود الى مدينة اللد. عندئذ أصدر كارتر أمراً للملازم حمد ابو دخينة بأن يتحرك باتجاه المدينة لاستكشاف الوضع، وحذره من المخاطرة والتوغل في خطوط العدو. كان الوقت عصرا، فمضى ابو دخينة مع ثلاث مدرعات باتجاه الغرب. ولكن ذلك الرجل الثابت الجنان القوي المراس، لم يشأ ان يتقيد حرفيا بتعليمات مساعد قائد الكتيبة، بل انه شق طريقه من جانب مستعمرة بن شيمن وعندما وصل الى أطراف اللد بادر الى الاشتباك مع قوات العدو، ثم دخل الى الجانب الغربي من المدينة وهو يشاغل العدو ببسالة فائقة واندفاع، حتى تمكن من تشتيت عدة وحدات اسرائيلية. الا ان حمد لم يلبث أن لاحظ مصفحات العدو وسياراته المسلحة وهي تتحرك لقطع طريق العودة عليه، فعمد الى الانسحاب بعد ان استيقن ان العدو يتمركز هناك بقوات كبيرة. وهكذا شق طريقه عائداً الى مركز وحدته في بيت نبالا. كانت تلك العملية الجريئة دليلا على المعنويات العالية التي كان جنود الجيش العربي وضباطه يتمتعون بها، فقد كانوا يندفعون الى غمار المعركة بقلوب لا تعرف الخوف.

بعد ان تمت للعدو السيطرة على اللد والرملة مساء يوم الأحد ١١ تموز، أخذت قواته تتجه نحو الشرق باتجاه التلال المرتفعة للاستيلاء على مزيد من المواقع. وكان في طليعة

أهداف العدو استرجاع قريتي دير طريف وبيت نبالا. وعلى هذا ففي صباح يوم الاثنين قامت قوة تتالف من كتيبة مشاة تدعمها سرية مدرعات (مجنزرة مكشوفة عليها رشاشات)، بالهجوم على المواقع الأردنية. ونشبت معركة حامية بين الطرفين. وصمدت القوة الأردنية فاضطر العدو الى التراجع بعد ان تم تدمير ثلاث من مدرعاته واغتنام أخرى بالاضافة الى مدفع عيار ١٧ رطلا وأربع رشاشات.

على ان المعلومات التي توافرت لدى قائد القوة الأردنية، جعلته يعتقد ان العدو لن يلبث ان يعود للهجوم بقوة أكبر، بعد ان تمت له السيطرة على اللد والرملة، وان القوة الأردنية الصغيرة ستتعرض لأخطار جسيمة اذا بقيت في مواقعها - المنخفضة نسبيا - خصوصا ان بقية سرايا الكتيبة كانت قد تحركت بعيدا الى غور الجفتلك في وادي الأردن. لهذه الأسباب قرر ان تخلي القوة مكانها وتتراجع الى التلال المرتفعة غربي قرية دير قديس، على مسافة كيلو مترين الى الشرق تقريبا. ومع غروب شمس ذلك اليوم تمت عملية الانسحاب.

في صباح اليوم التالي تقدم العدو نحو بيت نبالا ودير طريف فاكتشف انهما خاليتان، فعاد للتمركز فيهما، ولكنه لم يتقدم لمهاجمة القوة الأردنية في مواقعها الجديدة.

هنا نستطيع ان نروي ما حدث لبقية وحدات الكتيبة الأولى:

ذلك ان قيادة الفرقة تلقت يوم ١١ تموز معلومات عن تحركات يقوم بها العدو من جهة بلدة بيسان باتجاه الجنوب. وعلى أساس هذه المعلومات تلقى قائد الكتيبة الأولى أمراً بالتحرك على رأس الوحدات الباقية لديه الى مخفر الجفتلك في الجانب الغربي من وادي الأردن لمواجهة زحف العدو المحتمل. أثار ذلك الأمر نفوس الضباط والجنود العرب الذين كانوا يتوقعون صدور الأمر لهم بالتحرك لمواجهة الهجوم اليهودي على اللد والرملة، وخاصة بعد ان اشتبكت سرية المدرعات بطلائع سيارات العدو المصفحة في قرية دير طريف. وقد قيل للضباط العرب في الكتيبة حينذاك أن هجوماً يهودياً من بيسان ربما يستهدف مخفر الجفتلك، وربما يستهدف الوصول الى أريحا ذات الموقع البالغ الأهمية (كانت أريحا ملتقى طرق الامدادات والمواصلات بين شرقي الأردن وفلسطين، واستيلاء العدو عليها يعني قطع الطريق من الخلف على جميع القوات العراقية والأردنية في فلسطين). وعلى الفور تحركت الكتيبة بسياراتها عن طريق وادي البادان فوصلت الى

مخفر الجفتلك في مساء اليوم ذاته (١١ تموز) واتخذت مواقعها فيه وحواليه في حالة استعداد لمواجهة الهجوم المتوقع. ومن الجدير بالذكر انه لم يكن في ذلك المركز منذ بدء القتال سوى فئة من السرية المستقلة الثانية، يقودها الملازم مشرف حسن. كما كانت هناك قوة عراقية في منطقة جسر المجامع الى الشرق من نهر الأردن.

أمضت الكتيبة يومين في الجفتلك دون أن تشهد أية حركة للعدو، على الرغم من انها اقتربت الى مسافة خمسة كيلومترات من بيسان. لذلك عادت أدراجها يوم ١٣ تموز الى أراضي قرية دير قديس بالقرب من خربثا، الى الغرب من مثلث بيت سيرا.

أثارت حركة الكتيبة الأولى الى الجفتلك في تلك الفترة الحرجة استغرابا شديدا، بل تحول الاستغراب عند البعض الى حملة اتهامات بعد ان تبين عدم صحة المعلومات التي تحركت بسببها.

لقد تناقلت الألسن في حينها أن برقية وصلت الى قيادة الجيش من قائد منطقة اربد. و.ق. نديم السمان تقول ان قادة المخافر في الغور شاهدوا تجمعات كبيرة لليهود في منطقة بيسان، وان قوافل كبيرة من السيارات تنتقل ما بين مستعمرات اليهود في الغور. ويقول عبد الله التل، الذي كان أول من سجل هذه القصة في كتاب، ان الفريق جلوب عند تسلمه هذه البرقية أصدر أوامره الى الكتيبة الأولى لكي تنتقل الى الغور، وذلك «قبل انتهاء مدة الهدنة الاولى»، وان الكتيبة انتقلت مساء يوم ٨ تموز الى منطقة الغور ورابطت احدى سراياها التي يقودها الملازم عبد الله فلاح في منطقة طوباس، وان الكتيبة لم تعد الى جبهة القتال الا بعد ان تم للعدو احتلال المدينتين. بل ان التل مضى الى اتهام جلوب والسمان باختراع ما ورد في البرقية لابعاد الكتيبة عن الاشتراك في معركة الدفاع عن اللد والرملة (٩).

مما تجدر الاشارة اليه ان الفريق جلوب لم يشر في كتابه (جندي مع العرب) الى قصة حركة الكتيبة الأولى من منطقة رام الله الى وادي الأردن، كما انه أكد لي في رسالتين انه لا يذكر ان الكتيبة الاولى انتقلت الى وادي الاردن:

من الخطأ ان يتصور أحد ان اليهود استولوا على اللد والرملة بينما كنا نحن في بيسان. لم يكن لدينا العدد الكافي من الرجال للتمسك باللد والرملة ... الكتيبة الأولى لم تتحرك الى الجفتلك. لقد سحبت تلك الكتيبة من الرادار لانني كنت أريد ان تكون لدي

كتيبة احتياطية. إن أي قائد لا يحب ان تكون جميع قواته في خط القتال، اذا ما وقع أي طارىء مفاجيء ... لقد بقيت الكتيبة الأولى - بعد سحبها من الرادار - احتياطيا بالقرب من رام الله. عندما أخفق الاسرائيليون في هجماتهم المتكررة للاستيلاء على اللطرون، فانهم حاولوا الاستيلاء على بيت سيرا واختراق الطريق الى بيت عور ورام الله. عندئذ كان من حسن الحظ ان الكتيبة الأولى كانت موجودة كقوة احتياط، فبادرت الى ارسالها الى بيت نبالا حيث دحرت محاولة الزحف الاسرائيلية. لم يكن بمقدورنا ان نحاول الدفاع عن اللد والرملة اللتين كانتا في السهل المنبسط وعلى بعد أميال قليلة فقط من تل ابيب. لو فعلنا ذلك لطوق الاسرائيليون الكتيبة ثم تقدموا من خلفها صعودا الى طريق بيت عور ورام الله. الملك والحكومة وافقوا على اننا لا نستطيع الدفاع عن اللد والرملة. (١٠).

في كتابه (جندي مع العرب) يقول الفريق جلوب شيئا قريبا مما ورد في رسالتيه لي بهذا الشأن، فهو يقول ان الكتيبة الاولى استولت يوم ١٢ تموز على سيارة مصفحة للعدو وأربع رشاشات ومدفع عيار ١٧ رطل ودمرت ثلاثا من مصفحات العدو. ولا شك في انه يعني هنا سرية المصفحات وسرية المشاة اللتين بقيتا في المنطقة ولم تتحركا الى الجفتلك مع بقية سرايا الكتيبة. انه لسبب ما لم يذكر في كتابه حركة الكتيبة (ناقص سريتين) الى الجفتلك، تلك الحركة التي استغرقت ثلاثة ايام (١١ - ١٣ تموز). فهل اعتبر تلك الحركة حركة غير مهمة ولا تستحق الذكر، ثم عاد ونسيها مع مضي السنين؟ ام انه أهمل الاشارة اليها لسبب ما؟

اما نديم السمان فنفى ان يكون أرسل برقية بالمعنى الذي ذكرناه بل قال انه كان لدى قيادة منطقة اربد ثلاثة أجهزة لاسلكي، ولكن القيادة سحبتها قبيل بدء الحركات الحربية في فلسطين وألحقتها بكتائب الجيش المحاربة. وفي اثناء الهدنة الاولى جاءه ضابط بريطاني من ضباط الجيش العربي ومعه كتاب من القيادة يتضمن أمراً بأن تقوم قيادة منطقة اربد بتوفير الأسباب له ولأربعة جنود كانوا يرافقونه، لكي يقيموا في مخفر المنشية قبالة جسر المجامع. وكانت مهمة الضابط ان يراقب تحركات اليهود ويرسل تقاريره الى القيادة عن طريق جهاز لاسلكي كان معه. وأكد السمان انه أجرى ترتيبات لاقامة ذلك الضابط الذي بقي في ذلك الموقع الى ما بعد انتهاء فترة القتال الثانية.

ان من المرجح ان يكون ذلك الضابط هو الذي أرسل البرقية التى تتحدث عن حشود يهودية بالقرب من بيسان الى قيادة الجيش، وأن الأشخاص الذين سمعوا بها استنتجوا ان قائد المنطقة هو الذي أرسلها.

وهناك رواية أخرى بأن قائد الفئة التابعة للسرية الثانية المستقلة، والتي كانت بقيت في مخفر الجفتلك منذ بدء القتال – هو الذي أرسل معلومات بأن قوات يهودية تتقدم باتجاه المخفر من جهة بيسان، وأن الكتيبة تحركت بناء على المعلومات التي بعث بها.

ومهما يكن من أمر فانني أعتقد أنه لم تكن هناك سوء نية في ارسال المعلومات سواء كان مرسلها الضابط البريطاني أو قائد فئة الاستطلاع في مخفر الجفتلك. ودليلي على ذلك ما ورد في كتاب اللواء خليل سعيد (تاريخ حرب الجيش العراقي في فلسطين) من ان اليهود قاموا فعلا بتحركات تثير الاشتباه في ذلك الجزء من الجبهة :

« قبل بداية القتال الثاني أعاد الاسرائيليون توزيع قواتهم في قطاع (مستعمرة كيشر – بيسان) فجلبوا نحو مائة سيارة عسكرية من (طبريا) يوم ١٩٤٨/٧/٨ ووزعوها على مستعمراتهم غربي الأردن، واحتفظوا بقسم من القوة في الاحتياط جوار (بيسان)» .

هذه الفقرة تقطع الشك باليقين فيما يتعلق بحركة الكتيبة الأولى الى الجفتلك. وازاء ذلك كان من الطبيعي ان تبادر قيادة الجيش العربي الى ارسال تلك الكتيبة لكي تقف في وجه العدو اذا حاول الزحف من بيسان الى أريحا، ولحماية مؤخرة الجيشين الأردني والعراقي معاً.

وزيادة في الاحتياط سألت اللواء خليل سعيد عن المصدر الذي اعتمد عليه في كتابة تلك الفقرة، فأجاب (بعد الرجوع الى ما لديه من وثائق) انها مأخوذة عن جريدة الحرب للفوج الثاني من جحفل اللواء الأول . وكان الفوج الثاني يتمركز آنذاك في منطقة جسر المجامع بقيادة و. ق. عبد الكريم قاسم. وقد نشر تقرير جحفل اللواء الأول في الصفحة ٥٤ من جريدة الحرب. (١١).

وهكذا يبدو لي ان ضرورات عسكرية حتمت حركة بعض سرايا الكتيبة الأولى الى الجفتلك. وأجد نفسي غير مقتنع بالاتهامات التي وجهت لرئيس الأركان والقائلة بأنه حرك تلك السرايا بحجة وهمية، كي يتفادى ارسالها للدفاع عن اللد والرملة.

يقول الفريق جلوب بهذا الصدد:

بعد بدء هجوم اليهود على اللد والرملة أخذت القيادة تتلقى سيلا من الاستغاثات بواسطة اللاسلكي. لم يكن بمقدوري ان أفعل شيئا. وأعتقد انه لا يوجد قائد عقله في رأسه يعمل على ارسال وحدة من الجيش الى المدينتين لو كان في وضعنا.

لم يكن لينتج عن ذلك سوى كارثة للبلاد كلها. الحكومة لم تؤمن ميزانية لزيادة عدد أفراد الجيش، ورفضت الموافقة على الزيادة. وكانت تعرف اننا لانستطيع الدفاع عن اللد والرملة، ووافقت على هذا قبل ١٥ ايار. ولكن فيما بعد تم توجيه الملامة الى الجيش وحده.

تركز اهتمامي الرئيسي على منطقة بيت نبالا – بيت سيرا. أمرت الفرقة ان تنشيء مواقع دفاعية على خط عمواس – سلبيت – جمزو – حديثه، ولكن قائد اللواء الثالث قال انه لا توجد لديه قوات لهذه الغاية. في ١١ تموز أرسل دورية الى جمزو فوجدت فيها قوة اسرائيلية، فاشتبكت معها وطردتها بعد ان قتلت عشرة من رجالها. عندما انسحبت الدورية عاد اليهود الى جمزو.

يوم ١٢ تموز أرسلنا دورية من بيت سيرا الى جمزو، فتبين أن القرية فيها قوة كبيرة للعدو. كما ان دورية من المصفحات تحركت من دير طريف باتجاه اللد فلم تستطع التغلغل عبر خطوط العدو. (انتهى).

في تلك الأثناء كانت الكتيبة الأولى بكامل وحداتها قد أخذت تتمركز يوم ١٤ تموز بالقرب من خربثا. هنا تعرض أفراد الكتيبة الى تجربة قاسية اذ أخذت جموع الناس الذين طردهم الأعداء من اللد والرملة ، تصل الى المنطقة التي ترابط فيها الكتيبة، وهم بحالة يرثى لها من البؤس والاعياء والهوان. وأخذ الجنود يمدون يد العون لاولئك التعساء بكل ما وسعهم من جهد : قدموا لهم وجبة الطعام التي وصلت اليهم، وقدموا اليهم الماء، وأخذوا ينقلونهم بسياراتهم من أقرب نقطة يستطيعون الوصول اليها الى رام الله والقرى القريبة منها. كان هناك آلاف من النساء والأطفال والشيوخ يتقدمون عبر أراضي وعرة على مسافة عشرة أميال تحت حرارة شمس تموز اللاهبة. وقد حتم عليهم اليهود ان يغادروا المدينتين في خلال نصف ساعة . (هذا بعد أن احتجزوا جميع الرجال الذين في سن الجندية وأرسلوهم الى معسكرات الاعتقال). كانت هناك فتيات يسرن حافيات وقد سالت

الدماء من أقدامهن وهن يسرن في طريق وادي نعلين الوعرة (١٢).

ومما زاد من مرارة تلك التجربة ان الأهلين في رام الله والقرى التي مرت بها مسيرة اللاجئين البائسة، أخذوا من فرط الحنق وشدة الشعور بالاحباط - يوجهون الشتائم لجنود الجيش « مع ان ربع اولئك الجنود أصيبوا بجراح أو لاقوا حتفهم منذ عبورهم نهر الأردن يوم ١٥ ايار».

بلغ التأثر من جنود الكتيبة الأولى حدا دفعهم الى التظاهر والهياج، فالتفوا حول روبرت ملفل قائد الكتيبة، وقد تملكهم الغضب الشديد، وأخذوا يصرخون في وجهه: كيف يحدث اعتداء على نسائنا ونبقى ساكتين؟ سألهم القائد: ماذا تريدون؟ قالوا: نريد ان نقوم بالهجوم. اضطرب القائد. وبذل ركن الكتيبة الرئيس خالد الصحن كل ما في وسعه لتهدئة الجنود، مع الوعد بان يتم الاتصال بالقيادة لوضع خطة هجومية.

بعد يومين حدث في الكتيبة الثانية مثلما حدث في الكتيبة الأولى. كان جنود تلك الكتيبة قد شاهدوا أيضا جموع اللاجئين تتدفق عبر مواقعهم في منطقة مثلث بيت سيرا - فثارت مشاعرهم واضطربت نفوسهم. وازداد ذلك الاضطراب عندما شاهد الجنود طلائع العدو تصل الى قريتي البرج وبير ماعين، بحيث أصبحوا يهددون طريق الكتيبة المرابطة في اللطرون. ولم يلبث اضطراب النفوس حتى دفع بعض الجنود، في الساعة السابعة صباحا، الى موضع قائد الكتيبة و. ق. لوكت، حيث أخذوا يصرخون في وجهه قائلين إنهم يريدون ان يهاجموا العدو قبل ان يتقدم الى مواقعهم التي كانوا فيها. ومضى لوكت بسيارته الى قائد اللواء الثالث، حيث اجتمع بالزعيم اشتون، وأبلغه بهياج الجنود والحاحهم على مهاجمة العدو للأخذ بثأر ضحايا الارهاب اليهودي.

في تلك الاثناء كان العدو قد استعد للبدء بالمرحلة الثانية من هجومه، والتي كانت تستهدف مهاجمة مواقع الجيش العربي من الخلف وقطع الطريق عليها عند بيت نوبا وبيت سيرا، ثم التقدم نحو رام الله. لقد تعذر على العدو في فترة القتال الأولى ان يستولي على اللطرون وجبال يالو، عن طريق الهجمات المباشرة، فعمد في فترة القتال الثانية الى تعديل خطته، وأخذ يعمل على أسقاط مواقع الجيش العربي عن طريق قطع طرق مواصلاتها وتطويقها من الخلف وارغام القوات المتمركزة فيها على التراجع الى الوراء والدخول في معارك فاصلة خارج معاقلها الحصينة. بل إن خطة العدو لم تكتف بمحاولة التطويق من

الخلف، اذ كان أصبح لديه الآن قوات ضخمة نسبياً، يستطيع أن يدفع بها الى معارك تطويق من الخلف والى معارك مواجهة من الامام، مستهدفا من ذلك تحقيق الغاية الرئيسية من كل حرب: الا وهي تدمير قوة الخصم والقضاء عليها.

وتقول بعض المصادر انه بعد سقوط اللد والرمله، جاء الفريق جلوب الى الملك عبد الله طالبا سحب الجيش الأردني الى ما وراء نهر الاردن، بسبب نفاد الذخيرة وعدم مقدرة الجيش على مقاومة اليهود . وغضب الملك عبد الله، ودعا رئيس الوزراء وأعضاء الوزارة الى الاجتماع، وقال لهم انه لا يوافق على انسحاب الجيش من فلسطين وانه على استعداد للتنازل عن العرش أو يقود الجيش بنفسه ويقاتل على رأس جنوده لاحراز النصر او نيل الشهادة. بل ان الفريق الجبوري يقول ان جلوب تقدم الى الملك بكتاب يوصي فيه بسحب الجيش الأردني من فلسطين، وان الملك دوّن جوابه بخط يده على الكتاب كما يلي « ان تنسحب انت أذهب أنا لقيادة الجيش. نشكرك على خدماتك حتى الان». ولكن الجبوري يقول انه سمع هذا من رجال حاشية الملك عبدالله، وان الامير عبد الاله أيد صحة هذه الواقعة. (١٣).

ولكنني قبل أن أنهي هذا الفصل أجد من الضروري الاشارة الى الملامة التاريخية التي وجهتها بعض المصادر العربية الى الجيش العربي الأردني زاعمة انه قصر في دفاع عن اللد والرملة، مع ما رافق ذلك من توجيه الاتهامات المختلفة ليس الى رئيس ركان الجيش وكبار ضباطه (باعتبارهم من الانكليز) فحسب، بل الى الجنود ورجال الحكم والمناضلين ايضاً(١٤).

في حقيقة الأمر كان تبادل الاتهامات بين الدول العربية، نتيجة طبيعية للخذلان الذي أصاب تلك الدول في حرب فلسطين. فكل دولة رأت أن تبرر ما أصابها عن طريق القاء اللوم على الدول الأخرى. لم تكن حملات الاتهام (التي تستهدف في الأصل تبرير الذات) تتسم بالأخلاقية، ومع ذلك استمرت ردحاً من الزمن، ثم وجدت طريقها الى كتب التاريخ بوصفها حقائق ثابتة، بينما لم تكن كذلك في الواقع(١٥).

وفي تقرير للفريق صالح صائب الجبوري بتاريخ ٢١ ايلول ١٩٤٨ وردت عبارات بهذا المعنى، كأنما كان يتنبأ بها عما سيحدث اذا ما أخفق العرب في تحقيق أهدافهم في فلسطين:

ان عدم نجاح الدول العربية عسكرياً للقضاء على القوات الصهيونية، وبقاء الموقف مترجرجا، سيهز الأقطار العربية هزة عنيفة.. وسيجعل هذه الدول نادمة على عملها غير المبني على بعد في النظر، وسيترك عندها أثراً عميقا من الندامة والألم يزداد أثره ورد فعله بتعاقب السنين والعصور. وعندئذ ستشرع الدول العربية بالقاء اللوم بعضها على بعض لكي تبرّر موقفها متّهمةً غيرها بالتقصير. ولا شك ان الدول التي لها دعاية قوية وملكة واسعة لتمويه الحقائق، ستنجح في تبرير موقفها، وان كانت هي المقصرة...(١٦)

من هذه المنطلقات، بدأت المصادر العربية تتحدث عن " تسليم " اللد والرملة، بينما لم يكن سقوط اللد والرملة بيد العدو مختلفا عن سقوط يافا وحيفا وعكا وصفد والناصرة وطبريا، أو عن سقوط منطقة الجليل بأكملها، أو عن سقوط المنطقة الجنوبية من فلسطين (النقب وبئر السبع)، أو عن وصول اليهود الى خليج العقبة (ايلات) أو عن احتلالهم لخمس عشرة قرية من لبنان، أو عن تجاوزهم حدود مصر الدولية الى سيناء. لقد كانت المكاسب التي أحرزها العدو ناشئة عن ضعف الجهد العربي كله، دون ان تكون هناك عمليات استسلام أو تسليم، من قبل أي طرف كان.

معارك المرتفعات

انتهت معركة اللد والرملة يوم ١٢ تموز، وبذلك تحققت المرحلة الأولى من خطة الهجوم اليهودية في القطاع الأوسط من فلسطين. وفي اليوم التالي استأنف اليهود هجومهم لتحقيق المرحلة الثانية من خطتهم الرامية الى تطويق اللطرون من الخلف ثم الاستيلاء على كافة المرتفعات المطلة على السهل الساحلي من جهة الشرق.

ان اليهود باستيلائهم على القرى الواقعة الى الشرق من اللد والرمله (عنابه، جمزو، دانيال، الحديثه، دير طريف، ومجدل يابا)، استطاعوا ان يضعوا أقدامهم على سفوح التلال. وكانت خطتهم في المرحلة الثانية ترمي الى التقدم من السفوح الى قمم التلال والجبال التي كان الجيش العربي يتخذ منها معاقل طبيعية لدحر العدو المتفوق في عدده وعدده.

في هذا الوضع تعين على الجيش العربي ان يملأ مسافة الخمسة عشر ميلا بين ميمنته وميسرة العراقيين، وهي المسافة التي كانت مدينتا اللد والرمله تملآنها في السابق. وقد تم

ملء هذه المسافة بقوة صغيرة نسبياً الا وهي الكتيبة الأولى، بالاضافة الى السرية الخامسة (التي كانت انسحبت من الرمله) والسرية ١٩ من جنود البادية.

ومما زاد الموقف صعوبة ان الجيش العراقي اضطر - عند سقوط اللد والرمله - الى الانسحاب من بعض المواقع الامامية المهمة، وتراجع قليلا الى الشمال، بينما كان المتوقع ان يمد جناحه قليلا الى الجنوب مساهمة منه في سد الثغره. فقد انسحب العراقيون من رأس العين ثم من مجدل يابا وتراجعوا الى كفر قاسم.

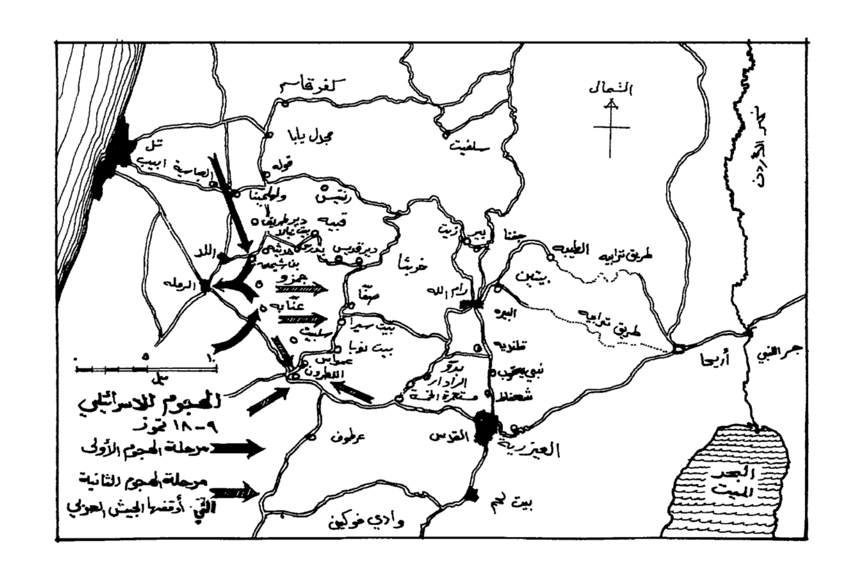
اتضح للقيادة الأردنية ان اليهود يستهدفون الاستيلاء على طريق المواصلات بين اللطرون ورام الله، تلك الطريق التي كانت تقع عليها قريتا بيت نوبا وبيت سيرا. فكان لا بدّ للجيش العربي عند ذلك ان يعمل على انشاء خط من النقاط الدفاعية ابتداء من بيت نبالا وقوله في الشمال حتى سلبيت وبيت نوبا في الجنوب.

وعلى طول امتداد هذا الخط، ثم على طول امتداد جبهة باب الواد الأصلية من عمواس واللطرون الى جبال يالو، بل الى القطاع الواقع بين جبال يالو والرادار - دارت عدة معارك حامية خلال الأيام الأربعة الأخيرة التي سبقت اعلان الهدنة الثانية. وعلى الرغم من تفوق العدو في السلاح والرجال، فان وحدات الجيش العربي استطاعت ان توقف تقدمه، وأن تدحره الى الوراء وتكبده خسائر جسيمة.

إن أهم المعارك والاشتباكات التي دارت في هذا القطاع، في اثناء المرحلة الثانية من مراحل الهجوم اليهودي، هي:

١٥ تموز معركة يالو
١٦ تموز معركة البرج
معركة قوله
١٨ تموز معركة رأس كركر (صفا)
معركة اللطرون
معركة خراب اللحم

ولكن قبل أن أعرض لكل معركة من هذه المعارك، أرى أن أكرر القول ان قيادة الجيش لم يكن لديها سوى الكتيبة الأولى لكي تملأ بها الفراغ الذي حدث في الجبهة نتيجة لسقوط اللد والرملة. وقد سبق ان ذكرت ان جانبا من تلك الكتيبة خاض معركتين مع العدو



الهجوم الاسرائيلي
٩-١٨ تموز
مرحلة الهجوم الأولى
مرحلة الهجوم الثانية
التي أوقفها الجيش العربي
ميل
٠ ٥ ١٠
الشمال
كفرقاسم
مجدل يابا
سلفيت
تل ابيب
قوله
رنتيس
قبيه
اللد
الرمله
جمزو
عنابه
سلبيت
بيت سيرا
بيت نوبا
عمواس
اللطرون
خربثا
صفا
رام الله
البيره
بيتين
جفنا
الطيبه
طريق ترابيه
أريحا
جسر اللنبي
نهر الأردن
القدس
العيزرية
بيت لحم
وادي فوكين
عرطوف
شعفاط
نبي يعقوب
قلنديه
بدو
البحر الميت

في دير طريف وبيت نبالا، ثم اضطر الى التراجع الى مواقع مرتفعة يسهل الدفاع عنها. هذا في الوقت الذي قام فيه الجانب الآخر من الكتيبة بالانتقال الى غور الجفتلك لمواجهة زحف العدو المحتمل من بيسان. وفي تلك الأثناء كانت سرية المدرعات تقوم بارسال الدوريات لمراقبة تحركات العدو والاشتباك معه اذا ما تقدم الى الأمام. ولم تلبث قيادة الكتيبة ووحداتها الأخرى حتى عادت من الجفتلك يوم ١٣ تموز، وتمركزت في أراضي دير قدّيس وخربثا، وأخذت دورياتها تتحرك في المنطقة بين مثلث بيت سيرا جنوبا حتى دير عمّار (حيث القوات العراقية) شمالاً.

نرى مما تقدم ان الكتيبة الأولى قامت بملء الجزء الشمالي من الثغرة التي أحدثها الهجوم اليهودي على اللد والرملة. اما الجزء الجنوبي الذي يتوسطه مثلث بيت سيرا، فلم تكن ترابط فيه الا الوحدات التالية:

- السرية المستقلة الخامسة بقيادة الرئيس اديب القاسم، وباسنادها فئة من المدرعات الاحتياطية في اللواء.
- سرية مدرعات الكتيبة الثانية بقيادة الملازم الأول حمدان صبيح البلوي.
- السرية ١٩ من جنود البادية بقيادة الملازم الأول قاسم ابو شريتح.
- البطارية الثانية من مدافع ٢٥ رطلا بقيادة الملازم الاول مصطفى الخصاونه (في بيت لقيا).

وقد وضع الزعيم اشتون قائد اللواء هذه القوة تحت قيادته الشخصية.

وكان من جملة نتائج تقدم العدو، ان قيادة اللواء الثالث تراجعت باتجاه الشرق من مثلث بيت سيرا الى قرية بيت عور التحتا.

ونستدل على خطورة الوضع في جبهة الكتيبة الثانية في اللطرون وعمواس، ان العدو أخذ يقصف مواقعها بقنابل مدفعيته ساعات طوالا. وكان من نتيجة ذلك القصف ان استشهد جندي وجرح أربعة يوم ١٠ تموز. وفي اليوم التالي استشهد جندي وجرح اثنان وفي اليومين التاليين أُصيب عشرة جنود بجراح.

في تلك الأثناء كان العدو ما يزال يتقدم مع سفوح التلال. وكان لابد من محاولة للتعرف على المواقع التي بلغها وكثافة القوات التي يستعملها، فتحركت فئة من المدرعات بقيادة الملازم الاول حمدان البلوي الى قرية جمزو (تبعد سبعة اميال تقريبا الى الشمال

الغربي من اللطرون)، وتمكنت من دخولها بعد معركة حامية، ثم انسحبت بعد أن ألحقت بالعدو جملة خسائر وأُصيب خمسة من أفرادها بجراح. ثم وجدت القيادة نفسها مضطرة يوم ١٤تموز الى التخلي عن قرى سلبيت والبرج وبيرماعين وبيت شنا والبويرة بسبب عدم وجود قوات تتمركز فيها. اما قرية عجنجول فقد كان يقوم بالدفاع عنها خمسة مسلحين من ابنائها، وعلى رأسهم مختار القرية الذي أظهر شجاعة فائقة في التصدي لقوات العدو. وسرعان ما ظهرت نتائج التقدم الذي أحرزه العدو، اذ انه ركز بعض أسلحته المساندة في قرية سلبيت وأخذ يقصف طريق بيت سيرا – اللطرون لقطع مواصلات القوات الموجودة في اللطرون. ونتج عن ذلك أن الجيش اخذ ينقل المواد التموينية بواسطة السيارات المصفحة.

ومن أجل التعرف على كثافة وجود قوات العدو في سلبيت، تقدمت دورية من الكتيبة الثانية بقيادة الرئيس برومج، عند منتصف ليلة ١٦/١٥ تموز، وكانت الدورية تتألف من نحو ٥٠ جندياً. واشتبكت هذه الدورية مع العدو عند مشارف القرية، ولكنها أضطرت الى الانسحاب بعد ان قتل اثنان من أفرادها أحدهما النائب محسن النايف الهقيش (بني صخر) والثاني عريف من بدو العراق، وأصيب الرئيس برومج وعدد من الجنود بجراح. وفي الصباح شوهد العدو (بواسطة المناظير) وهو يحرق جثتي الشهيدين، فاشتدت نقمة الجنود والضباط وأخذوا يطالبون بالانتقام.

معركة يالو الكبرى

كانت، قيادة العدو تعتقد أن المرحلة الثانية من الهجوم الكبير الذي خططت له للاستيلاء على اللطرون وطريق باب الواد – ستلاقي من النجاح ما لاقته المرحلة الأولى.

ولتحقيق تلكَ الغاية اندفعت كتائب لواء يفتاح واللواء المدرع الى المرتفعات الممتدة من بيت نبالا شمالا حتى قرية سلبيت جنوبا. وفي الوقت الذي أخذت فيه كتائب هذين اللوائين تشدد الضغط على تلك المرتفعات بقصد الوصول الى مثلث بيت سيرا (مفتاح مدينة رام الله وملتقى طريقي اللطرون وخربثا) لقطع الطريق على الكتيبتين الثانية والرابعة من الحلف – دفعت قيادة العدو لواء هارل للقيام بهجوم مباشر على مراكز الكتيبة الرابعة في يالو. وكان هدف العدو أن يكون الضغط على مواقع الكتيبتين من جهتين: من باب الواد جنوبا ومن جهة جمزو وبن شيمن غربا، لكي تضطر الكتيبتان الى

اخلاء مواقعهما والانسحاب باتجاه رام الله، أو أن تقعا في نطاق الكماشة الثانية التي أخذ ذراعا ألوية العدو الثلاثة يعملان على وصل أحد طرفيها بالآخر. وقد اقترب طرفا الكماشة في عملية التطويق (حتى لم يعد يفصل بينهما – على حدّ قول أحد المصادر الأجنبية – الا مسافة ثلاثة كيلو مترات). ولكن شدة مقاومة القوات الأردنية استطاعت ان تلوي الذراعين الممتدين وتعيدهما الى الوراء.(١٧)

لم تفتر للعدو همة، منذ يوم استئناف الحرب، في قصف مواقع الكتيبتين الثانية والرابعة بقنابل المدفعية، وقصده من ذلك ان يزعزع المعنويات ويلحق الأضرار المادية بالاستحكامات والأسلحة، فضلا عما يحدثه القصف من اصابات في الأرواح. وقد ضاعف العدو ذلك القصف المدفعي عندما اعتقد ان تحقيق هدفه أصبح قريب المنال، واعتزم ان يدفع قواته في هجوم مباشر نحو مواقع الكتيبة الرابعة في جبال يالو. فمنذ الساعة الثانية من صباح يوم ١٥ تموز أخذت مدافعه من عيار ٣ و ٤ و ٦ بوصات (هاون) وعيار ١٣ و ١٧ رطلا – تقصف مواقع الكتيبة في عملية تمشيط دائبة، حتى مغيب الشمس في الساعة السابعة مساء.

اضطر أهالي قرية يالو للجوء الى غار في طرف القرية فرارا من شظايا القنابل، بعد أن أصيب ثلاثة منهم بجراح مختلفة. بل ان القصف المدفعي أعاق حركة السيارات على الطريق الرئيسية المؤدية الى رام الله. ليس ذلك فحسب، بل ان القصف المدفعي شمل قرية بيت نوبا وأشجار الزيتون المحيطة بها من الجنوب بقصد تدمير مدفعية ٢٥ رطلا (لم تكن استخبارات العدو قد اكتشفت انتقال بطارية المدفعية الى قرية بيت لقيا قبل ذلك باسبوع).

بدأت احدى كتائب العدو تقدمها في نحو الساعة العاشرة والنصف ليلا، من منطقة باب الواد، بالقرب من قرية بيت محسير. وقد اكتشفت دوريات الكتيبة الرابعة حركة العدو، فأخذت سرايا الكتيبة تستعد لمواجهته حينما يقترب من خطوطها. واستمرت سرايا العدو في تقدمها بين التلال والأودية حتى وصلت الى واد يقع في الجهة الجنوبية من قرية يالو، فتمركزت فيه. ثم تقدمت احدى الفئات من هناك عند منتصف الليل الى تلة صغيرة شرقي يالو، وهناك ركزت عددا من المدافع الرشاشة وأخذت تطلق نيرانها السريعة على مراكز السرية الثالثة (يقودها الرئيس صالح العيد) المواجهة للتلة. لم يكن اطلاق نار الرشاشات سوى تغطية لفئة أخرى من جنود العدو أخذت تتقدم نحو الأسلاك الشائكة التي

تحيط بأحد مراكز السرية. وقد استطاع جنود العدو ان يفتحوا فجوة في حاجز الأسلاك وان يعبروا منها ويشتبكوا مع جنود السرية الرابضين في خنادقهم. وفي الوقت نفسه كانت قوة أخرى للعدو قد تقدمت باتجاه مواقع السرية الثانية (يقودها الرئيس عبدالله السالم) في التلال المشرفة على قرية دير ايوب، وأخذت تشاغلها.

اشتدت المعركة حينما أخذ الطرفان يطلقان النار من جميع الأسلحة المتوافرة، وارتفع دوي قنابل مدافع الهاون عيار بوصتين مع انفجارات القنابل اليدوية الى عنان السماء. واستمر العدو في الضغط بعزم وتصميم، فاضطرت فئة السرية الثالثة التي تعرضت للهجوم الأول الى الانسحاب من مواقعها، في نحو الساعة الثانية من صباح يوم ١٦ تموز. وأسرعت فئة أخرى من جنود العدو الى بناء قديم في رأس الجبل (دون سقف وأبواب)، حيث كان الجندي منيزل عقله الحديد يعدّ وجبة طعام لجنود السرية الثالثة. وأشتبك منيزل مع أحد جنود العدو في صراع بالأيدي، وأمسك كل منهما بعنق الآخر، وظل يضغط عليه حتى سقط الاثنان على الأرض جثتين هامدتين.

تركز الجنود في البناء القديم وفي خنادق الفئة التي أرغموها على الانسحاب. وبينما كان هؤلاء يعملون على تثبيت أقدامهم في ذلك الموقع، ويطلقون النار من نوافذ البناء على مواقع السرايا الأخرى – حمل الرئيس صالح العيد الفاخوري رشاشته بيده وأخذ يعيد تنظيم أفراد سريته للقيام بهجوم معاكس على العدو. وفي الوقت نفسه أرسل جنديا الى قائد الكتيبة يخبره بما وقع، وأرسل جنديا آخر الى قائد السرية المساندة الرئيس عزت حسن، يقول له: اذا لم تسرع الى نجدتنا فان اليهود سيأخذون مواقع السرية كلها. وعلى الفور أرسل قائد السرية المساندة مدرعة من مدرعات الكتيبة السبع باتجاه البناء القديم مع الأمر بقصفه بمدفع ٢ رطل الذي تحمله. ثم أمر مدافع الهاون عيار ٣ بوصات بقصف الوادي الذي اتخذته كتيبة العدو خط زحف لها، من أجل ان يقطع الاتصال بين مركز الكتيبة وبين السرية التي وصلت الى البيت القديم ومواقع سرية صالح العيد. (كان اليهود يطلقون رصاص الاشارة Tracer ذا اللون الأخضر لكي يعرفوا بعضهم البعض في ظلمة الليل). على ان المدرعة التي أرسلها اصطدمت باحدى الصخور الكبيرة وانقلبت في الطريق الوعر. وعرف قائد السرية المساندة بما حدث فأرسل مدرعتين أخريين لم تلبثا أن أحاطتا بالبناء القديم وأخذتا تقصفانه بقنابل متلاحقة.

في تلك الاثناء فوجيء الملازم نصر أحمد (قائد سرية القيادة) بالجندي علي مرار من جنود السرية الثالثة يمر بالقرب منه. سأله: مالي أراك هنا؟ قال الجندي: سقط موقع فئتنا بأيدي جنود العدو.. طهروه بالقنابل اليدوية. أحس الملازم نصر بانزعاج شديد. كان الموقع الذي استولى عليه جنود العدو أكثر ارتفاعاً من موقع سرية القيادة، ولولا الظلام لسلطوا نيرانهم على مواقعه وأوقعوا مذبحة بجنوده، اذ لم تكن المسافة بينه وبين العدو تزيد على خمسين متراً. بادر نصر الى الاتصال بمحمود الروسان ركن الكتيبة، وطلب اليه أن يمده بعدد من الجنود للقيام بهجوم معاكس، فلم يلبث الروسان أن أرسل اليه نحو ٢٠ جنديا. وعلى الفور جمع نصر بعض جنود سريته وشكل خطاً حربياً من هؤلاء واولئك وتقدم على رأسهم. لم يكن يزيد عدد الأفراد على ثلاثين، ولكن معنوياتهم كانت عالية ولم يكن أحد منهم يحسب حسابا للموت. تقدمت تلك الفئة الصغيرة من الجنود نحو العدو تحت ستارة كثيفة من نار بنادقها ورشاشاتها، حتى أصبحت المسافة بين الطرفين نحو عشرة أمتار. أطلق أحد جنود العدو ثلاث صليات من رشاش براوننج، وقذف أحد الجنود الأردنيين قنبلة يدوية فقتلت صاحب الرشاش وزميلا له. في خلال لحظات أركن بقية جنود العدو الى الفرار.

في نحو الساعة الثالثة والنصف من الصباح تم تنظيم الهجوم المعاكس الذي قامت به السرية الثالثة وعلى رأسها قائدها صالح العيد، وسرية القيادة وعلى رأسها نصر أحمد. كان للمدرعتين دور كبير في القضاء على جنود العدو الذين تمركزوا في البناء القديم. وقد أبدى سائق احداهما الجندي عبدالله محمد جرأة نادرة في تطهيره وابادة من كان فيه.

عندما أخذت خيوط الفجر الأولى تزيد قليلا من مدى الرؤية، كانت جثث جنود العدو الذين وصلوا الى رأس الجبل تتناثر هنا وهناك. «لم يرجع منهم مخبر» على حدّ قول أحد ضباط الكتيبة الرابعة. وتراجع من بقي على قيد الحياة من جنود سرايا العدو الأخرى بسرعة. كانت قنابل الهاون قد حصدت صفوفهم. وعندما أشرقت الشمس تكشفت أرض المعركة عن منظر دموي رهيب. وأحصيت جثث القتلى فكان ٢٣ منها في مواقع السرية الثالثة (بينها قائد السرية وهو برتبة ملازم أول). وكانت هناك ٨٧ جثة أخرى في الوادي بفعل مدفعية السرية المساندة والمدفعية الثقيلة. ويقول ديبوي ان الاسرائيليين اضطروا الى التراجع بعد ان لحقت بهم خسائر كبيرة، ولكنه لا يذكر تفاصيل تلك الخسائر.

اما الكتيبة الرابعة فلم تخسر سوى اثنين من أفرادها، بالاضافة الى جريح واحد.

ولا بد من التنويه بفعالية بطارية المدفعية في هذه المعركة، اذ انها أخذت تقصف بقنابلها مواقع احتشاد العدو في الوادي، فكان لذلك أثر كبير في اعاقته عن انجاد سريته الأمامية.

كان جنود العدو يعتقدون انهم لن يتراجعوا عن المواقع التي وصلوا اليها، اذ كانوا يحملون معهم علب مربى وسردين وأرغفة خبز ومطرات ماء وبطانيات وفؤوس. ولكنهم تركوا كل ذلك الى جانب بنادقهم ورشاشاتهم، غنيمة لجنود الكتيبة الرابعة الذين ثبتوا وقاتلوا قتال الأبطال حتى فازوا بالنصر.

كانت معركة يالو هذه احدى المعارك المهمة التي دارت في الأيام الاخيرة من فترة القتال الثانية. والحقيقة ان الجانبين (الأردني والاسرائيلي) بذلا في الأيام الأربعة الأخيرة كل ما كانا يملكان من جهد وقدرة في الحرب: الأردنيون لكي يحتفظوا بما بقي في أيديهم، واليهود للاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأرض، وعلى الأخص موقع اللطرون الحصين. ولم يكن السبب في ذلك غامضا، فقد كان مجلس الأمن أصدر يوم ١٥ تموز قراراً أمر فيه الطرفين بايقاف القتال، على ان يتم ذلك يوم ١٧ تموز في مدينة القدس، وبعد ذلك بـ٣٦ ساعة بالنسبة لفلسطين كلها. ولم تكن الهدنة التي قررها المجلس هذه المرة محدودة، بل كان من المقرر أن تستمر الى أن يتم التوصل الى تسوية سلمية شاملة في فلسطين كلها. ومن هنا نرى السبب الكامن وراء هجمات العدو الشرسة وما كان يقابلها به الجيش العربي من ثبات واستماتة.

انتهت معركة يالو في الصباح الباكر من يوم ١٦ تموز. ولكن ذلك اليوم بالذات شهد معركتين مريرتين التحم فيهما الفريقان بكل ما كان لديهما من حديد ونار، بل بكل ما كان في نفوس أفرادهما من عزيمة وارادة.

انهما معركة قوله في الطرف الشمالي من الجبهة، ومعركة البرج في وسط الجبهة.

معركة قوله

تمركزت سرايا الكتيبة الأولى بأجمعها في القطاع الشمالي من الثغرة التي حدثت بسقوط اللد والرملة، وذلك في خلال أيام ١٣ - ١٦ تموز. كان الأمر قد صدر لها بأن تتصل بالجيش العراقي في مجدل يابا. وبدلا من أن تؤمن ذلك الاتصال بواسطة الدوريات - كما يقول الفريق جلوب - فان سراياها تمركزت بين رنتيس وبدرس وبيت نبالا. هناك تعرضت بعض السرايا الى قصف مدفعي شديد من جهات اللد ومن قرية حديثة، ولحقت بها من جراء القصف خسائر في الأرواح.

في الوقت نفسه تعرض جناح العراقيين الأيسر لضغط العدو. فقد قامت وحدات اسرائيلية بالهجوم يوم ١٠ تموز على رأس العين ومجدل يابا، وظلت تكرر هجماتها في اليومين التاليين الى أن أضطر العراقيون الى الانسحاب من الموقعين (١٢ تموز). وفي تلك الأثناء تم الاتفاق بين قائد الكتيبة الأولى وبين القائد العراقي في كفر قاسم على القيام بهجوم معاكس ضد العدو يوم ١٦ تموز. وبالفعل قامت في ذلك اليوم قوة عراقية بالهجوم على مجدل يابا ورأس العين، ولكنها جوبهت بمقاومة شديدة فلم تستطع الاستيلاء على أي منهما.

اما بالنسبة للكتيبة الاولى، فقد رتب قائدها أن تحل سرية الملازم سليمان رتيمة في التلال المواجهة لدير طريف، وان تتحرك الوحدات التالية الى قرية بدرس، بقيادة و. ق. كارتر، ومعه الرئيس خالد الصحن:

- سرية المدرعات بقيادة الملازم حمد ابو دخينه
- سرية المشاة الثالثة بقيادة الملازم عبدالله فلاح
- فئتان من السرية الثانية مشاة
- بطارية مدافع الهاون الثقيلة
- ٤ مدافع ٦ رطل ورشاشاتا فكرز
- مجموعة مناضلين فلسطينيين بقيادة المهندس كاظم بدوي

كانت قوات العدو قد استولت على قرية قوله (شرقي بدرس) وأخذت مواقع لها على هضبة مرتفعة تشرف على القرية، وتسيطر على الطريق الرئيسية الممتدة من اللد الى طولكرم. ومع غروب شمس يوم ١٥ تموز أخذت وحدات الكتيبة الأولى مواقعها الى

الغرب من قرية بـدرس. وفـي أثنـاء الليـل تـم الكشـف علـى مواقـع العدو ووضعت خطـة الهجوم.

في الصباح الباكر من ١٦ تموز قامت مدافع الهاون بقصف مواقـع العدو، ثـم تقدمـت سرية المشاة تحت غطاء نار المدرعات. كان الهجوم سريعا وكاسحا. وكـان عبدالله فـلاح يسير على رأس جنوده، وكأنه ذاهب الى عرس. لم تمض سوى ساعة او اكثر قليلا حتـى كانت الربوة في أيدي وحدات الكتيبة الأولى. كان الهجوم مفاجأة تامة للعدو، وقد زاد مـن اضطراب أفراده ان شمس الصباح كانت في وجوههم. ولكن في اثنـاء تطهير الموقـع قتـل قائد السرية برصاصة في جبهته وقتل أربعة من جنوده. اما العدو الذي تراجع الى ما وراء قرية قوله، فقد ترك على أرض المعركة نحو عشرين جثة من قتلى جنوده وضباطه.

في مساء ذلك اليوم كرّ العدو يهاجم مواقع الكتيبة الأولـى، وتمكـن مـن الوصـول الـى الخنادق الدفاعية. هنا حدث عراك عنيف بين الطرفين. وحـدث ان أحـد جنـود العدو ألقـى على خندق للجنود الأردنيين قنبلة يدويـة فتلقفهـا الجنـدي رمـاح خبـاص (مـن أهـل الجبـل) وأعادها نحو الأعداء المهاجمين فانفجرت في اثناء ذلك وأدى انفجارها الى قتله وقتل ثلاثـة من جنود العدو.

في اليوم التالي (١٧ تموز) أخلت الكتيبة الأولى مواقعها بين رنتيس وبدرس، فتسلمتها القوات العراقية. وتحركت الكتيبة جنوبا حيث تمركزت في خط دفاعي يمتد من دير قديـس الى مثلث بيت سيرا. أصبح واضحا لقيادة اللجيـش ان العـدو يستهدف طريـق اللطـرون – رام الله (التي يؤلف مثلث بيت سيرا نقطة التقاء مهمـة فيهـا)، لذلـك عملت علـى استدعاء الكتيبة الأولى من مواقعها البعيدة لكي تقف مع وحدات الكتيبة الثانية سدا منيعا امام العدو.

معركة البرج

تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي خاض الجيش العربي غمارها، لانهـا انتهـت بتثبيت قوات العدو في المواقع التي كانت وصلت اليها، وحـالت بذلـك دون تقدمـه لاحتـلال مثلث بيت سيرا الذي تمر منه طريق رام الله – اللطرون: وهو شريان المواصلات الحيوي بالنسبة للكتيبتين الثانية والرابعة.

أخذ العدو، بعد استيلائه على اللد والرملـة، يتقدم باتجـاه الشـرق بقـوة لوائيـن أحدهمـا لواء مدرع والثاني لواء مشاة. لم تكن هناك في الأصل قوات أردنية تقف في مواجهة خـط

تقدم العدو. في بادىء الأمر أخذت القيادة تحاول ايقاف تقدم العدو بواسطة الدوريات المقاتلة ودوريات السيارات المدرعة. لكن العدو مضى يتقدم بكثافة دون ان تؤثر الدوريات عليه. عندما استولى العدو على قرى سلبيت والبرج وبير ماعين يوم ١٥ تموز، أصبح الموقف في أقصى درجات الخطورة، فهذه المواقع تشرف على الخطوط الأردنية في عمواس واللطرون وعلى طريق رام الله – اللطرون. أدرك الجميع ان العدو لا يحتاج الا الى قفزة أخرى لكي يصل الى تلك الطريق المهمة ويقطع بذلك خط الرجعة على الكتيبتين الثانية والرابعة. ان رؤية الجنود لجموع اللاجئين وهم يمرون من بين خطوطهم في حالة بؤس تفتت الأكباد، ثم رؤية وحدات العدو تتقدم وراءهم وتستولي على القرى والتلال والمواقع المهمة – كل ذلك أثار في نفوسهم سخطا بالغا وأخذوا يقولون لبعضهم البعض: اذا لم نقف في وجه العدو اليوم فمتى يكون ذلك؟ وهل المقصود ان نبقى ساكنين في مواقعنا حتى يطوقنا العدو ويضطرنا الى القاء سلاحنا، دون ان تتاح لنا فرصة استعمال هذا السلاح؟ أليس التصدي للعدو والموت في ساحة المعركة أكرم لنا وأجدر بنا كجنود أخذوا على أنفسهم الذود عن الحمى والدفاع عن شرف الوطن.

كان لوكت قد أبلغ اشتون بهياج الجنود في الكتيبة الثانية، فجمع هذا في صباح يوم ١٦ تموز عددا من الضباط وصف الضباط وأخذ يشرح لهم الوضع العسكري وأسباب سقوط اللد والرملة ورجوع مركز القيادة الى الوراء. في اثناء ذلك حدث هرج وضجة، فتوقف عن الحديث وسأل عن السبب، فقيل له ان أكثر الجنود والضباط غير مقتنعين بعدم امكان ايقاف زحف العدو. مضى اشتون الى مكتبه واتصل بقائد الفرقة (لاش) ثم عاد يسأل: ماذا تريدون؟ قال حمدان الصبيح: هجوم. قال اشتون: ليكن ذلك. أعدوا أنفسكم للهجوم؟

صدر الأمر لقائد الكتيبة الثانية لوكت بأن يتولى قيادة الهجوم وبأن يقوم بتحريك سريتين من مراكزهما في اللطرون الى منطقة الزيتون في الشمال الشرقي من قرية بيت نوبا، بالاضافة الى بعض الأسلحة المساندة. كان سحب هذه القوة من موقع اللطرون مسألة خطيرة، فعمل ركن الكتيبة الرئيس عكّاش الزبن على جمع نحو ١٥٠ مناضلا من بدرس وبيت عور الفوقا وبيت لقيا (كلهم من بدو الأردن)، وحشد كل ما كان لدى الكتيبة من كتبة وسائقي سيارات وطباخين، ثم استعان بحابس المجالي قائد الكتيبة الرابعة، فأرسل له قوة

من نحو مائة جندي بقيادة الملازم الأول نصر أحمد (على الرغم من انه وجنوده قضوا الليلة السابقة بطولها وهم يقاتلون العدو). وكان أفراد هذه القوة من مختلف سرايا الكتيبة. هذه المجموعة من الجنود والضباط حلّت في مواقع سريتي المشاة اللتين تركتا مواقعهما في نحو العاشرة صباحا وتحركتا الى أراضي بيت نوبا.

نستطيع من هذا ان نلاحظ مدى المجازفة التي أقدمت عليها القيادة عندما سحبت أكثر من نصف قوة الكتيبة الثانية من مواقعها، للزج بها في معركة جانبية وفي موقع بعيد نسبيا. ولكن الهدف كان مهما: كانت القيادة ترمي من وراء ذلك الى حماية مؤخرة الجبهة، والحيلولة دون التفاف العدو حولها.

في الساعة الواحدة بعد الظهر احتشدت في نقطة التجمع القوة التالية:

- السرية الثانية: بقيادة الملازم الاول محمد كسّاب.
- السرية الثالثة: بقيادة اللازم الأول رفيفان خالد الخريشا
- سرية المدرعات الثانية: بقيادة الملازم الأول حمدان صبيح البلوي.
- اربعة مدافع عيار ٦ رطل: بقيادة الملازم حيدر مصطفى.
- أسلحة مساندة أخرى: ٤ مدافع هاون ٣ بوصة و ٤ رشاشات فكرز.

وكان هناك الملازم الأول مصطفى الخصاونة قائد بطارية مدفعية الميدان الثانية (٢٥ رطلا).

في تلك الأثناء كان لوكت قد قام بكشف على المنطقة يرافقه حمدان صبيح. تبين لهما ان قرية البرج تقع على ربوة مرتفعة تشرف على الطريق الرئيسية. وكانت هناك طريق ترابية فتحها الجيش العربي قبل ذلك بشهر لمرور سيارة التموين الى حضيرة الجنود التي كانت تتمركز فيها، وكانت الأرض على جانبي الطريق خضراء تموج فيها نباتات الذرة. عندما أتم لوكت دراسة الموقع، عاد الى نقطة الحشد وهناك عقد اجتماعاً مع الضباط لوضع الترتيبات النهائية للهجوم واعطاء التعليمات. كانت أوامره تقضي بأن يبدأ الهجوم على قرية البرج في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر بعد تمهيد بالمدفعية الثقيلة، بحيث تتقدم سرية المدرعات اولا (باستثناء فئة تقوم بأعمال الاستطلاع)، ثم تتقدم سريتا المشاة خلف المدرعات: الثانية من اليمين والثالثة من اليسار. كان على المدرعات ان تسير على الطريق الترابية وان يواكبها المشاة. وقضت تعليمات القائد بأن يكون هناك صمت لاسلكي

لا يكسره الا قائد الكتيبة (خشية من خدع العدو). تجاهلت أوامر القائد قرية بير ماعين (الى الجنوب من قرية البرج على مسافة ٨٠٠ متر تقريباً)، فاعتقد الضباط انها خالية من العدو (بينما لم تكن كذلك). ركن الكتيبة الرئيس عكاش الزبن ناقش لوكت بشأن توقيت الهجوم مقترحاً تأجيله، لكي يتفادى المهاجمون أشعة الشمس التي أخذت تنحدر نحو الأفق الغربي. رد لوكت قائلاً: لا بد لنا من الهجوم الان قبل ان يقوم اليهود أنفسهم بالتقدم وقطع الطريق، ثم لكسب عنصر المفاجأة. كان الهدف الرئيسي، كما حدده لوكت: طرد العدو من قرية البرج والتثبت هناك. اما خط البدء فقد كان الطريق المعبدة أمام بيت سيرا، على بعد ١٢٠٠ ياردة من قرية البرج.

في الساعة الرابعة انتقل المشاة بالسيارات الى خط البدء. ولم تلبث مدافع ٢٥ رطلا المتمركزة في بيت لقيا حتى أخذت تقصف قرية البرج. ولكن الجنود فوجئوا بقنابل الهاون تقصف موقع احتشادهم من بير ماعين. عندئذ أدركوا أن العدو لم يكن يتمركز في البرج وحدها بل في قرية بير ماعين الى الجنوب منها، ايضا. لم يكن هناك ما يستطاع عمله سوى المضي في تنفيذ الخطة. وأعطى القائد الاشارة قبل الوقت المعين بدقائق، فمضت المدرعات الاثنتي عشرة تتقدم الى الأمام، وأخذ المشاة يسيرون وراءها، وتحت حماية نيران مدافعها ورشاشاتها. زاد الوضع سوءا ان المدفعية كانت توجه قنابلها الى البرج فقط، بينما لم تسقط أية قنبلة على بير ماعين. في أثناء التقدم أخذت اصابات تقع بين جنود السرية الثالثة التي كانت تزحف من الناحية اليسرى المواجهة للعدو في بير ماعين. قرر حمدان – الذي كانت مدرعته تتقدم في الطليعة – ان يزيد من سرعة الزحف حتى يصل الى الهدف في وقت قصير، فيحول دون سقوط المزيد من الجنود. أمر السائق بأن يزيد من سرعة المدرعة. واحتذت حذوه المدرعات الأخرى. جنود المشاة أنفسهم أخذوا يغذون السير وراءها للحاق بها. كل جندي كان يحمل بندقية (أو رشاشة) وعتادها. كان التقدم على خطة « نار وحركة»، ولم يكن أحد يلتفت الى الجنود الذين يسقطون برصاص العدو، اذ كان لا بد من الوصول الى العدو في مراكزه واسكات ناره كلها. تلك ساعة من أسوأ ما مر بأولئك الجنود الذين سبق ان خاضوا عدة معارك وتمرسوا بأخطار الحروب. أفرز قائد السرية الثالثة فئة من جنوده في منتصف المسافة وأمرها بالتثبت ومشاغلة العدو في بير ماعين. اما قائد السرية الثانية فقد أمر جنود مدفع الستة أرطال (والذي تجره مدرعة

مقصوصة) بأن يتوقف ويقصف مئذنة جامع بير ماعين التي كان العدو يتخذ منها وكرا لاطلاق النار. توقف المدفع وأخذ يقوم بعمله الى أن أخلى جنود العدو المئذنة. قائد الكتيبة نفسه كان يرافق الهجوم في احدى المدرعات. أخذ حمدان يحض السائق (سعيد طرجم من عرب الظفير في العراق)، ولكنه لاحظ فجأة يدي السائق تضطربان على المقود، واذا به يصرخ: عيني راحت، لا أستطيع أن أرى (كانت أصابت عينه قطعة شظية دخلت من الثقب الأمامي الذي يرى منه السائق). توقفت المدرعة. التفت حمدان نحو السائق فشاهد لحما ودماء تغطي موضع عينه، وتملأ نصف وجهه. قال حمدان: اليوم يومك يا سعيد. تشجع. ضع قدمك بقوة على دعاسة البنزين وسق الى الأمام. ليس مهماً أن ترى بعينيك. شعر السائق بالحرج. كيف يخذل قائده ورفاقه في تلك اللحظة الحرجة؟. قال: أمرك سيدي، سأفعل كما تريد ولو ذهبت عيني الاثنتان. كان ذلك دليلا على مقدرة حمدان القيادية وعلى الروح المعنوية التي كانت تعمر قلب ذلك الجندي. في لحظات استأنفت المدرعة سيرها الى الأمام حتى وصلت الى أطراف القرية. بلغت المعركة عندئذ ذروتها من الشدة، وأخذ دوي القنابل وأزيز الرصاص يصم الآذان. واستدار النائب طراد نويصر (مساعد حمدان) مع مدرعتين الى اليسار وأخذ يقصف مواقع العدو من الخلف. أخذ جنود العدو ينسحبون من خنادقهم. ولكن أحدهم قذف قنبلة بيات على مدرعة حمدان فأصابتها. ارتفعت المدرعة بفعل القنبلة ثم هوت على جانبها والنار تشتعل فيها. فجأة ألفى حمدان نفسه ملقى على جانبه والسائق الجريح ملقى فوقه. سأل السائق: هل أنت على قيد الحياة؟ قال السائق: نعم. قال حمدان: أسرعوا بمغادرة السيارة. نزل السائق. صاح الجندي مطلق عايد بأنه لا يستطيع تحريك رجله. ولكنه تشبث بالحياة وغادر السيارة وهو يجر ساقه المكسورة. أحس حمدان بخدر يدب في الجزء الأسفل من جسمه، ولكنه شعر بالخوف عندما شاهد اللهب يتصاعد من حواليه. تحامل وألقى نفسه على الأرض، ثم زحف على أحد جانبيه حتى وصل الى سلسلة من الحجارة قريبا منه فاحتمى بها من نار العدو. لم يلبث أن حمله اثنان من جنوده الى مدرعة أخرى، وأعيد الى الخلف، بينما كانت مدرعته تحترق(١٨).

استمر جنود المشاة في القتال وتطهير الخنادق من أفراد العدو، حتى استولوا على ثلثي القرية. أبدى الطرفان استماتة في مواجهة بعضهما البعض. صادف بعض الجنود سياجاً من نبات الصبار فلم يكن من العريف منصور شايع (من نجد) الا ان ألقى بنفسه

على السياج وجعل من جسمه جسرا لرفاقه عبروا عليه الى الأمام.

قبيل غروب الشمس قام جنود العدو بهجوم معاكس من الناحية الغربية. كان الارهاق قد حل بافراد الكتيبة الثانية المهاجمين وتناقص عددهم لكثرة الاصابات بينهم. أضف الى ذلك ما كان لاصابة حمدان من تأثير في النفوس. قوة العدو المتمركزة في القرية كانت كبيرة نسبيا، فأخذ الجنودينسحبون. مدرعة الاستطلاع الخاصة بقائد السرية الثانية نشبت فوق حجر وتعذر سحبها، فأمر جنودها بأشعال النار فيها.

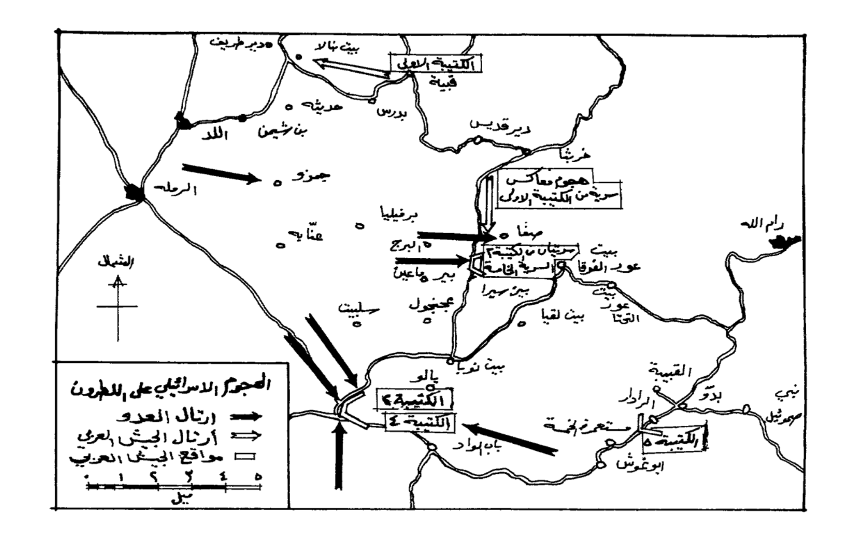
في أثناء الاشتباك أصيب الملازم رفيفان بشظية أحدثت جرحا في رأسه، ولولا جنوده (وبالاخص عقله علّيق) لوقع في الأسر. وعلى الرغم من اصابته، لاحض رفيفان ان قائد الكتيبة (لوكت) كان ما يزال في الجهة الجنوبية من القرية، فقرر ان يحيطه علماً بالهجوم المعاكس وتراجع الجنود. مضى باتجاهه مجازفا بنفسه حتى وصل اليه فوجده في مدرعته ومعه الملازم حيدر مصطفى والعريف نزال هليّل (الرولة) في مدرعة أخرى وهم يتبادلون النار مع العدو دون أن يكون معهم مشاة. فلم يلبثوا ان بادروا الى الانسحاب. ولسبب ما تعطلت المدرعة الثانية وتعذر تحريكها فأمر لوكت بتدميرها بقنابل مدفع مدرعته.

عندما وصل جنود المشاة الى حقول الذرة انهالت عليهم قذائف المدفعية والهاون ورصاص الرشاشات من قرية بير ماعين، فأصيب كثيرون. في أثناء الانسحاب أُصيب الجندي خلف ابو قرقاع (خلف حماد عنتر الخضير) من عبيد بني صخر، فصاح يستنجد برفاقه. ارتدّ نحوه أحد الجنود من بني صخر وحمله على كتفيه، ولكن أصابته رصاصة فقتل. عاد آخرون لانقاذه فقتل اثنان آخران منهم بسببه، ثم لفظ أنفاسه لكثرة ما نزف من دمه.(١٩)

كان التراجع مع مغيب الشمس. وساد الشعور بين بعض الجنود ان قائد اللواء (اشتون) وضع خطة الهجوم قاصدا ان ينتقم منهم.

خسرت القوة المهاجمة ثلاث مدرعات (احداها مدرعة استطلاع خفيفة) ومدفع ٦ رطل وسيارة نصف مجنزرة محملة بالذخيرة، وخسرت ٥٧ شخصاً بين قتيل وجريح ومفقود. كانت نسبة الخسائر عالية جداً.

أما قوة العدو المقابلة فقد كانت تتألف من ثلاث كتائب: احداها في البرج والأخرى في بير ماعين، والثالثة كتيبة احتياط، وهي التي قامت بالهجوم المعاكس. وقُدرّت خسائر العدو



الهجوم الاسرائيلي على اللطرون
ارتال العدو
أرتال الجيش العربي
مواقع الجيش العربي
ميل
الشمال
الرملة
اللد
بن شيمن
حديثه
بورس
دير طريف
بيت نبالا
الكتيبة الاولى
قبية
دير قديس
خربثا
هجوم معاكس
سرية من الكتيبة الاولى
جمزو
برفيليا
عنّابه
صفا
البرج
بير ماعين
بيت عور الفوقا
سلبيت
عجنجول
بيت سيرا
بيت لقيا
بيت عور التحتا
بيت نوبا
يالو
الكتيبة ٢
الكتيبة ٤
باب الواد
القبيبة
الرادار
بدو
النبي صموئيل
الكتيبة ٥
ابو غوش
رام الله

بنحو ٢٠٠ قتيل عدا الجرحى.

في الصباح الباكر من اليوم التالي اتجه عدد من الضباط والجنود الى حقول الذرة يبحثون عن رفاقهم. ولم يلبثوا ان عادوا وهم يحملون جريحين وستة قتلى ورشاشتين وعشرة بنادق.

ظهرت في هذا الهجوم ارادة القتال التي كان الجيش العربي يتمتع بها، فقد أبدى الجنود والضباط مستوى عاليا من الشجاعة والاستهانة بالخطر. وفي التقرير الذي قدمه و. ق. لوكت (وهو ضابط بريطاني خاض معارك عديدة في الحرب العالمية الثانية ويحمل وسام الخدمة الممتازة D. S. O ووسام الصليب الحربي)، قال ما يلي: **نادراً ما شهدت زحفاً أكثر برودة وثباتاً وعزيمة ابتداء من خط البدء وحتى بلوغ الهدف (١٢٠٠ ياردة) من قبل قوات أي شعب آخر، وفي مواجهة نار كثيفة ودقيقة، وعلى مثال هجمات الجيوش الأوروبية - أكثر من الزحف على قرية البرج، الذي قامت به السريتان الثانية والثالثة من الكتيبة الثانية.**

قدّر الضباط الأردنيون الذين اشتركوا في هذه المعركة ان الهجوم تم في وجه العقبات التالية:

١ - بعد الهدف عن خط البدء والتقدم عبر أرض مكشوفة للعدو،

٢ - الشمس الساطعة التي كانت تحول دون الرؤية الواضحة،

٣ - القوة المدافعة ثلاثة أضعاف القوة المهاجمة، على الأقل،

٤ - لم تقصف المدفعية مواقع العدو قصفا مؤثراً (بسبب قلة القنابل)،

٥ - قرية البرج أكثر ارتفاعاً من خط البدء،

٦ - عدم اكتشاف قوة العدو في بير ماعين مما نتج عنه عدم ضربها بقنابل المدفعية وعدم تخصيص قوة لمشاغلتها وتحييدها. وفي اثناء القتال لعبت قوة العدو المتمركزة في تلك القرية دوراً فعالاً ضد القوة المهاجمة.

ولكن على الرغم من هذه العقبات، تمكنت القوة المهاجمة من الوصول الى هدفها، ونجحت في تحقيق الغاية المنشودة الا وهي تثبيت العدو، ومنعه من الاستيلاء على طريق اللطرون - رام الله.

وهكذا أمضت سرايا الكتيبة الثانية ليلتها التي أعقبت المعركة الى الشرق من بيت سيرا، وفي اليوم التالي (١٧ تموز) عادت الى مواقعها الأساسية في اللطرون.

وتقديراً لما أبداه الجنود والضباط من روح قتالية عالية في هذه المعركة، فقد منح عدد منهم وسام الاقدام العسكري (نذكر منهم الضباط: حمدان صبيح، رفيفان خالد، محمد كساب، وحيدر مصطفى. ومن الجنود فياض جديع).

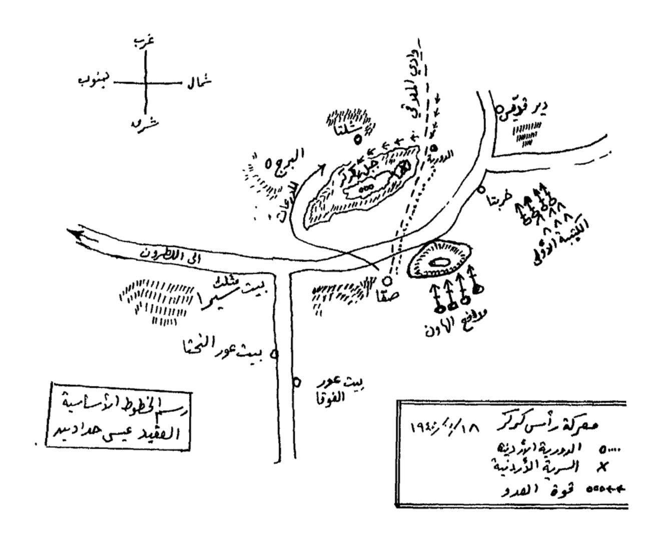
على ان ذلك اليوم (١٦ تموز) شهد حادثة مؤسفة، اذ ان طائرتين مصريتين (وقيل: عراقيتين) أغارتا على ميدان القتال، وبدل ان تهاجما مواقع العدو سلطتا نار رشاشاتهما على قرية بيت نوبا مما أدى الى تعطيل سيارة تحمل الماء، ثم ألقت إحداهما قنبلة على مواقع الكتيبة الثانية فأعطبت مدرعة وعطلت أخرى. واستشهد من جراء الغارة خمسة جنود (من بينهم النائب يوسف صعب) واثنان من المدنيين.(٢٠)

معركة رأس كركر (صفا)

رأس كركر: اسم يُطلق على ربوة مرتفعة الى الشمال من قرية البرج والى الشمال الغربي من مثلث بيت سيرا. وهي تشرف على المنطقة المحيطة بها وخاصة على واد عظيم يعرف باسم (وادي الملاقي) ويمتد من اللد باتجاه الشرق نحو بيت سيرا. وعلى رأس هذه الربوة خان قديم.

كان يوم ١٧ تموز قد انقضى بهدوء نسبي بعد المعركة العنيفة التي دارت في البرج في اليوم السابق. فقد عمد الطرفان الى اعادة تنظيم صفوفهما وتعزيز مواقعهما. وفي هذا اليوم عادت السريتان الثانية والثالثة (من سرايا الكتيبة الثانية) الى مواقعهما الأصلية في اللطرون، فبقيت السرية المستقلة الخامسة في مثلث بيت سيرا. ولكن الكتيبة الأولى كانت تحركت في هذا اليوم باتجاه المثلث، بعد أن صدر لها الأمر بالانسحاب من جهات قوله وبدرس، وأسند اليها واجب الدفاع عن المنطقة الواقعة بين اللطرون جنوبا ومواقع الجيش العراقي شمالاً.

تم في مساء هذا اليوم توزيع سرايا الكتيبة الأولى في مواقعها الجديدة. وكان واجب السرية الثانية (قائدها الملازم محمد محسن الحربي، الذي كان عاد من المستشفى أخيرا بعد شفائه من الجراح التي أصيب بها في الرادار)، أن تتمركز في قرية صفا والمرتفعات المحيطة بها، ومراقبة تحركات العدو ومنعه من التقدم.



قام قائد الكتيبة بتوزيع سرايا كتيبته في مواقع مختلفة تستطيع منها ان تسد المنافذ على أي تقدم قد يقوم به العدو. وكان من جملة اجراءاته انه أرسل السرية الثانية بقيادة الوكيل الأدهم فجري، مساعد قائد السرية، لكي تتمركز على رأس كركر. وفي الوقت نفسه أمر أربعة مدافع هاون ثقيلة بأن تتمركز شمالي قرية صفا، كما أرسل الملازم الثاني محمد علي أمين على رأس دورية ثابتة من جنود المدفعية، لكي ترابط في وادي الملاقي الى الشمال من رأس كركر. وقد رافق سرية المشاة المرشح بطرس حمارنة، ضابطاً للملاحظة، بينما بقي المرشح عيسى حدادين مع المدافع الأربعة كضابط موقع.

أدرك العدو الذي واجه هجوم الكتيبة الثانية في البرج وبير ماعين، ان السيطرة على مثلث بيت سيرا من ناحية الغرب تكاد تكون مستحيلة بالنظر لوجود قوات متيقظة تدافع

عنه. ومن هنا وضع خطة جديدة لبلوغ المثلث عن طريق وادي الملاقي، بحيث تتجه قوة من جنوده مع بطن الوادي، وتمر بالقرب من قرية صفا، التي بدا له انها خالية من القوات الأردنية. ولتحقيق هذه الغاية أخذت قوة (كان التقدير انها تعادل كتيبة) تتقدم من جهة اللد باتجاه الشرق، في نحو الساعة الواحدة من صباح يوم ١٨ تموز، وهدفها السيطرة على التلال المشرفة على مثلث بيت سيرا. عندما وصلت طلائع القوة المعادية الى شمالي ربوة كركر فوجئت بنار حامية من الدورية الأردنية الثابتة، فتوقفت قليلاً ثم انحرفت الى اليمين. وبدأت القوة كلها تصعد مع سفح الربوة حتى بلغت ظهرها، فاخذت تتمركز على طرفها من ناحية الجنوب، غير بعيد عن مواقع السرية الأردنية. وقد تمت تلك الحركة في نحو الساعة الرابعة صباحاً.

لم تلبث دوريات السرية الثانية حتى شعرت بجنود العدو يتمركزون الى الجنوب منهم ويعملون على حفر الخنادق. اتصل قائد السرية بقائد الكتيبة وأخبره بوجود العدو غير بعيد عن مواقعه، فأمره هذا بالاستعداد للهجوم، ريثما يتم قصف مواقع العدو بنار المدفعية. ولم تلبث مدافع الهاون الثقيلة، ومعها فئة مدافع عيار ٣ بوصه، حتى أخذت تقصف مواقع العدو. وكان القصف مؤثراً ومباشراً.

في الوقت نفسه حرك القائد ثماني مدرعات من قرية صفا وعلى رأسها الملازم الثاني فناطل ثنيّان، لكي تقوم بحركة التفاف من الناحية الجنوبية للربوة. وعند الساعة السادسة صباحا، وكانت الشمس قد أشرقت على الموقع، بدأت السرية الثانية هجومها على مواقع العدو، بينما أخذت المدرعات تطلق نار مدافعها على تلك المواقع من اليسار. وهكذا أصبحت قوة العدو بين نارين. ولم تلبث بقية مدرعات السرية حتى وصلت الى الموقع بقيادة قائد السرية وأخذت تشدد الهجوم. لم تستطع كتيبة العدو ان تصمد أكثر من نصف ساعة في مواجهة هذه القوة النارية الكثيفة التي انصبت عليها، فاضطرت ان تتراجع دون انتظام الى قرية شلتا على بعد ثلاثة كيلو مترات الى الغرب. والواقع ان تراجع العدو لم يلبث أن تحول الى هزيمة لشدة ضغط جنود السرية الثانية واندفاع المدرعات وراء فلوله.

وارتفعت الشمس على رأس كركر لتكشف جثث قتلى العدو بين حجارة الخربة وفي الخنادق وحول الخان القديم. كانت تلك المعركة نصراً واضحاً للكتيبة الأولى انتقمت من خلاله لشهداء معركة البرج، اذ ترك العدو على أرض المعركة ٧٢ قتيلا بينهم تسع فتيات

وضابط برتبة رئيس. وترك فوق ذلك كمية من السلاح والعتاد، وجهاز لاسلكي.

اما السرية فقد خسرت اثنين مـن رجالها (أحدهما من بني عطية والثاني من أهل الجبل) واستشهد مناضل من قرية خربثا، وأصيب خمسة جنود بجراح. ولا بد هنا من التنويه بالبسالة التي أبداها ضابطا الصف عواد حسن وعواد راشد.

مما تقدم نرى أن الكتيبة الاولى خاضت معارك الحرب مثلها مثل كتائب الجيش الأخرى، وقدمت كثيرين من ضباطها وجنودها شهداء على أرض فلسطين. وانه لمن الظلم ومجانبة الصواب قول بعض المصادر ذات الهوى ان هذه الكتيبة « لم تطلق رصاصة واحدة ولم تخسر جنديا واحداً».

لم تقتصر حركات العدو الهجومية في ذلك اليوم على رأس كركر، بل ان قوة من جنوده المتمركزين في بير ماعين تقدمت في صباح يوم ١٨ تموز نحو بيت سيرا تحاول الاستيلاء على الطريق، ولكن السرية الخامسة ثبتت في مواقعها، وأصلت القوة المهاجمة نارا حامية فاضطرتها ان تتراجع الى المواقع التي جاءت منها بعد أن ألحقت بها جملة خسائر.

وعندما جاءت الهدنة في مساء ذلك اليوم، كانت الخطوط التي وقف عندها الفريقان هي الخطوط التي رسمتها معارك الكتيبتين الأولى والثانية. فقد ظل العدو يسيطر على قوله وبيت نبالا ودير طريف وشلتا والبرج وماعين، بينما ظلت قوات الجيش العربي تحتفظ بقرى بدرس وصفا ورأس كركر ومثلث بيت سيرا.



محمد اسحق



بادي عواد

معركة اللطرون الكبرى

عندما أشرقت الشمس في صباح يوم الأحد ١٨ تموز، كان الهدوء سائدا في مواقع الكتيبة الثانية في عمواس واللطرون. في اليوم السابق أصدرت قيادة الفرقة أمراً تم تعميمه على جميع أفراد الجيش بأن الهدنة الجديدة سوف تبدأ في الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم (١٨ تموز). تفاءل كثيرون بقرب انتهاء القتال، وساد الظن بأن العدو لن يعمد الى شن المزيد من الهجمات بعد ان انقضى الليل (كانت عادة اليهود ان يشنوا هجماتهم في اثناء الليل)، ولم يبق على موعد بدء الهدنة سوى ساعات معدودة. بل بلغ التفاؤل وحسن الظن عند بعض الجنود أنهم أخذوا يطلبون منحهم اجازات لزيارة أهلهم.

ولكن على الرغم من الشعور بالتفاؤل، فان أيدي الجنود ظلت على البنادق والرشاشات. كانت تعليمات قيادة الكتيبة واضحة بهذا الشأن، وحالة الحرب ستظل قائمة حتى الدقيقة الأخيرة من موعد بداية الهدنة.

بين الساعة الثانية عشرة والواحدة ظهرا، تناول الجنود طعام الغداء. مضى جفري لوكت الى قيادة اللواء، وبقي في الكتيبة الرئيس برومج (مساعد قائد الكتيبة) والرئيس عكاش الزبن (ركن حرب الكتيبة). سرايا الكتيبة كانت في مواقعها المختلفة، التي تشرف على قريتي القباب وسلبيت، وعلى طريق وادي الصرار وباب الواد. اما سرية القيادة (ومعها أسلحة الاسناد) بقيادة الملازم نايف الحديد، فقد كانت في قرية بيت نوبا وراء مواقع الكتيبة بنحو اربعة كيلو مترات.

في داخل مركز الشرطة كان عدد ضباط الصف والجنود قليلا، لايزيد على ٢٥رجلا. لقد أضطر ركن الكتيبة – بسبب النقص في عدد الجنود – ولكون ملاك السرية هبط من ثلاث فئات الى فئتين، بسبب كثرة الخسائر – ان يحشد الكتبة والطباخين وجنود الخدمات الأخرى في مركز الشرطة. ووضع على رأسهم النقيب عبد الله الشويعر، وكيل القوة في الكتيبة. اما السلاح في الكتيبة فقد اقتصر على:

- مدفعين عيار ٦رطل، أحدهما على السطح والثاني في الساحة المطلة على طريق القباب (كانت الطريق ضمن مدى رماية المدفع) وكلاهما بقيادة النائب سالم كسّار (من عرب السبعة).
- مدفعي هاون عيار ٣بوصة بقيادة النائب ابراهيم عواد.

- رشاشتي فكرز بقيادة النائب جزاع ابراهيم (حويطات). (٢١)

اما الجنود الآخرون فكانوا مسلحين برشاشات برن وبنادق يدويه.

كانت مواقع الكتيبة الثانية يومذاك تكاد تكون مطوقة من ثلاث جهات: من الشمال والغرب والجنوب، والعدو على مسافة قريبة من ناحيتي الشمال والجنوب تقل عن ثلاثة كيلومترات. هذا بالاضافة الى أن طريق مواصلات الكتيبة كانت تحت مدى رماية أسلحة العدو. ولا يفوتنا هنا ان نذكر أن نصف رجال الكتيبة كانوا خاضوا معركة البرج مع العدو قبل يومين فقط، ولم يعودوا الى مواقعهم الا في اليوم السابق.

بعيد الساعة الثانية بقليل كان ضابط الملاحظة الملازم عبد الرزاق الشريف يقف مع ضابط لاسلكي الكتيبة الوكيل محمد نور حسن، الى جانب جدار قديم في خرائب عمواس. لاحت من الوكيل التفاتة نحو قرية القباب، فشاهد آليات تتقدم من هناك. أخذ الملازم منظاره، ومن خلاله شاهد بوضوح ثلاث دبابات ووراءها سيارات نقل كبيرة من ناقلات الجنود. كانت الدبابتان الاولى والثانية تحملان مدافع ضخمة. بدا واضحاً ان قوة العدو تتجه نحو مواقع الكتيبة. أسرع الملازم للاتصال مع بطارية المدافع الثقيلة. كان من حسن الحظ ان اثنين من جنود الاشارة أصلحا خط الهاتف في ذلك الصباح مخاطرين بنفسيهما، لان الخط كان مقطوعا قبالة قرية سلبيت التي يتمركز فيها العدو. وفي الوقت نفسه شوهدت حشودات من جنود المشاة على طريق وادي الصرار، بالقرب من مستعمرة خلدة. واتصل ركن الكتيبة مع قيادة اللواء يبلغها بتقدم العدو، فكان الجواب من قائد اللواء (اشتون) بعدم اطلاق النار الا اذا اتضح تماماً أن العدو يريد فعلا مهاجمة مواقع الكتيبة. لم يقتنع الرئيس عكاش الزبن بهذا الجواب فبادر للاتصال بقادة السرايا يطلب منهم التأهب والاستعداد، مع الامتناع عن اطلاق النار الا عندما تصبح دبابات العدو تحت مرمى الأسلحة. كان عكاش قد طلب من قيادة اللواء ان تأمر المدفعية بقصف دبابات العدو (بسبب النقص الشديد في القنابل، كانت بطارية المدفعية تتلقى أوامرها من قائد اللواء شخصيا). ثم اتصل بالملازم مصطفى الخصاونه قائد موقع البطاريه قائلا: نحن نتعرض لهجوم وشيك، اليوم يومك. وجاءه الجواب عبر الهاتف: لعينيك، نحن حاضرين.

كان العدو قد لجأ هذه المرة الى المبدأ القائل «الحرب خدعة»، فاعتزم ان يشن هجوماً مباشراً وقوياً في الساعات الثلاث الأخيرة من مرحلة القتال الثانية وبكامل قوة لوائين،

(اللواء المدرع ولواء مشاة) على الموقع الرئيسي الذي كـان يطمـع فـي السـيطرة عليـه، الا وهو اللطرون. وقد استعمل لأول مرة في هـذه الحـرب دبابـات ثقيلـة وصلـت اليـه أخيراً. كانت قيادة العدو تعتقد – كما يبدو – ان القوة الأردنية المتمركزة في اللطـرون لا تسـتطيع الصمود في وجه هذا الهجـوم الكاسـح وستبادر الـى الانسـحاب، بعد أن أصبحـت خطـوط مواصلاتهـا مهددة، وربمـا تذهلهـا مفاجـأة الهجـوم فـي وقـت غير متوقـع فـترتبك وتنهـار عزائمها.

ولكن الواقع كان مختلفا عن حسابات العـدو، فبينما كـانت الدبابـات الضخمـة ونـاقلات الجنود تتقدم الى الأمام، كان كل واحد من أفراد الكتيبة قد وضع أصابعه على زناد سـلاحه وأخذ ينتظر اللحظة المناسبة لفتح النار. كان هناك شعور بالغضب لم يلبـث ان تحـول الـى عزم وتصميم. وفي داخل مركز الشرطة ألقى عبد الله الشويعر نظرة سريعة على الأسلاك الشائكة والخنادق المحيطة بالمخفر، فاطمأن لقوة التحصينات ومتانة الدفاع.

في الساعة الثالثة اتضح أن الدبابات تسير مباشـرة نحو بنايـة مركـز الشـرطة. كـانت اثنتان منها من طراز كروموبل وتحمل مدافع قوية من عيار ٧٥ملليمترا.

لم تلبث المعركة أن نشبت على أشد ما تكون المعارك عنفا، وفتحـت الدبابـات الثـلاث نار مدافعها وأخذت تقصف بناية الشرطة قصفاً سـريعاً متصـلاً، وفـي الوقـت نفسـه أخـذت مدافع ٢٥رطلا ترسل قنابلها وبعضها من نوع المنثار باتجاه دبابات العدو وسياراته. أسلحة الكتيبة الثانية كلهـا اشـتركت فـي قصـف تجمعـات العدو وآلياتـه. وفـي أثنـاء ذلـك مضـت الدبابات تتقدم الى الأمـام كأنهـا لا تبـالي بشـيء. أحدثـت قنابلهـا الخارقـة ثقوبـاً كثيرة فـي جدران المركز المبنية من الاسمنت المسلح، حتى أصبحـت كالغربـال. وأخـذ حمـاة المركـز يردون على القنابل الضخمة بنيران أسلحتهم الصغيرة. وعلى سطح المركز وتحت زخـات الرصاص، سدد الجنود فوهة المدفع (٦ رطل) باحكام وأطلقـوا قنبلـة علـى الدبابـة الأولـى. وتعالت من أفواههم هتافات الفرح عندما أصـابت القنبلـة هدفهـا، فـارتمت الدبابـة الضخمـة على جانبها. لكن الدبابة الثانية أطلقت قنبلة فأصـابت درع المدفـع الصغير اصابـة مباشـرة فتهاوى المدفع وتهاوى جنوده جميعاً شهداء الى جانبه.

الدبابتان الثانية والثالثة واصلتا التقدم حتى بلغتا البناء الذي يضم مضخـات دفـع المـاء (ماء رأس العين) على بعد ٦٠٠ياردة من المركز، وهناك انضمت اليهما مدافعُ الهاون مـع

جنود المشاة. كان سطح المخفر محاطا بأكياس الرمل على عمق خمسة صفوف، ومن ورائها أخذ جنود الكتيبة الثانية يقذفون العدو برصاص رشاشاتهم. لم تكن قنابل العدو تنفذ الا الى عمق ثلاثة أكياس. وفي ساحة المركز ظل مدفعا الهاون يقصفان العدو. كان مشهداً مثيراً: مشهد اولئك الجنود البواسل وهم يقفون في وجه العدو ويمنعونه من التقدم.

كانت مدفعية العدو من القباب تغطي زحف الدبابات، بينما كانت مدافع الهاون الثقيلة والرشاشات تغطي ذلك الزحف من المواقع الشمالية القريبة. وقد أدتّ الاصابات المباشرة في بعض ناقلات الجنود، الى توقفها عن السير وانتشارها على جانبي الطريق بينما استمر المشاة (نحو سريتين) في تقدمهم. لم يلبث العدو أن زج في المعركة بثلاث دبابات أخرى ومزيداً من السيارات التي تحمل الجنود. ولكن رجال الكتيبة الثانية ثبتوا في مواقعهم، ومضوا يردّون على النار بالنار، فأصيبت دبابتان أخريان للعدو، واشتعلت النار في بعض السيارات ناقلات الجنود، ووقعت في صفوف جنود المشاة اصابات كثيرة.

أمضى مشاة العدو في الوادي والهضاب المجاورة وقتاً طويلاً وهم ينظمون أنفسهم للهجوم على مرتفعات اللطرون وعمواس. بدا أن عددهم لا يقل عن لواء، أي مايزيد على ثلاثة أضعاف قوة الكتيبة الثانية. ولكن اولئك الجنود ظلوا حيث كانوا. ويبدو أن الأوامر لم تصدر لهم بالتقدم لان الدبابات لم تنجح في اسكات نار الجيش العربي. كانت المقاومة العنيدة التي أبداها جنود الكتيبة الثانية مفاجأة للعدو، ولم يلبث أن أدرك استحالة تحقيق هدفه، فأخذ يتراجع في نحو الساعة الرابعة والنصف، عائدا الى المواقع التي انطلق منها.

يجدر التنويه هنا بجهود الرئيس عكّاش الزبن ركن الكتيبة، الذي أدار المعركة بعزم ونشاط، وكذلك بما أبداه ضباط الكتيبة: محمد كساب ورفيفان خالد وعباطه عيد وحيدر مصطفى من تصميم في الرد على نار العدو. كما انه لا بد من التنويه بنشاط ضابطي المدفعية: مصطفى الخصاونه وعبد الرزاق الشريف. ولا ننسى الوكيل عبد الله الشويعر، الذي وقف في مركز الشرطة يبث روح الاقدام في نفوس الجنود، ويقف وقفة الرجل الذي لا يهاب الموت ولايحسب حسابا للخطر.(٢٢)

عندما أخذ العدو ينسحب، آخذت مدرعات الكتيبة الأربع، بقيادة النائب سكران لافي، تطارد ناقلات الجنود، حتى أوصلتها الى القباب، وأوقعت بجنودها عدة اصابات.

استمرت المعركة ومطاردة العدو نحو ثلاث ساعات، وتوقف اطلاق النار نهائيا مع غروب الشمس. وفي أثناء الليل تمكن العدو من سحب دباباته الثلاث المعطوبة.

كانت خسائر العدو في الأفراد كبيرة نتيجة للقصف المحكم من قبل المدفعية الثقيلة ومدافع الهاون. وقد ترك العدو عدداً من سيارات نقل الجنود المحترقة، وكميات من السلاح والذخيرة على الأرض في اثناء انسحابه. اما الكتيبة الثانية فقد سقط منها ستة شهداء، وأصيب أربعة جنود بجراح. وكان بين الشهداء الجندي عناد سعد، آمر المدفع، ورفاقه، الذين صبغت دماؤهم الزكية جسم المدفع، فكان استشهادهم الى جانبه مثالاً عظيماً من أمثلة البطولة والفروسية.

الفريق جلوب كان قلقاً ومتخوفاً، كان يخشى أن تنهار مقاومة الجنود أمام ضغط القوة الكبيرة التي اندفعت نحوهم. لم يهدأ باله الا عندما اتصل به قائد الفرقة (نورمان لاش) بواسطة الهاتف قائلا: لقد أعطب مدفعنا دباباتهم كلها، ويتولى الرئيس عكاش مطاردتهم على رأس قوة من المشاة ومدافع البيات.

في اليوم التالي أرسل الملك عبد الله البرقية التالية الى قوات جيشه في اللطرون وباب الواد:

> علمت بالتفصيل عن محاربتكم أمس وما قمتم به من بسالة وشجاعة واتقان في فن الحرب، مزودين برضانا وتوفيق الله وحسن التدريب، فصددتم القوات الهائلة التي قصفتكم مدة اربع عشرة ساعة بدون انقطاع، بهجمات وتطهير. واني أحمد الله على ذلك وأشكر كل فرد من جيشي وكل ضابط صف والضباط والقواد. واني لشاكركم وفخور ببسالتكم، وان بلادي لتشاركني هذا الفخر.

كما أرسل الفريق جلوب الى كافة وحدات الجيش برقية أعرب فيها عن تقديره لأعمال « البطولة والاستبسال التي أظهرتموها في مختلف الميادين» خلال أيام ١٤-١٨ تموز. وأشاد بما أحرزته وحدات الجيش من انتصار على العدو، وكيف استطاعت أن تصدّه وتدحره، على الرغم من أن عدد رجاله كان يفوق عدد رجال الجيش العربي بأربعة أضعاف.(٢٣)

معركة خراب اللحم

بذل اليهود جهداً كبيراً لتطويق الكتيبتين الثانية والرابعة، فلم يكتفوا بمهاجمة طريق اللطرون– رام الله، من ناحية الغرب، بل قاموا ايضا بهجوم آخر من ناحية الشرق بقصد الوصول الى تلك الطريق والسيطرة عليها.

ففي الصباح الباكر من يوم ١٨تموز (وهو اليوم الذي تقرر أن تبدأ فيه الهدنة ابتداء من الساعة الخامسة بعد الظهر) عمد العدو الى الزحف من مستعمرة الخمسة بقوة سرية، باتجاه الطريق. وقد تصدى لقوة العدو في البداية عدد من مناضلي قرية (بيت عنان) فتغلبت عليهم، واستمرت في سيرها باتجاه الخرب المعروفة باسم (خراب اللحم) بين قريتي قطنا وبيت عنان.

وبلغت أنباء تقدم القوة اليهودية قيادة الكتيبة الخامسة في قرية بدّو، فصدر الأمر الى الملازم الثاني محمد مطلق الهباهبه، قائد فئة الهاون عيار ٣ بوصات (في السرية المسانده) بأن يسير على رأس فئته الى القبيبة لقصف مواقع قوة العدو. ومضى جنود الفئة من بدّو الى القبيبة، وهناك أُضطر القائد ان يترك مدافع الهاون لعدم وجود وسائط نقل ملائمة في تلك المنطقة الوعرة ذات التلال والأودية والأشجار، واعتزم ان يواصل السير على رأس جنوده الخمسة عشر، بعد أن انضم اليهم نحو ثلاثين رجلاً من مناضلي بيت عنان وبيت دقو وقطنا. ومضى الجنود والمناضلون يتقدمون للالتقاء بقوة العدو، وهم يحملون أسلحتهم الخفيفة من بنادق ورشاشات. وبعد مسيرة بضعة كيلو مترات شاهدوا قوة العدو تتحشد في خراب اللحم، فاقتربوا منها وباغتوها بالهجوم من عدة مواقع من ناحية الشرق، قبل أن تتمركز في الموقع. كانت الساعة الخامسة صباحا عندما بدأ أفراد القوة الأردنية والمناضلون هجومهم. ودار قتال عنيف بين الفريقين، وكان لعامل المفاجأة تأثير على أفراد العدو الذين كانوا يقاتلون وضوء الشمس الساطع في وجوههم. وعلى الرغم من ان قوة العدو كانت أكثر عدداً من القوة المهاجمة، الا أن الخسائر التي وقعت في صفوفها في الهجمة الأولى، اضطرت القوة عند الظهر الى الفرار على أعقابها لا تلوي على شيء، بعد أن تركت على أرض المعركة ٣٢ قتيلا، وآثار دماء تدل على كثرة عدد الجرحى بين المهزومين، كما ترك العدو في موقع المعركة عدداً من الرشاشات والبنادق والمعدات الأخرى. ولم تخسر القوة المهاجمة سوى قتيلين من المناضلين. وفي هذا الاشتباك أبدى

الجنود والمناضلون شجاعة فائقة وروحا معنوية عاليه، وكان لقيادة الملازم الهباهبه، ولما أبدى من عزيمة وتصميم في الضغط على العدو، أكبر الأثر في الحاق الهزيمة به.

توقعت قيادة الكتيبة هجوما معاكسا على قوة الملازم الهباهبه، فتحرك ركن الكتيبة الملازم الأول صالح الشرع الى خراب اللحم مع ست سيارات جيب كانت تحتفظ الكتيبة بها كقوة احتياطية، وهي تحمل رشاشات برن وكمية من العتاد. وعند وصول القوة الى الموقع، شاهد الملازم الشرع جثث قتلى العدو ملقاة هنا وهناك، وقائدهم (دان) برتبة وكيل قائد، وفي جيبه رسالة من والدته تشجعه على الصبر في القتال.

وحاولت قوة يهودية أخرى أن تخترق المنطقة فيما بين مواقع الكتيبة الخامسة والكتيبة الرابعة، بقصد الوصول الى احدى طرق المواصلات الخلفية. وعرف قائد الكتيبة الخامسة من حرس القرى بزحف القوة اليهودية، فأرسل فئة من جنوده بقيادة الملازم عبد الله العايد للاشتباك مع قوة العدو، وبالفعل كمنت الفئة الأردنية بين التلال، وتمكنت من ارغام قوة العدو على التراجع بعد ان قتلت عدداً من أفرادها.

الا نسحاب من عرطوف

كان موقع عرطوف من أهم المواقع العسكرية في جبهة القتال الوسطى، اذ كان يمثل نقطة التقاء بين القوات المصرية والقوات الأردنية، بالقرب من شريان الحياة – المتمثل فى طريق باب الواد– بالنسبة ليهود القدس• وكما هو معلوم فان مركز شرطة عرطوف يقع في واد منخفض تحيط به الجبال، ويقع الى الجنوب الغربي من اللطرون، وتمر طريق باب الواد بينهما. ولكن نقطة الالتقاء تلك ظلت ضعيفة طوال فترة القتال الأولى وطوال فترة هدنة الأسابيع الأربعة – بسبب عدم قدرة المصريين والأردنيين على التمركز فيها بقوة – فأتيح بذلك المجال أمام العدو للتغلغل فيها، ثم للاستيلاء عليها وعلى القرى المحيطة بها في فترة القتال الثانية.

سبق القول (في الفصل الرابع) أن مفرزة عرطوف كانت تتألف من نحو ثلاثين جنديا وضابط صف بقيادة الملازم عيسى مفضي تادرس (وهي احدى فئات السرية ١٢ التي كانت تتمركز في الخليل). وقد اشتركت المفرزة في عدد من المعارك التي خاضتها الكتيبتان الثانية والرابعة، وعلى الأخص معركة ٢٥ أيار. وكانت دوريات من الكتيبتين ومن سرية المدرعات تصل الى عرطوف أحياناً. وتم تزويد المفرزة بجهاز لاسلكي.

وقامت المفرزة بالتعاون مع مناضلي القرى المجاورة، بمهاجمة قوة يهودية كانت ترابط في قرية بيت سوسين، ولكن المهاجمين اضطروا للانسحاب بسبب كثافة نار العدو. وعلى الأثر أغارت طائرات يهودية على مركز الشرطة وعلى قرى عرطوف وأشوع وعسلين، وقصفتها بالقنابل.

وفي ١٦حزيران وصلت الى مركز عرطوف قوة مصرية تتألف من ٦٠ جندي مشاة بقيادة الملازم محمود كشك (حل محله فيما بعد الملازم حسن التهامي). وأعلنت اذاعة القاهرة في مساء ذلك اليوم ان القوات المصرية الخفيفة احتلت مركز عرطوف. والواقع ان القوة المصرية انضمت الى القوة الأردنية وحلت معها في مبنى الشرطة.

لم يركن اليهود الى الهدوء في أيام الهدنة، اذ عمدوا الى اشعال النار في مزروعات قرى بيت محسير ودير محيسن وبيت قاد وعمواس. وكانت دورياتهم لا تنفك تبث الذعر والارهاب في نفوس القرويين، وتطلق النار عليهم بين الحين والآخر فتقتل هذا وتصيب ذاك بجراح، وأحياناً تعتقل أفراداً منهم للتحقيق. وفي ٢٩حزيران احتل اليهود قريتي قزازة وجليا، وأخذت دورياتهم تتغلغل الى أطراف قرى عسلين وأشوع وقسطينه، كما انهم نسفوا عبّارة مهمة في طريق باب الواد وزرعوا ألغاما في أجزاء من الطريق.

كانت هذهالتحركات على مرأى ومسمع من القوة الأردنية – المصرية في عرطوف. ولكن تلك القوة لم تستطع ان تقوم بأي عمل يحول دون اتساع رقعة السيطرة اليهودية، لان هؤلاء كانوا يستعملون مصفحات وأسلحة نارية لم يكن لدى جنود المشاة العرب شيء منها. وكانت أنباء هذه التحركات تنقل أولاً بأول الى قيادة اللواء الرابع في رام الله والى القيادة المصرية. وفي ٢١حزيران زار مركز عرطوف عدد من كبار الضباط المصريين (الأميرالاي محمد نجيب والقائممقام سيد طه وثلاثة ضباط برتبة بيكباشي واليوزباشي زكريا محي الدين)، ثم جاء بعدهم ثلاثة ضباط آخرون بقصد وضع قوة مصرية في قلعة صرعا (القديمه). ثم وصل الى المركز القائمقام أحمد صدقي الجندي قائد اللواء الرابع بقصد التفتيش على القوة الأردنية. ولكن أيام الهدنة اخذت تدنو من نهايتها دون ان يتم تعزيز مركز عرطوف سواء من قبل المصريين أو من قبل الأردنيين.

وفي ١ تموز استبدل الملازم تادرس بالملازم قاسم الناصر قائدا لمفرزة عرطوف(٢٤).

على أن الذي وقع بالفعل كان عكس المتوقع، اذ ان الضغط اليهودي أدّى الى نزوح أهالي القرى التي كانت تصل بين مركز عرطوف ومركز الكتيبة الثانية في اللطرون (أشوع وصرعا وبيت محسير وعسلين وغيرها). وزاد الوضع سوءاً أن المصريين سحبوا مفرزتهم من عرطوف قبيل انتهاء أيام الهدنه. وقد انسحبت المفرزة المصرية بمساعدة قوة سعودية جاءت لحمايتها على طريق بيت جبرين (وهذا يدلنا على ازدياد حركة قوة اليهود الآلية على الطرق، كما يدل على السياسة الدفاعية التي كانت تسيطر على أذهان قادة الجيش المصري).

ان استيلاء القوات اليهودية على القرى والتلال المحيطة بمركز عرطوف، ورحيل المصريين، جعل المفرزة الأردنية شبه مطّوقة ومحصورة. وازداد الوضع حرجاً عندما أخذ العدو يقصف المركز والخنادق المحيطة به بقنابل الهاون الثقيلة. وفي تلك الفترة جاء و.ق. لوكت قائد الكتيبة الثانية لزيارة المركز، وعلى الأثر قامت المدفعية الأردنية الثقيلة بقصف مواقع العدو القريبة من عرطوف، مما اضطر القوة المحيطة بالمركز الى التراجع. وأخذ وصول المؤن من الخليل يواجه مصاعب بسبب دوريات العدو على الطرق المحيطة بعرطوف.

وحاول قائد السرية ١٢ تحسين الوضع، فأرسل في ١١ تموز قوة من المناضلين الخلايله تضم نحو ٤٠ رجلا بقيادة النائب محمد عبد الله ابو العاص. وعندما وصلت القوة الى قرية بيت محسير، وجدتها مهجورة، الا انها عثرت على ثلاث جثث لأشخاص طاعنين في السن من أهل القرية، ذبحهم اليهود، بالاضافة الى جثة قتيل يهودي. ثم اصطدمت القوة بوحدة يهودية في معركة استمرت نحو ساعتين، قتل النائب ابو العاص في أثنائها. ولم يلبث المناضلون ان انسحبوا أمام تكاثر النجدات المعادية.

أصبح مركز الشرطة في فترة القتال الثانية محاطاً بوحدات العدو من ثلاث جهات مرتفعة تسيطر عليه: من الجنوب ومن الشمال (بيت محسير) ومن الغرب (صرعا)، ولم يبق مفتوحاً أمام الفئة المرابطة فيه سوى الجهة الشرقية.

بناء على الوضع العسكري في منطقة عرطوف، أرسلت قيادة الفرقة أمراً الى السرية ١٢ بسحب فئة عرطوف. وبالفعل تحرك الملازم عيسى مفضي تادرس ومعه سيارتان متوسطتان، فوصل الى عرطوف ثم عاد الى الخليل ومعه الملازم قاسم الناصر وجنوده

(نحو ثلاثين) في أثناء ليلة ١٤ تموز وهم يحملون أسلحتهم الخفيفة وعتادهم. وكان انسحابهم من جهة الشرق عبر طريق ترابية.

القتال في القدس

سبق ان أشرت الى ان العدو وضع الخطط في مرحلة القتال الثانية لتحقيق جملة أهداف، ومن أهمها توسيع الممر الذي تتوسطه طريق باب الواد، والذي كان يفصل بين منطقة عمليات الجيش الأردني والجيش المصري – وهو الممر الذي كان يتوقف عليه مصير اليهود في القدس الجديدة. وكانت الأهداف الأولية الاستيلاء على قريتي المالحة وعين كارم الى الجنوب الغربي من القدس. اما الهدف المهم الآخر بالنسبة لليهود في القدس، فهو العمل على (١) الاستيلاء على المدينة القديمة داخل الأسوار (٢) الاستيلاء على ما بقي للعرب من القدس الجديدة: أي القطاع الذي يمتد من باب العمود الى حي الشيخ جراح.

كانت قوات الجيش العربي في القدس تتألف من الوحدات التالية:

- الكتيبة السادسة في القدس القديمة وقائدها و.ق. عبدالله التل.
- الكتيبة الثالثة في القطاع الممتد من باب العمود الى حي الشيخ جراح، وقائدها و.ق. هنكن تيرفن.
- قوة من السرايا المستقلة بقيادة الرئيس فواز ماهر، في منطقة الشيخ جراح.
- فئات من المناضلين الذين كانوا بمثابة رديف للوحدات النظامية (يقول عارف العارف ان عدد هؤلاء بلغ ١٩٠٠ رجل كانوا يرابطون في القدس وبيت لحم وبيت صفافا وعابود وبير زيت، وأكثرهم ينتمون الى منظمة الجهاد المقدس).

اما العدو فقد كانت قواته تتمركز في الممر، ابتداء من مستعمرة خلدة غربا، حتى مستعمرة الخمسة شرقا، وهي تتألف من لواء هارل ولواء اتزيوني. وفي القدس وضواحيها كان القائد شالتئيل يتولى قيادة القوات النظامية، ولكن كانت هناك قوات شبه مستقلة تابعة لمنظمتي الأرغون وشتيرن.

بدأ لواء هارل يعمل على توسيع الممر منذ اليوم الاول. ففي ليلة ١٠/٩ تموز قامت سرية من الجنود (يقال أنهم كانوا من الجنود الأغرار تتراوح اعمارهم من ١٦ الى ١٧ سنة) من لواء اتزيوني، بالزحف على الجبل المطل على قرية عين كارم. وفي الوقت نفسه

قامت سرية أخرى من منظمة شتيرن بمهاجمة المرتفع الذي يطل على طريق المالحة – عين كارم. ومع ان سرية (شتيرن) أخفقت في بلوغ هدفها وأضطرت للتراجع بعد ان لحقت بأفرادها خسائر فادحة، الا ان سرية (اتزيوني) استولت على قريتين، فأخذ المناضلون ينسحبون من المالحه.

وفي ليلة ١٤/١٣ تموز قامت كتيبة من منظمتي الأرغون وشتيرن بالهجوم على قرية المالحة فاستولت على جزء منها. وكانت مسؤولية الدفاع عن هذه القرية وقريتي عين كارم وصوبا موزعة بين المناضلين والقوات المصرية. حقا لقد كانت مفرزة صغيرة من الجيش الأردني ترابط في تلك المنطقة الا انها كانت شبه معزولة عن مراكز امدادها وتعزيزها. وقد حدث ان المصريين لم يعملوا – في أيام الهدنة – على تعزيز قواتهم في قطاع الخليل وبيت لحم والى الغرب من القدس، كما كان متوقعا. فلا هم تركوا المنطقة للأردنيين الذين كانوا موجودين قبلهم فيها، والذين تحملوا مسؤولية الاستيلاء على كفار غصيون، ولا هم عملوا على تكثيف وجودهم العسكري بعد ان تحملوا مسؤولية التقدم اليها واظهار وجودهم فيها.

بادر قائد الكتيبة السادسة يوم ١٤ تموز، في أثناء الهجوم الاسرائيلي، فأرسل نجدة مؤلفة من مدرعتين ومدفعي هاون وسيارة ذخيرة مع الملازم غالب رضيمان. وتعاونت هذه القوة مع المناضلين وقامت بهجوم معاكس على كتيبة العدو فأرغمتها على الانسحاب بعد ان كبدتها خسائر، الا ان تعزيزات وصلت الى العدو في تلك الليلة، فعاد الى الهجوم واستطاع ان يستولي على القرى الثلاث (صوبا والمالحة وعين كارم).

اما في مدينة القدس ذاتها فقد اقتصر القتال في بادىء الأمر على تبادل القصف المدفعي بين الطرفين. وفي يوم السبت ١٠ تموز قصف اليهود أحياء المدينة القديمة بعدد كبير من قنابل المدافع فسقط عدد منها في ساحة الحرم، وأصابت احداها قبة مسجد الصخرة، كما سقطت قنابل عديدة في درب الآلام ومنطقة كنيسة القيامة، ومن الجملة سقطت احدى القنابل على قبة الكنيسة فأصابتها بأضرار. ان عالم الغرب الذي خدرته الدعايات اليهودية، تشبع بفكرة قيام العرب بقصف المواقع المدنية في القدس الجديدة، ولكنه – من فرط جهله وتعصبه الأعمى – لم يلق بالا للقصف العشوائي لأحياء العرب في القدس القديمة أو للقصف الذي تعرضت له الأماكن المقدسة من اسلامية ومسيحية (٢٥).

حقا لقد أخذ الجيش العربي يرد على القصف اليهودي، ولكنه كان يقتصر ذلك على المواقع العسكرية للعدو، وكان القصف محدوداً جداً بسبب النقص الخطير في قنابل المدافع. وفي هذا اليوم نفسه اشتدت الاشتباكات بين الفريقين في الثوري والنبي داؤد والباب الجديد. وأصابت قنابل الجيش الأردني محطة اذاعة الهاجانا وبناية النوتردام.

وفي اليوم التالي (١١ تموز) قصفت مدفعية العدو وادي الجوز والأحياء العربية الأخرى الكائنة شرقي المدينة.

قام العدو في الساعة ٨ر٣٠ من مساء يوم ١٢ تموز بهجوم على منطقة الكتيبة الثالثة من باب العمود حتى الشيخ جراح. وقد مهد لهذا الهجوم بقصف شديد من مدافع الهاون وراجمات الألغام. واتجه قسم كبير من القنابل الى المدينة القديمة والنبي داؤد والثوري، لتحويل الأنظار عن اتجاه الهجوم الرئيسي على الكتيبة الثالثة. وقد اتصل بعض ضباط الكتيبة ومنهم الرئيس خالد مجلّي (ركن الكتيبة) والملازم غازي الحربي بعبد الله التل وطلبوا ان تعاونهم الكتيبة السادسة، فبادرت الأسلحة المساندة من رأس العمود بقصف مواقع العدو العسكرية. واستمرت المعركة حتى فجر اليوم التالي، دون ان يتمكن العدو من التقدم شبرا واحدا، بل انه خسر في تلك الليلة عشرات القتلى والجرحى، وثبت جنود الكتيبة الثالثة وردوا كرات اليهود المتعددة. وكان هدف العدو الاستيلاء على مواقع الكتيبة للاتصال بجبل المشارف (اهداسا والجامعة العبرية) وبالتالي التضييق على المدينة القديمة ومحاصرتها والاستيلاء عليها (٢٦).

استمر تبادل القصف المدفعي يومي ١٣ و ١٤ تموز. وفي يوم ١٥ تموز قامت الطائرات اليهودية بغارتين على القدس، فقتل تسعة أشخاص عند باب الأسباط، كما قتل ١١ شخصا غيرهم. وسقطت قنابل العدو في رأس العمود، مما أدى الى عرقلة المواصلات بين القدس وأريحا.

على ان جميع تلك الهجمات وكل ذلك القصف المدفعي لم يكن سوى تمهيد للصدام الكبير الذي حدث يوم ١٦ تموز، والذي بذل فيه الفريقان كل ما استطاعا من جهد. لقد أصبح واضحا ان الهدنة في القدس أصبحت وشيكة جدا، ذلك أن قرار مجلس الأمن بشأن الهدنة أمر الفريقين بالتوقف عن القتال في القدس قبل موعد الهدنة في جبهات القتال الأخرى بمدة ٣٦ ساعة: أي ان تبدأ صباح يوم ١٧ تموز.

واتخذت قيادة اللواء الأول قراراً بأن ترد الكتيبة الثالثة على هجمات اليهود بهجوم معاكس، وان يستهدف الهجوم حي مشيرم وحي المصرارة ومنطقة سعد وسعيد (مندلبوم)، لان المواقع اليهودية فيها كانت تؤلف نوعاً من النتوء في جبهة الكتيبة، كما انها كانت تشرف على طريق القدس – رام الله. وقد تم تعزيز الكتيبة الثالثة بسرية مشاة وصلت أخيرا من معسكر التدريب في عمان، ويقودها الرئيس عبدالكريم الدباس. وكان جنودها من الأغرار الذين لم ينالوا سوى قسط ضئيل من التدريب، ولم يكونوا مؤهلين لخوض المعارك. وتم تعزيز الكتيبة ايضا بفئة مناضلين من سرية الحسين بقيادة عثمان بدران، وفئة من الجهاد المقدس وفئة تدمير بقيادة أحمد الظاهر الديك (من قرية دير ابوسعيد).

بدأ الهجوم في الساعة الثامنة من صباح يوم ١٦ تموز، وقد مهدت المدفعية للهجوم بقصف مراكز العدو في حي مشيرم وشنللر وروميما وشارع يافا والمسكوبية. واشترك في القصف مدفعية ٢٥ رطلا ومدفعا الهاوتزر ومدافع الهاون في الكتيبتين الثالثة والسادسة ومدافع مقاومة الدبابات عيار ٦ أرطال. وبعد القصف التمهيدي تقدم المشاة لتطهير المنازل القريبة والأبنية. وتولى قيادة المعركة و.ق. هنكن تيرفن يساعده الرئيس خالد مجلّي الخريشا (ركن الكتيبة). وقامت بالهجوم الفعلي السرية الثانية بقيادة الملازم سالم شبيكان، وسرية القيادة بقيادة الملازم عطا علي، وكانت تساند الهجوم فئة مدرعات من سرية الملازم زعل الرحّيل.

واجه المهاجمون ناراً كثيفة ومقاومة شديدة لان جنود العدو كانوا يعتصمون في منازل محصنة أخذوا يدافعون عنها دفاع المستميت. ولكن جنود الجيش العربي والمناضلين تقدموا بجرأة وشجاعة نحو أهدافهم، واقتحموا نار العدو الحامية التي أخذت تقابلهم. وفي اثناء القتال سقط عدد من الجنود والضباط بين قتيل وجريح، كما أصيب الملازم سالم شبيكان بجراح، ولحقت بسرية الجنود الأغرار جملة خسائر. فقد استشهد من أفرادها النائب اسحق مهاجر (ناعور) والنائب خليل طالب (الشوبك) وعدد من الجنود، وأصيب قائدها الرئيس الدباس بجراح في ظهره من شظايا قنبلة، ولكنه رفض الذهاب الى المستشفى الا بعد أن انتهت المعركة. واشتد القتال بجميع أنواع الأسلحة حتى الساعة الثانية عشرة ظهرا، حينما أصدرت قيادة الفرقة أمراً بايقاف الهجوم. ويقول كاتب يهودي ان هجوم الكتيبة الثالثة هذا أدى الى احباط الخطة الاسرائيلية للاستيلاء على المدينة القديمة (٢٧)

كانت معنويات الجنود عالية وروح الاقدام تملأ نفوسهم، فخاضوا المعركة بكل حماسة واستهانة بالخطر، واستطاعوا أن يلحقوا بالعدو خسائر باهظة (قدرها عبدالله التل بأكثر من ١٠٠ قتيل). أما خسائر الجيش والمناضلين فكانت ستة شهداء وعشرة جرحى. وقد حقّق هذا الهجوم أهدافاً ذات أهمية، اذ تم الاستيلاء على عدد من المنازل التي كان العدو يتحصن فيها بالقرب من طريق سعد وسعيد – سان جورج، وفي منطقة (مندلبوم) المشرفة على حي مشيرم، ومن جملة ما استولى عليه الجيش العربي: عمارة الأوقاف الكبيرة والمباني المجاورة لها. وقاتل الرئيس عثمان بدران – وكان صائما – حتى أغمي عليه من شدة العطش. وأستشهد في المعركة المجاهد الصغير صباح عبدالغني القحف الذي كان في الرابعة عشرة من عمره. كما استبسل فيها كاظم صالح وجمال بازيان، وكان كلاهما فتى صغير السن يومذاك. ولا ينسى جنود الكتيبة الثالثة ما كان من شجاعة ضابط العهدة الملازم الثاني مسعد المدانات، الذي كان يحمل صناديق الذخائر ويوزعها بنفسه على النقاط المتقدمة في خط النار، غير مبال بالخطر المحدق والرصاص المتطاير.

في الوقت الذي كانت الكتيبة تقوم بعملياتها، كانت قيادة العدو تضع الخطط للقيام بهجوم واسع النطاق بهدف الاستيلاء على المدينة القديمة. وقد تقرر أن تقوم بهذا الهجوم كتيبتان احداهما من الهاجانا والثانية من منظمة الأرغون، بالاضافة الى قوة من منظمة شتيرن. وتضمنت خطة العدو تفجير عدد من الألغام الضخمة الى جانب سور القدس لفتح ثغرة فيه والعبور منها الى داخل المدينة. وكان العمل في اعداد تلك الألغام قد بدأ في أيام الهدنة. ولكن اليهود تأخروا في شن هجومهم هذا حتى تم اعداد تلك الألغام، وكان أضخمها يزن ٣٥٠ رطل انكليزي (اي نحو ١٧٠ كيلو)، وقد خصصّوه للتفجير في باب النبي داؤد.

قضت خطة العدو أن تشن كتيبة الهاجانا هجومها عند باب النبي داؤد، بينما تقوم كتيبة الأرغون بمهاجمة الباب الجديد. اما أفراد عصابة شتيرن فقد أعدوا أنفسهم لمهاجمة السور عند باب الخليل (يقول كرزمان ومؤلفا كتاب – يا قدس – ان هؤلاء أعدوا خطة سرية لنسف مسجد قبة الصخرة).

في الساعة ٣٠ر٨ من مساء يوم الجمعة ١٦ تموز بدأ الأعداء يقصفون المدينة القديمة بمدافع من مختلف الأحجام. وانتشر القصف الكثيف على أحياء القدس القديمة وعلى الأحياء الباقية في أيدي العرب خارج الأسوار. واستمر القصف طوال ساعات تلك الليلة،

فلم يهدأ الا في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، أي الى ما بعد موعد بدء الهدنة الثانية. وقُدرّ عدد القنابل التي قصفوا بها المدينة بأكثر من ٨٠٠ قنبلة ثقيلة ومتوسطة، وكان أعنف قصف شهدته القدس حتى ذلك الحين. ولم يكن ذلك القصف سوى مقدمة وتمهيد لهجوم واسع النطاق قام به العدو في الساعة الواحدة من صباح يوم السبت ١٧ تموز، وهو الهجوم الذي استهدف باب النبي داؤد والباب الجديد ومنطقة السور المحيطة بهما، كما سبق القول.

كان القائد عبدالله التل قد أدرك منذ البداية أن العدو يعتزم مهاجمة المدينة القديمة، فأصدر نداءً الى جميع أفراد الكتيبة السادسة يقول فيه «على كل مؤمن صادق الايمان ان يعقد العزم على الثبات أو الموت. اننا سندافع عن المدينة المقدسة حتى آخر رجل وآخر طلقة. لن يكون تراجع هذه الليلة..» واستعد جنود الكتيبة وضباطها لمجابهة العدو، وزاد أولئك الذين كانوا فوق السور من يقظتهم في مراقبة أية حركة تبدر من العدو. وتقيد الجميع بالتعليمات التي تقضي ان لا يطلق أحد رصاصة واحدة الا عندما يقترب العدو ويصبح أفراده تحت مرمى النار.

زحف العدو في ثلاث مجموعات، يتقدم كل مجموعة عدد من الجنود ومعهم ألغام ثقيلة (في براميل) بقصد نسف السور وفتح ثغرة يتدفقون منها الى داخل المدينة القديمة. وكان تقدم المجموعات الثلاث في وقت واحد تقريبا، على أمل ان يؤدي زخم الهجوم الى ارباك المدافعين. والتوصل الى نقطة ضعيفة يخترقون خطوط الدفاع من خلالها.

واندفعت القوة الرئيسية، وتضم كتيبة الهاجانا، من جبل النبي داؤد، باتجاه باب النبي داؤد. كان الرئيس محمود الموسى وجنوده بانتظار هذه اللحظات، وقد وضع كل واحد منهم يده على سلاحه. وتحت غطاء كثيف من النار تقدمت مفرزة من جنود العدو وهم يدفعون أمامهم عربة تسير على عجلات (مثل عربات الخضار). وعندما أصبح المهاجمون على مقربة من السور، أعطى الرئيس الموسى اشارة بيده فانهالت القنابل اليدوية وزخات الرصاص من الرشاشات باتجاه العدو. وانفجرت احدى القنابل في مقبرة للأرمن بالقرب من السور فاشتعلت النار في الحشائش الجافة وتحولت ظلمة الليل الى نهار من الضوء. ولكن جنود العدو استمروا في التقدم على الرغم من القنابل والرصاص، حتى أصبحوا على مسافة ١٥ - ٢٠ مترا من السور. وعندئذ نهض الجندي عارف علي عبيدات وألقى بكل

ما في ساعده الأيمن من عزيمة قنبلة يدوية (٣٦ ملز) فسقطت عند العربة التي تحمل اللغم الكبير، فلم يلبث ان ثار انفجار هائل اهتز جدارالسور بفعل قوته. وعندما انجلى الدخان الكثيف كانت أشلاء المهاجمين قد اختلطت مع بقايا حديد العربة. وكان من قوة الانفجار أن تصدعت بعض حجارة السور الضخمة واصطبغ الجانب المواجه بلون الدخان الأسود. وبقي السور المنيع قائما ولم تحدث فيه الفجوة التي كان يتوقعها العدو. على أن الاخفاق لم يفل من عزيمة جنود العدو، فمضوا يهاجمون السور بأسلحتهم المختلفة، ومضى جنود السرية الأولى يردون عليهم من وراء استحكاماتهم فوق السور. واستمرت المعركة على أشدها حتى طلوع ضوء الصباح في الساعة الخامسة، وتوقف القتال.

اما في مواجهة الباب الجديد فقد تقدم ١٥٠ رجلا من منظمة الأرغون، قدموا من ناحية النوتردام وأخذوا يشقون طريقهم الى الأمام وهم يلقون القنابل والمتفجرات. وغير بعيد عن هؤلاء احتشدت مجموعة أخرى من منظمة شتيرن عند بنك باركلس ثم أخذت تتقدم باتجاه باب الخليل. وكانت كل من المجموعتين تحمل برميلا كبيرا محشوا بالمتفجرات. واستطاعت مجموعة الأرغون ان تصل تحت حماية النيران الكثيفة الى السور على موازاة مدرسة الفرير (حيث كانت قيادة السرية). وتمكن جنود العدو من اشعال الفتيل في اللغم الذي كانوا يحملونه فانفجر الى جانب السور، وأدى الانفجار الى فتح ثغرة في السور من الناحية الخارجية، اما من الداخل فقد كانت الثغرة صغيرة بحجم فوهة البندقية فقط. وقد تشبث جنود العدو بالجانب الخارجي من الثغرة، بينما أخذ جنود السرية الثانية وهم على ظهر السور يقذفونهم من الجانبين بالقنابل اليدوية. وعندما طلع ضوء الفجر اضطر جنود العدو الى التراجع تاركين جثث قتلاهم على أرض المعركة. وقد أبدى جنود السرية بقيادة الرئيس عبدالرزاق عبدالله، بسالة واقداما في التصدي للعدو. وأخص بالذكر الملازم هذلول ساير، والملازم تركي عبدالله الذي أصاب أذنه بعض الصمم من شدة الانفجار.

ولم يكن حظ جماعة شتيرنُ أفضل من حظ الهاجانا والأرغون، اذ اقترب هؤلاء من باب الخليل ومعهم اللغم في سيارة. وهنا تصدت لهم السرية الثانية عشرة بقيادة الرئيس قسيم محمد (والتي كانت وصلت الى القدس في الليلة السابقة). وأخذ الملازم الاول جدعان مزيد والنائب مهلّي عبيد والعريف هزاع هلال والعريف محده، يقذفون عليهم القنابل

اليدوية. ولم يلبث اللغم أن انفجر، فدُمّرت السيارة وقُتل من كان فيها وبالقرب منها، ولم يصب السور بأي ضرر.

وهكذا أخفق الهجوم الاسرائيلي اخفاقاً ذريعا، واُضطر شالتئيل الى ايقاف عملياته في الصباح انصياعا لقرار بدء الهدنة. هذا على الرغم من ان العدو كان يعتقد ان العملية مضمونة الى حدّ انه تم وضع الترتيبات (كما زعموا) لادارة المدينة بعد الاستيلاء عليها.

وبفضل بسالة جنود الكتيبة السادسة وتضحياتهم احتفظ العرب بالمدينة المقدسة. وكان ذلك من أهم انجازات تلك الحرب، على الصعيدين العسكري والسياسي والمعنوي.

ولا بدّ من الاشارة الى ان العدو شنّ في تلك الليلة ذاتها عدة هجمات على المواقع الأردنية في الثوري وباب العمود وحي سعد وسعيد والشيخ جراح وسان هدريا، على أمل احداث ثغرة في أحد تلك المواقع. ولكن يقظة الجنود والضباط لم تتح للعدو أية فرصة، فارتد عنها مدحورا.

أجل، لقد ثبت جنودنا في تلك الليلة ثباتاً عظيماً، وردوا العدو على أعقابه وألحقوا به خسائر فادحة. ومن الجدير بالذكر ان اخفاق العدو في الهجوم الأول لم يثبط من عزيمته، فأعاد الكرة مرة ثانية وثالثة في الساعات القلائل التي سبقت طلوع النهار. وفي كل مر كان جنوده يرتدون خاسرين. وفي تلك الليلة الليلاء اشترك جميع رجال الكتيبة السادسة شرف الدفاع عن مواقعهم، حتى الكتبة وجنود الخدمات هبوا جميعا لصد العدو. وقد أب النائب عبدالحميد جويحان شجاعة فائقة وهو يروح ويغدو بين مواقع الفئات، حاملا ال صناديق الذخيرة والقنابل، بينما كانت نيران العدو تمشط المنطقة كزخات المطر، الدروب التي كان يقطعها في ذهابه وايابه. كانت ليلة لا تنسى.

وتكسرت هجمات العدو المصممة على صخرة ثبات الجنود الأبطال، وكانت خ العدو ٢٢٥ قتيلا و ١٤٥ جريحا، بالاضافة الى ٨٥ قتيلا وأكثر من ٢٠٠ جريح المدنيين.

اما العرب فخسروا ثمانية شهداء وعشرة جرحى من أفراد الجيش، وستة شه وخمسة جرحى من المناضلين، وتسعة شهداء و ٣٢ جريحا من المدنيين. وبالاضافة الى م تقدم ذكره من خسائر العدو، فقد أصابت قنابل الهاون الأردنية مستودعاً للذخيرة في المسكوبية فاشتعلت فيه النار حتى الصباح.

وفي منطقة الشيخ جراح جوبه هجوم العدو في تلك الليلة بمقاومة شديدة من قبل جنود سرايا الأمن التي كانت ترابط هناك بقيادة الرئيس فواز ماهر، فاضطر في الصباح ان يتراجع دون أن يكسب شبراً واحداً من الأرض. ومما يذكر بهذا الصدد ان عدد الجنود في تلك المنطقة الواسعة هبط في أواخر أيام الهدنة الأولى الى نحو ٣٥٠ رجلا، وكان ذلك بعد سحب عدد من السرايا من أجل تأليف الكتيبة الخامسة. وحدث قبيل بدء مرحلة القتال الثانية ان الفريق جلوب جاء يتفقد الموقع، وبعد أن وقف على حقيقة الوضع قال:

- يا فواز لقد أصبحت في وضع ضعيف. وأنا لا أستطيع ان أصدر لك أمرا، ولكن المنطق العسكري يحتم عليك تقليص منطقتك، بحيث تتمركز في الأماكن المرتفعة.

وانصرف جلوب. وفكر الرئيس فواز ماهر بما سمع. كان كلام القائد منطقيا من وجهة نظر عسكرية محضة. ولكنه اختار ان يبقى في مواقعه وأن يدافع عنها، وهو على يقين من أن الثبات ومواجهة الخطر أكرم له ولجنوده من الانسحاب باختيارهم.

السرية ١٢ في القدس

في أثناء فترة القتال الثانية صدر الأمر للسرية المستقلة ١٢ ان تنتقل من الخليل الى رام الله. وتبعاً لذلك بادر قائد السرية الرئيس قسيم محمد (تسلّم قيادتها اعتبارا من ٢٣ أيار خلفاً للرئيس حكمت مهيار) الى جمع فئات السرية التي كانت موزعة بين الخليل وبيت لحم وبيت جالا. وتحرك على رأسها بواسطة سيارات نقل مدنية عبر الطريق الترابية التي شقها الجيش في أثناء الهدنة من بيت ساحور الى دير العبيديين ثم الى الخان الأحمر. وكانت أسلحة السرية تتألف من بنادق ورشاشات برن وتومسون وقنابل يدوية وألغام وثلاثة مدافع هاون عيار ٣ بوصات. وقد أبلغ قائد السرية قائد القوات المصرية البيكباشي أحمد عبدالعزيز ومساعده الملازم كمال الدين حسين بعزمه على الانتقال، فتسلم المصريون المواقع التي كانت السرية ١٢ تتمركز فيها. على ان قائد السرية أبقى في الخليل فئة من جنوده (نحو ٣٠ جنديا) بقيادة الملازم عيسى مفضي تادرس، لكي تكون بامرة الزعيم صالح المجالي الذي كان عُيّن في ٤ تموز ١٩٤٨ حاكماً عسكريا لمنطقة الخليل.

كانت لنقل السرية ١٢ من منطقة الخليل أسباب عسكرية وسياسية. ويعود السبب العسكري الى اصرار المصريين على تحمل مسؤولية الدفاع عن المنطقة والى حاجة الجيش الأردني لاستخدام جميع القوات المتوافرة لديه في القتال على جبهته التي أصبحت

تمتد من القدس شرقا حتى نقطة الالتقاء مع الجيش العراقي، غربا. اما السبب السياسي فيعود الى ما جرى من تنافس بين المصريين والأردنيين على ادارة المنطقة، فكان لا بد من انسحاب أحد الفريقين.

يجدر بي أن أذكر هنا أن عدد رجال السرية ١٢ كان قد ازداد الى نحو ٢٠٠ جندي. وكانت السرية تضم من الضباط، بالاضافة الى قائدها – الملازمين: سعود الخشمان وقاسم الناصر وجدعان مزيد وطعمة عطا الله وأحمد محمود أبزاخ والمرشح خالد بيجان.

غادرت السرية بلدة الخليل عند منتصف ليلة ١٥ تموز، واستمرت في سيرها عن طريق اريحا الى رام الله، وهناك أمرها قائد اللواء الرابع بأن تواصل حركتها الى القدس القديمة. وبالفعل مضت السرية الى القدس عن طريق حي الشيخ جراح ووادي الجوز، فوصلت الى قيادة الكتيبة السادسة في مدرسة الروضة عند منتصف ليلة ١٦ تموز.

لم تكد السرية تصل الى داخل المدينة القديمة ويأخذ أفرادها قسطا قليلا من الراحة، حتى كانت قوات العدو تبدأ هجوماً مفاجئاً على منطقة الكتيبة الثالثة وحي الشيخ جراح، بهدف استرداد المواقع التي استولت عليها الكتيبة قبل ذلك بيومين. هذا على الرغم من ان الهدنة في القدس كانت قائمة. بدأ الهجوم اليهودي في الساعة الثالثة من صباح يوم ١٧ تموز، بقصف مدفعي عنيف سقطت على المواقع العربية في اثنائه أكثر من ٢٠٠ قنبلة من مختلف الأحجام. وتقدم مشاة العدو بعد ذلك، فكان جنود الجيش العربي لهم بالمرصاد. ودارت عندئذ معركة حامية استبسل فيها الطرفان. واستعانت الكتيبة الثالثة بالقائد عبدالله التل فلم يجد قوة لديه يمكن الاستغناء عنها سوى السرية ١٢ التي وصلت قبل بضع ساعات. وهكذا قام بارسال فئتين من جنودها احداهما بقيادة الملازم سعود الخشمان والأخرى بقيادة الملازم قاسم الناصر (نحو ٧٠ جنديا). وخاضت وحدات الجيش العربي في تلك الليلة معركة ضارية دفاعا عن مواقعها. وقد أُصيب الملازم قاسم الناصر بجراح في رأسه، وأُصيب جندي الرشاش الذي كان معه اصابة قاتلة، كما أُصيب الجندي الاول غازي حسين بجرح في جبينه. وعلى الرغم من جراحهما استمرا في القتال. وأبدى غازي حسين صبرا واستماتة وظل يستعمل الرشاش ضد العدو على الرغم من الدماء التي غمرت وجهه – حتى نهاية المعركة. كان ذلك نموذجاً رائعا على الروح القتالية التي كان جنود الجيش الأردني وضباطه يتحلون بها. ولم ينجح العدو في استرداد أي منزل، على الرغم

من هجماته المتكررة، ولحقت به خسائر فادحة. وقد استمرت المعركة على أشدها الى ان توقف القتال في الساعة الواحدة بعد الظهر.

ولم تلبث السرية ١٢ أن تسلمت مواقعها في باب الخليل والمنطقة المحيطة به من السور. وبعد بضعة أيام حلت محل السرية الثامنة التي صدر لها الأمر بالانتقال الى منطقة رام الله.

وهكذا أصبحت الكتيبة السادسة – بعد صدور الأمر الرسمي باعطائها هذه التسمية – تتألف من السرايا التالية:

- السرية الأولى (سابقا: سرية الأمن الأولى) بقيادة الرئيس محمود الموسى، وتتمركز على باب النبي داؤد وتمتد منطقتها على السور من القلعة غربا الى باب المغاربة، وقيادتها في دير الأرمن.
- السرية الثانية (سابقا: السرية ١٢) بقيادة الرئيس قسيم محمد، وتتمركز على الباب الجديد وباب الخليل، والقلعة وقيادتها في مدرسة الفرير.
- السرية الثالثة (سابقا: السرية السادسة) بقيادة الرئيس فريد القطب، وتمتد منطقتها من دير اللاتين الى باب العمود، وقيادتها في دير اللاتين.

الهدنة الثانية

اتخذ مجلس الأمن يوم ١٥ تموز قرارا أمر بموجبه جميع الأطراف المعنية بالتوقف عن القتال في فلسطين، دون قيد أو شرط، وأن تظل الهدنة سارية المفعول الى ان يتم التوصل الى تسوية سلمية. وقد أشار القرار أولا الى ان حكومة اسرائيل المؤقتة قبلت تمديد الهدنة الأولى، بينما رفضت ذلك الدول العربية، وترتب على رفضها استئناف القتال. ثم خلص الى اثبات ما خلاصته:

يأمر مجلس الأمن الحكومات والسلطات المعنية بالكف عن أي عمل عسكري، وان تصدر الى قواتها العسكرية الأمر بوقف اطلاق النار، على أن يصبح هذا الأمر نافذ المفعول في التاريخ الذي يحدده الوسيط برنادوت.

وبعد أن هدّد المجلس كل من يرفض هذا الأمر بالعقوبات التي تنص عليها المادة ٣٩ من ميثاق الامم المتحدة، مضى الى القول:

يأمر المجلس بوقف اطلاق النار فورا وبدون قيد في مدينة القدس، على أن يكون نافذ

المفعول بعد ٢٤ ساعة من صدور هذا القرار. وأن تظل الهدنة سارية المفعول وفقاً لهذا القرار، الى أن توجد تسوية سلمية للوضع في فلسطين مستقبلاً.

في اليوم التالي وافق اليهود على قبول الهدنة، وفي اليوم الذي يليه (١٧ تموز)، وافقت الدول العربية على الهدنة. وأرسل أمين الجامعة العربية مذكرة الى أمين عام الأمم المتحدة قال فيها: ان الدول العربية تدخلت في فلسطين لانقاذها وانقاذ أهلها من الجرائم الوحشية التي اقترفها اليهود، والتي أدتّ الى خروج مئات الالوف من العرب من ديارهم. وأشار الى أن اليهود لم يراعوا الهدنة الأولى وأنهم استولوا في اثنائها على أماكن وقرى عربية حققت لهم ميزات عسكرية واستراتيجية، وان اخفاق المراقبين الدوليين في ردع اليهود هو الذي حال بين الدول العربية وتمديد الهدنة. وجاء في نهاية المذكرة ان الدول العربية لا يسعها – بالنظر الى اصرار مجلس الأمن – الا أن توافق على ايقاف القتال مرة أخرى، بانتظار الحل العادل. وقد اتخذ رؤساء الحكومات العربية قرار المُوافقة على الهدنة في اجتماع عقدوه ببيروت، وكان القرار بالأكثرية وليس بالاجماع، اذ ان سوريا والعراق عارضتا الهدنة، بينما أيدتها حكومات مصر والأردن ولبنان والسعودية واليمن.

وبالفعل رتب برنادوت، بالاتفاق مع الفريقين، أن تبدأ الهدنة في القدس في الساعة الخامسة من صباح يوم السبت ١٧ تموز، وان تبدأ في بقية أنحاء فلسطين اعتباراً من الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم الأحد ١٨ تموز ١٩٤٨.

الجيوش العربية الأخرى

ذكرت في الفصل السابق أن الدول العربية قررت ان تقف جيوشها موقف الدفاع بعد انتهاء هدنة الأسابيع الأربعة. ويبدو أن العدو عرف بمضمون هذا القرار، فأخذ يتصرف بحرية لم تكن متوافرة له في فترة القتال الأولى. وكانت النتيجة ان عنصر المبادأة انتقل من أيدي العرب الى أيدي اليهود.

وضع العدو خططه على أساس الأولويات، ومن هنا وجه القسم الأكبر من قواته للقتال ضد الجبهة الأردنية، لتحقيق هدفين أكثر أهمية بالنسبة له من بقية الأهداف، وهما:

١ – الاستيلاء على ما كان بأيدي العرب من أراضي الساحل اللفلسطيني، في موازاة مدينته الرئيسية تل ابيب، ومن جملة ذلك مدينتا اللد والرملة ومطار اللد.

٢ – توسيع الممر الذي يربط تل ابيب بالقدس الجديدة، وبالتالي قطع الاتصال نهائياً في الجبهة الوسطى بين القوات المصرية والقوات الأردنية.

وكان للعدو في الجبهة الأردنية هدفان آخران على قدر عظيم من الأهمية، ألا وهما (١) الاستيلاء على مدينة القدس القديمة والأحياء التي بقيت للعرب خارج الأسوار (٢) الاستيلاء على مرتفعات اللطرون وجبال باب الواد الشرقية. ولكن العدو مني هنا بالخذلان ولم يتمكن من تحقيق ذينك الهدفين.

ان هذا يسوقنا الى القول ان الجيش الأردني تحمل وحده أعباء مواجهة القوات الرئيسية للعدو في مرحلة القتال الثانية. وقد قاتل الجيش بكل قواته، وبكل فرد من أفراده. حتى أولئك الأغرار الذين انخرطوا في سلك الجندية قبل أسابيع قليلة، دفعتهم القيادة الى أتون الحرب على الرغم من أنهم لم يتلقوا سوى النزر اليسير من التدريب العسكري والتمرين على استعمال السلاح.

على أن ما تقدم لا يعني أن جبهات الجيوش العربية الأخرى بقيت هادئة ساكنة طوال فترة القتال الثانية. فلقد شهدت كل جبهة قدرا من النشاط الحربي، ولكن قوة ذلك النشاط ارتبطت في معظم الأحوال بقوة المبادرة التي شاء العدو ان يقوم بها في هذه الجبهة أو تلك. ولما كان العدو قد ركز الجزء الأكبر من قواته الضاربة في مواجهة الجيش الأردني. فقد كان نشاط الجبهات الأخرى محدودا وعلى نطاق ضيق.

وفي فترة القتال الثانية اتضحت أكثر وأكثر المزايا التي كان يتمتع بها العدو: وحدة القيادة والهدف، وقصر خطوط المواصلات، وتدفق السلاح والعتاد والمتطوعين، والاستمرار في تصعيد الروح الهجومية. واتضحت بالمقابل الأخطاء التي كان يعاني منها العرب: تعدد القيادات، وطول خطوط المواصلات، وقلة العتاد والسلاح، والركون الى سياسة الدفاع، وهي أخطاء ترتب عليها ثمن باهظ تمثل بالدرجة الأولى في خسارة مساحات واسعة من التراب العربي.

ليس من هدف هذا الكتاب أن يشرح بالتفصيل ما وقع من معارك واشتباكات في جبهات فلسطين الأخرى، ولكن لا مندوحة عن تقديم صورة موجزة عن ذلك، لارتباط تلك الأحداث بعضها ببعض، ولقوة تأثير ما يحدث في أية جبهة على الجبهات الأخرى.



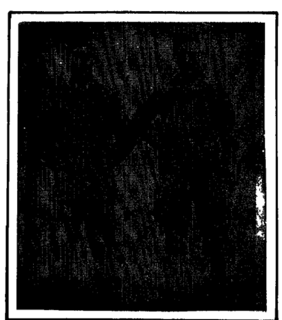
معسكر الطور (شباط ١٩٤٨) الرئيس فارس العبد (قائد السرية ١٣)

وعدد من المجاهدين الفلسطينيين : عثمان بدران، فوزي الخياط، جواد بـدران، هاشم البغدادي، حسين علي الرفاعي.



الملازم موسى عادل والملازم محمد نعيم -

باب الواد، حزيران ١٩٤٨.



الوكيل عبد الرحمن الصعوب (الكرك) والنائب منّوخ نويران (خرجا).

معسكر جيش الانقاذ في قطنا - حزيران ١٩٤٨.

الجبهة المصرية: في أواخر أيام الهدنة كان لمصر أربعة ألوية في جبهة القتال (ما يعادل ١٢ الف جندي)، بينما كان لليهود في مواجهة المصريين خمسة ألوية (ما يعادل ١٥ الف رجل)، واحد منها موزع في المستعمرات الثلاث وثلاثين، التي ظلت قائمة وراء الجبهة المصرية. وغني عن القول ان اليهود عملوا خلال فترة الهدنة على تحسين مواقعهم العسكرية واستولوا على بعض الأماكن الاستراتيجية. وقبل يومين من انتهاء أمد الهدنة تقدم اليهود نحو مواقع ذات أهمية، فاعتبر المصريون ذلك خرقاً جديداً للهدنة واستعداداً للقيام بعمليات هجومية، فبادروا صباح يوم ٨ تموز – أي قبل انتهاء الهدنة – الى مهاجمة مستعمرة (كفار داروم) وساعدهم عامل المفاجاة فاستولوا عليها. وتراجع اليهود فاستولى اللواء المصري الذي كان يقوم بعملية الهجوم، وهو بقيادة الزعيم محمد نجيب، على موقع كوكبا، ثم على بلدة الحليقات. وواصل اللواء المصري هجومه على العدو في قرية بيت داراس، لكن قوات العدو المتمركزه فيها استطاعت أن تصد أربع هجمات قامت بها وحدات سودانيه. ومع ان العدو ظل يحتفظ بالقرية، الا ان المصريين تمركزوا في تلة مرتفعة قريبة تسيطر على ملتقى الطرق المؤدية الى النقب.

أما اليهود فقد بدأوا هجومهم الذي كان يستعدون له بقوة لوائين، وذلك مساء يوم ٨ تموز. وكان هدفهم الاستيلاء على ممر يؤدي الى مستعمرات النقب – أي قطع خطوط المواصلات المصريه من منتصفها – وعلى بلدتي اسدود وعراق سويدان. وقد استولى اليهود على قرية عبديس، ولكنهم لم يستطيعوا فتح الممر المنشود.

وهاجم المصريون يوم ٩ حزيران مستعمرة نجبا، واستمر القتال حولها أربعة أيام، اضطر المصريون بعدها الى التراجع بعد ان لحقت بهم خسائر فادحه. وبعد ذلك تحوّل المصريون الى مهاجمة مستعمرة بيرون اسحق قرب غزة، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها.

ثم عمد اليهود الى الهجوم مرة أخرى بقصد فتح ممر الى النقب، وكان هجومهم هذه المرة بقوة ثلاثة ألوية. ففي ليلة ١٥ تموز بدأ الهجوم على قرية بيت عفه، ولكن القوات المصرية المرابطة فيها تمكنت من صد الهجوم وتكبيد المهاجمين خسائر فادحة. أما العملية الرئيسية فقد قام بها العدو في الليلة السابقة لبدء الهدنة، اذا استولى أحد ألويته على موقع مهم في الجنوب من الفالوجة، بينما استولت قوة أخرى على بلدتي حطه وقرياتا؟. وشن

المصريون عدة هجمات معاكسة، ولكنهم لم يستطيعوا استعادة البلدتين. وحلّت الهدنة مساء يوم ١٨ تموز واليهود يسيطرون على المواقع التي استولوا عليها، وبذلك تحقق هدفهم الأساسي – ولو على مقياس جزئي – وهو فتح ممر جديد الى النقب وقطع خط مواصلات المصريين بين المجدل والخليل.

نلاحظ مما تقدم أن عمليات حربية مهمة دارت في الجبهة المصرية في خلال فترة القتال الثانية. وبينما كان هدف المصريين تحسين مواقعهم الدفاعية، عمد اليهود الى تحقيق هدف استراتيجي بعيد المدى، الا وهو السيطرة على ممر يفتح طريق مواصلاتهم الى النقب من جهة ويشطر الجبهة المصرية من منتصفها، من جهة أخرى. من هنا تبدو النتيجة واضحة كل الوضوح، وهي نتيجة خطيرة لا يدري المرء كيف سكت المصريون عليها وقبلوا بها. وهناك احتمال – تؤيده الاحداث التي وقعت فيما بعد – وهو ان المصريين لم يعتبروا أن استيلاء اليهود على حطة وقرياتا يعني حصولهم على ممر الى النقب وشطر الجبهة المصرية الى جزئين. ولكن مهما قيل في نطاق التحليل أو التبرير، تبقى الحقيقة المرة وهي أن وضع القوات المصرية في نهاية فترة القتال لم يكن أفضل مما كان عند بدايتها. وكان الفارق كبيراً بين الأمال التي داعبت نفوس العرب والحقائق التي تمخضت عنها الأحداث.

الجبهة العراقية: على الرغم من تعزيز العراقيين لقوتهم المرابطة في فلسطين بوحدات جديدة، بحيث أصبحت في فترة القتال الثانية ضعف ما كانت عليه في فترة القتال الأولى – فان هذه القوات لم تستطع القيام بعمليات هجومية واسعة النطاق، وظلت تتمركز في جبهتها الأساسية علىمثلث نابلس – جنين – طولكرم. ويعود السبب الرئيسي الى أن زيادة حجم القوات العراقية قابلته زيادة أكبر في حجم قوات العدو المرابطة على الجبهة المقابلة.

كان الطابع العام على الجبهة العراقية يتمثل في اتخاذ العدو موقف الدفاع والتربص. من الواضح أن هذا الموقف أملته أولويات الأهداف التي كان العدو يضعها نصب عينيه: فمنطقة الجيش العراقي لم تكن تضم أية مستعمرات للعدو، ولم تكن تمثل أي خطر على مجهوده العسكري، أو على قيامه بتحقيق أولوياته العاجلة في الجبهات الاخرى.

وعندما بدأت الهدنة الأولى كانت قوات العدو تتمركز في تـل الخروبـه (الراقم ١٥٢) وهو الموقع الذي ظل العدو يحتفظ به بعد معركة جنين الكبيره، والـذي لا يبعـد عـن مدينـة جنيـن سـوى ثلاثـة كيلومـترات. لذلـك كـان مـن الطبيعـي ان تقـوم القيـادة العراقيـة بعمليـة عسكرية تهدف الى ابعاد العدو بعض المسافة عن جنين. وهكذا قامت قوة عراقية بالتعـاون مع مجموعة من المناضلين الفلسطينيين، بالزحف على مواقع العدو في الساعة التي انتهت فيها فترة الهدنة. وقد استهدفت القوة المهاجمـة استعادة مجموعـة مـن القـرى العربيـة كـان العدو استولى عليها في فترة القتال الأولى. كان النجاح حليف العراقيين فـي هجومهـم هـذا، اذ استولوا على قرية فقوعه (٩ تموز) وفي اليوم التالي استولوا على (تـل الخروبـه)، وفـي اليوم الذي يليه استولوا على قرى صندلة وجلمـه وعرانـه وعربونـة وديـر غزالـة ومقيبلـه. وقام اليهود بثلاث هجمات معاكسة لايقـاف العراقييـن، ولكـن تلـك الهجمـات بـاءت بالفشـل ولحقت بهم خسائر كبيرة نسبيا في الأرواح والأسلحة.

كان من المتوقع ان تستغل القوات العراقية هذا النجاح فتعمد الى مهاجمـة مستعمرات اليهود الواقعة بين جنين والناصره (مركز قيادة جيش الانقاذ) – على الأقل لتخفيـف ضغـط العدو على جيش الانقاذ في الجليل. ولكن القـوة العراقيـة المهاجمـة اكتفـت باسـتعادة القـرى السبع . وفيما بعد قال اللواء نور الدين محمود: ان أسباب توقف العراقييـن عنـد ذلـك الحـد هي:

١ – تحقيق الهدف الأساسي وهو ابعاد الخطر عن جنين.

٢ – لم تكن هناك قوة ضاربة تكفي لمتابعة الزحف.

٣ – سقطت اللد والرملة بيد الأعداء في ذلـك اليوم (١٢ تمـوز) فانكشـف الجنـاح الأيسـر، وكان لا بد من ارسال قوة كافية من جنين الى ذلك الجناح لحمايته.

وقام اليهود بمهاجمة القـوة العراقيـة المرابطـة فـي رأس العيـن ومجـدل يابـا، الا انهـم ارتدوا أمام عنف الدفاع. ثم عادوا يهاجمونها مرة أخرى فتمكنوا مـن الاسـتيلاء عليهـا يـوم ١٢ تمـوز. وقـامت السـرية التـي دافعـت عـن رأس العيـن بنسـف آلات ضـخ المـاء قبـل انسحابها. وفي ١٦ تموز عادت قوة عراقيـة للهجـوم علـى مجـدل يابـا ورأس العيـن (وهـو اليوم الذي وقعت فيه معركة قولة)، ولكنها لم تستطع التغلب على قـوة دفـاع العـدو. وكـرر العراقيون هجومهم عل مجدل يابا يوم ١٨ تموز وظلـوا يقـاتلون العـدو فيهـاحتى اضطـروا

الى الانسحاب مع موعد بدء الهدنة.

ومع بداية الهدنة أرسل العراقيون كتيبة من قواتهم الى منطقة دير نظام لحماية جناحهم الأيسر، الذي أصبح مكشوفاً نتيجة استيلاء العدو على رأس العين ومجدل يابا. وبذلك امتدت الجبهة العراقية الى أكثر من ١٦٠ كيلومترا (٢٨).

الجبهة السورية: كان السوريون قد استولوا على مستعمرة مشمار هياردن قبل بدء الهدنة الأولى. وفي أثناء الهدنة عملوا على تحصين الموقع وعززوا قواتهم فيه، حتى أصبحت مجموعة لواء تدعمه المدرعات والمدفعية، بينما كان لواء آخر يتمركز على المرتفعات المشرفة على المستعمرة.

أعد اليهود العدة للهجوم على القوات السورية في المستعمرة، وخصصت قيادتهم لوائين للقيام بالعملية. وفي مساء يوم ٩ تموز أخذت قواتهم تعبر نهر الأردن، بقصد الالتفاف حول المستعمرة من الجهة الشرقية ومهاجمة القوات السورية من الخلف. وقد تقدم اليهود في وجه مقاومة سورية شديدة، ثم اضطروا الى الانسحاب بعد أن استولوا على بعض النقاط. وقيل ان من أهم أسباب تراجعهم، ما بلغهم من ان قوة سورية أخرى أخذت تهدد مستعمرة روشبينا (شمال شرقي صفد). وفي صباح اليوم التالي عمد السوريون الى القيام بهجوم معاكس تدعمه المدفعية والطائرات فألحقوا باليهود خسائر جسيمة، واستعادوا جميع النقاط التي كانت لهم على الضفة الغربية من نهر الأردن. وفي الوقت نفسه قام اللواء السوري المتمركز في المرتفعات بمهاجمة وحدات العدو التي اجتازت النهر شرقاً، وأرغمتها على التراجع الى مواقعها الأصلية.

بعد ثلاثة أيام عاد اليهود لمهاجمة المستعمرة مرة ثانية، ولكن القوات السورية لم تمكنهم من احراز أي تقدم. وحلت الهدنة والمستعمرة في أيدي السوريين.

يجدر بي أن أذكر هنا أن قائد القوات السورية في هذه المعركة كان الزعيم حسني الزعيم، الذي شجعه نجاحه في تلك المعارك الدفاعية على القيام بانقلاب عسكري ضد الحكومة الشرعية بعد ذلك بتسعة أشهر.

ولم تقم القوات السورية بأية عمليات تعرضية ضد العدو في اثناء فترة القتال الثانية.

الجيش اللبناني وجيش الانقاذ: وقفت القوات اللبنانية لا تحرك ساكنا على خط الحدود الدولية مع فلسطين، في الوقت الذي كان فيه رئيس وزراء لبنان يدعو الى

الاستمرار في الحرب وعدم قبول الهدنة. وقد كان اليهود يقدرون ان اللبنانيين لا يخططون للقيام بأية عمليات عسكرية، ولذلك لم يخصصوا لجبهتهم مع لبنان سوى قوات الدفاع المحلية عن المستعمرات.

اما بالنسبة لجيش الانقاذ فقد كان الوضع مختلفا. فذلك الجيش كان يتمركز في منطقة الجليل، من مدينة الناصرة حتى حدود لبنان، وهي منطقة كان العدو يعتبرها مهمة بالنسبة له، وكان يعتبر ان الاستيلاء عليها عملية هينة نسبيا، لان قوات الانقاذ لم تكن تزيد على ٢٢٠٠ رجل ولا ترتفع في مستواها العسكري الى مستوى القوات النظامية سواء في قيادتها أو تدريبها أو تسليحها.

وضع الاسرائيليون خططهم لمهاجمة قوات الانقاذ والاستيلاء على الجليل، واقتضت تلك الخطط ان يكون الهجوم من جهة عكا الى الشرق ومن جهة العفولة الى الشمال.

وكما يبدو، لم يكن القاوقجي يتوقع أن يهاجمه العدو، فحشد قوة منتخبة من جنوده وبدأ يوم ٩ تموز يهاجم قوات العدو في قرية الشجرة (على الهضاب بين الناصرة وطبريا). واستمر الهجوم ثلاثة أيام دون احراز أي تقدم.

ولكن العدو كان يعمل في الوقت نفسه على تنفيذ خطته. ففي ٩ تموز تحركت ثلاث كتائب له من جهات عكا وأخذت تتقدم باتجاه الشرق والشمال، فاستولت على شفا عمرو، ثم استمرت في زحفها نحو الناصرة حيث خاض القاوقجي معركة دفاعية غير متكافئة ضدها. وفي مساء يوم ١٦ تموز أخذت طلائع العدو تدخل الى الناصرة، بينما كانت قوات الانقاذ تنسحب باتجاه الشمال.

وهكذا سقط الجزء الأكبر من منطقة الجليل في أيدي العدو، تلك المنطقة التي تركتها القيادات العربية – كما تركت اللد والرملة – في يد قوات ضعيفة لا تستطيع حمايتها والدفاع عنها.

ومن غرائب تعدد القيادات العربية أن الجيش العراقي طلب في يومي ١٠ و ١١ تموز من جيش الانقاذ ان يقوم بالهجوم على العفولة – دون ان تعلم قيادته ان قوات ذلك الجيش كانت تشتبك مع العدو في معركة مريرة في الشجرة، وان ثلاث كتائب للعدو كانت تتقدم نحو مواقعه وتستولي على القرى التي كانت في عهدته.

ومن غرائب تلك الفترة ايضا انه بينما كانت ثلاثة ألوية للعدو تقوم بتطويق اللد

والرملة، وبينما كانت القيادة الأردنية تبذل كل ما في الوسع لانشاء خط دفاعي في المنطقة الممتدة بين بيت نبالا واللطرون – أخذت القيادة العراقية تطلب من الجيش الأردني ان يقوم بهجمات معاكسة على العدو لاستعادة الأماكن التي احتلها. !!

نتائج فترة القتال الثانية

تمخضت فترة القتال الثانية عن مكاسب كبيرة للعدو الاسرائيلي، فقد استولى على مدينتي اللد والرملة والقرى المحيطة بهما، واستولى على منطقة واسعة من الجليل تتوسطها مدينة الناصرة، وأصبحت سيطرته كاملة على شريط عريض يربط تل ابيب بالقدس الجديدة، وعمل على تحسين مواقعه قبالة الجبهة المصرية، وحافظ على اتصاله مع مستعمرات النقب، وأنزل بجيش الانقاذ ضربة لم تقم له بعدها قائمة. وتمخضت هذه الفترة عن نتيجة معنوية مهمة وهي تعزيز الروح الهجومية عند العدو وظهور تلك الروح واضحة للعيان، بينما اقتنعت القيادات العربية بالركون الى الدفاع والمحافظة على ما كان بأيديها من أراض.

وفي هذه الفترة ظهرت قوة العدو الجوية، وتمكنت طائراته من القاء قنابلها على ثلاث عواصم عربية: القاهرة ودمشق وعمان. وبينما كانت الجيوش العربية تعاني من قلة العتاد، كان العدو يتلقى سيلا من الطائرات والمدافع والذخائر والدبابات وجميع أنواع المعدات والأجهزة العسكرية، وكان تدريب وحدات جديدة يجري بسرعة محمومة. وتدل الاحصاءات ان قوات العدو العاملة كانت تبلغ ٤٩ الفا عند بدء الهدنة الأولى، فأصبحت ٥٩ الفا عند بدء الهدنة الثانية، ثم ظلت ترتفع حتى بلغت أكثر من ٩٠ الف رجل في منتصف شهر تشرين الأول.

ويقول كمشي ان القوات اليهودية استولت في خلال الايام العشرة (فترة القتال الثانية) على ألف كيلو متر مربع من الأراضي التي كانت بأيدي العرب، وانها استولت في خلال فترتي الحرب (٣٨ يوماً) على ١٤ مدينة وعلى ٣١٣ قرية من مدن العرب وقراهم. اما العرب فاستولوا على ١٤ موقعا لليهود (بما فيه الحي اليهودي في مدينة القدس القديمة).

في هذا الصدد يقول الفريق جلوب:

سار الشهر الأول من الحرب لمصلحة العرب. ثم جاءت الهدنة ورفضت بريطانيا تزويد العرب بالسلاح والمال. ولكن على الرغم من ذلك أصر العرب على استئناف

القتال. عارض الأردن ولكن لم يصغ اليه أحد. في فترة القتال الثانية كان العرب هم الخاسرون. ولكن وضعهم كان ما يزال حسنا عندما حلت الهدنة الثانية في ١٨ تموز، اذ كانوا يسيطرون على أربعة أخماس أرض فلسطين، بينما كان اليهود يسيطرون على الخمس الباقي (٢٩).

وقد أدى اخفاق العرب الى ان كل دولة منهم أخذت تلتمس الأعذار لنفسها وتتهم الدول الأخرى – أو بعضها – بالتقصير. ثم تحول الاتهام بالتقصير الى الاتهام بالخيانة. ومن المؤسف والمؤلم ان حملة الاتهامات المتبادلة لم ترافقها حملة تستهدف تصحيح الأوضاع.

ولا بد من الاشارة الى ان خسارة العرب لم تقتصر على ضياع المدن والقرى، بل ان عشرات الآلاف من سكان تلك المدن والقرى أخرجوا من ديارهم بالقوة والارهاب، فتفاقمت بذلك مشكلة اللاجئين، وامتلأت النفوس بشعور المرارة والحقد – ليس ضد اليهود والأمم التي ساعدتهم فحسب، بل اتجه ذلك الشعور بين العرب ضد بعضهم البعض. وكان ذلك من أشد جوانب المأساة ضررا على المدى البعيد.

وقبل العرب الهدنة وهم يأملون ان يبادر مجلس الأمن، ومن ورائه الجمعية العامة للأمم المتحدة، الى وضع حل ما يمكن القبول به. كان هناك اعتقاد بامكان تنفيذ قرار التقسيم بعد تعديله لمصلحة العرب. وكان هناك اعتقاد بأن اليهود يتلهفون على السلام والرضى برقعة من الأرض مهما كانت صغيرة. ولكن لم يلبث أن تبين أن العرب – ومعهم كثير من شعوب العالم – كانوا واهمين، وكانوا على خطأ كبير في تحليل العقلية اليهودية المتشبعة بتعاليم التوراة وعقيدة الشعب المختار.

حقاً لقد انتهت الحرب دون تحقيق الهدف الذي أقدمت الدول العربية على خوضها من أجله: الا وهو انقاذ فسطين من الغزوة الصهيونية. وعندما حلت الهدنة بأمر من مجلس الأمن الدولي، اتجهت أفكار العرب وأفكار المجتمع الدولي نحو تحقيق السلام في فلسطين. أجل، كانت أفكار العرب تتجه نحو تحقيق نوع من السلام يحفظ حقوق العرب الفلسطينيين. ولكن أفكار الطرف الآخر كانت أبعد ما تكون عن الاتجاه نحو السلام، لانها كانت تؤمن بالحرب، وتستعد للحرب، وتعمل لليوم الذي تستأنف فيه الحرب.

حواشي الفصل السابع

١ - Trevor N. Dupuy: Elusive Victory, Harper & Row, New York, 1978, p. 75

٢ - رسالة جلوب الى عارف العارف بتاريخ ١٩٥٥/٢/١٥، النص في الجزء الثالث من كتاب (النكبة) ص ص ٦١٦-٦١٨. ولا يختلف ما جاء في هذه الرسالة عما جاء في كتاب جلوب (جندي مع العرب)، ولكن أهميتها تنبع من انه اعلن فيها على رؤوس الاشهاد سياسة الحكومة تجاه اللد والرمله، بينما كان ما يزال في خدمة الحكومة الاردنية وكان توفيق ابو الهدى ما يزال على قيد الحياه.

٣- حدثني محمود علاء الدين عن هذه المسألة فقال:

جاءني ذات يوم الملازم بروميج وقال: اردت ان اهاجم مستعمرة بن شيمن ولكن رئيس بلدية اللد مانع في ذلك اتصلت بالكيالي مستوضحا، فقال: نعم، لان بعض اعضاء اللجنة القومية يعارضون حتى لا تثير اليهود ضدنا. على الاثر ذهبت انا وبروميج الى اللد واجتمعنا بالكيالي واعضاء اللجنة القومية، واقنعناهم بضرورة مهاجمة المستعمرة (التي تقع على مسافة ٤ كيلو مترات شرقي اللد) فاقتنعوا. ثم اتفقنا مع بروميج على مهاجمة المستعمرة بقوة مشتركة، ولكن بروميج ذهب ولم يعد.

٤- يؤكد عبد الله التل في صفحة ٢٧١ من كتابه (وهو من اشد منتقدي جلوب لانه لم يدفع الكتيبة الاولى الى اللد والرملة) على أهمية المبدأ العسكري القائل بان كل قوة تشترك في قتال يجب ان تعتمد بالدرجة الاولى على احتياطي لايقل عن ثلث عدد أفرادها وأسلحتها.

٥- ان تعيين و. ق. ادريس سلطان «وكيلا» للحاكم العسكري، يدل على انه عين من قبل قيادة الجيش، ريثما تقوم الحكومة بتعيين حاكم عسكري اصيل.

اما النائب على السوفاني فهو علي المحمد العتوم، وقد ابلى بلاء حسنا في حرب ١٩٤٨، واحرز وسام الخدمة المخلصه، ثم ارتقى في الخدمة العسكرية الى رتبة نقيب. ونسبة (السوفاني) تعود الى بلدته (سوف) القريبة من جرش.

٦- كان قائد اللواء الرابع قد ارسل ١٨ صندوق عتاد الى اللد والرملة صباح يوم ٩ تموز، مع تعليمات بتوزيع ١٢ صندوق على مناضلي اللد و٦ صناديق على مناضلي الرملة.

٧- Moshe Dayan: Story of my life, Sphere Books Ltd. London. 1976, PP. 97-117

٨- كان القائد بلاكدن ومساعده جراي قد نقلا الى شرقي الاردن في ٣٠ ايار طبقا لأوامر وزارة خارجية بريطانيا

٩- كارثة فلسطين، دار القلم، القاهرة، ١٩٥٩ ص٢٤٩.

١٠- عن رسالتين من الفريق جلوب الاولى بتاريخ ١٩٨٠/١٢/١٠ والثانيه بتاريخ ١٩٨١/١/١٤.

١١- الجزء الثاني، ١٩٦٧، منشورات المجلة العسكرية العراقية، صفحة ٦٠. اما المحادثة الشفوية بيني وبين المؤلف فكانت في بغداد بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩٨١

١٢- كان من بين الذين مروا بطريق الالام تلك رجل متقدم في السن يحمل طفلا رضيعا، وكلاهما في حالة اعياء. تاثر محمود التل احد رجال الكتيبة الاولى لهذا المنظر، وسأل الشيخ فأجابه والدموع تسح من عينيه انه اخذ الطفل من حضن امه التي كانت قد فارقت الحياة. حمل محمود ذلك الطفل وأخذه الى مستشفى الميدان في رام الله وهو بين الحياة والموت هناك اشفقت عليه السيدة كرستينا جونز (زوجة مدير مدرسة الفرندز في رام الله) وأسعفته حتى انتعش، ثم اخذه التل بعد ذلك الى بلدته اربد وتبناه وأطلق عليه اسم (جهاد) وعني بتربيته حتى اصبح رجلا.

١٣- الفريق الجبوري: محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية، صفحة ٢٣٥، هاشم الدباس (مرافق الملك عبد الله حينذاك): مقالة في جريدة الدفاع، عمان، بتاريخ ٢١تموز ١٩٦٧، وعارف العارف: النكبة، الجزء الثاني صفحة ٥١٦. اما الفريق جلوب فقد نفى باستنكار ان يكون أوصى للملك عبد الله بالانسحاب من فلسطين، قائلا انه هو الذي نظم تشكيلات الحرس الوطني للدفاع عن القرى الاماميه. (رسالتان منه لي بتاريخ ١٩٨٠/١٢/١٠ و ١٩٨١/١/١٤).

١٤- نجد مثالا على اطلاق الاتهامات مما ورد في الجزء الثالث من كتاب (النكبة) من ان الجنود الأردنيين غادروا مدينة اللد « دون ان يشتركوا في قتال مع اليهود»، وان المجاهدين الأردنيين انسحبوا من الرملة في ٢٢ ايار « دون ان يقوموا بعمل يذكر»، وان الجنود كانوا يشرون عتادهم « يوما فيوما» اما من الاهالي اومن البلديه، وانهم لم يقوموا «بأي عمل يذكر لا في الرمله ولا فيما حولها من بقاع».
(الصفحات ٦٠٢، ٦٠٧، ٦٠٩) علما بأن المؤلف نفسه يقول في الصفحة ٦٠٩ ذاتها ان رجال الجيش العربي خاضوا مع العدو (بالاشتراك مع رجال الشرطة والمناضلين) معركة حامية .. انتهت باندحار اليهود الى الوراء، وحرق اربع مصفحات من مصفحاتهم...!! فاذا غفرنا للمؤلف اضطراب نصوصه وتناقضها، فكيف نفسر توجيه اتهامات باطلة لرجال واجهوا الموت في قتال العدو؟.

١٥- للذين يكتبون التاريخ أقدم القصة التالية لما فيها من عبرة (لمن يشاء ان يعتبر): حدثني العقيد ادريس سلطان (٧ كانون الثاني ١٩٨٢) ان جريدة (الفيحاء) الدمشقية كانت نشرت على صفحاتها بعد سقوط اللد والرملة انه - ادريس- رفض الانصياع للأمر الذي صدر له بالانسحاب من المدينتين، وانه - عندما قسر على الانسحاب - أطلق النار على نفسه وانتحر، احتجاجا على التخلي عن المدينتين
وقد تاثر الملك عبد الله لتلك القصة المختلقة. وبعد انتهاء الحرب، كلفه فوزي الملقي وزير الدفاع الاردني بالذهاب الى دمشق وايضاح الحقيقة لنصوح بابيل، صاحب جريدة (الايام) وأعطاه كتابا بهذا المعنى لنصوح بابيل وذهب ادريس سلطان الى دمشق فعلا واجتمع بنصوح بابيل، وبين له انه لم ينتحر، وان الانسحاب كان لضرورات عسكرية، ولكن بابيل لم يشأ ان يكذب خبر الجريدة الاخرى، وبقي ما جاء فيها مصدرا للمؤرخين الذين في كل واد يهيمون!!.

١٦- محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٧٠، ص ص ٢٧٠-٢٧١.

١٧- يقول العقيد ديبوي (صفحة ٧٨ من كتابه) ان لواء هارل قام في ليلة ١٥/١٤ تموز بالهجوم على تلة الرادار مستهدفا تحويل انظار القيادة الأردنيه عن اتجاه الهجوم الحقيقي. ومن الواضح انه خلط بين موقع الرادار (الكتيبة الخامسة) وموقع يالو (الكتيبة الرابعة) اضف الى ذلك ان العدو لم يقم بالهجوم من الجهتين في وقت واحد، اذا ان الكتيبة الرابعة دحرته من يالو ليلة ١٦/١٥ تموز، واستطاعت الكتيبتان الأولى والثانية ان توقفا زحفه في ايام ١٦و ١٧و١٨ تموز في معارك البرج وقوله وراس كركر واللطرون.

١٨- نقل حمدان بعد اصابته الى مركز اسعاف الميدان، ثم الى المستشفى العسكري في رام الله، ثم الى المستشفى الرئيسي في الزرقاء. أبلغه الطبيب ان اكثر من مائة شظية دخلت في جسمه، بقي تحت العلاج مدة من الزمن حتى شفي، ولكن بعض الشظايا بقيت في جسمه، أصيبت ركبته اليمنى وساقه بكسور، وتركت الجراح العميقة آثارا دائمة في رجليه. زاره الفريق جلوب وهو في المستشفى وقال له: مبروك يا حمدان، هذه أحسن أوسمه، أثنى عليه في كتابه وكان مما قاله ان حمدان بدأ الخدمة قبل ١٥ سنة مع قوة الباديه « يومذاك كان ولدا صغير الحجم بشعا، ولكن المظاهر كثيرا ما تخدع، فقد كان لحمدان قلب اسد» اما السائق سعيد طرجم، فقد شفي ايضا بعد ضياع عينه، ولم يعد الى قيادة السيارات بل تحول الى ميكانيكي في مشاغل الجيش.

١٩- في ذلك اليوم استشهد من بني صخر الجنود: عبد اللطيف مفلح، ومصلح فليح فلاح، وفالح مطلق محمد.

٢٠- يقول محمود الروسان ان الكتيبة الثانية لم تعط للطائرتين الاشارة المتفق عليها.

٢١- كان جزاع اسود اللون، ولكنه كان شجاعا ابيض الفعال.

٢٢- كان عبد الله الشويعر قد عرف الحروب في بلاده نجد وفي صفوف الجيش السوري - الفرنسي. وقد التحق بقوة البادية الاردنية بعد ان وقع في الاسر في معركة السخنة (قرب تدمر). ومنح وسام الاقدام. وهو والد المقدم صالح الشويعر الذي استشهد في جنين في حرب ١٩٦٧.

٢٣- بعد حرب ١٩٦٧ قامت سلطات العدو بتدمير القرى الامامية الثلاث: عمواس ويالو ودير ايوب، وجعلت من المنطقة موضعا لاستقبال السياح. واطلقت عليها اسم (متنزهات كندا).

٢٤- افدت في تسجيل هذه التفاصيل من يوميات كان يكتبها الملازم عيسى مفضي تادرس، وتكرم فأطلعني عليها.

٢٥ - لم يهتم العالم المسيحي في الغرب بما اصاب الأماكن المسيحية من دمار على ايدي اليهود، ولم يضطرب ذلك العالم لاستيلائهم على ٤٦ مؤسسة دينية مسيحية في القدس وحدها (راجع قائمة بتلك الاماكن في كتاب النكبة، لعارف العارف، الصفحات ٦٣٢- ٦٣٤).

٢٦ - يقول عارف العارف (ص ٦١٨- ص ٦١٩) ان قصف اليهود خلال ايام ١١- ١٣ تموز ادى الى مقتل خمسة من افراد الجيش العربي و ٢٦ من المدنيين بالاضافة الى اصابة عشرين بجراح.

٢٧ - الصفحات ٢٩٣- ٢٩٦ **Lorch : The Edge of the Sword**.

٢٨ - الجبوري : محنة فلسطين، ٢٣٣.

٢٩ - عن محاضرة القاها جلوب يوم ٦ ايار في لندن. وعندما انتهي جلوب من محاضرته وقف اللورد هول، لورد الأميرالية الأول، وأعلن سخطه قائلا : ان جلوب يهدف الى القيام بهجوم مبطن على الحكومة الحالية في بريطانيا، وانه سيبلغ وزارة الخارجية بذلك. وبعد ثلاثة ايام قدم جلوب نص المحاضرة الى وزارة الخارجية مع رسالة ايضاح. دار الوثائق البريطانية، الملف **F. O. 371/75295**.

الفصل الثامن

من الهدنة المؤقتة الى الهدنة الدائمة

يا لَهفَ نَفسيَ إن كانتْ أمورُكمُ ... شتّى وأُحكِمَ أمرُ النّاسِ فاجتمعا

ألا تخافونَ قوماً لا أبا لكمُ ... أمسوا إليكم كأمثالِ الدَّبا سُرُعا

في كلِّ يومٍ يسنّونَ الحِرابَ لكم ... لا يهجعونَ اذا ما غافلٌ هجعا

لقيط بن يعمر الإيادي

هناك أناسٌ كثيرون يقاتلون في فلسطين ، ولكن لا يوجد الا جيش واحد هو الجيش العربي .

برنادوت

مشاريع برنادوت

أشرت في الفصل السابق الى قرار مجلس الأمن الدولي الذي أمر فيه أطراف النزاع في فلسطين بالتوقف عن القتال، وبأن تظل حالة الهدنة قائمة «الى ان توجد تسوية سلمية للوضع في فلسطين». وكان الوسيط الدولي الكونت برنادوت قد اتخذ من جزيرة رودس مركزاً له، ومن هناك أخذ يتنقل بين العواصم العربية وتل ابيب ومقر هيئة الأمم في محاولة منه للتوصل الى ايجاد صيغة للتفاهم بين العرب واليهود. وفي الأسبوع الأخير من شهر تموز والأسبوع الأول من شهر آب اجتمع برنادوت بعدد من أقطاب الدول العربية، وبعض زعماء اليهود، فتبين له ان شقة الخلاف بين الطرفين كبيرة: فالعرب لا يقبلون الاعتراف بالأمر الواقع والقبول بوجود دولة يهودية في فلسطين، واليهود (الذين انتفخت أوداجهم – على حدّ قول برنادوت – بعد الانتصارات التي أحرزوها في فترة القتال الثانية) اشترطوا أن يتفاوض العرب معهم حول مائدة مستديرة وأن يقبلوا بوجود اسرائيل دولة مستقلة الى جانبهم على قدم المساواة معهم. وسعى برنادوت سعياً حثيثاً لاقناع الطرفين بتجريد القدس من السلاح، ووافق الأردن على ذلك (قائد الجيش الفريق جلوب)، شريطة ان يعود العرب للأحياء التي يملكونها في القدس الجديدة. ولكن اليهود رفضوا ذلك. واقتنع برنادوت « **أن اسرائيل لا تنطوي على حسن النية، وأن طلبات اليهود عبارة عن سلسلة لا أول لها ولا آخر**».

على أن برنادوت أصبح مقتنعاً بأنه لا بدّ لهيئة الأمم من أن تتدخل بصورة أكثر جدية وقوة، لكي تلزم الفريقين بقبول حل وسط، مع اجراء تعديلات على خطوط قرار التقسيم. وقد لمس الوسيط من زياراته لعمان والقاهرة وبيروت ان العرب أصبحوا يدركون صعوبة

الحيلولة دون قيام الدولة اليهودية. كما لمس الاهتمام بمصير الأجزاء الباقية للعرب من فلسطين. وبينما أكد رئيس وزراء الأردن لبرنادوت ان الأردن على استعداد للموافقة على أي قرار تصدره هيئة الأمم بهذا الشأن، نرى النقراشي رئيس وزراء مصر يقول بانشاء دولة عربية مستقلة من تلك الأجزاء، وانه لا يجوز ان تقتسم الأقطار العربية أجزاء فلسطين فيما بينها، كما ان ضمها الى الأردن غير مقبول لأن « **من شأنه ان يفسد التوازن القائم بين الأقطار العربية المجاورة**». !!

وعكف برنادوت بعدئذ على وضع تقرير لم يلبث ان قدمه في ١٦ ايلول الى تريجفي لي الأمين العام لهيئة الامم. وجاء في ذلك التقرير انه لم يستطع التقريب بين وجهات نظر الطرفين، وان على هيئة الأمم ان تسرع في ايجاد الحل المناسب وان تعمل على تنفيذه. وتضمن التقرير نقاطاً أساسية تتعلق بتعيين حدود الدولة اليهودية واعادة اللاجئين ومنح مدينة القدس معاملة خاصة بسبب أهميتها. أما تواصيه فقد تضمنت – من بين ما تضمنت – ما يلي:

- اعطاء النقب للعرب
- اعطاء اللد والرملة للعرب
- اعطاء الجليل لليهود
- يقرر مصير الأجزاء الباقية للعرب بالتشاور بين الدول العربية وأهل فلسطين. (وهنا أعرب برنادوت عن رأيه بضرورة الحاق تلك الأجزاء بالأردن لما بين فلسطين والأردن من روابط تاريخية ومصالح مشتركة).
- يكون ميناء حيفا ومطار اللد – منطقتين حرتين
- توضع القدس تحت اشراف هيئة الأمم المتحدة
- تأكيد حق اللاجئين في العودة الى ديارهم.

كان برنادوت في بيروت يوم ١٦ أيلول. وفيما كان تقريره في طريقه الى باريس – حيث كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة تعقد اجتماعاتها – تحرك هو من بيروت الى دمشق، ثم وصل الى مطار قلندية في صباح اليوم التالي (الجمعة ١٧ ايلول) ومن هناك تحرك بالسيارة الى رام الله ومنها الى القدس. وبعد أن تناول طعام الغداء مع ضباط الكتيبة الخامسة (١) اجتاز خط وقف اطلاق النار الى المنطقة التي يسيطر عليها اليهود، وهناك

اعترض سيارته ثلاثة من أفراد عصابة شتيرن الارهابية وأطلقوا عليه النار فقتل على الفور وقتل معه الكولونيل الفرنسي (سيرو) كبير المراقبين الدوليين في الجانب العربي، وكان ذلك بعيد الساعة الثانية بعد الظهر. وقد تبين فيما بعد ان القتلة كانوا يخططون لاغتيال برنادوت منذ نشر مشروعه الأول الذي أوصى فيه بأن تكون القدس كلها للعرب. ومع ان حكومة اسرائيل استنكرت حادث الاغتيال علنا الا انها في الواقع تسترت على القتله، ولم تلبث أن تركتهم أحرارا.

لم تتخذ هيئة الأمم اجراء رادعا ضد السلطات الاسرائيلية، وأخفق المجتمع الدولي في معاقبة الدولة التي أوجدها. ومن هنا ازداد اليهود صلفا وتعنتا، وأخذوا يعدون الخطط للقيام بمزيد من الاعتداءات.

يقول الفريق جلوب في هذا الصدد:

« كان مصرع برنادوت ذا تأثير مهم على مجرى الحوادث، لان الأمم المتحدة لم تتخذ أي اجراء ضد الاسرائيليين. بدا للجميع عجز الأمم المتحدة. واتضح لليهود ذلك العجز فأخذوا يتصرفون على هواهم. وأخذ مراقبو الأمم المتحدة درسا بليغا، اذ أيقنوا انهم اذا وقفوا الموقف العادل المطلوب فسيكون مصيرهم مثل مصيره».

نُشرت توصيات برنادوت يوم ٢٠ أيلول. وقد بادرت بريطانيا الى تأييدها وأبرق وزير خارجيتها (ارنست بيفن) الى الدول العربية يحثها على قبول المقترحات ويعد بأن تعمل حكومته بجدية لكي توافق هيئة الأمم عليها. وأيدت وزارة خارجية أمريكا المقترحات بدورها وأبرقت الى الدول العربية واسرائيل تحثها على قبولها. ولكن العرب أعلنوا أنهم لا يستطيعون قبول التوصيات: صرح بذلك الامير فيصل آل سعود وعبدالرحمن عزام ومحمود فوزي (رئيس وفد مصر في هيئة الأمم). أما اليهود فقد تريثوا أكثر من اسبوع ثم أعلن وزير خارجيتهم شرتوك انهم يقبلون مشروع برنادوت «كأساس للبحث»، ولكنهم لا يستطيعون الاستغناء عن النقب ولهم فيه ٢٢ مستعمرة. وهب الرئيس ترومان لموازرة اليهود وأعرب عن قلقه لان وزير خارجية امريكا (مارشال) أكد على ضرورة قبول مشروع برنادوت «بتمامه». وفي عمان بدا للمثل الأمريكي (ستابلر) ان الملك عبدالله وحكومته سيوافقان على توصيات برنادوت اذا قبلتها هيئة الأمم وفرضتها بقرار منها. ولكن الملك في الوقت نفسه لم يكن يرى ان يتخذ موقفا منفردا، وانه سيقبل القرارات التي

تتوصل اليها أغلبية الزعماء العرب. ومع مضي الوقت اشتدت معارضة مصر للمقترحات، لاعتقاد حكومتها ان بريطانيا تريد بسط نفوذها على النقب وأجزاء فلسطين الأخرى عن طريق ضمها الى الأردن. ومن المفارقات ان اليهود وجهوا الاتهام نفسه الى بريطانيا (٢).

ظهر تقصير هيئة الأمم بأجلى صوره في خلال الأشهر الثلاثة التي أعقبت الهدنة الثانية. كان الواجب يحتم على تلك الهيئة ان تتخذ اجراء فعالا لاحلال السلام في فلسطين. ومضت أسابيع والحديث يدور حول مقترحات برنادوت. وبينما اكتفى العرب بالرفض (ظنا منهم انه لن يحدث أسوأ مما حدث) أخذ اليهود يعملون على الجبهة السياسية لاقناع الدول الأعضاء في الجمعية العامة بأن منطقة النقب من حقهم بعد أن أعطاها قرار التقسيم لهم، معتبرين أن الجليل أصبح من حقهم ايضا بحق الفتح العسكري. ولكن جهد اليهود الفعال تركز في الاستعداد الحربي للسيطرة على النقب ووضع العالم مرة أخرى أمام الأمر الواقع.

الهدنة المضطربة

عندما بدأت الهدنة الثانية مساء يوم ١٨ تموز، ساد الاعتقاد عند معظم قادة العرب بأن مجلس الأمن سوف يعمل جادا من أجل ايجاد تسوية معقولة تتضمن ارغام اليهود على العودة الى حدود التقسيم مع ابقاء النقب للعرب واعادة اللاجئين الى ديارهم، وبأن ذلك المجلس سوف يفرض تلك التسوية فرضا فلا يظهر أولئك القادة أمام ابناء بلادهم بمظهر المفرطين بحقوق الوطن. ومن الانصاف القول ان الحيرة كانت تسيطر على نفوس العرب، بحيث بدا واضحا انهم لم يكونوا يعرفون ماذا يجب ان يفعلوا. والذي يطالع رسالة رياض الصلح الى مزاحم الباجچي وهي مؤرخة في ١٤ آب ١٩٤٨، يستطيع ان يتعرف على لمط من التفكير الرومانتيكي البعيد عن الواقعية. فهو يقول «انه لا مناص من القتال»، ولكنه يبني قوله هذا على أساس قيام الجيش العراقي بالعبء الأكبر من مسؤولية القتال – دون أن يلقي بالا للتناقض الذي وقع فيه وهو يؤكد « اصرار القائدين نور الدين محمود باشا وصالح صائب باشا على عدم الاستمرار في القتال»، ودون ان يلقي بالاً لتأكيدات الملك عبدالله له بأن الجييش الأردني لا يستطيع استئناف القتال لعدم وجود عتاد لديه. ونحن نرى رياض الصلح في رسالته تلك يحاول اقناع رئيس وزراء العراق بأن « مفتاح القضية أصبح الان في يد العراق»، مع أن أهل مكة أدرى بشعابها، ورئيس وزراء العراق أكثر

دراية من سواه بامكانات جيش بلاده. ومن المفيد تاريخياً الوقوف عند قول رياض الصلح: ان مفتاح القضية كان في يد شرق الأردن في بدء القتال، وان ذلك المفتاح انتقل من شرق الأردن الى يد مصر عندما قبلت الهدنة الأولى في اجتماع اللجنة السياسية بعمان.

ومثال آخر على التفكير الرومانتيكي غير الواقعي، مطالبة بعض زعماء العرب الملك عبدالله بأن يخرج القواد الانكليز من جيشه – ناسين ان الجيش الأردني يعتمد في حصوله على سلاحه وعتاده ونفقاته على وجود أولئك القواد، وان الجيوش العربية الأخرى لم تستطع ان تفعل – تحت قيادة الضباط العرب – مثلما فعل الجيش الأردني تحت قيادة الضباط الانكليز. والحقيقة ان المشكلة لم تكن في وجود الضباط الانكليز في الجيش الأردني – الصغير نسبيا – **بل كانت تكمن في ان الامة العربية لم تخرج جميع قواها ولم تلق بثقلها كله في الميدان** – على حد قول الملك عبدالله لرياض الصلح. (٣)

وهناك نموذج آخر من نماذج اجتهادات الزعماء العرب. ففي أوائل آب ١٩٤٨ قدمت الهيئة العربية العليا مذكرة الى الجامعة العربية حول وضع اللاجئين، وفيها ترفض رفضا باتا اعادتهم الى المناطق التي يسيطر عليها اليهود. وكانت حجج تلك الهيئة ان اعادتهم (١) تؤلف اعترافا بالدولة اليهودية (٢) تضعهم تحت رحمة اليهود (٣) تتيح المجال لليهود لاستغلال اللاجئين لغاياتهم [اليهود] السياسية وربما لكسب أصواتهم اذا حدث استفتاء عام (٤) تضعهم على هامش الاقتصاد اليهودي.

اننا نستطيع اليوم أن نقول ان ذلك الطراز من التفكير كان بعيدا عن الواقع، ولكننا يجب ان نعترف ان العرب – شعبا وزعماء – كانوا يومذاك في حالة تشبه الذهول.

أما العدو، فان الأحداث التي أعقبت الهدنة تبرهن على أنه كان يعرف ما يريد وعلى أنه لم يكن حائراً أو متردداً.

ولم يكن كل ذلك بلاهة بالنسبة للعرب وعبقرية بالنسبة لليهود، بل كان ينبع في أعتقادي من سبب رئيسي ألا وهو أن اليهود كيان واحد يستطيع أن يتخذ قرارا واحدا، وان العرب كانوا سبعة كيانات ولا يستطيعون أن يتخذوا قرارا واحدا، واذا اتخذوا ذلك القرار الواحد فلم يكن بمقدورهم أن ينفذوه بدرجة واحدة.

× × ×

ومهما يكن من أمر فانه يجدر بي أن أعطي صورة عن الوضع في جبهة الجيش

الأردني، في أثناء الشهور الثلاثة التي ظلت فيها الهدنة قائمة على خطوط ١٨ تموز:

لم يتوقف اطلاق النار تماما، اذ كانت هناك حوادث قنص من الجانبين، وقصف بالهاونات بين الحين والآخر. وقد عمل المراقبون الدوليون في القدس على عقد اجتماع في ٢١ تموز بين وفد عسكري أردني برئاسة عبدالله التل ووفد عسكري اسرائيلي برئاسة شالتئيل. وفي ذلك الاجتماع تم التوقيع على خرائط خطوط الهدنة التي نظمها أولئك المراقبون لبيان مواقع الطرفين والمناطق الحرام التي تفصل بينهما.

وبادر اليهود الى التقدم بسلسلة من المطالب عن طريق الوسيط الدولي. وكان أول مطالبهم ايصال مياه رأس العين الى الأحياء اليهودية في القدس، التي كان مائة ألف يهودي فيها يعانون الأمرّين من قلة الماء. وكانت مياه رأس العين تأتي بالأنابيب، مرورا بمحطة كبيرة للضخ في اللطرون تدفع الماء بقوة كي يصل الى القدس عبر المرتفعات. وفي أثناء القتال قام العرب بنسف أجزاء من تلك الأنابيب، بينما بقيت محطة الضخ تحت سيطرة أسلحة الجيش الأردني. ومن هنا نرى ان استيلاء اليهود على بلدة رأس العين في فترة القتال الثانية، لم يكن كافياً لتأمين وصول الماء الى القدس، اذ كان لا بد قبل ذلك من اصلاح الأنابيب وموافقة الأردن على تشغيل آلات الضخ. وفي ٥ آب رفضت الحكومة الأردنية الموافقة على طلب اليهود ذاك، الا اذا وافقوا بدورهم على اعادة عرب القدس الى منازلهم وأحيائهم، والا اذا وافقوا على تجريد المدينة من السلاح.

وبذل برنادوت كل ما كان في وسعه من أجل تزويد القدس الجديدة بالماء، فقرر وضع محطة الضخ تحت اشراف المراقبين الدوليين، على أساس أنها تقع في منطقة حرام بين مواقع العرب في اللطرون ومواقع اليهود في قرية القباب. وفي أوائل آب قام برنادوت بزيارة المحطة، ثم أمر جماعة من المراقبين بمرافقة بعض المهندسين اليهود للكشف على خط الأنابيب وتمكين اليهود من اصلاح ما دمر منها.

بعثت هذه الترتيبات استياءً وقلقاً في نفوس جنود الكتيبة الثانية وضباطها، وبلغت الحماسة حدها الأقصى في نفس الميجر جفري لوكت قائد الكتيبة الثانية التي كانت محطة الضخ تحت سيطرة أسلحة كتيبته، فعقد عزمه على نسف آلاتها الضخمة، وعاونه في ذلك الكابتن برومج. وقد استرشد لوكت في القيام بعمله باثنين من الفنيين من أهالي قرية عمواس كانا سابقا يعملان في المحطة، فاستدعاهما ثم أعد متفجرات من الواح مادة T. N. T.

ووضعها في صناديق وذهب الى موقع المحطة ومعه ثمانية من الجنود كقوة مسلحة لحمايته. وبعد تثبيت المتفجرات انسحب لوكت والمفرزة المرافقة له، ولم تلبث المتفجرات أن ثارت فكان لها دوي عظيم وصل الى رام الله. وأدى التفجير الى تدمير المضخات. وقد تمت عملية النسف ليلة ١١ آب، وكان من المقرر أن يبدأ العمل في اصلاح الانابيب وفي اعداد آلات الضخ للعمل، في اليوم التالي. ولم يلبث مراقبو الهدنة أن أقبلوا يسألون عن الأشخاص الذين قاموا بالعملية، فكان الجواب: لا نعرف (٤).

غضب اليهود اشد الغضب لتدمير آلات الضخ واتهموا الجيش الأردني بالقيام بها، بل ان الكولونيل بيري مراقب الأمم المتحدة في منطقة اللطرون لم يلبث ان قال ان عملية النسف قام بها الجيش العربي والمناضلون. وقد اعتبر اليهود هذا العمل خرقا للهدنة. ولولا انهم كانوا قد أنشأوا خط أنابيب آخر يزودهم بالماء من خلدة وعاقر (بجانب طريق بورما) لأصبح وضعهم في القدس في غاية الصعوبة.

في مساء اليوم التالي لنسف محطة الضخ قام اليهود بهجوم كبير على قطاع النبي داؤد وحي الثوري في القدس، ولكن الجيش العربي ردهم على أعقابهم وكبدهم جملة خسائر. وفي الصباح الباكر من يوم ١٦ آب شن العدو هجوما مركزا على حي الشيخ جراح ورأس المشارف، بينما مهدت المدفعية الثقيلة ومدافع الهاون لهذا الهجوم بقصف شديد. وكان قصد العدو الوصول الى مياه عين فارة (التي كانت تزود القدس القديمة بالماء) ولكن الكتيبة الثالثة تمكنت من صد الهجوم وكبدت المهاجمين خسائر فادحة. وعندما يئس هؤلاء من اختراق الجبهة أخذوا يمطرون حوض الماء الكائن على رأس التل الفرنسي (حيث تتجمع مياه عين فارة) بوابل من قنابل الهاون، حتى يدمروه ويقطعوا الماء عن الأحياء الباقية في أيدي العرب، ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق هدفهم. وامتد هجوم العدو الى حي الثوري وأبواب المدينة القديمة، الا ان جنوده ارتدوا مدحورين على أعقابهم.

وعاد اليهود للهجوم في الساعة العاشرة من مساء يوم ١٧ آب، على الأحياء الجنوبية من مدينة القدس. وانتشر خط القصف المدفعي من منطقة النبي داؤد حتى صور باهر، بما في ذلك سلوان والثوري وجبل المكبر ومواقع القوات المصرية. وركز العدو هجومه على جبل المكبر الذي كانت القوات الأردنية ترابط في جهته الشمالية، بينما ترابط القوات المصرية في جهته الجنوبية، ويتمركز المناضلون الفلسطينيون في جهته الشرقية. وقد مهد

اليهود لهذا الهجوم بقصف عنيف من المدفعية ثم تقدم مشاتهم فاستولوا على جبل المكبر بأكمله، واحتلوا مواقع القوات الأردنية والمصرية ودار الحكومة (التي كانت مقرا لمندوبي الصليب الأحمر الدولي)، كما احتلوا الكلية العربية. وتم كل هذا قبل فجر يوم ١٨ آب. وعمدت قوات الكتيبة السادسة بقيادة عبدالله التل الى القيام بهجوم معاكس في الساعة الرابعة من صباح ذلك اليوم، بالتعاون مع القوات المصرية والمناضلين من جماعة الجهاد المقدس. وأخذت مدفعية الجيش العربي من رأس العمود تقصف مواقع العدو وكذلك المدفعية المصرية، حتى اضطربت صفوف القوة المهاجمة. وعندما وصل جنود المشاة الأردنيون الى دار الحكومة أخذوا اثني عشر أسيراً، بينما أركن الباقون الى الفرار. وفي الوقت نفسه استرد المصريون والمناضلون المواقع التي خسروها. وانتهت هذه المعركة في الساعة الثامنة من صباح ١٨ آب، واستطاع جنود الجيش العربي ان يحتفظوا بموقع ذي أهمية بالغة، لو بقي فيه العدو لسيطر على طريق القدس – اريحا، وجعل القدس القديمة تحت رحمته. ويقدر عبدالله التل خسائر العدو في هذه المعركة بأكثر من ٥٠ قتيلاً، واصابة أكثر من ١٠٠ بجراح. اما خسائر العرب فكانت استشهاد اثنين من الجيش العربي وثلاثة مصريين وخمسة مناضلين.

اشتركت بطارية المدافع العراقية الموجودة في العيزرية بقصف مواقع اليهود، فاشتكى هؤلاء للمراقبين الدوليين أن القصف أصاب المناطق المأهولة بالسكان. وفي صباح اليوم التالي جاء الفريق جلوب الى العيزرية واستوضح من الملازم محمد خليل عبدالدايم عن حقيقة ما حدث. وكانت النتيجة ان البطارية أُلحقت منذ ذلك اليوم بقائد المدفعية هيرست، بعد ان كانت مرتبطة قبل ذلك بعبدالله التل قائد الكتيبة السادسة.

والواقع ان هجوم اليهود هذا كان من الخطورة بمكان. نرى ذلك في برقية بعث بها جون ماكدونالد قنصل امريكا في القدس الى وزارة خارجيته بتاريخ ١٧ آب:

الهدنة لم تعد قائمة في القدس نتيجة للقتال الذي نشب في المدينة وتطور في الليل الى قتال على نطاق واسع ومنظم بأسلحة ثقيلة... لا يستطيع المراقبون ان يفعلوا شيئا. سلطات اليهود تعرقل عملهم وتحد من حركاتهم ولا تسمح لهم بالدخول الى مناطق معينة، ولا تسمح لهم بزيارة الخطوط الامامية الا في اوقات خاصة. (٥)

وساور القلق نفوس المسؤولين الانكليز – وبالذات وزير خارجية بريطانيا بيفن. ففي

اجتماع بيفن مع سفير امريكا في لندن يوم ١٧ آب، أبدى الوزير تذمره من معارضة امريكا لقيام بريطانيا بتزويد قواتها المرابطة في الأردن والعراق بالسلاح الذي يمكنها من الدفاع اذا ما هوجمت. وقال بيفن ان اليهود استولوا على جبل المكبر. ثم خاطب السفير قائلا: ما دمتم لا تريدون ان نرسل سلاحا، الا تستطيعون اقناع الاسرائيليين بايقاف قبضتهم الحديدية التي يلوحون بها؟. وأبرق السفير لحكومته قائلا: ان بيفن يخشى ان يتبدل ميزان القوى في فلسطين اذا لم يتم ايقاف اليهود عند حدهم، وان الجيش الأردني ربما يتعرض للأنهيار، لأنه لم يعد قادرا على الوقوف في وجه هجوم يهودي شديد بسبب النقص في المعدات واللوازم الأخرى، وانه اذا أُصيب الجيش الاردني بالانهيار فمن المحتمل ان يؤدي ذلك الى انهيار شرقي الاردن. ان بيفن يأمل ان تتخذ الحكومة الامريكية خطوات فورية وقوية مع حكومة اسرائيل لايقاف العدوان اليهودي.

اننا نستطيع ان نستدل من فحوى هذه البرقية على مدى سيطرة امريكا على السياسة البريطانية. وسوف نرى ان سياسة امريكا كان يسيرها الرئيس ترومان الذي كان متعاطفا مع اليهود الى حد بعيد.

وكان من نتائج هذه المعركة ان الجنرال رايلي (كبير المراقبين الدوليين) رتب عقد اجتماع يوم ٢٢ آب حضره عبدالله التل عن القوات الأردنية، وأحمد عبدالعزيز عن القوات المصرية، وطارق الافريقي عن قوات المناضلين الفلسطينيين، وموشيه دايان عن القوات الاسرائيلية. وحدث جدل ونقاش بين الطرفين فتأجل الاجتماع حتى يوم ٣ ايلول، حينما وافق اليهود على الجلاء عن المراكز المحيطة بالكلية العربية ووضعت المنطقة تحت اشراف هيئة الرقابة الدولية، وكانت تضم دار الحكومة والكلية العربية والمدرسة الزراعية. كما تم الاتفاق على ايقاف اطلاق النار تماماً وعلى سحب الأشخاص العسكريين من المنطقة وازالة التحصينات. وأرسل برنادوت برقية الى مجلس الامن (٥ ايلول) انه تم تسوية النزاع، وان القوات اليهودية هي التي خرقت الهدنة بمهاجمتها المواقع العربية. وفي ٢٦ ايلول وضعت الخرائط اللازمة لتعيين مواقع المنطقة المنزوعة السلاح وتم التوقيع عليه من قبل ضباط الفريقين. ومن الواضح ان تخطيط المواقع ووضع الخرائط والتوقيع عليها بموافقة حكومتي مصر والأردن، كان بمثابة اعتراف واقعي من جانب العرب بوجود اسرائيل. هذا على الرغم من تعزية العرب لأنفسهم ان كل تلك الترتيبات كانت ذات طابع

مؤقت. وفي ٣٠ ايلول وقع عبدالله التل وموشيه دايان على اتفاقية وقف اطلاق النار في منطقة القدس بصورة « مخلصة وتامة».

وكانت الكتيبة الثالثة بعد انتقالها من القدس قد تمركزت في مواقع تمتد من بدرس شمالاً حتى بيت سيرا جنوباً. وفي شهر أيلول حدث اشتباك بين السرية الرابعة (غازي الحربي) وقوة اسرائيلية تتمركز في خربة قبالة بدرس وتعرف باسم تل الغرباوي. ولم يكن غازي يطيق الصمت وهو يرى الأعداء في مواجهته. ذات يوم اطلق العدو عدة قنابل على المواقع الجديدة للسرية، فأُصيب بعض أفرادها بجراح. واستقر رأي غازي على مهاجمة تل الغرباوي، فطلب من قيادة الكتيبة تعزيزات قائلاً ان الاعداء يعدون العدة لمهاجمته، فأرسلت اليه الكتيبة فئة مدرعات بقيادة المرشح سالم بن نجاد وقوة من مدافع الهاون ٣ بوصة بقيادة الوكيل علي ابوعتيقة. وفي صباح اليوم التالي قامت مجموعة من المجاهدين الأردنيين بمهاجمة موقع العدو تساندها المدرعات والهاونات، فاستولت عليه بعد معركة ضارية استشهد فيها الشيخ عبدالله صويوين المراعية قائد المجاهدين. أما أفراد العدو فقد قتل بعضهم وفر الباقون.(٦)

اتجاهات امريكا وبريطانيا

تعطي الوثائق التي بين أيدينا فكرة واضحة عن اتجاهات دولتي امريكا وبريطانيا ازاء الصراع الدائر في فلسطين. وهما الدولتان الكبيرتان اللتان كان لهما اهتمام حقيقي وأساسي فيما يتعلق بتطورات الأحداث. ويمكن تلخيص الخطوط العريضة لتلك الاتجاهات فيما يلي:

١- كانت امريكا (وما تزال حتى اليوم) تلتزم جانب اليهود، وتعمل كل ما من شأنه ان يدعم موقفهم في المجال السياسي. وكان اكبر مظهر لذلك الالتزام ممارسة الضغط على بريطانيا حتى لا تزود العرب بالسلاح والعتاد، وحجتها في ذلك: ان بريطانيا اذا شاءت ان تزود العرب بالسلاح والعتاد - خلافا لقرارات مجلس الأمن - فان حكومة امريكا لا تستطيع ان تتحمل الضغط الداخلي (الصهيوني طبعا) وستجد نفسها مضطرة الى تزويد اليهود بالسلاح والعتاد. ولكن حكومة امريكا لم تكن تسير على سياسة متوازنة، بل كان تحيزها لليهود واضحا جداً، وكان ترومان يمارس سلطاته على وزارتي الخارجية والدفاع كلما أظهرت احداهما رغبة في كبح جماح اليهود.

٢- اما سياسة بريطانيا فكانت الى حد كبير تابعة للسياسة الامريكية في هذا المجال. وكانت بريطانيا تعرف ان اليهود يتسلحون من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا وغيرها - بطرق غير مشروعة وخلافا لقرارات مجلس الأمن - ولكنها لم تكن تجروء على مخالفة سياسة امريكا. وكان بيفن وزير خارجية بريطانيا متعاطفا الى حد ما مع العرب، ولكنه لم يكن يملك تسيير سياسة الدولة البريطانية على هواه. ثم ان بريطانيا كانت حانقة على العراق (الذي ألغى معاهدة بورتسموت) وعلى مصر أيضا التي كانت تطالبها بالجلاء عن مصر والسودان. في ظاهر الأمر كانت بريطانيا تتعاطف مع الأردن. ولكن تعاطفها مع الاردن كان شكليا، اذ منعت تزويده بالعتاد وأوقفت دفع المعونة المالية اليه، وبذلك كان موقفها هذا أشد ايلاما للأردن من سواه، بسبب ما بينهما من التزامات تعاهدية.

والان لنلق نظرة على ما جاء في الوثائق البريطانية والامريكية بهذا الشأن، مما يساعد القارئ على تكوين فكرة شاملة عما كان يجري في الخفاء:

ففي ٦ آب ١٩٤٨ أبرق كركبرايد (الوزير البريطاني المفوض في عمان) الى وزارة خارجيته يقول ان في الأردن شعوراً عميقا بالاستياء من موقف بريطانيا، وان الخطر الرئيسي يكمن في احتمال قيام اليهود بهجوم على الجيش العربي لا يستطيع هذا الجيش صده، بسبب عدم وجود عتاد للمدفعية والهاونات. ثم يتحدث كركبرايد عن الأقوال التي يتناقلها الناس حول امتناع بريطانيا عن تزويد الجيش الأردني بالعتاد، ويقول ان الضباط العراقيين يكرهون بريطانيا (والضباط الانكليز) في الجيش العربي. ويمضي الى القول بأنه اذا حلت بالأردن كارثة في وقت تمنع فيه بريطانيا العتاد واللوازم عنه « فمن الأفضل التخلي عن السياسة الرامية الى إنشاء تحالفات دفاعية في الشرق الاوسط». وأخيراً يقول: ان من الصعب تبرير سياستنا هذه تجاه الأردن في الوقت الذي يتلقى فيه اليهود ذخائر وأسلحة ولوازم من وراء البحار.

وفي ٩ آب كتب كركبرايد مذكرة تحدث فيها عن مصاعب الأردن المالية، قائلا ان بريطانيا تقدم للجيش الأردني منحة سنوية مقدارها مليونا جنيه بالإضافة الى نصف مليون للنفقات الطارئة، وان الجامعة العربية تعهدت بتقديم معونة مقدارها ٥٠٠ الف جنيه لتغطية نفقات الحرب الاضافية، ولكنها لم تدفع سوى ٢٠٠ الف جنيه. ثم تساءل: هل يمكن خوض الحرب بميزانية أيام السلم؟ ولم تفته الاشارة الى ان المصريين صادروا شحنة عتاد من

الباخرة رمسيس قيمتها ٣٠ الف جنيه.

وفي ١٨ آب أبرقت وزارة الدفاع البريطانية الى قيادة الشرق الاوسط (البريطانية) تقول ما خلاصته:

اتصلنا بالوزارة الأمريكية نطلب موافقتها على نقل سلاح وذخيرة الى قاعدتنا في عمان، ولكن رأيهم المبدئي غير مشجع. ثم اتصلنا مرة أخرى وما نزال ننتظر الجواب النهائي.. عليكم الاستعداد لنقل الأسلحة والذخيرة جوا حالما يرفع الحظر عن شحن السلاح.

وأبرق كركبرايد في ٢٨ آب يقول انه أبلغ الملك عبدالله ورئيس وزرائه ان حكومة بريطانيا لم تحث الأردن على التدخل في فلسطين، وانه تم تحذير الأردن من أن حركة كهذه يمكن ان تجر عليه المصاعب مع الأمم المتحدة. وقد أعرب رئيس الوزراء عن قلقه بسبب منع العتاد عن الجيش، وان من الحمق بالنسبة للأردن الأقدام على خرق الهدنة في وقت لا يستطيع فيه الجيش العربي ضمان احراز النصر. وأضاف كركبرايد يقول: ان الملك – الذي يبدو مرهقا وعصبيا – أعرب عن تذمره قائلا انه كان يتوقع معاملة أفضل من بريطانيا. هنا أكدت له انه لا مجال هناك لأية معاملة خاصة.

وتبدو درجة القلق في أوساط الحكومة البريطانية من البرقية التالية التي بعث بها وزير الدفاع في ٣١ آب الى بيفن:

سنكون مستعدين لارسال السلاح والعتاد الى الأردن اذا كان هناك خوف على سلامة أراضيه. ولكن لن يتم نقل أي شيء الا بعد الحصول على التعليمات.(٧)

وعندما نشرت توصيات برنادوت أبرقت وزارة الخارجية البريطانية الى كركبرايد قائلة انها ستحاول تأييد توحيد الأجزاء الباقية للعرب من فلسطين مع الأردن، وانها تعارض قيام حكومة فلسطينية، خصوصا برئاسة المفتي، لأسباب عدة من جملتها ان خطوة كهذه ربما تدفع اليهود الى إعلان دولتهم في فلسطين وفي شرقي الأردن أيضاً.

أما الوثائق الأمريكية المتوافرة فتعطينا مزيداً من التفاصيل عن أسرار مجرى الأحداث:

ففي ٦ آب نرى الحكومة البريطانية ترجو الحكومة الأمريكية ان توافق على نقل بعض العتاد والسلاح الى مطاري عمان والحبانية، مع التعهد بأن لا يتم تسليم أي شيء منه

الى الأردن الا اذا وقعت أراضيه تحت خطر الهجوم، مع الاستعداد للقبول بمراقبة رجال الهدنة من أجل تفادي الاتهامات.

وأعرب مارشال وزير خارجية امريكا (١٢ آب) عن اعتقاده بان اعطاء يافا والجليل الغربي لاسرائيل واعطاء النقب - كله أو بعضه - للعرب، يؤلف قاعدة جيدة لاجراء مفاوضات بين الطرفين.

وفي ١٦ آب بعث مارشال مذكرة الى الرئيس ترومان اقترح فيها ان يتم البحث مع ممثل اسرائيل على ضوء النقاط التالية:

ما لاحظته وزارة الخارجية من عداء اسرائيل للمراقبين العسكريين الذين يعملون تحت امرة الكونت برنادوت. الخطابات النارية التي ألقاها شرتوك بشأن حقوق "مزعومة" لاسرائيل في القدس. واحتلال اسرائيل العسكري لمعظم مناطق القدس، ورفض الحاكم اليهودي في القدس التعاون مع برنادوت في موضوع تجريد القدس من السلاح. انتهاكات الهدنة المنظمة من قبل قوات اسرائيل، وتحريك مواقع اليهود العسكرية الى الأمام خلافا للمواقع المتفق عليها. اطلاق النار المستمر على المواقع العربية، ونقل شحنات الأسلحة بصورة منتظمة من فرنسا وايطاليا وتشيكوسلوفاكيا الى فلسطين.

ما أعلنه وزير خارجية اسرائيل رسمياً بأن دولته لن توافق على عودة نحو ٣٠٠ الف لاجيء عربي، الا نتيجة لتسوية سياسية نهائية. ان وزير خارجية بريطانيا أبدى تخوفاً عميقاً من الوضع في فلسطين، وهو يخشى أن يقوم اليهود بهجوم لاكتساب مزيد من الأراضي.

.... اذا ما هاجم اليهود أراضي شرقي الأردن فان الوضع سيصبح خطيرا بالنسبة لامريكا، لان بريطانيا سوف تقوم بالتزاماتها للأردن بموجب المعاهدة، وهذا بدوره سيثير عاصفة في أمريكا تطالب بفتح باب تزويد اسرائيل بالسلاح.

ونتيجة لهجوم اليهود على جبل المكبر اجتمع بيفن بالسفير الأمريكي في لندن، وأعرب له عن قلقه الشديد (١٧-١٨ آب) كما مر معنا.

وعلى عكس المتوقع بعد وصول مذكرة مارشال الى ترومان، فان جيمس مكدونلد طمأن بن غوريون يوم ٢٠ آب بأن أمريكا لن تشترك في فرض العقوبات على اليهود.

وفي اليوم التالي وجه الأمريكان تحذيراً لشرتوك من الاقدام على خرق الهدنة، فقال هذا ان اسرائيل لا تفكر بشيء من هذا. ولكنه لم يلبث ان قال لمكدونلد (٢٣ آب) :

« ما دام خطر الفتح العربي قائما، فانني لا أستطيع أن أرى أي سبيل لحماية القدس غير سبيل القوة العسكرية اليهودية».

وكتب جيمس مكدونلد في ٢٤ آب رسالة مطولة الى ترومان يحرضه فيها ضد وزارة الخارجية، ويبرر اعتداءات اسرائيل. ثم أبرق في اليوم نفسه الى المستشار الشخصي للرئيس ترومان قائلاً: ما دام ان العرب يرفضون مفاوضات السلام المباشرة، او غير المباشرة، فان اسرائيل لا تستطيع ان تسرّح قواتها العسكرية. ثم اتهم الانكليز بالتحيز للعرب.

وعلى اثر اتفاق وقف اطلاق النار في القدس يوم ٣ ايلول، بعثت الحكومة الامريكية مذكرة شفوية الى حكومة اسرائيل (٦ أيلول) تقترح فيها اعطاء الأردن جزءاً كبيراً من أراضي النقب الصحراوية بدلا من الجليل الغربي الذي تحتله اسرائيل عسكريا. ويعود أصل الاقتراح الى ان وزارة خارجية أمريكا كانت ترى ان من الضروري اعطاء الأردن ممر على البحر الابيض المتوسط. واهتمت وزارة الخارجية بخطاب أذاعه عزمي النشاشيبي مدير الأذاعة الاردنية يوم ٥ أيلول وقال فيه: ان العرب ربما ينظرون الى اجراء محادثات مباشرة مع اليهود طبقا للشروط التالية:

- عودة اليهود الى المناطق التي كانوا فيها قبل ٢٩ تشرين الثاني١٩٤٧.
- عودة جميع اللاجئين العرب.
- ان يدفع اليهود تعويضات عن الأضرار التي ألحقوها بعرب فلسطين.
- ان لا يحاول اليهود املاء الشروط على العرب.

وبعد اغتيال اليهود برنادوت أصدرت وزارة الخارجية الامريكية تعليماتها لسفرائها وممثليها في العواصم العربية واسرائيل (١٩ أيلول) بأن يبلغوا المسؤولين العرب واليهود بضرورة المحافظة على الهدنة، واتاحة المجال أمام استمرار الوساطة الدولية، والحيلولة دون نشوب اية عمليات عسكرية. وفي اليوم التالي أكد شرتوك ان اسرائيل لن تلجأ الى الأعمال العسكرية او تخرق الهدنة، وانها ستدافع عن نفسها فقط اذا هاجمها العرب.

وبطبيعة الحال لم تكن تأكيدات شرتوك سوى من قبيل ذر الرماد في العيون. وهكذا كانت اسرائيل دائما تقول شيئا للتعمية، ثم تقدم على القيام بأعمال مناقضة لأقوالها، على مثال العصفور الذي قال لأخيه: لا تنظر الى دموع عيني الصياد، بل الى ما تفعل يداه.

وفي ٢٤ ايلول أبرق الوزير الأمريكي المفوض في سوريا (كيلي) الى وزارة خارجيته يقول ان القائم بالأعمال البريطاني ناشد رئيس وزراء سوريا قبول توصيات برنادوت، لانها - في نظر بريطانيا - افضل ما يمكن للمجتمع الدولي ان يوافق عليه. وأعرب كيلي عن رأيه بان « ضعف العرب في المجالين السياسي والعسكري لا يتيح لهم بديلا معقولا عن القبول بالتوصيات». وبعد ان عرض لشكوك السوريين في نيات اسرائيل وعدم ثقتهم بها، اقترح على حكومته ان تصدر بيانا تؤيد فيه التأكيد البريطاني القائل بأن أي خرق اسرائيلي لحدود العرب سيعتبر بمثابة اعلان الحرب، وان بريطانيا في حالة حدوث ذلك سوف تعمد الى الالتزام بمعاهداتها مع الدول العربية. ثم ختم كيلي برقيته بالقول: دعونا لا نضيع هذه الفرصة لكي نحصن مركزنا في المستقبل. ولكن وزارة خارجيته ردّت عليه بأنها لا تستطيع في الوقت الحاضر اعطاء البيان المقترح.

وكان اعلان تأليف حكومة عموم فلسطين في غزة يوم ٢٣ ايلول مناسبة أخرى ظهرت فيها اتجاهات السياسة الأمريكية. فقد بادرت الحكومة الأمريكية الى ابلاغ زعماء الدول العربية ان انشاء تلك الحكومة سيكون عثرة في طريق حل مشكلة فلسطين. وكانت وجهة نظرها ان المفتي يسيطر على تلك الحكومة، ولا يمكن مسامحته على نشاطاته في أثناء الحرب ولا يمكن نسيانها [المقصود هنا انحياز المفتي الى زعيمي دولتي المحور هتلر وموسوليني].

وأبى جيمس مكدونلد الا ان يظهر تحيزه، حول اقتراح ضم النقب للأردن، فكتب في ٤ تشرين الأول الى ترومان ومارشال، يقول: ان الأردن لن يكون ممتناً لأمريكا لتأييدها اعطاء النقب لعبدالله، وهو أمر سيكون بمثابة هدية من بريطانيا له. فالملك عبدالله لا يملك العدد الكافي من السكان ولا رأس المال ولا المهارة الفنية ولا الرغبة لتطوير النقب. ولن يكون وجوده هناك الا من أجل الاحتفاظ بالنقب لبريطانيا. وكان مكدونلد في أقواله هذه أشبه ما يكون بالببغاء يردد حجج اليهود، الذين كانوا يريدون الاحتفاظ بالنقب لأنفسهم.

وهكذا بقي الوضع مائعا فيما يتعلق بالدول الكبرى والدول العربية: مجرد اقتراحات

ونظريات وأفكار، الى أن أخذ اليهود المبادرة بأيديهم وشنوا هجومهم الواسع النطاق على الجبهة المصرية، مما سيأتي الحديث عنه في موضعه.

الأردن وأيام الهدنة

لم تكن الهدنة هدنة دائمة. فاليهود كانوا يعملون بوحي من النظرية القائلة بان التملك يمثل تسعة أعشار القانون، ولذلك استمروا في استعدادهم لحشد مزيد من المقاتلين وللحصول على مزيد من الأسلحة ولتكديس كميات كبيرة من العتاد. وكان العرب يدركون ان الهدنة ليست دائمة، وان العدو الذي برع في اختلاق المبررات لا يعدم أن يجد حجة أخرى لشن عدوان جديد، ومن هنا بذلوا جهداً لتعزيز قواتهم المسلحة. ولكن جهد العرب كان ضعيفاً اذا ما قيس بجهد اليهود. وأسباب ذلك تعود الى قدرات العرب الفنية، والى عدم امكان الحصول على أسلحة وأعتدة جديدة. وهكذا مع مضي الأيام أخذ الفارق في ميزان القوى يرجح أكثر وأكثر الى جانب اليهود.

اننا يمكن ان نحصل على صورة قريبة من الواقع، اذا ما ألقينا نظرة على تقرير للاستخبارات الأمريكية عن الوضع العسكري في فلسطين بعد بدء الهدنة الثانية. يقول ذلك التقرير المؤرخ في ٢٧ تموز ما خلاصته:

في أثناء فترة القتال الثانية التي استمرت تسعة ايام، أحرز اليهود مكاسب كبيرة. لقد استولوا على اللد والرملة ورأس العين. وفي الشمال استولوا على الناصرة وركزوا مواقعهم على طول الحدود اللبنانية. وفي الجنوب استطاع اليهود أن يوسعوا منطقة سيطرتهم فيما بين القدس وتل أبيب.

لقد تحسن وضع اليهود وامكاناتهم الى حد يمكن ان يكونوا معه قادرين على شن هجوم واسع النطاق واخراج القوات العربية من فلسطين. ان مكاسب اليهود أحدثت تبدلاً مهماً في تقديراتنا لسير الحرب، فوضع العرب السوقي ضعيف جدا بصورة عامة، ومواردهم من العتاد ضئيلة تماما. وفي تقديرنا انهم لا يستطيعون الاستمرار في الحرب، حتى على المستوى المعتدل السابق، لأكثر من شهرين أو ثلاثة.

اما تقديراتنا للقوات العسكرية فكما يلي :

القوات العربية في فلسطين أو بالقرب منها

	في فلسطين	قرب فلسطين	المجموع
لبنـــــان	–	١,٨٠٠	١,٨٠٠
الأردن	٦,٠٠٠	٤,٠٠٠	١٠,٠٠٠
العراق	٩,٠٠٠	١,٠٠٠	١٠,٠٠٠
مصر	٥,٠٠٠	٨,٠٠٠	١٣,٠٠٠
سوريا	١,٠٠٠	١,٥٠٠	٢,٥٠٠
السعودية	٣,٠٠٠(؟)		٣,٠٠٠
غير نظاميين	٣,٠٠٠(؟)	٣,٥٠٠	٦,٥٠٠
المجموع	٢٧,٠٠٠	١٩,٨٠٠	٤٦,٨٠٠

القوات الاسرائيلية

الهاجاناه – قوة ضاربة سريعة الحركة	١٧,٠٠٠
قوات متوسطة الحركة (عمليات محلية)	١٨,٠٠٠
حاميات او قوات دفاعية	٥٠,٠٠٠
الارغون	١٢,٠٠٠
عصابة شتيرن	٨٠٠
	٩٧,٨٠٠

انتهى التقرير(٨)

وسنعرض في صفحات قادمة تقديرات أخرى لقوات الطرفين، يستطيع القارىء ان يستدل منها على اتساع الشقة بينهما.

على ضوء ما تقدم نستطيع ان نفهم مدى القلق الذي كان يشعر به الملك عبدالله ازاء تعاظم قوة العدو. ونجد فيما رواه الفريق جلوب صورة عن حقيقة الوضع بالنسبة للجيش الأردني. فهو يقول إن عبدالرحمن عزام وعد الأردن بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه لتمكينه من مواجهة نفقات الحرب ولكن عزام لم يدفع سوى ربع مليون جنيه. وطلبت الحكومة الأردنية من الجامعة العربية تقديم دفعة اخرى، ولكن عزام قال انه لن يقدم مبالغ اخرى،

لأن الأردن لا يؤيد تماماً سياسة مصر. (مع أن رياض الصلح في رسالته التي اشرنا اليها أعلاه يقول ان دفع المبلغ كان معلقاً بشرطين (١) عدم دفع بريطانيا للاعانة و (٢) متابعة القتال). ومضى جلوب وفوزي الملقي وزير الدفاع لمقابلة توفيق ابو الهدى رئيس الوزراء. وأوضح الوزير لرئيس الوزراء ان الجيش بحاجة الى ميزانية اضافية، فغضب الرئيس وقال انه لا يستطيع عمل شيء. وحدثت مشاجرة بين رئيس الوزراء ورئيس الأركان، فذهب الأول الى الملك عبدالله يشكو الثاني. وكانت النتيجة ان جلوب منح اجازة لمدة شهر.

ومضى جلوب الى بريطانيا لقضاء اجازته، وكان يحمل رسالة شخصية من الملك عبدالله الى المستر بيفن.

ان بقية القصة ليست في كتاب جلوب بل في احدى الوثائق البريطانية (برقية بتاريخ ٢٨ آب ١٩٤٨):

جلوب باشا الان في لندن للبحث نيابة عن الملك عبدالله في مسألة تمويل الجيش العربي وتزويده بالمعدات. لقد استقبلته وزارة الخارجية حيث سلم رسالة من الملك عبدالله حول الوضع الراهن في فلسطين. وفي رسالته هذه أعرب الملك عن رأيه بأن الأعمال اليهودية في فلسطين ما هي سوى جزء من مخططات روسيا للتوسع في الشرق الأوسط. وحث على ان يعطى الأردن جميع الوسائل الضرورية لمقاومة هذا التوسع. وقد أرسلت له وزارة الخارجية جوابا وديا، ولكن غير ملزم.

ان جلوب باشا عند مقابلته لوزير الخارجية وصف وضع الأردن الصعب وكذلك وضع الجيش العربي. وقد قيل له: اننا، مع تقديرنا لذلك الوضع واهتمامنا به، يجب ان نوضح اننا لسنا مسؤولين عن مصاعب الأردن، اذ سبق ولفتنا نظر الحكومة الأردنية الى احتمال نشوء هذا الوضع قبل ان تتدخل تلك الحكومة في فلسطين. اننا على استعداد في الوقت الراهن للاستمرار في دفع المعونة للأردن انطلاقاً من التزاماتنا بموجب المعاهدة، ولكننا غير مستعدين (نكرر غير مستعدين) للموافقة على الاقتراح القائل بأن نوافق على نقل المهمات الحربية الى قاعدة الطيران البريطاني في عمان، بالنظر الى التأثير المعاكس...

وليس بين أيدينا ما يدل على النتائج التي أسفرت عنها مساعي جلوب، باستثناء قرار

الحكومة البريطانية استئناف دفع المعونة المالية للجيش، وهي معونة كان الأردن في أمسّ الحاجة اليها للانفاق على قواته المسلحة.

وعلى الرغم من كل المصاعب، شهدت قوات الأردن المسلحة توسعاً في عدد الأفراد، لا نعلم كيف تم تدبير النفقات لمواجهته، بالنظر الى ان ميزانية الجيش كانت - كما سلف القول - لا تزيد عن مليوني جنيه، بالاضافة الى نصف مليون لشراء معدات. وتدل التقارير أن عدد أفراد الجيش الأردني ارتفع من ٧ آلاف عند بداية الحرب الى ١١ الفاً في نهاية ١٩٤٨. ومن المرجح ان بريطانيا عدلت سياستها من ناحية المعونة بعد أن ظهر رجحان كفة اليهود، اذ يقول الفريق جلوب إن بريطانيا تولّت سد العجز في ميزانية الجيش، وهو عجز زاد على ستة ملايين جنيه (ص ٢٥٨ من كتابه جندي مع العرب).

وفي هذه الفترة عرض الأمير عبدالاله على الملك فكرة توحيد الجيشين الأردني والعراقي تحت قيادة واحدة. ويقول الفريق صالح صائب الجبوري ان ارادة ملكية عراقية صدرت بتعيينه قائداً عاماً للجيشين، ولكن لم تصدر ارادة ملكية أردنية بذلك، فانتهى الموضوع عند ذلك الحد. ومع ان توحيد الجيشين مطمح قومي كبير، الا ان التطبيق العملي لم يكن سهلاً، خاصة اذا عرفنا ان العراق سيتولى مسؤولية الانفاق على الجيش الأردني. لقد كان العراق يومذاك في ضائقة مالية وطلب من مصر قرضا بمبلغ مليون دينار، ولكنه لم يحصل عليه.

ومن التطورات ذات الدلالة التي وقعت آنذاك ان الاردن في تلك الفترة شرع في انشاء جناح جوي للجيش، فابتاعت الحكومة سبع طائرات صغيرة من شركة الطيران العربية. وقد تمت تغطية ثمن تلك الطائرات من تبرعات المواطنين. حدث هذا في شهري آب وأيلول. ثم رغبت الحكومة الأردنية ان تبتاع خمس طائرات بريطانية من طراز اوستر، ولكن الحكومة البريطانية لم توافق على اخراج تلك الطائرات من بلادها، «لان الهدنة قائمة وشروطها لا تسمح بذلك» (تشرين الأول ١٩٤٨). وكتبت وزارة خارجية بريطانيا الى الوزير المفوض كركبرايد تقول: إن الأردن أعطى تأكيدات بأن الطائرات السبع سوف تستعمل لأغراض تجارية، والان يبدو أنها سوف تستعمل لغايات عسكرية. فنرجو ابلاغ الحكومة الأردنية باستعمالها لغايات تجارية فقط. ومن الغريب ما جاء في تلك الرسالة، من أن الحكومة البريطانية « ترى ان الانفاق في هذا الباب يدل على عدم الشعور

بالمسؤولية من الناحية المالية». والحقيقة ان موضوع الطائرات يعود الى عدة أشهر سابقة، اذ أبرق كركبرايد في ٢٠ آذار ١٩٤٨ بأن «الملك عبدالله والحكومة الاردنية يرغبون في انشاء سلاح طيران للأردن، وهناك أيضاً رغبة شعبية، والمقصود الحصول على بضع طائرات صغيرة للمواصلات. والأردن يعتبر هذا قضية تتعلق بالهيبة الوطنية، وقد تم جمع تبرعات من الأهالي لشراء الطائرات...»

على أن شعور اليهود بالقوة جعلهم لا يبالون بالمحافظة الدقيقة على الهدنة. وقد سبق ان تحدثنا عن هجومهم الكبير في القدس واحتلالهم جبل المكبر ثم اضطرارهم الى الانسحاب. ولكنهم قاموا في جبهة باب الواد باعتداء لم يتسن للجيش العربي الرد عليه رداً ملائماً. ففي تلك الجبهة توقف القتال والعدو يسيطر على قريتي البرج وبير ماعين — بينما كان الجيش العربي يتمركز قبالتهما في بيت نوبا وبيت سيرا. وكان هناك مرتفع صخري مقابل بيت نوبا يشرف على طريق بيت سيرا – اللطرون، ويعرف باسم عجنجول. ويبدو ان دوريات العدو اكتشفت ان هذا المرتفع يسيطر على تلك الطريق المهمة، فتقدمت بعد بضعة أيام من بدء الهدنة وتمركزت فيه، على الرغم من انه كان منطقة حراما، بين قوات الطرفين. وقدم الاردن شكوى لبرنادوت فأجرى تحقيقاً وتبين للمراقبين الدوليين ان عجنجول يجب ان تكون خالية من القوات العسكرية. وأصدر برنادوت الأمر لقوات العدو بالانسحاب ولكن اليهود لم يكترثوا، فأمرهم مرة أخرى ولكن دون نتيجة. ومن ذلك الموقع أخذ الاسرائيليون يطلقون النار على سيارات الجيش بين رام الله واللطرون كلما شاءوا. وبرهن ذلك – فوق البراهين الأخرى – أن الامم المتحدة اصبحت عاجزة عن كبح جماح العدو.

حكومة عموم فلسطين

بعد الهدنة الثانية بحثت اللجنة السياسية للجامعة العربية موضوع انشاء حكومة فلسطينية، فعارضت الحكومة الأردنية الفكرة لأسباب أبدتها في حينها. على ان الهيئة العربية العليا كانت مقتنعة بضرورة قيام الحكومة، وشجعتها على ذلك مصر ودول عربية أخرى. فلم يلبث أن أعلن في غزة يوم ٢٣ أيلول عن تأليف حكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد حلمي عبدالباقي. وفي ١ تشرين الأول عقد مجلس وطني في غزة واختار الحاج أمين الحسيني رئيساً له، وأعلن ذلك المجلس استقلال فلسطين ووحدتها.

عارضت الحكومة الأردنية هذه الخطوة لأسباب عديدة من أهمها (١) ان حكومة عموم فلسطين لا تمثل سوى جزء من أهل فلسطين (٢) ان تخلي القوات الأردنية عن الأجزاء التي تسيطر عليها سيؤدي الى سقوطها بيد العدو، لأن حكومة غزة لا قوة عسكرية لديها. ثم تبلورت معارضة الحكومة الأردنية ومعارضة الفلسطينيين الذين كانوا نزحوا الى شرقي الأردن، في عقد مؤتمر عمان يوم ١ تشرين الأول برئاسة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي. وقد أعلن ذلك المؤتمر معارضته لحكومة غزة، وفوّض الملك عبدالله بمعالجة المشكلة الفلسطينية.

وكانت قوات الجهاد المقدس في القطاع الأردني (والقطاع العراقي) تتلقى أوامرها من الحاج أمين الحسيني، ولا تعتبر نفسها مسؤولة أمام الحكومة الأردنية، ومن هنا أصدر وزير الدفاع الأردني يوم ٣ تشرين الأول أمراً خطياً الى رئيس الأركان يؤكد ضرورة العمل على معالجة موضوع جميع المسلحين غير النظاميين، في منطقة عمليات الجيش العربي: فاما أن يخضعوا لأوامر الجيش أو يصار الى تفريقهم ونزع السلاح منهم (٩).

والواقع أن جذور تلك الاجراءات تعود الى قرار مجلس الأمن الصادر في ١٩ آب ١٩٤٨ والذي ينص على ضرورة التقيد بالأوامر التالية في فلسطين:

أ – كل طرف مسؤول عن أعمال القوات النظامية وغير النظامية العاملة تحت سلطته أو في أراض تحت سيطرته.

ب – كل طرف ملزم باستعمال كل ما لديه من وسائل لمنع أعمال انتهاك الهدنة، من قبل أشخاص أو جماعات تخضع لسلطته، أو قائمة على أراض تحت سيطرته.

جـ – لا يحق لأي طرف أن يحصل على مكاسب عسكرية أو سياسية عن طريق انتهاك الهدنة.

يقول الفريق جلَوب في هذا الصدد:

مع مضي الأيام ازدادت روح العدوان عند اليهود، خاصة في القدس، وكثر عدد الحوادث بعد مقتل برنادوت. وكان واضحاً أنهم يريدون خلق مبرر للقيام بهجوم كبير.

ان اعلان حكومة عموم فلسطين بعث الحماسة في نفوس أنصار المفتي، في منطقة

القدس، والذين اطلقوا على أنفسهم اسم (الجهاد المقدس). كان أكثرهم في منطقة رام الله، وقد أخذوا يتدربون وينظرون الينا بروح عدائية.
الحكومة الأردنية كانت تواجه معضلة: فلو انسحبت من فلسطين وتركتها لحكومة غزة، فان اليهود سيسارعون الى احتلال ما بقي للعرب حتى نهر الأردن، ذلك ان قوات المفتي لم تكن تستطيع ايقاف اليهود حتى لساعة واحدة. ولو حدث هذا لأ تُّهم الأردن بالخيانة.
من هنا كان الأمر الذي أصدره وزير الدفاع. ولما كان جماعة الجهاد المقدس يرفضون التعاون مع الجيش الأردني، فقد تم تطويقهم ونزع سلاحهم دون أية مقاومة.
والحقيقة ان نزع سلاح قوات الجهاد المقدس لم يتم الا في ١٨ كانون الثاني ١٩٤٩. عندما دخلت قوات الجيش قرية بير زيت واستولت على قيادة الجهاد المقدس فيها. اما في بيت لحم فقد بقيت قوات الجهاد المقدس تتعاون مع القوات المصرية حتى انسحاب المصريين، وبعد ذلك انضمت الى الجيش الأردني، وتألفت منها بعد ذلك كتائب الحرس الوطني. ويجدر بالذكر في هذا الصدد ان قوات الجهاد المقدس في منطقة رام الله كانت بقيادة قاسم الريماوي: بينما كانت القوات الموجودة في قطاع بيت لحم – الخليل بقيادة كامل عريقات.
وكان قد سبق ذلك (أواخر شهر تموز ١٩٤٨) سحب سرية ابي عبيدة من منطقة بيت لحم واعادتها الى عمان.
وتجدر الاشارة الى أن نزع سلاح الجهاد المقدس تم بعد تطويق اليهود لقطاع غزة، واضطرار مصر الى قبول ايقاف القتال طبقا للشروط التي فرضها العدو.
حدثني ضابط أردني كبير عن هذا الموضوع فقال :
الجيش العربي، وجلوب على رأسه، ساعد على تسليح المناضلين في فلسطين منذ بدء القتال في أواخر ١٩٤٧. وقد استمر هذا الى ما بعد الهدنة الثانية، اذ حدث تطور سياسي تجاه هذا الموضوع. وقررت الحكومة (وليس جلوب) نزع سلاح جميع المناضلين، وضم من يريد منهم الى القوات النظامية.
وأكد لي قاسم الريماوي أن قوات الجهاد المقدس كانت تتلقى التوجيهات والأسلحة والرواتب من الحاج أمين الحسيني، وانها لم تقبل الخضوع للقيادة الأردنية للاعتقاد السائد بان جلوب والضباط الانكليز لا يعملون لمصلحة العرب.

الهجوم الاسرائيلي على النقب

إن ازدياد بناء القوات العسكرية الاسرائيلية، دون أن يقابله ازدياد مماثل لدى العرب، وما ثبت من عجز الأمم المتحدة بعد سكوتها المخجل على مقتل وسيطها برنادوت، وروحية المثل والقيم التوراتية عند اليهود – كل ذلك كان يدفع الأحداث نحو مجابهة أخرى يفرض فيها المنتصر شروطه.

يقول دييوي ان قوات اسرائيل العامة في الميدان في اثناء شهر ايلول ١٩٤٨ كانت قد أصبحت ضعف جميع القوات العربية المرابطة في فلسطين. ويقول جلوب ان مصدرا موثوقا قدر القوات العاملة في ميادين فلسطين، في أول شهر تشرين الأول، على النحو التالي:

مصر	١٥,٠٠٠ رجل
الأردن	١٠,٠٠٠ رجل
العراق	١٥,٠٠٠ رجل
سوريا	٨,٠٠٠ رجل
لبنان	٢,٠٠٠ رجل
السعودية	٠,٧٠٠ رجل
مناضلون	٥,٠٠٠ رجل
	٥٥,٧٠٠ رجل

اسرائيل ١٢٠ الف رجل

لم تكن هناك أية أهمية لقول القائلين ان سكان الأقطار العربية التي اشتركت في الحرب يؤلفون ٤٠ مليون نسمة، وان عدد السكان اليهود في فلسطين لم يكن يزيد على مليون نسمة. المهم، المهم، هو عدد الأفراد الذين يحملون السلاح في ميدان الحرب، وكميات السلاح والعتاد التي يملكونها.

كان اليهود يستعدون لبناء قوتهم العسكرية غير آبهين لقرارات مجلس الأمن الدولي. وطوال الوقت كان السلاح والعتاد يصل اليهم عن طريق البحر والجو. ذات يوم منعوا

مراقبي الهدنة من الدخول الى مطاراتهم، وكان واضحاً انهم ينشئون قوة طيران كبيرة.

لا ندري ماهية الأسباب التي دفعت اليهود الى مهاجمة الجيش المصري أولاً: ربما تعود تلك الأسباب الى وجود المستعمرات اليهودية وراء الخطوط المصرية. وربما تعود الى الرغبة في ارغام مصر على الخروج من الحرب - وهي كبرى الدول العربية - فتتلوها الدول الأخرى بصورة طبيعية. وربما تعود الى الرغبة في الاستيلاء على النقب الذي خصصه قرار التقسيم لهم لوضع العالم أمام الأمر الواقع، وربما تعود الى أسباب عسكرية أو سياسية أخرى، (من جملتها ان العملية ضد الجيش العراقي ستكون باهظة الثمن بسبب وعورة الأرض).

كان الجيش المصري قد انشأ جبهة دفاعية تمتد عبر اسدود، عراق سويدان، الفالوجة، بيت جبرين، بيت لحم. وكانت مواصلات ذلك الجيش تعتمد على طريقين : ساحلية من رفح الى غزة الى المجدل فاسدود، وداخلية من العوجا الى بئر السبع الى الخليل فبيت لحم. كانت هناك نقاط ضعف عسكرية في وضع القوات المصرية: فمن جهة كانت المستعمرات الاسرائيلية بمثابة خطر دائم يهدد مؤخرة تلك القوات، ومن جهة أخرى حشد المصريون معظم قواتهم في مواقع أمامية متباعدة دون أن يتركوا قوة احتياط كافية لمواجهة أي اختراق يقوم به العدو.

عندما بدأت الهدنة الثانية أخذ اليهود يرسلون قوافل التموين الى مستعمراتهم، وأخذ المصريون يوقفون تلك القوافل من أجل تفتيشها. كانت الخطوة الأولى ان اليهود منعوا مراقبي الأمم المتحدة من الاقتراب من خطوطهم المقابلة للمصريين في أوائل شهر تشرين الأول. وفي أثناء ذلك حشدوا قوة تتألف من ١٥ الف جندي، من جملتها فرقة بالماخ. اما الخطوة التالية فقد كانت خلق حادث لتبرير هجومهم الوشيك.

عصر يوم ١٥ تشرين الأول (يوم الجمعة) بدأ اليهود هجومهم بواسطة الطائرات المقاتلة فقصفوا مطارات المصريين في المجدل وغزة والعريش. وفي أثناء الليل تقدمت قواتهم البرية لمهاجمة الخطوط المصرية بينما خرجت قوات من المستعمرات وأخذت تقطع خطوط المواصلات. دار قتال عنيف بين الطرفين الى ان استطاع رتل يهودي ان يخترق الجبهة عند (الحليقات) ومن هناك اندفع نحو بئر السبع فاستولى عليها في ٢١ تشرين الأول. كان استيلاء العدو على بئر السبع نقطة تحول خطيرة في المعركة، اذ انفصل

الجيش المصري الى شطرين، وانقطع اتصال الجزء الشرقي (بيت جبرين والخليل وبيت لحم) مع قواعد تموينه وتعزيزه في مصر. ثم اتجهت قوات العدو نحو الغرب فاستولت على بيت حانون شمالي غزة، وبذلك قطعت خط سكة الحديد والطريق المعبدة، ولكنها لم تتمكن من الوصول الى البحر. في تلك الاثناء ارتكبت القيادة المصرية أخطاء فادحة، من أهمها الانسحاب من اسدود (٢٧-٢٨ تشرين الأول) والمجدل (٣-٤ تشرين الثاني) الى غزة، والانسحاب من بيت جبرين الى الخليل (٢٧ تشرين الأول) فأتاحت للعدو بذلك مجال تطويق القوات المتمركزة في الفالوجة وعراق سويدان(١٠).

لم يكتف اليهود بالهجوم على الشطر الجنوبي من الجبهة المصرية. بل قاموا بهجوم آخر ضد الشطر الشرقي، ففي ليلة ١٩ تشرين الأول - بينما كانت المعارك محتدمة في الجنوب - تقدمت قوة يهودية تتألف من ثلاث كتائب من لوائي هارل وجيفاتي وأخذت تتوغل في المنطقة ابتداء من عرطوف نحو بيت لحم وكفار عصيون. وكانت هذه القوة بقيادة موشي دايان الذي عُيّن قائدا لقوات اسرائيل في القدس اعتبارا من ٢٧ تموز. وتقول المصادر اليهودية ان القوات اليهودية لم تلاق مقاومة تذكر، اذ أخذ المصريون يتراجعون في كل مكان بعد ان بلغتهم أنباء تراجع قواتهم في الجنوب والغرب. واستولى العدو على قرية الولجة بعد مقاومة من قبل المناضلين. واستمر هجوم العدو باتجاه بلدة بيت جالا، التي تعرضت طوال يوم ٢٠ تشرين الأول الى قصف مدفعي تمهيداً لتقدم المشاة في الليل. ولكن العدو واجه مقاومة هنا. وقيل ان قوات العدو وصلت الى مسافة لا تبعد سوى أميال قليلة عن كفار عصيون وبيت لحم، وكان هدفها النهائي تطويق القدس من ناحية الجنوب.

في ٢٢ تشرين الأول توقف اطلاق النار بأمر الأمم المتحدة. وفي تلك الأثناء كانت قوة أردنية قد تسلمت مسؤولية الدفاع عن المنطقة من القوات المصرية، فربح الأردن السباق الى الخليل وجبالها، ولو تأخر الأردنيون قليلاً أو سبق اليهود قليلا (كما يقول جون كمشي) لسقطت المنطقة الجنوبية كلها بأيدي اليهود. ولكن على الرغم من أوامر وقف اطلاق النار، مضت قوات العدو تهاجم القرى الواقعة في سفوح جبال الخليل، فاستولت على بيت جبرين والدوايمه والمنطقة المحيطة بهما. وفي أواخر تشرين الأول وصل الى الخليل نحو ٢٠٠ جندي مصري سيراً على أقدامهم، وكان هؤلاء أفراد حامية بيت جبرين الذين قرروا الانسحاب دون ان يشتبكوا مع قوات العدو. وعند دخول الاسرائيليين قرية

الدوايمة (غربي الخليل) أوقع جنود الكتيبة المدرعة ٨٩ مجزرة مريعة بأهلها، اذ فتحوا النار عليهم في المسجد وفي احدى المغائر، فقتلوا اكثر من ٥٠٠ منهم.(١١)

لم تلبث القوة اليهودية التي استولت على بيت جبرين ان اصطدمت بقوة من الجيش العربي على بعد سبعة كيلو مترات الى الشرق من البلدة. وبالقرب من قرية ترقومية وقع الاشتباك العنيف بين قوة العدو والقوة الأردنية، فكان من نتيجته تراجع قوة العدو الى الوراء، وتثبيت الجبهة في تلك المنطقة.

ويقول ديبوي ان آلون قائد القوات التي هاجمت المصريين، طلب من قيادته العليا تخويله صلاحية التحرك شرقاً لمهاجمة الخليل والتقدم نحو القدس من جهة الجنوب. ولكن القيادة لم توافق. وربما بدا لها أن تنفيذ خطة الون قد تكلف القوات الاسرائيلية ثمناً باهظاً. ويضيف ديبوي قائلاً «ان الصدام الأخير مع الجيش الأردني بالقرب من بيت جبرين، أبرز مرة أخرى التفوق الكبير الذي كان ذلك الجيش يمتاز به على القوات العربية الأخرى».

قوة أردنية الى الخليل

يجدر بي هنا ان أتحدث عن أسباب عودة الجيش العربي الى قطاع بيت لحم – الخليل، بعد ان انسحب منه قبل بضعة أشهر استجابة لطلب المصريين.

فعندما اذاع الاسرائيليون أنباء اختراقهم الجبهة المصرية يوم ٢٠ تشرين الأول، جاء الى عمان وفد كبير من أهل الخليل ومنطقتها يتقدمهم الشيخ محمد علي الجعبري وطلبوا من الملك عبدالله ورئيس وزارئه ان يعملوا على حمايتهم. بل ان رئيس الوفد وضع مفتاح الحرم الابراهيمي في يد الملك عبدالله قائلاً: انه امانة في عنق جلالتك. وعندئذ استدعى الملك عبدالله الفريق جلوب وأمره أن يعمل بسرعة على تعزيز القوات المصرية الموجودة في منطقة بيت لحم – الخليل. وبادر جلوب الى العمل وعمل على تأليف قوة صغيرة أطلق عليها اسم (قوة ج) وأسند قيادتها الى القائد لوكت، وهو ضابط سبقت الاشارة اليه، وعين الضابط البريطاني الرئيس سبرنج مساعداً له.

وفور صدور أمر الملك عبدالله أوفدت قيادة الفرقة الرئيس صادق الشرع (ركن العمليات الثاني) الى بيت لحم، حيث اجتمع بالضباط المصريين فيها وطلب منهم اطلاعه على مواقعهم الدفاعية فرفضوا. وعندما قال لهم ان قوة من الجيش العربي سوف تصل لمساعدتهم، قالوا: لاتوجد لدينا تعليمات بهذا الشأن. وعلى الرغم من هذا فان القوة الأردنية

تقدمت الى بيت لحم والخليل، وكانت تتألف من:

- سريتي مشاة من الكتيبة الأولى.
- فئة مدرعات بقيادة الملازم الثاني فناطل ثّيان.
- بطارية الهاون الثقيلة (٤,٢ بوصة)

وفي هذا الصدد يقول الفريق جلوب:

خلقت هزيمة المصريين في ٢٠ تشرين الأول وضعاً جديداً، ولكننا لم نعرف بتلك الهزيمة الا بعد حدوثها لأنهم لم يبلغونا قط عن عملياتهم. وبعد شطر القوات المصرية الى شطرين، اتضح ان الاسرائيليين يستطيعون الاستيلاء على الخليل وبيت لحم عندما يشاءون.

كان أمامنا مجالان للعمل:

١ - القيام بهجمات في جبهتنا لتخفيف الضغط عن المصريين، ولكنا لم نتوقع احراز نتائج ملموسة من ذلك.

٢ - ان نرسل قوة الى الخليل وبيت لحم للحفاظ على المنطقة.

واخترنا المجال الثاني.

يوم ٢٢ تشرين الأول جمعنا قوة مؤلفة من سريتي مشاة وفئة مدرعات، كان قوامها ٣٥٠ رجلاً. وزحفت هذه القوة (بدون مدفعية) عبر طريق جانبية الى الشرق من القدس، وعلى طريق ترابية غشيمة، من العيزرية الى بيت لحم. لم يكن بمقدورنا ارسال قوة أكبر حتى لا يصيب الضعف جبهتنا الأساسية.

وصلت القوة الى بيت لحم، ولكنها لم تكن تستطيع القيام بعمليات هجومية. اما الاسرائيليون فقد استمروا في القيام بحركات توسعية نحو الشرق، فاستولوا على سفوح التلال ووضعوا مفارز لهم في القرى على طول طريق عرطوف - بيت جبرين التي أصبحت كلها في أيديهم. وفي ٢٤ تشرين الأول أعلنت اذاعتهم ان قواتهم سوف تستولي على كفار عصيون. في تلك الاثناء كانت القوة الأردنية في طريقها من بيت لحم الى الخليل. في مساء يوم ٢٦ استدارت القوة من الخليل غربا نحو ترقومية عبر ممرات جبلية وعرة. وأمضت اليوم التالي في ترقومية، ثم قامت مفرزة منها تتألف من سبع مدرعات بقيادة الميجر لوكت بالتقدم نحو بيت جبرين بقصد الاستطلاع.

ان خلاصة تقرير الضابط الذي اشترك في عملية يوم ٢٨ تشرين الأول تعطي صورة واضحة عما حدث:

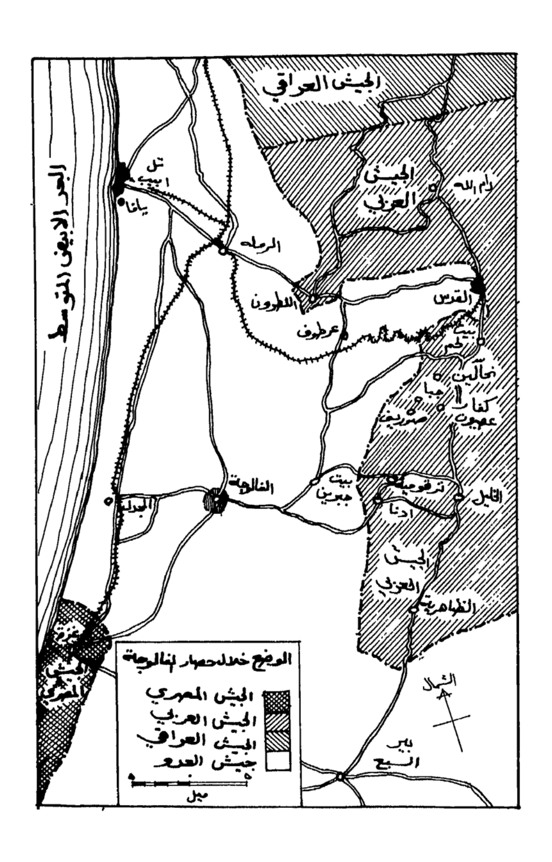
في الصباح الباكر استعد جنود السيارات المصفحة للتحرك من قرية ترقومية. عند طلوع الشمس غادروا القرية. الطريق نحو بيت جبرين تسير متعرجة في واد ضيق بين التلال. في مشارف بيت جبرين تمر الطريق بمرتفع تكسوه الأشجار. في أثناء المرور بين الأشجار توقف النائب قائد السيارة الأولى ونزل ورشاشته في يده وزحف الى الأمام مستطلعا. توقفت المصفحات الأخرى وراءه وأعدّ الجنود أحزمة الرصاص في مدافع البرن التي تحملها المصفحات. وتم تهيئة المدافع من عيار رطلين عليها.

تقدم النائب وشماغه الأحمر فوق رأسه، أطل من طرف التلة على القرية في الوادي، عاد راكضا وصرخ وهو يلوح بيديه، وصعد الى سيارته وهو يصيح قائلاً: هناك نحو ٣٠ مصفحة يهودية تتقدم نحونا. وعلى التو سمع الجنود هدير المصفحات التي كانت تتقدم بسرعة.

مصفحاتنا شكلت قوساً على شكل حرف ٧ باتجاه بيت جبرين. وقد صوبت أفواه مدافعها نحو السيارات القادمة.

الطلقة الأولى انطلقت من سيارتنا الأمامية فأصابت احدى مصفحات العدو. وقفز جنودها فتلقفهم رصاص الرشاشات فسقطوا مضرجين بدمائهم الى جانب مصفحتهم التي شبت فيها النار.

كانت تلك اشارة البدء. وعلى التو انطلقت مدافع المصفحات الأخرى، واستمر القصف نصف ساعة. أخذت مصفحات العدو تتجه هنا وهناك في محاولة لتفادي قذائفنا، ولكنها كانت هدفا سهلا في الوادي. وسرعان ما شوهد عدد منها تحترق. الا أن جنودنا لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم عرضة لاطلاق نار كثيف من رشاشات دلت على ان العدو متمركز بقوة في ذلك الموقع. وأدار جنود السيارات أفواه رشاشاتهم نحو أعشاش الرشاشات هذه، فأسكتوها الواحد بعد الاخر. وفر جنود العدو نحو بيوت القرية، وكان بعضهم في أثناء ذلك يسقط على الأرض بلا حراك، بينما كان جنودنا في غاية المرح وهم يصرخون: الجيش العربي هنا! ظلت المصفحات تطلق نيرانها وهي تتقدم حتى دخلت الى قرية بيت جبرين. كانت جميع مصفحات العدو التي لم تعطب قد فرت، وأعشاش


الجيش العراقي
البحر الابيض المتوسط
تل ابيب
يافا
الرمله
الجيش العربي
رام الله
اللطرون
القدس
عرطوف
بيت لحم
نحالين
كفار عصيون
الفالوجة
بيت جبرين
ترقوميا
الخليل
ادنا
المجدل
الجيش العربي
الظاهرية
غزة
الجيش المصري
الوضع خلال حصار الفالوجة
الجيش المصري
الجيش العربي
الجيش العراقي
جيش العدو
ميل
الشمال
بير السبع

الرشاشات أخرست. ومرت سياراتنا ببطء ومنازل القرية الى يسارها والوادي العميق الى يمينها.

عندئذ ادرك الميجر لوكت ان الغارة الاستطلاعية حققت غايتها، وأخذ يعطي الأوامر للمصفحات كي تتراجع. يبدو ان العدو كان ينتظر هذه اللحظة، اذ ما عتمت مصفحاتنا ان استدارت الى الوراء حتى انطلقت نحوها زخة من قنابل الهاون الثقيلة. أطلقت أكثر من ٨٠ قذيفة في ١٠ دقائق.

أُصيبت احدى مصفحاتنا أصابة مباشرة فقتل رجالها الثلاثة، وأُعطبت مصفحة اخرى ولم يستطع الجنود سحبها. قام جنودنا بتدمير المصفحتين وما فيهما من عتاد.

المصفحات الخمس الباقية انسحبت الى ترقوميا، ولكنها تركت وراءها على الأقل ست مصفحات للعدو تشتعل فيها النار وشاحنة مدمرة، بينما كانت جثث اربعين جنديا من العدو على الأقل ملقاة على الأرض. كانت القوة المعادية نحو خمسة أضعاف قوة الجيش الأردني.

في أثناء القصف المدفعي المعادي لا بد من الاشارة الى نائبين: أحدهما حاول ببرودة مدهشة ان يثبت انشوطة الحبل في المصفحة المعطوبة تحت نار كثيفة جداً موجهة الى سيارته، والآخر ساعده في عمله، ورفض أن يعود الى سيارته مع انه كان مصاباً بجرح عميق من رصاصة في فخذه. ثم عاد الى سيارته وتولى قيادتها الى ان أغمي عليه لكثرة ما نزف من دمه.

تحت شجرة زيتون في قرية ترقوميا، توجد ثلاثة أكوام من التراب، تخفي في جوفها رفات ثلاثة جنود بواسل من شرقي الأردن لن يروا بلادهم مرة أخرى، ولكن العملية التي قضوا فيها كانت تحمل روح الهام الى الجيش الاردني كله. (انتهى التقرير).

ثم يعقب الفريق جلوب على هذا الاشتباك بقوله :

من المؤكد ان القوة الاسرائيلية كانت رتلاً قوياً متجهاً للاستيلاء على الخليل. هذه العملية الباسلة الصغيرة أنقذت المدينة. كان الجيش العربي قد وضع قوة على طريق الخليل – بئر السبع جنوبي الظاهرية وأخذ يقيم مواقع دفاعية لتغطية المنطقة. قوتنا المؤلفة من ٣٥٠ جندياً أنقذت ٦٠٠ ميل مربع. ولولا وعورة المنطقة ما كان لهذه القوة الصغيرة أن تفعل شيئا. لقد دارت المعركة بين المصريين والاسرائيليين في

السهل الساحلي غربي الخليل، ولكن الدروع والمصفحات الاسرائيلية لم تستطع ان تتحرك بسهولة في الجبال الوعرة حيث كنا نتمركز.

ان الافادة الصحيحة من طبيعة الأرض سر من أسرار الفنون الحربية. ونحن لم يكن بمقدورنا حماية اللد والرملة لانهما كانتا تقعان في سهل منبسط مفتوح، على الرغم من أن مساحة المنطقة لا تتجاوز ٥٠ ميلاً مربعاً. (انتهى).

يجدر بي هنا ان أضيف ان الملازم الأول عبدالرحمن الصحن عُيّن بعد مدة مساعداً للميجر لوكت في قيادة هذه القوة. وأذكر من ضباط هذه القوة: العيط مطر وعيسى حدادين ومحمد نور حسن ومناور الحربي وسامي عازر واميل جميعان وارشيد مرشود وعبدالغني الجبور وحمد عبدالله ابودخينه وسعود الرشدان وأحمد أرسلان وبهجت عماري.

لم تكن تلك العملية الوحيدة التي قام بها الجيش الأردني في أثناء هجوم الاسرائيليين على القوات المصرية. ففي ليلة ١٦ تشرين الأول قامت مفرزة من الكتيبة السادسة بقيادة الرئيس محمود الموسى بنسف دار خارج باب النبي داؤد كان القناصة اليهود يستعملونها مركزا لاطلاق النار على المواقع الأردنية. ورد اليهود على هذه العملية بقصف مواقع السرية السادسة المرابطة في دير الفرنسيسكان بقنابل المدفعية، وامتد القصف الى مواقع أخرى في المدينة القديمة. عندئذ قام و.ق. محمد المعايطة قائد الكتيبة السادسة باجراء الترتيبات للقيام بهجوم معاكس(١٢). وبالفعل بدأ الهجوم عند الضحى بقوة فئتين يقودهما الرئيس محمود الموسى ومعه الملازم الأول نواف الجبر الحمود والملازم الثاني مصطفى ابراهيم الشوبكي. وقد تمكنت القوة من الاستيلاء على حي النبي داؤد (خارج الأسوار) بأكمله، وقامت فئة التدمير (بقيادة أحمد الظاهر الديك) بنسف أكثر من عشرة منازل بواسطة الالغام. وفي هذا الهجوم لحقت بالعدو جملة خسائر في الأرواح بينما أركن الجنود الآخرون الى الفرار. وتمركزت القوة الأردنية في الحي حتى جاءها أمر بالانسحاب في الحال، فاضطرت للعودة الى داخل الأسوار. وفي أثناء الليل قام العدو بهجوم معاكس على السرية المرابطة في دير الفرنسيسكان (خارج السور) وأصيب في ذلك الهجوم عدد من الجنود الأردنيين بجراح.

في اليوم التالي لهذه المعركة نقل الرئيس محمود الموسى من الخط الأمامي الى المؤخرة. وعهدت اليه مهمة انشاء خطوط دفاعية في العيزرية وابوديس، وشق طرق

عسكرية. وبعد ذلك نقل قائداً لقوات الجهاد المقدس في بيت لحم، فألف من أفرادها الكتيبة الثانية عشرة.

ان اختراق العدو للجبهة المصرية كان وراء اجتماع رؤساء الحكومات العربية في عمان يوم ٢٣ تشرين الأول. وقد حضر هذا الاجتماع عدد من قادة العرب نذكر منهم الملك عبدالله والامير عبدالاله ومحمود فهمي النقراشي وجميل مردم. وكانت غاية الاجتماع البحث في كيفية مساندة الجيش المصري. وكان عزام باشا طلب يوم ٢٢ تشرين الأول من الدول العربية – عن طريق ممثليها في مصر – ان تهب لمساعدة الجيش المصري. وقبل ذلك اتصل الملك عبدالله بالامير عبدالاله هاتفياً، وأبلغه انه يود البحث معه في أمر الترتيبات الدفاعية التي لا بد من اتخاذها، خشية من ان يتحول اليهود للهجوم في جبهة الأردن والعراق. واقترح الملك على عبدالاله ان يدعو النقراشي للحضور الى عمان. وبالفعل وجه عبدالاله الدعوة الى النقراشي ورئيس وزراء سوريا، فحضر كلاهما الى عمان. وفي حديث بين الأمير والسفير البريطاني في بغداد، قال الأمير ان الجيش العراقي لا يستطيع ان يتجاوز وضعه الدفاعي «بسبب عدم وجود الأسلحة والمعدات والعتاد». وقال السفير في برقيته ان الأمير «جدد مناشدته لنا لتزويد العراق بالعتاد للطائرات ومدافع ٢٥ رطل والقنابل المضادة للدبابات».

ونتيجة اجتماع الرؤساء، تم الاتفاق على ان تقوم الجيوش العربية بحركتين: واحدة من قبل جيشي العراق وسوريا من جهة الجنوب، وأخرى من قبل القوات السورية والعراقية في الوسط والشمال. ويقول الملك عبدالله ان النقراشي عاد وطلب من رؤساء الحكومات ان يعدلوا عن ذلك القرار، بعد أن تم ترتيب ايقاف القتال بين المصريين واليهود. كان ذلك ماحدث بالفعل، اذ وافقت مصر واسرائيل على ايقاف اطلاق النار، استجابة لطلب نائب الوسيط الدكتور بانش الذي استند على قرار مجلس الأمن بتاريخ ١٩ تشرين الأول. وقد تضمن الطلب ضرورة عودة قوات اسرائيل الى الخطوط التي كانت فيها يوم ١٤ تشرين الأول.

في هذا الصدد تجدر الاشارة الى ان الاسرائيليين شنوا هجومهم مع بدء حملة انتخابات الرئاسة في أمريكا، اذ أخذ مرشحا الحزبين المتنافسين (ترومان وديوي) يتنافسان في التزلف لاسرائيل من أجل كسب أصوات اليهود. وكان زعماء اسرائيل يدركون ان

الحكومة الأمريكية لا يمكن أن تتخذ اجراء ضدهم في حمّى الانتخابات بين الحزبين. ومن هنا كان رفضهم الانسحاب الى الخطوط الي بدأوا منها عدوانهم. نرى مصداقا على هذا القول من ان مارشال أرسل من باريس برقية الى واشنطن (٢٦ تشرين الأول) يشدد على وجوب الضغط على اسرائيل لسحب قواتها، فردت عليه وزارة الخارجية قائلة « نأسف، بسبب الظروف التي تستطيع أن تفهمها، اننا لا نجد حتى الان مجالاً لاتخاذ الاجراء الذي أوصيت به».

وفي اجتماع عمان كان هناك استياء من أن الحكومة المصرية لم تتصل بالدول العربية الأخرى مباشرة لطلب المساندة، بل أوكلت ذلك الى عبدالرحمن عزام.

ويقول الجبوري (وهو أحد الذين اشتركوا في تلك الاجتماعات) ان الملك عبدالله سأل النقراشي عن موقف الجيش المصري، فأجاب بأن الجيش يحتفظ بجميع مواقعه، ولا صحة للدعايات الصهيونية. ولكن النقراشي في الاجتماع التالي قال: لماذا لم تسرع الجيوش العربية لنجدة الجيش المصري؟ فرد عليه الجبوري: كيف نساعدكم وانتم لم تطلعونا على حقيقة الوضع؟ وقام أحد ضباط الاستخبارات العراقيين بجولة في بيت لحم والخليل يوم ٢٥ تشرين الأول. ومما جاء في تقريره ان القوة الأردنية اتخذت ترتيبات دفاعية في مناطق بيت لحم، بيت جالا، الخليل، والظاهرية، وباشرت بارسال الدوريات وبث الالغام. وجاء في التقرير أيضاً أن القوة غير كافية بالنظر لحشود العدو وانهيار دفاعات المصريين.

ومهما يكن من أمر فقد تقرر تأليف قوة مختلطة تعمل على فك الحصار عن الوحدات المصرية المطوقة في الفالوجة (وهي تتألف من ثلاث كتائب أي ثلث الجيش المصري على حد قول جمال عبدالناصر) وعرفت الخطة باسم (عملية دمشق) وهي تقضي بحشد القوة في الخليل لكي تتقدم من هناك باتجاه بيت جبرين، فتتيح الفرصة بذلك أمام القوات المصرية للخروج من مواقعها. وقد عهد بقيادة القوة الى الزعيم سعد الدين صبور، وتقرر ان تتألف كما يلي:

- كتيبة عراقية.
- كتيبة أردنية.
- الوحدات المصرية الموجودة في منطقة الخليل.

وتعهد السوريون في باديء الأمر بارسال كتيبتين، ثم اعتذروا عن عدم امكان ذلك، لأسباب أبدوها.

وكان الملك عبدالله أرسل كتاباً (٢٤ تشرين الأول) الى القيادة العراقية في الزرقاء، يطلب فيه قيام فوج عراقي باستلام منطقة خربثا، من الكتيبة الأردنية التي ستتحرك الى منطقة أخرى. ولكن الجبوري رفض الطلب قائلاً ان القوات العراقية لا تستطيع توسيع الجبهة التي ترابط فيها.

وفي ٢٦ تشرين الأول طلبت القيادة المصرية في الزرقاء المساعدة من العراق والأردن من أجل فتح الطريق من بيت جبرين الى عراق المنشية. وقد أجاب وزير الدفاع الأردني في اليوم التالي بان الأردن أضطر الى سحب كتيبة من مراكزها الدفاعية، وارسالها الى المنطقة الجنوبية فأشغلت المراكز التالية بمفارز صغيرة:

بيت جالا، بيت لحم، الخضر، برك سليمان، ابو حسان، رأس ابوعمار، بيت نتيف، طريق الظاهرية – بئر السبع.

وجاء في جواب وزير الدفاع انه ليس باستطاعة الأردن «ارسال أي قوى غير ذلك، حرصا على مراكز الدفاع في الجبهة الاردنية»، وان فتح الطريق الى عراق المنشية يحتاج الى ثلاث كتائب على الأقل، « ولا يستطيع الأردن تأمين هذه القوة الا اذا أمكن للقيادة العراقية استلام مراكز الجيش الأردني في خربثا وبيت سيرا واللطرون وباب الواد، وبذلك يصبح في امكاننا تأمين القوة الكافية لتحقيق الاغراض المطلوبة».

وكان رد القيادة العراقية «بعدم امكان تمديد جبهة الجيش العراقي الواسعة واستلام أي قسم آخر من منطقة جيشكم».

يجدر بي ان أذكر هنا ما أورده محمد مهدي كبة في مذكراته من ان الجيش العراقي لم يوافق على القيام بهجوم في جبهته بسبب نفاد العتاد لديه، وان اللواء اسماعيل صفوت قال – في اجتماع لزعماء العراق في بغداد يومذاك – ان الجيش العراقي «لا يستطيع بما بقي لديه من ذخيرة ان يستمر في القتال أكثر من يوم أو يومين..» .

وفي الوقت الذي كانت الدول العربية تبحث فيه عن وسيلة تتمكن بواسطتها قوات الفالوجة من الخروج من طوق الحصار – قامت قوات العدو يوم ٢٨ تشرين الأول بمهاجمة بقايا جيش الانقاذ الذي يتمركز في عدد من قرى فلسطين المحاذية للبنان. وفي

خلال أربعة أيام تمكن العدو من اخـراج قـوات الانقـاذ مـن أرض فلسـطين، بـل أقـدم علـى احتلال شريط من الأراضي اللبنانية يضم خمس عشرة قرية.

وأخيراً تحـرك مجلس الأمـن الدولـي واتخـذ فـي ٤ تشـرين الثـاني قـراراً يدعـو فيـه الحكومات المعنية في فلسطين الى:

سحب القوات التابعة لها التي تقدمت عبر المراكز التي كانت تحتلها فـي ١٤ تشـرين الأول (اكتوبر) مع تخويل الوسيط بالوكالة سلطة اقامة خطوط مؤقتة لا يجـوز تحـرك الجنود عبرها.

وبعد صدور هـذا القرار عقد رؤسـاء أركـان الجيـوش العربيـة اجتماعـا فـي القـاهرة حضره: القائمقام أحمد صدقي الجندي والقـائد علـي الحيـاري عـن الأردن، واللـواء عثمـان المهدي عن مصر، والزعيم حسني الزعيم عن سوريا واللواء فؤاد شهاب عن لبنان واللواء اسماعيل صفوت عن العراق. وقد تمخض هذا الاجتماع الذي استمر أربعـة ايـام (١٠-١٣ تشرين الثاني ١٩٤٨) عن وضع تقرير قدم الى اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية.

ومع أن التقرير كلـه يعتبر وثيقـة ذات أهميـة بالغـة فيمـا يتعلق بحـرب فلسـطين منـذ نشوبها حتى تاريخ صدوره، الا انني أجمل أهم النقاط التي تضمنها، فيما يلي:

١- تفوق قوات العدو البرية والجوية على قوات الدول العربية مجتمعه، ووفرة ما لديه من سلاح وعتاد، وقلة ما لدى العرب من ذخائر، ووجـود قيـادة موحـدة لـدى العـدو بينمـا تعمل الجيوش العربية كل على حدة.

٢- هذا الوضع يجبر الدول العربية على اتخاذ موقف الدفاع، وهو موقف سيؤدي بالنتيجة الى الفشل الذريع.

٣- تعود أسباب اخفاق العـرب الـى ان جيوشـهم لـم تكـن مستعدة لخـوض حـرب طويلـة الأجل، والى انهم لم يحشدوا قوات كافية للتغلب على قـوات العدو، ولـم يؤلفـوا قيـادة موحدة، ولم يفيدوا من الهدنتين لاكمال ما ينقصهم من سلاح وعتاد.

٤- المطالبـة بـترك حريـة العمـل للعسـكريين، وان يكـف السياسـيون عـن اتخـاذ قـرارات عسكرية.

وقد أرفق رؤساء الأركان بتقريرهم سبعة ملاحق يتضمن كل واحد منها بياناً بـالقوات العسكرية العاملة فـي الميدان يـوم ١١ تشـرين الثـاني. وفيمـا يلـي، نـص الملحـق المتعلق

بالجيش الأردني وخلاصة لما جاء في الملاحق الاخرى:

الجيش الاردني

- ٣ ألوية كل لواء ٣ كتائب. الكتائب نوعان :

أ - كتيبة آلية وتتألف من ٣ سرايا مشاة + سرية مدرعة (١٥) + سرية اسناد مدافع (٦ رطل) + رشاشات فيكرس. موجودها ٨٠٠ ضابط وجندي. مجموع الكتائب الآلية ثلاث.

ب -كتيبة مشاة وتتألف من ٣ سرايا مشاة + سرية اسناد + سرية قيادة.

جـ -كتيبة مدفعية ٢٥ رطل (١٦ مدفع).

- بطارية هاون ٤,٢ عقدة (٨ مدافع).
- كتيبة مدفعية خفيفة للطائرات - اورلكان.
- سرية هندسة.

العتاد يكفي لمدة اسبوع.

الموقف : كتيبة في خربثا + كتيبة في اللطرون + كتيبة في باب الواد + كتيبة في المثلث عند بيت سيرا، تقوم بواجب الارتباط بين اللطرون وخربثا + كتيبة في بدو والنبي صموئيل + كتيبة في بيت لحم ومعها سرية فرسان وسرية هجانة وسرية هندسة.

المدفعية : بطارية في خربثا - اللطرون - باب الواد.

بطارية في منطقة القدس - بدو.

مدافع ٤,٢ في منطقة خربثا.

لا يتمكن الجيش الأردني من الهجوم لسعة الجبهة وعدم وجود الاحتياط وقلة العتاد(١٣).

الجيش المصري

٤ ألوية عاملة كل لواء ٣ كتائب + ٨ كتائب احتياط + ٤ كتائب قوات مرابطة + ٣ كتائب رشاش فيكرس + ٣ الايات مدفعية ميدان (كل الاي ٣ بطاريات) + مدافع هاون ومدافع مضادة للدبابات ومضادة للطائرات وآلاي دبابات خفيفة + ٥ سرايا سعودية + ٥ سرايا سودانية + ١٥٠٠ متطوع في بيت لحم + قوة جوية تتألف من ٣ أسراب + قوة بحرية ١١ قطعة.

الموقف : جزء يتمركز في خط العوجا – رفح – غزة.

جزء يتمركز في خط الفالوجة – عراق المنشية.

جزء يتمركز في خط الخليل – بيت لحم.

العتاد لا يكفي لأكثر من ١١ يوما.

الجيش العراقي

- ٤ جحافل كل جحفل يتألف من لواء مشاة + كتيبة مدفعية + اسلحة مساندة.
- القوة الآلية وتتألف من فوج مشاة + بطارية ضد الجو + كتيبة مدرعات + كتيبة مدفعية (٢٥ رطل).
- بطارية متوسطة + قوات شرطة في جسر المجامع + فوجان + مناضلون. القوة الجوية : ٨ طائرات فيوري قديمة ولا يمكن استخدامها لمدة طويلة. حجز الانكليز ١٨ طائرة في الهند.

عتاد قليل. لا يستطيع القيام بحرب لمدة ثلاثة أشهر.

الجيش السوري

٣ ألوية كل لواء ٣ أفواج + فوج مدفعية + فوج مدرعات + سرية هندسة + ٣ كتائب خيالة +فوج هجانة + ١٤ طائرة. عتاد الجيش يكفي لأسبوعين. هذه القوة موزعة في بانياس وجسر بنات يعقوب (مشمار هاياردن) والحمه. الاحتياط: لواء.

الجيش اللبناني

٤ أفواج (عدد افرادها ٢٠٠٠) + فوج غير نظامي + بطاريتا مدفعية + ٩ مصفحات + ٩ دبابات. التسليح ضعيف والعتاد يكفي من ٣ الى ٧ أيام.

قسم من القوة في الناقورة وقسم في مرجعيون. ليس للجيش احتياط. دخل اليهود لبنان وتغلغلوا كيلو مترين وبامكانهم ان يتغلغلوا الى ٢٠ كيلو مترا.

جيش الانقاذ

٦ أفواج كل فوج ٣ سرايا + مدافع هاون.

يتمركز الان في أراضي لبنان، وعدد رجاله ثلاثة الآف. جنوده من سوريا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين. قيادته ضعيفة. أصيب بخسائر كبيرة في اندحاره الأخير.

الجيش الاسرائيلي

١٠٠ الف جندي وضابط + ١٠٠ طائرة مقاتلة وقاصفة + مقادير كبيرة من الهاون والرشاشات + مصفحات ودبابات + مدافع ثقيلة + عتاد كثير + ٥ بواخر مسلحة + زوارق في البحر الميت(١٤).

وحدث في تلك الاثناء ان الباجچي رئيس وزراء العراق أوفد الدكتور فاضل الجمالي الى مصر لمقابلة النقراشي والتداول معه حول المساعدة التي يمكن ان يسديها الجيش العراقي للجيش المصري، وخوله ان يعرض على النقراشي (١) وضع الجيش العراقي في فلسطين تحت القيادة المصرية لتتصرف به كما تتطلبه المصلحة (٢) تقدم مصر عتادا للطائرات العراقية (٣) تقدم مصر قرضا للعراق بقيمة مليون جنيه لشراء العتاد، اذا كان المطلوب من الجيش العراقي ان يحارب. وفي طريقه الى مصر، مر الجمالي (ومعه اللواء اسماعيل صفوة) بالأردن، وعند زيارته للقيادة العراقية في الزرقاء عرف الأمور التالية:

١ – ان وضع الجيش العراقي في الجبهة حرج جداً.

٢ – ان العتاد شحيح للغاية، ولا يستطيع الجيش ان يحارب بما لديه من عتاد أكثر من يومين.

٣ – لا يملك الجيش غطاء جويا لان طائراته من طراز فيوري لا تملك عتاداً.

وقابل الجمالي الملك عبدالله فوجد انه يشكو من قلة العتاد في الجيش الأردني ايضاً(١٥).

وفي القاهرة قال النقراشي « إن مصر لا تتحمل مسؤولية قيادة الجيش العراقي، ولا تستطيع تقديم العتاد للطائرات العراقية، وليس لديها قانون اعارة وتأجير كي تسلف العراق مليون دينار للحرب الفلسطينية....» (١٦).

ولم يلبث الباجچي ووزير الدفاع العراقي ان ذهبا الى القاهرة، للبحث في موضوع تقديم المساعدة للقوات المحاصرة في الفالوجة. وفي ١١ تشرين الثاني أرسل الى الفريق الجبوري برقية يقول فيها انه يجب انقاذ القوة المصرية المحصورة، وان سوريا أبدت استعدادها لارسال فوجين وبطاريتي مدفعية، كما أبدى الأردن استعداده لتقديم كتيبة لهذه الغاية. وطلب الوزير تخصيص قوة عراقية، بحيث تتحرك القوة المشتركة لفك الحصار والرجوع مع قوات الفالوجة الى بيت لحم.

في اليوم التالي (١٢ تشرين الثاني) وصل الزعيم سعد الدين صبور وهو يحمل رسالة الى الملك عبد الله من الفريق محمد حيدر وزير الحربية المصرية، وفيها يطلب المساعدة والتعاون لفك الحصار عن القوات المصرية. وطلب الملك عبد الله من صبور وعبد الله التل ان يباحثا الفريق جلوب في الموضوع.

تمخض عن كل هذا اجتماع للعسكريين في الزرقاء حضره اللواء عبد القادر الجندي والزعيم حسني الزعيم والزعيم صبور والفريق الجبوري. وفي هذا الاجتماع وافق الجبوري على اعطاء الفوج الاحتياطي الوحيد الذي لديه، كما علم من حسني الزعيم ان جميل مردم أصر على ارسال الفوجين «على الرغم من أن الوضع العسكري للجيش السوري لا يساعد على ذلك». وفيما بعد أبدى الزعيم صبور رأيه بأن الفوجين السوريين «لا قابلية حربية لهما».

لم يلبث أن ظهر واضحاً أن الاسرائيليين لم ينصاعوا لقرار مجلس الأمن الذي يدعوهم للتراجع الى المواقع التي بدأوا هجومهم منها يوم ١٤ تشرين الأول. ومن هنا اتخذ المجلس قراراً آخر يوم ١٦ تشرين الثاني يقضي بأن تعقد الدول العربية واسرائيل هدنة فيما بينها – من أجل التوصل الى حلول دائمة ومتفق عليها. (كان القرار استجابة للذرائع الاسرائيلية).

في تلك الأثناء كان اليهود يشنون الهجمات على حامية الفالوجة لارغامها على الاستسلام. وفي احدى الليالي قام الميجر لوكت بالتسلل عبر خطوط اليهود الى الفالوجة يرافقه عريف من الجيش الأردني له معرفة بدروب المنطقة. ذهب الرجلان مشيا وعادا بعد ان قضيا يومين في الفالوجة. وعند عودة لوكت أفاد بأن اليهود يقصفون الحامية المصرية بمدافعهم ليل نهار.

يقول الفريق جلوب ان فكرة قيام كتائب ثلاث من ثلاثة جيوش بفك الحصار عن الفالوجة – كانت غريبة وغير سليمة من ناحية عسكرية. ويقول ان العراقيين لم يوافقوا على تسلم جبهة اللطرون لكي تعمل قوات أردنية متجانسة على فك الحصار.

ووصلت الكتيبة العراقية الى بيت لحم خلال ايام ١٧ – ١٩ تشرين الثاني. وعقد ضباط مصريون وأردنيون وعراقيون اجتماعا برئاسة الزعيم صبور ووضعوا الخطوط العريضة للعملية. وتم الاتفاق على ان تذهب مفرزة لدراسة الطريق، وان تعمل القوتان

الأردنية والعراقية والوحدات المصرية الموجودة في منطقة الخليل وقوات الجهاد المقدس على معاونة القوة المحصورة على الخروج (بعد أن تدمر أسلحتها الثقيلة). وقد عهد الى الزعيم صبور بقيادة العملية كلها.

ومضى لوكت مرة أخرى الى الفالوجة ومعه ضابط مصري (الرئيس معروف) وضابط صف بريطاني (فورستر) خبير بالتدمير، وعدد من ضباط الصف الأردنيين ومعهم كمية من المتفجرات. وقد أرسل الزعيم صبور مع لوكت رسالة الى الزعيم سيد طه قائد القوات المحصورة، يشرح له فيها الخطة التي تم الاتفاق عليها، ويقول ان وزارة الدفاع المصرية وافقت على اجراء الحركة. وخلاصة الخطة انه في ليلة يتم الاتفاق عليها يقوم المصريون بالخروج من الفالوجة باتجاه الشرق، بمعرفة أدلاء من الجيش الأردني، بينما تزحف الكتيبة الأردنية لملاقاتهم وللاشتباك مع أية قوة للعدو تحاول صدهم. اما الكتيبة العراقية فقد كان عليها، في الليلة الموعودة ان تهاجم العدو في صور باهر والخضر وسفح جبل المكبر، وان تبقي طريق اريحا – بيت لحم – الخليل مفتوحا. وكان على القوة المحصورة إما أن تدمر أسلحتها الثقيلة أو تتركها خلفها. علما بأن المسافة بين القوة المصرية والمراكز الأمامية للجيش الأردني كانت تقارب ١٢ ميلاً. وكانت تلك القوة تضم نحو ٢٥٠٠ رجل.

عاد الميجر لوكت من الفالوجة ليلة ٢٢ تشرين الثاني. وكان السيد طه رفض القيام بأي اجراء لأنه لم يتلق أمرا بذلك من قيادته في رفح. وعلى الأثر أبرق الزعيم صبور الى رفح، فجاءه الجواب بتأجيل الحركة على أساس وجود حل سياسي. وعاد صبور فأبرق مرة أخرى في ٢٤ تشرين الثاني بوجوب تنفيذ خطة (دمشق)، فكان الجواب في اليوم التالي، انه في حالة اخفاق الحلول السلمية، فسيصدر الأمر بتطبيق تلك الخطة. ومضت الأيام واتضح ان القيادة المصرية غير متحمسة للخطة للاعتقاد بأنها خطرة وبأن العدو قد يكتشفها فيعمد الى مهاجمة القوات في اثناء انسحابها. كما قيل ان الثقة بالضباط الانكليز في الجيش الأردني كانت ضعيفة.

ويقول كرزمان ان سيد طه وافق على الخطة ولكن اللواء فؤاد صادق قائد القوات المصرية في فلسطين لم يوافق. وقد طلب برهانا على امكان اختراق طوق الحصار فأرسل الأردنيون ٥٤ جملاً تحمل المؤن. وعلى الرغم من وصول القافلة فان صادق استمر في

رفض الخطة لعدم ثقته بالفريق جلوب، فعاد لوكت الى الخليل ومعه عدد من الجرحى المصريين. ويمضي كرزمان الى القول ان الاسرائيليين كانوا على علم بتفاصيل خطة (دمشق) لأنهم كانوا يلتقطون الرسائل الرمزية التي كانت تتبادلها الحامية المحصورة مع قيادتها في رفح – وليس بسبب الخيانة كما ظن المصريون.

وجدير بالذكر أن الجيش الأردني أخذ على عاتقه تموين القوات المصرية في قطاع الخليل، كما أرسل عددا من القوافل التي تحمل المؤن الى القوات المحاصرة في الفالوجة. وفي ١٩ تشرين الثاني أرسل الجيش الأردني قافلة مؤلفة من ٥٢ جملا تحمل مؤنا وعتادا. وهذه الجمال ذبحها المصريون وأكلوا لحمها.

من رأي الفريق جلوب أن ٨٠٪ من المصريين المحاصرين في الفالوجة كانوا سيتمكنون من الوصول الى الخطوط الأردنية، لو انهم وافقوا على تلك الخطة. المهم في الأمر ان حامية الفالوجة ظلت صامدة في مواقعها، الى ان تم عقد اتفاقية الهدنة، فانسحبت عائدة الى مصر. وسجلت بصمودها صفحة مجيدة في تاريخ الجيش المصري.

وفي أثناء تلك الأحداث عقد اتفاق لوقف اطلاق النار وقتا حقيقيا مخلصا في القدس وبيت لحم بين قوات الأردن واسرائيل. فقد ظلت أعمال القصف والقنص وتبادل اطلاق النار مستمرة في القدس على الرغم من الهدنة. وسعت لجنة الهدنة والمراقبون الدوليون من أجل تجنيب المدينة المقدسة ويلات القتال، فتم عقد اجتماع يوم ٢٨ تشرين الثاني حضره من الجانب الأردني عبد الله التل (حاكم القدس العسكري) ومعه القائد محمد هاشم قائد الكتيبة الخامسة والقائد محمد المعايطة (قائد الكتيبة السادسة) ووكيل القائد كريم اوهان (ركن الفرقة) والرئيس محمود الروسان (ركن اللواء الثالث). ومن الجانب الاسرائيلي حضر وفد عسكري برئاسة القائد موشي دايان. وقد أصبح هذا الاتفاق ساري المفعول ابتداء من صباح يوم ٢٩ تشرين الثاني. وفي اليوم التالي (٣٠ تشرين الثاني) تم التوقيع عليه من قبل ممثلي الفريقين. وأصر دايان على ان يكون الجيش الأردني مسؤولاً عن احترام القوات المصرية وقوات المناضلين لأحكام الاتفاق، فوافق الوفد الأردني على هذا الشرط. وتضمن الاتفاق وضع ملحق لاتفاقية جبل المشارف (سكوبكس) الموقعة في ٧ تموز، وينص على استبدال نصف الأشخاص اليهود الموجودين هناك مرة كل أسبوعين وارسال المؤن اليهم مرة كل أسبوعين أيضاً.

أما الفوج العراقي فقد بقي في بيت لحم الى أن وردت في ١٤ كانون الأول برقية من القيادة المصرية تقول انه لا مانع من عودته، فعاد الى الشونة بعد أيام قلائل.

هجوم اسرائيل الثاني على مصر

على الرغم من انه لم تكن للعرب قيادة موحدة، فان جبهاتهم الخمس كانت تتأثر بما يحدث في احداها. وقد كان للاختراق الاسرائيلي للجبهة المصرية في شهر تشرين الأول وفصل الجيش المصري الى ثلاث مجموعات – لا تتصل أي منها بالأخرى – تأثير عظيم على بقية الجبهات. فقد أدرك قادة العرب – السياسيون والعسكريون منهم على السواء – أن العدو أصبح يملك قوة ضاربة كبيرة، وانه يستطيع القيام بعمليات هجومية مؤثرة ضد أي جيش من جيوشهم. ومن هنا أصبح هم كل جيش عربي أن يحصن خطوطه ويستعد للدفاع عنها. وقد لاحظنا كيف أن قادة الجيش العراقي – وهو ثاني جيش عربي بعد الجيش المصري من حيث عدد الأفراد وقوة السلاح – لم يوافقوا على أخذ مسؤولية الدفاع عن جبهة اللطرون لكي يتسنى للقوات الأردنية المتمركزة فيه أن تتحرك نحو الشرق الجنوبي من أجل انقاذ الفالوجة. بل أن أولئك القادة لم يوافقوا، الا بعد تردد كبير وضغط شديد، على تحريك كتيبة واحدة الى منطقة بيت لحم للاشتراك في عملية دمشق.

وقد مر معنا كيف ان العدو استولى على البقية الباقية من أراضي فلسطين الشمالية في أواخر تشرين الأول، وكيف سيطر على المنطقة الواقعة الى الجنوب من القدس والى الجنوب الشرقي منها حتى بيت جبرين. ولم يكتف العدو بذلك، فتقدم رتل يهودي في ٢٣ تشرين الثاني من بئر السبع الى مستعمرة اسدوم في الطرف الجنوبي الغربي من البحر الميت، لتعزيز حاميتها، ثم قام ذلك الرتل بالزحف شمالاً مع الشاطي الغربي للبحر الميت حتى مسعده (على موازاة الثلث الجنوبي للبحر الميت من ناحية الغرب). فعل العدو ذلك لتأمين الاتصال مع أسدوم من جهة ولتعزيز مطالبته بالمنطقة او تمهيداً لاستيلائه عليها بالقوة. وانه ليجدر بنا هنا ان نلاحظ ان تلك المستعمرة ظلت صامدة في موقعها المنعزل نحو سبعة اشهر، بل ان سكانها (وهم من عمال مصانع البوتاس) هاجموا ذات يوم مخفر غور الصافي كما مر بنا.

لم يكتف الاسرائيليون بذلك بل ان قوة منهم قامت يوم ٢٩ تشرين الثاني باحتلال عين حصب في وادي عربه، وفي اليوم التالي دخلت مفرزة من سياراتهم المسلحة أراضي

شرقي الأردن قبالة عين حصب وأخذت ثلاثة مدنيين أسرى. بازاء هذا عمدت قيادة الجيش الى ارسال قوة مختلطة من رجال الدرك المسلحين بالبنادق الى جهات وادي عربة لمراقبة تحشدات العدو.

ونرى من برقية بعث بها كركبرايد (١٤كانون الأول) ان القوة اليهودية انسحبت شمالاً بضعة أميال الى عين حفيره، بينما بقيت منها مفرزتان احداهما في عين حصب والأخرى بين عين حصب والبحر الميت، وان دوريات من المفرزتين دخلت أراضي شرقي الأردن في ٩ و ١٥ كانون الأول.

ولم يكن توقف حركات اليهود يومذاك بمعزل عن تدخل أمريكا. فقد قامت وزارة الخارجية الأمريكية بلفت نظر سلطات اسرائيل الى اهتمام الحكومة البريطانية الجدي فيما يتعلق بأراضي شرقي الأردن (١٤ كانون الأول). وكان من جملة حجج اليهود ان الأرض غير مخططة في تلك المنطقة.!! .

لاحظت قيادة الجيش هذه التحركات، وتبادر لأذهان المسؤولين فيها ان العدو يستعد للقيام بعمليات هجومية، ومن هنا صدرت الأوامر للقائد عبد الله التل فأبلغ دايان يوم ٣٠ تشرين الثاني (أي يوم التوقيع على أتفاق وقف إطلاق النار في القدس) ان الأردن لا يريد ايقاف إطلاق النار في القدس اذا كانت اسرائيل ستقوم بحملة عسكرية جديدة الى الجنوب من البحر الميت. وقد وعد دايان ان يحاول إيقاف حركة القوات الاسرائيلية في تلك المنطقة.

وفي هذا الصدد يقول الفريق الجبوري انه نتيجة لتقدم اليهود في الجنوب وفي الجليل وفي منطقة البحر الميت الجنوبية، أصبحت القوات العراقية والأردنية محاطة بالقوات اليهودية من ثلاث جهات: الشمال والغرب والجنوب.

كان من الطبيعي ان ترافق الأحداث العسكرية أحداث أخرى سياسية. ففي أثناء بحث مشروع الحل السلمي الذي وضعه برنادوت – وهو المشروع الذي اقترح ضم الجزء الباقي للعرب من فلسطين الى شرقي الأردن – تنادى عدد من أعيان النازحين الفلسطينيين وعقدوا مؤتمراً لهم في عمان يوم ١ تشرين الأول ١٩٤٨ برئاسة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي. كان ذلك المؤتمر رداً على تأليف حكومة عموم فلسطين قبل ذلك ببضعة ايام، اذ جاء في البيان الذي أصدره انه « لن يقبل ان تُفرض على عرب فلسطين حلول من قبل

تلك الفئة من متزعمي فلسطين سابقا الذين ضج الشعب الفلسطيني خلال الثلاثين عاماً الماضية من سوء تصرفاتهم». وجاء في البيان ان المؤتمر يفوض الملك عبد الله تفويضاً تاماً مطلقاً في أن يتحدث باسم عرب فلسطين ويفاوض عنهم ويعالج مشكلتهم بالأسلوب الذي يراه.

ولكن الأمور تطورت بصورة خطيرة بعد أن اخترق اليهود الجبهة المصرية واستولوا على بئر السبع في أواخر شهر تشرين الأول. فقد شعر أهالي منطقة الخليل باقتراب الخطر أكثر من أي وقت مضى، وذهب وفد منهم يزيد اعضاؤه على مائة شخص الى عمان، وقابلوا الملك عبدالله ورئيس الوزراء ووزير الدفاع طالبين أن يعمل الأردن على الدفاع عن منطقتهم.

وبالفعل عملت قوات الجيش الأردني على الدفاع عن تلك المنطقة – كما مر معنا. الا أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد اذ لم يلبث أهالي منطقة الخليل وبيت لحم والقدس ورام الله، حتى عقدوا مؤتمراً لهم في أريحا، ترأسه الشيخ محمد علي الجعبري وذلك في يوم ١ كانون الأول. وقد بايع المؤتمر الملك عبدالله ملكاً على فلسطين، وقرّر توحيد فلسطين مع شرقي الأردن. وعلى الأثر قام الملك عبدالله بزيارة بيت لحم والخليل يومي ٩–١٠ كانون الأول، وأكد للأهلين أن الأردن لن يتخلى عنهم.

بحث مجلس الوزراء قرارات المؤتمر وأصدر بلاغاً جاء فيه أن رغبة سكان فلسطين تتفق مع رغبات الحكومة الأردنية، وأنها ستبادر الى اتخاذ الاجراءات الدستورية لتحقيقها. وفي ١٣ كانون الأول اجتمع مجلس الأمة الأردني واتخذ قراراً بالموافقة على وحدة فلسطين والأردن.

أثارت هذه القرارات ضجة عظيمة في مصر وسوريا اللتين كانتا تؤيدان حكومة غزة. واشتدت الخلافات بين الدول العربية.

وبعد هجوم اسرائيل الثاني على مصر، عقد مؤتمر نابلس في ٢٨ كانون الأول ١٩٤٨ برئاسة سليمان طوقان، وبايع الملك عبدالله ملكاً شرعياً على فلسطين وشرقي الأردن واعتبار القطرين مملكة واحدة.

وهكذا نلاحظ ان تراجع الجيش المصري، واستيلاء اليهود على بئر السبع والمجدل واسدود، ومناطق أخرى، ترك تأثيراً كبيراً في نفوس أهالي المناطق الأخرى، اذ ضعف

أملهم بحكومة غزة فاتجهوا الى الأردن ينشدون الاتحاد معه.

رافقت هذه الأحداث السياسية في داخل فلسطين أحداث أخرى على المستوى الدولي. ذلك ان مجلس الأمن اتخذ في تلك الاثناء قرارين مهمين يتعلقان بالمناطق التي اجتاحها العدو ويأمران قواته بالانسحاب عنها. ففي ٤ تشرين الثاني دعا مجلس الأمن الفريقين الى الانسحاب الى المواقع التي كانت بأيدي كل منهما في يوم ١٤ تشرين الأول، ثم المباشرة بالمفاوضات من أجل اقامة خطوط هدنة دائمة بينهما. كان واضحاً أن القرار يطلب من اسرائيل أن تسحب قواتها الى المواقع التي كانت فيها قبل بدء هجومها.

لم يستجب اليهود لهذا القرار، فاتخذ مجلس الأمن قراراً ثانياً في ١٦ تشرين الثاني قرر فيه اقامة هدنة دائمة في جميع قطاعات فلسطين. ودعا جميع الأطراف المعنية للاتفاق على اقامة تلك الهدنة الدائمة فوراً، ورسم خطوطها عن طريق المفاوضات المباشرة أو غير المباشرة.

وتوجه الدكتور بانش بأسئلته الى الأردن، فأجاب الأردن انه يوافق مبدئياً على جعل الهدنة الحالية في منطقته هدنة دائمة، وانه من الممكن البدء بالمفاوضات لرسم خطوط الهدنة. ولم يلبث ان تم الاتفاق يوم ٦ كانون الأول – عن طريق المراقبين الدوليين – على أن يكون هناك وقف حقيقي لاطلاق النار بين قوات الأردن واسرائيل من القدس الى اللطرون، وان يمتد في اليوم التالي من بيت لحم الى قرية بدرس (المحاذية لخطوط الجيش العراقي). وقد تم التوقيع على هذا الاتفاق من قبل ضباط أردنيين واسرائيليين.

يقول الفريق الجبوري إن حكومة العراق فوجئت بعقد هذا الاتفاق، فأرسلت يوم ١٣ كانون الأول برقيةً الى الحكومة الأردنية، تستوضح عما اذا كانت «الهدنة» ستجعل الجيش الأردني يتمسك بها فيما لو هاجمت اسرائيل قوات العراق. وفي ١٥ كانون الأول أجاب الملك عبدالله «ببرقية قال فيها لا هدنة عمومية. ولكن عقدت في القدس هدنة محلية» ، وإن الأردن سيهب لنجدة العراقيين اذا هوجموا. وأجابت الحكومة الأردنية ان الهدنة غايتها ايقاف اطلاق النار في القدس، لأن الهدنة « لم تنفذ في القدس يوماً واحداً».

ويقول الفريق جلوب ان الاقتراح بالتوقف الحقيقي عن اطلاق النار جاء من الاسرائيليين. وانه ذهب يسأل الملك عبدالله عن رأيه، فرد الملك قائلاً: هناك مثل عند الأتراك يقول: اذا كنت تعبر فوق جسر مهترىء، وصادفتك دبّة في أثناء العبور، فمن

الأفضل أن تخاطبها بقولك: يا عمتي العزيزة.

وبينما كانت هذه الأحداث تجري على الجبهة الأردنية، وفي الوقت الذي كان الأمل فيه ما يزال يداعب النفوس بخروج حامية الفالوجة، قامت القوات الاسرائيلية يوم ٢٢ كانون الأول بشن هجوم واسع النطاق ضد القوات المصرية التي كانت تتمركز في قطاع غزة. وكان ذلك القطاع يمتد من بيت حانون شمالاً الى رفح – على حدود مصر الدولية – جنوباً، وطوله ٤٠ كيلو متراً ويتراوح عرضه بين ٥ و ٨ كيلو مترات. تركز الهجوم أولاً على مدينة خان يونس وقرية دير البلح. ثم أعقبه هجوم آخر على مدينة غزة، وكانت الطائرات المقاتلة وقاذفة القنابل تدعم هجمات العدو. ولم يستطع الأعداء ان يحرزوا تقدماً واسع النطاق على جبهة قطاع غزة، بسبب قوة الدفاعات المصرية، فتحولوا لمهاجمة الخطوط المصرية الممتدة من عصلوج الى عوجا الحفير.وحالف الأعداء النجاح في هذا الهجوم فاستولوا على عصلوج وعوجا الحفير وابو عجيلة، وتمت لهم السيطرة على صحراء النقب كلها، ثم اجتازوا حدود مصر الدولية الى سيناء واتجهوا نحو العريش فوصلوا الى مسافة ٩ كيلو مترات منها. ولم يلبث الأعداء حتى هاجموا رفح وظلوا يهاجمونها حتى توقف القتال يوم ٧ كانون الثاني ١٩٤٩. وبينما كانت القوات المصرية تخوض معارك حامية الوطيس وتقاوم هجمات العدو، اغتيل رئيس وزراء مصر محمود فهمي النقراشي يوم ٢٨ كانون الأول، الأمر الذي زاد من خطورة مسؤوليات الحكومة المصرية، واقتضى منها ان تواجه العدو الخارجي وتواجه خطر الاضطرابات الداخلية في آن واحد (١٧).

أثار اختراق الاسرائيليين حدود مصر الدولية ضجة عالمية، واتخذ مجلس الأمن الدولي بتاريخ ٢٩ كانون الأول قراراً آخر دعا فيه الحكومات المعنية ان تأمر فوراً بوقف اطلاق النار، وان تنفذ قرار مجلس الأمن بتاريخ ٤ تشرين الثاني (أي عودة قوات اسرائيل الى المواقع التي كانت فيها قبل بدء هجومها الأول على القوات المصرية). ولكن الاسرائيليين واصلوا الهجوم متذرعين بحجة فظيعة الا وهي ان المصريين ما يزالون يطلقون النار. وبالفعل لم يتوقفوا الا عندما حققوا الهدف الذي كانوا يسعون اليه.

من المرجح ان الاسرائيليين لم يوقفوا هجومهم الا لسببين رئيسيين. أولهما تهديد بريطانيا بأنها ستساعد مصر على الدفاع عن حدودها الدولية (عملاً بأحكام المعاهدة

البريطانية – المصرية) اذا لم ينسحب اليهود، وثاني تلك الأسباب (وهو الأهم) ان مصر طلبت الهدنة – **دون أن تشترط على اليهود ان يعودوا الى الخطوط التي بدأوا هجومهم منها يوم ١٥ تشرين الأول** – فوافق هؤلاء وأوقفوا هجومهم. وكان الطلب المصري قد وصل الى الدكتور بانش يوم ٤ كانون الثاني ١٩٤٩ وفيه أعربت مصر عن استعدادها لارسال وفد الى جزيرة رودس اذا أوقف الاسرائيليون هجومهم. ولم يلبث آلون قائد القوات الاسرائيلية المهاجمة – حتى تلقى أمراً بايقاف هجومه في داخل الأراضي المصرية، ولكنه لم يبدأ انسحابه الا بعد ذلك بأربعة أيام، وبعد أن دمرت قواته عدداً من مواقع الجيش المصري. وفي ٧ كانون الثاني ١٩٤٩ تم الاتفاق على ايقاف القتال في قطاع غزة، وقد حدث في اليوم الذي توقف فيه القتال ان خمس طائرات بريطانية خرجت من منطقة قناة السويس في عملية استكشاف فأسقطتها الطائرات الاسرائيلية كلها. (لم تكن طائرات الانكليز مسلحة، كما قالوا).

من هذا يتضح لنا أن الاسرائيليين تجاهلوا قرارات مجلس الأمن الدولي، بل ازدروها، بعد أن اقتنعوا – منذ اغتيالهم برنادوت – ان قرارات ذلك المجلس لم تكن سوى حبر على ورق، وانه لا توجد هناك دولة واحدة من الدول الكبرى على استعداد لمهاجمتهم بقواتها العسكرية. ولكن الأمر اختلف الى حدّ ما عندما اخترقوا حدود مصر الدولية، لأن بريطانيا أدركت عندئذ أن مصالحها الحيوية في خطر، فقد كان الوجود البريطاني في منطقة قناة السويس ما يزال قوياً وكبيراً، وكانت منطقة القناة ما تزال في نظر بريطانيا قاعدة ذات أهمية بالغة على طريق مواصلاتها الى الشرق والى عدن وأقطار الخليج العربي. ومن هنا كان التهديد البريطاني بالتدخل، وهو تهديد رافقه ضغط أمريكي شديد، فأوقف الاسرائيليون هجومهم عبر الحدودَ المصرية. ولكنهم ظلوا يواصلون الهجوم على قطاع غزة، حتى اضطروا مصر للقبول بعقد الهدنة الدائمة على شروطهم، اقتناعاً منهم (كما أعتقد) ان ذلك أفضل من الاستيلاء على قطاع غزة دون التوصل الى عقد هدنة دائمة.

وتلقي الوثائق الأمريكية ضوءاً على تلك الأحداث يساعد على استكمال الصورة. فقد كانت حجة الاسرائيليين في هجومهم الثاني ان المصريين لم يعلنوا رغبتهم للتفاوض معهم (طبعاً على شروطهم) بينما كان الفريق محمد حيدر قد أبلغ الجنرال رايلي (كبير مراقبي الهدنة) استعداد مصر فعلاً للتفاوض اذا ما انصاعت اسرائيل لقرار مجلس الأمن في ٤

تشرين الثاني – أي اذا انسحبت الى مواقع ١٤ تشرين الأول ١٩٤٨ (١٨).

وعندما اقترب الاسرائيليون من العريش يوم ٣٠ كانون الأول، أرسلت بريطانيا مذكرة الى الحكومة الأمريكية تقول فيها انه «اذا لم ينسحب اليهود فان بريطانيا ستنفذ معاهدتها مع مصر، وان بريطانيا تأمل ان تتدخل أمريكا مع اليهود حتى لا تضطر [بريطانيا] الى ذلك، مما سيكون له نتائج بعيدة المدى. عليهم ان ينسحبوا في الحال من أراضي مصر». وعندما وصلت هذه المذكرة الى الرئيس ترومان في اليوم نفسه انتبه لخطورة الوضع، فأصدر أمره الى جيمس مكدونلد – ممثل أمريكا الخاص لدى اليهود – ان يبلغ بن غوريون في الحال رسالة يعرب فيها عن قلق الحكومة الأمريكية، وعن عزم بريطانيا على تنفيذ معاهدتها مع مصر – اذا لم تنسحب قوات اسرائيل – وانه لا بد لقوات اسرائيل ان تنسحب فوراً من أراضي مصر، اذا أُريد تفادي قيام صراع واسع النطاق.

بادر مكدونلد للاتصال بشرتوك فأبلغه هذا أن بن غوريون في طبريا، وانتحل أعذاراً غريبة. ولكن شلواح (أحد موظفي وزارة خارجية اسرائيل) أبلغه يوم ٣١ كانون الأول «ان الأوامر صدرت لسحب الوحدات الاسرائيلية الصغيرة في الحال من الأراضي المصرية».

ومضى الاسرائيليون يهاجمون القوات المصرية في قطاع غزة (على اعتبار انه ليس من أراضي مصر) الى أن أبدت مصر استعدادها يوم ٤ كانون الثاني للدخول في محادثات مع اسرائيل تحت اشراف الأمم المتحدة، اذا ما توقف الاسرائيليون عن اطلاق النار.

في الوقت نفسه رفضت الحكومة الأمريكية ان تضغط على اليهود من أجل اطاعة قرار مجلس الأمن القاضي بانسحابهم – بحجة ان ذلك من واجب مجلس الأمن وليس من واجبها هي.!!

وهكذا توقف ألقتال في يوم ٧ كانون الثاني ١٩٤٩ بعد ان رضخت مصر لشروط اسرائيل. وفي ١٢ كانون الثاني وصل وفد المفاوضات المصري الى جزيرة رودس.

وفي أثناء هجوم اليهود استدعى الملك عبدالعزيز ابن السعود الوزير البريطاني المفوض (٣٠ كانون الأول ١٩٤٨) وطلب اليه ان تضغط الحكومتان الأمريكية والبريطانية على الطرفين لكي يتوصلا سريعاً الى تسوية نهائية، تحت التهديد باستعمال أقصى العقوبات الاقتصادية. واجتمع يوسف ياسين (نائب وزير الخارجية السعودية) يوم ٩ كانون الثاني ١٩٤٩ بالوزير المفوض الأمريكي، ونقل اليه رسالة من الملك عبدالعزيز يطلب فيها

ان تستعمل أمريكا وبريطانيا القوة ضد العرب واليهود للفصل بينهما ومنعهما من الاستمرار في القتال.

الطريق الصعب الى الهدنة الدائمة

لم تكن الطريق الى اتفاقية الهدنة الدائمة بين الأردن واسرائيل ممهدة أو معبدة كما يعتقد بعض الناس وكما يتوهم البعض الآخر. في واقع الأمر كانت حافلة بالخطر والقلق والضغط والتهديد. كانت طريقاً وعرة شاقة وقد احتاج السير عليها الى قدر كبير من الشجاعة والشعور بالمسؤولية. حقاً انه تم التوصل الى الهدنة بين الأردن واسرائيل، دون الالتحام في معارك ضارية، كما حدث قبل عقد الهدنة بين مصر واسرائيل. وفي يقيني انه لولا شجاعة الملك عبدالله، لما استطاع الأردن ان يتفادى الدخول في قتال دام مع العدو، وهو قتال ما كانت نتيجته تخفى على كل ذي عينين. كان الجيش الأردني قد توسع حقاً وارتفع عدد رجاله الى عشرة آلاف، ولكن جيش العدو كان قد ارتفع في الوقت ذاته الى ١٢٠ الف رجل. ولا ضرورة للحديث عن الفارق الكبير بين أسلحة الطرفين، وما كان يملك كل منهما من عتاد ومعدات، بل لا ضرورة للحديث عن سلاح الجو القوي الذي كان العدو قد أنشأه – فكل ذلك معروف ولا يحتاج الى بيان. ويعتقد كثيرون ان اتخاذ قرار بالدخول في الحرب أكثر صعوبة من اتخاذ قرار بتفادي الحرب، ولكن الحقيقة كان اتخاذ القرار بتفادي الحرب – بالنسبة للأردن – أشد مرارة وعسرا من قرار الاقدام على خوضها.

لقد خلق اقدام اليهود على خرق الهدنة في الجبهة المصرية واستيلائهم على مساحات واسعة من الأرض، وشطرهم الجيش المصري الى ثلاثة أجزاء، وعدم انصياعهم لثلاثة قرارات من مجلس الأمن – كل ذلك خلق وضعاً جديداً ليس على الجبهة المصرية فقط بل على الجبهات الأخرى. وقد رافق خرق الجبهة المصرية اندحار جيش الانقاذ ووقوف قوات لبنان وسوريا والعراق والأردن وقفة دفاع مستكن. اللهم الا اذا استثنينا حركة قوة من الجيش الأردني الى قطاع بيت لحم والخليل، مما حال دون انهيار الجبهة هناك وأدى الى تثبيت الوضع الى حد ما.

يقول الفريق جلوب: ان اضافة منطقة الخليل الى مسؤولياتنا ضاعف من طول جبهتنا. أصبحنا نتمركز على طول ١٠٠ ميل تقريباً، وكنا قد ألقينا جانباً الحذر من

المصاعب المالية وجندنا كثيرين، حتى تضاعف عدد رجال الجيش في ستة أشهر وارتفع الى عشرة آلاف رجل. وكان المجندون الجدد يرسلون الى الجبهة بعد تدريب قصير لا يتجاوز اسبوعين.. وفي أول تشرين الثاني وجد الجيش العربي نفسه في وضع لا يحسد عليه. لقد أصبحت جيوش مصر وسوريا ولبنان عاجزة عن خوض معارك القتال، ولم يبق في الميدان سوى الجيشين الأردني والعراقي (١٩ الفاً). كنا قد استهلكنا معظم عتاد مدافع ٢٥ رطلاً، وكذلك قنابل الهاون ٢ و ٣ بوصات، ومدافع البيات ومدافع ٦ رطل وقنابل ملز اليدوية. ولم يبق من عتاد هذه الأسلحة سوى كميات لا تكاد تذكر... وكانت بريطانيا مصرة على الامتناع عن تزويدنا بما كنا في أشد الحاجة اليه من عتاد.

وجاء في برقية بعث بها كركبرايد (٢ تشرين الثاني) ان الجيش العراقي في حالة تخوف شديد، اذ يتوقع ان يشن اليهود هجومهم التالي عليه. وقد طلب العراقيون من الجيش الأردني أن يعزز المفارز العراقية في جسر المجامع. أما الفريق الجبوري فيقول انه كانت هناك خشية من ان يتقدم اليهود من جهة بيسان عبر جسر الشيخ حسين، لذلك أعدت القيادة الأردنية الترتيبات لنسف الجسر عند الحاجة، وأرسلت أربعة فصائل مع فصيل هندسة الى منطقة جسر المجامع لتكون الى جانب كتيبة الشرطة العراقية هناك.

وفي ٢٧ تشرين الأول اجتمع بيفن مع مارشال في باريس، وأبلغه انه يتعرض لضغط شديد من أجل تقديم بعض الأسلحة والعتاد للأردن لكي يبقى جيش الأردن قائماً، لأن ذلك الجيش قد يتعرض لهجوم يهودي كبير بعد انهزام المصريين. ومما قاله بيفن ايضاً «ان بريطانيا لا تستطيع ان تقف مكتوفة الأيدي وترى الأردن وترى جيشه في وضع لا يستطيع فيه الدفاع عن وجوده ضد هجوم يهودي محتمل.. واذا شنت القوات الاسرائيلية هجوماً على شرقي الأردن في أي وقت فان بريطانيا ستلتزم في الحال بمقتضيات معاهدة الصداقة مع الأردن...». وكان جواب الرئاسة الأمريكية (ترومان) الى مارشال «... من المهم اقناع الانكليز بعدم تسليح الأردن، لأن هذا سيثير ضجة واسعة هنا للمطالبة بتزويد اسرائيل بالسلاح».

أرجو ان يلاحظ القارىء أن بريطانيا كانت ترى أن معاهدتها مع الأردن تبيح لها التقدم لمساندته اذا ما تعرضت أراضيه الأصلية (شرقي الأردن) للخطر. وهذه كانت أيضاً وجهة نظر بريطانيا ازاء مصر.

وبعد أربعة أيام اجتمع بيفن ومارشال مرة أخرى. وقال بيفن انه قلق جداً على الجيش الأردني الذي لا يملك الا القليل القليل من العتاد بسبب تشدد بريطانيا في حظر السلاح عن العرب، وانه اذا تحركت قوات اسرائيل ضد الجيش الأردني فانه سيكون مضطراً لتزويد الأردن بالعتاد...

ويمكن ان نستدل على حقيقة الوضع في جبهات فلسطين من تقرير بعث به الجنرال رايلي الى الدكتور بانش بتاريخ ٣ تشرين الثاني. فقد جاء فيه قوله:

لم تبق لنا سلطة أو هيبة، ولم يعد بمقدورنا ان نعمل سوى نقل أنباء الانتهاكات .. لقد أصبحت انتهاكات الهدنة بصورة طوعية ومرتبة، أمراً عادياً بالنسبة لليهود. أما القوات العربية فتحاول بصورة عامة أن تلتزم بوقف اطلاق النار..

... اليهود الآن أقوى بكثير من جميع القوات الأخرى فيما لو وحدوا قواتهم العسكرية الهجومية ... ولو أراد اليهود لاستطاعوا دون شك ان يخرجوا القوات العربية من فلسطين كلها في وقت قصير نسبياً.

ان الحذر والتخوف من هجوم اسرائيلي جديد (بعد ما حدث على جبهة مصر وجبهة لبنان) لم يقتصر على الزعماء السياسيين والقادة العسكريين (في سوريا والعراق والأردن) بل شغل ايضا أذهان الفلسطينيين في المناطق الباقية للعرب. اننا نلاحظ هذا مما جاء في برقية لممثل أمريكا (ستابلر) في عمان، بعث بها في ٩ تشرين الثاني :

أعداد من وفود عرب فلسطين، من سكان المدن ومن اللاجئين، تقدموا الى الملك عبدالله خلال الأسابيع الماضية، يطلبون – وبعضهم يصر في الطلب – على أن يجري مفاوضات. بعض أعضاء تلك الوفود قالوا انه اذا لم يعمد الملك الى التفاوض فانهم سيقومون هم بذلك ...

وهذا القول يطابق تماما ما رواه عارف العارف (ص ٧٥٢) من ان الشيخ محمد علي الجعبري رئيس وفد منطقة الخليل الذي جاء الى عمان في أواخر شهر تشرين الأول، قال يخاطب الملك عبد الله :

اذا لم تشدوا أزرنا وتدافعوا عن وطننا، فأننا سنمد أيدينا الى اليهود، وسنحارب دول الجامعة العربية.

وفي ٨ تشرين الثاني اجتمع قنصلا أمريكا وفرنسا في القدس العربية بحاكمها العسكري عبد الله التل. وكان مما قاله لهما :

ان عرب فلسطين يشعرون بضعف الأمل، وهم يطالبون الملك عبد الله بأن يحل القضية على أي وجه يراه مناسباً.

ووصف التل وضع العرب العسكري بانه «يائس»، مع اصراره على أن الجيش الأردني سوف يقاتل بشراسة اذا هوجم، على الرغم من أن الأمل ضعيف بالنجاح.

وعلم ستابلر (١٠ تشرين الثاني) من أحد موظفي ديوان الملك عبد الله، أن الملك أرسل في ٣ تشرين الثاني رسالة خاصة الى الملك فاروق يحيطه فيها علماً بأن كثيرين من عرب فلسطين يرغبون بانهاء الحرب والوصول الى تسوية، وبأنه يعتقد ان هذا الأمر جدير بالاهتمام الجدي، وإذ انه لا يرى الاقدام على خطوة كهذه منفرداً، فهو يود استشارة زملائه (رؤساء الدول العربية). وقال محدث ستابلر ان الملك لم يتلق جواباً على رسالته حتى ذلك الحين ..

انه لمن المحتمل ان تكون هذه الرسالة استجابة لرسالة شخصية تلقاها الملك في ذلك اليوم بالذات من الفريق محمد حيدر وزير الحربية المصري، يرجوه فيها ان يقترح على الملك فاروق أن الوقت قد حان للتوصل الى السلم مع اسرائيل.

ونرى صورة أخرى لوضع الأردن من خلال مقابلة بين بيفن والسفير الأمريكي في لندن يوم ١٢ تشرين الثاني :

... ان بريطانيا لم ترسل أية أسلحة للعرب على الرغم من معاهدتها مع الاردن والدول العربية الأخرى، بل لم ترسل أسلحة ومعدات لقواعدها في العراق والأردن. السبب يعود الى رغبة بريطانيا في بقاء علاقاتها متينة مع أمريكا. وفي الوقت نفسه تسلم اليهود مقادير كبيرة من السلاح من السوفييت (عن طريق تشيكوسلوفاكيا) فاصبحت لهم الآن قوة طيران كبيرة... نتيجة ذلك أصبح الجيش الأردني قريباً من حالة العجز، وليس لديه أكثر من ألفي قذيفة لمدافع ٢٥ رطل. وإذا ما هاجم الاسرائيليون الجيش الأردني، فأن بريطانيا تشعر بضرورة تزويد الأردن بالسلاح طبقاً لمعاهدتها معه. أما اذا زحف الاسرائيليون على حدود شرقي الأردن، فأن بريطانيا ستشعر باضطرارها للدفاع عن شرقي الأردن بقواتها العسكرية، أي أنها

ستدخل في حرب مع اسرائيل، وبذلك سيقع انقسام حقيقي بين بريطانيا وأمريكا..

وفي اليوم التالي (١٢ تشرين الثاني) استدعى اتلي رئيس وزراء بريطانيا، السفير الأمريكي في لندن وقال له:

نحن قلقون جداً للوضع في فلسطين... ان قرار مجلس الأمن في ١١/٤ يقضي تعيين وقت لانسحاب القوات.. الوضع حرج خاصة اذا رفض اليهود الانصياع للقرار.. ان رؤساء الأركان أبلغوا الوزارة البريطانية ان أمن الأردن - حليف بريطانيا - أصبح مهدداً نتيجة لتوسعات اليهود الأخيرة. وعليه فأننا يجب ان ننظر في العمل الذي سنتخذه فيما اذا عمد اليهود الى خرق الهدنة مرة أخرى وهاجموا قوات الأردن التي لم تدخل قط أراضي فلسطين التي خصصها قرار التقسيم لليهود. اذا هاجم اليهود أراضي شرقي الأردن كما هاجموا لبنان (يحتل اليهود الآن ١٦ قرية من لبنان)، فان بريطانيا ستكون مضطرة لتقديم مساعدة عسكرية الى حليفها. الاعتراضات على تقديم بريطانيا مساعدتها للقوات الأردنية في فلسطين - اعتراضات واضحة وجدية، ولا تود بريطانيا ان تسلك ذلك الطريق. ولكننا لا نستطيع الانتظار حتى نرى القوات الأردنية تتراجع الى ما وراء حدود شرقي الأردن.. وهناك الخطر الماثل على مطارنا في عمان، علماً بأن قوات اليهود في وقت سابق ألقت قنابلها على عمان.. اذا رفض اليهود الانصياع لقرار مجلس الأمن، فعلى المجلس ان يرفع الحظر عن تقديم السلاح للجانب الآخر...

وفي أثناء المقابلة قال لورد تيدر: منذ قرار الحظر على السلاح لم ترسل بريطانيا شيئاً الى العرب حتى قطع الغيار الضرورية للأسلحة.

وبطبيعة الحال قام السفير الأمريكي بابلاغ حكومته بوجهة نظر بريطانيا.

الواقع ان الاسرائيليين لم يتكتموا في اعلان موقفهم. ففي ١٥ تشرين الثاني أعلن شرتوك أمام لجنة الجمعية العامة للأمم المتحدة:

ان اسرائيل لا تقبل توصيات برنادوت حتى كأساس للبحث. وانها لن تتنازل عن أي جزء من النقب، وان القدس الجديدة جزءٌ من اسرائيل والمناطق التي تصل القدس بالساحل، وكل الجليل يجب ان يكون جزءاً من اسرائيل... ان على الأمم المتحدة ان تطلب من المعتدين أن ينهوا الحرب ويفاوضوا من أجل السلام.

وفي اليوم التالي أعلن أحمد الشقيري، باسم اللجنة العربية العليا، أمام لجنة الأمم المتحدة، رفض مقترحات برنادوت كأساس لتسوية المشكلة الفلسطينية.

ولكن شتان بين قول شرتوك الذي تدعمه القوة العسكرية، وبين قول الشقيري المجرد من قوة السلاح.

أما الرأي العام العربي فلم يكن يعرف الحقيقة. كان السياسيون والصحافيون قد أدخلوا في روعه ان الجيوش العربية قادرة على سحق الغزاة. وهكذا قامت المظاهرات في عمان يوم ٢ تشرين الثاني تهتف ضد الحكومات العربية لانها لم تلحق الهزيمة باسرائيل. وفي ٤ كانون الأول قامت مظاهرة مماثلة في دمشق تهاجم اتفاقية وقف اطلاق النار. كانت الجماهير تريد النصر، والويل لمن يقول ان الجيوش العربية لم تعد قادرة على تحقيق النصر المنشود.

كانت وجهة نظر وزارة الخارجية الأمريكية يومذاك تقول ان اسرائيل لا تستطيع ان تحصل على النقب بموجب التقسيم وفي الوقت نفسه تحصل على الجليل بموجب مشروع برنادوت.. واذا ارادت اسرائيل أن تحتفظ بيافا والجليل الغربي، فعليها ان تعوض عن ذلك في أراضي النقب الجنوبي. ولكن الخارجية الأمريكية كانت تحت أمر ترومان، وكان ترومان يقول «انه لا يمكن ادخال تعديلات على قرار التقسيم الا اذا قبلتها تماماً دولة اسرائيل». وألحت الحكومة البريطانية على اعطاء جزء من النقب للعرب «ان النقب يشبه نصل خنجر يقسم العالم العربي... العرب والأردن يجب أن يكون لهم ممر – لا ينازعهم أحد فيه – على البحر الأبيض وخليج العقبة، ومع الممر أرض كافية تؤمنه ضد أي هجوم عدائي».

ولكن بريطانيا لم تستطع اقناع ترومان بالضغط على اليهود. واليهود كانوا يحرضون أمريكا قائلين ان بريطانيا تريد النقب خدمة لمصالحها هي وليس اهتماماً بمصالح العرب.

واستغاث وايزمن (رئيس دولة اسرائيل) بالرئيس ترومان، فأبرق اليه هذا يوم ٢٩ تشرين الثاني قائلاً:

النقب مهم لاسرائيل وأنا أشجب أية محاولة لأخذه منكم.

وقام بانش ورايلي بجولة على بعض الأقطار العربية لكي يستوضحا من رؤسائها عما اذا كانوا يوافقون على ما نص عليه قرار مجلس الأمن بتاريخ ١٦ تشرين الثاني من

الدخول (مع اسرائيل) في مفاوضات بقصد عقد الهدنة الدائمة. واجتمع بانش بالملك عبدالله ورئيس الوزراء في الشونة يوم ٥ كانون الأول، فأبلغه الملك (بناء على قرار من رئيس الوزراء) ان الأردن يوافق على مضمون القرار. وفي أثناء الاجتماع سمع بانش تعليقاً من الملك ورئيس الوزراء: بأن أمريكا لا تريد الاعتراف بالأردن، لكي تعطي لاسرائيل فرصة فيما بعد للمطالبة بأراضٍ أردنية أخرى «انهم في الأردن لا يفهمون سبباً لرفض أمريكا الاعتراف بالأردن وهم متحسبون للغاية».

أعقب هذا اتصالات بين الأردن واسرائيل هدفها عقد اتفاق الهدنة الدائمة. جاءت المبادرة من اسرائيل في ١٠ كانون الأول. وقد تولى الحاكمان العسكريان في القدس (موشي دايان وعبدالله التل) ترتيب الاتصالات منذ ذلك التاريخ حتى الوصول الى الاتفاق الفعلي بعد نحو أربعة أشهر. وفي اليوم التالي حدث اجتماع بين مندوبين اسرائيليين ومندوبين أردنيين، فقدم الجانب الأردني نقاطاً أولية من جانبه:

- احترام قرارات مؤتمر أريحا [أي الاحتفاظ بالأراضي التي كانت ما تزال بأيدي العرب وتوحيدها مع الأردن].
- اعادة اللد والرملة.
- المذاكرة بشأن يافا والنقب والجليل.
- القدس العربية للعرب واليهودية بيد أهلها.

وتم الاجتماع الثاني في ١٣ كانون الأول، وكان الرد الاسرائيلي:

- لا اعتراض على تنفيذ الأردن لقرارات أريحا.
- مصير القدس يترك للمفاوضات بين الطرفين.
- ننصح باعلان الهدنة الدائمة.
- ننصح بسحب القوات العراقية واحلال قوات أردنية محلها، ولن نمس هذه الأماكن بسوء حتى نهاية المباحثات. أما اذا بقيت القوات العراقية في مراكزها فنخشى ان نصطدم بها يوماً من الأيام (١٩).
- ننصح بسحب القوات المصرية من جنوب القدس والخليل.

لنلاحظ هنا أن اليهود لم يعلقوا على موضوع اللد والرملة ويافا والنقب والجليل.

وكان رد الأردن في اليوم التالي على المقترحات الاسرائيلية:

- القدس العربية للعرب والجديدة لليهود، وتترك التفاصيل للمباحثات.
- نوافق على الهدنة الدائمة على شرط ان تبقى سرية، وأن تسري أحكامها على الجبهة العراقية.

كان واضحاً أن سبب طلب الأردن أن تكون الهدنة سرية، ان الرأي العام العربي لم يكن استوعب بعد حقائق الوضع العسكري. وكانت بعض دول الجامعة – وعلى الأخص مصر وسوريا – تثير الرأي العام ضد الأردن بسبب تأييده لمقررات مؤتمر أريحا ومعارضته لحكومة غزة.

توقفت المباحثات بعدئذ نحو أسبوعين. كان العدو قد عقد عزمه على الحصول على ما يريد: ان لم يكن عن طريق المفاوضات فعن طريق الحرب. ويظهر ان العدو أدرك انه لا بدّ له من ارغام أكبر الدول العربية على قبول الهدنة الدائمة على شروطه هو، بحيث تتبعها الدول الأخرى. ومن هنا كان الهجوم الثاني على مصر في ٢٢ كانون الأول الذي عرضت له سابقاً، والذي لم يتوقف الا بعد أن وافقت مصر على عقد الهدنة الدائمة مع اسرائيل.

وعلى الرغم من اتصالات المندوبين الأردنيين والاسرائيليين، وعلى الرغم مما كان يبديه مندوبو اسرائيل من معسول الكلام (أحياناً) فان طائرات العدو شنّت ليلة ٢٤ كانون الأول غارة جوية على أريحا والشونة (حيث يقضي الملك عبدالله فصل الشتاء) وألقت قنابل على مضارب البدو القريبة من منزل الملك. وكان تعليق الممثلين الأجانب ان الغارة ربما كانت تستهدف التأثير النفسي.

ولم يكن الواقع الذي كانت اسرائيل تهدف الى خلقه مقتصراً على الجبهة المصرية، بل كان يشمل الجبهات الأخرى أيضاً. وبطبيعة الحال وضع العدو أولويات التحركات بناء على حسابات وتقديرات يعرفها.

وفي ذروة المعركة مع مصر اجتمع ساسون ودايان بعبدالله التل يوم ٢٨ كانون الأول وأبلغاه ان اسرائيل لم تعد تكتفي بعقد الهدنة وانها تصر على اجراء مفاوضات السلام. وقال ستابلر «يبدو أن اليهود يريدون اما الحرب أو السلام. الملك شديد القلق لهذا الوضع، وهو يرى أن هجوم اسرائيل الحالي في النقب دليل على استعدادها للاستمرار في الحرب

حتى تحقق أهدافها». وكان من رأي كركبرايد أن الأردن اذا لم يوافق على اجراء محادثات السلام في الحال، فمن المحتمل أن يشن اليهود هجوماً على العراقيين، مما يجعل وضع الأردن ميئوساً منه.

وأبرق ستابلر مرة أخرى الى حكومته (٢٩ كانون الأول) يقول:

الملك في وضع صعب وهو يخشى ان يواصل الاسرائيليون الحرب ضده، أو ضد العراقيين، أو ضد الأردن والعراق معاً، الا اذا وافق في المستقبل القريب جداً على مفاوضات السلام. وهو يعرف ان الجيش الأردني والجيش العراقي لا قدرة لهما على صد الهجوم، خاصة وان الجيش الأردني لا يملك أسلحة.

أما برقية كركبرايد لحكومته فقد أوردت نص الانذار الاسرائيلي كمايلي:

إن وقت التفاوض لعقد الهدنة قد مضى، وان اهتمام اليهود الان ينحصر في التفاوض لعقد الصلح. واذا تبين انه لا مجال للصلح فلا يبقى الا سبيل الحرب.

أولت الحكومة البريطانية اهتماماً كبيراً لهذا الانذار. وكان من نتيجة اتصالها مع أمريكا ان التعليمات التي أصدرتها أمريكا لممثلها في اسرائيل بتاريخ ٣٠ كانون الأول (والتي أدرجت بعضها سابقاً) تضمنت الفقرة التالية:

تلقت هذه الحكومة تقارير من ممثلها في الأردن تشير الى ان اسرائيل أبلغت حكومة الأردن ان وقت التفاوض لعقد الهدنة قد مضى، وان اسرائيل يهمها الان الدخول في مفاوضات السلام فقط. وهذا ما يشير الى ان اسرائيل تعرض السلم أو الحرب. فاذا تأكد هذا الموقف التهديدي، فلن يبقى أمام هذه الحكومة الا اعادة النظر في موقفها ازاء اسرائيل.

وكان الجواب الذي نقله مكدونالد عن شرتوك يوم ٣١ كانون الاول ١٩٤٨ :

فيما يتعلق بالأردن : ان الذي بلغكم لم يكن دقيقاً، لان اسرائيل أبلغت الأردن أن المفاوضات يجب ان تتجاوز مرحلة ترتيبات وقف اطلاق النار الحالية، الى عقد هدنة فعالة تتجه نحو السلام . ان آخر اجتماع سري بين المتفاوضين عقد ليلة ٣٠ كانون الأول في القدس العربية بين شيلواح ودايان من جهة وعبد الله التل من الجانب الآخر. الاجتماع السري التالي سيكون في ٥ كانون الثاني ١٩٤٩ في القدس اليهودية.. اذا كان أحد ذكر عبارة «الحرب أو السلام» في الاجتماع السابق، فان ذلك جاء من خلال تبادل الأحاديث،

وليس بصيغة انذار، واستعملت العبارة من أجل اقناع الأردن بالتقدم نحو هدنة أكيدة.

وفي اليوم التالي أبرق مكدونالد لحكومته أنه قابل بن غوريون، وان هذا أبلغه أن الاجتماعات مع مندوبي الأردن كانت ودية، ولم تكن هناك أية تهديدات ..!!

وكان ستابلر سأل حكومته عن آرائها فيما يتعلق بالأردن، فأجابته وزارة الخارجية في ٣ كانون الثاني ١٩٤٩ :

نحن مهتمون باعادة السلام الى فلسطين، موقف الأردن يبعث على الأمل. على الأردن أن يقرر نوع علاقاته مع الدول العربية، ولا نريد التورط في الخلافات الداخلية بين العرب. يبدو ان العامل الأساسي هو العامل العسكري، ولذلك نرى ان موقف الأردن النهائي تجاه اسرائيل سوف يقرره الوضع الحربي ... نؤيد قرارات أريحا. موقفنا ينبع من الأمل بأن يجد الأردن طريقه للدخول في مفاوضات هدنة مع اسرائيل. وترى امريكا ان المنطق يقضي بأن تنتهي أية مفاوضات بين الأردن وأسرائيل الى ادماج معظم أراضي فلسطين المخصصة للعرب مع الأردن.

أما رأي الحكومة البريطانية في الوضع (جوابا على سؤال من الملك عبد الله) فقد تضمن النقاط التالية (٤ كانون الثاني) :

١ – اذا أمكن، يجب عدم عقد اتفاق نهائي مع اسرائيل قبل وصول لجنة التوفيق الدولية.(٢٠)

٢ – هناك فائدة عظيمة اذا ما تفاهم الأردن ومصر وعملا معا.

٣ – نرى – فيما يتعلق بوضع تسوية معقولة مع اسرائيل : ان تكون طريق غزة – بئر السبع حدودا جنوبية للنقب، وان تكون حيفا ميناء حرا واللد مطاراً حراً ...

وعقد اجتماع آخر يوم ١ كانون الثاني بين المندوبين الاسرائيليين وعبد الله التل. وفي هذا الاجتماع أصر اليهود ان تقتصر محادثات الهدنة على منطقة الجيش الأردني فقط، وان يكون لهم ممر الى مصانع البوتاس في شمالي البحر الميت وجنوبه. اما المندوب الأردني فطالب بضم الأحياء العربية في القدس الجديدة الى القدس العربية وأن يعود العرب الى اللد والرملة ويافا.

وفي اجتماع ٥ كانون الثاني قال المندوب الأردني أن الأردن يريد استعادة اللد والرملة ويافا والجليل ويريد منفذا على البحر. وقال مندوبا اسرائيل ان الحدود يجب أن

ترسم طبقا للوضع العسكري الراهن، وان اسرائيل تريد النقب كله. وعرض اليهود اعادة ستة أسرى من الجيش العربي على أن يعيد الأردن أسراهم. وطالب التل بعودة اللاجئين، فقال المندوبان : من الأفضل دفع تعويضات لهم كي يستوطنوا في شرقي الأردن.

وفي تلك الأثناء حاولت الحكومة البريطانية ان تقنع حكومة أمريكا بأن تتفق الدولتان على تعيين حدود اسرائيل النهائية، ولكن امريكا لم تقتنع.

وخشيت الحكومة الأردنية ان يهاجم اليهود الجزء الجنوبي من وادي عربه الذي يصل الى خليج العقبة، فطلبت في ١ كانون الثاني ١٩٤٩ من بريطانيا ارسال قوة الى العقبة، بموجب المعاهدة المعقودة بينهما، ولم يكن للأردن هناك سوى سرية واحدة . وفي ٨ كانون الثاني أصدرت خارجية بريطانيا بيانا قالت فيه ان حكومة بريطانيا استجابت لطلب الأردن، وان القوة سترسل بحرا وأنها ستتألف من ثلاث سرايا . وفي ذلك اليوم نزلت في العقبة كتيبة من الجنود البريطانيين . وأرسل الانكليز في الوقت ذاته كميات من العتاد لخزنها في مطار عمان تحسبا للطوارئ. وكان من جملة شروط بريطانيا ان لا تعبر هذه القوة حدود شرقي الأردن الى أراضي فلسطين . وأعلنت بريطانيا « أن القصد من ارسال القوة مساعدة الأردن على الدفاع عن نفسه اذا ما تعرض للهجوم»، بعد ان انتهك اليهود الهدنة ثلاثة انتهاكات خطيرة (هجومهم الأول والثاني على مصر وهجومهم في الجليل الشمالي).

وقال شرتوك لمكدونالد ان حكومته تستغرب وجود الانكليز في العقبة، وتفسر ذلك بأنه تهديد لأراضي اسرائيل في النقب، وتريد ان تعرف لماذا طلب الأردن حضور تلك القوات.

وفي ١١ كانون الثاني قال الملك عبد الله لممثل أمريكا (ستابلر) ان الأردن يسعى الى تحقيق النقاط التالية :

١ يجب أن لا يحتل اليهود المناطق التي تصل الأردن بمصر.

٢ غزة يجب أن تُدمج مع الأردن.

٣ – حق اللاجئين في العودة الى ديارهم.

٤ – اعادة اللد والرملة للعرب.

٥ – حرية وصول العرب الى يافا.

أما بشأن القدس فيمكن منح المناطق العربية [التي استولى عليها اليهود] استقلالاً داخلياً تحت الادارة الأردنية، ويجب ان تشمل هذه المناطق القطمون والبقعة. وقال انه مستعد لضمان حماية مصانع البوتاس الجنوبية. وكرر الملك رغبته في السلم.

وفي تلك الاثناء وصل سمير الرفاعي، الممثل الشخصي للملك عبدالله الى أمريكا، وهو يحمل رسالة من الملك للرئيس ترومان. وكانت الرسالة تعرب عن الأمل بأن يتم تبادل الاعتراف بين الدولتين في المستقبل القريب. وفي ١٢ كانون الثاني اجتمع الرفاعي بالمستر لوفت (وزير الخارجية بالنيابة) واعرب له عن أمل الأردن بأن تعترف أمريكا به. وبعد يومين قابل الرفاعي الرئيس ترومان وسلمه رسالة الملك. ولم تلبث حكومة الولايات المتحدة أن اعترفت يوم ٣١ كانون الثاني ١٩٤٩ بالأردن واسرائيل اعترافاً قانونياً، وأصبح ستابلر قائماً بالأعمال في عمان.

ومن غرائب السياسة العربية في تلك الأيام أن وزارة خارجية سوريا أبلغت الوزير الفرنسي المفوض في دمشق (١٢ كانون الثاني) بمخاوفها من ان يعمل الملك عبدالله على تنفيذ مشروع سوريا الكبرى. وبحث مسؤول فرنسي هذا الموضوع مع ممثل اسرائيل في باريس فقال هذا: ان اسرائيل تعارض انشاء سوريا الكبرى، وانها على استعداد لسحب قواتها من الجبهة السورية اذا شعر السوريون ان عبدالله يهددهم. وقال المسؤول الفرنسي: ان فرنسا تعارض بشدة انشاء سوريا الكبرى. ولم تلبث وزارة خارجية أمريكا أن اعلنت بدورها عدم تحبيذها لمشروع سوريا الكبرى. ولكنها لا تعارض دمج الجزء الأكبر مما بقى للعرب من فلسطين، مع الأردن. وقد أبدت وزارة خارجية أمريكا استغرابها لاهتمام فرنسا هذا، وقالت: ان من غير المحتمل أن يتحرك عبدالله في هذا الوقت الذي تقع فيه الدول العربية تحت ضغط شديد من اسرائيل. ومن عمان أبرق ستابلر (١٦ كانون الثاني) قائلاً: انه لا يوجد أي دليل على أن الملك عبدالله يفكر بهذا الموضوع، لأن اهتمامه كله ينحصر في معالجة الوضع بالنسبة للاسرائيليين.

أجل. كان الشغل للملك عبدالله أن ينقذ ما يمكن انقاذه. ومن هنا تم تفويض عبدالله التل رسمياً بالتذاكر مع الجانب الاسرائيلي، بينما فوضت اسرائيل مندوبين هما دايان وشلواح. وتم تبادل أوراق التفويض في ١٥ كانون الثاني في القدس. وفي اجتماع ممثلي

الفريقين يومذاك، أوضح التل أن أسس التفاهم يجب أن تقوم على:

١ – اعادة منطقة اللد والرملة.

٢ – السماح للاجئين العرب بالعودة فوراً الى مدنهم وقراهم.

٣ – اعادة الأحياء العربية في القدس الجديدة.

أما الجانب الاسرائيلي فقد قدم الأسس التالية:

١ – لا يمكن جعل اللد والرملة في القسم العربي لانهما قريبتان جداً من تل أبيب.

٢ – مسألة اعادة اللاجئين عويصة، وهناك مشروع للتعويض عليهم.

٣ – يمكن السماح للأردن باستعمال ميناء حيفا مقابل اعادة العمل بمشروعي البوتاس والكهرباء.

٤ – مسألة القدس دقيقة جداً، والأحياء العربية أصبحت مزدحمة باللاجئين اليهود، فلنتركها الآن.

٥ – نرغب في تبادل الأسرى.

في اليوم التالي قال ممثل الأردن انه يجب أن يكون للأردن ممر الى البحر إما في غزة أو في يافا.

وجاء في برقية للقنصل البريطاني في القدس أن مطالب الأردن تتضمن (بالاضافة الى ما تقدم) الحصول على ممر الى البحر في غزة، والنظر في مستقبل الجليل، بينما يطالب اليهود بالأراضي التي احتلوها وتعديل الخطوط في اللطرون.

وبعد أيام اجتمع التل بدايان، فقال هذا الأخير ما خلاصته: أن اليهود قضوا الفي سنة في التشرد حتى رأوا مثل هذا اليوم، ولذلك لا يمكن أن يتراجعوا عن بيت احتلوه.

وتقول بعض المصادر (استناداً على معلومات من الجانب الآخر) ان ايجال الون اقترح في تلك الأثناء على بن غوريون أن يحشد قواته ضد جيشي العراق والأردن قائلاً إنه يستطيع الاستيلاء في ظرف ثلاثة أيام على ما بقي للعرب من فلسطين، ومن جملة ذلك القدس. ولكن بن غوريون لم يوافق قائلاً انه يفضل التوصل الى اتفاقية سلام.

لم يلبث الملك عبدالله أن وافق على اطلاق سراح الأسرى اليهود، وكان ٧٠٢ من الأسرى في يد الأردن (بينهم ٨٩ فتاة). وأطلق اليهود سراح خمسة آلاف عربي من المدنيين الفلسطينيين الذين كانوا يعتقلونهم بحجة أنهم كانوا في صفوف المناضلين. وقد بدأ

ذلك بتاريخ ٩ شباط ١٩٤٩. وأطلق العدو أيضاً سراح أربعة أسرى من الجيش الأردني.

وأرسلت الحكومة البريطانية (١٨ كانون الثاني) الى الحكومات العربية تنصحها بأن تغتنم الفرصة الراهنة التي توقف فيها القتال، لكي تتوصل الى اتفاقات هدنة مع اسرائيل على جميع الجبهات، وأن تدخل بعد ذلك في مفاوضات تستهدف التوصل الى حل نهائي، إما مباشرة أو عن طريق لجنة التوفيق.

وتضمنت تعليمات وزير خارجية أمريكا الى المستر أثريدج (العضو الأمريكي في لجنة التوفيق) القول «اذا أرادت اسرائيل اضافات الى الأراضي التي عينها لها قرار التقسيم مثل الجليل الغربي ويافا، فعليها ان تقدم تنازلات في مناطق أخرى: النقب الجنوبي مثلاً. ولا حق لاسرائيل ان تحتفظ بالنقب والجليل الغربي ويافا في آن واحد..» .

ولكن شتان بين آراء وزارة الخارجية وبين انحياز ترومان لاسرائيل.

وحققت اسرائيل هدفاً من أهدافها المهمة يوم ٢٤ كانون الثاني ١٩٤٩ عندما تم التوقيع في رودس على اتفاقية وقف اطلاق النار، بينها وبين مصر. ثم أعقب ذلك التوقيع يوم ٢٤ شباط على اتفاقية الهدنة الدائمة. وبموجب تلك الاتفاقية تخلت مصر عن جميع الأراضي الفلسطينية التي تولت مسؤولياتها في أثناء الحرب - باستثناء قطاع غزة الصغير. ومن الانصاف القول أن مصر لم تتخل عن تلك الأراضي تبرعاً أو عن طواعيةً، بل كانت مكرهة على ذلك بعد أن أملت اسرائيل عليها شروط الدولة المنتصرة على الدولة المهزومة.

وفي ذلك اليوم نفسه اعترفت فرنسا باسرائيل، وبعد خمسة أيام اعترفت بريطانيا بها، وبعد سبعة أيام اعترفت أمريكا بها (اعترافاً قانونياً).

وتفرغت اسرائيل للدول العربية الأخرى، وعلى وجه التخصيص للأردن والعراق.

وفي الاجتماع الذي عقد في ٣٠ كانون الثاني - والذي حضره رئيس وزراء الأردن - قال ساسون ان حكومته ترغب في انسحاب العراقيين وان تحل محلهم قوات أمن أردنية (هذا على قول عبدالله التل. أما الاسرائيليون فيقولون انهم طالبوا الأردن باقناع العراقيين على الانسحاب). وهدّد ساسون بصورة غير مباشرة بأن قوات اسرائيل قد تهاجم العراقيين اذا لم ينسحبوا ما دام أنهم يرفضون الدخول في مفاوضات هدنة. وفي ذلك الاجتماع أبدى الأردن استعداده لارسال وفد الى رودس للتفاوض من أجل عقد الهدنة.

وفهمت الحكومة الأردنية من أقوال مندوب اسرائيل: انه اذا حلت قوات أردنية محل القوات العراقية فسيتم عقد اتفاق الهدنة، دون أية مشاكل، بحسب المواقع التي كانت قوات الطرفين ترابط فيها يومذاك.

وعلى هذا اجتمع الملك عبدالله في محطة H.3 (على حدود الأردن – العراق) يوم ٢ شباط، بالأمير عبدالاله ونوري السعيد (ومعهما شاكر الوادي وزير الدفاع والفريق الجبوري رئيس الأركان). وكان فوزي الملقي وزير الدفاع الأردني يرافق الملك. وفي ذلك الاجتماع وافق العراقيون على تسليم خطوطهم للجيش الأردني، ولكنهم رفضوا تفويض الحكومة الأردنية بالتفاوض على عقد الهدنة نيابة عن العراق.

في اليوم التالي وجه الأمين العام للأمم المتحدة الدعوة الى الدول العربية واسرائيل للتفاوض من أجل عقد الهدنة. ولكن العراق لم يقبل الدخول في مفاوضات وأبلغ بانش في ١٣ شباط « أن شروط الهدنة التي ستوافق عليها الدول العربية المجاورة لفلسطين.. سوف تعتبر مقبولة».

وفي ١٢ شباط اجتمع توفيق أبو الهدى في أريحا بأعضاء لجنة التوفيق الدولية. وكان مما قاله أن الأردن يرغب في السلام، وكرر المطالب التي سبق ذكرها.

وعينت الحكومة الأردنية وفداً للتفاوض برئاسة القائمقام أحمد صدقي الجندي. وقد وصل الوفد الى رودس يوم ٢٨ شباط، وفي اليوم التالي بدأ محادثاته مع الوفد الاسرائيلي (٢١).

وبعد بضعة أيام (٤ آذار) وافق مجلس الأمن الدولي على دخول اسرائيل عضواً في هيئة الأمم. وقد صوت الى جانب القرار تسعة أعضاء، ولم تعارض فيه سوى مصر، بينما امتنعت بريطانيا عن التصويت. وقد نص القرار أن اسرائيل «**دولة محبة للسلام**»!! إنه هو ذات المجلس الذي احتقرت اسرائيل قراراته ورمت بها عرض الحائط مرات ومرات.

هذا نموذج واحد من اخلاقيات المجتمع الدولي الذي ساعد على خلق اسرائيل، وما زلنا نرى نماذج مماثلة من أخلاقياته حتى اليوم.

عندما وصل الوفد الأردني الى رودس طلب في الجلسة الأولى ان يتم التوقيع مع الوفد الاسرائيلي أولاً على اتفاقية وقف اطلاق نار على الجبهة الأردنية وعلى الجبهة العراقية أيضاً، باعتبار ان الجيش العراقي سوف ينسحب وأن الجيش الأردني سيحل

مكانه، وأن العراق فوض الأردن بالتوقيع. كان هذا الطلب منسجماً مع خطة الدكتور بانش، من أجل أن تدور المفاوضات في جو بعيد عن التوتر. ومن المعلوم ان اتفاق وقف اطلاق النار ينص على أن لا تتجاوز القوات العسكرية الخط الذي تتمركز فيه يوم التوقيع الى أن يتم التوصل الى اتفاقية الهدنة الدائمة. ولكن الوفد الاسرائيلي رفض ذلك قائلاً ان العراق لم يفوض الأردن تفويضاً رسمياً عن طريق الوسيط الدولي، وان لاسرائيل شروطاً وتحفظات إزاء ذلك كله. عندئذ اقترح الوفد الأردني أن يتم توقيع اتفاق وقف اطلاق النار عن الجبهة الأردنية، مع اضافة مادة تقول أن الاتفاق يسري على الجبهة العراقية عندما ينسحب العراقيون، ولكن الاسرائيليين لم يوافقوا منتحلين لذلك حججاً ابتدعوها، مما جعل الأردن يعتقد أنهم يماطلون عن قصد، وأن لهم أهدافاً ومطامع في الأراضي التي كانت يومذاك في حوزة الأردن والعراق. ولم تلبث الأيام التالية حتى كشفت عن مطامع اسرائيل في الجبهة الأردنية وفي الجبهة العراقية أيضاً.

× × ×

يقول الفريق جلوب : أن قوة الجيش الأردني كانت قد ارتفعت في شهر كانون الثاني ١٩٤٩ الى ١٤٣ر١١ ضابط وجندي، وان قوة الجيش العراقي بلغت ١٩ ألفاً، وأن هؤلاء الثلاثين ألفاً كانوا وحدهم يواجهون قوات اسرائيلية تتراوح ما بين ١٢٠ و ١٥٠ ألفاً، بعد توقيع اتفاقية الهدنة مع مصر... كان الاسرائيليون سكارى بخمرة انتصاراتهم في ميدان القتال وفي الأمم المتحدة وبالتأييد الأمريكي.

ان الزيادة التي تحدث عنها الفريق جلوب تمثلت في انشاء أربع كتائب جديدة، هي:

الكتيبة السابعة : تألفت في شهر آب ١٩٤٨ بقيادة وكيل القائد خالد الصحن، وذلك في قرية بيت حنينا قرب القدس. وبعد أن تم تدريب أفرادها وتجهيزهم تسلمت مسؤولياتها في الجبهة، ثم تسلمت قاطع جنين من العراقيين في نيسان ١٩٤٩.

الكتيبة الثامنة : تألفت في شهر آب ١٩٤٨ بقيادة الرئيس فواز ماهر، وفي منطقة رام الله. ولم تلبث حتى أخذت تقوم بواجباتها في الجبهة.

الكتيبة التاسعة : تألفت في شهر تشرين الثاني ١٩٤٨، وتولى قيادتها وكيل القائد ودسين (تومسون)، وفي العام التالي حل محله و.ق. بيتر يونغ.

الكتيبة العاشرة : تألفت في عمان في شهر تشرين الثاني ١٩٤٨ بقيادة القائد حابس

المجالي، وأطلق عليها اسم الكتيبة الهاشمية لانها تألفت على حساب الخزينة الأردنية، ولكي تكون بمثابة كتيبة حرس للملك عبدالله، ولكنها لم تلبث أن انتقلت الى منطقة الخليل.

وهكذا أصبح الجيش العربي في أواخر ١٩٤٨ يتألف من عشر كتائب: خمس منها معظم أفرادها من البدو (الأولى والثانية والثالثة والسابعة والتاسعة)، وخمس منها معظم أفرادها من الحضر (الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة والعاشرة).

المرشرش والمثلث

سبق ان ذكرت أن قوات شرطة البادية الأردنية تسلمت شؤون الأمن في المنطقة الفلسطينية الجنوبية من النقب، والتي تقع بين الحدود الدولية لمصر وشرقي الأردن - ابتداء من يوم ١٥ أيار ١٩٤٨ ورفعت العلم الأردني على المخافر الثلاثة المرشرش (غربي العقبة) وعين حصب (جنوب البحر الميت) وكرنب (جنوبي الخليل) فأصبحت المنطقة كلها تحت الادارة العسكرية الأردنية. وبعد انهيار الجبهة المصرية في تشرين الأول ١٩٤٨، تقدمت قوة أردنية مختلطة وسيطرت على منطقة الخليل، وبذلك أصبحت المنطقة الجنوبية من الخليل حتى المرشرش في حوزة الجيش الأردني. وكان معنى ذلك أن اتصال منطقة الجيش الأردني مع سيناء (مصر) كان حقيقة واقعة فيما بين أيار ١٩٤٨ وآذار ١٩٤٩.

في الوقت نفسه (تشرين الأول ١٩٤٨) عملت قيادة الجيش على تأليف قوة أخرى لكي تتمركز في منطقة وادي عربة، الى الجنوب من البحر الميت وحتى المرشرش على شاطيء البحر الأحمر. وقد أطلقت القيادة على القوتين أسم (قوة الجنوب أو قوة ج). والواقع أن القوة التي تمركزت في وادي عربة كانت تتألف من سرية مشاة ضعيفة لا يزيد عدد أفرادها عن مائة رجل، بعضهم جنود أعيدوا للخدمة، وبعضهم جنود التحقوا بالجيش حديثاً، ولم يحصلوا الا على قدر ضئيل من التدريب.

تولى قيادة السرية الملازم الثاني سليمان جراد (حويطات)، وكان جنود هذه السرية من البدو باستثناء السائقين ومأمور اللاسلكي وكاتب العهدة. وبالاضافة الى هذه السرية حشدت القيادة قوة من المناضلين الحويطات بقيادة الملازم الأول صقر بن عبطان الجازي. وأسندت قيادة القوة كلها الى الرئيس برومج الذي اتخذ من مخفر المرشرش مركزاً له (كان برومج قد خدم عدة سنوات في قوة البادية ويجيد العربية، وعُرف بالشجاعة والاقدام). وتم تزويد القوة بعدد قليل من المدرعات وسيارات اللاند روفر. ويجدر بالذكر أن أحد مراقبي الهدنة رافق القوة الى العقبة ثم المرشرش. ومن المرشرش اتجهت القوة شمالاً الى موقع (طلاح) حيث تمركزت وأخذ قائدها يحرك دوريات تجاه مواقع الغمر وعين حصب والنقب.

وفي أواخر شهر تشرين الثاني زحفت قوة اسرائيلية من بئر السبع الى عين حصب ثم انسحبت منها. ولم تلبث قيادة الجيش العربي أن عززت قوة الجنوب بالسرية الأولى من الكتيبة العاشرة، وهي بقيادة الملازم الثاني محمد مطلق الهباهبة. وكان جنود تلك السرية أغراراً لم يقضوا في التدريب سوى أربعة أيام. تحركت هذه السرية من عمان الى العقبة ومعها بضعة مدافع عيار ٦ أرطال ومدافع أورليكان ٢٠ ملم وصواريخ مقاومة دروع ورشاشات برن وبنادق. ولم تلبث أن تمركزت الى الغرب من غرندل واتصلت بسرية المشاة الأخرى.

في تلك الأثناء ازدادت تحركات العدو فتقدمت مفارز من قواته الى موقعي (اللويبه) و(الغمر) على بعد نحو ٥٠ كيلو متراً الى الشمال الغربي من غرندل. ولم تلبث دوريات الاستطلاع من الجانبين حتى أخذت تشتبك أحياناً، بينما بدأ العدو يضع الألغام في الدروب، وأخذ جنوده يتقدمون باتجاه الجنوب من وادي الجرافي.

ذات يوم قُتل الجندي موسى سليمان (من وادي موسى) بفعل أحد الغـام العـدو. وتعـثر الملازم محمد المطلق يوم ٢٨ كانون الأول بلغم آخـر فـأُصيب اصابـات شـديدة فـي وجهـه وأجزاء أخرى من جسمه، ولكن كتب له الشفاء. ولم تلبث السرية أن أعيدت لتلتحق بجسـم الكتيبة العاشرة في منطقة بيت لحم، في شباط ١٩٤٩.

وفي أوائل شهر كانون الثاني ١٩٤٩ أرسـلت القيـادة سـرية مـن الكتيبـة الثالثـة بقيـادة الملازم الثاني فليح ماطر ومعه ست مدرعات. ورابطت هذه السرية في قاع السـعيدية الـى الغرب من غرندل في منطقة النقب، وأخذت ترسل الدوريات هنـا وهنـاك. وقـد حلـت هـذه السرية محل سرية الكتيبة العاشرة. ولم تلبث القيادة حتى أرسـلت المـلازم غـازي الحربـي لكي يتولى قيادة سرية البدو، (بقي الملازم سليمان جراد مساعداً له)، ووصلت الى المنطقـة فئة بادية بقيادة الملازم نـدا مطـر (عـنزه). وذات يـوم جـاء الفريـق جلـوب بطـائرة لزيـارة مواقع الوحدات.(٢٢)

وفي ٢٤ شباط ١٩٤٩ احتج الأردن على تحركات القوات الاسرائيلية الى الجنوب من الخليل. وأبلغ الأردن أنباء هذه التحركات الى بانش، ولكن الجـنرال رايلـي أبلغـه أنـه حقـق في شكوى الأردن وانه لم يلاحظ أية تحركـات اسـرائيلية. فـي الواقـع أن دوريـة اسـرائيلية كانت قد تغلغلت في المنطقة الى الجنوب من البحر الميت، ثم عادت الدورية الى بئر السبع وأبلغت قيادتها بامكان الزحف الى المرشرش. ولم يلبث الاسرائيليون أن حشدوا لوائين مـن السيارات المسلحة للزحف باتجاه الجنوب ابتداء مـن يـوم ٥ آذار، وكـان هدفهمـا الوصـول الى موقع المرشرش على البحر الأحمر غربي العقبة.

عندما تقدمت طلائع العدو، قـامت طائراتـه بالكشـف، ثـم هـاجمت سـرية مـن جنـوده مجموعـة المنـاضلين فـي موقـع حمـر افـدان (وادي حصـب) ومـع تلـك المجموعــة ثـلاث مدرعات. وحدث اشتباك بين الطرفين دمرت فيه احدى المدرعات الأردنية، ولحقت بـالعدو بعض الخسائر. وانسحبت سرية فليح ماطر الى الخلف فلحقت بها قوة كبـيرة للعـدو. وهنـا وقع اشتباك آخر بين الطرفين دمرت فيه سيارتا جيب للعدو وأُعطبت مدرعة وقتل عدد من أفراده. ومع ذلك تقدمت قوة العدو فاحتلت بير مليحه وموقع المليح. عندئذ انسحبت السـرية الى غرندل. أما سرية الملازم سليمان جـراد فلم تنسـحب مـن مواقعهـا فـي النقـب الا بعـد استيلاء الاسرائيليين على المرشرش. وكان انسحاب السرية بكامل سلاحها وسياراتها علـى

الرغم من وعورة الأرض وقصف طائرات العدو.

في ٧ آذار أبرقت الحكومة الأردنية البرقية التالية الى وفدها في رودس:

أبلغوا الدكتور بانش ما يلي: قوة كبيرة من سيارات الجيش الاسرائيلية والمصفحات المدعومة بالطائرات، عبرت خطوطنا صباح اليوم بمسافة كيلو متر غربي بير ابن عوده. سيكون الموقف دقيقاً للغاية اذا لم توقف اسرائيل تحركاتها العسكرية في أثناء المفاوضات.

ولكن قوات اسرائيل هاجمت المواقع الأردنية في ذلك اليوم، فأرسلت الحكومة الأردنية في اليوم التالي البرقية التالية:

القوات اليهودية تزحف على خليج العقبة برتلين: رتل في بير ملحان. والرتل الرئيسي وصل الى مليحه. قوات العدو تقدر بجموعة كتيبة قوية أو لواء. الطائرات اليهودية ناشطة فوق المنطقة كلها. أبلغوا الدكتور بانش قلق الحكومة الأردنية العميق لهذه العمليات بينما يتفاوض الوفدان في رودس.

وفي يوم ٩ آذار تلقت الحكومة من بانش برقية يطلب فيها مزيداً من التفاصيل. وفي الوقت نفسه أبرقت الحكومة الى وفدها مرة أخرى:

ما تزال العمليات العسكرية ضد الجيش العربي في وادي عربة مستمرة. القوات الاسرائيلية تهاجم مواقع الجيش العربي. قدموا احتجاجاً قويا في الحال الى الدكتور بانش واطلبوا اليه أن يوقف الهجمات الاسرائيلية في أثناء سير المفاوضات.

يقول الفريق جلوب: ان القوة الأردنية الصغيرة أنشأت خطاً من مفارزها من الشرق الى الغرب على مسافة ٥٥ ميلاً تقريباً الى الشمال من العقبة. عندما تقدمت القوة اليهودية المدعومة بالطائرات، أخذت القوة الأردنية تتراجع الى الخلف. وعلى بعد ٤٠ ميلاً شمالي العقبة اتخذت موقعاً دفاعياً، وهوجمت السرية عصر يوم ٩ آذار وتمكنت من صد الهجوم. وفي مساء ذلك اليوم تلقيت برقية من قائد القوة يسأل عما اذا كان عليه أن ينسحب ويسمح للاسرائيليين بالمرور، أم انني آمره هو وجنوده أن يصمدوا في مواقعهم حتى الموت.

كان مستحيلاً علي أن أقدر امكانات المقاومة. ولم تكن هناك امكانية لتعزيز السرية. كان اليهود يستطيعون تعزيز قواتهم من بئر السبع بسرعة، أما نحن فلم تكن لدينا قوات عسكرية في شرق الأردن. ولو سحبنا قوات من جبهة القدس لتحتم عليها أن تأتي بطريق عمان، علماً بأنه لم تكن هناك طرق معبدة الى الجنوب من عمان. العملية كانت ستأخذ

ثلاثة أيام، والسرية لم يكن بمقدورها ان تقاوم ثلاثة أيـام فـي صحراء مفتوحة أمـام قـوات معادية كثيفة يدعمها الطيران. وهكذا أبرقت لقائد السرية قائلاً أنني أترك لـه حريـة التصرف. في صباح اليوم التالي قصف اليهود مواقعنا بالقنابل حتى الظهر تقريباً ثم زحفوا مهاجمين بكامل قوتهم. في تلك الأثناء كانت السرية قد انسحبت الى الوراء. مساء ذلك اليوم (١٠ آذار) وصل اليهود الى البحر.

هكذا وصل العدو الى موقع المرشرش، الذي أطلق عليه اسم إيلات.

أما عبدالله التل فيعطي تاريخا أسبق ويقول إن قيادة الجيش أرسلت الى برومـج يوم ٦ آذار البرقية التالية تأمره بالانسحاب:

من القيادة الى ق.م. الجنوب مكرر ق.م. معان.

اسحبوا قواتكم من المراكز التالية فوراً: أولاً – جبل الردادي، ثانيـاً – وادي الحيـاني، ثالثاً – رأس النقب، رابعاً – أم الرشراش. تنقل الأسلحة والذخائر بقدر الامكان وتتلف التجهيزات الثقيلة.

ظل الوفد الاسرائيلي في رودس ينكر قيامهم بأية حركات عسكرية، ويؤجل التوقيع على اتفاقية وقف اطلاق النار، حتى ١٠ آذار عندما أبلغ الوفد الأردني بأن المنطقة الجنوبية خصصت لهم بموجب قرار التقسيم وأنها الآن أصبحت في حوزتهم، وأنهم الآن على استعداد لتوقيع اتفاق وقف اطلاق النار. وكان مما قاله شيلواح (عضو الوفد الاسرائيلي) أن حكومته تعتبر وجود قوات أردنية في النقب بمثابة «غزو» لاسرائيل.

وفي أثناء الهجوم الاسرائيلي استدعى الملك عبدالله المستر ستابلر وأبلغه بالهجوم على مخفر عين غرندل الذي يقع داخل حدود شرقي الأردن يوم ٩ آذار، فاستدعت وزارة الخارجية الأمريكية ممثل اسرائيل في واشنطن لسؤاله. فما كان من هذا الا انه أبرز جواب حكومته الذي أرسلته الى بانش، وفيه أن قواتها لم تعبر حدود الأردن وأنها تعتبر وجود قوات أردنية في النقب أمراً مربكاً لمفاوضات رودس، وتحتج بشدة على هذا «الغزو» وتطلب من بانش أن يبلغ حكومة الأردن طلب اسرائيل بأن تسحب في الحال قواتها الى داخل حدود شرقي الأردن.

وفي تلك الأثناء تلقت القوة البريطانية في العقبة أوامر بأن لا تطلق النار الا في حالة وقوع هجوم عليها.

وفي تل أبيب استدعت وزارة خارجية اسرائيل ممثل أمريكا (مكدونلد) وأبلغته أن بن غوريون مستاء من أسئلة حكومته، وأنه لا شأن لأمريكا بتحركات قوات اسرائيل ضمن أراضيها. وبعد يومين اعتذرت وزارة خارجية أمريكا لبن غوريون وأكدت أنها قدمت استفسارها « بكل روح صداقة».

هكذا كانت الحكومة الأمريكية تتهيب مجابهة زعماء اسرائيل بالحقائق، على الرغم من أن وزارة خارجيتها كانت على اطلاع تام على تلك الحقائق. ومن الجدير بالذكر أن القنصل الأمريكي في القدس (بارديت) والمستر ستابلر بعمان، كانا يعرضان وجهة نظرهما بكل صراحة وصدق. لنأخذ مثالاً على ذلك برقية بارديت يوم ١٠ آذار الى وزارة خارجيته والتي ضمنها رأيه في قلب العدو للحقائق:

ان نظرية اسرائيل تقوم على أن جميع الأراضي التي خُصّصت لها بموجب قرار التقسيم هي أراض اسرائيلية، سواء كانت تحتلها قوات اسرائيلية أو قوات عربية عندما بدأت الهدنة. لذلك فأنها تعتبر وجود قوات عربية على هذه الأراضي (غزواً). وفي الوقت نفسه تحتفظ اسرائيل بحقها في الاستيلاء على الأراضي التي خصصها قرار التقسيم للعرب، والتي تقع الآن تحت احتلالها. انني لا أستطيع أن أوافق بين الادعاء بأن احتلال العرب يُعتبر «غزواً» بينما لا يعتبر احتلال اسرائيل كذلك.

ان القوات الأردنية تحتل النقب الجنوبي منذ بدء الهدنة التي قررها مجلس الأمن. ومع أن المراقبين الدوليين لم يضعوا خطوط منطقة القوات الأردنية الا أن المنطقة الواقعة الى الجنوب من خط العرض ٣١ تقع تحت سيطرة القوات الاردنية ودورياتها. ومن هنا فإن زحف قوات اسرائيل الحالي يشكل خرقاً واضحاً للهدنة التي فرضها مجلس الأمن، وهو يماثل هجوماً أردنياً نحو منطقة اللد والرملة التي «غزتها» اسرائيل.

ثم أكد القنصل على حكومته ضرورة ايقاف اسرائيل عند حدها، وأن لا تقتصر على شجب دخول القوات الاسرائيلية الى حدود شرقي الأردن فقط.

ولكن الحكومة الأمريكية ظلت ماضية في سياستها الموالية للعدوان الأسرائيلي.

واحتج الأردن على تقدم اليهود الى النقب، فردّ شاريت (شرتوك) يوم ١٠ آذار قائلاً إن تحركات الاسرائيليين كانت ضمن حدودهم. وهدد باتهام الأردن في هيئة الأمم بأن قواته موجودة في أراضي دولة أخرى ذات سيادة. وقال ان القوات الأردنية في غرندل هي

التي أطلقت النار على قوات اسرائيل. وكان مما قال شيلواح لبانش: ما دام ان الأردنيين في شكواهم يعترفون ان قواتهم الغازية موجودة في أراضي اسرائيل (النقب) فعليه ان يطلب اليهم اخلاء المنطقة قبل ان تثار قضايا أكبر.

وهكذا أضطر الأردن أن يرضخ للأمر الواقع في النقب الجنوبي، فقواته العسكرية كانت أضعف كثيراً من ان توقف زحف القوات الاسرائيلية، وبريطانيا كانت ترى انه لا دخل لها في أي تحركات تجري على أرض فلسطين، وان مسؤوليتها تقتصر على أراضي شرقي الأردن، وأمريكا اكتفت بالتفرج ولم تسمح لنفسها بايقاف ربيبتها اسرائيل عند حدّ معين. والدول العربية الأخرى كان كل واحد منها يحاول تدبير أموره بطريقة من الطرق.

وفي رودس تم التوقيع صباح يوم ١١ آذار على اتفاقية وقف اطلاق نار شامل بين الأردن واسرائيل تغطي جميع القطاعات التي تسيطر عليها قوات كل منهما. وكانت قرية بدرس أقصى نقطة في الجزء الشمالي من القطاع الأردني. وقد وقع الاتفاقية من الجانب الاسرائيلي شيلواح ودايان ووقعها من الجانب الأردني أحمد صدقي الجندي ومحمد المعايطه.

ولكن توقيع اتفاقية وقف اطلاق النار لم يضع حداً للتوسع الاسرائيلي، ففي يوم ١٣ آذار انطلقت قوة اسرائيلية بواسطة القوارب من الطرف الجنوبي للبحر الميت ونزلت في موقع عين جدي على الشاطيء الغربي. واحتجت الحكومة الأردنية مرة أخرى لبانش ولكن اليهود تمركزوا في الموقع الجديد. وحفظ الاحتجاج الأردني في أحد الملفات مع ما سبقه وما سيلحقه من احتجاجات.

وانتهت قضية النقب ووادي عربة كما أرادها العدو ان تنتهي.

أرض المثلث

وارتفع الستار عن مشكلة أخرى خلقها العدو، الا وهي مشكلة منطقة المثلث (مثلث نابلس – جنين – طولكرم) التي كان يرابط فيها الجيش العراقي. لقد كان الجيش العراقي يرابط في منطقة عربية صرفة خصصها قرار التقسيم للعرب. كان المفروض أن لا تكون هناك أية مشكلة. وكان المفروض ان يتم عقد اتفاقية وقف اطلاق النار على المواقع التي كانت ترابط فيها قوات الطرفين، وأن تعقد بعد ذلك اتفاقية الهدنة بحسب تلك المواقع. وفي حقيقة الأمر لم يكن يفترض ان يكون

هناك مانع من حلول الجيش الأردني محل الجيش العراقي في المثلث. ولكن الافتراض عند حسن النية شيء وعند سوء النية شيء آخر. فالعدو كان يريد قطعة من المثلث لنفسه – سواء كان فيها الجيش العراقي أو الأردني. وقد استغل رغبة العراقيين في الانسحاب فابتدع نظرية تقول ان له الحق في الأرض التي سيخليها العراقيون، تماما مثل الحق الذي للأردن. ولو بقي العراقيون في المثلث، لبقي مطلب العدو على حاله.

استغرق بحث قضية المثلث، وانسحاب العراقيين منه، ومطالب اليهود فيه، شهراً محموماً من الزمن. وفي خلال ذلك الشهر عقدت اجتماعات عديدة، وتبودلت مذكرات، واشتركت دول كبرى في البحث، ولكن ذلك كله لم يغير شيئا من الهدف الذي رسمه العدو لنفسه والذي ظل مصراً عليه حتى تحقق له.

ان الوثائق والمعلومات العربية والأميركية والبريطانية عن هذا الموضوع وفيرة، ولكنني سأجتزيء منها بالقدر الذي يعطي للقاريء صورة واضحة متكاملة عن سير الأحداث حتى توقيع الاتفاق النهائي.

سبق أن أشرت الى قرار مجلس الأمن المؤرخ في ١٦ تشرين الثاني ١٩٤٨، والذي دعا جميع أطراف النزاع الى السعي للاتفاق حالا عن طريق المفاوضات لاقامة هدنة دائمة. ووافقت الدول العربية على عقد الهدنة شريطة ان تنسحب اسرائيل الى خطوط ١٤ تشرين الاول. ولكن اسرائيل شنت ثلاث هجمات كبيرة في الجنوب والشمال حتى اضطرت مصر ولبنان اضطراراً للاستغناء عن ذلك الشرط. وسئل الأردن فأجاب بالموافقة، لان الأردن لم يكن يريد أن يواجه هجوماً واسع النطاق مثلما واجهت مصر ومثلما واجه لبنان (وجيش الانقاذ). والأردن لم يكن يريد مواجهة الهجوم لانه في واقع الأمر لم يكن قادراً على الدخول في مواجهة ناجحة. أما العراق فلم يوافق على الدخول في مفاوضات مع العدو، وآثر ان يسحب قواته ويسلم مواقعه الى الجيش الأردني، خاصة وان العراق لم تكن له حدود مباشرة مع فلسطين. كان العراق هو الدولة العربية الوحيدة التي لم تكن لها حدود مباشرة مع فلسطين، ومع ذلك فتح جبهة مستقلة على أرض فلسطين في محاولة انقاذها من الغزو الصهيوني.

يقول الفريق الجبوري ان حكومة العراق قررت في ٤ آذار تسليم الجبهة العراقية في فلسطين الى الجيش الأردني «انطلاقاً من الشعور السائد في العراق في رفض مفاوضة

الاسرائيليين». وقد ردت الحكومة الأردنية بالموافقة والاستعداد لتسلم المواقع الأمامية حتى يتسنى لها المفاوضة على شروط الهدنة فيها. وتم الاتفاق أن يتم ذلك في ١٣ آذار. ويمضي الجبوري الى القول أن العراق كان يتوقع في تلك الأثناء، ان يحشد اليهود قواتهم ويهاجموا جيشه «لارغامه على الخروج من فلسطين بدون قيد أو شرط، واحتلال المنطقة التي يشغلها وما تبقى من أراضي فلسطين ليضعوا العرب والعالم أمام الأمر الواقع».

بدأ التحرك الاسرائيلي بسلسلة من التهديدات. ففي ٥ آذار تحدث شرتوك عما أسماه بأعمال العدوان من قبل «العصابات» على حدود المثلث، وقال انه اذا تكررت مثل هذه الأعمال « فلن نقف مكتوفي الأيدي»، وانه أبرق للدكتور بانش يحذر ويطلب اتخاذ تدابير سريعة لكيلا يضطر الجيش الاسرائيلي الى القيام بأعمال تأديبية. وتكررت مثل هذه الأقوال المبطنة بالتهديد خلال الأسبوعين التاليين، مما دل على ان الأعداء أخذوا يهيئون الأجواء للقيام بهجوم عسكري على منطقة المثلث.

وبالفعل أخذ اليهود يحشدون قواتهم العسكرية علناً في المواقع المقابلة للمثلث، فقامت وزارة خارجية العراق يوم ٨ آذار بابلاغ الحكومة الأمريكية بذلك، مع الطلب ان تبذل كل جهد ممكن لمنع اسرائيل من الاعتداء. وأبلغت الحكومة الأمريكية الاسرائيليين انها تشجب أي عمل يؤدي الى نشوب القتال من جديد، وفي الوقت نفسه طالبت العراق بايقاف أية غارات ضد المناطق الاسرائيلية.

وتمهيداً من الاسرائيليين لحملتهم على المثلث أبلغوا (٩ آذار) ممثل أمريكا (مكدونلد) بأن العراقيين والمناضلين الفلسطينيين في المثلث يقومون كل ليلة بالاغارة على مزارع اسرائيل. وأبلغ مكدونلد حكومته بأن هذه الغارات يمكن أن تدفع الاسرائيليين الى اتخاذ أعمال انتقامية ضد الخَطوط العراقية.

لقد مر معنا أن الوفد الاسرائيلي في رودس رفض الموافقة على فقرة اقترحها الوفد الأردني، بأن وقف اطلاق النار سوف يسري على الجبهة العراقية حالما يتسلمها الجيش الأردني. وعندئذ قام بانش بابلاغ الجانبين خطيا انه ينبغي على الطرفين الأردني والاسرائيلي بحث موضوع الجبهة العراقية عندما يحل الجيش الأردني محل الجيش العراقي.

وأبرق ستابلر من عمان يوم ١٢ آذار بان لدى قيادتي الجيشين الأردني والعراقي

معلومات بأن الاسرائيليين يعدّون العدّة للهجوم على المثلث، وان المراقبين الدوليين يؤكدون صحة تلك المعلومات. واقترح ستابلر على حكومته انذار اسرائيل بعدم الاقدام على اعتداء ضد هذه المنطقة التي لا يمكن الادعاء بأنها «أرض اسرائيلية». وكان جواب وزارة خارجية أمريكا: انه اذا صحت تلك المعلومات فما على الأردن والعراق الا أن يحيطا بانش علماً بذلك!!

وبعد يومين أبرقت المفوضية البريطانية في عمان تقول إن وزير خارجية اسرائيل أبلغ الوفد الأردني في رودس ان قوات اسرائيل سوف تحتل منطقة نابلس حالما تنسحب القوات العراقية « لكي تحافظ على الأمن».

وفي تلك الاثناء قدم الوفد الاسرائيلي في رودس الى بانش مذكرة جاء فيها: ان حكومة اسرائيل علمت بأن القوات العراقية سوف تنسحب من المثلث العربي وتسلم مواقعها للقوات الأردنية... ان اسرائيل تعتبر هذا خرقا لمبادىء الهدنة ولا تعترف بشرعية هذا الاستبدال... من رأينا ان العراق لا ينفذ قرار مجلس الأمن المتعلق بالمفاوضات، ويحاول تجاهل مسؤولياته لكي يزعم انه الدولة العربية الوحيدة التي لم تعقد اتفاقية مع اسرائيل..

وبعث ايتان (وكيل خارجية اسرائيل) يوم ١٥ آذار رسالة الى الأردن قال فيها: ان اسرائيل ستعتبر انسحاب العراقيين وحلول الأردنيين مكانهم، خرقا للهدنة، «ولن نقبل بها ما لم تسبقها موافقتنا عليها». وجاء في رسالة ايتان ان اسرائيل لا تنوي احتلال تلك المنطقة بل تريد التوصل «الى تسوية واتفاق يمكنان بدورهما من ادراك بعض التعديلات المنطقية...» وتضمنت الرسالة تهديدا مبطنا، اذ أعرب فيها ايتان عن الأمل بان الأردن يفضل «حل المسائل بالطرق السلمية».

وأطلق شرتوك تصريحات في أمريكا ملؤها التهديد جاء فيها «ان اسرائيل سوف تستولي على قطاع نابلس بأكمله اذا انسحب العراقيون أو سلموا مواقعهم للجيش الأردني». وقد استدعى نوري السعيد سفير بريطانيا في بغداد وأبلغه بذلك (١٦ آذار).

وفي اليوم نفسه بعث رئيس الأركان الاسرائيلي يحذر بانش بأن اسرائيل « قد تقدم على عمل عسكري لوقف غارات العرب». وجاء في مذكرة امريكية ان الاسرائيليين اعترفوا بأنهم يحركون قوات عسكرية في مواجهة المثلث. « وأن هناك احتمالاً لقيام

اسرائيل بهجوم يستهدف احتلال مزيد من أرض فلسطين التي خصصها قرار التقسيم للعرب، ووضع العالم أمام أمر واقع آخر».

وتحركت وزارة خارجية بريطانيا فأثار بيفن مع السفير الأمريكي في لندن احتمال قيام الاسرائيليين بمهاجمة المثلث، وقال له ان الملك عبد الله يطلب سلاحا بموجب المعاهدة لتمكين «الجيش الأردني من الدفاع عن نفسه اذا هاجمه الاسرائيليون بعد ان يتسلم مواقع العراقيين». وقال بيفن: ان اليهود تلقوا كميات كبيرة من الأسلحة بحيث أصبح من السخف ان ترفض بريطانيا تزويد الجيش الأردني بالسلاح والعتاد.

وطلب فاضل الجمالي وزير خارجية العراق (١٧ آذار) من السفير الأمريكي في بغداد أن تضغط أمريكا على اسرائيل حتى لا تهاجم المثلث. وقال الوزير: أن العراق يريد حلاً سلمياً لمشكلة فلسطين وهو يفوض الأردن بعقد الهدنة عن المناطق التي يتمركز فيها الجيش العراقي. وتكرر هذا الطلب يوم ٢١ آذار، فأجاب السفير: إن على العرب ان يواجهوا الحقائق. وعندئذ أعرب الوزير العراقي عن خيبة أمله من موقف أمريكا. وفسر السفير سبب استياء الجمالي بأنه ناشيء عن عدم رغبة امريكا في «سحب كستناء العراقيين من النار».

ولكن اتشيسون وزير الخارجية الأمريكية الجديد بعث بنصيحة الى اسرائيل مؤادها أن لا تبدي اعتراضاً على تسليم جبهة الجيش العراقي للأردن. الا أن الاسرائيليين ظلو ماضين في ملاحقة هدفهم. ومما قاله دايان (١٩ اذار) ان شروطهم هينة والطلبات التي يطلبونها حيوية لهم ولا تهم العرب كثيراً... ثم لجأ الى التهديد الضمني قائلا: اما ان يفاوض الأردن نيابة عن العراقيين، او يتخلى عن فكرة استلام المثلث ويترك الاسرائيليين يتفاهمون مع الجيش العراقي بالطريقة التي يرونها مناسبة لهم.

ويقول دايان (في كتابه عن سيرة حياته) انه التقى بعبد الله التل يوم ١٨ آذار وقال له بصراحة: اننا نريد وادي عربه والتلال التي تسيطر على السهل الساحلي. وعندما أجابه التل: ان هذا غير ممكن، ردّ دايان عليه بقوله: من الأفضل اذا أن لا تتسلموا قطاع العراقيين، لان القتال سوف يتجدد هناك.

وكانت الحكومة الأردنية في تلك الاثناء قد أقنعت العراقيين بتأجيل سحب قواتهم، حتى يتم حل المشكلة التي أثارها الاسرائيليون. ولم تلبث الحكومة العراقية أن عدلت

موقفها السابق فأبرقت في ٢١ آذار الى بانش (والى حكومتي أمريكا وبريطانيا) تخول الأردن ان يفاوض عن المنطقة العراقية، وذلك لاعتزامها تسليم جبهة جيشها الى القوات الأردنية. وجاء في تلك البرقية ان العراق لا يرغب في التفاوض لانه ليس محاددا لفلسطين، وأنه أرسل قواته الى هناك للمساعدة والانقاذ فحسب. وفي اليوم نفسه وافق الأردن على ان يفاوض باسم العراق. ولم يلبث ان اجتمع نور الدين محمود ووزير العراق المفوض في عمان بالملك عبد الله (٢٦ آذار) وأبلغاه رغبة العراق في سحب جيشه « وتفويض الحكومة الأردنية تفويضاً كاملا لاتخاذ ما تراه مناسبا بشأن قضية المثلث العربي دون استشارة حكومة العراق..» .

وهكذا تحمل الأردن عبئاً ثقيلاً، ما كان ليحمله لولا الشعور بالمسؤولية تجاه البقية الباقية من أرض فلسطين.

وفي اجتماع في واشنطن يوم ٢٢ آذار بين وزير خارجية امريكا وشاريت، قال هذا الأخير: إن اسرائيل أبدت صبراً ملحوظاً في عدم قيامها بأعمال انتقامية ضد الغارات القادمة من الجبهة العراقية.. ان اسرائيل لا تريد ان تبدأ القتال، ولكن لا يمكن التأكيد بأن هذا لن يحدث لأن المرء لا يستطيع ان يتنبأ بما يمكن ان يقع عندما يقف جيشان أحدهما قبالة الأخر.

وعقد في القدس اجتماع بين وفد أردني ووفد اسرائيلي (ايتان، يادين، دايان، هاركابي) للنظر في مطالب الاسرائيليين. ودار نقاش وجدل طويلين. وعند منتصف الليل رسم يادين على الخارطة خطاً قال انهم يعتبرونه الحد الأدنى لما يقبلون به. كانت مطالب الاسرائيليين في البداية تشكل مسافة عشرة اميال ابتداء من الخطوط القائمة. ولكنهم في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عدلوا الخط، ثم أبلغوا الوفد الأردني ان على الأردن ان يوافق على هذه المقترحات ويوقع على اتفاقية رسمية في خلال ٢٤ ساعة، واذا لم يفعل فان اسرائيل ستسحب موافقتها على ان يحل الجيش الأردني محل العراقيين. وطالب الوفد الأردني بتعويضات في مواقع أخرى، ولكن الاسرائيليين رفضوا. لقد اتخذ الاسرائيليون موقفاً متشدداً للغاية، وغادر الأردنيون مكان الاجتماع وهم يشعرون ان من المحتمل قيام الاسرائيليين بالهجوم اذا لم يوقع الأردن على الاتفاق المطلوب.

واستدعى الملك عبد الله القائم بالأعمال الأمريكي وأبلغه بمطالب الاسرائليين. ولم

يلبث ستابلر أن أبرق لحكومته (٢٣ آذار).

يشعر الأردن انه اذا رفض الاتفاقية، فان اسرائيل ستبدأ أعمال القتال، ومن المحتمل اضاعة المنطقة بكاملها. **ان التضحية ب ١٥ قرية أخرى أهون من اضاعة البقية الباقية من فلسطين**... لو ان الملك يستطيع أن يتأكد أن الولايات المتحدة سوف تتخذ إجراء لمنع اسرائيل من استئناف القتال، فانه سيحاول تأجيل اتخاذ القرار ليوم أو يومين، في محاولة للحصول على تعديلات أكثر معقولية. هناك شعور بأن التأخير قد يحمل اسرائيل على التقدم بمطالب أخرى.

وبعد ثلاث ساعات أبرق ستابلر مرة أخرى الى واشنطن: .

المطالب الاسرائيلية والانذار بشأن الجبهة العراقية لمدة ٢٤ ساعة.. تبدو غير معقولة ابدا، ونوعا من الابتزاز التهديدي. ومع أن الأردن قد يشعر انه مرغم على توقيع الاتفاقية الليلة، فمن المحتمل أن ينجح في تأجيل اتخاذ القرار النهائي.

بالنظر لهذا الاحتمال الأخير أوصي بأن تنظر وزارة الخارجية بصورة عاجلة في التدخل بقوة لدى الحكومة الاسرائيلية (اذا لم يوقع الاتفاق الليلة) مع الاصرار على ترك التعديلات في الأراضي الى التسوية السلمية، وان يتم توقيع اتفاقية الهدنة في رودس على موجب الوضع الحاضر.

ان الأردن مستعد للتوصل الى تسوية سلمية، ولكن يبدو من الظلم الصارخ ان تقف حكومة الولايات المتحدة موقف المتفرج بينما تقوم اسرائيل، وهي تصوب البندقية، بارغام الأردن على توقيع اتفاقية كهذه. بل ان هذا الوضع يعطي الفرصة لحكومة الولايات المتحدة كي تبرهن انها تقصد تنفيذ سياستها التي أعلنتها في الأمم المتحدة يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٨. (٢٣).

ويقول عبدالله التل: ان الملك عبدالله استدعى في ذلك اليوم القائم بالأعمال الأمريكي (ستابلر) والقائم بالأعمال البريطاني (بري غوردون). وانه عاتب ستابلر لموقف حكومته الموالي لليهود، مما يحملهم على التمادي في مطالبهم، وطلب اليه ان يبدي رأيه.

أما القائم بالأعمال البريطاني فقد أبرق لحكومته (٢٣ آذار) قائلاً:

ان نتائج الابتزاز الاسرائيلي للملك عبدالله ستؤدي الى تدهور الموقف والى تأزم علاقات الأردن بالدول العربية والفلسطينيين.

ثم أبرق مرة أخرى يقول:

ان اليهود يبتزون الملك كما ابتز هتلر رئيس تشيكوسلوفاكيا الراحل. المطلوب ان تتدخل أمريكا لتذكير اليهود بقرار مجلس الأمن في ٤ تشرين الثاني ١٩٤٨ والذي لا يسمح لأي طرف من الأطراف بالاستيلاء على أرض لم تتضمنها خريطة التقسيم الا اذا تسلم الطرف الآخر أرضاً أخرى مقابل الأرض التي تم التنازل عنها.

في ذلك اليوم بلغ قلق المسؤولين الأردنيين ذروته القصوى، فليس من السهل عليهم ان يوافقوا على مطالب اليهود، ولكنهم يخشون ان تشن قواتهم هجوما واسع النطاق وتكون النتيجة ضياع البقية الباقية من أرض فلسطين. لقد علمتهم الأحداث السابقة ان لا أمل يرجى من تدخل امريكا او بريطانيا، وعلمتهم أن سياسة فرض الأمر الواقع التي مارسها اليهود نجحت مرات ومرات. كان من السهل رفض مطالب اليهود، والمجازفة بضياع الأرض الباقية، فيقول الرأي العام وتقول الحكومات العربية ويقول التاريخ: ان الأردن بذل كل ما في الوسع، وانه رفض ان يرضخ، وان القوة هي التي حسمت الوضع هنا كما حسمتها مع مصر.

وكان توفيق أبو الهدى، رئيس الوزراء، قد ذهب آنذاك الى بيروت في اجازة، فذهب عبدالله التل، موفداً من قبل الملك لاستدعائه، حتى يتحمل مجلس الوزراء مسؤولياته.

واستدعى الملك عبد الله الفريق جلوب وسأله: هل بامكاننا رفض طلبات اليهود؟

أجاب جلوب: يا سيدنا، تعلمون ان امكانيات الجيش في الحرب ضعيفة، والانكليز ما أعطونا ذخيرة من يوم خروجهم من فلسطين، وحنا صفينا في الميدان لوحدنا، وغير معقول نحارب اليهود بعد ما جمعوا قواتهم ضدنا...

لم يبق هناك مجال لتفادي مواجهة المسؤولية. تحتم على الأردن ان يتخذ القرار الصعب: فإما القبول بالشروط المعروضة، واما مواجهة وضع كان من المحتمل ان يؤدي الى ضياع أجزاء كبيرة مما بقي للعرب من أرض فلسطين.

وفي ليلة ٢٣ – ٢٤ آذار عقد اجتماع آخر بين الوفدين. وفي الاجتماع قال ايتان – رئيس الوفد الاسرائيلي – ان حكومته تطلب اجراء تعديلات اقليمية في منطقة المثلث كعامل أساسي للتفاهم . ثم تحول للتهديد قائلا: اذا رفضت الحكومة الأردنية تلبية طلبات اسرائيل فانه ينصح ان لا يتدخل الأردن بينهم وبين العراق، بل يُترك الطرفان للتفاهم فيما

بينهما بالطرق التي تجدها اسرائيل مناسبة... اما اذا أقدم الأردن على تسلم الجبهة دون اتفاق فان اسرائيل لن تكون مسؤولة عن النتائج.

واستمرت المباحثات حتى الساعة الثالثة صباحا عندما تم التوقيع على اتفاق نص على ما يلي:

١ – تقبل اسرائيل أن يحل الجيش الأردني محل الجيش العراقي.

٢ – تكون الحدود الفاصلة بين الطرفين كما هو مبين بالخرائط المرفقة (أعطى الخط الجديد لاسرائيل ٤٠٠ كيلومتر مربع من الأرض تضم ١٦ قرية).

٣ – تعوض اسرائيل على الأردن في مناطق أخرى.

٤ – لا يصبح الاتفاق نافذ المفعول الا بعد ان يوقعه رئيس الوزراء في خلال سبعة أيام (والا فانه يصبح لاغياً).

وضع الوفد الأردني الشرط الأخير، من اجل كسب مزيد من الوقت للحصول على جواب واشنطن ولندن. ذلك ان الأردن بقي حتى اللحظة الأخيرة يتعلق بأهداب الامل، لعل امريكا وبريطانيا تكبحان من جماح الاسرائيليين.

خلاصة ما يمكن قوله ان الأردن اختار أهون الشرين، ولم يكن اختياره عن رضى بل كان في الواقع قسراً واكراهاً.

وأبلغت وزارة خارجية بريطانيا السفير الأمريكي في لندن ان الاسرائيليين خفضوا مطالبهم بالاكتفاء بأن يكون عمق المسافة التي يريدونها خمسة كيلومترات على طول ٦٠ كيلومترا، بدلا من عمق ١٥ كيلومترا كما طلبوا في البداية، وان الأردن سار في المفاوضات « **تحت الاكراه والتهديد في أجلى صورهما**». وأبرق ستابلر الى حكومته بالتفاصيل، وأبلغها بأن هناك سبعة أيام حتى يصبح الاتفاق نافذ المفعول.

ومن بغداد أبرق السفير البريطاني (٢٤ آذار) الى وزارة خارجيته.

الحكومة العراقية أبلغت بانش بأنها تعترف بنصوص الاتفاقية المعقودة بين اسرائيل والأردن حول الهدنة التي عقدتها الدول العربية المجاورة لاسرائيل، وكأنها تحمل توقيع العراق نفسه. وقد أكد نوري السعيد رئيس الوزراء ان العراق يعتبر نفسه مرتبطاً بنصوص اتفاقية الهدنة بين الأردن واسرائيل ما دام أن هذه الاتفاقية تتعلق بالمواقع والحدود التي يقف الجيش العراقي عندها، وان الجيش العراقي سينسحب من هذه المواقع

ويسلمها للقوات الأردنية. ولما كان في نية الجيش العراقي الانسحاب من فلسطين وتسليم مواقعه للجيش الأردني، فان العراق – على ضوء ذلك – لا يشعر بأنه مرتبط بأية مسؤولية قد تقع على رأس الجيش الأردني نتيجة هذا الانسحاب.

وفي ٢٥ آذار تلقى ستابلر من اتشيسون البرقية التالية:

لقد نظرنا بكل اعتبار الى توصياتك، ولكن بما ان ممثلي الأردن وقعوا الاتفاقية فانّ تدخلنا مع تل ابيب لن يكون مجدياً.

اننا نشعر انه بالنظر للظروف المحيطة بالموضوع فان شعور المسؤولين في الأردن بضرورة توقيع الاتفاقية شعور صائب. والأسباب التي أبديت بشأن احتمال مطالب اسرائيلية أخرى في المستقبل، منطقية. يمكن ان تقول للملك ان حكومتنا ستعتبر أي محاولة لخرق بنود الاتفاقية السرية عائقاً كبيراً للسلام، وانها مستعدة لتقديم نصيحة قوية ضد أي اجراء يقوم به أي جانب.

كان هذا الجواب يتجاهل ان الاتفاق علق على موافقة رئيس وزراء الأردن، في خلال سبعة أيام. على كل حال كان قد سبق للأردن ان استنجد بأمريكا في أثناء زحف اليهود على وادي عربه ودون أن يكون هناك اتفاق سابق أو لاحق، ولكن أمريكا لم تفعل أي شيء.

وعندما عرف الملك عبد الله جواب وزارة خارجية امريكا، بعث برقية الى الرئيس ترومان (مساء يوم ٢٥ آذار) يناشده فيها كبح جماح اسرائيل واقناعها بالكف عن تعديل خط وقف اطلاق النار لمصلحتها.

أما ستابلر فبعث بدوره برقية طويلة الى اتشيسون (٢٦ آذار) أبلغه فيها أن الاتفاق الموقع لا يصبح نافذاً الا بعد مصادقة رئيس الوزراء. ومما جاء فيها قوله:

الملك عبدالله يشعر باستياء شديد للأسلوب الذي فرضت فيه الاتفاقية، ولكنه يدرك العواقب التي يمكن أن تنشأ عن عدم التصديق عليها. انه مقتنع – وكذلك جميع الأردنيين الذين اشتركوا في المفاوضات – ان الاسرائيليين سيعمدون – اذا لم يصادق الأردن عليها – الى القيام بعمليات عسكرية لارغام العراقيين على الخروج (وهو أمر يشمل الجيش الأردني ايضا) وانهم سيحصلون بالقوة على التعديلات التي يريدونها، مع الترجيح بأن تزيد كثيراً عن الأراضي التي يحاولون اغتصابها عن طريق

المفاوضات. ويشعر الملك عبد الله ايضاً ان الاسرائيليين سينجحون في أي تحركات يقومون بها، وانه لا الأمم المتحدة ولا الولايات المتحدة ولا بريطانيا ستقوم بأي اجراء فعال لايقافهم. لقد بعث الملك رسالته الى الرئيس وأجل القرار النهائي بشأن الاتفاقية، على أمل استنباط وسيلة ما وبصورة عاجلة لمنع اسرائيل من ارغام الأردن على هذه الاتفاقية... والآن تبدو حكومتنا مستعدة للسماح لاسرائيل بارغام الأردن على دفع ثمن باهظ... وفي نفس الوقت تهدد اسرائيل باستيفاء الثمن قهرا اذا لم يتم دفعه عن طريق المفاوضات. لقد تمكنت اسرائيل عدة مرات في السابق من خرق الهدنة دون ان تعاقب، وسيجد الملك عزاء قليلا في العبارة الأخيرة من برقيتكم. واذا لم تتخذ الحكومة الأمريكية الان موقفاً قويا لوضع حد لتصرفات اسرائيل الحافلة بالتحدي والتهديد، فانني أتجاسر على القول ان اسرائيل ستوصل حدودها الى نهر الأردن قبل عقد السلام في فلسطين. واذا حدث هذا فانني اتجرأ على القول ان السبب يعود الى ان تحدي اسرائيل قوبل باللامبالاة ومحاولات الاسترضاء. وبالنظر لرسالة الملك وما كتبته أعلاه، فانني أحث وزارة الخارجية بشدة على اعادة النظر في موقفها قبل ٣٠ اذار. واذا لم يحدث هذا فأرجو تخويلي صلاحية التأكيد للملك ان حكومتنا ما تزال تقف بثبات عند سياستها التي أعلنها جيسوب في الامم المتحدة يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٨.

لقد استعمل ستابلر في برقيته هذه أقوى لهجة يمكن لممثل دبلوماسي ان يستعملها مع حكومته، واضعاً أمامها الحقائق ومبصرا اياها بطريق العدالة والاخلاق التي ينبغي لها ان تسير عليها.

وعاد رئيس الوزراء من لبنان، يوم ٢٦ آذار، فعقد اجتماع برئاسة الملك حضره عدد من الوزراء والمسؤولين. وقد شرح الملك وضع الجيشين الأردني والعراقي وكيف ان امكاناتهما للحرب ضعيفة، الى حد يتعرضان فيه للخسارة فيما اذا استؤنف القتال. ثم شرح الملك موقف أمريكا وبريطانيا وقال انه لا يعتمد عليهما وعلى وعود أية أمة أجنبية. وبعد ذلك قرأ نص جواب زير خارجية بريطانيا وفيه النصح أن يتصل جلالته شخصيا بالرئيس ترومان. وكان تعليق الملك على ذلك الجواب:

كما فعلوا بفلسطين أولاً ورموا همّها على الأمريكان يفعلون بنا الان ويطلبون منا استشارتهم.

ومرة أخرى وجه الملك سؤالاً الى الفريق جلوب عن مدى استعداد الجيش الأردني للحرب، فأجاب جلوب بان الجيش صغير والعتاد لا يكفي لأكثر من معركة تدوم يومين أو ثلاثة.

ونستطيع ان نفهم موقف رئيس الوزراء من برقية بعث بها ستابلر يوم ٢٧ آذار الى خارجيته:

رئيس وزراء الأردن الذي بدا عليه الشعور بالمرارة، قال انه مع موافقته على ارسال رسالة الملك الى الرئيس ترومان – يرى ان الأمل ضعيف جدا في ان تهب أمريكا وبريطانيا لمساعدة الأردن. ولفقدان الثقة بالحصول على مساعدة خارجية فقد أتفق على عقد اجتماع يوم ٢٩ آذار مع الوفد الاسرائيلي – وكان ذلك انتظاراً لجواب الرئيس ترومان. ينوي رئيس الوزراء ان يقترح تعديل مطالب اليهود والحصول على تعويضات في منطقة الخليل، وان تعتبر الأرض التي يطالب بها اليهود أرضا حراما تحت ادارة الأمم المتحدة، ريثما يتم التوصل الى تسوية سلمية. وان الموضوع كله سيبحث في مجلس الوزراء. وانه لم يعد يهتم بموقف الدول العربية الأخرى، واهتمامه الرئيسي يتعلق بالأردن وفلسطين العربية، وعليه ان يعمل الان – بغض النظر عن الثمن الذي يتوجب دفعه – لمنع وقوع كارثة كاملة.

وفي ٢٩ آذار تلقى الملك جواب الرئيس ترومان المؤرخ في اليوم السابق، وترجمته كما يلي:

تلقيت رسالة جلالتك المؤرخة ٢٥ آذار حول وضع الجبهة العراقية في فلسطين. انني أوافق جلالتك على ان حلول قوات أردنية محل القوات العراقية سيكون خطوة في سبيل السلام، وان ينسحب وقف اطلاق النار والهدنة، بين اسرائيل والأردن على الجبهة العراقية.

أما في ما يتعلق بطلب الاسرائيليين تعديل الخطوط الحالية بين قوات العراق واسرائيل، أود أن استذكر لجلالتك ان سياسة حكومة الولايات المتحدة المتعلقة بالتسوية النهائية في فلسطين، كما شرحها المندوب الأمريكي الدكتور فيليب جيسوب

في الجمعية العامة بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٨، تقوم على أساس أن اسرائيل يحق لها امتلاك الأراضي التي خصصها لها قرار الجمعية العامة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧. ولكن اذا كانت اسرائيل ترغب في اضافات: أي في أراض خصصها قرار ٢٩ تشرين الثاني للعرب، فان عليها ان تعوض على ذلك بأراض مقابلة.

لقد فهمت أن أحد بنود الاتفاقية السرية التي وقعها مندوبو جلالتك بالحروف الأولى من اسمائهم تنص على ان الاتفاقية «لا تلحق الضرر من أية ناحية بالتسوية السياسية النهائية بين الجانبين». ان جلالتك تستطيع ان تتأكد ان حكومة الولايات المتحدة، بصفتها عضوا في لجنة التوفيق الفلسطينية، سوف تعتبر أية محاولة لخرق بنود الاتفاقية السرية بين الأردن واسرائيل، بمثابة عائق للتقدم الذي يتم احرازه نحو تحقيق السلام في فلسطين، وان حكومة الولايات المتحدة سوف تكون مستعدة لتقديم احتجاجات شديدة ضد أي عمل كهذا قد يحاول أحد الجانبين القيام به.

وفي تلك الاثناء، وجه رئيس الوزراء الى الفريق جلوب السؤالين التاليين وطلب الاجابة عليهما خطياً:

١ - اذا رفضنا مطالب الاسرائيليين، واستأنف هؤلاء الهجوم، فهل نستطيع صد هجومهم في كل مكان على الخط الحالي؟

٢ - اذا لم نستطع صدهم على الخط الحالي، واستؤنف القتال ضد الجيش الأردني وحده، فهل يحتمل ان يحتل الاسرائيليون مساحة من الأرض اكبر مما يطالبون به الآن؟

وأجاب جلوب على السؤالين خطياً بقوله:

اذا استأنف الاسرائيليون الحرب ضد الجيش الأردني وحده فأننا لا نستطيع المحافظة على الخط الحالي بعد انسحاب العراقيين. ومن المحتمل اذا تجددت الحرب ان يستولي الاسرائيليون على مساحة أكبر من المساحة التي يطلبونها الان. (٢٤)

وفي هذا الصدد يقول السير اليك كركبرايد الوزير البريطاني المفوض في عمان:

هدّد الاسرائيليون بشن هجوم واسع النطاق اذا لم يستجب الأردن لطلبهم بتسليم ٤٠٠ كيلومتر من منطقة المثلث. ولم يكن لدى الأردن خيار في الاستجابة للطلب بسبب تصميم العراقيين على الانسحاب، ولان الأردن لم يكن لديه سوى الفي جندي لتغطية مواقع العراقيين... كان وضع الأردن مثبطا للعزم. وعندما رفض الاسرائيليون

تخفيف شروطهم، توجه الملك عبد الله الى حكومتي بريطانيا وأمريكا طالبا التعضيد والمساعدة، ولكن الحكومتين قدمتا اعذاراً غير مقنعة ولم تتدخلا.

وانتهت الأيام السبعة التي نصت عليها الشروط التمهيدية، فعقد في ٣٠ آذار اجتماع ترأسه توفيق ابو الهدى عن الجانب الأردني، والدكتور ايتان عن الجانب الاسرائيلي. وبدأ رئيس الوزراء الحديث فاقترح العودة الى قرار التقسيم. ولكن ايتان رد قائلا: انه لا يمكن اعادة عقارب الساعة الى الوراء، ومن الضروري تسوية مشكلة المثلث بما يرضي اسرائيل ويؤمن سلامتها وطمأنينة شعبها. ثم زاد على ذلك قوله «ان طلبات اسرائيل في المثلث لا تقبل المساومة، ولا يمكن التنازل عن شيء منها، لان الخبراء العسكريين أوصوا بها كحد أدنى لتأمين سلامة الدولة اليهودية الفتية من تلك الناحية، وتواصيهم هذه تعتبر بنظر الحكومة أهم بكثير من قضية لاجئين وتعويضات وما شابه ذلك، لان سلامة اسرائيل هي ما يطالب به الوفد اليهودي بالدرجة الأولى، ومتى تأمنت هذه المطالب سيتم الاتفاق هذه الليلة».

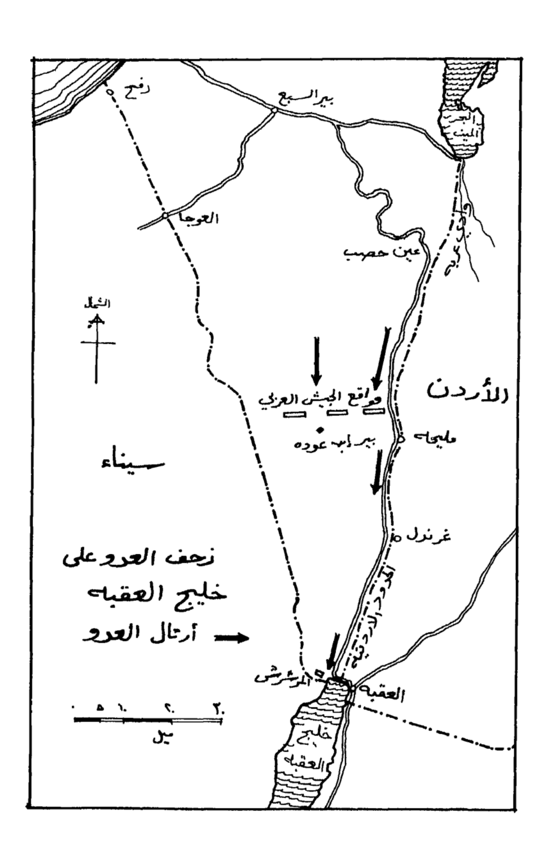
وحاول الوفد الأردني في تلك الليلة اقناع الوفد الاسرائيلي بالحصول على تعديلات لمصلحة الأردن في منطقة الخليل. ولكن الاسرائيليين رفضوا التراجع عن بيت جبرين، بل حتى عن قرية الدوايمة.

وأخيراً تم التوقيع على الاتفاق في الساعة الرابعة من صباح ٣١ آذار ١٩٤٩.

نصّت الاتفاقية على ان يتم تسليم خط الهدنة الجديد في المثلث على مراحل (من خمسة أسابيع الى خمسة عشر أسبوعاً)، كما نصت على تعديل الخط العسكري الراهن في منطقة الخليل – البحر الميت لصالح الأردن، كتعويض عن أراضي المثلث. ونصت الاتفاقية على السماح لأهل قرى المثلث بالبقاء فيها. وتضمنت التأكيد على انها لا تجحف بالتسوية السياسية النهائية. كما تضمنت انشاء لجنة مشتركة لمراقبة تنفيذ الهدنة. وقد أُلحقت بها عدة خرائط تبين خط حدود الهدنة المتفق عليها.

ونقلت الاتفاقية الى رودس فتم التوقيع عليها هناك بحضور الوسيط الدولي رالف بانش يوم ٣ نيسان ١٩٤٩.

ويقول الفريق جلوب ان الأرض التي حصلت عليها اسرائيل كانت تؤلف شريطا يتراوح عرضه من كيلومترين الى ثلاثة كيلومترات على جبهة طولها ١٨٠ كيلومتراً،



رفح
بير السبع
البحر الميت
العوجا
عين حصب
الشمال
مواقع الجيش العربي
الأردن
بير ابن عوده
سيناء
غرندل
زحف العدو على
خليج العقبه
أرتال العدو
الحدود الأردنية
المرشرش
العقبه
خليج العقبه
٠ ٥ ١٠ ٢٠ ٣٠
ميل

وتقارب مساحتها ٤٠٠ كيلومتر مربع، بينما كان جيشا الأردن والعراق يدافعان عن منطقة تقارب مساحتها ستة آلاف كيلومتر مربع. وكانت تلك الأرض تضم ١٦ قرية يقطنها نحو ٣٥ الف نسمة.

وكان التفكير في بادىء الأمر ان تكون الاتفاقية سرّية، ولكن لم يلبث ان تقرر جعلها علنية.(٢٥)

مما يجدر التذكير به في هذا الصدد ان الاتفاقية عقدت من قبل الحكومة بحسب الأصول الدستورية، ودرس رئيس الوزراء كل كلمة منها، والضباط الذين وقعوا عليها في رودس لم يكن لهم دور سوى وضع تواقيعهم. وقد اشترك في جلسة المباحثات الأخيرة أربعة وزراء بالاضافة الى رئيس الوزراء، ثم وافق مجلس الوزراء بالاجماع على الاتفاقية.

بعد توقيع الاتفاقية تسلم الاسرائيليون الشريط الذي أصروا على اغتصابه فوق ما اغتصبوا قبله. وذلك على مراحل متقاربة. وفي الوقت نفسه تسلمت الكتيبة الخامسة مواقع الجيش العراقي (٦ – ١٤ نيسان). وأخذت القوات العراقية في الانسحاب عائدة الى بلادها، حتى أتمت انسحابها في أواخر تموز ١٩٤٩. اما المناضلون الفلسطينيون في القطاع العراقي فقد تحولوا للخدمة مع الجيش الأردني.

وكانت القوات المصرية قد انسحبت من قطاع بيت لحم – الخليل يوم ٣٠ نيسان ١٩٤٩ عن طريق بئر السبع – غزة تحت اشراف مراقبي الأمم المتحدة.

لم يكن غريبا ان تقابل شروط الهدنة بسخط بالغ في فلسطين، وزاد الطين بلة ان الضباط والجنود العراقيين أخذوا ينددون بالهدنة قبيل انسحابهم، ويذيعون بين الناس أنهم كانوا مستعدين للقتال حتى الموت لولا «ماكو أوامر». وجاء وفد من نابلس الى عمان محتجا فقال لهم وزير الدفاع العراقي: ان العراق قدم تضحيات كافية في فلسطين. ثم قابل الوفد الملك عبد الله فصارحهم بالحقيقة قائلاً:

ان الأردن الذي تخلى عنه حلفاؤه العرب، والذي منع الانكليز عنه العتاد، لم يكن أمامه خيار الا قبول الشروط التي فرضتها اسرائيل. ان موقف بريطانيا وأمريكا أجبرنا على قبول الهدنة.

قوبلت الاتفاقية بنقد شديد من قبل حكومتي مصر وسوريا، مع ان مصر وقّعت قبل الأردن على اتفاقية ذهبت بموجبها الى العدو آلاف الكيلومترات المربعة وعشرات المدن والقرى. ولكن الفرق أن مصر لم توقع الا بعد ان لحقت بجيشها الهزيمة، وان الأردن وقّع دون أن تلحق بجيشه الهزيمة. فهل كان يجب أن يُسحق الجيش الأردني لكي تقتنع الحكومات الأخرى بأن الأردن كان مغلوباً على أمره مثلها؟

ووقع لبنان على اتفاقية مماثلة في ٢٣ آذار ١٩٤٩.

وفي سوريا قام حسني الزعيم بانقلاب ضد شكري القوتلي والحكم الدستوري (٣٠ آذار ١٩٤٩). ولم تلبث سوريا ان وقعت على اتفاقية هدنة في ٢٠ تموز ١٩٤٩ ثم انسحبت من مستعمرة مشمار هاياردن الى حدودها الدولية ولم يبق في يدها شبر واحد من أرض فلسطين. والواقع ان حملة البهتان التي شنتها مصر وسوريا ضد الأردن لم تكن تستهدف سوى تحويل الأنظار عن تقصيرهما. ولكن تلك الحملة الظالمة لم تفد أصحابها اذ سقط شكري القوتلي، ثم لحق به حسني الزعيم، ولم يلبث أن سقط فاروق.

لقد طغت الدعايات المضللة فترة من الزمن، ولكن الدعايات لا يمكن أن تغطي الحقائق الى الأبد. فالجيش العراقي والجيش الأردني حافظا على منطقة واسعة من أرض فلسطين، وحافظ الجيش المصري على قطاع غزة الصغير. والجيش العربي هو الذي أوقع باليهود خسائر في الأرواح أكثر من أي جيش عربي آخر، وأخذ ٧٠٠ أسير منهم ولم يؤخذ منه سوى أربعة أسرى كانوا جميعا مصابين بجراح خطيرة. اما الجيوش الأخرى فقد أخذت كلها أقل من ثلث الأسرى الذين أخذهم الجيش الأردني.

اننا نستطيع بعد مرور هذه السنوات ان ندرك ان الدول العربية جميعا خرجت من تلك الحرب مغلوبة على أمرها، وانها أضطرت اضطراراً الى القبول بالواقع الذي فرضه العدو عن طريق قواته المسلحة. لم تكن هناك خيانات، ولم تكن هناك مؤامرات، ولم يكن هناك تفريط، ولم تتبرع دولة واحدة بشبر واحد من أرض فلسطين للعدو. كانت الدول العربية جميعها مخلصة في سعيها لانقاذ فلسطين، ولكن القوة العسكرية التي دفعتها الى ميادين القتال لم تكن كافية. ومن المؤسف ان زعماء العرب لم يتعظوا من الكارثة التي ألمّت بأمتهم، ولم يحاولوا لم شعثهم ومساندة بعضهم البعض، لايقاف العدو عند حده. بل مضوا يؤلبون أجهزة الدعاية من صحف واذاعات لكي يقنعوا الرأي العام بأن الهزيمة ما كان

يمكن ان تحدث لولا خيانة هذا وتآمر ذاك. ولكن كم من مرة انقلب السحر على الساحر، وسقط صانع الشر في الحفرة التي حفرها لأخيه. أجل، من المؤسف ان كثيرين من الزعماء العرب، لم يحاكموا شؤون السياسة العربية بالعقل والأخلاق، فاتخذوا كيل الاتهامات لغيرهم ديدنا لهم، حتى جاءت هزيمة حزيران ١٩٦٧ تغطي على ما سبقها من هزائم ونكبات.

ان قصص الهزائم محزنة ولا تسر البال، فالانسان يحب أن يروي قصص الانتصارات والمنتصرين. ولكن هذا حال شعوب الأرض وليس حال شعبنا وحده. لا أعتقد أن هناك أمة لم تعرف الهزيمة ولم تذق طعمها المر. ولكن الشعوب الحية هي التي تعرف كيف تنتقل من الهزيمة الى النصر، ولا بد لهذه الشعوب ان تعرف أسباب الهزائم التي لحقت بها، حتى تعرف كيف تتفادى تلك الأسباب ومسبباتها، وكيف تتحول الى طريق الخلاص. أقول «الشعوب» لأنها هي الباقية، والزعماء يجيئون ويذهبون. والشعوب الحية هي التي تخلق الزعماء العظماء.

ولا يفوتني قبل ان أختتم هذا الفصل أن أشير الى بعض الاجراءات القانونية والادارية التي اتخذتها الحكومة الأردنية، لتوطيد العلاقة رسميا بين الأردن وفلسطين من جهة، وللتمهيد للوحدة من جهة ثانية. ففي ١٤ شباط ١٩٤٩ نشر في الجريدة الرسمية تعديل لقانون جوازات السفر، نصت المادة الثانية منه على انه يجوز لأي شخص عربي فلسطيني يحمل الجنسية الفلسطينية أن يحصل على جواز سفر أردني بموجب قانون جوازات السفر. وفي ١٦ آذار ١٩٤٩ نشر في الجريدة الرسمية قانون الادارة العامة في فلسطين، الذي حول الحكم العسكري في أراضي فلسطين الواقعة تحت حماية الجيش العربي، الى ادارة مدنية. وبذلك أُلغيت وظائف الحكام العسكريين، وأخذ يتولى الادارة في البلاد موظفون مدنيون. وتبعاً لذلك أصبح عمر باشا مطر حاكماً ادارياً عاماً(٢٦).

المحاولة الأخيرة

من الناحية النظرية كانت اتفاقية الهدنة مرحلة تمهيدية لعقد اتفاقيات السلام بين الدول العربية واسرائيل. وقد تضمنت تلك الاتفاقات نصوصا تقول ان بنودها يجب ان لا تؤثر على اتفاقيات السلام التي ستأتي بعدها. ولا أدري اذا كانت قد بقيت عند أحد من العرب الذين عرفوا الحقائق، ذرة من أمل بأن تكون اتفاقات السلام أفضل من اتفاقات الهدنة – بعد

كل الذي خبروه من تشدد اسرائيل ومحاولاتها كسب المزيد والمزيد من الأرض.

على ان هيئة الأمم المتحدة عمدت في ١١ كانون الأول الى تأليف لجنة توفيق دولية اختير لعضويتها مندوبون من الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا، وألقيت على عاتق هذه اللجنة مهمة التوفيق بين العرب واسرائيل. وغني عن القول ان هذه اللجنة أخفقت كما أخفق من قبلها برنادوت. ولكي أعطي القارىء فكرة عن أسباب اخفاق اللجنة، أعود الى مقتطفات بسيطة من برقيات بعث بها المستر اثريدج – العضو الأمريكي في اللجنة – الى حكومته:

ففي ١٤ آذار أبرق أثريدج الى وزير خارجية امريكا قائلاً:

ان اليهود لا يحترمون عهدا، ولم يقدموا أي دليل يدعو الى اطمئنان العرب. ان هيئة الأمم تدفن في فلسطين. هل تستطيعون ان تضغطوا عليهم؟

وفي ٢٨ آذار كتب من بيروت الى وزير خارجيته يقول:

اذا لم يتم الضغط من قبل الولايات المتحدة علىاسرائيل، فلا يمكن التوصل الى نتيجة من عمل اللجنة.

وفي ١١ نيسان أبرق الى ترومان:

هذه أصعب مهمة كلفتني بها حتى الان. العرب أذهلتهم الهزيمة وأفجعتهم، وفي قلوبهم مرارة شديدة تجاه الأمم المتحدة والولايات المتحدة... العرب قدموا تنازلات كبيرة جداً واليهود لم يتنازلوا عن شيء حتى الآن..

وتحولت لجنة التوفيق الى لوزان، وأرسلت كل من مصر وسوريا والأردن ولبنان واسرائيل وفدا الى لوزان. وطالب الأردن بميناء على البحر الأبيض المتوسط مع ممر الى ذلك الميناء، واقترح غزة أو عكا. وأجاب الاسرائيليون ان الميناء والممر سيشطران اسرائيل، وهو أمر لا يمكن أن يوافقوا عليه. عرضوا تسهيلات ترانزيت في حيفا، فعرض الأردن عليهم تسهيلات ترانزيت في العقبة اذا حصل على بئر السبع.

وفي ١٢ أيار تم التوقيع على بروتوكول لوزان. ولكن تلك الوثيقة لم تكن سوى حبر على ورق، اذ أعلن ايتان بصراحة «اننا نريد الاحتفاظ بكل شيء». وبعد أيام قال فوزي الملقي (وزير الدفاع ورئيس الوفد الأردني الى لوزان):

العرب قبلوا التقسيم وقاموا بعدة تنازلات. لا يستطيع الأردن ان يقدم مزيدا من

التنازلات، وعلى اليهود ان يقابلوا ذلك بتنازلات من جانبهم.

وفي ٢٨ ايار بعث ترومان (نتيجة الحاح وزارة خارجيته) مذكرة الى بن غوريون (هي أقوى مذكرة أرسلتها امريكا في عهد ترومان) قال فيها ما خلاصته:

نحن قلقون لمطامعكم في الأراضي. نتوقع أن تعطوا أراضي مقابل الأراضي التي تريدون أخذها خارج حدود التقسيم. سنعيد النظر في سياستنا نحوكم اذا رفضتم الاعتدال.

وعندما وصلت الرسالة الى بن غوريون قال لممثل أمريكا «قرار التقسيم لم ينشىء دولتنا ولكن نحن انشأناها بقتالنا. المذكرة غير عادلة وغير واقعية». أما جواب اسرائيل الخطي فقد تضمن القول «ان مذكرتكم تقوم على سوء فهم لموقفنا... اذا كان هناك جمود في لوزان فالحق على العرب.. لا نستطيع قبول التنازل عن الأراضي على أساس قرار التقسيم، لان التقسيم أقيم على افتراضات لم تتحقق. العرب رفضوا تنفيذ القرار سلميا بثورة من الداخل وغزو من الخارج..». ومن أعجب ما جاء في ذلك الجواب ان المذكرة الأمريكية لا تمثل سياسة الأمم المتحدة، وان نكبة اللاجئين سببها العرب، وعودتهم تؤثر على أمن أسرائيل.

وبلغ الأمر من اسرائيل انها طالبت ان تغادر قوات الأردن أرض فلسطين «على ان لا يؤثر ذلك على حقوق عرب فلسطين..» . واقترحت اسرائيل ان تعقد اتفاقية سلام مع الأردن على أساس خط الهدنة الراهن مع تعديله في منطقة القدس ومنطقة اللطرون (لمصلحة اسرائيل). وكان جواب الملك عبدالله: هذا غير مقبول على الاطلاق.

وفي ٨ حزيران ١٩٤٩ أبدى الملك عبدالله رأيه لستابلر، بقوله:

هناك طريقان لتسوية مشكلة فلسطين: السلام أو الحرب.

انه لا يريد الحرب ويريد الوصول الى تسوية سلمية. واذا كانت أمريكا لا تستطيع تأمين السلام العادل المعقول، فعليها ان لا تحول بينه وبين الحصول على السلاح للدفاع عن النفس.

وفي ١٢ حزيران كتب أثريدج لحكومته:

اذا أراد أحد ان يعمل تقديراً نسبياً لدرجة اللوم في الجمود الذي يكتنف محادثات لوزان، فان اسرائيل يجب أن تتحمل المسؤولية الرئيسية...

واستشارت بريطانيا أمريكا في أن تعلن ان معاهدتها مع الأردن تنسحب على الضفة الغربية، فكان من رأي وزارة خارجية أمريكا (١٢ حزيران) التريث في ذلك كيلا يتخذ اليهود منه ذريعة للاستيلاء على مزيد من أراضي فلسطين الباقية للعرب، الأمر الذي سيوقع بريطانيا في مشكلة: هل تحارب اسرائيل بقوات غير موجودة في منطقة قريبة أو تواجه الاخفاق في الوفاء بالتزاماتها للأردن؟ «**على بيفن ان لا يعتمد على معاضدة أمريكا فيما قد يحدث، وعليه أن لا يغرق في تقديره لنفوذ الولايات المتحدة على اسرائيل. ان الأحداث السابقة توحي ان اسرائيل تملك من النفوذ على الولايات المتحدة أكثر مما تملك الولايات المتحدة مع اسرائيل. وهذا الأمر صحيح بصورة خاصة فيما يتعلق بالأمور العسكرية، لأن أسلحة اسرائيل جاءت من اوروبا الشرقية..**».

وفي ١٧ حزيران قال ايبان للأمريكان.

تشعر اسرائيل انه لأمر غير أخلاقي ان يفكر أي انسان بمكافأة العرب على العدوان الذي شنّوه ضدنا.... نعتقد ان العرب يجب ان يقدموا تعويضات لنا بدل ان يحصلوا هم على تعويضات... في لوزان عملنا من أجل السلام ولكن العرب لم يقابلونا بالمثل.. لقد وافقنا – مثلا – على تدويل الأماكن المقدسة في القدس وأعطاء الأردن منطقة حرة في ميناء حيفا، ولكن العرب لم يتجاوبوا مع هذه التنازلات.!!

وعادت أمريكا تضغط على اسرائيل وتحاول اقناعها بالالتقاء مع العرب في منتصف الطريق، وهدد ترومان في ١٩ تموز أنه سيضطر الى اعادة النظر في موقف بلاده تجاه اسرائيل، ولكن اسرائيل رفضت ذلك. واستقال أثريدج وعُيّن بورتر مكانه.

ومضى بارديت قنصل امريكا في القدس يشرح لحكومته تعنت اسرائيل وطغيانها، واقترح خطة محددة تصادق عليها الجمعية العامة بشأن القدس وتسوية الحدود ومشكلة اللاجئين (وهذا ما طالبت به بريطانيا). وأبرق في ١ آب يقول «أكرر وجهة نظري التي شرحتها مرارا وتكرارا، بأن اسرئيل لن توافق على قرار الجمعية العامة وعلى سياسة الولايات المتحدة او مبادىء العدالة والانصاف، الا اذا كانت الولايات المتحدة والأمم المتحدة مستعدتان لاتخاذ اجراءات ترغمها على ذلك».

ولكن لم تكن هناك دولة أو مجموعة دول مستعدة لارغام اسرائيل (أي استعمال قواتها المسلحة) ، وكانت اسرائيل تعرف ذلك.

وفي اليوم التالي عاد ذلك الرجل ذو الضمير الحي يؤكد ضرورة العمل قبل فوات الأوان، والتركيز على خطة ترمي الى اعادة الأراضي التي أخذها اليهود خارج حدود التقسيم الى العرب لتوطين اللاجئين فيها..

وكرر الأردن في لوزان المطالبة باستعادة اللد والرملة والمثلث والحصول على ممر الى البحر الأبيض.

وبلغ من وقاحة سفير اسرائيل في امريكا (ايلات) انه قال لمساعد وزير خارجية امريكا (١٨ آب) ان اخفاق محادثات لوزان يعود الى عدم تشجيع لجنة التوفيق – وخاصة الوفد الأمريكي – على قيام محادثات مباشرة بين الاسرائيليين والعرب، وان العرب لم يتوقعوا عودة اللاجئين وليست لهم مطالب تتعلق بالأراضي، وان موقف أمريكا أكثر تطرفا من موقف العرب!! وكان كبار رجال وزارة الخارجية الامريكية يلاحظون ان مزاعم اليهود كذب في كذب وتشويه للحقائق.

وفي ٢٩ آب قدمت الوفود العربية في لوزان الى لجنة التوفيق جواباً مشتركاً خلاصته:

لا نوافق على ما يناقض قرار الجمعية العامة في ١١ كانون الاول ١٩٤٨ فيما يتعلق بعودة اللاجئين.

ان بروتوكول لوزان خصص للعرب الجليل الغربي واللد والرملة ويافا وبئر السبع.

مصر تطالب بأن لا يتم فصلها عن أراضي العالم العربي، والأردن يطالب باتصال مباشر مع مصر. العرب يطلبون ضم النقب كله الى فلسطين العربية.

وردت اسرائيل (١ أيلول):

يجب الاعتراف بأن الأراضي التي تضمنتها خطوط اتفاقات الهدنة الأربع هي أراض اسرائيلية.

وانتهى مؤتمر لوزان الى الاخفاق، وحلت محله لجنة (كلاب) التي ابتدعتها أمريكا بحثاً عن امكانات تسوية اقتصادية كبديل للتسوية السياسية. وأخفقت اللجنة الثانية مثلما أخفقت الأولى بسبب اصرار اليهود على الاحتفاظ بكل شيء.

واتجه جهد الأردن الى تحقيق وحدة الضفة الغربية مع الضفة الشرقية. وأيدت بريطانيا هذا الهدف. وقال كركبرايد (٤ تشرين الأول ١٩٤٩) لدافيد فريتزلان (القائم بالأعمال الامريكي الجديد): ان هذه هي «الطريقة الوحيدة لمنع اسرائيل من الاستيلاء على المنطقة [الضفة الغربية] في سلسلة من اعمال الأمر الواقع». ورد فريتزلان: ربما كان هذا صحيحا، ولكن من المهم توقيت عملية الوحدة، لان التسرع قد ينتج عنه ضرر كبير. (٢٧).

وعندما تولى سامي الحناوي مقدرات سوريا (بعد مصرع حسني الزعيم) جرت اتصالات من أجل عقد اتحاد بين العراق وسوريا. وقد بادر السفير الاسرائيلي في واشنطن (١٨ تشرين الاول) لزيارة وزارة خارجية أمريكا وأبلغ المسؤولين فيها ان حكومته يساورها القلق لهذا الاتحاد المقترح، وانها تود ابلاغ الحكومة الأمريكية بقلقها، وبان هذا الاتحاد المقترح قد يؤثر على أمن اسرائيل وعلى الاستقرار في الشرق الأدنى.. ان هذا الاتحاد قد يدفع العناصر المتطرفة في اسرائيل الى ان تتخذ منه ذريعة للاستيلاء على فلسطين الشرقية... (٢٨).

وبعد أيام قال فوزي الملقي وزير دفاع الأردن:

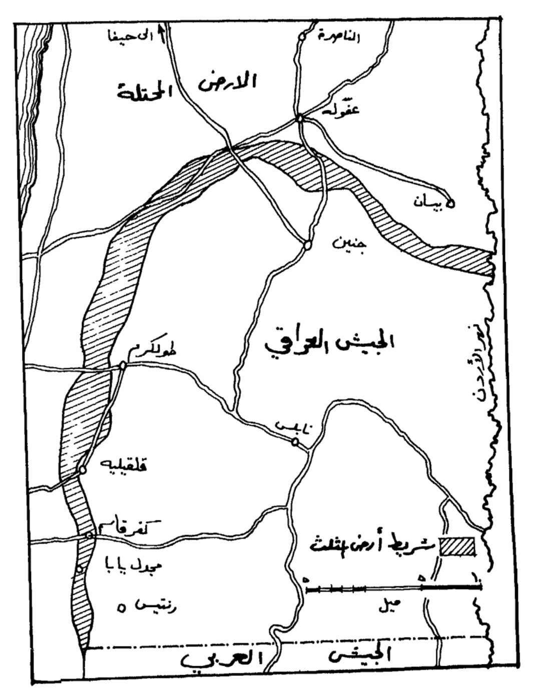
ان الملك عبد الله يرغب في تحقيق دمج الضفة الغربية مع بلاده، بسرعة، **لانه يخشى ان تستولي عليها اسرائيل.**

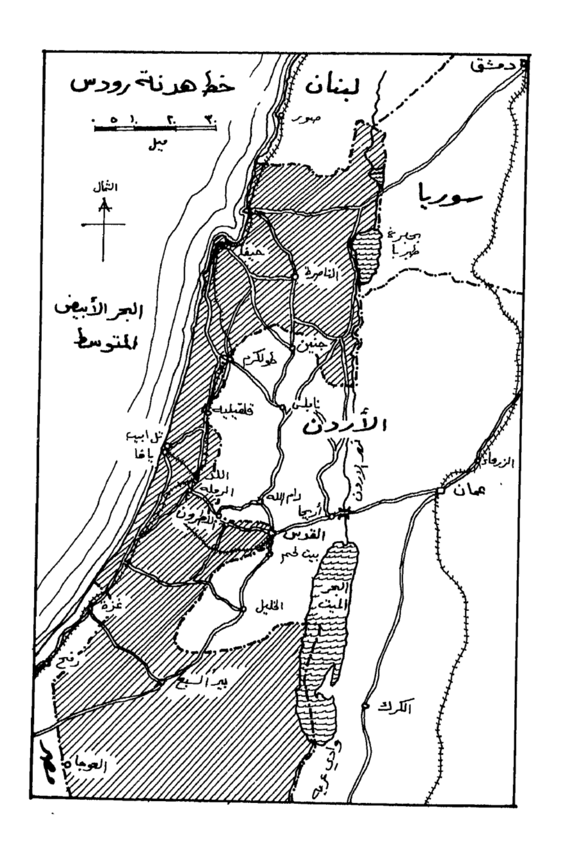
ونفهم من البرقيات والتقارير المتبادلة أن بريطانيا كانت تؤيد الفكرة، وأن أمريكا كانت تؤيدها ايضا، على ان يتم الدمج في وقت لاحق. وفي الوقت نفسه نفهم ان مصر والسعودية كانتا تعارضان، وكانت اسرائيل تعارض ايضا. (تقرير بارديت في ٢٩ تشرين الأول). أما فرنسا فقد كانت تريد بقاء الأوضاع كما كانت سنة ١٩١٩ (تجزئة سايكس – بيكو).

وفي تلك الاثناء نشب خلاف بين الأردن واسرائيل حول ما جاء في المادة الثامنة من اتفاقية الهدنة حول تأمين حرية الوصول الى هداسا والجامعة العبرية على جبل المشارف (سكوبس). فقد حاول الأردن الحصول على شروط مقابلة – استعادة الأحياء العربية في القدس الجديدة – ولكن اسرائيل، كعهدها دائما، كانت تريد ان تأخذ فقط. ونشأ عن ذلك الخلاف أن الملك عبد الله أرسل رسالة شخصية يوم ١٥ تشرين الثاني الى الرئيس

ترومان، يطلب منه الضغط على اسرائيل من أجل كبح جماح مطالبها. وفي اليوم نفسه أبرقت وزارة الخارجية الأمريكية الى فريتزلان لكي يتصل بالحكومة الأردنية من أجل أن تتساهل مع اسرائيل في موضوع «الأماكن الثقافية» على جبل المشارف.

وجاء الجنرال رايلي الى عمان واجتمع مع الملك عبد الله(١١ تشرين الثاني) بحضور وزير البلاط (سمير الرفاعي) وفريتزلان. وقال رايلي ان حكومة اسرائيل مستعدة للبدء




خط هدنة رودس
لبنان
دمشق
صور
٠ ٥ ١٠ ٢٠ ٣٠
ميل
الشمال
سوريا
بحيرة طبريا
حيفا
الناصرة
البحر الأبيض المتوسط
جنين
طولكرم
نابلس
قلقيلية
الأردن
تل ابيب
يافا
اللد
الرملة
اللطرون
رام الله
أريحا
نهر الأردن
الزرقاء
عمان
القدس
بيت لحم
البحر الميت
الخليل
غزة
رفح
بير السبع
الكرك
العوجا
وادي عربة
مصر

بمفاوضات مباشرة تستهدف الوصول الى تسوية نهائية. وقال الملك انه مستعد للبدء بمفاوضات مباشرة اذا قبلت اسرائيل النقاط التالية أساسا للتسوية:

١ - ان يحصل الأردن على منفذ الى البحر الأبيض، ويتضمن ذلك حصول الأردن على ممر عن طريق بئر السبع الى غزة، وان يضم قطاع غزة الى الأردن. ويعتقد انه يستطيع ترتيب ذلك مع المصريين، كما رتب معهم اخلاء بيت لحم والخليل.

٢ - اعادة الأحياء العربية في القدس الى العرب، وابقاء هداسا والجامعة العبرية مع الأردن مع بحث التعويض عنهما عند بحث التعويض على اللاجئين العرب.

٣ - مقابل ذلك يسمح الملك لاسرائيل بالعودة الى العمل في مصانع البوتاس شمالي البحر الميت، وضمان حرية المرور لهم الى تلك المصانع.

وكان رد رايلي: ان شروط الملك غير واقعية ولا يمكن أن ينظر اليهود فيها، فأجاب الملك ان هذه هي شروطه.

وكتب فريتزلان تقريراً لاحقاً قال فيه ان للملك شروطاً أخرى، منها:

اعادة طريق القدس - بيت لحم للأردن، ومنح تسهيلات متقابلة في مرفأي حيفا والعقبة.

ومن غرائب سياسات الدول العربية آنذاك انها كانت تؤيد تدويل القدس، بينما كان الملك عبد الله يعارض التدويل، لعلمه ان التدويل سيؤدي الى اضاعة الطابع العربي الاسلامي للمدينة.

وفي الشهرين الأخيرين من عام ١٩٤٩ دارت اتصالات غير رسمية لعقد تسوية بين الأردن واسرائيل. ولكن تلك الاتصالات لم تؤد الى نتيجة، بسبب رفض اسرائيل ان يكون للأردن ممر يؤدي الى البحر. وللتغلب على اعتراضات اسرائيل اقترح الجانب الأردني ان يكون ذلك الممر في الجزء الجنوبي من النقب، بحيث يكون متصلا مع الحدود المصرية، وحتى لا ينقطع الاتصال بين عرب آسيا وعرب افريقيا. كان الأردن يسعى الى تسوية معقولة، ولكن اسرائيل كانت تطالب باستسلام كامل.

وكان من نتيجة اخفاق الاتصالات، ان حدود خط الهدنة بقيت قائمة نحو عشرين عاماً، حتى حزيران عام ١٩٦٧.

حواشي الفصل الثامن

١ – كانت الكتيبة الخامسة قد حلت محل الكتيبة الثالثة في القدس قبل ايام قليلة من مرور برنادوت وتناوله طعام الغداء في قاعة المتحف الفلسطيني.

٢ – اغتال اليهود برنادوت لاعتقادهم انه يعمل ضدهم. وفي الوقت نفسه نرى القائم بأعمال وزير خارجية سوريا يقول للقنصل الأمريكي يوم ١٢ تموز : لقد برهن برنادوت انه نصير للصهيونية، وان سوريا لن توافق ابدا على تمديد الهدنة الا اذا تم تمزيق اقتراحاته السخيفة. !!

٣ – نشرت رسالة رياض الصلح في جريدة (الحياة) البيروتية بتاريخ ١٦ تموز ١٩٥٢، ونقلها مؤلف كتاب (النكبة) في الجزء الثالث من كتابه، الصفحات ٦٧٥– ٦٨٣.

٤ – هذه الوقائع مستمدة من اقوال العقيد محمد كساب (قائد السرية الثانية في الكتيبة الثانية) والعقيد محمد نور حسن (ضابط لاسلكي الكتيبة الثانية) وكلاهما عمل مع لوكت من اجل القيام بهذه العملية

وحدثني احد كبار الضباط الأردنيين ان نسف المضخات لم يكن نتيجة مبادرة شخصية من لوكت، بل كان بترتيب وضعته قيادة الفرقة واطلع عليه رئيس الأركان (جلوب) ولكن العملية احيطت بالسرية التامة وكان الجواب الرسمي دائما : اننا لا نعرف. اما الغاية من العملية فهي الضغط على اليهود للتخفيف من غلوائهم، ولكي يقدموا تنازلات مهمة عندما يطلبون موافقة الاردن على اصلاح الأنابيب والمضخات وإعادة ضخ الماء.

٥ – كان جون مكدونلد هذا رجل شريفا، يحب العرب ويؤيد حقهم، وفي ٣٠ ايلول ارسل الى مجلس الأمن برقية (بصفته رئيس لجنة الهدنة القنصلية) يقول فيها ان هناك حملة يهودية متعمدة لتشويه سمعة اللجنة وسمعة نائب الوسيط الدولي (بانش)، تماثل الحملة التي شنها اليهود ضد برنادوت. وغضب اليهود لذلك واقاموا النكير عليه، حتى تم لهم نقله من منصبه في شهر تشرين الأول. وهو غير جيمس مكدونلد الذي عينه ترومان ممثلا (ثم سفيرا) لأمريكا في اسرائيل عند قيامها، وكان متعصبا يؤيد باطل اليهود تأييد تاما، تدل على ذلك تقاريره وكتابه.

My Mission In Israel : 1948- 1951

٦– في اليوم التالي للمعركة صدر الأمر لغازي بالعودة الى عمان. هناك قابل رئيس الأركان. قال له جلوب: اذهب الى منزلك. ذهب غازي الى منزله في الزرقاء. بعد خمسة أيام استدعاه جلوب لمقابلته في منزله ليلا، وأوضح له الأسباب التي تدفعه الى التشديد على مراعاة الهدنة مع اليهود. ثم قال له: عد الى منزلك واسترح ودع الجنود يستريحون. بعد شهر ذهب غازي لمقابلة الملك عبدالله شاكيا، فامره بالعودة الى سريته، ولكن جلوب لم يوافق. بعد شهرين أرسله جلوب الى وادي عربة للالتحاق بقوة الجنوب التي كان يقودها الرئيس بروميج. قدم استقالته من الجيش ولكن جلوب لم يوافق. عندئذ شجع جماعة من بدو السعيديين على مهاجمة نقطة لليهود، وكانت النتيجة ان جلوب وافق على قبول استقالته.

كان غازي قد اشترك في أيام شبابه في الثورة العربية الكبرى. بعد استقالته سافر الى السعودية والتحق بالجيش السعودي، وظل يتدرج في الخدمة حتى بلغ رتبة زعيم، قبل ان يحال على التقاعد. وكان من حسن الحظ انني اجتمعت به في الزرقاء عام ١٩٨١ في اثناء مجيئه اليها زائراً.

٧– هذه المراسلات في دار الوثائق البريطانية، عن الملفين P. R. O; F. O. 371/68830, 68831

٨- علامات الاستفهام موجودة في الاصل. وتبدو المبالغة في تقدير عدد بعض القوات العربية. فالأردن لم يكن لديه عشرة الاف ضابط وجندي يومذاك، والسعودية لم يكن لديها ثلاثة الاف في فلسطين، وجيش الانقاذ وقوات الجهاد المقدس لم يكن عددها يبلغ ٦٥٠٠ رجل.

٩- ظل منصب وزير الدفاع يسند الى رئيس الوزراء حتى ٢٩ تموز ١٩٤٨ عندما عين فوزي الملقي وزيرا للدفاع. ومن المعلوم ان قيادة الجيش ترتبط قانونيا بوزير الدفاع.

١٠- انتقد كامل الشريف قرار الانسحاب من اسدود والمجدل، قائلا انه لم يكن له مبرر حقيقي، وانه أدى الى احكام طوق الحصار على الفالوجة. وكان ينبغي القيام بعملية انسحاب عسكرية واحدة لقوات الفالوجة والمجدل معا. ويقول محمد فيصل عبدالمنعم ان انسحاب القوة المصرية من بيت جبرين الى الخليل كان تصرفا من القائد المحلي وليس بامر القيادة. وكل هذا يلتقي مع قول جلوب ان هزيمة المصريين كانت نتيجة لسوء القيادة.

١١- بعد ذلك دمر الاسرائيليون هذه القرية ولم يعد لها وجود. جريدة - الرأي - في ١٩٨٤/١/٢٦. نقلاً عن جريدة حداشوت.

١٢- بعد تأليف حكومة عموم فلسطين واختيار احمد حلمي عبدالباقي (الحاكم العسكري في القدس) رئيسا لها، صدر الأمر بتعيين القائد عبدالله التل حاكما عسكريا للقدس اعتبارا من ٢٨ ايلول، وحل و. ق. محمد المعايطة مكانه قائدا للكتيبة السادسة.

١٣- حدثني الفريق علي الحياري عن هذا الاجتماع فقال: ان المصريين كانوا ينظرون الينا نظرة الحذر والشك. وقد اقترحنا عليهم ان تقوم قوتهم المحصورة في الفالوجة بتدمير أسلحتها الثقيلة ثم تشق طريقها وتخرج. قالوا: يجب ان تساعدونا. قلنا لهم : نستطيع مساعدتكم ضمن امكاناتنا، ولكننا لا نستطيع ان نترك القدس دون قوة كافية وتحت خطر الضياع.

١٤- جاء في تقرير لوزارة الطيران البريطانية بتاريخ ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٨: ان قوة الطيران الاسرائيلية تتألف من ١١٤ طائرة (على الاقل) بينها ٤٠ طائرة مقاتلة و ٢٢ قاذفة قنابل. الملف F. O 371/68637

١٥- كانت مشكلة العتاد تشغل بال الملك عبدالله والحكومة الأردنية، وجرت عدة محاولات للحصول على عتاد ولكنها لم تسفر عن نتيجة. ففي أواخر ١٩٤٨ وصل الى الملحق العسكري الأردني في لندن (و. ق. كمال الحمود) تحويل من الحكومة الأردنية بمبلغ نصف مليون دينار من اجل ابتياع سلاح وعتاد للجيش. وذهب الملحق الى باريس وقام بالاتصال مع بعض وسطاء السلاح وتم الاتفاق على شراء الأسلحة وشحنها، ولكن الحكومة لم تلبث ان أبلغته بالتوقف عن اتمام الصفقة، بسبب الاتفاق على عقد هدنة دائمة.

وفي أثناء مباحثات لوزان، تلقى و.ق. راضي الهنداوي (عضو الوفد الأردني للمباحثات) أمرا بالذهاب الى باريس (برقية من الملك عبدالله الى فوزي الملقي رئيس الوفد) لكي يقوم هو وحافظ عبدالهادي، قنصل الاردن في فرنسا، بالسعي لشراء كمية من عتاد مدافع ٢٥ رطل. وبالفعل تم الاتصال مع احد كبار موظفي وزارة الدفاع الفرنسية، وتمت الموافقة المبدئية. ثم جاء أمر آخر من عمان يطلب ايقاف البحث في الموضوع. وعرف فيما بعد ان بريطانيا كانت وافقت عندئذ على تزويد الاردن بذلك النوع من العتاد.

١٦- فاضل الجمالي : ذكريات وعبر - دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٥ ص ص ٨٤ - ٨٨.

١٧ – نشب في مصر خلاف بين الحكومة وجماعة الاخوان المسلمين فاتخذت حكومة النقراشي سلسلة من الاجراءات ابتداء من ٨ كانون الاول وكان من جملتها حل الجماعة، ولم يلبث ان اغتيل النقراشي وتبع ذلك اغتيال الشيخ حسن البنا المرشد العام للجماعة في ١٢ شباط ١٩٤٩.

١٨ – تدل برقية من جيمس مكدونلد ان اليهود فكروا بالهجوم على خطوط مصر او خطوط العراق، بحجة ان الدولتين لم توافقا على الدخول في مفاوضات مباشرة، ولكنهم اختاروا مهاجمة الجيش المصري مباشرة لعدة اسباب من جملتها ان العمليات ضد الجيش العراقي ستكون باهظة الثمن بسبب وعورة الأرض.

١٩ – هذا عن كتاب عبد الله التل، ولكن دان كرزمان (التكوين ١٩٤٨) يقول ان الياهو ساسون نفى ان يكون اقترح حلول قوات اردنية محل القوات العراقية.

٢٠ – اصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة في ١١ كانون الاول ١٩٤٨ قراراً بتأليف لجنة دولية، مهمتها ان توفق بين العرب واليهود من اجل التوصل الى اتفاق على حل قضية فلسطين. وتألفت اللجنة من ممثلي فرنسا والولايات المتحدة وتركيا.

٢١ – اعضاء الوفد الاردني : القائد محمد المعايطة، و . ق. راضي الهنداوي الرئيس علي ابو نوار، الملازم الاول فتحي ياسين. وذهب مع الوفد السيدان رياض المفلح (وكيل وزارة الداخلية) وعبد الله نصير (عضو محكمة الاستئناف) كمستشارين قانونيين. اما الوفد الاسرائيلي فكان برئاسة الدكتور والتر ايتان مدير وزارة الخارجية.

٢٢ – هنا حدثت مشادة بين جلوب وغازي الحربي، لان غازي كان يعتقد ان نقله الى تلك المنطقة كان بقصد معاقبته. ولم يلبث جلوب حتى اعاده الى عمان، ووافق على خروجه من الجيش.

٢٣ – كان جيسوب قد أعلن ان سياسة الحكومة الأمريكية تقوم على ان دولة اسرائيل موجودة، وانه يحق لها ان تحصل على الأراضي التي خصصها لها قرار التقسيم. وانه لايمكن اجراء أي تعديل على تلك الحدود الابموافقة اسرائيل. ولكن اذا أرادت اسرائيل الحصول على أراضٍ اخرى، فيجب اعطاء أراضٍ بديلة عن طريق التفاوض، ويجب السماح للاجئين بالعودة الى ديارهم.

٢٤ – هذا النص مترجم عن كتاب جلوب (جندي مع العرب).

٢٥ – تجد نص هذه الاتفاقية في كتاب (تاريخ الاردن في القرن العشرين) المطبوع في عمان سنة ١٩٥٩. الصفحات ٧٠٢ – ٧١٠.

٢٦ – بعد نشوب الحرب في فلسطين عمدت الحكومة الأردنية الى تعيين حكام عسكريين للمناطق التي كان الجيش الأردني يقوم بعملياته فيها، فعين ابراهيم باشا حاكما عسكريا عاما وجعل مركزه في نابلس، وعين ذوقان الحسين حاكما عسكريا في اريحا، وعين مصطفى الرفاعي حاكما عسكريا في الخليل (خلفه صالح المجالي برتبة زعيم خلال فترة تموز ١٩٤٨ – ايار ١٩٤٩)، وعين احمد حلمي حاكما عسكريا في القدس (حزيران – ايلول١٩٤٨)، وعندما قبل رئاسة حكومة عموم فلسطين عين مكانه القائد عبد الله التل. وحل عمر مطر محل ابراهيم هاشم حاكما عسكريا عاما واتخذ من القدس مركزا له (لان منطقة نابلس اصبحت في عهدة الجيش العراقي)، وبقي في هذا المنصب حتى ١٦ حزيران ١٩٤٩ عندما انتدب فلاح باشا المدادحة مكانه. وفي ١ تشرين الثاني ١٩٤٩ عين راغب باشا النشاشيبي حاكما اداريا عاما لفلسطين. ومن الذين عينوا حكاما عسكريين غير من ذكرنا عزمي النشاشيبي وأحمد الخليل ونعيم عبد الهادي.

٢٧ – نقل ستابلر من عمان الى واشنطن في ايلول ١٩٤٩، فهل كان لموقفه المتفهم للوضع بين العرب واليهود اثر في نقله؟

٢٨ – ليتأمل دهاقنة النظريات من العرب هذه الأقوال، وخاصة أولئك الذين كانوا يوما ما يقولون : وحدة الهدف اولا، وبعدها تأتي وحدة قطر مع قطر.

ملحق ١

ثلاث رسائل من الملك عبدالله
الى رئيس الجمهورية التركية (١)

(راجع الصفحة ٣٦٧ من هذا الكتاب)

الرسالة الاولى

(– كانون الثاني ١٩٤٨)

أخي الكبير صاحب الفخامة

بمناسبة سفر عمر زكي بك الى انقره ابعث اليكم هذه الرسالة الأخوية. منتهزا هذه الفرصة لكي أجدد مودتي وأؤكد أخوتي، مع عرض الأحوال هنا. انني ما أزال أتقصى الحقائق وأتعقب الأحداث. وفي السنة الماضية حين اجتماعي بكم كنت عرضت لحضرتكم بعضا من المسائل والمشاكل طالبا مساعدتكم، ولكن ما عرضته لم يؤد الى نتيجة، وبقي دون صدى من فخامتكم، ربما لعدم وصول معروضاتي اليكم وربما لانها تأخرت عنكم. واليوم في البلاد العربية لا هم لنا سوى فلسطين، وتأخير مساعدتكم ربما يؤثر على الأوضاع هنا. وان شاء الله تنتهي هذه الظروف القاسية بالخير والغلبه. لذلك ندعو دوام مساعدتكم وصداقتكم لانها ستؤدي الى انجاز وعمل الكثير من أجل خير هذه البلاد. وقد أثلج صدورنا وضاعف من عزيمتنا ذلك التأييد الذي قدمه ممثل فخامتكم في هيئة الأمم المتحدة لمطالبنا المشروعة. ومع شكري وتقديري لموقف حكومة جمهوريتكم معنا، فانني أرجو ان نكون دائما على أوثق الصلات الأخوية معكم. ولو انني تأخرت قليلا لانشغالي وحيرتي في هذه الظروف. ومع هذا سأبقى ممتنا ومخلصا لكم الى الابد. وان ايفاد عمر بك زكي الى طرفكم، فذلك لانه من أقدم رجالي وأكثرهم اخلاصا، ولقناعتي بكفاءته. وقد اعتمدته رسولا أمينا اليكم، وان شاء الله سنرى نتائج صداقتكم العظيمة. وبالختام أقدم لفخامتكم محبتي واحترامي مع طلب توجيهاتكم.

---

١ – عثر المؤلف على مسودات الرسائل الثلاث بين اوراق المرحوم عمر زكي الافيوني، الذي كان وزير الاردن المفوض في تركيا سنة ١٩٤٨. وقد أملى الملك عبدالله هذه الرسائل (أو كتبها) باللغة التركية، التي كان يجيدها. والرسالتان الاولى والثانية دون تاريخ، ولكنني وضعت لكل منهما تاريخا تقديريا، استنادا الى فحوى المضمون وسياق الأحداث. ويشير الملك في رسالته الأولى الى زيارته لتركيا في شهر كانون الثاني ١٩٤٧، بدعوة من الرئيس التركي عصمت اينونو، والتي عقدت في اثنائها معاهدة صداقة بين الدولتين. ثم يشكر الملك الحكومة التركية لانها صوتت ضد مشروع التقسيم في هيئة الامم المتحدة.

تلطفت السيدة نجمية حكمت بترجمة هذه الرسائل الى العربية، وتكرّم شقيقها العقيد نور الدين الملي بمراجعتها. فلهم جزيل الشكر.

الرسالة الثانية

(٢١ ايار ١٩٤٨)

حضرة أخي الكبير والعزيز

أرسل اليكم بواسطة عمر زكي بك عرضا للأحوال السياسية والعسكرية وبصورة مفصلة لحكومة جمهوريتكم. واني واثق كل الثقة بان هذه المعروضات ستنال رضاكم ومساندتكم ومساعدتكم لنا، طالبين من المولى سبحانه وتعالى ان ينصرنا. ان اليهود يحاولون الاطباق على الجيش الأردني، وقد جاؤا بامدادات كبيرة أظهرتها وتظهرها تحشداتهم خلف الخطوط. وكل الأخبار تشير الى ضخامة تلك القوات اليهودية. ومع هذا فما زلنا نحتفظ في أيدينا بمدينة جنين ومواقع باب الواد بجبالها وتلالها. ونحن في انتظار تقدم القوات السورية لتلتقي مع القوات المصرية، من أجل صد الهجوم اليهودي، ولكي تحول دون استيلاء العدو على بقية المدن الفلسطينية. والحقيقة ان كل فرد في الجيش الأردني ما يزال يأمل، وأمله كبير، في الانتصار على اليهود. والحقيقة اننا اذا لم نستول على القدس الشريف خلال يومين أو ثلاثة أيام، فاننا سنصاب بضربة كبيرة وستلحق بنا نكسة لا مثيل لها. وأظن أن الحرب ستكون الان طويلة بيننا وبينهم. اما القضايا والطلبات التي سيعرضها عمر زكي بك على فخامتكم، فستوضح لكم مقدار احتياجاتنا الى مساعدتكم العسكرية من معدات وغيرها. فاذا ما استجبتم لطلبنا هذا وأرسلتم لنا ما نحن بحاجة اليه من مساعدة، فان الأمور ستكون أكثر سهولة علينا، نوعا ما. وفي هذه الظروف القاسية، أقبل أعينكم معربا عن أخوتي وصدق اخلاصي لفخامتكم.

الرسالة الثالثة

عمان في ٣٠ شعبان ١٣٦٧

الموافق ٧ تموز ١٩٤٨

فخامة رئيس الجمهورية التركية حضرة السيد عصمت اينونو

أخي المعظم،

لقد أحاطني عمر زكي بك، الموفد لطرفكم والحائز على ثقتنا، علما بصداقتكم السامية، وما أسبغتموه علي من شرف أخوتكم وتقديركم. لقد قدم لكم مبعوثنا عمر زكي بك، بيانات تحريرية وشفوية عن الأوضاع الراهنة. وانا على علم بما وصل اليكم من أقوال عن طريق الجهات الأخرى، وهي أقوال لا يمكن الاعتماد عليها لما تنطوي عليه من تناقضات، الأمر الناشيء عن الوضع السياسي والظروف المفروضة.

لقد أنشأت الدول العربية مؤسسة باسم جامعة الدول العربية، وهذه وان كانت تسير سيرا مرضيا من جهة الاستقلال المالي والعملي، الا انها لا تملك أية فعالية في تسيير الأمور. وفي الحقيقة الكل منهم يسير على هواه ويعمل ما يبدو له. ان اليهود يقيمون في الجهة الغربية [من فلسطين] ويمكن ابقاؤهم محصورين حيث هم الآن، من قبيل دفع البلاء قدر المستطاع. ولكن هذه السياسة تعترض تنفيذها عقبات كبيرة، بسبب صعوبة تفهم الدول العربية حقيقة الأوضاع. ان الدول العربية لم ترسل سوى جزء قليل من قواتها العسكرية . ولو أن العرب جمعوا جيوشهم كلها وهاجموا تل ابيب وحيفا، لكان من الممكن التوصل الى نتيجة مشرفة. ولكن العرب لا يزالون يظنون ان اليهود على الحال التي كانوا عليها قبل ثلاثين عاما، ويتجاهلون الحقيقة والواقع المؤلم. ففي القدس يوجد مائة وعشرة آلاف يهودي، وفي تل ابيب يوجد أيضا ثلاثمائة الف يهودي. إن دولة شرقي الأردن، دولة صغيرة وجيشها صغير ايضاً، ولكنه منظم ومدرب ومستعد للفداء والتضحية في سبيل دحر اليهود وتحقيق الانتصار عليهم. لقد استولى اليهود على الكثير من أراضي فلسطين بموجب وعد بلفور، كما انهم اشتروا قسما من الأراضي بأموالهم، وهاهم الآن يحاولون الاستيلاء على البقية عن طريق الحرب والهجوم والاعتداء. وقد تم كل ذلك وما يزال يتم بعلم الحكومة البريطانية. ان تفرق كلمة العرب وعدم اتفاقهم يجعل من جيش الأردن جيشاً ضعيفاً لا حول له ولا قوة، لانه لا يستطيع ان يقوم بأعمال مؤثرة دون مساندة الدول العربية. حتى محادثات العرب مع الكونت برنادوت تبعث على الحيرة ولم تكن مجدية. كل دولة عربية تعمل لمصلحتها دون ان تنظر للمصلحة العامة. وكل دولة تسعى للمحافظة على حدودها وحدها فقط. وفي نطاق هذه التصرفات المتناقضة يعتقدون [العرب] انهم سيكسبون الحرب. وعلى الرغم من هذه المصاعب والعقبات، أطلب الى الله تعالى أن تأخذ العدالة مجراها وان يأتينا بنصر من عنده. مع علمي بصدق نيتكم نحونا وأخوتكم الصادقة تجاهنا، أقدم احترامي واكباري وتعظيمي لحضرتكم ايها الأخ المعظم.

حاشية

ان سفرتي الى مصر كشفت لي أموراً كثيرة، فالجيش المصري تنقصه المعدات العسكرية ويحتاج الى أسلحة جديدة وصالحة. ومصر تشكو من نقص كبير في وسائل دفاعها. اما ملك مصر فرجل لطيف جدا، ولكن تنقصه الارادة القوية لممارسة الحرب والاشتراك فيها. وفيما يتعلق بسفري الى نجد ... ان الملك هناك رجل مسن لا قبل له بالركوب والنزول والحركة. ومع عدم اقتداره على السفر والتنقل، الا انه شخصية ذات معنويات قوية، وهو يستمد قوته من القبائل التي تسانده، وهو يحب الصلح والصلاح. هذه هي انطباعاتي عن هاتين الرحلتين، أخي الكبير.

ملحق ٢

وسام الاقدام العسكري

أدرج فيما يلي قائمة بضباط وأفراد الجيش العربي الذين منحوا وسام الاقدام العسكري في حرب ١٩٤٨. وقد صدرت قائمتان رئيسيتان بالأسماء الأولى: في ١ تشرين الثاني ١٩٤٨ (الجريدة الرسمية رقم ٩٦٢). والثانية في ١٦ كانون الاول ١٩٤٨ (الجريدة الرسمية رقم ٩٦٥). كما نشرت بعد ذلك اسماء قليلة متفرقة في عام ١٩٤٩.

القائمة الاولى

صدرت الارادة الملكية بالموافقة على منح كل من الضباط وضباط الصف المدرجة اسماؤهم في القائمة المرفقة وسام الاقدام العسكري وذلك تقديرا لما أظهروه من شجاعة وبطولة في ميادين القتال :

قائد	عبد الله التل	عريف	سند مرعي
و. قائد	هـ. فـ. سليد	عريف	سمير مقبل
ملازم أول	زعل رخيل	عريف	وحيد عباس
ملازم أول	غازي الحربي	عريف	شتيان محمد
ملازم أول	حمد عبد الله أبو دخينه	عريف	رسن سليمان
ملازم أول	عواد حامد	عريف	عشوي فالح
ملازم أول	سلامه عتّيق	ج أول	عاجل لفته
رئيس	محمود الروسان	ج أول	علي عبدالله
ملازم أول	محمد المحاسنة	ج أول	عبد الكريم محمد
ملازم أول	قاسم العايد	ج أول	حسين علي
رئيس	حمدان الصبيح البلوي	ج أول	راشد ارديني
ملازم ثان	عبد الله البيطار	ج أول	عواد عليوي
ملازم ثان	محمد نعيم	ج أول	طبش نهار
ملازم ثان	محمود المعايطة	ج أول	زاهي سليمان عبوي
ملازم ثان	محمد محسن الحربي	ج أول	احمد عبد الرحمن
وكيل	هديبان عودة حداد	ج أول	رسمي خلف
وكيل	الأدهم فجري	ج أول	نزال حليحل
وكيل	طراد نويطر	ج أول	فالح هليل

الرتبة	الاسم	الرتبة	الاسم
نائب	حواس غازي	ج أول	فايز خليل
نائب	نايف عبد القادر	ج	ابراهيم الزعبي
نائب	غياض درويش	ج صحة	ابراهيم اسحق
نائب	عطيشي سلمان	ج صحة	محمد علي صالح
نائب	بنيان رويشد	ج	عبد القادرمحمود
نائب	صالح علي	ج	محمد مبارك
نائب	ظاهر نهار	ج	حامد سليمان
نائب	عواد حسن	ج	ابراهيم يوسف
نائب	أحمد حميد	ج	عبد الكريم بطوخ
عريف	خليف عقله	ج	صادق ظاهر
ج	خالد قاسم	ج	مصطفى مجلي
ج	عوض حسين	ج	عبد الله مسلم
ج	حوران دعيدع	ج	حمد يحيى
ج	محمد خلف	ج	فرحان ابراهيم
سائق أول	الهيلم سعيد	ج	فلاح عقله
سائق	عسكر صبحي	ج	راشد عواد
سائق	خلف حرب	ج لاسلكي	عيسى عايد
سائق	نايف علي	ج لاسلكي	أحمد خليل
ج لاسلكي	يعقوب غانم	ج	محمد موسى
ج	قاسم خطيب	ج	علي حسين
ج	شحاده رزق الله		

القائمة الثانية

صدرت الارادة الملكية بالموافقة على منح كل من الضباط وضباط الصف المبينة اسماؤهم ادناه بوسام (الاقدام العسكري) بالنسبة للشجاعة والبطولة التي أظهروها في مراكزهم الحربية في فلسطين وصد العدوان اليهودي في مناسبات مختلفة، بعد أن كبدوا عدوهم خسائر فادحة بالرجال والعتاد.

الرتبة	الاسم	الرتبة	الاسم
و. قائد	فواز ماهر	نقيب	مسلم فهد

و. قائد	محمود الموسى	نقيب	حامد عبد الله
رئيس	خالد مجلي الخريشا	نقيب	العيط مطر
رئيس	رشيد مرشود	نقيب	محمود محمد بكر
رئيس	قسيم محمد	نقيب	سالم كسار
ملازم أول	خليل بورنو	نقيب	كميان عواد
ملازم أول	فريد القطب	نقيب	محمد سالم الرشايده
ملازم أول	عطا علي	نائب	أحمد حامد
ملازم أول	رفيفان خالد الخريشا	نائب	فواز جميل
ملازم ثان	سالم شبيكان	نائب	توهان عميرة
ملازم ثان	فليح ماطر	عريف	مفلح سليمان
ملازم ثان	فناطل ثنيان	عريف	محمد عبد الله
ملازم ثان	خلف شافي	عريف	محمد علي اسماعيل
ملازم ثان	عبد الرزاق الشريف	عريف	عمر محمد
ملازم ثان	مناور مسعود	عريف	خشان حميدي
وكيل	عبد الله شويعر	عريف	عبد العزيز برجس
وكيل	سليمان الشرمان	عريف	جازي مفضي
وكيل	حسين محمد خالد	عريف	نزال هليل
نقيب	طعمه الريحاني	عريف	أحمد عوض
نقيب	خلف غاصب	عريف	محمد أسحق
نقيب	محمد سليم سلمان	ج أول	أمين موسى
نقيب	صلاح الدين عزير	ج أول	سليمان عقله
ج أول	احمد حامد صمادي	جندي	سليمان مفلح
ج أول	مصطفى سلطان	جندي	مصطفى محمد حميدان
جندي أول	محمد سالم	جندي	عبد الله أحمد
جندي	حامد سلمان	جندي	سالم بخيت
جندي	قبلان أحمد	جندي	خلف سلامه
جندي	عبد الله سليمان	جندي	فياض جديع الفايز
جندي	سالم راضي	جندي	سلمان فلاح
جندي	عبد الله ظاهر	جندي	فلاح سالم

جندي	ظاهر أحمد	جندي	سالم قطيش
جندي	عبد الله خليل	جندي	سليمان معجل
جندي	محمد أحمد عبد الله	جندي	عويد صالح
جندي	أحمد سليم عبد الله	جندي	فالح عقله
جندي	عبد الرحمن فندي	جندي	عبد الله عيد
جندي	عطا الله قطيش	جندي	هليل سويدان
جندي	سالم جليدان	جندي	فارس سلطان
جندي	راشد مليحان	جندي	محمد صالح حسن
جندي	سماح تارك	جندي	عوض يوسف

اسماء متفرقة نشرتها الجريدة الرسمية في عام ١٩٤٩

النائب	خشمان حميدي
ج أول	سعيد طرجم
جندي	صالح السعودي
جندي	عواد عايد
جندي	موسى سالم
جندي	عماد سالم

ومنح وسام الاقدام العسكري أيضاً الى:

عثمان بدران – قائد سرية الحسين للمناضلين في القدس

أحمد الظاهر الديك – قائد فرقة التدمير، ورفاقه في الفرقة :

رباح محمد عنمي

علي أحمد عبد الباقي

أحمد عبد الرحمن الخطيب

كاظم صالح المغربي

ملحق

أسماء السادة الذين أجريت مقابلات معهم
في موضوع الكتاب
(فيما بين ١٩٦٨ و ١٩٨٢)

رجال الجيش العربي

احسان الحلواني	زعيم	ادريس سلطان	عقيد
احمد شحاده الحارثي	لواء	أديب القاسم	زعيم
احمد الشربجي	و. ق.	أنور الداؤد	عقيد
احمد الفياض الضرغام	و. ق.	أنور محمد	فريق
بادي عواد	عقيد	بطرس حمارنه	عقيد
بركات طراد الخريشا	عقيد	بندر الصحن	زعيم
تركي حسين	لواء	تركي يوسف الهنداوي	لواء
تركي عبد الله بعاره	لواء (توفي ١٩٨١)	توفيق موسى القسوس	رئيس
جدعان مزيد	رئيس	جمال بازيان	مقدم
حابس المجالي	مشير	حمدان صبيح البلوي	وكيل قائد
حسين مفلح الغرايبه	مقدم	حيدر مصطفى	لواء
حكمت مهيار	لواء		
راضي العبد الله	لواء	رشيد مرشود	لواء
راضي الهنداوي	زعيم	رفاعي الحمود	قائد
رشيد عريقات	لواء	رفيفان خالد الخريشا	زعيم
زعل الرحيل	زعيم (توفي ١٩٧٠)		
سامح فالح البطاينة	زعيم	سليمان الساكت	عقيد
سليمان جراد	رئيس	سليمان مسعود	وكيل قائد (توفي ١٩٨١)
سليمان ارتيمه	فريق		
شاهر يوسف أبو شحوت	قائد		

صادق الشرع	لواء	صلاح عزير	رئيس
صالح الشرع	زعيم		
ضاري مشاش الخريشا	قائد	ضرغام الفالح	وكيل قائد (توفي)
عامر خماش	فريق	عثمان بدران	زعيم
عبد الله البيطار	عقيد	عزت حسن قندور	لواء
عبد الله التل	قائد (توفي ١٩٧٢)	عصر المجالي	لواء
عبد الله السالم النمري	عقيد (توفي)	عطا علي	زعيم
عبد الله قاعد	قائد	عكاش الزبن	فريق
عبد الله شويعر	ملازم أول (توفي ١٩٧٢)	علي ابو نوار	لواء
عبد الحليم الساكت	زعيم (توفي ١٩٧٧)	علي الحياري	فريق
عبد الحميد جويحان	رئيس (توفي)	علي مطلق الهباهبه	زعيم
عبد الرحمن العرموطي	وكيل قائد	عواد حامد	قائد
عبد الرحمن الفراهيد	وكيل قائد	عيادة عيسى مدانات	رئيس
عبد الرزاق الشريف	ملازم اول	عيسى حدادين	عقيد
عبد الرزاق عبد الله	قائد (توفي ١٩٨١)	عيسى الزعمط	قائد
عبد الكريم الشوبكي	عريف	عيسى مفضي تادرس	ملازم اول
العبط مطر	عقيد		
غازي الحربي	ملازم اول	غازي الهنداوي	وكيل قائد (توفي)
فلاح مشاش الخريشا	وكيل قائد	فواز ماهر	فريق
فليح ماطر	قائد	فهد مقبول	زعيم
فندي عميش	قائد		
قاسم ابو شريتح	زعيم (توفي)	قاسم الناصر	لواء
قاسم العايد	عقيد	قسيم محمد	قائد
كمال الحمود	وكيل قائد		
محمد اسحق	لواء	محمد امين بركات	وكيل قائد
محمد حمد الهباهبه	قائد	محمد نور حسن	عقيد
محمد خليل عبد الدايم	فريق	محمد هاشم	لواء

محمد داؤد	عقيد (توفي ١٩٧٢)	محمود التل	لواء
محمد السحيم	قائد	محمود الرفاعي	عقيد
محمد كساب الدعجة	عقيد	محمود القضاة	عقيد
محمد علي أمين	لواء	محمود المعايطة	قائد
محمد المحاسنة	قائد	محمود الموسى	عقيد
محمد محسن الحربي	وكيل قائد	مصطفى ابراهيم الشوبكي	قائد
محمد مطلق الهباهبه	زعيم	مصطفى الجبور	قائد
محمد المعايطه	لواء	معن ابو نوار	لواء
محمد نعيم	قائد		
ناصر أيوب	عقيد	نصر احمد الشبول	عقيد
نايف الحديد	قائد	نواف الجبر الحمود	قائد
نزار المفلح	عقيد (توفي ١٩٨٢)	نور الدين المللي	عقيد
نديم السمان	عقيد		
هاشم الدباس	ملازم أول	هديبان عوده حداد	قائد
يعقوب ابو غوش (طبيب)	عقيد	يوسف الطلاق	وكيل قائد
يوسف الجريس	وكيل قائد	يوسف كعوش	لواء

مدنيون

أبراهيم السمريه	صالح المجالي
أحمد الظاهر الديك	عبد الرحمن خليفه
أحمد طوقان	عبد الرحمن الصعوب
جمعه حماد	عبد المنعم الرفاعي
جميل الصالح	علي نصوح الطاهر
حسين سراج	قاسم الريماوي
حمد الفرحان	محمود علاء الدين
سلامه ابو محفوظ	ممدوح الصرايره
شبلي المجالي	هرون بن جازي

الدكتور يوسف هيكل

واذكر بالشكر أيضا الايضاحات والمعلومات التي تفضل بها:

الفريق جون باجوت جلوب – رئيس اركان حرب الجيش العربي سابقا (بريطانيا).
الفريق صالح صائب الجبوري – رئيس أركان حرب الجيش العراقي سابقا(بغداد).

اللواء خليل سعيد	بغداد – العراق
القائد هـ. ف. سليد	قائد الكتيبة الثانية، عام ١٩٤٨
وكيل القائد دزموند بوكانن	مساعد قائد الكتيبة الثانية، عام ١٩٤٨

ملحق ٤

شهداء الجيش العربي الأردني
في حرب ١٩٤٨ (١)
محافظة العاصمة

الرتبة	الأسم	البلده	تاريخ الاستشهاد	مكان الاستشهاد
ج	سليمان مفلح ابو حميد	الدعجه	١٩٤٨/٥/٢٧	القدس
رئيس	خالد مجلي كليب الخريشا	بني صخر	١٩٤٨/١١/١٥	القدس
تلميذ عسكري	خالد توفيق بيجان	عمان	١٩٤٨/١٠/١٩	القدس

١ – تعود هذه القائمة في أصلها الى مصدرين:
١ – عارف العارف: الجزء السادس من كتابه (النكبة)، وقد تلقى القائمة التي نشرها من قيادة الجيش العربي بتاريخ ١٩٥٥/٢/١٥.
٢ – يوسف كعوش: كتابه (الجيش العربي الأردني في حرب حزيران) وقد استقى قائمته من السجلات الرسمية.
من خلال مقارنة المعلومات ظهرت لي مفارقات وأخطاء في القائمتين/ منها عدم الدقة في كتابة الاسماء، ومنها عدم صحة مكان الاستشهاد (عند العارف) في حالات عديدة.
وقد بذلت جهدي في تدقيق المعلومات من خلال مقابلاتي الأساسية. وأرجو ان اكون قدمت قائمة أقرب ما تكون الى الحقيقة.
ويقول عارف العارف ان الجيش العربي خسر ٣٦٢ شهيداً في الحرب (١٥ ايار ١٩٤٨ – ٣ نيسان ١٩٤٩)، وان ٩٨٤ شخصاً من رجاله أصيبوا بعاهات مختلفة نتيجة الجراح التي أصيبوا بها في اثناء الحرب.
جزى الله العارف وكعوش أحسن الجزاء

ملازم١	احمد محمود بزاخ	الزرقاء	١٩٤٨/٩/١٩	
نائب	محمد عبد الله ابوالعاص	عمان	١٩٤٨/٧/١١	عرطوف
نائب	اسحق مهاجر	ناعور	١٩٤٨/٧/١٩	القدس
ج	حمد سالم مرزوق الحديد	القويسمه	١٩٤٨/٧/١٩	القدس
ج	محمد راشد علي الحديد	القويسمه	١٩٤٨/٦/٢	غور الصافي
نائب	عقله خلف فرح عبيد	عمان	١٩٤٨/٥/٢٦	الرادار
ج١	سالم وراد رحيل	وادي السير	١٩٤٨/١٠/٢٣	
ج	علي رتعان مربوح	بني صخر	١٩٤٨/٥/١٥	القدس
ج	سعد سليم مصطفى	وادي السير	١٩٤٨/٥/٢٠	
نائب	محسن نايف بدر الهقيش	بني صخر	١٩٤٨/٧/١٦	سلبيت
نائب	سند ناصر سليمان الهقيش	بني صخر	١٩٤٨/٥/٢٢	القدس
ج	رداد خلف شياب الزبن	بني صخر	١٩٤٨/١٠/٢٧	الرادار
ج	خليل مصطفى خليل	صويلح	١٩٤٨/٦/٩	اللطرون
ج	عمر علي حاج يونس	ناعور	١٩٤٨/٧/١٦	القدس
ج١	جودت رشيد سليم	عمان	١٩٤٨/٥/٢٠	القدس
ج	خلف حماد	بني صخر	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	عبد المهدي محمود علي	عمان	١٩٤٨/٦/١٠	اللطرون
ج	حمد عبد القادر محرم	سحاب	١٩٤٨/٩/٢٠	شعفاط
ج١	خلف عبد العزيز مطلق العدوان	صويلح	١٩٤٨/٥/١٣	كفار عصيون
ج	احمد قاسم الديري	عمان	١٩٤٨/١١/٢٥	باب الواد
ج	مصطفى عبد الرحمن محمد	مادبا	١٩٤٨/٤/١٨	القدس
ج	عبد اللطيف مفلح	بني صخر	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	مصلح فليح فلاح	بني صخر	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	احمد قاسم المحاربه	سحاب	١٩٤٨/٥/٢٣	باب الواد
ج	عطا عقله علي الخضير	بني صخر	١٩٤٨/٤/٨	القدس
ج	فاضل عرقوب الخريشا	بني صخر	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	مشافق عطيه مطلق	بني حميده	١٩٤٨/٥/٢٢	
ج	مفضي ساكت شاهر الجبور	بني صخر	١٩٤٨/٥/٢٢	القدس
ج	جاسر حمادة ذياب	بني صخر	١٩٤٨/٦/٩	القدس

ج	حمود احمد سعيد	ناعور	١٩٤٨/٥/١٣	القدس
ج	خلف عيسى الشهوان	ام البساتين	١٩٤٨/٥/٢	
ج	عبد الكريم حرب	ام البساتين	١٩٤٨/٩/٢٠	القدس
ج١	حمدان نهار احمد	بني صخر	١٩٤٨/٦/٧	
ج	منيزل عقله علي الحديد	القويسمة	١٩٤٨/٧/١٦	يالو
ج	ممدوح ظاهر ذياب الفايز	بني صخر	١٩٤٨/٦/٧	القدس
ج	ابراهيم غازي صقر	الرصيفة	١٩٤٨/٨/١٧	سلوان
ج	محمود علي حسين	ناعور	١٩٤٨/١٠/٢٤	القدس
ج	فالح مطلق محمد	بني صخر	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	ثلجي غصيب سمير	بني صخر	١٩٤٩/١/٩	
ج	علي مقبل محمد	بني حميده	١٩٤٨/٥/١٨	
ج	علي عواد فاضل	ماعين	١٩٤٨/١٠/٢٢	القدس
نائب	يوسف ابراهيم ماضي	مادبا	١٩٤٨/٥/١	القدس
ج	سالم محمد اللفتاوي	بني صخر	١٩٤٨/٦/١٥	القدس

محافظة السلط

الرتبة	الأســـــم	البلـدة	تاريخ الاستشهاد	مكان الاستشهاد
ج	سليمان عبدالله محمد	السلط	١٩٤٨/٧/١١	
ملازم/١	وديع قسطندي ابراهيم سليمان	الفحيص	١٩٤٨/٥/٢٩	الرادار
ملازم/١	عبداللطيف عبدالمهدي عربيات	السلط	١٩٤٨/٥/٢٠	
ج	عايد سالم مفضي العمايرة	السلط	١٩٤٨/٤/٢٨	
ج	احمد محمد سليم العطيات	السلط	١٩٤٨/٧/١٥	اللطرون
ج	محمود عايش حمدان	السلط	١٩٤٨/٧/١٢	
ج	محمود احمد مطلق العطيات	السلط	١٩٤٨/٥/١٦	
ج	جمال عبدالرحيم محمد الخليلي	السلط	١٩٤٨/٧/١٦	
ج	سليمان علي عيد الرمامنة	السلط	١٩٤٨/٥/٢٦	الرادار
ج	عبدالحليم موسى سلامه	السلط	١٩٤٨/٧/٢٠	
ج	محمد عوض عقله الجبارات	الرامة	١٩٤٨/٩/٢٠	
ج١	صالح عواد الكردي الحواتمه	السلط	١٩٤٨/١٢/٣	كفار عصيون

محافظة اربد

الرتبة	الاسم	البلده	تاريخ الاستشهاد	مكان الاستشهاد
ملازم١	جدعان مجيد	الروله	١٩٤٨/٥/٢١	القدس
ملازم١	محمد عقله الربابعه	الشجره	١٩٤٨/٤/١٨	النبي يعقوب
ملازم ثاني	محمد نجيب بركات النصيرات	ناطفه	١٩٤٨/٥/٢١	القدس
ملازم١	عبد الله فلاح	السردية	١٩٤٨/٧/١٦	قوله
ج١	سعيدي رشيد اللويبد المساعيد	الجبل	١٩٤٨/٦/١١	القدس
نقيب	يوسف ابراهيم القاضي	الأزرق	١٩٤٨/٤/٣٠	القدس
نقيب	سالم عيد نمر	العيسى	١٩٤٨/٧/١٧	باب الواد
ج	دواس حامد شعبان	السرحان	١٩٤٨/٧/١١	اللطرون
نقيب	لهد قايم المقدم	الجبل	١٩٤٨/٥/٢٨	القدس
ج١	صالح علي مفلح الهليل	العظمات	١٩٤٨/٦/١٠	اللطرون
نائب	زايد رشيد محمد علي الطوالبه	سحم الكفارات	١٩٤٨/٦/٢	غور الصافي
نائب	مبارك عبد الله الزومان	السردية	١٩٤٨/٥/٢٦	الرادار
جندي	غانم حميدي عطا الله	السرحان	١٩٤٨/١٠/١٩	شعفاط
عريف	محمد نهار مفلح العبيدات	كفر سوم	١٩٤٨/٥/٢٠	القدس
ج١	محمد حسن عبد الوالي	بني حسن	١٩٤٨/٥/٤	
جندي	يوسف محمد بني هاني	كفر يوبا	١٩٤٨/٥/٣	
عريف	حسين علي عايش	العظمات	١٩٤٨/٥/٢٢	
ج	مرشد اسود ارشد العظمات	الجبل	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	قطيفان مرجي وراد	السردية	١٩٤٨/٥/٢٧	الرادار
ج	عبد المجيد محمود الفريحات	الحسينات	١٩٤٨/٩/١٨	القدس
ج	سليمان رويلي حسين	عقربا	١٩٤٨/٦/١	باب الواد
ج	محمد سليمان موسى	صخرا	١٩٤٨/٧/١٨	القدس
ج١	احمد قاسم محمد العثامنة	الصريح	١٩٤٨/١٢/١٧	
عريف	فضل الله السعيد محمد	صخرا	١٩٤٨/٨/١٥	
ج	باير ثليج صبره	الجبل	١٩٤٨/٥/٢٢	القدس
ج١	سالم عقله السعيد	العيسى	١٩٤٨/٦/٧	
ج	سالم محمد سرور الجهامنة	كفر يوبا	١٩٤٨/٥/١٣	كفار عصيون
عريف	عبد الله سلامه محمود	سمر	١٩٤٨/٦/٩	اللطرون
عريف	محمد سليم يوسف المومني	صخرا	١٩٤٨/٥/٢٥	رامات راحيل

ج١	رجب أسعد نعمان	جرش	١٩٤٨/٦/٩	اللطرون
ج١	عارف محمد سامي الهنادى	الباقورة	١٩٤٨/١٠/٢٠	القدس
ج١	شبلي علي عبد الرحمن المومني	صخرا	١٩٤٨/٥/٢٥	اللطرون
ج١	ناجي مفضي عيسى	الرفيد	١٩٤٨/٤/١٢	كفار عصيون
ج١	عبده سالم أحمد	البارحة	١٩٤٨/٥/١٣	
ج١	محمود مفضي احمد	عين جنا	١٩٤٨/٥/١٥	
ج١	رشاد موسى مصطفى	الطيبة	١٩٤٨/٥/١٦	القدس
ج	محمد موسى احمد الزريقات	الشجره	١٩٤٨/٧/١٨	
ج	عوض خلف جلال	برما	١٩٤٨/٦/٩	باب الواد
ج	حسن قويدر احمد البطاينه	كفر يوبا	١٩٤٨/٤/١٨	باب الواد
ج	محمد محمود احمد المومني	عبين	١٩٤٨/٧/١٥	القدس
ج	سلامه عبيد حنيان	بني خالد	١٩٤٨/٥/٢٦	الرادار
عريف	سماره فياض خليف	الجبل	١٩٤٨/٧/١٦	
ج١	محمود عوض احمد	كفر عان	١٩٤٨/٨/١٥	
ج	قاسم خليل صبح الجبور	بني خالد	١٩٤٨/٧/١٨	القدس
ج	حمدان ياسين	سحم الكفارات	١٩٤٨/٥/١٤	
ج	محمود أحمد المومني	صخرا	١٩٤٨/٥/١٨	
ج١	ياسين يوسف ياسين	كفر الماء	١٩٤٨/٥/١٦	
ج	رشيد بركات رشيد	الطرة	١٩٤٨/٥/٢٠	القدس
ج	محمد احمد صالح الشنوب	الأشرفية	١٩٤٨/٥/٢١	القدس
ج١	محمود علي مفلح الروسان	سما	١٩٤٨/٥/٣١	اللطرون
ج١	عبد الله علي مصطفى القضاه	عين جنا	١٩٤٨/٧/١١	القدس
ج	سلطي سلامه نمر البطارسه	سوف	١٩٤٨/٥/٢٠	باب الواد
ج	سليمان يوسف حسين الزغول	عنجره	١٩٤٨/٥/١٩	
ج١	طلال عطيه محمد العيسى	تبنة	١٩٤٨/٦/٢	القدس
ج١	علي يوسف علي الصقر	حلاوة	١٩٤٨/١٠/١٨	القدس
ج	احمد فلاح سليمان حوامده	سوف	١٩٤٨/٧/١٦	القدس
ج	سليمان عبد الله	الرمثا	١٩٤٨/٥/١٣	كفار عصيون
ج	محمود عبد الله فلاح القضاه	عين جنا	١٩٤٨/٦/٤	
ج١	خالد سالم عبد الرحمن	طيبة بني علوان	١٩٤٨/٨/١٤	خراب اللحم

ج	احمد ابراهيم عبد ربه	عنجرة	١٩٤٨/١٠/٥	باب الواد
ج	احمد طلال محمد موسى	كفر سوم	١٩٤٨/٤/٩	
ج	سعيد محمد الشرمان	المزار	١٩٤٨/٥/٢٦	رامات راحيل
ج	علي بكر علي الشلول	دوقره	١٩٤٨/٥/١٨	
ج	محمد تركي نهار	الرمثا	١٩٤٨/٥/٢٧	
ج	رماح خباص فليح	الجبل	١٩٤٨/٧/١٦	قوله
ج	سليمان سطام فندي الزعبي	الرمثا	١٩٤٨/٥/٢٦	
ج	مزعل محمود يوسف	سوم	١٩٤٨/٣/٣٠	
ج	عبد المهدي حسن علي	برما	١٩٤٨/١١/١٩	النبي صموئيل
ج	احمد عمر حسن	ساكب	١٩٤٨/٥/٢٠	القدس
ج	محمد علي عبد الرحيم	هام	١٩٤٨/٥/١٣	كفار عصيون
ج	احمد عواد محمد	كفر عان	١٩٤٨/٥/١٣	
ج	نورس مطلق شريف الجبور	بني خالد	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	خالد محمد حميدي القضاه	بني خالد	١٩٤٨/٧/١١	
ج	عبد الله سلطان عوده	حوشا	١٩٤٨/٥/٢٠	
ج	ندا علي محمد	حوشا	١٩٤٨/٥/١٥	القدس
ج	حظاظ عمر الحباب	السرحان	١٩٤٨/٥/٢٠	القدس
ج	ندا مزيد حسن الحمدان	السرحان	١٩٤٨/٥/١٠	كفار عصيون
ج	عايد عباس سليمان	شرعة الجبل	١٩٤٨/١٠/٢٢	
ج	حسن ساهي محمد الخزاعله	بني حسن	١٩٤٨/٧/١٣	القدس
ج١	حسين جبر عبد الرحمن	كفرعان	١٩٤٨/٧/١٠	
ج١	محمود حمدان محمد	الخراج	١٩٤٨/٥/٣١	القدس
ج١	محمد قاسم محمد	أم القطين	١٩٤٨/٧/١٦	
عريف	محمد نايف محمد	جديتا	١٩٤٨/٧/١٩	القدس
ج	احمد محمد بيكات	جديتا	١٩٤٨/٧/١٩	القدس
ج	علي مصطفى أحمد	رحابا	١٩٤٨/٧/١٨	
ج	احمد نوري محمود	جرش	١٩٤٨/٧/١٩	القدس
ج	شلاش عبد القادر احمد	جديتا	١٩٤٨/٧/١٩	القدس
ج	احمد عبد المهدي علي	جرش	١٩٤٨/٧/١٩	القدس
ج	ابراهيم عبد النور علي	حبراص	١٩٤٨/٨/٢١	

ج	احمد جروان العبيدات	بيلا	١٩٤٨/٨/٧	
ج	ياسين عبدي حسين	الرمثا	١٩٤٨/١١/٧	
ج	علي مرعي حمدان	عين جنا	١٩٤٨/١٠/١٨	القدس
ج	موسى حسين سعيد	الشونه	١٩٤٨/٩/١٢	
ج	عبده مقبل عرسان	دير ابو سعيد	١٩٤٨/١٠/٢٢	القدس
ج	محمد علي احمد	النعيمه	١٩٤٨/٩/١٢	القدس
ج	محمد ابراهيم عليان	الهاشميه (فاره)	١٩٤٨/٩/١٤	
ج	غازي زيدان مصطفى	بيت راس	١٩٤٨/٩/١٩	القدس
ج	سعود رحيل مفلح	السرحان	١٩٤٨/٧/١٨	
ج	قاسم محمد مطلق الخلايله	الرفيد	١٩٤٨/٥/٢٠	باب الواد
ج	يوسف خيرو نشوان	المنشية	١٩٤٨/٥/١٣	
ج	ابراهيم مفلح مصطفى	كفر يوبا	١٩٤٨/٧/٢٠	
ج	محمد مفلح سليمان الجبور	بني خالد	١٩٤٨/٥/٢٠	القدس
ج	موسى ناصر مرزوق	المنشية	١٩٤٨/٦/٢٨	
ج	عليان سليمان الخطيب	حاتم	١٩٤٨/٨/١١	باب الواد
ج	قاسم احمد حسين	كفر يوبا	١٩٤٨/٩/١٤	
ج	ناجي عبده ذياب	جنين الصفا	١٩٤٨/٩/١	
ج	منصور قويدر محمد	ملكا	١٩٤٨/٩/٣١١٩	
ج	محمد مصطفى عواد	باعون	١٩٤٨/٧/٣١	
ج	جوهر خليف جوهر	قفقفا	١٩٤٨/٥/٢١	
ج	عبد العزيز احمد ظاهر	الطيبة	١٩٤٨/١١/٧	
ج	ابراهيم سليم محمد	الرمثا	١٩٤٨/٤/٩	
ج	محمد بركات سعيد	دير السعنة	١٩٤٨/١٠/٨	القدس
ج	محمد حفيظ هلال	العظمات	١٩٤٨/٧/١٨	
ج	عواد فريح نزال	الجبل	١٩٤٨/٩/١٨	

محافظة الكرك

الرتبة	الاسم	البلدة	تاريخ الاستشهاد	مكان الاستشهاد
ملازم١	عبدالمجيد عبدالنبي المعايطه	الكرك	١٩٤٨/٥/٣١	اللطرون
ج	سالم موسى خميس الريحان	عيمه	١٩٤٨/١٠/١٥	
نائب	رجا محمد الصعوب	الكرك	١٩٤٨/٧/١٧	
ج	جميل خليل سليمان	بصيرا	١٩٤٨/٥/٢٠	
ج	فرج خضر الدبادبه	بني عطيه	١٩٤٨/٧/١٨	القدس
ج	علي حسن عبدالفتاح	الطفيلة	١٩٤٨/٦/٩	اللطرون
ج	جريس عيسى جريس الهلسه	حمود	١٩٤٨/٥/٢٠	القدس
ج	سلامه سليم ابراهيم المصاروة	الكرك	١٩٤٨/٥/٢٠	القدس
ج	سليمان سالم احمد	الكرك	١٩٤٨/٨/٧	
ج	محمد سليمان عيد النعانعة	ضانا	١٩٤٨/٨/٩	
ج	فايق عودة صبح الطراونة	الكرك	١٩٤٨/٧/١٩	
ج	حنا خليل سلامه العكشه	الكرك	١٩٤٨/٥/٢١	
ج١	حماد عبدالمهدي الرواشده	الكرك	١٩٤٨/٥/٢٣	
ج	علي حمد محمد	الحجايا	١٩٤٨/٧/١٨	اللطرون
ج	سالم سليمان سالم الحنانية	بني عطيه	١٩٤٨/٥/١٥	
ج	رشيد سالم سلامه العبادلة	الكرك	١٩٤٨/٥/٢٦	
ج	ياسين سمرين عوض السبوع	الكرك	١٩٤٨/٥/١٨	
ج	فائق فلاح ابراهيم المحاسنة	الكرك	١٩٤٨/٩/١٦	
ج	عوض محمد العشوش	الكرك	١٩٤٨/٧/٣	
ج	عناد سالم عبد المناعين	الكرك	١٩٤٨/٤/١٢	كفار عصيون
ج	دخل الله كريم خليل المجالي	الكرك	١٩٤٨/٥/٢٥	
ج	حنا عيسى سالم نصراوين	ادر	١٩٤٨/٦/٩	اللطرون
ج	عبدالحفيظ عبدالنبي عايش	راكين	١٩٤٨/٥/١٨	
ج	محمد فلاح سالم الطراونة	الكرك	١٩٤٨/٥/١٦	
ج	محمود عطا الله سالم القطاونة	الكرك	١٩٤٨/١٢/٢١	
ج	مطلق حمدان صباح المزايدة	بني عطيه	١٩٤٨/٦/٧	

ج	خليل سليم شتيوي الضمور	الكرك	١٩٤٨/٤/٢٨	
ج	محمد ابراهيم	الطفيلة	١٩٤٨/١٢/٧	
ج	عبدالله احمد دياب الذيابات	الكرك	١٩٤٨/١١/٢١	
ج	عبدالقادر عبدالنبي المجالي	الكرك	١٩٤٨/١٠/١٨	
ج	محمد فلاح محمد الصرايرة	الكرك	١٩٤٨/٥/٢٠	
ج	حامد علي يوسف المبيضين	الثنية	١٩٤٨/٨/١٢	
ج	حامد عبده حسين الاغوات	الكرك	١٩٤٨/٥/١٣	كفار عصيون
ج	عواد خليف عيد الجعافره	الكرك	١٩٤٨/٥/١٩	بيت عور التحتا
ج	سالم سليمان سلامه الرشايده	الكرك	١٩٤٨/٥/١٩	كفار عصيون
ج	صالح علي الوالي	الطفيلة	١٩٤٨/٦/١٤	
ج	عيد حماده شتيوي	الحجايا	١٩٤٨/٦/١٠	
ج	محمد عطيه خليل الصرايره	مؤته	١٩٤٨/٥/٢٢	رامات راحيل
ج	عبدالحافظ عوده علي	الكرك	١٩٤٨/٥/١٣	كفار عصيون
ج	زعل موسى سليمان الطراونة	الكرك	١٩٤٨/٩/١٩	القدس

محافظة معان

الرتبة	الاســـــم	البلـدة	تاريخ الاستشهاد	مكان الاستشهاد
ج	عودة عيد سالم السعيد	الحويطات	١٩٤٨/٦/٥	
ج١	جريبان سالم قاسم ابوتايه	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢٧	الرادار
ج	مدلول سليمان راعي الحصان	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢٦	الرادار
رقيب١	عبداللطيف علي عبدالقادر	معان	١٩٤٨/٥/٢٦	
عريف	سند مرعي نصار الركيبات	الحويطات	١٩٤٨/٧/٢٧	القدس
ج	نجاع صبيح عبدالله	معان	١٩٤٨/٥/٢٢	
عريف	سليمان عيد سعد القرعان	معان	١٩٤٨/١٠/٢٣	
نائب	خليل طالب سليمان	الشوبك	١٩٤٨/٧/١٩	القدس
نائب	شتيان محمد سالم النواصره	الحويطات	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	عوض محمد علي الربايحه	معان	١٩٤٨/١١/٢٧	
ج	ابراهيم محمد سليمان	الشوبك	١٩٤٨/٦/٩	

ج	سالم عوده رشيد الجازي	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢٩	
عريف	محمد ابراهيم حسن البدور	الشوبك	١٩٤٨/٥/٢٢	
نائب	مثنى مصلح حسين اليماني	معان	١٩٤٨/٥/١٣	كفار عصيون
ج	حامد عقيل مهاوش الذيابات	الحويطات	١٩٤٨/٥/٥	
ج	حسن عيد حميدي شعبان	الشوبك	١٩٤٨/٥/١٢	الرادار
عريف	علي رفيفان طلاق الذيابات	الحويطات	١٩٤٨/٩/١٢	شعفاط
عريف	عايض علي صالح الذيابات	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢٧	
نائب	سلطان بن عليق العودات	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢١	القدس
ج	محمد اسماعيل علي الهباهبه	الشوبك	١٩٤٨/٧/١٩	
ج	لويفي محمد قاسم كريشان	معان	١٩٤٨/٥/٢٠	
ج	سالم موسى حمد النجادات	الحويطات	١٩٤٨/٧/١٦	القدس
ج	موسى سليمان موسى	وادي موسى	١٩٤٨/١٠/٢	وادي عربة
ج	احمد مامون محرم المصري	معان	١٩٤٨/٧/١٦	
ج	علي سليمان ابراهيم	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢٦	
ج	عبدالله زعل فارس الذيابات	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢٥	
ج	عطا الله عتيق عوده الزلابيه	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢٩	
ج	احمد ابراهيم عبده	معان	١٩٤٨/٩/٦	
ج	هملان عبدالحي حسين	معان	١٩٤٨/٩/٦	
ج	علي سالم محمد الطوره	الشوبك	١٩٤٨/٧/١٩	
ج	محمد فراج عوده الربيعين	الحويطات	١٩٤٨/٧/١٧	
ج	محمد عقله عوده الرماحين	الحويطات	١٩٤٨/٥/٢٧	
ج	مرزوق سليمان سالم الجازي	الحويطات	١٩٤٨/١٠/٢٧	القدس
ج	عبدالقادر حسين علي	الشوبك	١٩٤٨/١٠/١٨	
ج	هليل سالم علي	الحويطات	١٩٤٨/١١/٢٥	

من مختلف البلاد العربية

الرتبة	الأسم	البلدة	تاريخ الاستشهاد	مكان الاستشهاد
ملازم١	عيد أديلم خلف السلاعين	الاشاجعة/الرولة	١٩٤٨/٥/٢٢	القدس
نائب	محسن مطلق علي	الرولة	١٩٤٨/٥/٢٦	الرادار
ج	فواز صالح رشيد المدني	عتيبه	١٩٤٨/٥/٢٢	القدس

ج	مفلح سلامه سليمان الرواحنة	عتيبه	١٩٤٨/٧/١٥	القدس
عريف	عايد عيد منيزل الحمصي	عنزه	١٩٤٨/٦/٢	
نائب	محمد عباس المحسن	عتيبه	١٩٤٨/٦/٩	
ج	نواف خلف محمد الملحم	عنزه	١٩٤٨/٥/٢٠	
ج	مضفي سليمان محمد البطون	جهينه	١٩٤٨/٥/٢٢	القدس
ج١	زين محمد حميد الفاني	جهينه	١٩٤٨/٧/١٣	
عريف	عويد منصور حسين	الزياد/العراق	١٩٤٨/٥/٢	
ج	مجول وردي مطلق	الرولة	١٩٤٨/٧/١٨	اللطرون
ج١	فهد غمار مجلي الكوره	شمر	١٩٤٨/٥/٢٦	الرادار
ج١	حنيف زعل صقر	الضفير	١٩٤٨/٥/٢٤	
ج	حدران دعيج رشيد	شمر	١٩٤٨/٧/١١	
ج	شليوح مروي	شمر	١٩٤٨/٥/٣١	الرادار
ج	عبدالرزاق وهيب ناعم البحيرات	الجوف/السعودية	١٩٤٨/٩/٢٦	
ج	غلاب عبدالله ربيعان	عتيبة/الحجاز	١٩٤٨/٥/٣١	
ج	ملوح خضر صقر العاصب	شمر	١٩٤٨/٧/١٦	
ج	عبدالله مثقال	شمر	١٩٤٨/٧/١٦	
ج	زيدساير زيد الاسلم	شمر	١٩٤٨/٧/١٣	بيت نبالا
ج	حمدان صويلح حميد المعبدي	الفواعره/سوريا	١٩٤٨/٨/١٧	القدس
ج١	شيحان محمد محمود العقله	الفواعره/سوريا	١٩٤٨/٨/٣	
ج	جربوع دايم الجعافره	عنزه/سوريا	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	سليم ابراهيم حمد الحماد	الحجاز	١٩٤٨/١/٧	
ج	صالح غبين عيد المصاليح	عنزه	١٩٤٨/٥/٢١	
ج	ابراهيم محمد عبد القاضي	جهينه	١٩٤٨/٧/١٦	
نائب	يوسف محمد مصطفى صعب	لبنان	١٩٤٨/٧/١٧	باب الواد
ج	عناد سهل المناجرة	شمر	١٩٤٨/٧/١٨	اللطرون
ج	صالح سالم صباح المواهيب	شمر	١٩٤٨/٧/٣	الرادار
ج	عطا الله صالح سليمان	بلي/الحجاز	١٩٤٨/٥/١٤	
ج	منصور عبدالله	القثعم/ شمر	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	عوض سليم طلاق	عنزه/نجد	١٩٤٨/٥/٢٠	
ج	غانم سلطان نهار	عنزه	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	طالع احمد	عنزه	١٩٤٨/٧/١٨	اللطرون

ج	خلف حنيف مطلق	عنزه	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	عبيد احمد علي برجس	العقيدات	١٩٤٨/٥/١٩	كفار عصيون
ج	حاتم معيوف بركات	عتيبة	١٩٤٨/٧/١٤	
ج	محمد علي عويد الروقة	عتيبة	١٩٤٨/٥/٢٤	القدس
ج	نافع غازي صحن الاسلم	شمر/العراق	١٩٤٨/٧/٢١	
ج	عبدالله عماش حجاب	شمر/نجد	١٩٤٨/٥/٢٣	
ج	حمود راجح غاضي	عتيبة	١٩٤٨/٦/٩	
ج	خليف حريب خليف الاسلم	شمر/نجد	١٩٤٨/٧/١٦	
ج	احمد محمد صالح العابدي	الحجاز	١٩٤٨/٥/٢٤	
ج	جالي صالح السوالمة	الرولة	١٩٤٨/٨/١٨	
ج	رحيل فهد جلبي العقله	الفواعرة/سوريا	١٩٤٨/٥/٢١	القدس
ج	عبدالله سعود محمد عبده	قحطان	١٩٤٨/٥/٢١	
ج	احمد خلف محمد الشبل	الرقة/سوريا	١٩٤٨/١٠/٢	
ج	جبر قاسم عواد	الجوف	١٩٤٨/٧/١٧	
ج	سعدون سليمان بردي القواسم	السعودية	١٩٤٨/٥/٢٢	
ج	مزلوه عقال حامد البرغش	الجوف	١٩٤٨/٤/٢٨	
ج	محمد حسين علي	العقيدات	١٩٤٨/٧/١٢	
ج	كمي محمد ليطي العبده	قحطان	١٩٤٨/٧/١١	دير طريف
ج	محمد مدحي المطايفه	حرب	١٩٤٨/١/٢٠	
ج	عواد حسين سليمان الخالد	العقيدات	١٩٤٨/٥/١٣	
ج	بردان غيث زيدان	الرولة	١٩٤٨/٧/١٧	القدس
ج	عقاب سالم مرزوق الروسي	عتيبه	١٩٤٨/٧/١٨	اللطرون
ج	صالح محمد ابراهيم	حرب	١٩٤٨/٦/٢٥	
ج	علي احمد	الحجاز	١٩٤٨/٧/١٨	اللطرون
ج	خلف عوض	عنزه	١٩٤٨/٧/١٦	البرج
ج	عايد هيمان عرسان	عنزه	١٩٤٨/٥/٢٦	الرادار
ج	احمد راكان سعدي الخرسا	شمر	١٩٤٨/٧/١٦	القدس
ج	احمد عويض جروان الاشاجعة	الرولة	١٩٤٨/٦/٢	الرادار
ج	معلى محارب رشيد بني سالم	حرب/نجد	١٩٤٨/٤/١٨	النبي يعقوب

ج	ابراهيم سليم شعلان الروقة	عتيبة	١٩٤٨/٥/٢٢
ج	حريث غشم عودان	الرولة	١٩٤٨/٦/١٢
ج	غدي دغيم صباح المزيان	عنزة/العراق	١٩٤٨/٧/١٥
ج	فهمي سينام احمد التوبة	مصر	١٩٤٨/٦/٩
ج	صبحي ابراهيم ذياب	السمرا	١٩٤٨/٥/٢٥
ج	عبدالغني مطلق	سمخ	١٩٤٨/٥/٢٤
ج	فرج عودة الله محمد الزيود	بني حسن	١٩٤٨/٤/١٢
ج	راجح يونس عبدالرحيم	رام الله	١٩٤٨/٩/١٤
ج	محمد سليمان احمد سيف	نابلس	١٩٤٨/٩/١٢

شهداء أردنيون آخرون

الأسماء التالية عن القائمة التي نشرها عارف العارف

الرتبة	الاسم	البلدة	تاريخ الاستشهاد	مكان الاستشهاد
	ابراهيم ليان عزام	الحصن	١٩٤٨/٧/٢٤	
	احمد عبدالله عوض	كفرعان	١٩٤٩/١/١٤	القدس
	احمد نايف مفلح	الرمثا	١٩٤٨/١٢/٢١	بيت لحم
	جبرائيل حنا عيسى الزيادين	الكرك	١٩٤٨/٨/٣	القدس
	حبيب راشد الشمري	شمر	١٩٤٨/٤/١٤	اللطرون
	حسن محمد عطيه	الطيبة	١٩٤٨/٩/٨	القدس
ج١	حماد يحيى عبدالرحمن	الطفيلة	١٩٤٨/٧/٦	
	حمود موسى العساسفه	الكرك	١٩٤٨/٨/١٥	القدس
	راجي سليمان عايد	عمان	١٩٤٨/٨/١٦	
	رجا مسند فرحان	نجد	١٩٤٨/١٠/١٧	
ج١	رشاد موسى مصطفى	الطيبة	١٩٤٨/٩/١٦	
	رضوان محمد المومني	عين جنا	١٩٤٨/٩/١٩	باب الواد
	سالم عبدالله زواد	خرجا	١٩٤٩/٢/٢	
	سالم مصطفى الحناقط	الطفيلة	١٩٤٨/٨/٢٩	

الرتبة	الاسم	البلدة	التاريخ	المكان
	سلامه باجس	ناعور	١٩٤٨/٩/١٩	باب الواد
	سليم محمد ابوالجزر	الرمثا	١٩٤٨/٤/٩	
ملازم٢	سليمان الصناع	الكرك	١٩٤٨/١١/٨	اريحا
	سليمان عبدالغني عيسى	كفرنجة	١٩٤٨/٧/١٩	
عريف	سليمان كساب هلال	المساعيد	١٩٤٨/٥/٢٢	القدس
عريف	سماره عياض	الجبل	١٩٤٨/٧/١٦	القدس
	سعد مصيصان	الرولة	١٩٤٨/٨/١٤	القدس
	سيد موسى المصري	المنصورة	١٩٤٨/٥/٢٢	باب الواد
	شحاده منصور		١٩٤٨/١٢/١٣	وادي عربة
	صعفك زعال		١٩٤٨/٥/٢٢	القدس
	طعمه عبدالله حسن	كفرنجه	١٩٤٨/٧/١٦	باب الواد
	عايد عابس سليمان	الجبل	١٩٤٨/١١/٢٦	
	عبدالحميد سليمان القيسي	عمان	١٩٤٨/١١/١٥	
	عبدالرحمن خلف عمر	شمر	١٩٤٨/٦/٢١	
النائب	عبدالمجيد النوباني	نابلس	١٩٤٨/٥/٢٧	القدس
عريف	عايد عيد منديل		١٩٤٨/٨/٢	
	عبد احمد السرجي	العقيدات	١٩٤٨/٥/١٩	
	علي احمد جروان	يبلا	١٩٤٨/٩/٨	
	علي راتع احمد	الحجايا	١٩٤٨/٥/٢٢	القدس
	علي سليمان محمد	النعيمة	١٩٤٨/١١/٨	
	علي محمد صبح	الطفيلة	١٩٤٨/١١/٢٧	باب الواد
	عوض محمد الحريري	معان	١٩٤٨/١٢/٧	
	عيد سعيد	العجمان	١٩٤٨/٧/٣١	البيرة
رئيس	عيسى القيسي	مادبا	١٩٤٩/١/١٣	اريحا
	فروان عودة	الطفيلة	١٩٤٨/٩/٤	بدو
	فلاح سالم هاجس	بني صخر	١٩٤٨/١٠/٢	
	فهد دوجان	السردية	١٩٤٨/٢/٧	
	فهد فارس	عمان	١٩٤٨/١٠/٢	
نائب	فيصل عالم	الزرقاء	١٩٤٨/١١/١٧	

قاسم احمد حسن	كفر يوبا	١٩٤٨/٨/١٥	
قطيفان حسين	بني حميده	١٩٤٨/٩/٧	
كايد مطلق سليمان	الحجايا	١٩٤٨/١/١٠	اللطرون
محمد رشيد	فاره	١٩٤٨/٣/٢٩	
محمد سالم فرح الربيعيين	الحويطات	١٩٤٨/٦/٧	
محمد سلامه دعيسى	مادبا	١٩٤٨/١٠/٧	
محمد عبدالله حسن	حرثا	١٩٤٨/٩/١٩	باب الواد
محمد مفرج مرضي		١٩٤٨/٢٠	القدس
محمد فنيطر		١٩٤٨/٧/١٨	القدس
محمد محي الدين ظاظا	عمان	١٩٤٨/٨/٢٩.	
محمد يحي حماد			القدس
محمود احمد سعيد	ناعور	١٩٤٨/٥/١٣	الرادار
مشعل غالب	شمر	١٩٤٨/٩/٢٤	البيرة
مطلق عودة موسى	الحويطات	١٩٤٨/٨/١٢	
معدل رمضان حسن الصايح	شمر	١٩٤٨/٤/٩	
موسى حسين سعيد	الشونه	١٩٤٨/٩/١٢	
موسى محمد	سوف	١٩٤٨/٩/٥	بدو
نادي صياح	العيسى	١٩٤٨/٨/١١	
نواف علي	حجرة	١٩٤٨/٥/١٩	القدس
يوسف العيسى		١٩٤٨/٧/١٦	القدس
عوض عايد	نجد		
صالح علي مفلح هليل	عنزة		

ملحق رقم ٥

الشهداء من المجاهدين الأردنيين

استشهد

ابراهيم حمد الله الفواعير	صفد	السلط
بشير سلطان		الرصيفة
بهجت منكو	مشمار هاعيمك	عمان

جمال عبدالرحيم		
رزق العمريين		الطفيلة
سلامة علي	اللد	–
هايل سلامة النوفل الزبن	اللد	بني صخر
علي هجر الذياب الفايز	البصه	بني صخر
عوض المحمود الحديد		القويسمه
فلاح الأحمد الحنيطي		القويسمه
محمد حمد الحنيطي	موتسكن	القويسمه
نايل حمد الجازي		حويطات
يحيي المجالي	اللد	الكرك
يوسف الفاهد العدوان	القدس	العدوان
سليم عواد الزلابيه	باب الواد	حويطات
حميد التبيناوي		حويطات
محمد ضيف الله ابوالصقور		حويطات
سالم المسلط الفايز	رامات راحيل	بني صخر
سليمان يوسف		عجارمه
عبدالله صويوين المراعيه	بدرس	حويطات
عودة الفقير	اللد	الكرك
غالب نهار الحديد		القويسمه
محمد ابوعزام		
محمد صالح الشالاتي		عمان
هايل نهار الحديد	المستعمرات الخمس	القويسمه

هؤلاء هم الشهداء الذين استطعت معرفة اسمائهم. وهناك شهداء غيرهم لم اتمكن من الحصول على معلومات موثوقة عنهم.

وقد اثبت عارف العارف (في الجزء السادس من كتابه: النكبة) قائمة باسماء الشهداء الأردنيين من غير رجال الجيش. ولكن هذه القائمة تتضمن أخطاء نتجت عن الروايات غير الموثوقة التي وصلت اليه.مثال ذلك انه ضمن القائمة اسم جدعان محمد (؟) قائلاً انه استشهد مع ستة من رفاقه المناضلين في حارة النصارى (القدس). وكرر ذلك مرتين. والواقع ان جدعان مجيد كان احد ضباط السرية الثامنة، وقد انفجرت قنبلة من قنابل العدو حيث كان هو وعدد من رفاقه الجنود،

فأودت بحياتهم يوم ٢١ ايار. وفي تقدير العارف ان عدد الشهداء الأردنيين - عدا رجال الجيش - لم يقل عن ٢٠٠ شخص في حرب ١٩٤٨.

ملحق رقم ٦

الرتب العسكرية

استعملت في هذا الكتاب الرتب العسكرية التي كانت سائدة عام ١٩٤٨. ولفائدة القارىء اثبت فيما يلي اسماء الرتب سنة ١٩٤٨ واسماء الرتب التي تقابلها في الوقت الراهن (١٩٨٢) :

١٩٤٨	١٩٨٢
فريق	فريق
لواء	لواء
زعيم	عميد
قائم مقام	عقيد
قائد	مقدم
وكيل قائد (و.ق)	رائد
رئيس	نقيب
ملازم اول	ملازم اول
ملازم ثان	ملازم
مرشح ضابط	-
وكيل	وكيل
نقيب	رقيب اول
نائب	رقيب
عريف	عريف
جندي اول	جندي اول
جندي	جندي

كشاف أسماء العلم

الخرائط والصور

صفحة	الخرائط والمخططات
٥٧	مشروع تقسيم فلسطين الذي قررته الأمم المتحدة
٧٩	منطقة القدس الدولية بحسب قرار التقسيم
١٥٥	القدس داخل الأسوار
	القدس خارج الأسوار
١٧١	دخول الجيش العربي الى القدس
٢٠٩	القدس - أرض حرام بموجب اتفاقية رودس
٣٦٥	الوضع عند بدء الهدنة الأولى - ١١ حزيران ١٩٤٨
٤١٣	الهجوم الاسرائيلي ٩ - ١٨ تموز ١٩٤٨
٤٢٧	الهجوم على اللطرون في فترة القتال الثانية
٤٣٠	مخطط معركة رأس كركر
٤٩٧	الوضع خلال حصار الفالوجة
٥٥٣	زحف العدو على خليج العقبة
٥٦٢	شريط المثلث
٥٦٣	خط هدنة رودس

الصور المشتركة

صفحة	
٨١	رؤساء بلديات فلسطين في ضيافة السرية ١٢
١٢٣	الملك عبد الله ومعه رئيس بلدية بيت جالا
	الفريق جلوب وعبد الله التل وضرغام الفالح
٢٧٣	عيسى مفضي تادرس ومحمود كشك
	عيسى حدادين ومحمد خليل عبد الدايم
٣٣٤	نايجل برومج، محمد أحمد سليم، عكاش الزبن، راضي الهنداوي
	عبد الغني الجبور، كامل عريقات، صالح المجالي

الصور المفردة

٣٢٦	معن أبو نوار
	صالح العيد الفاخوري
	محمود المعايطه
	زعل الرحيّل
	احسان الحلواني
	حيدر مصطفى
٣٢٧	أديب القاسم
	ارشيد مرشود
	قاسم العايد
	عواد حامد
	محمد مطلق الهباهبه
	غازي الهنداوي
٣٢٨	نواف الجبر الحمود
	غازي الحربي
	محمد علي الأمين
	مصطفى ابراهيم الشوبكي
	فناطل ثنيان
	توفيق القسوس
٣٢٩	عباطه عيد
	محمد المحاسنه
	محمد كساب
	نصر أحمد الشبول
	عبد الرزاق الشريف
	هديبان عوده حداد
٣٣٠	رفيفان خالد الخريشا
	اميل جميعان
	حمدان صبيح البلوي
	ضرغام الفالح
	سالم شبيكان
	محمد السحيم
٣٣١	صالح الشرع
	عبد الله البيطار
	حكمت مهيار
	فندي عميش
	عبد الرزاق عبد الله
	مشهور حديثه
٣٣٢	خالد مجلّي الخريشا
	محمد نجيب البركات
	عبد المجيد المعايطه
	عيد أديلم
	عبد الله فلاح
	وديع قسطندي
٣٣٣	صلاح عزير
	اسحق مهاجر
	عبد الحميد جويحان
	زايد رشيد طوالبه
	عبد الكريم مسلم الشوبكي
	صالح عواد حواتمه
٤٣٢	محمد اسحق
	بادي عواد

أهم المصادر والمراجع

- الجريدة الرسمية الأردنية.
- جريدة (الأقصى) – القوات المسلحة الأردنية.
- المجلة العسكرية الأردنية.
- عارف العارف: النكبة – خمسة أجزاء، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٥٦ – ١٩٦١.

  النكبة في صور.
- صالح صائب الجبوري: محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية، بيروت، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠.
- تقرير لجنة التحقيق النيابية في قضية فلسطين، بغداد، ١٩٤٩، مطبعة الحكومة.
- عبدالله التل: كارثة فلسطين، دار القلم، القاهرة، ١٩٥٩.
- محمد فيصل عبدالمنعم: أسرار ١٩٤٨، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨.
- معن أبونوار: في سبيل القدس، عمان، مطبعة القوات المسلحة الاردنية، (١٩٦٨).
- هزاع المجالي: مذكراتي، عمان، ١٩٦٠.
- يوسف كعوش: الجيش العربي الأردني في حرب ١٩٤٨، عمان، ١٩٧٩، المطابع العسكرية.
- سليمان موسى: تاريخ الأردن في القرن العشرين، عمان، ١٩٥٩.
- محمود الروسان: معارك باب الواد، (عمان، ١٩٥٠؟).
- كامل اسماعيل الشريف: الاخوان المسلمون في حرب فلسطين ١٩٤٨ – ١٩٤٩، القاهرة، ١٩٥١.

الوثائق البريطانية، لندن – ملفات وزارة الخارجية التالية:

- Public Record Office, London; Files:
  F. O. 371/68643, 68689 - 68691, 68698, 68827 - 68831, 68837, 68845, 68852, 68853, 68864, 75272, 75273, 75275, 75293, 75295, 75297 - 75299, 75313, 75316.

الوثائق الأمريكية (مطبوع في مجلدات):

- Foreign Relations of the United States of America, 1948, Vol. V, Part 2, Govt. Printing Office, Washington: 1976.

- Foreign Relations of the U. S. A., 1949, Vol. VI, Published 1977.

من غرائب التحيز الأمريكي ان جميع صفحات المجلدين المذكورين أعلاه، والتي تتناول النزاع العربي – الاسرائيلي على فلسطين (٢١٧٠ صفحة)، وضعت كلها تحت عنوان (اسرائيل).

- Lt. General Sir John Bagot Glubb: A Soldier with the Arabs, Hodder & Stoughton, London, 1957.
- Trevor N. Dupuy: Elusive Victory; Arab-Israeli Wars 1947 - 1974, Harper & Row, New York, 1978.
- Larry Collins & Dominque Lapierre: O Jeruslem; Simon & Schuster, New York, 1972.
- Sir Alec Kirkbride: From the Wings; Amman Memoirs 1947 - 1951; Frank Cass, London, 1976.
- Dan Kurzman: Genesis 1948; The First Arab-Israeli War; Valentine, Mitchell, London, 1972.
- Jon & David Kimche: Both Sides of the Hill, Secker & Warburg, London, 1960.
- Chaim Herzog: The Arab-Israeli Wars, Book club Associates, 1982.

كتب مطبوعة للمؤلف

١ - الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى، الطبعة الاولى ١٩٥٧، الطبعة الثانية ١٩٩٣.

٢ - تاريخ الاردن في القرن العشرين، الجزء الاول ١٩٠٠- ١٩٥٨، الطبعة الاولى، ١٩٥٩ الطبعة الثانية، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٨٩، الجزء الثاني ١٩٥٩- ١٩٩٥، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٩٦.

٣ - لورنس والعرب، وجهة نظر عربية، الطبعة الاولى ١٩٦٢، الطبعة الثانية وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٢.

ترجم هذا الكتاب ونشر باللغة الانكليزية :

T. E. Lawrence : An ArabView. A.U.P. London. 1996

وباللغة الفرنسية

Songe et Mensonge de Lawrence. Sindbad Paris 1973

وباللغة اليابانية سنة ١٩٨٨ تحت عنوان : عربي يكتب عن لورنس العرب.

٤ - الثورة العربية الكبري : وثائق واسانيد، دائرة الثقافة والفنون، عمان ١٩٦٦.

٥ - صور من البطولة، الطبعة الاولى ١٩٦٨، الطبعة الثانية، وزارة الثقافة، ١٩٨٨.

٦ - الحركة العربية ١٩٠٨ - ١٩٢٤، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٠، الطبعة الثانية، ١٩٧٧، الطبعة الثالثة ١٩٨٦.

٧ - تأسيس الامارة الاردنية ١٩٢١- ١٩٢٥، عمان، الطبعة الاولى ١٩٧١، الطبعة الثانية ١٩٧٢، الطبعة الثالثة، مكتبة المحتسب، عمان ١٩٨٩.

٨ - المراسلات التاريخية : الثورة العربية الكبرى ١٩١٤- ١٩٢٤، ثلاثة اجزاء، عمان، الجزء الاول ١٩٧٣، الجزء الثاني ١٩٧٥، الجزء الثالث ١٩٧٨.

٩ - مذكرات الامير زيد : الحرب في الاردن ١٩١٧- ١٩١٨، عمان، الطبعة الاولى ١٩٧٦، الطبعة الثانية، مركز الكتب الاردني، عمان، ١٩٩٠.

١٠ - صفحات مطوية : المفاوضات بين الشريف حسين وبريطانيا ١٩٢٠ - ١٩٢٤، الطبعة الاولى، عمان، ١٩٧٧.

١١ - غربيون في بلاد العرب، عمان، ١٩٦٩.

١٢ – وجوه وملامح : صور شخصية لبعض رجال السياسة والقلم. وزارة الثقافة والشباب، عمان، الجزء الاول، ١٩٨٠، الجزء الثاني، وزارة الثقافة، ١٩٩٤.

١٣ – ايام لا تنسى : الاردن في حرب ١٩٤٨، عمان، الطبعة الاولى، ١٩٨٢. الطبعة الثانية، ١٩٩٧.

١٤ – نوافذ غربية : كتب وكتاب وقضايا عربية، عمان، ١٩٨٤.

١٥ – اعلام من الاردن : هزاع المجالي، سليمان النابلسي، وصفي التل، عمان، الجزء الاول، الطبعة الاولى ١٩٨٦.

الجزء الثاني توفيق ابو الهدى، سعيد المفتي، المؤسسة الصحفية الاردنية، عمان، ١٩٩٣.

١٦ – الثورة العربية الكبرى : الحرب في الحجاز، ١٩١٦– ١٩١٨، (حصار المدينة المنورة)، الطبعة الاولى، عمان، ١٩٨٩.

١٧ – امارة شرقي الاردن : نشأتها وتطورها في ربع قرن ١٩٢١– ١٩٤٦، منشورات لجنة تاريخ الاردن، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٩٠ (الكتاب الفائز بجائزة الملك عبد الله).

١٨ – صفحات من تاريخ الاردن الحديث : اضواء على الوثائق البريطانية ١٩٤٦– ١٩٥٢، الطبعة الاولى، عمان، المؤسسة الصحفية الاردنية، ١٩٩٢.

١٩ – في سبيل الحرية : قصة الثورة العربية الكبرى (نص مبسط لجيل الفتوة)، عمان، ١٩٨٢، طبعتان.

٢٠ – الحسين بن علي : باعث النهضة العربية الحديثة، (نص مبسط لجيل الشباب)، وزارة الشباب، عمان، ١٩٨٩.

٢١ – رجال صنعوا التاريخ (نص مبسط لجيل الشباب)، وزارة الشباب، عمان، ١٩٨٨.

٢٢ – آثار الاردن، تأليف لانكستر هاردنج، ترجمة عن الانكليزية، الطبعة الاولى، وزارة التربية والتعليم، ١٩٦٥، الطبعتان الثانية والثالثة، وزارة السياحة والاثار، ١٩٧١، ١٩٨٢.

٢٣ – يا قدس، مترجم عن الانكليزية (تأليف لاري كولينز ودومينيك لابيير)، دار فيلادلفيا، عمان، ١٩٧٣.

٢٤ – في ربوع الاردن : من مشاهدات الرحالة ١٨٧٥– ١٩٠٥، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٧٤.

٢٥ – رحلات في الاردن وفلسطين، دار ابن رشد، عمان، ١٩٨٤.

٢٦ – رحلات في الاردن وفلسطين، دائرة الثقافة والفنون، عمان، (المجموعة الثانية)، ١٩٨٧.

٢٧ – ذلك المجهول، قصص قصيرة، رابطة الكتاب الاردنيين، عمان، ١٩٨٢.

٢٨ – الزوجة المثالية (وقصص اخرى)، قصص قصيرة مترجمة، دار النسر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩١.

٢٩ – من تاريخنا الحديث (١) الثورة العربية – الاسباب والمبادئ والاهداف (٢) شرق الاردن : قبل تأسيس الامارة، منشورات لجنة تاريخ الاردن، عمان، ١٩٩٤.

٣٠ – مشاهد وذكريات : المؤسسة الصحفية الاردنية، عمان، ١٩٩٦.

٣١ – CAMEOS : Jordan : Arab Nationalism : Sharif Hussein : King Abdullah & T. E. Lawrence

وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٧.

حول هذا الكتاب

يصعب على الكاتب أن يفي الكتاب حقه... المؤلف توفر على البحث والتدقيق. والكتاب ملحمة يبدأ فيها بمقدمة. وأعتقد أنه ندر أن كتب أحد مثل هذا الكلام. وجدير بكل من يحب أن يتعمق في فهم الحكاية الماضية والحاضرة أن يقرأ هذه المقدمة ويعيد قراءتها ويقدّر معانيها... الكتاب يقدم خدمة للحقيقة وللعرب وللأردن... يعطي القائد والجندي الأردني حقه ويصف إقدامه وشجاعته... واذا كنا نحبُ أن نفيد من الكلام العلمي الصافي، فان من حق الكتاب أن يقدّر... وأن يكون كتاباً معتمداً في أحد الصفوف الجامعية للعلوم الانسانية.

حسني فريز
(الرأي – ١٥ نيسان ١٩٨٣)

هذا الكتاب نفيس جداً... كتاب رائد بكل معنى الكلمة... كلمة الحق الفاصلة في الحرب العربية – الاسرائيلية عام ١٩٤٨ بكل تفاصيلها... كم سنة أمضى المؤلف وهو يجمع الوثائق ويقرأ الوقائع في الملفات العربية والانكليزية والأميركية. حتى استطاع أن يكتب هذا الكتاب الضخم الشامل الوافي... أوفى مرجع للدارسين والباحثين بتفاصيله الدقيقة ووقائعه المتسلسلة المترابطة، التي يخيل للقارىء أن المؤلف رافقها يوماً فيوما، بل ساعة فساعة، بل خطوة فخطوة، حتى استطاع أن يلم بكل هذه التفاصيل المذهلة ... يقدم بالوقائع ما عمل الأردن وجيشه، وفي أية ظروف حارب الجيش الأردني وكيف صمد وحده في الميدان... هذه الحقائق الناصعة كان لا بّد أن يقولها انسان ذو ضمير. وقد قالها سليمان موسى للتاريخ، وقالها ليبرىء ذمته أمام الأجيال كمؤرخ، يتحمل مسؤولية المؤرخ أمام الأجيال.

عيسى الناعوري
(الشرق الأوسط – ٣ نيسان ١٩٨٣)

قرأت هذا الكتاب جملةً جملة، وكان شريط أحداثه يمرّ أمامي وكأنني هناك على أرض فلسطين. لقد قمت بجهودٍ مضنية في المقابلات والمراسلات، وحصلت على معلومات لم يسبقك اليها او يطلع عليها أحد، فجاء الكتاب سجلاً فريداً من نوعه على المستويين السياسي والعسكري، أوضحتْ الحقائق وأبانت كل غموض... كنت منطقياً ومنصفاً في شرح العمليات المختلفة على مستوى الأفراد والدوريات والحضائر والفئات، مبيناً البطولات الفردية والجماعية، النجاح والاخفاق وأسبابها. وذكرت عن الذين استشهدوا والذين جرحوا مع التفصيلات الدقيقة، فجاءت كلها سجلاً حافلاً وفريدا يعتزّ به أبناء الشهداء ويفاخر به الجرحى وأبناؤهم لعدة أجيال... أوضحت للقراء الأردنيين والعرب وغيرهم التآمرات على الوطن العربي وعلى فلسطين بالذات منذ مطلع الحرب العالمية الأولى... ليت هذا الكتاب يصل الى أيدي طلاب التاريخ، على الأقل في الجامعات والمدارس الأردنية.

عن رسالة بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٨٣

صالح الشرع



المؤلف والكتاب



ولد المؤلف في قرية الرفيد عام ١٩٢٠، وتلقى تعليمه في المدارس الأردنية، ثم حصل على دبلوم من بريطانيا. عمل معلماً ثم في شركة بترول العراق في المفرق. خدم ٢٧ عاماً في الحكومة: في الاذاعة، والمطبوعات والنشر، ووزارة الاعلام، ووزارة الثقافة. بعد التقاعد عمل أربع سنوات مستشاراً ثقافياً لأمين عمان الكبرى. حائز على وسام الاستقلال وجائزة الملك عبدالله في التاريخ وجائزة الدولة التقديرية.

يروي هذا الكتاب دور الأردن في حرب ١٩٤٨، ابتداء من قرار التقسيم وحتى عقد الهدنة. مع تفاصيل المباحثات السياسية ومعارك القتال التي خاضها الجيش العربي الأردني، حيث روى جنوده وضباطه أرض فلسطين بدمائهم الطاهرة، وخاصة في القدس وباب الواد واللطرون. وما أعقب ذلك من حوادث وأحداث.

صفحات من تاريخ الأردن الحديث.

يطلب الكتاب من مكتبة المحتسب - عمان

المطابع العسكرية